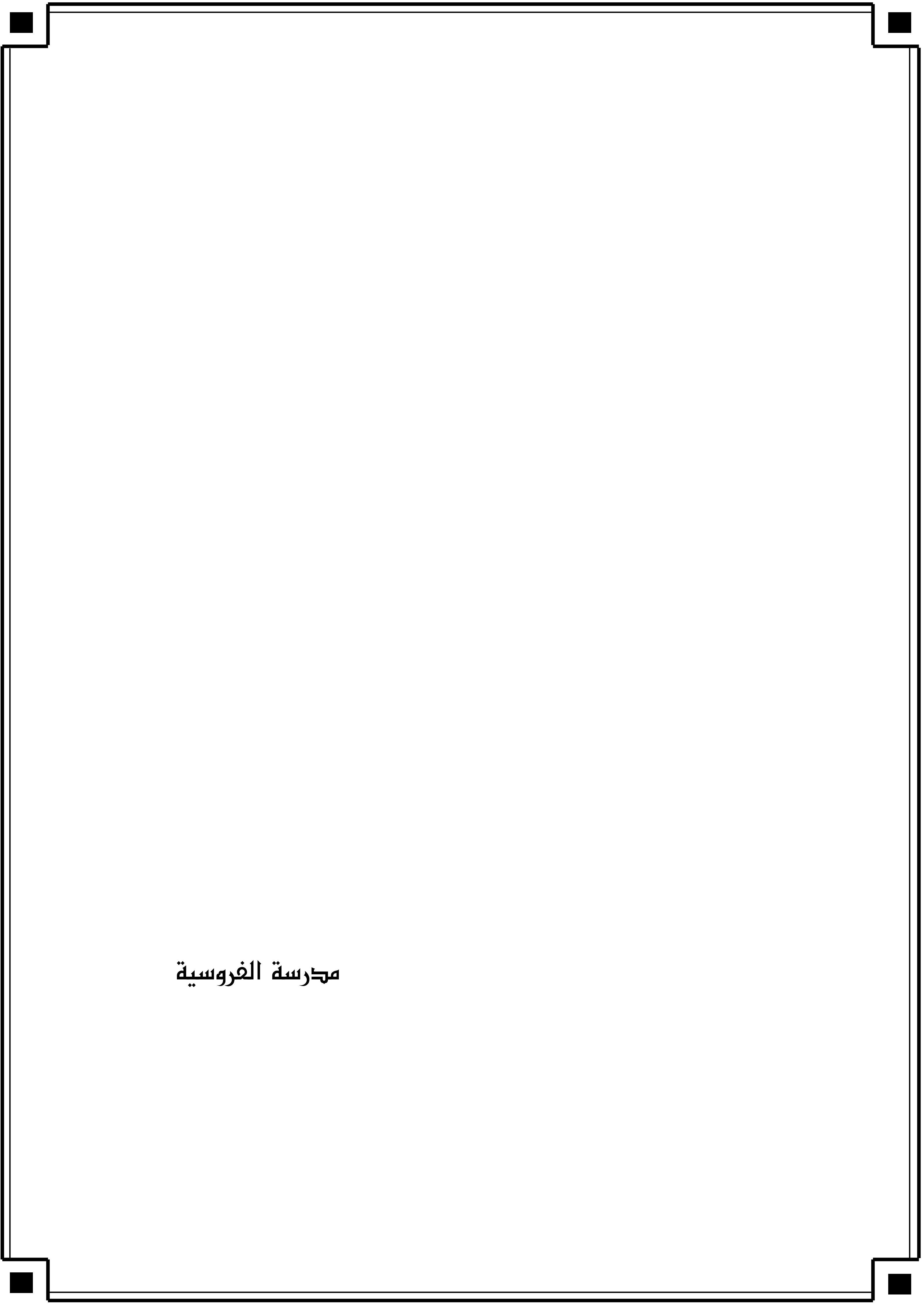

مدرسة الفروسية

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٩/٣١٣٥)

٨١٣,٩
الأصفر، زينب جلال
مدرسة الفروسية/ زينب جلال الأصفر_ عمان: المؤلفة، ٢٠١٣.
(٩٤٤) ص
ر.أ:٢٠١٣/٩/٣١٣٥.
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

للتواصل

البريد الالكتروني:
madrasset_alfurussiah@yahoo.com
فيس بوك/ تويتر: مدرسة الفروسية

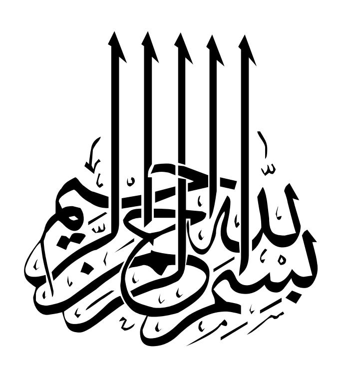


دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

مدرسة الفروسية

زينب جلال جودت الأصفر





والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الاهداء

إلى أمّتي.. أمّة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم..

* بفتيانها وفتياتها، الذين تزدهر في أعمارهم الأحلام..
* وشبابها وشاباتها، الذين نعوّل عليهم نهضتها..
* والاباء والأمهات، من في أحضانهم تنشأ البذرة الأولى..
* والمعلمين والمعلمات والمربين والمربيات، من على أيديهم تُصنع الاجيال وينشأ الأبطال..
* والعلماء والدعاة، من تقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة..
* والامراء والوزراء وذوي النفوذ، من بيدهم صنع القرار..

إلى اليابان التي أطلعتنا على ثقافتها من خلال مسلسلات وافلام (الانمي)، مستقطبة عددا كبيرا من ابناء امتنا، لعلنا نُطلع شعبها على مبادئنا الاسلامية السامية، وقيمنا العظيمة وثقافتنا العريقة، من خلال هذه المدرسة..

إلى العالم بأسره، بجميع أطيافه وفئاته، انطلاقا من الرسالة الخالدة:

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)..

اليكم جميعا أهدي..

(مدرسة الفروسية)

كلمة لا بد منها

أحمد الله وأشكره واثني عليه الخير كله، فلولا توفيقه وفضله ومنه، لما كان لهذا العمل أن يرى النور..

ثم الشكر لوالديّ واخوتي وكل من ساهم في بلورة افكار هذه الرواية، وشارك في انجازها بفكرة او كلمة او نصيحة او نقد او تشجيع ودعاء، من اقاربي وجيراني ومعلماتي وصديقاتي واساتذتي وطالباتي ومعارفي، على مدار ستة عشر عاما، بداية ممن شهد ولادة الفكرة الاولى فساعد في بلورتها، ورسم خطة العمل لها، ومن اتبع قراءتها بملاحظاته القيمة الناقدة والداعمة، فأتحفها برسمات مبدئية، أو ملاحظات قيمة عدّلت في مسارها، أو امسك زمام المبادرة في طباعتها، إلى من وجهني وارشدني، وافادني بخصوص النشر والاعلان، وساعدني في ذلك..

الشكر لكل من بث روح الحماسة في نفسي، بعد أن كادت تميل الى الركود، من طول العهد..

الشكر لكل من شعر بمعاناتي لانجاز هذا العمل، فساندني بالدعاء والتشجيع وإحياء الأمل..

الشكر لكل طفل وطفلة رفعوا ايديهم داعين لي: "يارب يوفقك.. آمين.."

الشكر لكل من كان سببا في اثراء افكار الرواية، من الدعاة والمفكرين والعلماء والأدباء، وحتى المنتديات ومراكز الدبلجة العربية، التي حرصت على مراعاة القيم والمباديء العربية الاسلامية اثناء دبلجتها لأفلام الكارتون ومسلسلات الانمي، فأتاحت لنا فرصة الاطلاع عليها، والاستفادة منها دون حرج يُذكر، وإن لم تصل حد الكمال في ذلك، فجاءت هذه الرواية بشكل كبير، متأثرة بما تم عرضه..

الشكر لكل من يستحق الشكر، إذ ما كان لهذا العمل أن يُنجز لولا دعمهم وتعاونهم ودعاؤهم، ولولا أن القائمة تطول بذكرهم، وخوفي من التقصير بحق احدهم لذكرتهم فردا فردا، ولكن حسبي ان الله يعلمهم، فجزاهم الله عني خير الجزاء..

وأختم ذلك بالشكر لخالتي الفاضلة الاستاذة (احسان عطية)، التي جعل الله عن طريقها اللقاء بالاستاذ الدكتور (عبد الرحمن عباد)، الذي تفضل مشكورا بمراجعة الرواية لغة ونقدا، مع التقديم لها، رغم انشغاله الشديد، فالحمد لله الذي شرفني بالاجتماع معه في المسجد الأقصى المبارك بعد صلاة عصر الجمعة، السادس عشر من شهر شوال لعام ١٤٣٤هـ الموافق ٢٣ آب ٢٠١٣م..

واخيرا.. أشكر كل قارئ دعا لنا بالخير، ولم يتأخر علينا بالنصح والارشاد..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ويتقبله منا بقبول حسن..

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

زينب جلال الأصفر

جـدة -الجمعة ٧ ذو القعدة ١٤٣٤هـ

١٣ -٩ -٢٠١٣ م

المقدمة

بقلم

الاستاذ الدكتور عبد الرحمن عباد

حين دفعت اليّ الأستاذة (زينب) أولى فصول هذا العمل الأدبي بتوصية من احدى الأخوات، ظننت أن الرواية ستكون سردا لسيرة الكاتبة الذاتية التي طالما عُرفت عن الأعمال الكتابية الأولى للأدباء المهتمين بهذا اللون من الأدب، لكنني فوجئت بأن هذا العمل الأدبي لا صلة له من قريب أو بعيد بحياة الكاتبة الخاصة، ولكنه ليس بعيدا عن افكارها ومبادئها العامة، أعني بها (هموم أمتها) بما تلاقيه من عَنَتٍ وابتعاد عن القيم الدينية السامية التي جاء بها الدين الاسلامي الحنيف، لكن هذه القيم لا ترد الا من خلال الشخصيات المتعددة التي تتوارد عبر أزمنة الرواية المتراكمة والمتراكبة معاً، حيث تغيب الأزمنة، وكأنها أوقات مدوّرة تعيش كلها في الماضي، وتؤشر أحياناً الى المستقبل.

والشخصيات مَثَلُها مَثَلُ الأزمنة أيضا، فهي متعددة، بين الرجال والنساء والشبان والأطفال ولكلٍّ دوره الذي يقوم به، في مكان محدد، وزمان محدد، وقد لا تعود هذه الشخصية للظهور بعد ذلك، فهي تؤدي دوراً، يحمل معنى ومغزى، لتحلَّ مكانها شخصية أخرى، تقوم بتكميل الدور، او تتحمل عبئاً جديداً.

أما الشخصيات المركزية، فانها دائمة الحضور، ولكن على فترات متباعدة، وبخاصة تلك التي تقود (مدرسة الفروسية) من معلمين ومدربين وطلاب؛ ويعود السبب الى ان الكاتبة قد اتخذت هذا الاسم (مدرسة الفروسية) عنوانا رئيسا لروايتها العملاقة، التي زادت صفحاتها عن الثمانمئة صفحة، وهو عمل شاق يحتاج

الى مراجعات مستمرة؛ حتى تحافظ الرواية على تسلسل احداثها عندما تنقطع في فصل من الفصول، لتبعث من جديد بعد حين من الدهر، يقلُّ أو يكثر.

وما يميز هذا العمل أنه يأتي من شابة ما تزال في ريعان الشباب، ولكنها على صلة بالآداب العالمية الآسيوية، وبخاصة تلك التي تأتي من اليابان؛ هذا البلد العملاق الذي تخطّى بهمة مواطنيه حواجزَ الزمن، واستطاع جَسْرَ الهوّة الحضارية بينه وبين الغرب في مدة لم تتجاوز ربع القرن، في الوقت الذي احتاج الغرب كي يصل اليها مدة زادت عن اربعة قرون، هذا في مجال التّصنيع، التقني وملحقاته؛ اما في مجال الادب، فهناك ما يُسمى بـ (الانمي الياباني) الذي هو نوع مُستحدث من الادب الجاذب لفئة من الشبان والمراهقين، الذين يريدون تخطّي الاعمال الادبية التقليدية، الى عمل جديد يتناسب ومتطلبات العصر الا ان هذه الرواية لا تحاول تنكُّب خطوات (الانيمي الياباني) وإن كان التلاقح امراً مقبولاً بين الآداب والفنون والصناعات، فالثقافة عمل انساني عام، والأُمم تأخذ عن بعضها بعضاً، لتُضيف كيفاً الى تراثها، فليس هناك ثقافة عالمية، الاّ وأخذت عن غيرها من الثقافات، إلا ان (مدرسة الفروسية) تظلُّ عملاً ادبياً عربياً موسوماً بخاتم الاهداف البعيدة التي يتطلع اليها الانسان العربي والمسلم ساعياً الى تحقيقها، بالفكر المستنير والعزيمة الثابتة والعمل المستمر، رغم تلك (الرموز) البعيدة الفور التي حاولت الكاتبةُ ان تغلِّف بها جسمَ الرواية، ولكن القارئ الذكي يستطيع ان يكتشف تلك الرموز، ويفك عنها اقنعتها الرمزية ليفهم ماذا تقصد الكاتبة عندما تتحدث عن (المروج الخضراء) فما هي الا تلك الارض المسلوبة، التي تعني لي كانسان مسلم عربي فلسطيني انها فلسطين، وما الاشارات الرقمية العابرة عن الارقام (٤٨) و(٦٧) الا الماحات واضحة عن نكبتي الامة في هذين التاريخين؛ لهذا يمكن تفكيك بقية الرموز، والدخول الى عالم الرواية، الذي يبدأ في نهايات فصوله بالتحوّل الى عالم واقعي مُعاش، يتحدث عن هموم هذا المواطن الممتد وجوده على القارات جميعها، وبخاصة في آسيا وافريقيا، حيث جلّ الدول العربية والاسلامية، إذْ تتحول الرواية الى عمل أَدبي ناقد للاوضاع المأساوية التي تعيشها شعوب هذه البلدان، حيث تعيش طبقة الحاكمين في واد، بينما تعيش الشعوب المغلوبة على أمرها في واد

آخر، إذْ تجد الحاكمين مترفين مرفهين، بينما تجوع شعوبهم، وتموت من الامراض الفتاكة نتيجة الجهل المفروض على هذه الشعوب؛ ذلك لان البقاء في سدّة الحكم مدة أطول يستدعي افقار الشعوب وتجهيلها وترك الأمراض تفتك بها، هذا اضافة الى ما تركبُ هذه الدول من ديون هائلة لما يمكن أن نسميه بوضوح (الدول الاستعمارية) حيث تفرض هذه الدول شروطها المهينة لتصبح البلدان الواقعة تحت طائلة هذه الديون مفرّغة من الحقوق والسيادة والحرية، وان عاش الحكام في هذا الترف الزائف الطافي على القشرة.. لهذا نجد الرواية تقاوم من خلال الجيل الجديد الذي يتربى في أحضان العقيدة الاسلامية السمحة هذا الانحراف الذي يريده الحاكمون من خلال تأسيس منظومة قيمية واضحة ترتكز على المباديء الاسلامية السمحة، التي تكرِّم الانسانَ ابتداءً.

والرواية زاخرة بالمواقف النبيلة التي تميز هذا العمل الادبي الضخم، مستندة الى تراثنا الاسلامي الرائع الذي يعدُّ النموذج الأَسمى والأسنى عالمياً وانسانياً في هذا المجال، هذا بالاضافة الى تناثر الحكم المأثورة التي تردُ في سياق عفوي مقصود على أَلسنة الشخصيات المركزية، التي تجمعها هموم واحدة مركزية، وهي سعيها الدؤوب من أجل استنهاض الأمة للخروج من كبوتها التي ما كانت لتحدث لولا هذه الانقسامات التي جزأت الأمة الى دويلات صغيرة، فقسّمت المقسَّم ثم جزأت المجزّأ.

ويطول بنا الحديث اذا استعرضنا بعض الأفكار الجزئية المبثوثة في هذه الرواية، نحوالاهتمام بعالم الطفولة ومايحتاجه من عناية جالبة للفرح، كأيام الاعياد الاسلامية التي ينبغي أن يكون مع (العيدية) المتمثلة في الملابس والمأكولات بطاقة معايدة صغيرة، فيها فكرة حكيمة، أو توجيه قيمي يساعد الاطفال في انماء شخصياتهم.

وهناك التفات الى علماء السلاطين الذين يسخرون الدين لخدمة مصالحهم، او مصالح حكامهم، فيحوّلون الدين الى (موظّف) خادم للحكام، بدلاً من أن يكون حاكماً عليهم.

أما عن أسماء الشخصيات، وبخاصة النسائية منها، فجلّها، إن لم يكن كلها من الأسماء التراثية المعروفة لدينا، نحو جويرية، وحفصة، وميمونة، وآمنة، وانتصار، وهكذا وما يقال عن اسماء النساء يقال عن أسماء الرجال.

وبعد، فهذا العمل الأدبي يحتاج الى طول أناة في قراءته، حتى نصل الى تقرّيه، ولكن الفصل الاخير يعيد انتاج الرواية من جديد، مذكراً بفصولها كافة عن طريق الاسترجاع او مايسمى باللغة الانجليزية flashback، حيث يمكن لقارئها ان يسترجع الحوادث بسرعة، وهو عمل غير معهود في الرواية التقليدية؛ الا انني لا استطيع أن أُلحق هذا العمل الأدبي بالرواية، وان كانت قد استكملت شروطها الشكلية من حيث الطول وعدد الكلمات، وهو مابدأ يرفضه بعض الكتاب المحدثين، الذين لا يجيزون وضع قيود على اعمال ادبية كهذه- إن كانت تستطيع ان تؤدي رسالتها بعيدا عن تلك القيود.

انني واثق من ان هذا العمل الأدبي الأول للاستاذة (زينب الاصفر) لن يكون الاخير، فان كاتبة بمثل هذا الحضور الذهني الخصب، لن تتوقف عند حدود العمل الاول، وارجو ان نرى لها مستقبلاً اعمالاً جديدة تتناسب وروح العصر بما فيه من قيم انسانية رفيعة، سما بها الاسلام عبر حضوره العريق على امتداد القرون.

أ.د عبد الرحمن عباد

القدس الشريف ١٨ شوال١٤٣٤هـ

وفق ٢٥ آب ٢٠١٣

مدخل

في حقبة زمنية ما، وأمكنة ما، دارت هذه الأحداث، حيث أن الحقائق هي هي، والنتائج ما زالت ولم تزل تنتج عن مسبباتها، وإن اختلفت الأسماء والمسميات وتنوعت الشخصيات،

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾

الدهر كالدهر والأيام واحدة   والناس كالناس والدنيا لمن غلبا

ومن قلب الفروسية..

تأتي ريـــاح النصـــر

الفصل التمهيدي

الحلم

بعد ثمانية وأربعين عاما من مقتل الخليفة عبد السلام أوروج، وتفكك الخلافة إلى سبع وستين منطقة اسلامية مستقلة، بدأت مملكة رامان تعلن مد أطماعها نحو أكثر تلك المناطق أهمية، والتي كانت تُدار من قِبَل الخليفة مباشرة، لخصوبة أراضيها ووفرة مياهها، والأهم من ذلك؛ لموقعها المميز الهام والذي يعد البوابة الرئيسة لسائر المناطق الأخرى..

وهكذا.. اندلعت الحرب في (منطقة المروج الخضراء)، بعد أن رفض أحرارها الخضوع لذلك العدوان الظالم..

وفي غابة كبيرة على مشارف مدينة (شمس)- إحدى مدن منطقة المروج الخضراء البارزة- أخذت سيدة شابة ملتحفة بغطاء ساتر من رأسها لأسفل قدميها، تحث الخطا بسرعة باتجاه المدينة، وهي تحاول التواري عن الانظار قدر استطاعتها، عندما اعترض طريقها رجل بدا في اواخر العقد الرابع من عمره، فارتبكت قليلا إذ لا يوجد من تطلب منه النجدة هنا إن ما أراد بها هذا الرجل سوءا، لكنها سرعان ما حافظت على رباطة جأشها وهي تذكر هدفها الذي خرجت من أجله، فسألته بجرأة:

- ماذا تريد؟

لكن الرجل الذي حملق فيها بوقاحة شديدة؛ اقترب منها باسما:

- هل نسيتني بهذه السرعة يا أسماء؟؟ إنني ما زلت أحبك، وجئت لأقدم لك عرضا أثبت فيه وفائي بعد مـ...

فقاطعته أسماء، وهي تتراجع للخلف، وقد احمر وجهها غضبا:

- كيف تجرؤ على قول هذا، ألا يوجد لديك حياء!! إنني سيدة محترمة وأمٌ لثلاثة أطفال، فما الذي تريده مني بعد هذا كله!!!

فعلق عليها الرجل متعمدا اثارة مشاعر الضعف في انوثتها:

- تقصدين طفلين فقط.. فقد قُتلت ابنتك.. انني أعرف كل شيء عنك وأتابع أخبارك منذ ذلك الحين..

إلا أن اسماء بدت أكثر تماسكا رغم ما أثار في نفسها ذلك الكلام القاسي من ألم، إذ لم يمض على مقتل ابنتها الصغيرة ذات الأعوام الثمانية اكثر من شهر! فتابع الرجل كلامه - وهو ينفث في عود كيومار لم يفارق شفتيه- متنهدا:

- للأسف لم تفلح تلك السنوات كلها في اطفاء النار المشتعلة في داخلي..

وتابع بانفعال:

- لماذا رفضتني يا أسماء وقد كنت سأضمن لك الحياة الرغيدة الكريمة الهانئة؟!!

انتفض جسد أسماء بشدة لسماع ذلك، وعادت بها ذاكرتها لأكثر من ثلاثة عشر عاما للوراء، عندما كانت في اوائل العشرين من عمرها، ولم يزل الشباب يتنافسون لخطبتها، لما اشتهر عنها من حسن خلق وجمال و نسب كريم، لا سيما وانها ابنة التاجر المعروف (عبد القادر ابراهيم)، الذي يتمنى الجميع مصاهرته، إلا انها لم تجد في اي واحد منهم من يشاركها "الحلم" الذي لم يزل يراودها، وهي ترى ما آلت إليه أحوال الأمة من تفكك وهوان، حتى جاء ذلك اليوم الذي طرق (داغر) بابهم خاطبا مستعينا بشفاعة عمتها وتزكيته لها، لعلها تنجح في اقناعها.. يومها أخذت تبكي بحرقة، بعد الحاح عمتها الشديد، وهي تحاول الرد عليها بصوت متهدج:

- كلا لا استطيع العيش معه ولن أرضى به أبا لأطفالي، إنه ليس صاحب الخلق و الدين الذي يفكر بإعادة مجد أمتنا الضائع، ولا اظنه يهتم بذلك أصلا..

فقاطعتها عمتها بلهجة من يهمه مصلحتها:

- اسمعيني يا ابنتي.. لا تكوني واهمة و عودي الى واقعك، وكفاك تغنيا بأحلام واهمة، فلا يوجد بين الشباب كلهم من يوازي داغر مكانة، و جميع الفتيات يتمنين الزواج منه! انها فرصة لا تعوّض فلا تركليها بعنادك!

فقالت اسماء بتوسل:

- أرجوك يا عمتي لا تتعبي نفسك معي أكثر، فانني أقدر موقفك هذا واهتمامك بي وبمصلحتي، ولكنني افضل الموت الف مرة على أن أعيش مع رجل لا هدف له ولا غاية سوى التفاخر بمنصبه وماله وجاهه، في حين أن منطقته ترزخ تحت رحمة رامان، ولا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث، إن تخاذلنا أكثر..

مرت تلك اللحظات بذاكرة أسماء كومضة برق، فيما كان داغر لا يزال يصر على سؤاله:

- لقد رفضتني ورفضتِ المال والمنصب والجاه، بل وحبي الكبير لك من أجل ذلك المتهور؛ الذي قادنا إلى الدمار وقد كان بامكاننا العيش في بلادنا بأمن وسلام! وهاهو قد أصبح مطاردا لا يأمن على نفسه ولا يضمن لها النجاة عوضا عن أن يضمنها لبلادنا! .. اريد ان اعرف.. لماذا فضلتِ صعلوكا مثله علي؟؟؟

لم تستطع أسماء السكوت أكثر فردت عليه بحدة:

- عليك أن تلزم حدودك عندما تتكلم عن قائد عظيم مثل نور الدين، وإياك أن تحلم بمقارنة نفسك به، فهو رجل حقيقي، وليس من الجبناء أمثالك..

فأطلق داغر ضحكة- اشمأزت لها نفس أسماء- وقال:

- لكم تعجبني منك هذه الصراحة.. انني مستعد لفعل أي شيء من أجلك، فلن تعود المدينة آمنة بعد اليوم، سأصطحبك معي ولن أمانع باصطحاب طفليك ايضا لـ..

لم تستطع أسماء احتمال سماع المزيد من كلامه فقاطعته بغضب:

- ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه، ألا يوجد لديك مروءة!!

فأسرع يجيبها:

- انني أحبك يا أسماء، ولم أعد احتمل البعد عنك أكثر..

كادت أسماء أن تصاب بالغثيان، لكنها ردت عليه بثقة الواثقة:

- أفي مثل هذه الظروف تقول مثل هذا الكلام!! أي حب هذا الذي تتحدث عنه، والرجال الأحرار يموتون دفاعا عن كرامتنا، ألا تخجل من نفسك؟؟ لقد كنت أخشى أن يتعرض لي رجل من جنود رامان، أما أن يكون ذلك الرجل هو أنت، فهذا عار عليك.. بل ان أمثالك عار على مدينتنا..

فأجابها بلا مبالاة واضحة:

- فلتقولي ما تشائين، فلوعة الحب لا يحكمها هذا المنطق، و لن يمنعك مني أحد الآن..

ولأول مرة شعرت أسماء بالخوف الشديد، فتلفتت حولها لعلها تجد طريقة تخرج بها من تلك الورطة، بعد أن لم تعد تأمن على نفسها منه، ثم خطرت ببالها فكرة فقالت:

- لو كنت تحبني حقا لتركتني وشأني، ولم تُثِر حولي الشبهات بكلامك هذا معي..

عندها بدا على داغر أنه تفهم موقفها قليلا، فقال لها بلطف:

- لا تقلقي فالمكان آمن...

فانفجرت أسماء غيظا وغضبا، كالذي استفد آخر ما تبقى في جعبته من صبر، إذ عرفت ما يقصده بقوله:

- ما الذي تظنه بي أيها الوقح!! هذه إهانة لا أقبلها أبدا!!

وبسرعة اتخذت موقع الدفاع عن النفس، وهي تقول بقوة:

- فلتعلم أن زوجة نور الدين تستطيع تدبر أمرها، فالله معها...

فأطلق داغر ضحكة مجلجلة قبل أن يقول:

- يبدو أنك لا تفهمين.. فلو كنتُ سأتسبب بإيذائك لفعلت ذلك من قبل، فأنا أعرف كل شيء، وأعرف أنك عائدة للتو من المخبأ الذي يلتجيء اليه نور الدين ورجاله...

أُسقط في يد أسماء وقد تملكها قلق شديد على زوجها القائد نور الدين، فتمالكت نفسها بصعوبة لعلها تعرف أبعاد ما يرمي إليه داغر، فيما تابع هو كلامه وقد سره اهتمامها بما سمعته:

- كان عليك أن تكوني مدينة لي، من أجل مستقبل أطفالك على الأقل، فكما أخبرتك من قبل؛ المكان لن يعود آمنا هنا، ولن يطول الأمر كثيرا مع اولئك الرجال، ولكن اطمئني فسأكون عونا لك ولأطفالك و نـ.....

لم تستطع أسماء احتمال سماع المزيد، أو اخفاء مقتها الشديد له في تلك اللحظة، وقد بلغ السيل الزبى، فصرخت به وهي تتخذ من جديد موقفا متحفزا للقتال، دفاعا عن نفسها إن لزم الأمر:

- ايها الخائن.. وتسألني لماذا رفضتك!!! أكنت تظن بأنه يمكنني- بعد هذا كله- احتمال العيش لحظة واحدة مع خائن مثلك أيها الجبان!!! انك وأمثالك لأخطر علينا من رامان بأسرها، فبأفعالكم تجرأت علينا..

عندها تيقن داغر بأنه لا سبيل إليها، فكشر عن أنيابه مزمجرا بغيظ:

- دعي نور الدين ينفعك إذن..

واندفع نحوها بشكل مخيف، فيما قفزت أسماء للخلف بذعر- رغم استعدادها المسبق لأي حركة تبدر منه- فالتوت قدمها، وبسقوطها المفاجيء الذي كتمت معه صرخة ألم شديدة- خشية أن تلفت نظر جنود رامان إليها- توارد الى ذهنها مائة خاطر وخاطر، حول ما يمكن لداغر أن يفعله بها، إذ لم يكن لديها أدنى فكرة عن نواياه، فلم تجد سوى تفويض امرها لله، ملتجئة اليه، وصورة نور الدين لا تفارق ذهنها..

لقد مر على زواجهما ثلاثة عشر سنة، وما زالت ترى فيه الرجل المخلص والصديق الوفي والزوج المحب، الذي يشاركها الحلم نفسه، لم تكن تعلم قبلها انه يكن لها فيضا من المشاعر حتى ارتبطت به، لقد كان هبة الله إليها، وسفينة النجاة التي انقذتها من الغرق في بحر داغر الملحاح وأمثاله، بعد أن اشتد بها الكرب خشية أن يرضخ والداها لتلك الضغوط فيرغمونها عليه، يومها تقدم نور الدين طالبا يدها.. ذلك الشاب الذي كان يبحث عمن يشاركه حلمه الكبير ويعينه عليه، فأحبها بالسماع عنها قبل أن يراها، وعندما رآها ازداد لها حبا، وما زالت كلماته ترن في أذنيها يوم أن وُقّع عقد الزواج بينهما " لقد سمعت عنك فأحببتك، وعندما رأيتك ازددت لك حبا، وكأن الله قد قذف به إلى قلبي قذفا، فدعوت الله أن يجعلك أمّا لأطفالي، لنحقق حلمنا العظيم بانشاء جيل صالح يعيد المجد لأمتنا، فاجعلي التقوى وثاق قلوبنا، فـ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وها هي لا تزال تحفظ كلماته عن ظهر قلب، رغم تلك السنوات.."التقوى هي ميثاق الحب بيننا، فهي ميزان الحب وحاضنته"، وهكذا كتب الله لحلمها بالاستمرار ليكبر معها يوما بعد يوم، الحلم الذي لم تتنازل عنه حتى هذه اللحظة، والذي لخصته بجملة واحدة، أجابت بها على كل من سألها عن سبب تفضيلها لنور الدين على غيره من الخاطبين: " لأنني أريد أن أنجب قائدا صالحا بإذن الله، مثل الصحابي الجليل (العلاء بن الحضرمي) رضي الله عنه "، كان حلمها منصبا على اعداد جيل صالح يعيد المجد لأمته، أما أن تشارك بشكل مباشر في مواجهة رامان فهذا فوق احلامها، فمنذ أن علمت بقيادة نور الدين لفرقة من الرجال الأحرار لمواجهة

العدوان، وهي تقوم بمهام ايصال الطعام والأخبار، وكم كانت سعادتها كبيرة بذلك متيمنة بذات النطاقين، السيدة اسماء ابنة ابي بكر الصديق رضي الله عنهما..

مر كل ذلك سريعا في ذهن اسماء لحظة سقوطها على الأرض، فدمعت عيناها.. يارب احفظني بحفظك فلا تمسني يده بسوء...

وقبل أن يقترب منها داغر، قفز شاب - في مطلع العقد الثالث من عمره- نحوه ليفاجئه بضربة عرقلته وكادت أن تشل حركته في لمح البصر، فسقط أرضا متأوها بألم شديد وعيناه تتقدان شررا، لكن الشاب مفتول العضلات، و الذي بدى متأهبا كأسد جسور ليزلزل الأرض من تحت قدميه، حدجه بنظرات جمدت الدم في عروقه، ففر هاربا كفأر مذعور..

عندها التفت الشاب إلى أسماء ليطمئن عليها فوجدها قد استطاعت النهوض من سقطتها رغم الألم، فأرخى عينيه موجها حديثه إليها بأدب، رغم ثقته من جواب سؤاله:

- أنت زوجة القائد نور الدين منصور، أليس كذلك؟

صمتت أسماء بحيرة شديدة إذ لم تكن واثقة تماما من هوية هذا الشاب، وما إن كان من الحكمة الرد عليه، ولم يخف على الشاب ما يدور بخلدها فأسرع يبريء نفسه من أي ظنون قد تراودها بشأنه:

- انني اقدر موقفك وأتفهمه تماما، فما أحوجنا لأخذ الحيطة والحذر خاصة في هذه الأيام، ولكن ثقي بي أرجوك، فأنا قادم للالتحاق برجال نور الدين..

وتنهد بضيق:

- صدقيني هذه هي الحقيقة رغم انني لا أملك أي دليل لاثباتها..

وقبل أن تحزم أسماء أمرها باتخاذ أي قرار بشأنه، فاجأها نور الدين بظهوره على حين غرة، ليقف في مواجهة الشاب قائلا:

- ما الذي تريده؟

وما إن وقعت عينا الشاب على نور الدين، حتى تهلل وجهه مستبشرا، فقال بابتسامة ذات معنى:

- ألا تذكرني يا معلمي؟؟

و رفع كم قميصه كاشفا عن ذراعه، وهو يشير إلى جرح غائر فيها:

- ألا تذكر هذه!! انني صالح شريف..

عندها انفرجت أسارير نور الدين، وكللت وجهه المنير ابتسامة مشرقة:

- ما هذه المفاجأة يا أخي! الحمد لله الذي كتب لنا اللقاء مجددا..

لكنه استدرك بطبيعته الحذرة:

- ستحدثني بكل شيء لاحقا..

ثم التفت نحو أسماء التي ارتبكت قليلا من نظراته، خشية أن يكون قد استمع لكلام ذلك الرجل معها قبل ظهور صالح، فأرخت عينيها حرجا، وأدرك نور الدين ما جال بفكرها؛ فابتسم مطمئنا:

- الحمد لله على سلامتك يا عزيزتي، كيف هي قدمك الآن!!

فأجابته أسماء وهي تحاول تحريك قدمها:

- ان شاء الله ستكون بخير..

وتابعت بتردد:

- منذ متى وأنت هنا يا نور الدين؟

فابتسم نور الدين:

- وهل كنت تظنين أنه بإمكاني تركك تعودين وحدك في مثل هذا الوقت!!

فحاولت أسماء مداراة حرجها، وهي تسأله مصطنعة الغضب:

- كنت تخدعني اذن وأنت تظهر اعتمادك علي وثقتك بي، فهل تستخف بقدرتي إلى هذا الحد!!

عندها سعل صالح بطريقة مهذبة، مشيرا إلى وجوده، في محاولة لانهاء شجار زوجي مرتقب قبل أن يبدأ، وانقاذا لنور الدين من مأزق مؤكد، فالتفت إليه نور الدين باسما:

- هذا مشهد طبيعي..

لكنه بتر عبارته، بعد أن التقطت اذناه الخبيرتان صوتا ما، ولم يكن هناك وقت للشرح فحمل أسماء بين ذراعيه، ليقفز بها مختبئا بين الأشجار بمهارة أذهلت أسماء نفسها، في حين اتخذ صالح موقع حماية ظهريهما إن لزم الأمر، بخبرة المتمرس على مواجهة الأزمات، فما أن وصل جنود رامان المكان حتى كان ثلاثتهم قد تبخروا كقطرة ماء!!..

***

تناول نور الدين بضع لقيمات على عجل في منزله، وانهمك في ترتيب حقيبة أعدها لسفر طويل عندما دخلت عليه اسماء بقلق:

- ما هو الموضوع الهام الذي ستحدثني عنه يا نور الدين؟

فترك نور الدين حقيبته ووقف أمامها يتأملها بنظرات حب قبل أن يقول:

- تذكرين حلمنا يا أسماء..

فأومأت برأسها ايجابا وعيناها تترقرقان بالدموع، دون أن تقوى على النطق، بعد أن استشعرت في صوته نبرة مودع، وقد عاد بهما الزمان إلى أول لقاء جمعهما بعد الخطوبة، عندما باغتته أسماء بأولى أسئلتها المفاجئة:

- هل توافق على أن تُكنى بأبي العلاء؟

فنظر اليها بدهشة لذلك السؤال المباغت الذي جاء دون مقدمات، فأسرعت توضح غايتها وقد احمرت وجنتاها خجلا:

- منذ أن قرأت سيرة الصحابي الجليل، القائد الولي الصالح (العلاء بن الحضرمي)، وأنا أحلم بإنجاب قائد مثله، يعيد المجد لأمتنا، لذا وددت لو أسمي ابني الأول إن رزقني الله به، علاء تيمنا باسمه، ولعل الله أن يعلي به راية الحق..

عندها ابتسم نور الدين بانشراح صدر، قائلا:

- لقد راودني الشعور نفسه بعد اطلاعي على سيرته أيضا رضي الله عنه، وأسأل الله أن يرزقنا هذا الابن الصالح، وسنختار له اسم علاء إن شاء الله..

فتهلل وجه أسماء بشراً وكادت أن تقفز من شدة الفرح، لولا حرج الموقف، فقالت بحياء:

- اتفقنا، جزاك الله خيرا..

تنهد نور الدين، وقد مرت تلك الذكرى العطرة في مخيلته كطيف عابر، قبل أن يتابع:

- لقد مر على زواجنا ثلاثة عشر عاما، ما فتئنا نذكر فيه هذا الحلم، ونخطط له، وقد أكرمنا الله بعلاء واخوته..

وصمت قليلا وقد استعبر:

- نسأل الله أن يأجرنا في مصيبتنا بابنتنا هناء، و يبارك لنا بأخويها علاء وبهاء..

ثم قال ممهدا لموضوعه الهام:

- أسماء.. أنت تعلمين مكانتك العظيمة في قلبي، وتدركين تماما مقدار ما أكنه لك من حب، تعاهدنا معا أن نحفظه بتقوى الله في السر والعلن...

وصمت قليلا، فيما غاص قلب أسماء في أعماق صدرها وكاد أن يتوقف عن النبض تحسبا لما يمكن أن يفاجئها به زوجها الحبيب، فمرت لحظات الصمت عليها كدهر طويل أتى على ما تبقى من صلابتها، قبل أن يتكلم نور الدين أخيرا:

- أريدك أن ترحلي مع ولدينا علاء وبهاء، فستهاجر مجموعة جديدة من مدينتنا اليوم، فقد قابلت جارنا السيد مروان قبل أن آتي، وأخبرني بأنه على استعداد ليكون هو وأسرته رفيقكم في السفر..

صعقت أسماء بذلك الخبر الصادم، ولم تعد قدماها تقويان على حملها، إلا أنها تجلدت أمام زوجها قدر استطاعتها، وهي تقول له:

- لقد عاهدتك على الوقوف إلى جانبك دائما يا نور الدين، ولا يمكنني الابتعاد عنك في هذه الظروف، سنعمل معا..

لكنه قاطعها بلطف:

- أرجوك يا أسماء، خذي أطفالنا وارحلي..

وتابع بلهجة كشف فيها عن ضعفه لأول مرة:

- انني بشر يا عزيزتي، و لي قلب أخاف أن ينشغل عليكم وأنتم هنا.. لذا أرجو أن تفهميني فأمامي مسؤولية كبيرة ولن أعود إلى هذا المنزل بعد اليوم..

عندها لم تجد أسماء ما ترد به عليه، وقد تذكرت ما واجهها في الغابة مع داغر، عِوَضا عما سمعته من تعرض جنود رامان للنساء، فحبست أنفاسها خشية أن تنهار أمامه بالبكاء وهي تسمع كلمات الفراق الذي بات محتوما عليهما، فأومأت برأسها علامة الموافقة دون أن تنطق بكلمة..

فابتسم نور الدين:

- انني أثق بك يا أسماء، واعتمد عليك.. وسيكون علاء معك رجلا يعتمد عليه ان شاء الله..

عندها انهمرت الدموع غزيرة على وجه أسماء، وارتمت على صدره تجهش بصوت مخنوق، فضمها إليه بحب كبير، مشجعا لها بقوله:

- أنت زوجتي الحبيبة ، أسماء الصامدة الصابرة، فاثبتي يا عزيزتي وكوني كما عرفتك دائما.. فحلمنا الكبير جدير بالتضحية، و مهما حدث فالعهد بيننا باق إن شاء الله، ومن يتق الله يجعل له مخرجا..

***

الفصل الأول

الرحيل

كانت الأمطار غزيرة ودوي الرعد يصم الآذان؛ عندما وصل فتى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره مدرسة (النصر للفروسية)، حافي القدمين ممزق الثياب، إلا أن بريق الأمل يشع من عينيه البريئتين، لم يجد اليأس طريقا إلى قلبه رغم ما أصابه، شديد الثقة بالله قوي العزيمة مصمما على تحقيق هدفه النبيل الذي يرنو إليه رغم صغر سنه وقلة خبرته في هذه الحياة، قال لنفسه- وهو يحدق في البناء الضخم أمامه:

- ها أنا أخيرا أمام المدرسة وسأحقق أحلامي بإذن الله..

جمع قواه وخطا خطوتين إلى الأمام طارقا الباب الذي فُتح بعد لحظات معدودة، حسبها سنوات طويلة من الانتظار..

حدق رجل بدا في العقد الخامس من عمره في وجه الفتى بدهشة، إلا أنه سرعان ما استدرك رد التحية شاعرا بشفقة لا حد لها على هذا الصغير، فأخذه إلى الداخل وساعده على تجفيف ثيابه أمام مدفأة خبا وهجها.

تنهد الفتى بارتياح رغم القلق الذي ساوره، فطمأنه الرجل بابتسامة مشجعة علت وجهه السمح قائلا:

- هل لك أن تخبرني يا بني بالذي جاء بك في هذا الجو العاصف، وقد أرخى الليل سدوله؟

ترقرقت عينا الفتى بالدموع لكنه تشجع قائلا:

- أود الالتحاق بهذه المدرسة يا عماه..

قفزت لعيني الرجل نظرة غريبة، وقال بنبرة لا تخلو من دهشة:

- يبدو أنك غريب عن هذه المنطقة فليس الالتحاق بالمدرسة بهذه السهولة عليك أن تمر باختبارات قبل الموافقة عليك، وقد جرى خلال هذا الأسبوع رَفضُ الكثيرين ممن هم أكبر منك سنا وأقوى بنية!

بدا على الفتى قليل من الارتباك إلا أنه رد بثقة قائلا:

- سأنجح بإذن الله، فقد واجهت الكثير من المصاعب قبل أن أصل إلى هنا، ولن أيأس أبدا إن شاء الله..

أُعجب الرجل بعزم الفتى وتصميمه، فابتسم قائلا:

- وفقك الله يا بني، سأدعك تستريح الآن ولن أرهقك بالأسئلة أكثر، فيبدو عليك التعب والإرهاق، وفي صباح الغد ستقابل المدير شامل إن شاء الله..

ثم أردف قائلا وهو يقوده إلى غرفة مريحة:

- لم تخبرني عن اسمك يا بني؟

ابتسم الفتى وهو يشعر بسعادة غامرة، ثم قال:

- اسمي علاء ، علاء نور الدين منصور..

تسمر الرجل مكانه كمن تلقى خبرا مفاجئا أذهله، فرد متأنيا:

- نور الدين منصور!

علت دهشة خفيفة قسمات وجه علاء فأومأ قائلا:

- أجل.. إنه أبي يا عماه..

فقال الرجل بحذر أكثر:

- تقصد القائد نور الدين منصور في منطقة المروج الخضراء؟!

فأجابه علاء وقد تهلل وجهه فرحا:

- أجل أجل إنه هو..

وأردف متسائلا:

- أو تعر فه أنت يا عماه؟

لم يتمالك الرجل نفسه، فمد يديه وعانق علاء بشدة وقد غمرت عيناه الدموع، وخرجت الكلمات متهدجة من فمه:

- ومن منا لا يعرف القائد المجاهد نور الدين منصور، الذي أرق مضاجع رامان بأسرها، أعظم ممالك هذا الزمان!

ثم تابع:

- إننا نتوق شوقا هنا لمعرفة أخبار إخواننا المجاهدين هناك، ومن نعمة الله علينا أن أنشأت دار الأخبار السريعة جدارا لها بالمدينة، إذ لم يعد جدار الأخبار الموثقة يفي بحاجتنا الملحة لمتابعة الأخبار أولا بأول.. صحيح أنها قد تكون مشوبة بالشائعات والمبالغات، لكنها تصلنا على أية حال..

وتنهد كمن يخاطب نفسه:

- لم أحلم أبدا بمقابلة ابن ذلك القائد..

وأغمض عينيه كمن يسترجع أحداثا أثرت فيه كثيرا- وعلاء يتأمله بدقة حتى يفهم بعمق ما يعني له ذكر اسم نور الدين من معاني عظيمة- ثم فتحهما أخيرا كمن أفاق من حلم طويل مطلقا تنهيدة أطول:

- لازلت أذكر أول يوم سمعنا فيه عن القائد نور الدين، كان ذلك منذ ثلاثة أشهر تقريبا.. يومها شعرنا بالفخر والاعتزاز، وحمدنا الله الذي سخر لهذا الدين من يذود عنه..

ثم استدرك فجأة:

- هل تعني أنك جئت من منطقة المروج الخضراء؟

ولم ينتظر الرجل جوابا بل قال وقد غلبته عاطفة الأبوة الحانية:

- لاشك أنك متعب وجائع أيضا يا بني، وليس من اللباقة أن أثقل عليك أكثر؛ رغم لهفتي وشوقي لسماع أخبارك..

وابتسم بمرح:

- لم أعرفك بنفسي بعد.. إنني عاطف.. المشرف على الطلاب في هذه المدرسة..

وتابع مبتسما:

- ولن أبالغ في مدح نفسي إن قلت لك انني بمثابة الأب الحنون لهم أيضا، وأقولها لك من الآن بأن لا تتردد بإخباري عن أي شئ يضايقك..

ابتسم علاء شاكرا:

- جزاك الله خيرا يا عمي..

قدم عاطف وجبة عشاء خفيفة لعلاء، و هم بإطفاء السراج فاستوقفه علاء بأدب قائلا:

- عفوا يا عمي، هل لك أن تخبرني عن اتجاه القبلة من فضلك؟

علت نظرات التقدير والإعجاب وجه عاطف الذي أجاب مشيرا بيده:

- باتجاه النافذة..

ثم اتجه إلى مقعد في زاوية الغرفة، تناول من فوقها سجادة خضراء، فرشها بذلك الاتجاه، ثم أشار إلى باب جانبي قائلا:

- وهناك الميضأة..

فشكره علاء ممتنا، ثم صمت برهة قبل أن يتابع على استحياء:

- أيمكنك إيقاظي لصلاة الفجر إذا سمحت يا عمي، فأخشى أن تفوتني!

ابتسم عاطف موافقا:

- يسرني ذلك يا بني، أما الآن فالأفضل أن تخفف في صلاتك حتى لا تتأخر عن نومك أكثر، فجسمك بحاجة إلى الراحة وإن لبدنك عليك حقا، وسأبقى بانتظارك حتى أطمئن عليك..

علت حمرة خفيفة وجه علاء وهو يقول:

- اعذرني يا عمي لن أطيل، فسأصلي ركعتي الشفع والوتر فحسب إن شاء الله، فقد أديت صلاتي المغرب والعشاء قصرا وجمعا بحمد الله في مسجد قابلته قبل وصولي إلى هنا..

أطفأ عاطف السراج أخيرا، وهو يلقي نظرة حانية على علاء، الذي غط فورا في نوم عميق، وردد في سره:

- حفظك الله يا بني وجعلك ذخرا للمسلمين..

ثم أغلق الباب خلفه برفق..

***

أخذت أشعة الشمس الذهبية تتسلل من النافذة لتوقظ علاء بلطف، فتذكر بصعوبة أنه أدى صلاة الفجر، لكنه لم يذكر أبدا كيف عاد إلى النوم من جديد، بل انه حاول جاهدا أن يذكر كيف استيقظ للصلاة أصلا دون جدوى، حتى قطع عليه عاطف حبل أفكاره:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد أن تدارك علاء نفسه، رد التحية مبتسما:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، صباح الخير يا عمي..

فبادله عاطف ابتسامته بوجه متهلل صبوح وقد اطمأن على حالته:

- أصبحنا وأصبح الملك لله، الحمد لله؛ أرى أنك نمت جيدا هذه الليلة بفضل الله، فوجهك يطفح بشراً وبهاء، ما شاء الله..

ثم تابع مبتسما:

- أليس كذلك أيها الفتى المغوار؟

أومأ علاء مبتسما، وقد علت وجنتيه حمرة خفيفة، فقال عاطف مشجعا:

- يجب أن تستعد لمقابلة المدير، بعد أن تتناول طعام الإفطار، فلا تنس أن تعد نفسك جيدا..

ثم تابع جملته وهو يغمزه بعينه ليدخل روح الحماس إلى قلبه:

- لا شك أن المدير في شوق لرؤيتك أيضا..

لم يدر علاء كيف مرت تلك اللحظات وما بعدها حتى وجد نفسه أخيرا أمام المدير الذي كان في عمر عاطف، لولا ذلك الشيب الغزير الذي غزا لحيته الكثة، فبدا أكبر من سنه بكثير، كان عظيما بعمامته، أنيقا في هيأته، ورغم ذلك النور الذي يشع من وجهه الوقور، وتلك الابتسامة الهاشة الباشة التي توجته؛ إلا أن رعشة خفيفة سرت في جسد علاء، إذ لم تكن الهيبة تنقص المدير شامل شاهين على الإطلاق، الرجل الأول في مدرسة النصر للفروسية، فابتدر علاء بوجه طلق صبوح، وهو يشير إلى مقعد أمامه:

- تفضل، استرح يا بني.. سررنا بمعرفتك، فهل لك أن تخبرنا بقصتك كاملة..

أطبق علاء جفنيه للحظات يسترجع أحداث قصة طويلة..

***

عندما اشتعلت ألسنة النيران في كل مكان من مدينة شمس ملتهمة الأخضر واليابس لوضع حد لمقاومة نور الدين ورجاله.. كان علاء يقضي معظم وقت فراغه في غرفته وهو يفكر ويخطط لايجاد طريقة، يتمكن من خلالها تقديم المساعدة لوالده، غير الاعتناء بأخيه الصغير عندما تغيب أمه عن البيت، فرغم ما كررته أمه على مسامعه مرارا من أن مهمته تلك لا تقل أهمية عن دور والده، إلا أنه ما كان ليقتنع بذلك أبدا.. كان يود لو تمكن من خوض معركة حقيقية يثبت فيها لوالديه أنه أصبح رجلا شجاعا يعتمد عليه..

حتى جاء ذلك اليوم الذي سمع فيه نداء أمه عليه وعلى أخته، فلبى نداءها بسرعة، وقد ترقرقت عيناه بالدموع، فهل نسيت أمه أن أخته قد قتلها أولئك الأوغاد!! لكنه أخفى دموعه بسرعة وقال:

- هل تناديني يا أماه!! إنني هنا في غرفتي، وأخي بهاء ما زال نائما، أما هناء فقد....

واختنقت الكلمات في حلقه؛ فبدا لأسماء أن أعصابها لم تعد تحتمل المزيد ، فعانقت ابنها بحرارة وهي تحاول كبت مشاعرها وإخفاء دموعها وتتصنع الصلابة بقولها:

- لا عليك يا بني، هيا فقد حان وقت الرحيل..

فرد علاء بقلق، وكأنه كان يخشى سماع هذا القرار:

- ألن نبقى هنا يا أمي ندافع عن منزلنا ومدينتنا !

فقاطعته الأم بحزم:

- اذهب واحضر أخفّ ما يمكنك حمله، ولا تتأخر فسنرحل بعد قليل..

التفت علاء إلى والده، متجاهلا ما كان قد سمعه من حوار بينه وبين والدته:

- سترحل معنا يا أبي؟!

لم تتمالك اسماء نفسها فذهبت قائلة:

- سأوقظ بهاء وأعد الحاجيات..

أما نور الدين فقد حاول جاهدا حبس دمعة ساخنة، كاد ابنه أن يلاحظها:

- ستذهب مع أمك وأخيك؛ أما أنا فلديّ بعض الأعمال هنا وعلي تسويتها مع بعض الرفاق..

فقاطعه علاء بلهفة:

- سأبقى معك يا أبي، صدقني سأكون عونا كبيرا لكم..

ربّت الأب على كتفه قائلا:

- كلا يا بني، يجب أن تذهب مع أمك وأخيك وتكون بجانبهما لتحميهما، وسيكون لديك الكثير من الواجبات والأولويات، عليك القيام بها..

ثم أمسك بكتفيه بقوة وعطف في آن واحد:

- اسمعني جيدا يابني، أرجو أن تفهم ما سأقوله لك الآن، فربما لن تتاح لي فرصة الحديث معك بعد اليوم، فانت ابني الأكبر وانني أثق بك وأعتمد عليك بعد الله عز وجل..

خفق قلب علاء بشدة رغم صغر سنه، إلا أنه حاول أن يبدو بمظهر يلائم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فأجاب بحماسة:

- أعدك يا أبي بأنني سأفهم كل كلمة تقولها وأحفظها عن ظهر قلب، وسأكون عند حسن ظنك بي إن شاء الله فلا تقلق بهذا الشأن..

ابتسم الأب بارتياح عميق، وهو يطبق جفنيه كمن يشاهد حلما جميلا سره:

- كنت أحلم دائما أن أراك رجلا عالما يتحلى بالحكمة، ويسعى لإعلاء راية الإسلام يا علاء..

وصمت برهة قبل أن يقول:

- أي بني.. لقد ابتعدت أمتنا عن دينها، فتفككت وانشقت صفوفها؛ وسلط الله علينا من لايقيم شرع الله فينا، وستكون فتن كقطع الليل المظلم ، القابض على دينه كالقابض على الجمر، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والسلام..

التقط الأب أنفاسه قبل أن يتابع:

- قد لا تفهم ما أقوله الآن يابني، ولكنني أريدك أن تذكر دوما أن والديك اجتهدا لينشآك نشأة اسلامية حقة، سميناك علاء، وكلنا أمل أن تسير على درب القائد العظيم، الولي التقي "العلاء ابن الحضرمي".. وإنني اسأل الله سبحانه أن يوفقك لما يحبه ويرضاه، ويحميك من كل سوء.. فعليك بالدعاء يا بني، وتذكر ما علمتك اياه دوما...

فأسرع علاء - يريه منه خيرا يطمئن قلبه- وهو يردد ما حفظه عن ظهر قلب: (وجعلت قرة عيني بالصلاة) ..

فتهلل وجه الأب بشرا، وطبع على جبين ابنه قبلة حانية، وهو يضمه إليه ضمة بثها مشاعره وأحاسيسه، قبل أن يلتفت إلى أسماء التي وقفت حاملة طفلها الصغير، غارقة في دموعها فما عادت تقدر على حبسها، فاتجه نحوها في صمت حزين يكبت من خلاله أقوى مشاعر الحب و الرحمة في قلبه.. وألقى نظرة أخيرة على ابنه الذي لم يتجاوز العامين فقبّله وأشاح بوجهه بعيدا خشية أن تلمح زوجته دموعا عجز عن حبسها.. مضت لحظات عصيبة.. وأخيرا تكلم نور الدين بصعوبة وهو يحمل حقيبته:

- استودعكم الله الذي لاتضيع ودائعه..

ثم التقط أنفاسه المتلاحقة قبل أن يقول:

- لقاؤنا في الجنة إن شاء الله..

و مضى خارجا..

بذلت أسماء قصارى جهدها لتظهر تجلدها للصعاب.. فكفكفت دموعها والتفتت إلى علاء:

- هيا يابني حان وقت الرحيل..

***

مضى أسبوع على ابتعاد جموع الراحلين عن مدينتهم، وتخبطهم في صحراء شاسعة بعد أن حيل بينهم وبين عبور منطقة الرمال، إحدى المناطق الإسلامية المجاورة، بحجة عدم صلاحية رقع التجوال الجلدية التي بحوزتهم..

وهبت العاصفة، فتخبطوا على غير هدى.. ليجد علاء نفسه وحيدا شريدا، لايدري أين هو من هذا العالم الفسيح.. وعندما استيقظ وجد نفسه نائما على فراش وثير، فأزاح الغطاء عنه ونهض ثم وقف أمام نافذة زجاجية يتأمل بدرا منيرا وسط ليل بهيم، ملأ رئتيه من نسمة باردة تسللت من شق في تلك النافذة، واجتهد في محاولة يائسة لمعرفة مايدور حوله، فاتجه نحو باب الغرفة وفتحه ليجد نفسه أمام شيخ كبير يغط في نومه على أريكة، عفا عليها الزمان، فأدرك في لحظة ما يعجز عن فهمه الكبار، وأخذ يتأمل المكان لفهم المزيد.. حتى تقلب الشيخ على أريكته أخيرا، وكأنه شعر بما يدور حوله، ففتح عينيه وسط ارتباك علاء الذي تلعثم قائلا:

- اعتذر عن الإزعاج أيها الجد..

فطمأنه الشيخ بابتسامة هادئة:

- الحمد لله على سلامتك يابني، لقد وجدتك ملقى على قارعة الطريق اثناء عودتي من خارج البلدة..

ثم نهض مستدركا:

- لا عليك، ستخبرني بقصتك فيما بعد، أما الآن فاعتقد أنك بحاجة إلى طعام جيد..

و ابتسم معرفا بنفسه ليدخل جوا من الألفة إلى المكان:

- جدك سعيد بمثابة والدك، وبما أن الفجر سيطلع بعد قليل فلا بأس من أن نتناول طعام الإفطار الآن معا..

وبدأ بإعداد مائدة حاول تنسيقها بعناية، وهو يعرّف بأصنافها المختلفة بحركات تمثيلية يدخل بها البهجة على قلب ضيفه الصغير:

- جبنة جدك سعيد الشهية، يشتهي الجميع تذوقها وهي كلها لك.. وهذه الزبدة البيضاء الطازجة لن تجد أطيب منها في المنطقة بأسرها..

قالها وهو يضحك بمرح:

- هذا رأيي الخاص بالطبع..

ونهض باتجاه كيس من القماش، معلق فوق طبق حوى كمية من الماء المكدر، تناوله وفتحه ليسكب ما فيه بطبق أمامه قائلا:

- وهاهي اللبنة الطازجة قد أصبحت جاهزة، من أجل...

ثم انتبه فجأة، وابتسم ملتفتا الى علاء:

- عفوا لم اسألك عن اسمك بعد يا بني؟

وبعد أن أخبره علاء باسمه الأول، تابع سعيد استعراضه مبتهجا:

- لبنة طازجة جُهِّزَت خصيصا ليفتتحها علاء..

ثم قال بتمعن:

- عـــلاء..اسم جميل جدا وعظيم أيضا، ومن يحمله لا شك أنه سيصبح عظيما باذن الله..

وغمز علاء بعينه مشجعا:

- أليس كذلك يا علاء؟

أومأ علاء بابتسامة مقتضبة دون أن ينبس ببنت شفة. وأخيرا وضع سعيد على المائدة كوبين صب فيهما اللبن الطازج، قائلا:

- وهذا خير الطعام كما قال الحبيب صلى الله عليه وسلم فاللهم بارك لنا فيه وزدنا منه..

وجفف يديه بمنديل وهو يشير إلى علاء:

- تفضل إلى سفرة جدك سعيد الغنية ولا تضيع الفرصة..

وأخيرا تكلم علاء الذي كان يتابعه بابتسامة صامته:

- جزاك الله خيرا يا عمي..

وتناول كوب اللبن من يد سعيد - رغم عدم رغبته في تناول أي شيء لولا شعوره بالحرج من هذا الشيخ الطيب - ليبدآ الطعام معا بالدعاء:

- بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار..

تنهد الشيخ تنهيدة طويلة بعد أن استمع لقصة علاء:

- هكذا إذن.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

ثم زفر بأسى:

- هذه هي حال المسلمين اليوم؛ لايعتبرون بما أصابهم وكأن الأمر لايعنيهم..

ثم صمت قليلا تعتصره مرارة الألم، قبل أن يتابع:

- ليست مدينتك المقصودة وحدها يا بني.. انها البداية فقط!!

ثم نظر إلى علاء الذي يتابعه بصمت وشرود:

- أتعرف قصة ذلك المثل.. ألا إني أكلت يوم أكل الثور الابيض؟

أومأ علاء رأسه بالإيجاب:

- سمعتها من والدي..

ومالبثت أن تدحرجت دمعة على خده، لكنه استطاع إخفاءها بسرعة متسائلا:

- أتعلم يا جدي أين يمكنني أن أجد أمي وأخي؟

حاول سعيد أن يبث روح الأمل في نفس علاء مشجعا:

- سنرى اليوم إن شاء الله ما الذي بإمكاننا فعله..

ثم أطرق مفكرا قبل أن يقول:

- من عادتي أن أخرج مع القطيع بعد صلاة الفجر، لذا دعنا نرى أهل المسجد أولا؛ فقد يكون لدى أحدهم خبر ما..

عندها تهلل وجه علاء بشرا بعد أن أشرق بريق أمل في نفسه، فهتف مستبشرا:

- لا أعرف كيف أشكرك يا جدي، جزاك الله خيرا..

فابتسم سعيد وقد سره رؤية علاء مبتهجا:

- لم أفعل شيئا حتى الآن، ولندع الله أن يوفقنا في ذلك..

انتبه علاء للمرة الأولى إلى ثغاء الخراف خارج المنزل، وقدر أنهم في حظيرة قريبة جدا من نافذة الغرفة التي يجلس فيها مع الجد سعيد، إضافة إلى أصوات الديكة التي تعالت بالصياح، وما لبث أن صدح صوت أذان الفجر ليغمر النفوس بالسكينة والأمان، والذي بدا أنه انطلق من مكان بعيد ما كان لِيُسمَع منه لولا سكون الليل..

و بعد صلاة الفجر؛ تحلق المصلون حول سعيد الذي عرفهم بعلاء لعله يجد بينهم من يساعده. بدا من الواضح جدا أنهم يعرفون بعضهم جيدا، فعددهم قليل بالكاد يتم الصف الأول، ومن النادر أن ينضم إليهم زائر جديد، وبعد أن استمعوا لقصة علاء، قال مصطفى- أحد الرجال الذين يثق بهم سعيد كثيرا:

- لقد علمت أن جاري قد استقبل قريبا له بالأمس من الراحلين من منطقة المروج الخضراء..

خفق قلب علاء بشدة متلهفا لسماع الخبر، وتهلل وجه سعيد :

- بشرك الله بالخير يا رجل، هات ما لديك..

فقال مصطفى مهدئا:

- لست متأكدا تماما من كونه من المجموعة نفسها، التي خرج معها علاء، فأمهلني حتى صلاة العشاء..

لكن سعيد قاطعه بسرعة:

- ألا يمكنك أن تأخذنا إليه الآن..

ألجمت الدهشة مصطفى وبدا عليه الإحراج، لكن سعيد ألح عليه مدركا سبب تردده:

- أعلم أن جارك لن يستيقظ قبل موعد عمله، هدانا الله وإياه، لكنه رجل طيب وهذه حالة طارئة، فهذا الفتى يريد الاطمئنان على أمه..

بدا الإحراج والتردد واضحا على وجه مصطفى أكثر، وأدرك علاء ذلك، فهز الجد سعيد من كمه:

- لا بأس يا جدي، سننتظر حتى صلاة العشاء إن شاء الله..

قضى علاء وقتا طويلا بصحبة الجد سعيد أثناء خروجه لرعي الأغنام، فكانت تجربة جديدة في حياته لم يخطر بباله أن يخوضها يوما؛ بعد أن نشأ في جو المدينة واعتاد حياتها.. ساروا مسافة طويلة مبتعدين عن البلدة الصغيرة، حتى تجاوزوا لافتة صغيرة على مشارفها، كتب عليها (بلدة زهر الرمال تستودعكم السلامة)، ابتسم سعيد- وهو يتابع اهتمام علاء باللوحة:

- زهر الرمال، اسم بلدتنا.. يبدو جميلا أليس كذلك؟

اومأ علاء:

- بلى، ولكنه غريب بعض الشيء، فهل ينمو الزهر وسط الرمال؟

ضحك سعيد لهذه الملاحظة الطريفة، قبل أن يجيب:

- ولماذا فسرتها على هذا النحو يا علاء؟

اجاب علاء مستغربا:

- وهل لها تفسير آخر؟

فقال سعيد ينتهز الفرصة موضحا:

- بل لها عدة تفاسير أخرى قد لا أعرفها جميعا..

ونظر إلى علاء- الذي بدت علامات الدهشة واضحة على وجهه - يستطلع اثر كلماته عليه، قبل أن يتابع:

- هذه مشكلتنا مع الأسف، نحمل كل ما نراه أو نسمعه على المعنى الذي نراه نحن فقط، في حين أن لكل واحد منا رؤيته الخاصة والتي تحددها عوامل مختلفة بناء على شخصيته، وقد يصف اثنان المشهد نفسه بكلمات تبدو متناقضة للسامع للوهلة الأولى، فيبدأ الخلاف المؤدي للشجار والتنافر، ولو عقلنا الحقيقة لسلمنا من مشاكل كثيرة نحن في غنى عنها..

كان علاء يحاول جاهدا استيعاب كلمات الجد سعيد التي بدت غريبة له بعض الشيء، ولم يتركه سعيد لأفكاره كثيرا، فقد أتبع كلامه بمثال توضيحي:

- يقال أن اسم بلدتنا جاء لأنها تتميز بكثرة الأزهار فيها ولكونها تقع على مقربة من منطقة الرمال، فقد أطلق عليها زهر الرمال، وهناك من يقول بأن أزهارها كانت تتميز فيما مضى باللون الأصفر الباهت؛ حتى يظن من يراها لأول وهلة أنها أرض رمال، فأطلقوا عليها هذا الاسم، وهناك روايات أخرى وكلها تحتمل الصواب، بل لا مانع من أن تكون كلها صحيحة في الوقت نفسه!

ثم التفت إلى علاء مبتسما:

- ومن يدري فربما كان بها نوع من الزهر ينمو وسط الرمال..

ابتسم علاء وقد فهم المغزى من ذلك، وأدرك بأنه تعلم درسا مفيدا وهاما جدا كان يجهله، بل ومسليا أيضا، فلم يشعر بطول المسافة التي قطعها خاصة وهو يتأمل جمال الطبيعة من حوله..

كانت الشمس تعلن استعدادها للمغيب، وهي أشبه ما تكون ببرتقالة عملاقة تربعت وحدها فوق التلال الصفراء، عندما أطلق سعيد إشارة العودة بلحنه الخاص والمميز، فعلا صوت نباح الكلب يعينه على أداء مهمته وهو يقفز من جهة إلى أخرى يطمئن على سلامة القطيع واكتمال عدده، والذي بدا كقطن أبيض

منفوش يحاول الهرب من حاصده، في حين تناغم نباح الكلب وثغاء الأغنام مع صوت الأجراس المعلقة في رقاب الخراف الصغيرة، لتؤلف معزوفة خاصة بدت مألوفة لكل الرعاة.. ورغم ذلك الجمال الخلاب إلا أن القلق بدأ يساور علاء؛ فهو على موعد مع أخبار تهمه كثيرا هذه الليلة، ولم يفت سعيد ملاحظة ذلك إذ كان هو الآخر قلق البال بشأنه، ولكن هذا لم يمنعه من الإشارة إلى بديع صنع الله في خلقه، فهتف مسبحا:

- سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده ولا قوة إلا بالله..

وردد بصوته الندي:

- ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾،

ثم نظر إلى علاء مشجعا:

- اصبر.. فلم يبق إلا القليل ويأتيك الخبر اليقين بإذن الله..

فشكره علاء ممتنا:

- لا أدري كيف أشكرك يا جدي، جزاك الله خيرا على اهتمامك هذا..

- لا تقل هذا يا بني، الم أخبرك بأنني في مقام والدك.. لقد كان ابني الأكبر في مثل سنك عندما تعرض لحادث أودى بحياته..

توقف علاء لحظة قبل أن يتابع المسير وقد بدا التأثر على وجهه سريعا، لولا أن سعيد تابع بمرح:

- الحمد لله دائما، فهو إن أخذ فقد أعطى ، فلله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى..

ثم التفت إلى علاء الذي ما زال متأثرا بما سمع:

- هذه حال الدنيا يا بني، وهذه حقيقتها، دار ابتلاء واختبار، والظفر فيها لمن صبر وأحسن العمل..

وابتسم متابعا وكأنه بصدد قصة سمعها ليرويها:

- لقد مضى على ذلك أكثر من خمسين سنة، وقد أكرمني الله بعدها بالبنين والبنات، ورغم تفرقهم بالمناطق والمدن المختلفة، إلا انني بحمد الله أفرح بزيارتهم في العطل والأعياد..

ثم توقف مشيرا بيده الى مكان بعيد:

- أترى ذلك السور يا بني، خلفه يقبع قبر زوجتي التي توفاها الله قبل خمس سنوات..

ودمعت عيناه قليلا:

- رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، ما زلت أذكرها بالدعاء في كل صلاة أصليها، فقد كانت نعم الزوجة الصالحة والأم المربية الحكيمة، اسمها راضية وكانت تمثله بمعنى الكلمة..

وابتسم بمرح وهو يردد:

- راضية وسعيد.. الرضا يجلب السعادة، وهذا سر العلاقة الوطيدة بيننا بفضل الله..

وقفزت إلى عينيه نظرات حالمة يرى من خلالها صورا مشرقة من حياته السعيدة مع راضية، ثم تنهد:

- رحمها الله.. هذه هي الدنيا وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور..

كان سعيد يحدث علاء إشغالا لفكره عن الهموم و تبصيرا له بحال الدنيا، وتعزيزا لمفهوم الرضا في نفسه؛ حتى لا تصدمه نوائب الدهر، وقد كان له ما أراد بنسبة كبيرة..

وبعد أن أديا صلاة المغرب في الطريق، واقتربا من المنزل، لاح لهما شبح رجلين يقفان عند الباب، وما لبثا أن سمعا صوت مصطفى يهرول نحوهما صائحا:

- نحن بانتظارك منذ أكثر من ساعة، لقد أبى السيد مروان إلا المجيء بنفسه ليرى علاء..

ولم يكد علاء يلمح مروان حتى قفز نحوه هاتفا بسعادة:

- أهلا بك يا عمي، ما هي أخبار أمي وأخي؟

ثم شعر بالخجل من نفسه، وقد انتبه إلى عكازه الخشبي الذي حمله مرتكزا عليه اثر كسر بدا واضحا في رجله، فاستدرك متسائلا:

- سلامتك يا عمي، لا بأس عليك طهور إن شاء الله، ما الذي أصابك؟؟

فابتسم سعيد وهو يقاطعه بلطف:

- فلندخل أولا..

وبعد أن أغلق باب الحظيرة واطمأن على حيواناته، تحلق الأربعة حول ضوء السراج في حجرة المنزل المطلة على الواجهة..

بدا الأسف واضحا على وجه مروان؛ ليعكس خيبة أمل على قسمات علاء، لولا أنه صبر نفسه بالاستماع إلى بقية حديث مروان لعله يجد لديه ما يرشده إلى أمه. حاول مروان بث الطمأنينة في نفس علاء:

- الحمد لله على سلامتك أولا يا بني، لقد قلقنا عليك كثيرا، ولكن الله لطف بك..

وقلب نظره بين مصطفى وسعيد قائلا:

- حقا، بصلاح الآباء يحفظ الله الأبناء، من يعرف والديّ هذا الفتى لا يعجب من حفظ الله له!

كان لجملته هذه أكبر الأثر في تطيب نفس علاء، ثم تنهد قبل أن يتابع:

- بعد أن منعنا من عبور منطقة الرمال، وبعد أن هدأت العاصفة التي فرقت الكثيرين منا، وأصابت معظمنا بضرر..

قالها مستطردا وهو يشير إلى ساقه:

- الحمد لله إصابتي خفيفة نسبة إلى غيري..

ثم تابع:

- كانت هناك فرصة لتسهيل استحداث رقع عبور خاصة، لمن لهم أقرباء خارج المروج الخضراء، ريثما يعاد النظر في رقع التجوال الجلدية خاصتنا، وقد كنتُ منهم إذ نزلنا في ضيافة أقرباء زوجتي، في حين قرر معظم الراحلين العودة من حيث أتوا، وليكن ما يكون بدلاً من التخبط بين المناطق المختلفة على غير هدى، معرضين أنفسهم للعواصف والأخطار، خاصة وأنهم لا أقرباء لهم..

وصمت قليلا قبل أن يقول:

- وقد أصرت امك على العودة معهم..

شعر علاء ببعض الاطمئنان بعد أن سمع خبرا عن أمه، ثم قال بقوة وعزم:

- سألحق بهم إذن، وأعود من حيث أتيت..

تبادل مروان نظرات ذات مغزى مع مصطفى وسعيد، قبل أن يقول الأخير:

- أنت فتى شجاع يا علاء، ولكن شتان ما بين التهور والشجاعة، لقد أحكم الأعداء سيطرتهم على حدود المروج الخضراء، ولم يعد بالامكان العودة الآن!

لم يتمالك علاء نفسه وقد أدرك ما ترمي إليه هذه الكلمات، فقاطعه وهو ينهض من مكانه صارخا:

- وماذا عن أمي وأخي!! ما الذي تعنيه يا جدي!! هل سأقضي حياتي وحيدا بعيدا عن أمي وأبي وبلدي؟!!

حاول سعيد تهدئة روعه، فنهض ليقف إلى جانبه يربت على كتفه مهدئا:

- ومن قال أنك وحيد يا بني؟

استدرك علاء نفسه، وقد تهالكت قواه، فأسرع يعتذر:

- اعذرني يا جدي لم أقصد هذا، ولكن..

وتحشرجت الكلمات في حلقه، فصمت وفاضت عيناه بالدموع..

مضى أسبوع كامل جف خلاله منبع الدمع في عيني علاء، رغم حرصه على التجلد، غير أن هذا كان فوق طاقته، وهذا ما عذره به سعيد الذي لم يكل عزمه في تقديم أي عون لعلاء، يساعده على الخروج من أزمته، واتخاذ قرار حازم بشأنه، خاصة وقد بدا من الواضح أن الوصول إلى أمه أو عودته إلى بلده ضرب من الخيال. حتى جاء الوقت الذي ارتأى سعيد فيه أن لحظة المواجهة قد حانت، فصلى ركعتين استخار الله فيهما، ثم جلس في مواجهة علاء بعد صلاة العشاء، بشكل يوحي بأهمية ما هو مقدم للحديث عنه. بدأ سعيد كلامه بابتسامة مقتضبة جادة:

- أنت فتى قوي وشجاع يا علاء، وذكي أيضا- ما شاء الله- فقد استطعت تعلم أشياء كثيرة في فترة وجيزة، وهذا من فضل الله عليك.. اسمعني يا بني..

ثم صمت قليلا يحاول انتقاء الألفاظ بعناية لعرض كلامه، ورغم إحساس علاء بخطورة ما سيسمعه إلا أنه بدا صامتا كأهدأ ما يكون، فلم ينبس ببنت شفة، وفسح المجال لسعيد ليقول ما لديه بحرية، إذ لم يعد أمامه خيار آخر عن مواجهة الحقيقة ولو كانت مرة. وأخيرا قال سعيد بحزم:

- لن تستطيع العودة إلى وطنك يا علاء إلا بأحد خيارين..

وتحفز علاء بكل جوارحه، في حين جاءه صوت سعيد مجلجلا واضحا لا مراء فيه:

- إما أن تكون لقمة سائغة يلوكها الأعداء بأنيابهم، قبل أن يلفظوها ليزيدوا عدد ضحايانا الذين نبكيهم دون جدوى..

وصمت يلتقط نفسا عميقا وهو يحدق بعيني علاء بنظرات صقر كاسر يشحذ عزيمته، ويستحث الهمم في نفسه، قبل أن يتابع كلامه بقوة لم يعهدها علاء فيه من قبل:

– أو قائدا فاتحا قويا صالحا، يعيد المجد والعزة لأمته..

وكانت جملته تلك آخر شئ توقع أن يسمعه علاء، فاقشعر بدنه، وهو يشعر بقوة الكلمات وصلابتها التي هزت كل جزء في جسده، حتى هُيئ إليه أنها من قوتها قادرة على زحزحة جبل راسخ من مكانه ودب روح الحماسة فيه.

لم يغمض لعلاء جفن تلك الليلة، وقد شعر أنها ليلة الفصل في حياته، والتي سيتخذ فيها قراره الحاسم. نهض بهدوء بعد أن تأكد من نوم الجد سعيد.. توضأ واستقبل القبلة وكأنه سيصلي للمرة الأخيرة، وكلمات والده ترن في اذنيه، وتلامس شغاف قلبه (وجعلت قرة عيني بالصلاة)، تؤازرها ما كان يسمعه من أمه مرارا وهي تحدث من يشكو لها همه، بل إنها كانت تجد ذاتها مثالا يجسد ما روي عن الحبيب صلى الله عليه وسلم (اذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة)، وأخذت تلك المشاهد تتراءى أمام عينيه، فبدأت نفسه تؤنبه:

– ما بالك ياعلاء تنسى تلك الوصية الثمينة.. كيف سأواجه والدي بعد هذا العار.. وما الذي ستقوله أمي عني.. أهكذا يبكي الرجال !! وسجد جبين علاء، وسجدت كل جوارحه ، تعلن استسلامها وخضوعها لله وحده..

***

أشرقت شمس صباح اليوم التالي بالبشر والسعادة على سعيد وعلاء، وقد عادت الابتسامة المتفائلة تزين وجهه، حتى أنه شارك سعيد ببعض أهازيجه التي كان يشدو بها وهو يقود القطيع..

أشرقت الأنوار صباحـــا حيّت سهــلا مع جبــلا

طوبى لمن قد حصد فلاحا زرع فجــد ومــا كســلا

ورعى الأغنـام بلا تعـب يحسن دومــا مــا عمــلا

علت شمس الظهيرة، واستظل علاء مع الجد سعيد بظل شجرة، يتناولان غداءهما، حتى سمعا صوت نباح الكلب يعلو عن المعتاد، فالتفت سعيد اليه، ثم ابتسم وهو يشير إلى علاء كي ينظر هو الآخر:

- أترى يا علاء تلك الشاة الصغيرة.. انها تحاول تجاوز الحدود المسموحة لها ضمن القطيع في الرعي، وهي تظن نفسها قادرة على خوض المخاطر وحدها..

علت حمرة خفيفة وجه علاء وقد شعر بالخجل من نفسه، بعد أن فهم ما يرمي اليه الجد سعيد، والذي تابع قائلا بعد أن تأكد من وصول المعنى:

- هذا ما قصده الحبيب صلى الله عليه وسلم، عندما قال: (انما يأكل الذئب من الغنم القاصية)..

كان علاء ينظر إلى سعيد بعين التقدير والإعجاب، فرغم أنه يبدو راعيا بسيطا للوهلة الأولى، إلا أنه كان آية في الحكمة والذكاء، فقال معبرا عن اعجابه:

- جزاك الله خيرا ياجدي، فقد أصبحت أرى عالم الرعي، عالما للحكمة بحد ذاتها، وتعلمت كيف أربط كل ما أراه بحكمة استفيد منها..

ضحك سعيد ملء شدقيه، قائلا:

- ليست الحكمة مقصورة على عالم الرعي وحده يا علاء، بل هي في كل ما تقع عليه عيناك، او تسمع به أذناك، او تلمسه يداك، كلها رسائل ربانية يبعثها الله

في طريقك لتتعلم وتستفيد منها، بتقدير منه وليس بمحض المصادفة والعاقل من يفهمها، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾..

وأخيرا قال سعيد وهو ينظر إلى البعيد، كأنما يخترق المستقبل بنظراته الثاقبة:

- لقد اكتسبت خبرة لا بأس بها في رعي الأغنام، طريقك الأول الذي هُيئ لك لتصبح قائدا حكيما ، حازما ورحيما..

ثم ابتسم وهو يرى علامات التعجب على وجه علاء:

- كل ميسر لما خلق له، وقد سخر الله لك خوض غمار مهنة عمل بها الأنبياء جميعا،، أتعلم ما هي؟

ورغم حضور الجواب في ذهن علاء ومعرفته به، لكنه ظن أن لدى الجد سعيد إجابة أخرى فلم يتوقع أن تكون بهذا الوضوح، حتى فهم المراد أخيرا، فابتسم مجيبا:

- (ما من نبي إلا ورعى الغنم)، تلك المهنة التي اختارها الله ليمارسها من اصطفاهم من عباده، لما تكسب صاحبها من مهارات القيادة الحكيمة، مع الرحمة والحزم..

أشرق وجه سعيد بابتسامه مستبشرة، ونهض من مكانه وهو يقول:

- بارك الله فيك يا بني، ارى انك قد تجاوزت المرحلة الاولى بنجاح، وقد آن اوان المرحلة التالية..

قالها بكثير من الغموض، حتى أن علاء أخفق تماما في فهم ما يرمي إليه هذه المرة، وهو يحدث نفسه:

- عن أي مراحل يتحدث؟؟ هل أنا متدرب عنده!!

بدا سعيد على غير عادته جادا جدا وهو عائد من صلاة العشاء بصحبة علاء، وفي فناء المنزل، حيث أرسل القمر خيوطه الفضية لينسج أروع صورة لهذا

الليل البهيم، جذب سعيد مقعدا ليجلس عليه وأشار إلى علاء أن يجلس قربه على مقعد مجاور، وبعد أن استقر بهم المكان، قال سعيد:

- لقد انتشر خبر مفرح في الآونة الأخيرة عن مدرسة تربي الفتيان على الفروسية الإسلامية، يقوم عليها أناس صالحون..

لم يكد سعيد يتم جملته حتى هتف علاء بحماسة:

- إذن سأذهب فورا إلى هذه المدرسة..

قاطعه الشيخ:

- ليس بهذه السهولة يابني؛ فالمدرسة ليست بهذه المنطقة!

فسأله علاء بلهفة:

- وأين هي إذن هل هي بعيدة من هنا؟

فأجابه الجد سعيد:

- تستطيع قول هذا.. فهي تقع في منطقة الجبال، وأظنها في مدينة رياح تحديدا..

فرد علاء بجزم منقطع النظير:

- لا بأس، سأبدأ بالتحضير للرحلة من الآن إن شاء الله..

فتنهد سعيد:

- لا تنس أنك لا تمتلك (رقعة تجوال جلدية) خاصة بك، لعبور حدود المناطق المختلفة حتى تصل إلى تلك المدينة!!

بدا للحظات أن بريق الأمل قد خبا وهجه.. لكن سعيد أسرع يزيح ذلك العبء الثقيل، بابتسامة مشجعة:

- لا تقلق يابني ثق بالله وتوكل عليه، وها أنا ما زلت أبذل قصارى جهدي لإنهاء الإجراءات اللازمة لاستخراج رقعة تجوال لك، فقد أصبحت أمرا ضروريا في هذه الأيام وقد لا يُعترف بك شخصيا من دونها!

ولم يكن علاء بحاجة لمن يعرفه بأهمية هذه الرقع الجلدية، وقد ذاق هو وأهله المر بسببها، في حين تابع سعيد كلامه:

- لقد قاربت على إتمام تلك الإجراءات تقريبا، ويبقى حضورك لاجراء الخطوة الأخيرة واستلام رقعة التجوال الجلدية بنفسك..

وابتسم قائلا:

- الصبر جميل وعواقبه محمودة بإذن الله.. وتأكد أن جدك سعيد سيكون إلى جانبك وعند حسن ظنك دوما إن شاء الله..

لم يتمالك علاء نفسه فقفز يعانقه بحرارة:

- جزاك الله خيرا يا جدي، هذا أروع خبر سمعته حتى الآن..

ثم أدرك أن هذا يعني أنه على وشك فراق الجد سعيد قريبا، فشعر بحزن لم يتمكن من اخفائه..

مضت أيام قليلة اجتهد فيها علاء أن ينهل من حكمة الجد سعيد، ويستفيد من خبرته قدر استطاعته، حتى جاء ذلك اليوم الذي اكتملت فيه الإجراءات وكانت لحظة الفراق التي عاشها علاء للمرة الثانية، ربت سعيد على كتفه مشجعا:

- لقد بدأت المرحلة الثانية في طريقك يا بني، السفر مدرسة الحكم، توكل على الله وثق به ولا تعجز..

ولم يستطع سعيد مواصلة كلامه، وهو يحاول حبس دمعة نفرت من عينيه، وبدا علاء أكثر تجلدا، فشد على يده وهو يقول مطمئنا:

- اطمئن يا جدي، ولا تقلق علي، فسأبذل جهدي كي أكون عند حسن ظنك باذن الله، لن أنسى ما تعلمته منك، وسأرجع قائدا فاتحا قويا و صالحا باذن الله، وجزاك الله خيرا على كل ما قدمته لي..

تهلل وجه سعيد بابتسامة عريضة، رغم حزنه لفراق علاء:

- حفظك الله يا بني، استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه..

سارت العربة بجموع المسافرين، وقطعت الأميال الطويلة وعلاء شارد الذهن لايعي مايمر به من مناظر عبر الطريق، غارقا في أفكاره حتى انتبه إلى صوت يخاطبه:

- تفضل هذه الشطيرة يابني..

التفت علاء إلى الرجل الجالس قربه، فوجده رجلا وقورا قدّر أنه في مثل عمر والده تقريبا، ولم يخف عليه ملاحظة ذلك الشبه الخفيف بينهما. لاحظ الرجل تلك النظرات الفاحصة رغم شرودها، فابتسم وهو يقدم لعلاء شطيرة كبيرة:

- تفضل هذه يابني..

فبادله علاء الابتسام:

- جزاك الله خيرا ياعمي.. لدي مايكفيني من طعام، واني لا أشعر بالجوع..

لم يخف الرجل دهشته لهذا الجواب، فقال مستفسرا:

- لقد مضى يوم كامل تقريبا وأنا برفقتك، وأظنك صعدت من محطة سابقة، ورغم ذلك لم أرك تأكل شيئا، فكيف لا تشعر بالجوع يا بني!!

ثم أردف متسائلا:

- هل هناك مايشغل بالك؟

لم يجد علاء جوابا، فتابع شروده بصمت. وأخيرا بادره الرجل وقد شعر بشفقة غامرة نحوه، فقدم نفسه قائلا:

- ادعى المعلم عامر، ومعظم تلامذتي في مثل سنك، فلم لا تشاركني همومك يابني؟

تنهد علاء محاولا الابتسام:

- وأنا ادعى علاء، تشرفت بمعرفتك يا عمي فوالدي معلم أيضا..

حاول الرجل الحذر في حديثه، خشية إيذاء علاء، لاسيما وقد لاحظ تلك النبرة الحزينة التي علت صوته، فقال مشجعا:

- إذن سيسعد والدك كثيرا برفقتي لك، وسيسره أن تناقشني بما يهمك، فالمعلمون عادة يشعرون ببعضهم البعض..

أدرك علاء في تلك اللحظة سبب شعوره بذلك الشبه الخفي الذي ربط بين الرجل ووالده، فلكلاهما الهيئة نفسها، تلك الهيئة التي يمتاز بها المعلمون.. فشعر براحة كبيرة نحوه..

لم يدع عامر علاء لأفكاره كثيرا، إذ سرعان ما انتزعه منها قائلا:

- وما اسم والدك ؟ فربما أكون قد التقيته سابقا..

ابتهج علاء لهذه الفكرة وهو يقول بلهفة:

- نور الدين منصور، هل تعرفه يا عمي؟

حاول عامر التذكر، وأخيرا قال:

- أعتقد أنني التقيته في منطقة الأنهار، حيث عقد اجتماع للمعلمين في مدينة نهر..

ثم هز رأسه مؤكدا:

- أجل هذا صحيح، وأذكر وقتها أنه طرح فكرة رائعة لعلاج مشكلة واجهتنا آنذاك، ولكن للأسف لم يتسنى لي الحديث معه على انفراد رغم اعجابي الشديد به..

وتابع مبتسما:

- وهاهي الأيام تدور لألتقي بابنه، فالحمد لله القائل ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾

ورغم صعوبة السؤال؛ إلا أن عامر لم يجد بدا من طرحه، فغامر أخيرا بقوله:

- وماهي أخباره الآن يا بني؟

أطرق علاء بحزن قبل أن يجيب:

- تقصد أخبار أبي نور الدين؟

- أجل، هل هناك مايزعجك يابني؟

فانطلق علاء بلسانه ومشاعره يروي قصته بأحزان قلبه وأشجان نفسه..

تنهد عامر بأسى:

- إذن أنت من أبناء مدينة شمس، التي طرقت أخبارها مسامعنا في الآونة الأخيرة! كان الله في عونك يابني..

ثم أخرج من حقيبته صحيفة صفراء، مخاطبا علاء ليدخل جوا من الألفة بينهما:

- ليس من عادتي شراء هذه الصحف، خاصة وانها تكتب أحيانا بخط غير جيد، فيكفيني متابعة أهم العناوين الرئيسة على جدر الأخبار كلما تسنى لي ذلك، لكن خبر مدينة شمس بالذات شدني لمتابعة تفاصيله..

وبعد أن فتح الصحيفة على موضوع محدد، أشار إلى علاء بقراءته، فتناولها وقرأ باهتمام:

- " ورغم اخلاء السكان للمدينة، إلا أن جنود رامان بدوا في غاية الحيطة والحذر مع قلق شديد لاشتباههم بوجود بعض الكمائن.."

ابتسم علاء رغم الألم، ولاذ بالصمت..

وبعد فترة قال عامر:

- سنعبر حدود منطقة السهول بعد قليل..

ثم نظر إلى علاء متأملا:

- ما تزال الطريق طويلة نحو منطقة الجبال، فهلا نزلت في ضيافتي بعض الوقت؟ فليس هناك ما يحتم عليك العجلة يابني..

أطرق علاء مفكرا وبدا عليه تردد كبير وكأنه أمام خيار صعب، فربت عامر على كتفه بهدوء:

- لا بأس، لديك الوقت الكافي للتفكير واتخاذ قرار حاسم فأنت الآن مسؤول عن نفسك..

لم يمض وقت طويل، حتى توقفت العربة خلف صف طويل من العربات المختلفة، والتي تحيط بها من كل جانب.

فالتفت علاء إلى عامر متسائلا:

- وصلنا ياعم؟

ابتسم عامر:

- ما تزال أمامنا طريق طويلة نحو المدينة، ولكنها الحدود التي تفصل بين المناطق المختلفة..

ثم تابع:

- قد نقضي معظم وقتنا هنا..

قال كلمته الأخيرة وهو ينهض مع المسافرين استعدادا للنزول، واقفين في صف طويل وقد أنهكهم التعب والإرهاق، وبينما هم كذلك إذ طرق سمع علاء مشادة كلامية حادة؛ تبين له فيها صوت امرأة تجادل أحد المسؤولين، واحتد النقاش حتى صاح المسؤول بشدة:

- لا أريد سماع كلمة أخرى.. لقد أخبرتك مرارا أن رقعة تجوالك الجلدية غير صالحة، ولن أسمح لك بالعبور مهما حدث..

توسلت إليه السيدة مرة أخرى:

- أرجوك، زوجي بانتظارنا..

لكنه قاطعها بشراسة:

- لا شأن لنا بزوجك ، فلا تضيعي وقتنا بتفاهاتك فأنت تحتاجين إلى شهر على الأقل حتى ننظر في أمرك..

وعلا صوت بكاء طفل صغير التصق بها في لحظة كانت قد فقدت فيها ما تبقى لها من رباطة جأش؛ فما كان منها إلا أن صفعته تحاول اسكاته، ثم انهارت باكية وهي تضمه إليها. أما ذلك المسؤول فقد لوى رأسه لا مباليا وكأن الأمر لايعنيه، وذهب مع رفاقه لاستقبال عربة وصلت في تلك اللحظة..

التفت علاء إلى عامر الذي تابع المشهد بصمت وكأنه اعتاده، فهزه قائلا:

- أرجوك ياعمي ساعدها إنها مسكينة..

فهز عامر رأسه بأسف:

- ليس بوسعنا فعل شئ يابني، هذا قدرها وهي ليست الوحيدة هنا..

نظر علاء إليه بوجوم، ولسان حاله يقول:

- أيقف الرجال مكتوفي الأيدي، ويكتفون بالمشاهدة!

ثم أطلق زفرة طويلة يحدث فيه نفسه:

- لا أظن أن أبي كان سيرضى بمثل هذا الهوان..

لم يستطع عامر تحمل تلك النظرات المؤنبة؛ فأشاح بوجهه بعيدا وهو يقول:

- ماتزال هناك الكثير من الأمور التي تجهلها في هذا العالم يا بني..

لم ينتبه علاء كثيرا لتلك الكلمات، فقد أثارت تلك العربة المزركشة اهتمامه، والتي جلبت اهتمام المسؤلين، ولم يخف عليه ملاحظة أشكال ركابها الغريبة، وقد ارتفع صوت الغناء الفاحش منها، ولم تمض لحظات حتى تابعت العربة سيرها آمنة، بعد أن أبرز سائقها رقعة خاصة، ليتابع المسافرون عبثهم بحرية دون أن ينزل مسافر واحد منها..

لم يتمالك علاء نفسه من نظرة متسائلة ألقاها في عيني عامر:

- ما هذه العربة يا عم؟ لا أظن أنهم من المسلمين، فأشكالهم لا توحي بذلك!!

أومأ عامر:

- هذا صحيح، فنادرا ما يكون بينهم مسلم، وإن كانت أصوله مسلمة فإنه في العادة لا يبقى له منها إلا الاسم فقط، إنهم المتجولون الذين يتجولون في المناطق المختلفة لرؤية مشاهدها ومناظرها، بغية المتعة والترفيه، وقد يرتكبون فيها ما يخجل السوي من ذكره..

فتساءل علاء:

- ولماذا لايقفون مثلنا!!

فأجابه عامر والحسرة بادية في نبرته:

- لا تنس أنهم من ممالك ثرية تتحكم في مصائر المناطق الأخرى، ومن مصلحتنا احسان معاملتهم واحترامهم..

نطق الجملة الأخيرة بألم لاحد له، ثم قال:

- من الأفضل لنا أن لا نتكلم كثيرا في مثل هذه الأمور تجنبا لمشاكل نحن في غنى عنها..

لم ينبس علاء ببنت شفة، وهو يشعر بعار لم يشعر بمثله قط، حتى جاء دوره في الصف الطويل، وبعد أن تناول المسؤول رقعته، نظر إليها متفحصا قبل أن يسأله:

- وجهتك الى مدينة رياح.. مسافر وحدك؟

رد علاء بالايجاب، فتابع المسؤول بلطف لم يتوقعه علاء؛ بعد أن كوّن صورة سيئة لجميع العاملين هنا:

- للأسف يا بني.. لن تستطيع متابعة رحلتك نحو منطقة الجبال بهذه الرقعة وحدها، فلن يسمحوا لك عبور حدودها قبل أن تلحق بها رقعة أمنية خاصة، ومن الأفضل أن تتم أمورك كلها قبل مغادرة منطقة السهول، قد تحتاج إلى شهر على الأقل، اذهب الى مركز مدينة سهل أولا.. خذها نصيحة مني..

كتم علاء شهقة كادت تفلت منه لولا أن بذل جهده لضبط نفسه، وهو في حيرة من أمره، لكنه شكر المسؤول بأدب، وحاول أن يستفسر منه أكثر عن الموضوع غير انه بدا مشغولا جدا ولا وقت لديه للإدلاء بأي معلومات اضافية، فربت عامر على كتف علاء مواسيا:

- لا بأس يا بني ستنزل في زيارتي، وباذن الله ييسر الله أمرك..

سار علاء إلى جانب عامر في أحد شوارع المدينة المزدحمة، لكنه توقف فجأة وقد احمر وجهه، فرمقه عامر بنظرة متسائلة:

- ما بالك يا بني! هل أصابك مكروه لاقدر الله؟!

لكن علاء حار في جوابه، فاكتفى بأن أشار بإصبعه:

- انظر هناك يا عمي!

فإذا نساء كاشفات لسيقانهن، باديات الظهور والنحور يتمايلن ويراقصن رجالاً وشباناً في مقتبل العمر أمام أحد المحلات الممتلئة بالرواد من أمثالهم..

فتنهد عامر تنهيدة طويلة:

- وهل ما أصابنا إلا من جراء هذا وأمثاله، لقد انتشر الفساد يابني حتى عم جميع المدن الاسلامية، فلم تسلم مدينة واحدة منه..

فقال علاء مستنكرا:

- ولكن هذا كثير! أهكذا علناً على مرأى ومسمع من الجميع؟!!

زفر عامر بأسى:

- لم يعد هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. حتى أن النفس باتت تستثقل انكاره وتحسب ألف حساب لما ستلاقيه من سخرية واستهزاء، فلربما وصل الأمر إلى الإيذاء!

وأسرع عامر بخطاه يبتعد عن المكان الذي لا يجد لنفسه حيلة فيه، وهو يقول:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)، وهانحن يابني بالكاد نطيق أضعف الإيمان، فكثرة مشاهدتنا للمنكرات ومعايشتنا لها كادت أن تطبق على قلوبنا فلايرى المنكر منكرا ولاحول ولاقوة إلا بالله..

تردد علاء كثيرا قبل أن يتكلم أخيرا:

- لقد سمعت والدي يقول دائما أن علينا البدء بأنفسنا قبل القاء اللوم على الآخرين!

ثم التقط نفسا عميقا تابع على إثره:

- اعذرني يا عماه..

خفق قلب عامر بشدة فقد حاول منذ البداية تجنب مثل هذه المواجهة مع هذا الصغير، الذي يفترض أن يكون قدوة له، لكنه استسلم للأمر الواقع وتلقى تلك الصفعة القوية بكلام علاء:

- لماذا لا تبدأ أنت مثلا وتكلمهم بالكلمة الطيبة، لعل الله أن يجعل هدايتهم على يديك؟

فقال عامر وهو يحاول جاهدا الخروج من مأزق حرج:

- أعتقد أننا بحاجة لمضاعفة قوة ايماننا لنواجه مثل هذه المواقف!

فتابع علاء كلامه بإصرار:

- ولكنك لم تحاول ذلك ياعمي، أليس كذلك؟ لماذا لا تجمع رجالا صالحين أمثالك؛ فتكونون يدا واحدة يسهل عليها مواجهة الصعاب.. فالإتحاد قوة..

زفر عامر بقوة:

- ليس الأمر بهذه السهولة التي تظن..

ولاذ الاثنان بالصمت وهما يتابعان المسير..

لم يكد عامر يدلف إلى حديقة منزله، حتى تقافز حوله أبناؤه الثلاثة يعانقونه وخرجت زوجته للترحيب به، فانزوى علاء جانبا وقد أخذ لبه مارآه وعاد بذاكرته إلى مدينته التي خرج منها تائها وحيدا.. لكن عامر سرعان ما انتبه له رغم نشوته وسعادته بلقاء أسرته فقدمه إليهم وعرفه بهم مرحبا:

- خالتك هدى بمثابة أمك..

أومأت هدى برأسها مرحبة:

- أهلا بك يا بني، اعتبر نفسك في منزلك..

وما لبث أن وجد علاء نفسه في صالة فسيحة، وقد تحلق الأولاد الثلاثة حوله يستمعون لقصته..

وما إن انتهى منها حتى قال سالم- وهو أكبرهم:

- لا أستطيع تصديق ذلك، هل كنت وحدك طوال تلك المدة! الأمر يبدو مستحيلا!!

ونهض باتجاه رف معلق على الجدار، تناول من فوقه لفافة مهترئة..

علق حذيفة- وهو في مثل سن علاء:

- أخي يحب الخرائط كثيرا، وهو يتمنى دائما القيام بمغامرة مثيرة يكتشف فيها العالم..

فقال يمان – الأخ الأصغر وقد قدر علاء أنه في مثل عمر أخته الراحلة هناء:

– هذا صحيح وهو يخرج مع رفاقه إلى الجبال في أطراف المدينة، وكثيرا ماتوبخه أمي لتأخره عن المنزل..

فقال سالم بنبرة غاضبة:

– لا تنسوا رجاءكم لي كي أصطحبكم معي..

ثم فتح اللفافة أمامهم قائلا:

– دعونا نرى.. ها هي منطقة المروج الخضراء..

وأشار إلى نقطة محددة:

– وهنا تقع مدينة شمس..

ثم نظر متأملا قبل أن يقول:

– لا يوجد ذكر على هذه الخارطة لزهر الرمال، يبدو أنها بلدة صغيرة جدا، وبما أنها على مقربة من حدود منطقة الرمال فأظنها تقع هنا..

قال جملته الأخيرة وهو يشير بيده إلى الخارطة، متابعا توضيحه:

– حسنا.. هذا هو مسار علاء؛ وفي هذه المحطة التقى بأبي القادم من منطقة السواقي، إلى أن عبرا حدود منطقة السهول ووصلا مدينتنا سهل أخيرا..

كان الجميع يتابع سالم باهتمام، في حين صمت قليلا قبل أن يقول:

– ستسلك هذا الطريق يا علاء وستقطع مسافة طويلة عبر منطقة السهول، قبل أن تصل حدود منطقة الجبال..

كان من الواضح أن منطقة الجبال تحتل المساحة الأكبر من بين المناطق على الخارطة.. قال سالم وهو يشير إلى الجزء الشرقي من منطقة الجبال:

- الحمد لله، من لطف الله أن مدينة رياح تقع على مقربة من الحدود المتاخمة لمنطقة السهول، أي أنك لن تضطر لقطع مسافة طويلة داخل منطقة الجبال حتى تصل إليها..

ثم ابتسم وهو ينظر إلى علاء:

- هذا جيد يكفيك المسافة التي ستقطعها عبر منطقة السهول، فمدينة سهل من مدنها البعيدة عن الحدود..

كان علاء يتابع المسار الذي أشار إليه سالم على الخارطة باهتمام كبير، ثم قال:

- جزاك الله خيرا، لقد أفدتني كثيرا يا سالم، تبدو ضليعا في عالم الخرائط بشكل يثير الإعجاب فعلاً، ما شاء الله..

فابتسم سالم بحرج:

- لا تبالغ يا علاء، فأنا لم أفعل شيئا..

لكن حذيفة وكزه مازحا:

- لا تدّع أنك لا تسر للمديح يا أخي..

وضحك يمان بمرح:

- لن تسلم من سالم هذه الليلة يا حذيفة على هذا الإحراج الذي سببته له..

تمعر وجه سالم من إحراج أخوته له وابتسم علاء مهدئا:

- لا بأس يا سالم، هكذا هم الصغار دائما يضعون أخوتهم في مواقف لا يحسدون عليها..

عندها ابتسم سالم، وهو يقلب الموقف لصالحه، ويرد لهم الصاع صاعين:

- ليس بوسعنا غير تحمل سخافاتهم..

فقاطعه يمان:

- هل تقصد أنني سخيف!!

وهنا دخل عامر:

- السلام عليكم، ما هذا الضجيج يا أولاد!! لقد وصل علاء لتوه من السفر ويجدر بكم عدم إزعاجه!

لكن علاء ابتسم قائلا:

- كلا يا عمي، لم انزعج أبدا، فأنا سعيد بصحبتهم، وقد زال عني عناء السفر بحمد الله..

فابتسم عامر وقد اطمأن قلبه:

- إنني سعيد لسماع هذا..

ثم التفت إلى سالم:

- أمك تدعوك لمعاونتها في تجهيز العشاء..

أما يمان فقد ابتسم لعلاء قائلا– وقد نسي بسرعة ما كان بينه وبين سالم قبل لحظات:

- الحمد لله أننا في عطلة، وسنقضي أوقاتا جميلة معك يا علاء..

فابتسم علاء بدوره:

- إن شاء الله..

استغل حذيفة هذه الفرصة، فقال:

- سنأخذك في جولة تعريفية لمدارسنا يا علاء إن شاء الله..

بدت البهجة على وجه علاء– وهو يقول بفرح باد:

- هذا رائع..

في حين تابع حذيفة:

- في الحقيقة أنا وسالم نعتبر المدرسة بيتنا الثاني، ونشعر بانتماء شديد لها وبحمد الله نحن الأوائل دائما..

ثم رمق يمان بنظرة ذات مغزى، موجها حديثه لعلاء:

- أنت مجتهد مثلنا يا علاء، أليس كذلك؟

أومأ علاء رأسه بالإيجاب:

- بلى والحمد لله، و قد كنت أحرص على أن أكون مثلكم الأول دائما بفضل الله..

عندها قال حذيفة:

- أرأيت يا يمان حتى علاء مجتهد أيضا!

أطرق يمان رأسه خجلا، في حين أدرك علاء المغزى من هذا الحوار فقال مشجعا:

- إنني متأكد من قدرات يمان فهو يشبه شقيقتي هناء، كانت ذكية جدا لكنها تضيع وقتها باللعب دون تنظيم..

فسأله يمان بلهفة:

- وأين هي الآن يا علاء؟

لم يكد ينطق بتلك العبارة؛ حتى وخزه حذيفة في خاصرته، لكن علاء ابتسم قائلا:

- لا بأس يا حذيفة..

ثم تابع:

- لقد قتلت أختي في أول هجوم للأعداء من جنود رامان على مدينتنا، كانت وقتها تلعب خارج المنزل مع صديقاتها ولم تستمع لكلام أمي..

و حدق النظر في عيني يمان قائلا:

- أرأيت قسوة الأعداء وشراستهم يا يمان، لذا حق علينا التصدي لهم بالعلم والعمل معا، أليس كذلك؟

فقال يمان وقد احمر وجهه من الخجل:

- بلى يا علاء، أعدك أن أحاول بذل جهد أكثر..

***

في الصباح الباكر، بعد أن أدى علاء صلاة الفجر مع عامر وأبنائه في الجامع القريب، همس حذيفة في أذن علاء بضع كلمات؛ خرج علاء على إثرها من المسجد مسرعا بصحبة سالم وحذيفة، وهم يتسللون خفية بين المصلين، الذين قعدوا للاستغفار وقراءة القران بعد الصلاة، خشية أن يلمحهم يمان. كان سالم يجري أمامهم في حين لحقه الباقون، ونسمات الفجر الباردة تداعب وجوههم وتنعش نفوسهم، وحذيفة يخاطب علاء موضحا:

- سالم يخشى أن تسبقنا الشمس في شروقها؛ فيفوتنا المنظر الجميل من الكوة..

لم يفهم علاء ما الذي يقصده حذيفة بالكوة، لكنه جرى وهو يشعر بسعادة لا حدود لها. قطعوا مسافة كبيرة حتى وصلوا بناء ضخما لم يتبين علاء ملامحه جيدا في البداية، استداروا حوله ثم دلفوا من البوابة، بعد أن أشعل سالم شمعة معه ليجد علاء نفسه أمام ساحة كبيرة، تحيط بها الأروقة المسقوفة شاهقة الارتفاع من كل جانب، وقد تهدمت بعض الأجزاء من جدرانها الضخمة العملاقة، كان علاء مبهورا بما يراه، لا سيما وأن الظلال المرسومة بضوء الشمعة على الجدران؛ زادت من رهبة المكان وغموضه..

قال حذيفة:

- هذه قلعة السلم ثالث أكبر قلعة حربية على زمن الخليفة عبد القادر أوروج الأول..

هتف علاء دهشة:

- منذ أكثر من أربعمائة عام!!

ثم أشار له سالم أن يتبعه، قائلا:

- انتبه يا علاء، فسنعبر من هذا الممر الضيق حتى نصعد الدرج إلى الطوابق العلوية..

سار الثلاثة بحذر، وسالم يصدر التنبيهات بين الفينة والأخرى:

- الدرج مكسور هنا انتبهوا.. الزموا المسرب الأيمن... ابتعدوا عن الحائط الغربي..

في حين امسك حذيفة بيد علاء محذرا:

- قد يكون الانزلاق خطيرا أحيانا، انتبه يا علاء فالمكان مظلم..

حتى علق علاء أخيرا:

- الآن فهمت لماذا لم تصطحبوا يمان معكم..

فابتسم سالم:

- نأمل أن لا يكون غاضبا منا الآن..

كان الصبح قد بدأ يسفر عن معالم المكان، وهو يتسلل من الشقوق والنوافذ، عندما وصلوا السطح أخيرا. وأمام فتحة في الجدار الشرقي، وقف الثلاثة يتأملون أجمل منظر للشروق لم يحلم علاء برؤية مثله قط..

بدأت الشمس ترسل أولى خيوطها الذهبية لتلمس كل ما تقع عليه بلمستها السحرية، فتحيله من لونه الباهت القديم، إلى لون مشرق لامع، دون أن تفقده عبق التاريخ الذي يفوح من بين جنباته..

خيم صمت مطبق إلا من التسبيح بعظمة الخالق البديع، لم يقطعه إلا جملة سالم:

- من هنا تشرق الشمس!

قالها بنبرة غامضة، أشعرت علاء بأن وراءها معاني عميقة لامست خلجات نفسه..

ثم أطلق سالم لحنا مميزا، رأى علاء على إثره صقرا ضخما يحلق في السماء فوقهم حتى استقر على جدار الفتحة أمامهم ليرسم لوحة نادرة مع ضياء الشمس من خلفه وهو يحدق في عينيه بقوة، ولمعت صورة الجد سعيد في ذهن علاء فجأة وكأنه يخاطبه:

- إنها الحكمة، خذها يا علاء بقوة واعقلها.. كن صقرا قويا، امضِ قدما، ولا يضعف من عزيمتك أن تركت مدينة شمس خلفك!

وهتف علاء بقوة:

- أجل، من هنا تشرق الشمس..

انطلقت كلماته بصرخة مدوية، تردد صداها بالآفاق، فزع لها الصقر فحلق في الهواء بعيدا، في حين تبادل سالم وحذيفة نظرات استفهام، قبل أن ينتبه علاء الى نفسه، فالتفت إليهم باسما:

- اعذروني يا رفاق، لكنها حكمة الجد سعيد..

وضحك الثلاثة قبل أن يقول سالم:

- لقد شوقتنا لرؤية هذا النبع من الحكمة.. الجد سعيد..

ثم استطرد بمرح:

- أفزعت شهاب قبل أن أعرفك به..

ثم قال:

- وجدته فرخا صغيرا فاعتنيت به إلى أن أقنعني أبي بضرورة إطلاقه، وها نحن كما ترى ما زلنا أصدقاء بفضل الله..

فقال علاء:

- كم هذا رائع، أتعلم؛ هذه أول مرة أرى فيها صقرا عن قرب، لقد أدركت الآن تماما لماذا يضرب المثل بقوته، لن استطيع نسيان عينيه ونظراته القوية، شعرت بأنها تكفي لاختراق جدار من الصلب..

ثم صمت متأملا وهو يردد:

- شهاب.. يا له من اسمٍ لصقر!

فعلق حذيفة مبتسما:

- أخي عاشق الطبيعة، كان مغرما بمتابعة الشهب عندما وجد صقره الصغير..

فابتسم علاء:

- هكذا إذن!

ولاحظ انشغال سالم بمتابعة الصقر وهو يحلق في السماء، فالتفت إليه حذيفة قائلا:

- لا شك أنه غارق في أحلامه.. يريد الطيران عاليا مثل الصقر..

واستطرد:

- أتعلم يا علاء، كلما نأتي إلى هنا لا أملك نفسي من التفكير في الخلافة الإسلامية التي انهارت..

وأطلق تنهيدة طويلة وهو يقول متحسرا:

- من يرانا الآن وقد انقسمنا إلى سبع وستين منطقة؛ لا يصدق أبدا أننا كنا تحت خلافة واحدة ذات يوم!

ثم سأل علاء على حين غرة:

- تأخذون دروس (الحوادث والأيام) في مدارسكم في منطقة المروج الخضراء، أليس كذلك؟

أومأ علاء إيجابا:

- أجل ..

فتابع حذيفة:

- إنني أتساءل يا ترى ماذا تأخذون عن تفكك الخلافة الإسلامية الأخيرة وتفرق المناطق؟

أعاد علاء السؤال بتأن:

- ماذا نأخذ عن ماذا؟؟ لا أفهم قصدك يا حذيفة!

فتدخل سالم- الذي أفاق من أحلامه:

- إن أخي يمثل دور الباحث عن الحقيقة بعد أن اختلطت عليه الأمور، وكأنه يحذو حذو سيدنا سلمان الفارسي- رضي الله عنه- في بحثه عن الدين الحق!

فقاطعه حذيفة:

- لقد زدت الأمر تعقيدا يا سالم!!

ثم تابع موجها حديثه لعلاء:

- ماذا درستم عن الخليفة عبد السلام أوروج، وسقوط الخلافة الإسلامية في الحقبة الأخيرة تحديدا؟

حدق علاء بعيدا- يحاول جمع أفكاره- ثم قال :

- درسنا هذا في المرحلة السابقة، لذا أعتقد أنني مازلت أذكر جيدا ما أخذناه..

ثم التقط نفسا قبل أن يقول:

- نعم لقد كان الخليفة مصابا بعقله، ويعتقد أنه هو من أنهى حياته بنفسه، فاستولى وزرائه على الحكم ومعظمهم من المفسدين، مما شجع الغزاة الكافرين دخول بعض المناطق الإسلامية، فعاثوا فيها فسادا لذا كان لابد من التصدي لهم وإصلاح الفساد، وبفضل جهود الأناس الصالحين تحررنا من سيطرة الخلافة الفاسدة..

ابتسم حذيفة وهو يشدد على جملة الأناس الصالحين، ثم قال:

- وبالتأكيد فإن الأناس الصالحين هم أسلاف حاكم منطقتكم، أليس كذلك؟

ورغم لهجة حذيفة الساخرة إلا أن علاء أجاب بجدية كبيرة:

- هذا صحيح، درستم هذا أيضا؟

لم يتمالك سالم وحذيفة نفسيهما من الضحك، لكن سالم أسرع يعتذر:

- أعذرنا يا علاء فنحن لم نقصد السخرية منك على الإطلاق، كل ما في الأمر أنك لم تدرس إلا في منطقتك، ولو كنت تعرف ما نعرف لشعرت بما نشعر به الآن..

لكن ملامح الحيرة تضاعفت على وجه علاء، وهو يقول:

- مازلت لا أفهم ما ترمون إليه!! -

تلاشت علامات المزاح عن وجه حذيفة، وهو يقول جادا:

- سأوضح لك أكثر.. فنحن هنا مثلا في منطقة السهول، درسنا في (الحوادث والأيام) أن إصلاح الفساد انطلق من منطقتنا وقد قام (أناس صالحون)- وهم بالطبع أسلاف حاكم منطقتنا- بمحاربة الخليفة الظالم المفسد الذي لا يحكم بالعدل فخرجوا عليه وانفصلوا عنه، ثم أقاموا العدل وأصلحوا الفساد في هذه المنطقة التي أصبحت تحت حكمهم، فيما قام أقرباء الخليفة بقتله انتقاما منه..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- وعندما كنا في منطقة السواقي قال لنا المدرس، أن منطقة السواقي كانت أول من حاول التصدي لغزو الكفار الذين حاولوا تمزيق الخلافة الإسلامية، لكن الخليفة الخائن منعهم من ذلك فقام (أناس صالحون)..

عندها تدخل علاء وقال باسما:

- وبالطبع هم أسلاف حاكم منطقة السواقي..

ضحك الجميع وقال سالم:

- أحسنت يا علاء، لقد بدأت تفهم اللعبة..

ثم التفت علاء إلى حذيفة، يحثه على اكمال الحديث، فتابع:

- أظنك تعرف الباقي.. ولكن ما أريد إضافته هو ما أخبرنا به مدرس الحوادث والأيام هنا في منطقة السهول عن كون منطقة السواقي بؤرة فساد، ولم تتورع عن التعاون مع الأعداء!

ثم زفر قائلا:

- كل منطقة تمجد دورها في الإصلاح، ولا تتورع عن إلقاء اللوم على المناطق الأخرى في تمزق الخلافة.. وهكذا.. تستمر الحكاية!

تنهد علاء:

- انا لله وانا اليه راجعون..

فقال سالم:

- من لطف الله بنا أن المكان خال في هذا الوقت المبكر من الصباح، ولا أحد هنا، وأرجو أن لا يكون قد سمعنا أحد وإلا لكنا في مكان آخر!!

وخيم صمت قطعه علاء مستدركا:

- لقد قلت يا حذيفة أنكم تنقلتم بين أكثر من منطقة، فلماذا تتنقلون أليس في ذلك مشقة عليكم؟

فتنهد سالم:

- وهل تظن أن هذا بمحض إرادتنا! إننا مضطرون لذلك، ولا تسل عما يسببه هذا من تعب وإرهاق لنا وخاصة أمي التي لم تعد تحتمل كثرة السفر والترحال، فأصبحت تتحمل المسؤولية وحدها في غياب والدي، لذا تراها عصبية أحيانا..

ثم تنهد بأسى:

- وهل تظن أن فراق أصدقائنا سهل علينا ومن ثم بدء علاقات جديدة؟؟

أطلق علاء زفرة حادة بثها آلامه وهمومه:

- بل أعرف ذلك جيدا يا صديقي..

انتبه سالم لنفسه:

- عذرا لم أقصد إزعاجك مطلقا، وبالتأكيد نحن لم نلق ما لاقيته.. إنها حال الدنيا لقاء وفراق، ولكل منا همومه وأحزانه..

عندها قال حذيفة:

- إن أشد ما تلاقيه رغم ذلك كله، هو حسد بعض الأقربين لك وكأنهم يستكثرون نعمة الله عليك، فبالرغم من ابتعادنا عن أبي الذي يزورنا في الأعياد تجد الناس...

فقاطعة سالم:

- لا تكثر الحديث في مثل هذه المواضيع يا حذيفة، انهم قلة قليلة فأحسن الظن بهم، ولا تطلق الأمر وكأن الجميع هكذا!! سامحنا وسامحهم الله، فيكفينا ما نلاقيه من أعدائنا بالخارج!!

زفر حذيفة بضيق:

- هذا صحيح.. ولكنهم ..

وبتر عبارته بأسف، فتدخل علاء ليدور بمحور الحديث:

- ولكنني ما زلت لا أفهم لماذا لا تسكنون مع والدكم في المدينة نفسها؟

فأجاب سالم:

- هذا ما كنا نأمله منذ البداية ولكن قدر الله وما شاء فعل، فقد استطاع أبي مؤخرا التدريس في مدارس منطقة السواقي، بعد أن تم الإستغناء عنه في منطقة البحيرات حيث كنا نقيم معه؛ بحجة إعطاء فرصة لأبناء المنطقة نفسها، ورغم محاولتنا الجاهدة اللحاق بأبي في منطقة السواقي، إلا أننا منعنا من دخول مدارسها بصفتنا (غرباء).. وها نحن كما ترى نقيم هنا في مديتنا بينما يعمل أبي في منطقة أخرى..

تنهد علاء:

- كان الله في عونكم.. حقا لكل منا همومه وآلامه..

ثم استدرك متسائلا:

- ماذا تعني بغرباء يا حذيفة؟

فقال حذيفة بتهكم:

- إنهم يطلقون هذا الاسم في منطقة السواقي على كل من لا ينتمي إليها، وإن كانوا من المسلمين أمثالهم حتى ممن نشأ وأقام فيها سنوات طويلة، فلا يحق لهم المطالبة بحقوق الفرد الاعتيادية، مع إبخاسهم الكثير من حقوقهم الأخرى..

علق علاء والأسى باد على وجهه:

- إنني أراها بالضبط تدخل في باب العصبية، التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم (دعوها فإنها منتنة)!

عندها تدخل سالم بنبرة ساخرة:

- طبعا هذا الكلام لا ينطبق على المتجولين من غير المسلمين، أو من يشرفنا زيارته من الممالك الكافرة، إذ أن حقوقهم أكثر حتى من أبناء المنطقة نفسها..

فشهق علاء، وقد تبادرت إلى ذهنه صورة تلك العربة المزركشة التي قابلها على الحدود:

- إن الأمر أسوأ مما توقعت بكثير.. ثم تابع وبدا مترددا قبل أن يسأل:

- وما الذي يدفع والدكم للعمل هناك؟

أطرق حذيفة في حين أجاب سالم متنهدا:

- إنها الضرورة يا علاء، فأعباء الحياة كثيرة، ومنطقتنا لا يتوفر بها العمل المناسب لأبي، والذي يغطي احتياجاتنا، والحمد لله أرض الله واسعة، ولا ننكر أن وضعنا تحسن كثيرا بعد انتقال أبي للعمل في منطقة السواقي بفضل الله، ولكنها حال الدنيا، إذا كمل فيها جانب؛ نقص الآخر وهكذا..

ثم هتف كمن تذكر شيئا:

- ما رأيكم أن نتعاهد على إصلاح ما فسد من حال أمتنا، فنجمع كلمتهم على الحق، ونوحد صفهم ونرفع رايتهم؟

وفي تلك الأثناء، التفت الثلاثة إلى الخلف حيث طرق سمعهم صوت يمان الغاضب:

- هكذا إذن تخرجون من دوني!! لقد حزرت أنكم هنا ولن أسامحكم على هذا أبدا..

بدا المأزق واضحا لهم، فتلعثم حذيفة في حين حاول سالم تبرير ذلك بقوله:

- لم يكن الصبح قد طلع بعد يا أخي وبصعوبة تبينا طريقنا إلى هنا عبر الممر المعتم، خفنا عليك..

لكن يمان قاطعه وقد احمر وجهه ونفرت الدموع من عينيه:

- أنا لم أعد صغيرا حتى أخاف الظلام!!

شعر علاء بحرج الموقف، فحاول أن يجد كلمات مناسبة علها تلطف الجو:

- بالتأكيد نحن نعرف أنك لست صغيرا يا يمان، ونعترف أننا أخطأنا بحقك..

ثم التفت الى سالم وحذيفة:

- اليس كذلك؟

فأومأ الاثنان بالموافقة..

وتابع علاء:

- كن كريما معنا يا يمان واقبل عذرنا، ثم إنك شجاع وقوي، والقوي هو من يملك نفسه عند الغضب، أليس كذلك؟

اطرق يمان قليلا وهو يلتقط أنفاسه الغاضبة، حتى هدأ، فقال علاء:

- والآن هل تعاهِدنا؟؟

علت علامات الاستفهام وجه يمان وهو يسأل:

- أعاهد على ماذا!!

فابتسم علاء:

- على إصلاح ما فسد من حال أمتنا، فنجمع كلمتهم على الحق، ونوحد صفهم ونرفع رايتهم؟

فهتف يمان بمرح- وقد زال غضبه بسرعة:

- أعاهدك على ذلك يا علاء..

ثم قال حذيفة:

- وأنا أعاهدك يا علاء، و لنا أجر النية والاجتهاد بإذن الله..

فتابع علاء:

- لقد كان أبي يردد دوما: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولنبدأ بإعداد أنفسنا، فأطول طريق يبدأ بخطوة..

عندها قال سالم:

- وأنا أعاهدكم على ذلك، سأمعن في التفكر والتدبر في كل ما أراه من حولي، حتى أصل إلى اكتشاف القوانين التي تفسر ما عصي علينا فهمه حتى الآن، سأبذل جهدي في تعلم سنن الله في هذا الكون العظيم..

وقال حذيفة:

- سأزيد من مطالعتي في أمهات الكتب، وأبحر في العلوم حتى أصبح علما من أعلامها، وأسأل الله أن يعلمني ما ينفعني وينفعني بما علمني وأعوذ بالله من علم لا ينفع..

فقال يمان بحماس:

- وأنا سأبذل جهدا مضاعفا في دراستي، حتى أتفوق وأدخل السرور على قلب أمي وأبي فأكسب رضاهما ودعواتهما..

فغمزه سالم مازحا:

- وماذا عن الثلاثية؟

احمرت وجنتا يمان، كمن تذكر أمرا سيحول بينه وبين تنفيذ وعده، لكنه سرعان ما قال:

- سأنظم وقتي بين اللعب والدراسة..

ثم هتف بحماس:

- أجل سأنظم وقتي إن شاء الله لأتفوق في دروسي، وأصبح بطلا في الثلاثية في الوقت نفسه..

فالتفت حذيفة إلى علاء موضحا:

- يمان مشترك في فريق المدرسة للثلاثية، وقد حصل على وسام المدارس للثلاثية هذا العام على مستوى منطقة السهول بأسرها، مشكلته الوحيدة أنه يقضي وقته بالتدريب على حساب دراسته!

ابتسم علاء:

- من الآن فصاعدا سيرينا يمان كيف يكون لاعب الثلاثية المسلم البار بوالديه والمتفوق في دراسته، فيكون مضرب المثل بين الجميع إن شاء الله..

أضاف سالم الذي أعجب بمنطق علاء:

- عندها ستتحدث جدر الأخبار جميعها في عناوينها الرئيسة عن اللاعب المسلم البارز الذي استطاع التوفيق بين الدراسة واللعب فأبدع فيهما معا، ليحل اسم يمان عامر، محل (لاكومار بان)..

فتح يمان عينيه دهشة:

- لاكومار بان!! لا تمزح يا سالم!!!

فبادره علاء برده:

- وما الذي يعنيه لاكومار بان إلى جانب يمان عامر الذي سيحرص على رضا الله في جميع أحواله بإذن الله!!

وأيده حذيفة بقوله:

- نحن لا نمزح معك يا أخي، أنت أهل لها..

عندها شعر يمان برغبة جامحة في الوصول إلى القمة في كل شيء، فقال بجزم:

- أعدكم أنني لن أتنازل عن التفوق أبدا إن شاء الله..

ثم التفت الأخوة الثلاثة صوب علاء، ولسان حالهم يقول:

- وماذا عنك يا علاء؟

طأطأ علاء رأسه قليلا قبل أن يقول بقوة:

- أعدكم أنني لن أتنازل عن أن أصبح قائدا فاتحا يحرر العالم من هذا الظلم والهوان بإذن الله..

وأشاح سالم بوجهه بعيدا، يخفي دمعة كبيرة حمّلها مشاعره وأحاسيسه المتأثرة بهذا الموقف الصلب، وأدرك أن ذلك الفتى الذي يصغره بسنوات معدودة، يكبره بسنوات كثيرة من الفهم والإدراك وقرر مجاهدة نفسه وحملها على الصعاب لعله يستطيع اللحاق بموكب فاته بعد أن أيقظ في نفسه ما عجز عن إيقاظه من سنين.. وهو يردد في أعماق نفسه.. حفظك الله يا علاء...

***

اجتمعت العائلة بمن فيهم علاء على العشاء، بعد أن قضى يوما حافلا تجول خلاله في المدينة بصحبة الأخوة الثلاثة، فزار مدارسهم ورأى ملعب الثلاثية الضخم الذي أقيم على مساحة مثلثة ترابية، كما تعرف إلى أهم معالم المدينة عوضا عن قلعة السلم، القلعة الحربية الأثرية التي زارها في باكورة الصباح، دون أن يعيقهم ذلك عن أداء صلاة الجماعة في الجامع الذي يقابلهم في طريقهم. أخذت هدى تسكب المزيد من الطعام في صحن علاء وهي ترمق أولادها بنظرات تأنيب:

- تفضل، هيا كل جيدا يا بني، فأنت لم تتناول غداءك بسبب هؤلاء الثلاثة..

فرد علاء شاكرا:

- جزاك الله خيرا يا خالتي، ولكنني صدقا لم أشعر بالجوع..

لكن هدى خاطبته بود:

- هذا من ذوقك يا بني، ولكن هذا لا يغفر لهم الإهمال في حق الضيافة..

عندها ضحك عامر:

- لا داعي لتأنيب الأولاد هكذا يا عزيزتي، فلا شك أنهم اجتهدوا في إسعاد ضيفهم وفاتهم مسألة الطعام..

بدت نظرات عتاب واضحة في عيني هدى، وهي تحاول الحفاظ على هدوء أعصابها:

- حتى أنت يا عامر!! أهكذا يكرم الضيوف!! لا تحاول أن تجد مخرجا لهؤلاء الأولاد عديمي الذوق..

ابتسم عامر وهو يومئ برأسه موافقا لها، ولم يشأ أن يزيد من تعقيد الموقف، إذ كانت في أوج غضبها من تقصير أبنائها، ونقل نظره بين أبنائه، الذين ألجمهم الموقف، فطأطؤوا رؤوسهم خجلا دون أن ينبسوا ببنت شفة:

- أعتقد أن الرسالة قد وصلت بوضوح..

و دار بمحور الحديث بسرعة، إذ شعر أن الموقف قد أحرج علاء نفسه، قائلا:

- بالمناسبة يا علاء، لقد سخر الله لك من يعين على إعداد رقعتك الأمنية بسرعة أكثر مما توقعنا، وبإذن الله تكون جاهزة في خضم أسبوع..

علت الفرحة وجه علاء، وهو يهتف مبتهجا:

- جزاك الله خيرا يا عمي، واعذرني على ما سببته لك من إزعاج..

فعلق عامر معاتبا:

- لا تقل هذا يا بني، فأنت واحد من أبنائي، ولو كان والدك مكاني لصنع الشيء نفسه..

وتابع باسما:

- ثم إن أمورك أنجزت بسرعة بفضل الله، فقد سهلها الله من عنده ولم أواجه أي عناء..

تساءل يمان وقد بدا واضحا أن الخبر لم يعجبه:

- هل هذا يعني أنك ستسافر الأسبوع القادم يا علاء؟

وراودت علاء مشاعر حزن خفية وهو على وشك فراق هذه العائلة الطيبة، التي اعتبرته فردا منها رغم قصر المدة التي قضاها معهم. خيم صمت مطبق قبل أن تقطعه هدى بقولها:

- سندعو جميعنا لعلاء أن يوفقه الله في مدرسته الجديدة، ونسأل الله أن يرزقه السعادة فيها حتى يحقق أحلامه بإذن الله، فسعادته من سعادتنا، أليس كذلك يا أبنائي؟

أومأ الثلاثة بالموافقة وهم يقاومون حزنهم لفراق علاء الذي أدخل عليهم جوا جديدا من البهجة والسرور لم يألفوه من قبل. وتابع عامر مشجعا – وقد أدرك مع زوجته هدى مدى الفراغ الذي سيخلفه سفر علاء في نفوس أبنائهم:

- وسنتعاهد جميعا منذ هذه اللحظة أن نبقى على الوعد، نبذل قصارى جهدنا إرضاء لربنا كي نستعيد مجدنا الذي أضعناه بإهمالنا وتقصيرنا، وسنشارك علاء في تحقيقه لأهدافه من هنا، أليس كذلك يا أولاد؟

عندها هتف الثلاثة بحماس:

- بالتأكيد إن شاء الله..

وعقّبت هدى مبتسمة وقد سرها رؤية أبنائها وقد استعادوا حماسهم:

- و لن يبخل علينا علاء برسائل يطمئننا فيها عن نفسه، ويحدثنا بأخباره..

فتهلل وجه علاء بشرا:

- بالطبع يا خالة، ولن أنساكم أبدا ما حييت وسنلتقي يوما ما إن شاء الله..

***

استعد علاء لمغادرة المدينة، واجتمع حوله أصدقاؤه الثلاثة لتوديعه. ضغط سالم على يديه بحرارة:

- لا تنسانا من الدعاء، وبلغ تحياتنا إلى أصدقائك الجدد..

ثم قال:

- أسأل الله أن يوفقك لكل خير، وان تكون مدرسة النصر أروع مما سمعنا عنها..

وعانقه حذيفة:

- لا تنسانا يا علاء واذكرنا دوما، وما يدريك فقد يقدر الله لنا الالتقاء يوما ما وقد حققنا أحلامنا..

وناوله يمان سيفا صغيرا:

- احتفظ بهذا السيف يا علاء واعتن به جيدا فهو عزيز علي..

ربت علاء على كتفه مبتسما:

- إذن ما رأيك أن تحتفظ به أنت، فلا شك أنه سيعز عليك كثيرا!

قاطعه يمان بقوة:

- كلا.. أريدك أن تذكرني به يا علاء..

تناول علاء السيف الصغير ووضعه في جيبه، ثم قبل يمان على رأسه:

- جزاك الله خيرا، ولا تنس ما وعدتنا به من التفوق في دروسك..

ابتسم يمان:

- أعدك بذلك، بل وسأتفوق عليكم جميعا إن شاء الله..

ابتسم علاء:

- إن شاء الله..

اقترب عامر من علاء، وهو يناوله حقيبة صغيرة بدا أنها تنوء بحملها:

- تفضل هذه يا بني، إنها أقل ما نستطيع تقديمه، واعذر تقصيرنا نحوك..

قاطعه علاء:

- لا تقل هذا يا عمي، وجزاكم الله خيرا فقد سعدت بصحبتكم كثيرا..

ثم التفت إلى السيدة هدى يشكرها:

- لا تنسينا من دعواتك الطيبة يا خالة..

وغالبت هدى دمعات إشفاق على هذا الصغير وهي تودعه:

- وأنت يا بني عليك بدعاء السفر، فدعاء المسافر مستجاب بإذن الله، نستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه..

وانطلقت العربة وانطلق معها صوت سالم مختلطا بصوت حذيفة ويمان، وصداهم يتردد في الآفاق:

- تذكر ما تعاهدنا عليه يوما يا علاء...

***

كانت العربة قد ابتعدت كثيراً حين اشتدت الرياح والعواصف بعد أن قاربت الشمس على المغيب، واعلن السائق استحالة متابعة الطريق في ظل هذه الظروف. وما كادت تقف العربة أمام دار للاستراحة، حتى علا الهرج والمرج من أصوات ركابها بين مؤيد ومعارض:

- ألم تجد غير دار (قصر الذهب) ذات الأجرة المرتفعة؟؟

فرد آخر:

- وما الذي تريده يا رجل!! دار مليئة بالحشرات والقوارض!

وسانده ثالث:

- يكفي أنها دار محترمة من الصنف الأول..

فصرخ رابع:

- إذا كنتم تملكون أجرتها المرتفعة فهذا لا يعني أن تتناسوا الآخرين..

وعلق آخر:

- لا ما نع لدي إن نزلت في ضيافتكم يا سادة، ولن تسمع صوت اعتراضي بعدها..

لكن الجميع أذعن للأمر الواقع، فما بيدهم حيلة بعد أن حسم السائق أمره قائلا بجزم:

- ستقف العربة هنا فالمكان آمن، ومن لا يمتلك ثمن الإقامة في دار قصر الذهب، يستطيع قضاء هذه الليلة في الحانوت المجاور، فقد ألحقوا به صالة كبيرة تؤجر فرشا للنوم فيها بأجر زهيد جدا..

نزل علاء من العربة وهو يحمل حقيبته، ووقف يتأمل دار قصر الذهب، محدثا نفسه:

- يبدو واضحا من بنائه الفاره أنه ذا أجرة أكبر مما يخطر بالبال.. ترى ماذا لو لم أمتلك ثمن الإقامة فيه؛ هل أذهب إلى ذلك الحانوت!!

وأثناء ذلك طرق سمعه صوت رجل يصرخ من الداخل:

- ألا تكتفي بمائة وخمسين قطعة نقدية! أم أنك تظنه مبلغا قليلا يا رجل!!

- هذه أسعارنا..

- يا لكم من جشعين..

وبعد لحظات سمع خلالها علاء همهمة وضجيجا، رأى الرجل يخرج مزمجرا، دون أن يتورع عن قذف الجميع بسيل من الشتائم اشمأز لها. كان علاء ما يزال واقفا أمام مدخل الدار يشاور نفسه، عندما اقترب منه رجل لم يسترح علاء لمظهره ولا لنظراته، وهو يقول له:

- إلى متى ستبقى واقفا هنا يا فتى، ستصاب بالبرد.. إذا كنت لا تملك ثمن الإقامة في هذه الدار فبإمكانك مرافقتي إلى الحانوت، وسنقضي الليلة معا..

ثم أمسك بيد علاء قائلا:

- هيا سأجد لك فراشا قربي..

لكن علاء جذب يده منه بقوة وهو يقول:

- شكرا لك يا عم، لا أرغب في الذهاب إلى ذلك الحانوت!

ألقى الرجل في عيني علاء نظرات ذات مغزى، ثم ابتسم بمكر:

- هل تظن نفسك قادر على دفع ثلاثمائة قطعة نقدية !! فكر في الأمر جيدا؛ سأحجز لك فراشا قربي و على حسابي الخاص..

ثم ابتعد وهو يقهقه بصوت مجلجل كدوي الرعد:

- لا تتأخر فسأكون بانتظارك..

وجد علاء نفسه في موقف حرج جدا وهو في حيرة من أمره:

- ثلاثمائة قطعة نقدية!! كيف سأدفع هذا المبلغ الكبير حقا!! ما زالت أمامي مصاريف كثيرة علي دفعها حتى أعبر منطقة الجبال!! هل أغامر بالذهاب إلى ذلك الحانوت؟؟ وتراءت له صورة والده وهو يحذره مرارا:

- انتبه يا بني، ما زلت فتى يافعا في مقتبل العمر و إياك أن تختلط كثيرا بالرجال الغرباء وحدك..

وأخيرا حزم علاء أمره:

- حسنا يا أبي، لن أذهب إلى ذلك الحانوت ولو كلفني الأمر أن أبقى في العراء..

وردد في سره:

- يا رب أعني واكفني ما أهمني، لا حول ولا قوة لي إلا بك..

وفتح حقيبته ليخرج محفظته ويعد ما تبقى بها من نقود، ولدهشته الشديدة، وجد بها كيسا لم يعهده معه من قبل، فخفق قلبه بشدة وهو يرى ما بداخله، كان به ما يزيد على سبعمائة قطعة نقدية! دمعت عينا علاء و خرّ ساجدا على الأرض شكرا لله أن نجاه من هذا المأزق:

- كم أحبك يا رب، اللهم لك الحمد حمداً كثيرا طيبا مباركا فيه.. يا رب.. جاز عني عمي عامر وخالتي هدى خير الجزاء، وبارك لهم في أموالهم وأهلهم وأعني كي أرد لهم هذا الجميل..

جلس معظم الزوار في صالة كبيرة يتناولون طعامهم ويتسامرون في حين انزوى علاء بغرفة صغيرة – دفع ثمن إقامته فيها ليلة واحدة – يطالع كتابا أهداه له حذيفة بعد أن أدى صلاة المغرب والعشاء قصرا وجمعا، وتناول بعض الشطائر اللذيذة التي أعدتها السيدة هدى، وبينما هو مستغرق بقراءته، إذ طرق سمعه صوت أفزعه فأسرع ينزل من غرفته فاصطدم دون أن يشعر بابنة صاحب الدار وهي فتاة تكبره بعدة سنوات، فاعتذر إليها بأدب:

- أرجو المعذرة، سامحيني..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع مستفسرا:

- أعتقد أنني سمعت صوتا!!

فابتسمت الفتاة قائلة:

- لا تقلق، إنه مجرد شجار بسيط كالمعتاد..

فغر علاء فاه بدهشة:

- ما الذي تقصدينه بالمعتاد!! هل هذا مكان مشاجرة؟!!

فهزت الفتاة رأسها نفيا:

لم أقصد هذا... ولكن يبدو أن أحدهم أفرط بشراب السيسي.. -

فأطلق علاء شهقة مكتومة:

- شراب السيسي!!!! ما هذا الشراب؟؟

ضحكت الفتاة بصوت مرتفع:

- ألا تعرف السيسي؟ إنه من أنواع الخمور الفاخرة..

عندها لم يملك علاء نفسه أن صرخ بفزع:

- وهل يوجد خمور هنا؟!!!!

فوجئت الفتاة من ردة فعله، لكنها سألته بكثير من الاستهزاء ترد على استنكاره الذي استفزها:

- من أين أنت يا فتى؟

استفزت علاء تلك اللهجة فرد بجزم:

- وماذا يعنيك من أمري؟

فردت الفتاة باستعلاء:

- ببساطة شديدة، لأن الجميع يعرف أن السيسي تباع بدور الاستراحة العامة..

وتابعت بفخر شديد:

- ولا سيما الدور المتقدمة ذات الرفاهية العالية..

ثم استدركت:

- أعتقد أنك الفتى الذي ينزل وحده!

وفي تلك اللحظة اندفع رجل ضخم نحوهما، وهو يخور وقد انتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، ففزع علاء من مظهره في حين أمسكت الفتاة بيده وتنحيا جانبا، حاول الرجل الاقتراب من الفتاة مادا يده إليها لكنها أزاحته بقوة، فما لبث أن ترنح ووقع أرضا. اقترب بضعة رجال منه وقال أحدهم:

- لقد غط في سبات عميق، علينا أن نحمله إلى غرفته..

فعلق رجل آخر:

- لقد نصحته مرارا وتكرارا أن لايكثر من الشراب، فهو لا يستطيع السيطرة على نفسه!

فردد آخر بأسف:

- ياله من مسكين..

وانصرفوا وهم يقتادونه إلى غرفته..

التفتت الفتاة إلى علاء- المفزوع من هول المشهد- تحاول تهدئته:

- يبدو أنها أول مرة ترى فيها سكارى! لا تخف إنهم لا يستطيعون إيذاء أحد، وقواهم تنهار بسرعة..

استرد علاء أنفاسه المتلاحقة ثم سألها:

- ولماذا تسمحون بمثل هذه الفوضى؟!

فردت الفتاة مبررة:

- نادرا ما تحدث الفوضى، فكما رأيت حُلت المشكلة في لحظات معدودة، وزوارنا عادة يعرفون السيطرة على أنفسهم فمعظمهم من الطبقة الراقية..

قالت الجملة الأخيرة بكثير من الاعتزاز، لكن علاء رد بتعجب:

- وما دخل الرقي في هذا الموضوع؟

بدا على الفتاة امارات يائسة وهي تقول:

- يبدو لي أنك لا تفهم!!

ثم تابعت:

- على كل حال فدارنا من أشهر الدور وأعظمها؛ فهي أول من خصص قسما للشراب..

فقاطعها علاء غاضبا:

- وهل هذا مما يفتخر به!! ألا يكفي ما تقدمون على فعله من حرام!!!

ابتسمت الفتاة هازئة:

- إنك بقولك هذا تذكرني بتلك الفئة المزعجة التي تحشر أنفها فيما لا يعنيها وهم يظنون أنفسهم خلفاء الله على الأرض!

استشاط علاء غضبا لتلك السخرية الواضحة، لكن الفتاة تابعت:

- إننا لا نحضر سوى أنواع معينة من الخمور الجيدة، فأبي يتعامل مع كبار التجار المرموقين في هذا المجال وبخاصة التابعين لمدينة (آماس)..

قالتها بنبرة حالمة وهي تتابع:

- كم أتمنى زيارتها..

فقال علاء، وهو يحاول السيطرة على أعصابه جاهدا:

- الخمور خمور على كل حال..

لكن الفتاة قالت موضحة:

- لا تنس أن بعض زوارنا من غير المسلمين، جاؤوا للتجول في مناطقنا ولابد أن نوفر لهم ما يحتاجون إليه..

فقال علاء بضيق:

- وهل ترتكبون محرما من أجل إرضاء من لا يفيدنا إرضاؤه!!

فردت الفتاة بكل ثقة:

- ومن قال لك أنه لا يفيد!! فبهذه الطريقة يستمتعون برحلتهم أكثر، ويتحدثون عنا بكل خير عند عودتهم إلى ممالكهم، بدلا من أن نبقى في أعينهم أناسا متخلفين..

رد علاء وقد يأس من جدالها:

- لا أعرف كيف تفكرين.. ألا يهمكم أن يكون المال حلالا؟

عندها قالت الفتاة وقد نفد صبرها:

- يبدو أننا غير متفقين في هذه النقطة، لذا دعنا نتحدث عن شئ آخر..

فحاول علاء التملص منها قائلا:

- اعذريني فلا وقت لدي..

فابتسمت الفتاة وهي تقاطعه بمرح:

- لا تتكلم هكذا كالكبار..

ثم تابعت:

- دعني أتذكر.. أظن أن اسمك علاء نور الدين، أليس كذلك؟؟

أومأ علاء بالإيجاب، فقالت الفتاة:

- لم تسألني كيف عرفت؟

ولم تنتظر ردا، بل تابعت:

- لقد سمعت العامل المسؤول عن سجلات الزبائن يتحدث عن صبي ينزل وحده..

امتعض وجه علاء، فقد تذكر ما حدث له مع ذلك العامل الذي استهزأ به كثيرا، حتى استطاع حسم الموقف بوضع النقود أمامه..

لا حظت الفتاة مادار بخلد علاء مرتسما على وجهه، فتابعت:

- إنك فتى شجاع حقا، لتسافر وحدك!

لم يعبأ علاء بكلامها كثيرا وهم بالانصراف لكنها استوقفته قائلة:

- ألا تريد معرفة اسمي.. صحيح أنه ليس جميلا فهو قديم ولا يناسب فتاة مثلي، فعمي هو من أطلقه علي حين كان في ضيافتنا أثناء ولادتي..

ثم تنهدت:

- كم أبغض عمي هذا..

فقاطعها علاء بلباقة، حتى لا تسترسل في الحديث عن عمها، قائلا:

- حسنا وما هو اسمك؟

فأجابت الفتاة بنبرة تظهر فيها الحسرة بوضوح:

- ريحانة، لكن تستطيع مناداتي ساندرين فأنا أحب هذا الاسم كثيرا..

علت إمارات التعجب وجه علاء وهو يقول:

- ولكن ريحانة اسم جميل، ألا يكفيه فخرا أنه اسم إحدى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، عوضا عن معناه الجميل!

كان علاء على وشك أن يقول لها، ولا أعتقد أنك تليقين به أصلا، لكنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة، حتى أن ريحانة شعرت به وهي تقول:

- أنت تفكر بطريقة غريبة!!

تجاهل علاء كلماتها المستفزة، وهو يحاول الظهور بمظهر الداعية السمح لين الجانب، قائلا:

- والآن أخبريني عن وجه الجمال في ذلك الاسم العجيب الذي اخترتيه لنفسك؟؟

أطرقت ريحانة قليلا قبل أن ترد:

- أتقصد ساندرين؟

أشار علاء برأسه مجيبا:

- أجل، ما معناه؟

فأجابت ريحانة مبتسمة وقد سرها تجاوبه معها- ليدور بينهما حوار طويل:

- في الحقيقة لا أعرف، ولكنه اسم جميل وهو يعجبني..

فتساءل علاء:

- ومن أين سمعت به حتى أعجبك؟؟

فقالت ريحانة بدهشة:

- هل ستخبرني بأنك لم تسمع عن أجمل مقطوعة غنائية!!

فأجاب علاء بثقة:

- أنا لا أستمع للغناء بحمد الله..-

عندها شعرت ريحانة بأنه من الواجب عليها توعية هذا الفتى الجاهل- برأيها- وهي تقول بتفان:

- إنها مقطوعة مشهورة جدا ألفها المغني و الموسيقار الشهير (ساكورغان) من مدينة آماس، ثم طاف بها مدنا ومناطق كثيرة وهناك الكثيرون الذين حفظوها فانتشرت واشتهرت حتى من لم يسمعها؛ عرف عنها ولو القليل..

لكن علاء رد دون اكتراث:

- أنا لا تهمني مثل هذه السخافات، فما علاقتها بما كنا نتحدث عنه؟

فأجابته ريحانة، متجاهلة تلك الاهانة:

- ألم تفهم بعد؟ ببساطة اسم هذه المقطوعة (ساندرين) وهو اسم الفتاة التي أحبها ساكورغان..

فقاطعها علاء بضيق وقد نفد صبره:

- لا داعي لإكمال هذا الهراء..

فقالت ريحانة بإصرار:

- لكنك لم تعرف السبب الرئيس لاختياري الاسم بعد، دعني أكمل القصة..

ورغم تثاؤب علاء، إلا أن ريحانة أكملت قائلة:

- تخيل!! لقد نزل هذا الرجل الموهوب ساكورغان عندنا أثناء تجواله، وقد حصلت على توقيعه..

بدا أن علاء على وشك أن يفقد كل ما يمتلكه من ذوق وتهذيب، وهو يرد عليها ببرود:

- يا لهذه السخافة، يجب أن تخجلي من نفسك، لا أن تتباهي بما تفعلين!!

استشاطت ريحانة غيظا رغم تمالكها لنفسها وهي تقول بجدة:

- عن أي سخافة تتحدث؟؟ لقد تجاوزت حدودك كثيرا!!

شعر علاء بأنه قد أخطأ في أسلوبه، فما هكذا يكون المسلم فظا في تعامله، كما نبهه والده مرارا، فحاول تلطيف الجو بقوله:

- عذرا لم أقصد الإهانة، كل ما أريد قوله أنه يكفينا ما نعانيه من الأعداء المتربصين بنا، ودماء المسلمين المراقة بسببهم..

بدت علامات الدهشة على وجه ريحانة وكأنها حُدّثت بلغة لا تفهمها، أو سمعت أحجية عجزت عن فك طلاسمها! فمنذ متى كانت شؤون المسلمين تستحوذ على تفكيرها! حتى قالت أخيرا:

- يبدو أنك أكبر من سنك بكثير..

ظن علاء أن بقولها هذا سينتهي الحوار، لكن ريحانة تابعت كلامها:

- نحن نأسف لحالهم بالطبع، لكن هذا العدو المتربص بنا لا يريد منا الاستمتاع بحياتنا.. يريد لنا الشقاء والحزن الدائم.. وعلينا أن نثبت له أننا قادرون على الصمود وعيش حياة طبيعية بفرح ولهو؛ وفي هذا تحد له..

كان هذا آخر شيء توقع علاء أن يسمعه، لقد صدم حقا بهذا التبرير غير المنطقي بالنسبة له، ولم يخف على ريحانة ملاحظة ذلك، فأسرعت تغير الموضوع -حتى لا تخسر الحديث مع علاء الذي وجدته مسليا- وسألته:

- لم تقل لي أين وجهتك!

فرد علاء باقتضاب يحاول التخلص من قبضتها:

- مدينة رياح..

ورغم إجابة علاء المقتضبة، إلا أن ريحانة استمرت في أسألتها له:

- وهل لديك أقارب فيها؟

واستمر علاء بإجاباته المختصرة وهو يجيب بالنفي على أمل إنهاء الحديث قبل أن يقع في مأزق سلوكي فظ، فهو ما يزال مبتدئا في طريق الدعوة ولا يتقن فن التعامل مع الآخرين، أو على الأقل مع هذه النوعية من الناس، في حين واصلت ريحانة أسئلتها التي لا تنتهي:

- لماذا ستذهب إليها إذن؟

ولم يجد علاء بدا من إجابتها وهو يشعر أنه في معترك اختبار لا مفر له منه:

- لألتحق بمدرسة النصر للفروسية..

فشهقت ريحانة:

- هل تركت أهلك وأقاربك، وتكبدت عناء السفر للالتحاق بمدرسة؟

فرد علاء بهدوء:

- هذا شأني..

فاستطردت ريحانة:

- وأما أنا فأتمنى السفر إلى مدينة آماس مدينة الجمال والتقدم والحرية والرقي حيث الانطلاق والرفاهية..

لم يعد علاء يطيق الاحتمال أكثر وأمسك لسانه مرة أخرى قبل أن يقول لها، يا لك من ثرثارة، وبذل جهدا مضاعفا، وهو يحاول تخيل ما كان سيصنعه والده لو كان بموقفه، ليقول لها بلباقة:

- لقد تأخر الوقت كثيرا وأخشى أن تفوتنا صلاة الفجر..

قال عبارته وهو يظن أنه يستطيع الإفلات.. لكن هيهات، فقد انتهزت ريحانة هذه الفرصة لفتح حوار جديد فبادرته سائلة:

- وهل تصلي؟

ورغم دهشة علاء بهذا السؤال، الذي لايرى مسوغا له إلا أنه رد عليها:

- بالطبع، وهل ستقولين لي أيضا أنك لا تصلين!!

فأجابت ريحانة بثقة:

- ولا أعرف حتى كيفية الصلاة!

لم يملك علاء نفسه أن قال:

- وهل تعيشين في بيت مسلم؟؟ لقد بدأت أشك في هذا!!

لم تهتم ريحانة بكلامه بل تابعت:

- ولكنك ما زلت صغيرا على الصلاة..

صاح علاء:

- صغيرا على ماذا!! ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: (علموا أولادكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر) أم أنك ما تزالين دون السابعة؟

لكن ريحانة ردت بلا مبالاة:

- يبدو لي أنك مسل جدا فأنت تتحدث كالكبار، وتظن نفسك خليفة الله على الأرض..

وانفجرت ضاحكة:

- وقد أعجبني الحديث معك..

لم يعبأ علاء بها وهم بالانصراف، لكنها استوقفته قائلة:

- لماذا لا تبقى نتحدث قليلا، فأنت لم تخبرني عن رحلتك بعد وليل الشتاء الطويل، مازال بأوله..

فرد عليها علاء بجفاء لا حد له، وقد نفد صبره تماما ونسي ما حدث به نفسه قبل قليل:

- يكفي ما أضعناه من الوقت، ثم إنني لا أحب الحديث مع الفتيات، وبخاصة أمثالك!

وصعد إلى غرفته كمن يفر من قبضة أفعى، فطرق سمعه صوتها الغاضب من خلفه وهي تقول:

- أهذا هو حسن الخلق الذي علمك إياه الإسلام!!

وقعت كلماتها كالصاعقة على رأسه وهو يتذكر كلام والده: " لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم فظا ولا غليظا بل كان سهلا لينا.."، وبدأت نفسه تلومه:

- قد تكون ريحانة محقة!!..هل أخطأت فعلا في كلامي معها!! هل كنت أخاطبها بالحكمة والموعظة الحسنة!! لا أظن ذلك..

وتذكر توجيهات أمه له عندما استخف بولد سيء الطباع فنهته عن ذلك بقولها:

- احمد لله الذي عافاك مما ابتلاه به من سوء الخلق، فالهداية نعمة من الله لا فضل لك بها، وإياك أن تظن نفسك أفضل من غيرك، فيبتليك الله.. وما عاب مسلم مسلم بذنب قط إلا ابتلاه الله بهذا الذنب..

واقشعر جسد علاء:

- الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، يارب سامحني واغفر لي وتب علي وعافني واعف عني، فلم أقصد الاستخفاف بريحانة..

وشعر بشفقة كبيرة نحوها:

- إنها مسكينة ويبدو أنها تشعر بفراغ كبير لا حد له، وأظنني كنت فظا معها بالفعل وآذيت مشاعرها .. ولكن ماذا عساي أن أفعل!! هل أمضي الليل في الحديث معها.. هل كان من المفروض علي فعل ذلك؟؟

وشعر علاء بمدى جهله فما زال أمامه الكثير ليتعلمه، وتمنى في قرارة نفسه لو كانت معه أمه أو أبوه أو حتى الجد سعيد ليسأله ويستفتيه، ورددت خلجات نفسه:

- علمني يا رب وفقهني في ديني فأنا عاجز ضعيف جاهل وحيد، لا علم لي إلا ما علمتني، وأعوذ بك أن يؤتى الإسلام من قبلي..

استعد المسافرون لمواصلة الرحلة في الصباح الباكر، وهم علاء بصعود العربة حين جذبته ريحانة من كمه:

- هل ترحل دون أن تسلم علي؟

شعر علاء بأن هذه هي فرصته التي ساقها الله له للتكفير عما بدر منه من غلظة، فقال لها مستسمحا:

- أرجو المعذرة على ما بدر مني ليلة أمس، و جزاكم الله خيرا على حسن الاستقبال..

فابتسمت ريحانة بسعادة بالغة، وقد سرها اعتذاره قائلة:

- لا بأس.. هكذا هم الأصدقاء دائما..

وغمزته بعينها باسمة:

- ألم نصبح أصدقاء؟

لكن علاء أجابها بلهجة جادة رغم حذره خوفا من أن يزل لسانه بكلمة تؤذيها:

- ومن قال ذلك!!

فردت ريحانة وهي تحاول كبت غيظها:

- ألم نتحدث البارحة سويا؟

عندها قال علاء بذهول – وقد أدهشه منطقها الذي لم يفهمه بعد:

- وماذا يعني هذا؟!

فأجابته ريحانة بمرح:

- يعني أننا أصبحنا أصدقاء!!

وبسرعة خاطفة طبعت قبلة على رأس علاء الذي انفجر غاضبا وهو يصرخ بها:

- يا لك من..

وبتر عبارته في اللحظة الأخيرة، بعد أن تذكر ما عاهد به نفسه ليلة أمس، في حين ابتعدت ريحانة بمرح طفولي:

- دعك من تلك الأفكار التي تملأ رأسك فستعاني كثيرا بسببها، استمتع بوقتك وحياتك فالحياة جميلة وأنت في مقتبل العمر، وأعتقد أنك ستصبح شابا وسيما في المستقبل، خذها نصيحة مني..

وما لبثت أن انفجرت ضاحكة، وهي تحاول إخفاء حقيقة مشاعرها..

سارت العربة أخيرا، وتنفس علاء الصعداء وهو يشعر بأنه مر بأصعب امتحان في حياته لم يكن متأكدا إن كان قد تجاوزه بنجاح أم لا، وجاءه صوت ريحانة وهي تهتف ملوحة بيدها:

- لا تنس زيارتنا أيها الشيخ الجليل..

رمى علاء رأسه على مسند المقعد الخلفي في العربة، يفكر في الأحداث السريعة التي مرت به خلال فترة وجيزة.. إقامته مع الجد سعيد، رعي الأغنام والحياة البسيطة في زهر الرمال، لقاؤه بالمعلم عامر وطيبته معه، المسئول اللطيف على حدود منطقة السهول، الأوقات الجميلة التي قضاها في مدينة سهل بصحبة سالم وحذيفة ويمان، اهتمام السيدة هدى به ولطفها معه.. وأخيرا النقود التي وجدها معه ليقيم ليلته في قصر الذهب.. حتى ريحانة؛ لم تكن سيئة إلى ذلك الحد الذي تصوره في البداية.. أخذت الصور تتلاحق أمام عينيه بسرعة، فأطلق نفسا عميقا:

- أهو من قبيل الصدفة أن يسخر الله لي كل هؤلاء الناس الطيبين في طريقي، وينجيني من المآزق التي تعترضني!!

وتراءت له صورة أمه وهي تعطف على المساكين، حتى أنها كانت توقظه أحيانا لترسله بطعام إلى محتاج رأته من نافذة المنزل، وتردد على مسامعه:

- اصنع المعروف يا بني، يحفظك الله ويحفظ أهلك وأحباءك، فصنائع المعروف تقي مصارع السوء..

لم تكن أمه تصنع طعاما إلا وأطعمت منه جارا أو محتاجا ، وكم بعثت معه كسوة إلى بيت فقير لتكسو أطفاله، أو بمال تتصدق به على من ضاق حاله، كم فرجت من الكرب، وكم أسعدت من القلوب، لم ير أمه تنهر مسكينا، ولم يكن أبوه يرد سائلا قط، وترددت جملة السيد مروان في ذهنه: "بصلاح الآباء يحفظ الله الأبناء، من يعرف والديّ هذا الفتى لا يعجب من حفظ الله له"..

ودمعت عينا علاء:

- كم أنت رائعة يا أمي، وكم أنت رائع يا أبي، جزاكم الله عني خيرا، فكم أنا مدين لكما، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾..

بدأت حدود منطقة الجبال تظهر للعيان، ولم يكن حالها بأحسن من حال الحدود في منطقة السهول، أو أي منطقة إسلامية أخرى في ذلك الزمان، وسرح علاء بخياله ودارت الأفكار في رأسه وهو يراقب الطريق، والعربة تخترقه بحوافر الخيول السريعة، وتضرب الأرض بقوة، فيجلجل صوتها المكان مثيرة الغبار من حولها، خاصة بعد أن نزل معظم المسافرين على محطات في الطريق، فخفت حمولتها، وتساءل علاء في نفسه:

- هل كان ما حدثني به أبي عن الخلافة الإسلامية التي وحدت الشرق مع الغرب وهما؟؟ أيعقل أن تتفرق تلك الدولة العظيمة إلى هذه المناطق المتفرقة!!على أي أساس وضعت هذه الحدود و الفواصل بينها!!

وتمنى أن يجد من يجيب عن أسئلته الكثيرة التي عجز عن فهمها، وشعر برهبة ما هو مقبل عليه من عالم جديد، رغم ثقته بالله، واطمئنانه لما عنده، فشرع في الصلاة وهو جالس على هيأته في العربة، فلم يكن لينسى وصية والده الأخيرة، قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

" وجعلت قرة عيني في الصلاة"..

لاحت مشارف مدينة رياح أخيرا، وتفرق من بقي من المسافرين، ووجد علاء نفسه وحيدا وسط مدينة كبيرة، بدأت تخلو من سكانها مع تزايد الأمطار وحلول الظلام، فبدأ سؤاله عن مدرسة النصر، ليقطع مسافة كبيرة على قدميه وسط البرد والمطر، دون أن يفقد ثقته بالله الهادي إلى سواء السبيل..

***

شعر المدير بفخر واعتزاز كبيرين وهو يتابع قصة علاء- التي لا يحتاج العاقل معها إلى بديهة خاصة ليتبين صدقها- كما خالجته رقة لا حدود لها نحوه، حتى أصبح يتمنى قبوله في مدرسته من أعماق قلبه، لكن أمرا آخر حتم عليه الصرامة في شأنه..

وابتسم ابتسامة أدخلت الطمأنينة على نفس علاء قائلا:

- الحمد لله الذي أوصلك إلينا سالما يا بني، وإنني أرى أنك على استعداد لقبول أي اختبار يؤهلك للالتحاق بالمدرسة، فهل أنت مستعد لذلك؟

رد علاء بنشوة وحماسة:

- إنني على أتم الاستعداد لقبول أي اختبار وسأنجح حتما بإذن الله..

تهلل وجه المدير بشرا وسعادة فقام من مكانه يصافح علاء الذي نهض بدوره وهو يشعر بسعادة غامرة لا حدود لها، وقد وضع كفه في كف المدير الذي خاطبه قائلا:

- هكذا نريدك يا بني، كن على ثقة بالله، فهو عند ظن عبده به، وهو القائل سبحانه في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي عبدي ما شاء)، فلا تجعل ظنك بالله إلا حسنا، وتفاءل بالخير تجده، فهذا هدي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم..

أما الآن فسيأخذك المشرف عاطف لمباشرة اختبارك الأول..

***

الفصل الثاني
الاختبار

بدت الشمس المتسللة من وسط الغيوم المتشابكة أشبه بخيوط حريرية، أزالت بلمستها الذهبية آثار المطر، لتساهم في نشر الدفء رغم برودة الجو وهي تحاول جاهدة إسدال الستار على فصل شتاء قارص يؤذن بالرحيل..

دلف علاء برفقة عاطف إلى إسطبل كبير مستطيل الشكل به أكثر من عشر منافذ للتهوية، يقبع على جانبيه في المقدمة حجرات خاصة بالخيول، أما الجهة الخلفية فهي أشبه ما تكون بغرف واسعة تفصل بينها حواجز رصت في إحداها صناديق مختلفة، بدا علاء مشدوها؛ إذ كانت المرة الأولى التي يرى فيها إسطبلا بهذه الضخامة، حتى انتبه إلى فتى يكبره بقليل بدا منهمكا في تنظيف حصان مبقّع اللون.

حياه عاطف مبتسما:

- السلام عليكم، كيف الحال اليوم يا عدنان؟

أدار عدنان وجهه إليهما مرحبا:

- بخير و الحمد لله، فقد كان التحصين جيدا ضد العاصفة ولا أضرار تذكر بفضل الله، فمخزن الحبوب على ما يرام والخيول بصحة جيدة..

اقترب عاطف من الحصان وربت عليه قائلا:

- هذا جيد، الحمد لله..

ثم التفت إلى عدنان:

- بارك الله فيك يا بني، فقد قمت بعملك على أكمل وجه، أما الآن فإنك تستحق إجازة صغيرة مدفوعة الأجر..

قالها وهو يلتفت إلى علاء متابعا:

- فسيقوم علاء من الغد برعاية الخيول بدلا منك..

ثم خاطب علاء موضحا:

- سيريك عدنان كيفية رعاية الخيول وتنظيفها فانتبه جيدا لما سيقوله، لأنك ستكون من الغد بمفردك..

علت دهشة خفيفة وجه عدنان، فأسرع عاطف يجيب عن تساؤله الذي لم يبح به:

- أعلم أن فترة اختبارات القبول قد انتهت، ولكن هذه حالة خاصة، وقد أخبرت السيد رافع..

فابتسم عدنان :

- فهمت..

أشار عاطف إلى أحد الزوايا الخلفية في الإسطبل موجها حديثه لعلاء:

- يوجد قش هنا لتنام عليه، وسيعطيك عدنان غطاء يدفئك، أما الطعام فسيأتيك في موعده، ولا تنس أن وقت عملك في الإسطبل سيبدأ من بعد صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء..

لكن علاء استوقفه قبل أن يهم بالخروج:

- وماذا عن الصلاة يا عمي؟ ألا يوجد مسجد قريب من هنا!

فابتسم عاطف وقد لمعت عيناه:

- بلى، هناك جامع الفتح وسيأخذك عدنان إليه عندما تحين صلاة الظهر، وهكذا تكون فترات استراحتك هي أوقات الصلاة المكتوبة، التي ستؤديها في الجامع بالإضافة إلى الوقت الذي يأتيك فيه الطعام..

ثم خرج وهو يقول:

- وفقكم الله..

لم يبرح علاء مكانه، إذ لم يخطر بباله قط أن اختباره سيكون بهذه الطريقة، و لم تخف على عدنان ملامح الدهشة التي كست وجهه، فابتسم معرفا:

- هذا إسطبل الخيول الخاصة بالتدريب واختبارات الارتقاء الأولى، و كما ترى فجميع الخيول هنا عربية أصيلة من أنقى السلالات وأفضلها، وقد تجاوزت سنواتها الخمس من عمرها والتي قضتها في تدريب يومي، لذا لن تجد صعوبة في التعامل معها، وهي في الغالب ذات مزاج جيد، إذ لا يوجد ما يثير استفزازها هنا في العادة..

بدا عدنان مستمتعا وهو يعرف بالخيول وكأنها أهله المقربون، في حين لم يكن علاء يعرف أصلا أن هناك فروقا بين الخيول، فالخيول خيول وهي بالنسبة له لا تعدو أن تكون مجرد نوع من الحيوانات لا أكثر!!

في حين تابع عدنان كلامه وهو يشير إلى حصان يغلب على لونه السواد، أخذ يهز رأسه بشكل ملفت، من خلف بوابة حجرته الصغيرة:

- بالطبع هناك استثناءات، فـ (حالك) حساس جدا وقد يثور لأتفه الأسباب، و لكنه ذكي و قوي و مطيع لمن يحسن معاملته..

رمق علاء الحصان بنظرات فاحصة، وفي نظرته تساؤل واحد لا أكثر:

- وماذا يعني هذا كله!!

وتلاقت عيناه بعيني الحصان الذي أخذ يضرب بقدمه الأرض بقوة، فأسرع عدنان نحوه يربت على ظهره بحنان بالغ وهو يهمس له:

- أعرف أنك محتج قليلا ولكن علاء فتى طيب وسيحسن معاملتك، ثق بي..

أما علاء فقد فغر فاه دهشة لتزداد مع كلمات عدنان الموضحة:

- حالك قلق قليلا، أرجو أن تهتم به فهو حساس كما أخبرتك، وأي فكرة سلبية تصدر منك عنه قد تؤثر فيه، لذا أرجوك كن حذرا..

بلغت الدهشة ذروتها عند علاء حتى ألجمت فاه تماما؛ فلم يعد قادر على التعليق بأي كلمة ولا حتى التفكير بشيء، وشعر عدنان به فعلق قائلا:

- قد يكون الموضوع غريبا عليك بعض الشيء، لكنك ستعتاده وسترى بنفسك كيف أن للخيول طبائع كالبشر، فاحرص على أن تكسبها إلى جانبك فهي تستحق ذلك منك، فهي ما جيء بها هنا للعب والتسلية، بل إن وراءها أهدافا عظيمة.. وتذكر أن "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"، كما قال الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم..

التقط عدنان نفسا قبل أن يتابع باسما:

- لقد روي أنه لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخيل، أفلا تحبها؟

واكتفى علاء بقوله:

- حقا!! صلى الله عليه وسلم..

وفي تلك الأثناء أخذ ذلك الحصان الذي انشغل عدنان عن تنظيفه بالصهيل، فأسرع عدنان نحوه قائلا:

- معك الحق أيها (الأبرش) تأخرت عليك وأرجو منك المعذرة..

ثم أخذ يعصر خرقة (قطعة قماش مربعة) بيده بعد أن أدخلها في دلو الماء أمامه ليتابع تنظيف الأبرش، وهو يقول:

- ليس هناك طريقة أفضل من غسل الحصان وتنظيفه للتعرف عليه..

عندها انتبه علاء لنفسه فسلم بالأمر وبدأ يعي كل كلمة يقولها عدنان عن رعاية الخيول وقد شعر بارتياح كبير نحوه، فهو طيب القلب هادئ الطباع، لا يملك من يراه إلا أن يشعر باطمئنان عجيب نحوه. أمسك عدنان بفرشاة خاصة وبدأ بالتمشيط في اتجاه نمو شعر الحصان بالقرب من رأسه متجها إلى جسمه ومن ثم إلى أسفل السيقان وعلاء يراقبه بدقة أثناء قيامه بعمله. وأخيرا قال عدنان:

– ها قد انتهيت منه، والآن جاء دورك في تنظيف الحصان التالي، هيا يا علاء أرني مهارتك..

حمل عدنان دلو الماء و أغلق البوابة الصغيرة على الأبرش، لينتقل مع علاء إلى الحجرة المجاورة،والتي أطل منها حصان جميل بلونه المحمر ، بدا وديعا وهو يطل بعينيه الصافيتين من خلف البوابة الصغيرة استعدادا لتنظيفه، وبعد أن ناول عدنان علاء الخرقة قال معرفا:

– هذا (ورد) ستحبه بالتأكيد فهو يمتاز بهدوئه وطيبته، وسيكون من المناسب أن تبدأ تدريبك الأول معه، ولكن سأنزل السرج أولا، فقد تركناه مسرجا ليلة العاصفة تحسبا للطوارئ، رغم أن هذا ليس من اختصاصه، فخيول الركوب والعربات ونقل الأمتعة في الإسطبل الآخر..

ثم ابتسم معلقا:

– إنه طيب جدا كما قلت لك ويحب المساعدة، لذا فهو أفضل من نفكر فيه في الحالات الطارئة..

كان علاء يستمع بصمت، وقد بدأ يعتاد بالفعل على هذا النوع من الحديث، إنها فرصة جديدة أتيحت له للتعرف على عالم جديد، عالم الخيول وأسرارها التي ما كانت تخطر بباله قط!

تابع عدنان كلامه وهو يقوم بعملية فك السرج وانزاله:

- معظم الخيول تحب أن يقوم أحد بتنظيفها، لكن بعضها بها أماكن حساسة، لذا انتبه عندما تقوم بتنظيفها، وراقب ضربات الأذن التي تخبرك بعدم لمس هذه المناطق، وإلا توقّع أن تركلك عند لمسها..

أومأ علاء رأسه متفهما في حين تابع عدنان قائلا:

- للسلامة حاول دائما أن لا تقف خلف أي حصان لا تعرفه؛ حتى لا يركلك، فقد تستفزه دون أن تدري فتعرض نفسك للخطر..

انتهى عدنان من انزال السرج عن ظهر الحصان بهدوء وتأن متعمد حتى يلاحظه علاء، ثم أشار إليه أن يبدأ التنظيف. عصر علاء الخرقة بعد أن فركها بالماء داخل الدلو وبدأ يدلك جسم الحصان، فابتسم عدنان قائلا:

- قم بالتدليك بقوة أكبر يا علاء، ضع كل وزن جسمك في كل حركة تدليك، وإن وجدت قطع طين فأزلها باستخدام أصابعك..

أبدى علاء قابلية جيدة للتعلم وهو يطبق نصائح عدنان وإرشاداته المتوالية بشأن تنظيف الخيول والاهتمام بها، حتى أنهى تنظيف حصانه الأول بنجاح، ورغم الجهد الذي بذله، إلا أن النتيجة المرضية التي حصل عليها في مهمته الأولى جعلته ينسى تعبه، وهو يستمع إلى كلمات إطراء عدنان له:

- أستطيع أن أتركك مع الخيول الآن يا علاء وأنا مطمئن البال، فقد أتقنت العمل تماما بسرعة، ما شاء الله..

فابتسم علاء:

- جزاك الله خيرا يا عدنان فلم تقصر معي أبدا..

كان علاء قد أنهى تنظيف خمسة خيول بمساعدة عدنان عندما دخل مجموعة من الطلاب الإسطبل، بدوا لعلاء بحللهم البيضاء الخاصة المتوجة بعمائم رمادية تحيط بقلانس بيضاء ناصعة، وقد تدلت السيوف على جوانبهم، فوق أحزمة أحكم رباطها حول أوساطهم وتحمل لون العمائم نفسها، بالإضافة إلى أقواسهم المثبتة

على أكتافهم، إلى جانب جعب السهام اللامعة، أشبه ما يكونون بفرسان عالم الخيال، الذين قرأ عنهم في القصص والأساطير القديمة، ولكم تاقت نفسه أن يصبح فارسا منهم..

وبعد أن القوا التحية وقام عدنان بتعريفه إليهم، ابتسم وهو يتأملهم:

- تبدون بكامل عدتكم اليوم، هل كل هذا من أجل استقبال علاء والترحيب به؟

فبادره فتى وضيء الوجه، مرح المحيا بدا ظريفا لعلاء وهو يقول مصافحا اياه:

- ادعى حسام و يشرفنا استقبالك بكامل حلتنا يا علاء..

ثم التفت إلى عدنان قائلا:

- هذا يعني أنك نسيت موعد اختبار الارتقاء إلى مرتبة مقدام! فكيف وعدتنا إذن بأنك ستدعو لنا بالتوفيق فيه!!

فأسرع عدنان يتدارك الموقف قائلا:

- لم أنس ذلك بالطبع، الموعد بعد صلاة الظهر، لكنني لم أربط هيأتكم هذه بالاستعداد للاختبار، هذا كل ما في الأمر!

فأومأ حسام متأملا وهو يتظاهر بتفهم الموضوع:

- في هذه الحالة فقط يسرنا أن نعلمك بأننا قبلنا عذرك يا سيد عدنان..

أطلق الجميع ضحكة خفيفة ثم أشار عدنان إلى أحدهم موجها حديثه لعلاء:

- طلال كامل، من المستوى السادس، أمهر راكب خيل والأول على المدرسة بلا منازع..

علت حمرة خفيفة وجه طلال:

- لا تبالغ كثيرا يا عدنان!

ثم مد يده مصافحا علاء:

- أهلا بك في مدرستنا ونحن بانتظار أن نراك بيننا قريبا..

رد علاء مبتسما:

- إن شاء الله..

ثم صافح فتى عريض المنكبين بدا أقواهم بنية عرفه عدنان بقوله:

- زيد ابن الشيخ عبد الرحيم إمام جامع الفتح..

ومن ثم تعرّف بمعاذ الذي قال له:

- نستبشر خيرا برؤيتك يا علاء فلا تنسنا من الدعاء أيضا..

وبعد أن خرجوا وهم يصطحبون أحصنتهم، وقد لفت نظر علاء أن حسام قد اصطحب ورد في حين سار حالك مع زيد، قال عدنان:

- إنهم من طلبة المستوى السادس وقد أُهلوا لاجتياز اختبار الارتقاء لمرتبة مقدام.

علت مسحة استفهام وجه علاء، بعد أن سمع العديد من الكلمات التي أثارت فضوله، فتساءل أخيرا:

- ما الذي يعنيه اختبار الارتقاء هذا يا عدنان؟

فأجابه عدنان بإيجاز:

- هناك عدة مراتب للفروسية، لكل مرتبة عمامة تميزها و مهارات خاصة بها إذا أتقنها الفارس، يستعد لاختبار الارتقاء للمرتبة التالية وهكذا، حتى يجتاز جميع المراتب بنجاح على مدار المراحل الدراسية المختلفة..

لم يكد عدنان يتم كلامه حتى ارتفع صوت أذان الظهر، فقال عدنان:

- لقد مر الوقت سريعا، سنعود بسرعة بعد الصلاة إن شاء الله لإكمال العمل، فما زال أمامنا الكثير منه لهذا اليوم..

اصطحب عدنان علاء إلى بناء مميز مجاور لإسطبلات الخيول، معرفا:

- هنا تجد المياه النظيفة باستمرار للوضوء والاغتسال، وهاني يقوم بذلك على أكمل وجه ما شاء الله..

وأشار إلى شاب يافع يقطر الماء من وجهه ويديه وهو يستعد للذهاب الى الجامع، كما أشار إلى رجلين آخرين في طريقهما إلى الجامع أيضا:

- هذان من سائسي الخيول في المدرسة، وذلك السيد رافع المشرف العام على إسطبلات الخيول ومخازن الحبوب..

عندها استدرك علاء قائلا:

- تقصد الرجل الذي أخبرك المشرف عاطف أنه حدثه بالأمر..

ابتسم عدنان موافقا:

- اجل، أنت شديد الملاحظة يا علاء، ما شاء الله..

ثم تابع قائلا:

- الحمد لله جميع العاملين في هذه المدرسة أناس رائعون ومتعاونون مخلصون..

فابتسم علاء:

- الحمد لله هذا ما بدا لي أيضا، ولكن قل لي يا عدنان ، بما أنني شديد الملاحظة على رأيك، كأنك ذكرت أن هناك أكثر من إسطبل في المدرسة؟

فابتسم عدنان:

- بالطبع يا علاء..

والتفت إلى الوراء مشيرا بيده إليها، متابعا:

- فكما رأيت الإسطبل الذي أعمل فيه لا يتجاوز عدد الخيول فيه العشرين، وهذا عدد قليل بالنسبة لمدرسة فروسية كبيرة..

بدا جامع الفتح ببنائه الأبيض الشامخ علما معروفا، يوازي بناء مدرسة النصر المميز، أجال علاء بصره في المكان حوله يتأمله فقد كانت فرصته ليتعرفه بشكل أكبر. كانت إسطبلات الخيول ومخازن الحبوب والحشائش تقع قرب بناء المدرسة على جانبها الأيسر، أما الواجهة الأمامية فهي أشبه بحديقة غناء، زُرعت فيها الشجيرات والأزهار والنباتات المختلفة وبضعة أشجار متاخمة ربضت كحارس أمين، وقرب المدخل الرئيس الكبير تقف عربات خاصة بالمدرسة تجرها الخيول. كانت المدرسة تشرف على المكان حيث تحتل التل المطل على سهول خضراء جميلة، يقيم فيها جامع الفتح المقابل للواجهة الأمامية للمدرسة، في حين تناثرت بعض المنازل هنا وهناك حيث امتاز المكان بهدوئه لبعده عن مركز المدينة وازدحامها . بدا الطريق ممهدا بشكل جميل رغم برك الماء المتناثرة إثر عاصفة الأمس، فلم تفلح شمس الظهيرة الباهتة بتجفيفها حتى تلك اللحظة، وإن ساهمت بتدفئة نسائم الهواء الباردة بشكل أفضل.

انتهت صلاة الظهر وتعرف علاء إلى عدد لا بأس به من العاملين في المدرسة، منهم العم سامي البستاني وعدد من المدرسين والمدربين الذين أشار لهم عدنان معرفا بهم في طريق العودة من الجامع..

أشار عدنان إلى ساحة رُبطت بها الخيول إلى جانب الجامع قائلا:

- ها هي أحصنة الطلاب تتأهب للإختبار بعد الصلاة أيضا..

لم يفت علاء ملاحظة خلو ساحة المدرسة من الطلبة، فتساءل بقوله:

- أليس غريبا أن لا نرى الطلاب وهم يتدربون في ساحة المدرسة يا عدنان؟ أين يتدربون إذن؟

فوضح عدنان مجيبا وهو يشير بيده إلى الجانب الآخر من الساحة الكبيرة للمدرسة:

- ساحة المدرسة عظيمة الاتساع كما ترى يا علاء وهي تمتد لمسافات كبيرة من كل الجهات، وبخاصة من الجهة الخلفية حيث تمتد لتشمل جزءا من سهل مجاور

أعد خصيصا للسباق بالإضافة إلى منطقة القفز عن الحواجز وتخطي العقبات ولن تستطيع رؤيته من هنا وكذلك الجانب الأيمن، وهو يحوي قسما ممهدا للمبارزة وآخر للرماية ومسبحا ضخما للسباحة بالإضافة إلى قسم التدريب على ممارسة الحركات القتالية والمصارعة وممارسة التمارين المختلفة التي تقوي الأجسام وتنشط العقول، لذا لن تستطيع رؤية ذلك كله في الساحة الأمامية، هذا عوضا عن الطلبة الذين يتلقون الدروس النظرية في غرف الدراسة داخل مبنى المدرسة.

شعر علاء بشوق كبير لخوض غمار ما سمعه عن المدرسة من عدنان، لكن الطريق ما زالت أمامه طويلة وعليه أن يتحلى بالصبر الجميل.

شمر عدنان عن ساعديه وهو يملأ صناديق التبن قائلا:

- سنحاول انجاز أعمالنا بسرعة قبل أن يعودوا من اختبار الارتقاء، فستكون لدينا مهمات أخرى جديدة..

ففعل علاء مثله متحمسا:

- هيا بنا..

وبعد أن انتهيا من ملء جميع الصناديق بالتبن والحشائش من مخزن الحبوب، وملء الدلاء بالماء من بئر المدرسة، قاما بتنظيف الحظيرة من الروث وترتيب مخزن السروج، بعد أن نظفا الموجود منها، وأخيرا قال عدنان:

- سنقوم بتقديم وجبة غداء دسمة للخيول العائدة من الاختبار، فستكون قد بذلت أشغالا شاقة، علما بأننا نقدم الطعام مرتين يوميا لها على الأقل عند الصباح مرة وثانية عند المساء، كما أننا نأخذ بعين الاعتبار أن يكون تقديم الطعام قبل موعد التدريب بوقت كاف حتى لا تصاب بتوعك صحي، وتذكر أن تقديم الماء يكون دائما قبل الطعام.

أومأ علاء برأسه إشارة إلى استيعابه ما عليه القيام به، ثم استدرك قائلا:

- هل استطيع تدوين النقاط الرئيسة التي أخبرتني بها على ورقة، فسأكون من الغد بمفردي إن شاء الله وأخشى نسيان إحداها!

فرد عدنان وهو يخرج رزمة أوراق ملفوفة من جيبه ويتناول منها ورقة قدمها لعلاء مع قلم قائلا:

- حسنا فعلت يا علاء، فهذه نصيحة أمي لي..

تناول علاء الورقة والقلم شاكرا، وهو يكتب مرددا:

- تنظيف الخيول والسروج وترتيبها، تقديم الطعام مرتين يوميا، ازالة الروث وترتيب الحظيرة، ملء دلاء الماء وصناديق التبن..

ثم التفت الى عدنان متسائلا:

- وماذا أيضا؟

فأجابه عدنان:

- هذا جيد لقد كتبت معظم النقاط ولا تنس الاطمئنان على الخيول وضبط أرديتها أيضا حتى لا تصاب بالبرد، فما زلنا على نهاية فصل الشتاء، كما لا تنس تجهيزها للخروج في الصباح، والآن هيا لنتاول طعام الغداء..

وبعد أن تناولا شطائر لذيذة- أعدها طباخ المدرسة- تحت شجرة كبيرة أمام الإسطبل، جلسا يتحدثان قليلا، فما زال أمامهما بعض الوقت قبل عودة الخيول، وأخيرا قال علاء:

- اعذرني على سؤالي يا عدنان، وأرجو أن لا أسبب لك حرجا..

وأمام تردد علاء قال عدنان مشجعا:

-اسأل ما بدا لك يا صديقي فإما أن أجيبك أو لا أرد وتنتهي المشكلة..

أطرق علاء خجلا من فضوله:

- حسنا، في الحقيقة إنني أتساءل.. ألا تذهب إلى المدرسة؟

ورغم طبيعة السؤال القاسية، إلا أن عدنان تلقاه بهدوء عجيب مجيبا بابتسامة مطمئنة واثقة:

- الحمد لله على كل حال، صحيح أنه لم يتسن لي الذهاب إليها بعد أن جئت بحثا عن عمل لمساعدة أبي إلا إنني راض بقضاء الله وقدره، وهذه من أعظم النعم التي يمن الله بها على عباده، ومن لطف الله بنا أن يسر لي العمل في هذه المدرسة، بعد أن كاد اليأس أن يقتلنا، وأسأنا الظن بالمسلمين بعد تلك المحنة القاسية، التي فقدنا على أثرها كل ما نملك..

ولاحت أمامه صورة والده وهو يخاطب أمه بغضب:

- لقد خسرنا الصفقة بناء على نصائحك ولو قبلت الذهاب إلى سومار منذ زمن لكانت حياتنا أفضل ولم نمر بورطة كهذه من أجل إصرارك على البقاء وسط المسلمين الذين لا يرجى منهم خير!! أنظري إلى السيد جاك إنه أفضل منهم ألف مرة..

فتقاطعه أمه بقولها:

- اتق الله يا رجل، ولا تجمع علينا المصائب بكلامك، فهذا ابتلاء من الله، ولست أنا المسؤولة عما حدث لك، فهذا قدر الله، وما شاء فعل..

ويعلو الشجار مرة أخرى..

وابتسم عدنان في تأملاته:

- لكنه تغير الآن كثيرا بفضل الله..

فرمقه علاء بنظرات تعجب:

- بم تفكر يا صديقي؟؟

أفاق عدنان من شروده:

- مرت بخاطري أفكار.. لا عليك.. فقد سرحت قليلا..

ثم ابتسم:

- الحمد لله إنني سعيد جدا بمهنتي؛ فالخيل رفيقتي، وحسبي أن الخير معقود في نواصيها إلى يوم القيامة كما أخبرنا بذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم إنني لن أجد عملا أفضل ومعاملة أحسن في أي مكان آخر، فلله الحمد والمنة..

كاد علاء أن يقول له: ألا تود أن تصبح فارسا، لكنه آثر الصمت أما عدنان فقد علم بما يدور بخلده بطريقته فاستدرك منبها:

- اسمعني يا علاء.. إذا كنت تتوقع من الجميع أن يصبحوا فرسانا فمن سيقوم بأداء الأعمال الأخرى؟؟ ألم يخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن كل واحد منا على ثغرة!!

أطبق صمت عليهما، بدا من خلاله أن كلام عدنان أكبر من أن يفهمه علاء للتو، إلا أنه ترك أثرا عميقا في نفسه، وقد أدرك أنه لا زال أمامه الكثير ليتعلمه في هذه الحياة. ولم يقطع ذلك الصمت إلا أصوات العائدين من اختبار الارتقاء وهم يصطحبون الخيول المتعبة مثلهم، أسرع حسام قائلا:

- وصلتنا دعواتك يا عدنان بحمد الله فجزاك الله عنا خيرا، كان أداؤنا متميزا لا سيما صديقنا طلال، ما شاء الله..

أطرق طلال قائلا:

- لا تستبق الأحداث فغداً تعلن النتائج إن شاء الله..

تهلل وجه عدنان مستبشرا:

- نحن نتفاءل بالخير دائما..

***

استعد علاء للعمل بعد صلاة الفجر، رغم أرقه الشديد ليلة أمس، ولم يكن جفاف القش وخشونته بالإضافة إلى رائحة الإسطبل شيئا يذكر إلى جانب ما يلاقيه من هم بشأن أهله الذين لا يعرف عنهم شيئا حتى الآن.. والده المجاهد في مدينة شمس وأمه وأخوه اللذان افترق عنهما أثناء العاصفة، حتى حديث السيد مروان لم يكن مطمئنا بالنسبة له، لولا استسلامه لمنظر النجوم الرائع، التي أطلت عليه من نافذة التهوية فبدت كلآلئ نثرت على مخمل أسود، ذهب إثر مراقبتها في سبات عميق. شمر عن ساعديه ووضع الحشائش أمام الخيول التي لم تعتد عليه بعد ، فنفرت منه جامحة لكن شعورها بالجوع جعلها تقترب من الحشائش بحذر شديد دون أن تسمح له بالاقتراب منها أكثر ، وفي تلك الأثناء دخل عدنان حاملا صفيحة عليها خبز يابس وثمرات مع كوب لبن قدمها لعلاء قائلا:

- اعذرني يا صديقي، هذا طعام الإفطار المقرر أثناء فترة الاختبار..

ابتسم علاء:

- جزاك الله خيرا ، لقد مرت علي أيام لم أذق فيها طعاما..

فضحك عدنان:

- رب ضارة نافعة.. سيساعدك هذا كثيرا في أيام الاختبار – بإذن الله – فمعظم المتقدمين لم يعتادوا على هذا اللون من التقشف، فكان سببا في فشلهم ورفضهم من المدرسة، لذا تجد كثيرا من أبناء العائلات الثرية يفضلون الالتحاق بمدرسة الفوز للفروسية..

فتساءل علاء:

- وهل توجد مدارس أخرى للفروسية؟

فأجابه عدنان:

- مدرسة النصر ومدرسة الفوز أكبر مدرستين للفروسية في المنطقة، ولا علم لي بوجود غيرهما..

ثم استدرك:

- الالتحاق بمدرسة الفوز مختلف عن هنا فهو لا يحتاج لإجراء أي اختبار، وبالمقابل ستدفع مبلغا ضخما من المال، لذا تراها مرتعا خصبا للتفاخر بين الأثرياء..

ثم انتبه إلى الوقت الذي أدركهم ، فوجه حديثه لعلاء:

- أرجو أن تكون قد أطعمت الخيول جيدا؛ فاليوم أمامها تدريب شاق لطلبة مرتبة همام..

انتهت فترة التدريب، واستعد علاء لتنظيف الخيول المتعبة بعد أن قدم لها الماء والطعام، كان عليه إنزال السروج أولا، والذي لم يكن بالأمر السهل بالنسبة له، حاول الاقتراب منها مرارا لكنه لم يفلح فقد كان يشعر برهبة لم يألفها في نفسه من قبل، هذا رغم أنه اتجه مباشرة نحو ورد، حتى كاد اليأس أن يجد سبيلا إلى قلبه، لكن تصميمه على النجاح دفعه للتفكير بشتى الوسائل وهو يستذكر كلام عدنان حول شعور الأحصنة بمن حولها ومعرفتها لمقدار صدق عاطفته معها وهو يربط ما سمعه من عدنان بما يراه ويلاحظه، فلاطفها وكلمها كما فعل عدنان – وهو يشك بأنها تفهمه – ثم أخذ يقرب لها الأعشاب حتى استطاع إطعامها بيده، وشيئا فشيئا بدأت تعتاد عليه، وتسمح له بالاقتراب منها، فأخذ يربت عليها وعيناه مثبتتان على أذنيها بناء على نصيحة عدنان، خشية أن يكون قد لامس الجزء الحساس من أجسادها، فما لبث أن أنزل السروج عنها بهدوء وشرع بتنظيفها برفق حتى انتهى منها جميعا بما فيهم حالك.. ذلك الحصان الحساس الذي اتخذ منه موقفا عدائيا في لقائهما الأول دون سابق إنذار!

تنفس علاء بارتياح، وهو يتمطى مادا ذراعيه ويحدث نفسه:

- يا لهذه الخيول المدللة، يبدو أن رعاية بهاء أسهل منها..

ولم يكد يمر الخاطر في رأسه حتى انتبه لصوت أقدام حالك تضرب بالأرض، فاعتدل علاء في وقفته سريعا، كمن خشي أن يخسر علاقته مع صديق جاهد لإصلاح ما أفسده معه، وهو يقول معتذرا:

- كنت امزح فقط!

ثم أطلق ابتسامة خفيفة على فعلته:

- صدق عدنان!! سرعان ما اعتدت على ذلك!!

مر أسبوع كامل وعلاء منهمك في أعمال الإسطبل، بات يحدث فيها نفسه عن المدة التي سيقضيها في هذا المكان، حتى دخل عليه عاطف حاملا مجموعة من الكتب قدمها لعلاء قائلا بعد أن حياه:

- هذه كتب المستويين الخامس والسادس من التعليم النظامي في المنطقة، حاول الاطلاع عليها ودراستها فستقدم بها امتحانا شاملا بعد يومين، هذا إلى جانب عملك في الإسطبل، لذا حاول الموازنة بينهما..

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها علاء بغيظ شديد منذ وصوله المدرسة، فالامتحان بعد يومين فقط ومع ذلك يطلب منه الموازنة بين الدراسة والعمل!! لكنه حاول ضبط أعصابه وتهدئة نفسه:

- لا شك أن هذا جزء من الاختبار وعلي تجاوزه بنجاح بإذن الله، ثم أنني أنهيت دراسة المستوى الخامس تقريبا في مدينتي، فلم تنشب الحرب إلا على أبواب الامتحانات النهائية.. ولكن، ماذا عن المستوى السادس!!

وقفزت صورة أولئك الفتيان الذين قابلهم في الإسطبل إلى ذهنه، وعبارة رنانة أخذت تدوي في أذنه " بانتظار أن نراك بيننا قريباً"، فشد من عزيمته مشجعا نفسه:

-لا بأس سأحاول التركيز على الدروس الأولى فلم يمر على الدراسة هنا أكثر من شهر ونصف..

لم يجد علاء أدنى فرصة للإطلاع على الكتب إلا بعد العشاء، فقد أخذ منه العمل في الإسطبل جهدا كبيرا، لا سيما وأن السيد رافع طلب منه القيام بنقل مخزون الحبوب والحشائش إلى مخزن آخر! ورغم تعبه الشديد ورغبته الملحة بالنوم، إلا أنه قاوم ذلك كله وهو يطالع الكتب على ضوء السراج، كانت سبعة كتب من المستوى الخامس، وعشرة أخرى للمستوى السادس. فتح كتب الحساب وعلم الحياة والطبيعة من المستوى الخامس، وابتسم مطمئنا وهو يقلب الصفحات ويراجع المعلومات، محدثا نفسه:

- الحمد لله، ما زلت أذكر ذلك جيدا، فجزاكم الله خيرا يا معلميّ الأعزاء، ثم بحث بفضول عن كتاب الحوادث والأيام متلهفا لمعرفة مواضيعه، وهو يذكر كلام حذيفة وسالم..

فتح الكتاب يتأمل مواضيعه حتى وقعت عيناه على فصل سقوط الخلافة، فقرأ منقلا عينيه بين السطور بسرعة: "استطاع سهم الدين أخيرا بفضل حنكته وذكائه إنقاذ منطقة الجبال بأسرها من دمار محقق بعد أن زادت أطماع المناطق المجاورة في خيرات البلاد، وإعلان الخليفة عبد السلام أوروج تخليه عن مسؤوليته في التصدي لأطماع الممالك القوية، فكان لا بد من إعلان الانفصال عنها... وعندما استلم الحاكم نجم الدين حكم البلاد أثبت جدارته بين حكام جميع المناطق وقد شهد له بدماثة الخلق والحنكة والحكمة وحسن التصرف والشجاعة والقوة في الحق ونصرة أهله بلا هوادة مع الرحمة والتواضع ولين الجانب مما أكسبه محبة الشعب له بجدارة..." شعر علاء بالملل من كلام التبجيل نفسه الذي تلبسه كل منطقة لحاكمها، وتنهد:

- ما دمنا نمتلك هذا الصنف من الحكام العظام فلماذا لم نكن في مقدمة العالم!!

وأخيرا وقعت عيناه على كتاب عنوانه (سير أخبار الفرسان) وقد كتب تحته بخط واضح "خاص بمدرسة النصر للفروسية - المستوى السادس"، وعندما فتحه وجد نفسه فيه كالضائع في بحر لا يعلم منتهاه..

مضى معظم الليل وعلاء منشغل بكتبه يبحث ويراجع ويستذكر وقد شعر بطمأنينة لا بأس بها وهو يجد نفسه متمكناً إلى حد ما من كتب المستوى الخامس، فلم تكن الدروس تختلف كثيرا عما درسه في منطقته، والتي كان متفوقا فيها، وهذا من فضل الله عليه، لكن بعض القلق ما زال يساوره لما حوت كتب المستوى السادس، لا سيما وأن المشرف عاطف أخبره بأن طلاب المستوى السادس قد انهوا دراسة ثلاثة فصول على الأقل من كل كتاب تقريبا، فهل سيكفيه يوم واحد يتخلله العمل في الإسطبل لتدارك ذلك كله!!

استيقظ علاء على يد حانية ربتت على كتفه، وقد بدأ نور الفجر يسفر عن الصباح بوضوح:

- ستشرق الشمس بعد قليل، انهض يا علاء..

وبعد أن أدى علاء صلاة الفجر على عجل، وهو يشعر بألم لا حد له لفواتها عليه في الجامع جماعة، قال له عاطف مؤنبا:

- كان عليك أن توازن أكثر بين الأمور، فلولا لطف الله بنا لحلت كارثة في الإسطبل، إياك أن تنسى السراج مشتعلا مرة أخرى..

أطرق علاء خجلا من فعلته:

- أرجو المعذرة فقد كنت أحاول مراجعة الدروس بسرعة فلا وقت لدي حتى غلبني النعاس، أعدك أنني لن أكرر ذلك ثانية، وسأبذل جهدي لأكون أكثر انتباها إن شاء الله..

بدا علاء مرهقا جدا ذلك الصباح، خاصة وأنه لم يأخذ قسطا كافيا من الراحة، بالإضافة إلى ذهنه المشغول بأمر الامتحان غدا، عندما تناهى إلى سمعه صوت عدنان مقبلا عليه، فتهلل وجهه فرحا:

- الحمد لله على عودتك يا صديقي، كم أنا سعيد برؤيتك..

فابتسم عدنان وهو يصافحه:

- لكنني لم أغب عنك أكثر من أسبوع، وأرجو أن لا يزعجك معرفة سبب عودتي في هذا الوقت بالذات..

بدا القلق واضحا في عيني علاء فلم يعد يحتمل سماع مهمات جديدة إضافية، لكن عدنان تابع وهو يتجه صوب مخزن السروج:

- اليوم هو درس الركوب الأول لمرتبة المبتدئين، وعلينا إسراج الخيول وإعدادها لهم بشكل خاص..

اتجه عدنان صوب غرفة المعدات في الإسطبل حيث علقت السروج والألجمة والشكائم على الكلاليب، وتناول المعدات اللازمة لتهيئة جواد واحد، وهو يخاطب علاء:

- راقبني جيدا، فعليك القيام بذلك وحدك مع بقية الجياد، إذ أنني سأضطر للذهاب في مهمة أخرى طلبها مني السيد رافع..

لم يخف على عدنان ملاحظة تبرم علاء الشديد بتلك المهمة، فحاول إثارة اهتمامه بقوله:

- إن خطأ واحدا في هذه العملية قد يؤدي إلى سقوط قاتل، لا سيما وأن الطلبة من المبتدئين، عندها شعر علاء بعظم المسؤولية الملقاة على كاهله، فهتف منفعلا:

- وكيف تحملونني مسؤولية القيام بذلك وحدي يا عدنان، هذا خطر جدا، فأنا لم ألجم حصانا من قبل!!

فابتسم عدنان مهدئا، وهو يقلب بصره بين الرؤوس النظيفة لجياد تنظر من خلال أبواب زريبتها:

- لا عليك يا صديقي ستتقن عملك بإذن الله، نحن نثق بك، انظر إلى هذه الجياد اللامعة، لا أبالغ إن قلت لك بأنني لم أتقن ما أتقنته أنت إلا بعد ضعف المدة التي قضيتها هنا يا علاء..

ثم اتجه نحو (الأبرش) الحصان الأول في الصف والمعدات في يده قائلا:

- سنركز السرج أولا ومن ثم اللجام، ولن ننسى التأكد من سلامة الحوافر والحدوات، وشرع بأداء عمله بهمة ونشاط وعلاء يراقبه بدقة متناهية..

استلقى علاء بعد صلاة العشاء على كومة القش منهك القوى، وقد استنفد جهده كله بعد يوم شاق. غدا موعد الامتحان، لكنه لن يغامر بترك السراج مشتعلا، ولن يفرط بصلاة الفجر جماعة مرة أخرى، فهذا هو الأهم بالنسبة له، لا سيما وأنه في أمس الحاجة لأن يكون في ذمة الله ورعايته، ثم إن عقله مرهق الان ولن يكون قادرا على استيعاب ما سيقرؤه على أية حال، لم يسترسل علاء بأفكاره كثيرا فلم يكد ينهي قراءة أذكار النوم حتى غط في نوم عميق..

كانت نسائم السحر الباردة تلفح وجه المشرف عاطف وهو يحث الخطى نحو الإسطبل بعد أن جذبه ضوء السراج المنبعث منه وهو يحدث نفسه:

- أرجو أن لا يكون قد فعلها مرة أخرى..

لكن سرعان ما فارقه قلقه وهو يرى علاء بكامل قوته ونشاطه منكبا على كتبه يدرسها باهتمام، ألقى عليه التحية، ثم سأله:

- ألم تنم يا بني؟؟

فابتسم علاء وهو يشعر براحة كبيرة:

- بل شبعت نوما، وها أنا كما ترى بفضل الله في قمة النشاط والحيوية..

وصمت قليلا قبل أن يتابع:

- لن ألدغ من الجحر نفسه مرتين، وقد بورك للأمة في بكورها..

تهلل وجه عاطف فرحا وهو يبتسم قائلا:

- بارك الله فيك يا بني، لن آخذ من وقتك أكثر، فلم يبق إلا القليل على أذان الفجر..

كان يوما مختلفا في حياة علاء منذ قدومه إلى مدينة رياح، فرغم أنه قام بواجبه المعتاد في الإسطبل من بعد صلاة الفجر، فلم يكن هناك استثناء من أجل امتحانه، إلا أنه شعر بدنو لحظة الصفر بعد صلاة العصر، و التي سيحسم فيها أمره، ولن يرضى بأقل من النجاح، صحيح أن كل ما مر به كانت أجزاء متتابعة من امتحان متكامل، لكن امتحان الورق بنظره كان مختلفا، فهذا هو عهده بالامتحانات. مشى عدنان إلى جانب علاء يشد من أزره بعد عودته من صلاة العصر قائلا:

- لقد اثبت جدارتك منذ قدومك يا صديقي، فثق بالله فهو لن يضيعك..

أطرق علاء قليلا قبل أن يقول:

- لم أفقد ثقتي بالله يا عدنان، ولكنني أخشى أن أكون قد قصرت فلا أستحق التوفيق..

فقاطعه عدنان:

- لا تقل هذا يا علاء، لم يكن بإمكانك فعل أكثر مما فعلته..

عندها تنهد علاء:

- لا أعرف ماذا أقول يا عدنان ولكنني لم أعتد على دخول امتحان في كتاب لم أدرسه، ولشد ما أخشى أن تكون هناك أسئلة في القصائد الطويلة من المستوى السادس..

ربت عدنان على كتفه مشجعا:

- اطمئن يا صديقي فأنا واثق من أنك ستجتاز الامتحان بنجاح..

وبرقت عيناه بنظرة غريبة وهو يتابع:

- لا تقلق، سأبذل جهدي من أجلك، أعدك بذلك..

لم يدر علاء ما نوعية هذا الجهد الذي سيبذله عدنان من أجله، لكنه شكره على وقوفه لجانبه، إذ كانت المرة الأولى التي يشعر بها بمثل هذا الكم الهائل من التوتر وهو يستعد لدخول مخزن الحبوب القديم الذي أعد خصيصا ليقدم امتحانه

فيه. حاول أن يهدئ روعه لا سيما وأن استعداده للامتحان لم يكن كافيا، قاوم شعوره بالاختناق من جو الغرفة التي كانت أشبه ما تكون بصندوق تعذيب عوضا عن غرفة لتقديم امتحان بأقل كفاءة من التركيز، جلس فوق القش منحنيا على رزمة ضخمة من الأوراق حوت الأسئلة، عليه إجابتها في مدة زمنية تبدأ من بعد صلاة العصر وحتى أذان المغرب، تلا آيات من القرآن متوكلا على الله فقد بذل أقصى ما بوسعه، ثم بدأ بقراءة الأسئلة بهدوء وروية، ورويدا رويدا أخذ يشعر بنشوة كبيرة وقد انتهى من عشر صفحات حوت أسئلة متنوعة لم يجد صعوبة في إجابتها، فقد كانت في معظمها مراجعة لما أخذه في المرحلة الخامسة، حتى المسائل الحسابية استطاع حل معظمها في فترة قياسية، وحين بدأ بقراءة أسئلة الورقة الحادية عشرة فوجئ بأنها كانت عن أنواع السروج والشكائم والألجمة وطرق تركيبها. بذل جهدا كبيرا يراجع كل ما حدثه به عدنان ليعيد صياغته بأسلوبه مستعينا برسم بعض الأشكال التوضيحية حتى تمكن من إجابة معظم الأسئلة، ليكتشف أن الوقت بدأ يداهمه، وما تزال أمامه ورقات لم يطلع عليها بعد، فبدأ التوتر يجد طريقه إلى نفسه من جديد. التقط نفسا عميقا وقد أنهكه التعب فنهض قليلا يحاول تغيير وضعيته ليجدد نشاطه بعد أن أنهى سبع عشرة ورقة ولم يبق أمامه الكثير. ولدهشته الشديدة لم يجد سوى ملاحظة بخط كبير في الورقة الثامنة عشرة: "لتجتاز الامتحان بنجاح عليك الحصول على سبعين جزءا من أصل مئة، علما بأن مجموع الأجزاء على الورقات السابقة لا تتعدى الأربعين جزءا فقط، أما الستون الباقية فهي موزعة على الأسئلة اللاحقة"، شعر علاء بارتباك شديد من هذا الاكتشاف المتأخر، فإجاباته السابقة لن تمنحه الأجزاء المطلوبة للنجاح هذا على افتراض أنه أجابها جميعا بشكل صحيح، لذا حاول أن يسرع في إجابة الصفحتين الأخيرتين فلم يبق إلا القليل ويرتفع الأذان. أطلق علاء شهقة مكتومة وهو يقرأ المطلوب في الصفحة الأخيرة فلم يملك أن ضرب بقبضته على الأرض وهو يشعر بغيظ شديد، فقد كانت معظم الأجزاء على ذلك السؤال، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ:

- من أين لي أن أستذكر تلك القصيدة الطويلة التي لم يسمح لي الوقت بقراءتها عوضا عن حفظها! ساعدني يا رب..

وخيل إليه أن غبار القش المتناثر حوله غدا جبالا من الهموم حطت على رأسه، فأخذ يسعل بشدة، وفي تلك الأثناء سمع صوت عدنان وهو يفتح الباب بعد أن تحدث إلى المشرف عاطف الجالس في الخارج، دخل عدنان وبيده كوب ماء رافعا صوته:

- اشرب يا علاء..

ثم دس في يده ورقة مطوية هامسا:

- لقد كتبت لك القصائد كلها يا علاء، لم يبق الكثير من الوقت..

ثم خرج بسرعة وكأن شيئا لم يكن تاركا علاء في ذهول كبير. كانت هذه أكبر صدمة يتلقاها علاء حتى تلك اللحظة، ما الذي فعله عدنان! أليس هذا غشا!! أيعقل أن أغش!!! وبدأت نفسه تنازعه:

- لا وقت للتفكير الآن فسيرتفع أذان المغرب بعد لحظات، ما عليك يا علاء فلعل الله استجاب دعاؤك وبعث لك من يساعدك، هيا انقلها بسرعة ولا تتردد. أنت مضطر وللضرورة أحكام، وأخذت صور مدينته، أمه وأخوه الصغير تتراءى أمامه، لا بد من إنقاذهم، لذا عليه أن ينجح في الامتحان بأي ثمن ليصبح فارسا يعيد الأمور إلى نصابها، وأخيرا هم بفتح الورقة، لكنه توقف فجأة وقد قفزت صورة والده أمام عينيه:

- الغش هو الغش ومن غشنا فليس منا، فلا تنخدع بكلام الأولاد يا بني..

- ولكن يا أبي، سمير مختلف عنهم صدقني، لقد كانت أمه مريضة وقد سهر إلى جوارها طوال الليل ولم يتمكن من الدراسة، ثم إن مرضها سيشتد إن علمت أنه لم ينجح في الاختبار فهي تعلق عليه آمالا كثيرة..

- ولماذا لا يخبر الأستاذ بذلك وهو بلا شك سيتفهم الأمر..

- أنت لا تعرف المعلم فواز يا أبي، إنه عصبي جدا ولا يتقبل أي عذر مهما كان!

ورغم انفعال علاء الشديد وهو يوضح لوالده موقف سمير إلا أن والده قال بجزم:

- كل هذا لا يبرر الغش يا بني، فالغاية لا تبرر الوسيلة، فإذا كانت غاية صديقك سامية وهمه إرضاء أمه مع الحفاظ على صحتها فهذا مما يرضاه الله، ولن يضيعه الله وسيعوضه خيرا بلا شك، وثق تماما أنه لن يصل أبدا إلى رضا الله عن طريق لا يرضاه الله، أليس كذلك يا علاء؟

انتبه علاء من ذكرياته ليجد نفسه ممسكا بالورقة التي أعطاها له عدنان، فما كان منه إلا أن ضغطها محاولا سحقها بقبضة يده، وقد عزم على أن لا يسلك طريق الغش مهما كان الثمن، وقبل أن يرتفع أذان المغرب طوى علاء رزمة أوراق الامتحان ونهض من مكانه متجها خارج الغرفة، حيث جلس المشرف عاطف في الهواء الطلق بانتظاره، والذي ابتسم قائلا:

- لم أتوقع خروجك قبل الأذان، أم أن جو الغرفة لم يعجبك؟

حاول علاء الابتسام جاهدا وهو يرد ببرود:

- ربما!

فقال عاطف:

- لقد انتهى عملك هذا اليوم، فحاول أن تنام باكرا لتأخذ قسطا كافيا من الراحة، فغدا من بعد صلاة الفجر لديك مهمة جديدة من نوع مختلف..

حاول علاء أن يعي ما قاله المشرف عاطف رغم فكره المشغول بعدنان:

- ما الذي دفعه لمثل هذا التصرف، لقد خيب ظني!

أما عدنان فقد كان في شوق لرؤية علاء والاطمئنان عليه، فما أن لمحه خارجا حتى هرع إليه:

- كيف كان امتحانك يا علاء طمئني أرجوك..

وبدلا من أن يسمع إجابة مطمئنة، فوجئ بتجهم علاء الشديد مع نظرات ثاقبة لا تبعث على الارتياح، وقبل أن يهم بقول شيء، ارتفع أذان المغرب فقال علاء:

- دعنا نصلي أولا..

أخرج علاء الورقة من جيبه في صمت وهو يفكر بالطريقة التي يواجه بها صديقه الوحيد في هذا المكان، حتى قال أخيرا وهو يقدمها له:

- ما هذا يا عدنان!!!! لقد صدمتني بقوة، سامحك الله..

بدا التوتر واضحا على وجه عدنان:

- ما الذي تعنيه يا علاء!! لقد حاولت مساعدتك وحسب!

وأطرق برأسه وهو يتابع:

- لقد كان سعالك فرصة مواتية لأحضر كوب ماء لك، فقد كنت قلقا عليك يا صديقي وخفت أن لا تجتاز الامتحان، وهذا أقل ما استطيع تقديمه لك، ألسنا أصدقاء!!

لكن علاء قاطعه بنبرة جادة:

- ولكن هذا لا يبرر الغش يا عدنان،ثم إنهم منحوك ثقتهم فكيف تغدر بهم!!

قفزت نظرات قلقة الى عيني عدنان وهو يقول متوسلا:

- هل هذا يعني أنك ستخبرهم بما حدث!! أرجوك لا تفعل هذا يا علاء فسيطردونني حتما..

فرد علاء:

- أنا لم أقل ذلك، ولكن عدني أن تتوب من فعلتك هذه ولا تكررها أبدا..

أطرق عدنان برأسه ندما قبل أن يمد يده مصافحا علاء:

- هذا وعد..

فابتسم علاء وهو يشد على يده:

- أقدر موقفك يا صديقي ولكن رضا الله هو الأهم، لقد بذلت جهدي وسأرضى بما كتبه الله لي وإن لم التحق بالمستوى الذي أرغبه، بل وحتى إن لم أقبل أصلا..

***

كان علاء على أهبة الاستعداد لمهمته الجديدة بعد صلاة الفجر، عندما جاءه عاطف وبيده عصا قوية طويلة مع حقيبة قماش حوت طعاما وماء، ناولها لعلاء قائلا:

- اسمعني يا علاء، لقد قاربت الحشائش على الانتهاء فعليك أن تحضر المزيد منها من حقل الربيع، عند طرف المدينة الشمالي وإياك أن تحضر الحشائش من مكان آخر، فالحشائش السامة منتشرة بكثرة، المكان بعيد عن هنا، ولكن عليك أن تعود بسرعة فلا تضيع الوقت بالطريق، تذكر أن عليك أن تسلك طريق الغابة في الذهاب، وهو على يدك اليمنى من الطريق الطويل، أما في العودة فاسلك طريق الوادي، هل هذا واضح؟

أومأ علاء برأسه إيجابا وهو يردد:

- لقد فهمت

فكرر المشرف عاطف كلامه:

- حاول أن تجتاز الغابة قبل الغروب فهي خطرة، تذكر ذلك جيدا، فانتبه لنفسك في الطريق، واستخدم العصا عند الضرورة..

ثم شد على يده:

- وفقك الله يا بني

وشد عدنان على يدي علاء:

- رافقتك السلامة يا صديقي..

ثم ابتسم مازحا:

- لا تشغل بالك بشان الخيول، فسأعتني بها جيدا أثناء غيابك..

فابتسم علاء:

- لا تنس أنها أصبحت من أعز أصدقائي أيضا..

ثم انطلق يجر عربة خشبية خلفه أعدت خصيصا لهذا الغرض، ولم يكن ذلك بالعمل الهين، فالأرض وعرة والعربة رغم خلوها لم تكن سهلة الانقياد..

فحدث علاء نفسه:

- إن كان هذا حالها وهي فارغة فكيف بها وقد امتلأت حتى آخرها!!

لكنه سرعان ما طرد هذه الأفكار ليستمتع بجمال الطبيعة من حوله، وبدأ يسلي نفسه بإنشاد الأشعار الجميلة التي حفظها عن والده:

نحن أبطال أسود لا نبـالي بالقيـود

ورسول الله فينـا أسوة في ذا الوجود

أمة الشرك دمـار فمحـال أن تسود

أبدا لا لن تسـود أبـدا لا لن تســود

لم يكن علاء قد توقف ولو للحظة واحدة، وهو يقود عربته في طريق آخذ بالصعود التدريجي، عندما سمع صوت أذان الظهر، فخمن أنه مسجد قريب خلف المرتفع، فضاعف جهده حتى وصل القمة، ليشرف على أشبه ما يكون بسوق صغير يعج بالحيوية والنشاط، لكن أكثر ما لفت نظره هو جدار الأخبار الذي توسط المكان. خفق قلبه بشدة فمنذ فترة لم يسمع أي أخبار عن منطقته، فأسرع يحث الخطى وهو ينزل المرتفع حتى كادت قدمه أن تنزلق مع اندفاع العربة. شعر بقوة تجذبه نحو ذلك الجدار لم يستطع مقاومتها لولا ارتفاع صوت إقامة الصلاة في المسجد، فغير مساره نحوه. أحكم علاء ربط عربته إلى عمود جوار المسجد من الخارج يُستخدم مربطا للأشياء، ثم دلف إلى المسجد يحاول تخلية ذهنه مما يشغله:

- ترى ما هي الأخبار؟؟

كانت هتافات الباعة تعلو لترويج بضائعهم بعد الصلاة، فمن بائعات الحليب والبيض إلى باعة الدقيق والخبز، والزيت والعسل، بالإضافة إلى بائع الخضار الذي لم يترك صنفا إلا نظم له قصيدة مدح عصماء! هذا عوضا عن دكاكين الأواني

وصناعة الفخار، ومحال اللحوم والجلود وأعلاف الماشية وغيرها، أما راعي الأخبار فقد جلس خلف طاولة متوسطة الحجم قرب الجدار يهتف بأعلى صوته:

- أخبار العالم بين يديك، البيان الأخير للحاكم نجم الدين، آخر التطورات المذهلة في عالم الثلاثية، ترقبوا أخبار الفرق المنافسة على وسام الأرض القادم، لقاء خاص مع لاكومار بان، آخر حفلات الموسيقار الشهير ساكورغان..

ورغم حرص علاء الشديد على إنجاز مهمته إلا أنه لم يجد بأسا من التحدث مع راعي الأخبار بعد أن تصفح العناوين الرئيسة في الجدار ولم يجد فيها بغيته، فاقترب منه مسلما:

- ألا توجد أخبار عن منطقة المروج الخضراء يا عم؟

نظر إليه الرجل متفحصا كمن باغته السؤال، لكنه قال:

- لم تصلنا أية أخبار عنها من مركز المدينة منذ أكثر من أسبوعين، فإذا أردت أخبارا من هذا النوع فاذهب إلى هناك..

بدت خيبة الأمل في نظرات علاء لكنه هتف فجأة:

- عفوا يا عمي قلت أنه لم تصلكم أخبار منذ أسبوعين، فهل لديك أخبار قبل ذلك الوقت؟

أطرق الرجل مهمهما:

- دعني أرى..

وبدأ يبحث في أدراج الجزء السفلي من طاولته العجيبة. وفي تلك الأثناء أقبل مجموعة من الأولاد في مثل سن علاء تقريبا، وبعد أن القوا نظرة خاطفة على زاوية محددة في جدار الأخبار؛ أسرعوا نحو راعي الأخبار- المنحني خلف الطاولة- يتهاتفون:

- عم جاد.. عم جاد، نريد النسخة المفصلة الجديدة للثلاثية..

رفع جاد رأسه قائلا:

- لا تقلقوا، لقد طلبنا كمية مضاعفة هذه المرة وسيحصل كل واحد منكم على نسخته..

مرت لحظات انتظار عصيبة على علاء وهو يراقب انشغال راعي الأخبار مع الأولاد على أحر من الجمر، فلا وقت يضيعه حتى حزم أمره لافتا نظر العم جاد إليه قائلا بأدب:

- عفوا يا عم، لم تقل إذا ما وجدت نسخا من أخبار منطقة المروج الخضراء، حتى وإن كانت قديمة؟

فرد عليه جاد وهو يسلم النسخ للأولاد دون أن ينظر إليه:

- انتظر قليلا يا بني ريثما أنتهي!

شعر علاء بغيظ شديد فهو من جاء أولا لكنه آثر الصمت، حتى مرت اللحظات العصيبة وكأنها سنوات، انتهى فيها جاد من توزيع النسخ للأولاد، ثم تابع البحث في أدراجه قبل أن يرفع رأسه أخيرا وهو يحمل بيده نسخة صفراء باهتة قدمها لعلاء قائلا:

- هذه آخر ما لدينا من أخبار هنا، إنها قبل ثلاثة أسابيع تقريبا..

بدت علامات الرضا على وجه علاء بوضوح وهو يمد يده لتناول النسخة قائلا:

- لا بأس، جزاك الله خيرا يا عم..

لكنه فوجئ بيد الرجل تبعد النسخة من أمامه وهو يقول:

- الحساب أولا، خمس قطع نقدية!

لم يدر علاء كيف غاب عن ذهنه هذا الأمر، وضع يده في جيبه في محاولة يائسة للعثور على ما يحفظ به ماء وجهه بعد أن أرهق العم جاد معه، ولكن لا شئ!! لم يعرف علاء في تلك اللحظة ما الذي آلمه أكثر، عدم تمكنه من الاطلاع على أخبار

منطقته بعد طول انتظار، أم الموقف الحرج الذي وجد نفسه فيه، ورغم تذمر جاد منه في البداية، إلا أنه شعر برقة نحوه، فقال أخيرا:

- حسنا يا بني، تبدو غريبا عن المكان، لذا سأسمح لك بالإطلاع على النسخة هنا.

تهلل وجه علاء فرحا وتألقت عيناه بنظرات امتنان لا حد لها:

- جزاك الله خيرا يا عمي لن أنسى معروفك هذا أبدا..

وأسرع يقلب بصره في النسخة : "هجمات القائد نور الدين وأتباعه تتوالى... إصابات بليغة في جيش رامان، وتراجع واضح في صفوفهم..." شعر علاء بارتياح شديد مع الفخر والاعتزاز بوالده، مما أعطاه دفعة حماس إضافية، وبعد أن شكر العم جاد مرة أخرى، أسرع في السير يجر عربته، وهو يحاول تعويض ما فاته دون أن يلاحظ ذلك الرجل الذي توقف بعربته أمام جدار الأخبار. نهض جاد من مكانه مستقبلا الرجل الذي نزل من العربة مرحبا:

- أهلا ومرحبا بك يا سيد بلال، إنه لتواضع منك أن تحضر النسخ الجديدة بنفسك يا سيدي..

فابتسم بلال وهو يضع كومة من النسخ المرصوصة فوق بعضها بدقة بالغة، على الطاولة أمامه:

- لا داعي لكل هذه المجاملات يا جاد، فقد توعك شادي ولم يستطع إحضارها وقد كنت مارا من هنا في جميع الأحوال، ثم إن الأخبار عاجلة ولا تحتمل التأجيل..

و أخرج من القسم الخلفي للعربة قطعة جلدية كبيرة من النوع الذي يعلق على جدر الأخبار حاملا العناوين الرئيسة الهامة..

لم تكد عينا جاد تقعان على الخبر الذي كتب بخط عريض، حتى هتف:

- غير معقول! لقد مر قبل قليل فتى يسأل عن أخبار المروج الخضراء، سيهمه الخبر كثيرا بلا شك..

أبدى بلال اهتمامه بما سمعه، فسأله:

- وهل هو غريب عن هنا؟

أومأ جاد برأسه قائلا:

- أجل يا سيدي، إنه يذكرني بابنك أصيل وصديقه حسان فهما الوحيدان بين أقرانهما اللذان يبديان اهتمامهما بهذا النوع من الأخبار.

ثم استدرك قائلا:

- أظن ذلك الفتى من مدرسة النصر أيضا، فكأنني لمحت شعارها على العربة التي معه..

لم يكن علاء قد ابتعد كثيرا عندما انتبه لدخول وقت صلاة العصر فأداها منفردا لعدم وجود مسجد في طريقه، وقد بدأت تخلو من آثار البنيان، وتابع الجري بالعربة يحاول تعويض ما فاته من الوقت دون أن يتناول سوى لقيمات قليلة تسد رمقه، حتى وجد نفسه أخيرا أمام مفترق الطريق وقد قاربت الشمس على المغيب، وعليه أن يسلك الجهة اليمنى نحو الغابة، وفي تلك اللحظة أقبل شاب نحيل يبدو عليه الإرهاق بعد يوم كامل من العمل..

فألقى عليه التحية:

- إلى أين أنت ذاهب يا فتى بهذه العربة؟ إنها المرة الأولى التي أراك فيها وأظنك غريب عن المنطقة، فهل ترغب بالمساعدة؟

فابتسم علاء شاكرا:

- جزاك الله خيرا، إنني في طريقي إلى حقل الربيع..

فقال الشاب بدهشة:

- لكن الظلام سيحل بعد قليل، وحقل الربيع بعيد جدا من هنا!

فرد علاء بثقة:

- هذا لا يهم فأنا مضطر لإحضار الأعشاب من هناك..

لم يخف الشاب استنكاره وهو يقول:

- أتذهب كل هذه المسافة من أجل أعشاب ؟ الأعشاب والحشائش متوفرة بكثرة بالقرب من هذا المكان!

فرد علاء باقتضاب:

- ولكن من واجبي إحضارها من حقل الربيع!

تغيرت ملامح وجه الشاب متسائلا :

- وهل أنت تعمل عند رجل قاس عنيد إلى هذا الحد أيها الصغير؟

هز علاء رأسه نفيا وهو يجب:

- كلا ، ولكنني أود الالتحاق بمدرسة النصر و.....

فقاطعه الشاب بنبرة غريبة:

- آه.. مدرسة النصر واختباراتها ! ولماذا تود الالتحاق بها، إنها مدرسة سيئة جدا تكلف الطلاب ما لا يطيقونه من أجل مصلحة القائمين عليها!!

تغير وجه علاء فقال غاضبا:

- إنهم جميعا طيبون وهدفهم نبيل، بالإضافة لكونهم لا يأخذون مالا مقابل ما يقدمونه لنا..

فضحك الشاب ساخرا:

- يا لك من ساذج مغفل.. إنني لا ألومك على أية حال فقد حبكوا خطة محكمة لإخفاء حقيقة نواياهم، واستطاعوا لسوء الحظ خداع الكثيرين..

وأشار إلى صدره وهو يتابع بغرور عجيب:

- لكنني أنا عماد لا تنطلي عليّ حيلهم القذرة ..

ثم قال بصرامة يحاول تغيير نبرته، وهو يرى آثار الاستياء بادية على وجه علاء:

- آسف يا صديقي، لا تظنني أنانيا أو مغرورا كما يبدو، فربما أخطأت التعبير ولكنها الحقيقة، أخبرني اذن كيف يسمحون لك باجتياز هذه الغابة وقت الغروب! ألا تعلم أن هذا خطر جدا عليك؟

فأجاب علاء مدافعا:

- الخطأ خطئي، فأنا من تأخر، ولو التزمت بالتعليمات لتجاوزتها في وقت النهار..

وهم علاء بمتابعة طريقه؛ لكن عماد استوقفه قائلا:

- لا تحمل نفسك المسؤولية، انظر إلى الأعداد الهائلة التي انسحبت منها والتحقت بمدرسة الفوز، هل هذا يعني أن جميعهم مخطئون!!

بدا الاهتمام واضحا على وجه علاء، لا سيما وأن مدرسة الفوز قد أثارت فضوله منذ البداية، فانتهز عماد هذه الفرصة قائلا:

- حسنا ما رأيك أن تأتي معي الآن فنحن لم ننته من توديع فصل الشتاء بعد، ومنزلي قريب من هنا.. ستسر أمي برؤيتك كثيرا..

تردد علاء كثيرا، فرغم ثقته الشديدة بمدرسة النصر؛ إلا أن تأثير كلمات عماد لم يكن سهلا، فقد بدأت الشكوك تتسلل إلى نفسه دون أن يشعر، وصور العمل الشاق في الإسطبل، ومخازن الحبوب، بالإضافة على غرفة الامتحان الخانقة تتجسد أمامه لتتواءم مع تلك الكلمات، ليجد نفسه في حيرة شديدة، أيتابع طريقه عبر الغابة!

أما عماد فلم يدعه لأفكاره – وهو يتابع معركة حامية في أعماق نفسه– إذ سرعان ما انتزعه منها بقوله:

– ستغرب الشمس بعد قليل، فأين ستصلي المغرب؟

فأجابه علاء بشرود:

– سأصلي بالطريق إن شاء الله، فما زال أمامي بعض الوقت، وكل لحظة تضيع ليست في صالحي إذ علي الإسراع بالعودة..

تنهد عماد بيأس:

– أمازلت تفكر بالمدرسة!! حسنا لا بأس..

ثم التقط نفسا قبل أن يقول:

– اسمعني جيدا، المكان ما زال بعيدا من هنا ولا أظنك تستطيع العودة هذه الليلة على أية حال، ومجيئك معي لبعض الوقت لن يضرك بشيء..

لم يخف على علاء ملاحظة قرب دخول وقت المغرب، وعليه أداء الصلاة، فسأل عماد:

– هل هناك مسجد قريب من هنا؟

أشرق وجه عماد بابتسامة جذلة، وهو يرى الفرصة مواتية:

– المسجد قريب من منزلي، وسنصلي المغرب هناك جماعة، ما رأيك؟

وأخيرا أسقط في يد علاء فسار مع عماد مسلوب الإرادة..

سار الاثنان مبتعدين عن مفترق الطريق، وعلاء ما زال مطرقا قلقا وهو يسائل نفسه:

– هل الشاب أهلا لثقتي يا ترى فأنا لا أعرف من هو حتى الآن!! كيف سلمت له بهذه السهولة.. ربما استغل موضوع سؤالي عن الصلاة ليستدرجني معه.. ألم يكن من الأفضل لي أداء الصلاة في طريقي!!

اشتعلت الشكوك في رأس علاء في حين انطلق الشاب يتحدث عن نفسه عله يخفف من حرها، وهو يحاول جذب اهتمامه:

- كما أخبرتك أدعى عماد وأعمل في حقل قريب من هنا منذ وفاة والدي حيث أعيل نفسي وأمي العجوز، أفلا تحدثني عن نفسك يا..

ثم استدرك:

- لم تخبرني باسمك بعد!

فأجابه ببرود شديد:

- علاء..

وما لبثت أن لمعت عيناه وهو يتوقف فجأة:

- لقد اتخذت قراري، سأتابع طريقي نحو حقل الربيع..

لكن عماد تشبث به قائلا:

- ماذا أصابك يا علاء؟؟ لقد وصلنا المنزل تقريبا، ولا شك أنك جائع وبحاجة إلى حساء ساخنكما قلت لك.. في مثل هذا الجو البارد، وأؤكد لك مرة أخرى، مدرسة النصر سيئة جدا ولا داعي لعودتك إليها لتلقى ما لا تطيقه من أعمال وتوبيخ وعقاب لأتفه الأسباب! ستندم وستذكر عندها أنني حذرتك بعدما يكون قد فات الأوان، فدخول المدرسة شيء، أما الخروج منها فهو شيء آخر!

ارتبك علاء قليلا لكنه قال:

- لست متأكدا من هذا، ثم إنني بحاجة إليها فلا يوجد أمامي خيار آخر!

فقال عماد باستسلام:

- إذا كنت مصرا فلا مانع، سنصلي المغرب، ثم تبيت هذه الليلة عندي وفي الصباح الباكر تذهب حيث تريد..

لم يتمالك علاء نفسه، وهو يصرخ بوجه عماد قائلا:

- ألا تفهم!! دعني وشأني ولا تؤخرني أكثر فهذا يكفي!

لكن عماد بدا مصرا على موقفه هو الآخر:

- لا داعي لكل هذا الصراخ، مادام الأمر كذلك، سأعطيك الحشائش من الحقل الذي أعمل فيه فلدي خبرة واسعة في معرفة الحشائش الجيدة..

نجح عماد في ضربته تلك؛ إذ جاءت على وتر حساس لدى علاء، خاصة وهو يشعر بتأنيب الضمير على رفع صوته في وجه عماد، فما ذنبه؟ وتساءل في سره:

- بما أن عماد خبير في هذا المجال، و سيعطيني حشائش جيدة فما المانع في ذلك؟ أليس المهم أن لا تكون الحشائش ضارة أو سامة كما أخبرني المشرف!

لكنه قال بتردد واضح:

- من المفترض أن أحضر الحشائش من حقل الربيع ولا حقل سواه.. هذا ما أكده لي المشرف عاطف..

تنهد عماد وقد أوشك صبره على النفاد من هذا الصبي العنيد:

- أخبره بأنها من حقل الربيع وسيصدقك..

عندها استشاط علاء غضبا:

- وهل تريديني أن أكذب!! ألم تعلم بأن المؤمن لا يكذب وأن الرجل مازال يكذب حتى يكتب عند الله كذابا! وأن الكذب يهدي إلى الفجور وأن الفجور يهدي إلى النار؟! كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم..

ثم تابع وهو يلتقط أنفاسه المتلاحقة:

- كل شيء إلا الكذب!

دهش عماد من صلابة علاء فسأله بلطف :

- أخبرني، متى تعلمت كل هذا أيها الخطيب المفوه!

حاول علاء تجاهل تعليقه الساخر، رغم استيائه الشديد منه خاصة وأنه يذكره بريحانة تلك الفتاة التي قابلها في دار الاستراحة وهمهم في نفسه:

- ما أغرب هؤلاء الناس!

وقبل أن يحاول عماد تدارك خطأه مع علاء، ارتفع صوت الآذان من مسجد قريب فلم يجد علاء بدا من مرافقة عماد إليه لأداء صلاة المغرب..

انتهت الصلاة بتسليم الإمام، فسلم علاء من خلفه ورفع يديه بضراعة:

- ساعدني يا رب..

لم يستطع علاء التملص من قبضة عماد الذي أصر على اصطحابه إلى المنزل:

- لا تضيع الوقت أكثر يا علاء، فمنزلنا قريب من هنا وأنت بحاجة إلى حساء ساخن كما قلت لك..

فتحت سيدة هزيلة مسنة بدا عليها الإعياء والمرض باب المنزل بعد بضع طرقات عليه، و تهلل وجهها برؤية عماد قائلة:

- لقد تأخرت اليوم.. كدت أقلق عليك يا بني!

فأسرع عماد يقبل يدها:

- سامحيني يا أماه..

أما علاء، فقد أخذ لبه ما رآه، وهو يتذكر أمه الحنون الرؤوم التي لا يعرف شيئا عنها حتى الآن، فترقرقت دمعة في عينه نجح في إخفائها، حين قدمه عماد إلى أمه:

- ضيف عزيز حل بنا يا أمي..

فابتسمت الأم مرحبة:

- أهلا بك يا صغيري، تفضل فالجو بارد والحساء الساخن بانتظاركم..

ثم أسرعت تعد طبقا إضافيا لعلاء وقد امتلأ وجهها بهجة وسرورا..

لم يستطع علاء تناول طعامه، فنهض معتذرا:

- جزاك الله خيرا يا خالتي، ولكنني مضطر للذهاب..

ثم نهض قبل أن يشد عماد يده:

- لا تكن متسرعا هكذا يا علاء! فأنت لم تأكل شيئا!!

فرد علاء بحزم:

- لا أستطيع..

ثم التفت إلى الأم:

- أكرر اعتذاري يا خالتي فحساؤك شهي، ولكنني في عجلة من أمري لذا أرجو أن تقدري موقفي..

فابتسمت الأم برفق:

- لا بأس يا بني لن نثقل عليك أكثر.. فقد سررنا بزيارتك لنا، وفقك الله وكان في عونك..

ودعها علاء وخرج بسرعة يجر عربته خلفه كأنه يخشى أن يغير موقفه، و لم يكد يتنفس الصعداء وهو يبتعد بما فيه الكفاية، حتى سمع صوت عماد خلفه يتبعه مستوقفا، فالتفت إليه متسائلا:

- خير إن شاء الله! ما الذي جاء بك خلفي أيضا؟؟ لقد اتخذت قراري وعزمت أمري فلا تحاول المراوغة معي من جديد..

فابتسم عماد:

- ما هذا الاستقبال الحار يا رجل ؟ هل مُنعت أيضا من مرافقة الأشخاص في الطريق؟!

فكر علاء قليلا قبل أن يقول:

- ولكنك تركت أمك وحدها..

- لا تقلق بشأنها، فهي من أصرت على لحاقي بك ومرافقتك..

و ابتسم ملاطفا:

- ألا تحب أن نصلي العشاء جماعة؟

فرفع علاء رأسه إلى السماء متأملا تشابك النجوم، قبل أن يقول:

- لقد دخل موعدها فعلا ، كيف لم انتبه إلى صوت الأذان!!

فقال عماد مشيرا بيده:

- هيا بنا، ستقام الصلاة بعد قليل في ذلك الجامع..

وبعد أن تابعا طريقهما ليصلا مفترق الطريق من جديد، سلك علاء طريق الغابة، فقال عماد قاطعا ذلك الصمت الذي أطبق عليهما طوال المسير:

- لماذا تأخذ هذه الجهة، فالجهة الأخرى أقرب للحقل وآمن في مثل هذا الوقت!

لم يعد علاء يهتم بما يسمعه، فتابع سيره قائلا:

- لقد طُلب مني السير في هذا الاتجاه، ثم إنني لم أطلب منك مرافقتي..

بدا هلال آخر الشهر غير قادر على إنارة الطريق، لكن الظلام الحالك ساعد أشعته الفضية الواهنة كي ترسم الظلال الموحشة على أرض الغابة مما زاد المكان رهبة ووحشة..

وبعد أن قطع الاثنان مسافة لا بأس بها، همس عماد:

- أتسمع هذا الصوت؟

أرخى علاء أذنيه لكنه لم يسمع شيئا، رغم قلق خفيف ساوره فحاول التغلب عليه بقوله:

- يبدو لي أنك تود تعكير صفو الرحلة علي، فإن كنت خائفا فلماذا لا تعود إلى بيتك قبل أن تبتعد أكثر؟

استشاط عماد غيظا لكنه لم يقل شيئا..

كانت الأشجار العالية والأغصان المتشابكة وحفيف الأوراق يثير الرعب حقا، حتى أن علاء شعر بارتياح كبير لوجود عماد معه. وبينما كان السكون يخيم على المكان إلا من صوت عجلات العربة؛ إذ سمعا صوت أعواد تتكسر وحشائش تتحرك بالقرب منهما، كان موقفا حرجا جدا.. وما هي إلا لحظات حتى ظهر أمامهما ذئب لمعت عيناه وبرقت أنيابه.. وبدا تحت ضوء القمر كشبح مخيف..

كاد علاء أن يصرخ من هول المفاجأة التي لم تخطر بباله، لكن صوته ذاب في حلقه وتجمد في مكانه فلم يستطع الحراك، أما الذئب فقد بدأ بالتقدم نحوهما استعدادا لانقضاض مباغت، قفز بقوة نحو علاء الذي تسمرت قدماه من هول المفاجأة؛ لكن اندفاع عماد بسرعة نحوه أنقذته من براثن الذئب القاتلة.. وقع الاثنان أرضا والتوت ساق عماد الذي حاول حماية علاء بجسده فتأوه من شدة الألم، وازداد الذئب شراسة؛ فاتجه نحوهما مكشرا عن أنيابه، عندها تذكر علاء العصا التي ما زال يحملها بيده دون أن يشعر، فما أن اندفع الذئب نحوهما من جديد، حتى استعد علاء- وهو يحمل العصا بكلتا يديه- وأصبح التحدي واضحا.. وفي اللحظة التي انقض فيها الذئب نحوه؛ قفز علاء للأعلى، وبكل ما أوتي من قوة هوى بالعصا على رأس الذئب، وهو يكبر بأعلى صوته تكبيرة تجلجلت لصداها أرجاء الغابة– مستعينا بالله – فترنح الذئب ثم سقط أرضا، وانقض علاء عليه بالعصا يزيده ضربا و ضربا حتى فارق الذئب الحياة..

التقط علاء أنفاسه المتلاحقة، وهو يشعر بنشوة الانتصار، رغم التعب الذي حل به فارتكز إلى جذع شجرة، وعماد يرمقه بنظرات إعجاب شديدة.. فنظر إليه علاء متسائلا:

- هل أنت بخير ؟

ابتسم عماد:

- لا تقلق يا علاء، تستطيع متابعة السير وحدك فإنك شجاع لا يُخشى عليك..

قال جملته وهو يتحسس قدمه الملتوية التي آلمته إيلاما شديدا..

لكن علاء اعترض قائلا:

- لن أتخلى عنك في مثل هذه الظروف، ثم إنني مدين لك في إنقاذي فجزاك الله خيرا..

واقترب من عماد متفحصا قدمه رغم الظلام:

- أعتقد أن قدمك قد التوت فقط، سأحاول ربطها كما كانت تفعل أمي، ومن ثم نستريح قليلا ريثما تشعر بتحسن..

فقال عماد:

- لكنك ستتأخر كثيرا..

لم يبال علاء بكلماته فهذا واجبه أيضا، وبعد أن أحكم الرباط؛ نهض عماد قائلا:

- أعطني العصا التي معك، سأرتكز عليها وهيا بنا نتابع المسير، فالمكان غير آمن هنا وقد تفاجئنا ذئاب أخرى!

وافقه علاء وتابعا السير ببطء، إلى أن وصلا نهاية الغابة..

بدأت الأراضي الفسيحة تستعد لتصحو من غفوتها، وقد أسفرت السماء عن الخيط الأبيض من الفجر، فأديا صلاة الفجر جماعة وحدهما في العراء، بعد أن أذن علاء بصوته الجهوري، وقام عماد بالإمامة، ثم تابعا السير إلى أن بدأت الشمس ترسل خيوطها الذهبية، لتبدد ظلام الليل وتعلن إطلال صبح يوم جديد..

بدت الحقول على امتداد البصر تتباهى بجمالها وهدوئها، بعيدا عن أجواء المدينة المزدحمة، وتفخر بالفلاحين الذين شرعوا بالعمل فيها بهمة ونشاط قبيل

شروق الشمس، وبعد أن تجاوزا بضعة حقول التفت عماد إلى علاء الذي بدأ بالتثاؤب، مشيرا إلى حقل بعيد:

- هاهو ذا حقل الربيع، علينا أن نسرع فلم يبق أمامنا إلا القليل..

وجد علاء أكوام الحشائش مرصوصة فوق بعضها البعض بجانب سور الحقل القصير، كما أخبره المشرف عاطف، وما عليه سوى تحميلها فوق العربة، وفي تلك الأثناء خرج صاحب الحقل من وسط سنابل القمح الخضراء الطويلة فهش لرؤية عماد وبش، وصافحه قائلا:

- الحمد لله الذي صبحنا بوجهك، ما هذه الوحشة يا عماد؟

فأطرق عماد وقد شعر بتقصيره الشديد:

- إنها مشاغل الحياة يا عمي، فأنت تعلم أن بودي رؤيتك دوما..

فقال الفلاح باسما:

- أتمنى ذلك، فأنت تذكرني بوالدك الصالح رحمه الله، لقد كان نعم الرجل ..

ثم استدرك وهو يتأمل قدمه المربوطة، والعصا التي يتوكأ عليها:

- خير إن شاء الله، هل أصابك مكروه يا بني؟

فرد عماد باسما:

- لا تقلق يا عمي، مجرد التواء بسيط..

ثم قدم علاء له قائلا:

- هذا صديقي الصغير علاء، جاء لأخذ الحشائش من هنا..

ورغم أن علاء لم يعجبه تعليق عماد بوصفه صغيرا، لكنه حيا الفلاح ربيع بابتسامة عريضة، ليبدأ بعدها بنقل الحشائش إلى عربته بهمة ونشاط..

التفت الفلاح ربيع إلى عماد، وقد بدا متشوقا لسماع أخباره:

- وكيف حال أمك الآن؟

فتنهد عماد بألم:

- ما تزال تعاني من آلام الظهر والمفاصل، ولم تفلح جميع الأدوية والمراهم في علاجها..

- كان الله في عونها، فلنعم الأم الصابرة هي، أرجو أنك لم تعد تزعجها..

احمر وجه عماد خجلا:

- سامحك الله يا عمي! منذ متى عهدتني أزعج أمي لا سمح الله!

فغمزه الفلاح الطيب:

- أنت تعرف ما أعني يا بني..

وضحك الاثنان..

كان الفلاح ربيع يراقب علاء معجبا بجده، فابتسم معلقا:

- بارك الله فيك يا بني، يبدو أنك متقدم جديد لمدرسة النصر.. أليس كذلك ؟

فرد علاء وهو يتابع عمله:

- بلى..

فتابع الفلاح كلامه:

- إنني أتعامل مع المدرسة منذ نشأتها تقريبا، حيث أضع الحشائش في هذا الجانب ليأتي من يأخذها من مدرسة النصر..

فتساءل علاء وقد توقف عن عمله لبرهة:

- ألا تأخذ شيئا مقابل ذلك ؟

فابتسم الفلاح:

- بل الشيء الكثير.. فأنا لا أحتاج لهذه الحشائش أولا.. ثم إن مدرسة النصر مدرسة رائعة حقا، وهذه هي السنة الثالثة منذ أن فتحت أبوابها لاستقبال الطلبة ولم نسمع عنها إلا كل خير، جزى الله خيرا القائمين عليها وبارك الله في جهودهم وغاياتهم، وأقل القليل أن نساعدهم بقدر استطاعتنا؛ لعلنا نشاركهم الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى..

اكتفى علاء بإلقاء نظرة عتاب مباشرة في عيني عماد، قبل أن يتابع نقل الحشائش إلى العربة..

وفي تلك الأثناء خرجت فتاة صغيرة، في الثامنة من عمرها، من داخل الحقل وهي تهتف بحماسة:

- لقد أنهيت اقتلاع جميع الأعشاب الصغيرة من الصف يا أبي..

فالتفت إليها ربيع باسما:

أحسنت صنعا يا ابنتي..

تهلل وجه عماد معلقا:

- ما شاء الله، لقد أصبحتِ كبيرة يا ليلى، ما هذه المفاجأة! لم أتوقع رؤيتك هنا..

توردت وجنتا ليلى لتصطبغان بلون شعرها المحمر، المتحلق حول وجهها - ذي البشرة البيضاء الصافية- والمنسدل على كتفيها بتموج يتهادى مع نسمات الهواء العليلة، فبدت متميزة جدا بهيأتها، حتى أن علاء لم يخف عليه ملاحظة ملامحها وتقاسيم وجهها التي شعر بأنها مختلفة تماما عن أهل المنطقة بأسرها، لون عينيها ظهر وكأنه خليط من الأخضر والأزرق مع ألوان أخرى انعكست تحت أشعة الشمس، حتى يحتار من يراها أالخضرة تغلب عليها أم أنها مجرد انعكاس لمعطفها الأخضر! أما اتساع عينيها فيوحي للناظر بأنه يرى صورته في مرآة صافية، كانت مختلفة بشكل كبير عن الفلاح ربيع ولم يبد أنها تمتُ بصلة قرابة له عوضا عن أن تكون ابنته!

لم ينتبه علاء لنفسه وهو يحدق بليلى، التي التصقت بوالدها وهي تشير إليه:

- من هذا الولد يا أبي؟؟

فأنبها ربيع بقوله:

- كم مرة أخبرتك أنه ليس من اللباقة الإشارة إلى الآخرين بهذا الشكل يا ابنتي!

شعر علاء بالحرج نيابة عن الفتاة، وحاول أن يتجاهل ذلك بمتابعة العمل في نقل الحشائش، لكن عماد انتهز هذه الفرصة مخاطبا ليلى:

- هذا هو البطل علاء الذي قتل الذئب المتوحش في الغابة..

أثارت كلماته ليلى فتساءلت بفضول:

- حقا ما تقول!! هل قتل الذئب!!

أومأ عماد مبتسما، وقد سره اهتمام ليلى:

- بالتأكيد يا صغيرتي، لقد كنت معه ورأيته بأم عيني..

قال جملته الأخيرة وهو يشير إلى عينيه الاثنتين كمن يشرح لطفل صغير ما معنى كلمة عين، لكن ليلى قابلته بطبيعتها المشاكسة التي عهدها بها:

- حتى نجيب يستطيع قتل الذئاب المفترسة!

لم يتمالك ربيع نفسه وهو يتابع الحوار بين الاثنين قائلا:

- وما دخل نجيب الآن؟

لكن عماد غير الموضوع بسؤاله:

- ما هي أخبارهم يا ترى؟ لم أسمع عنهم منذ فترة طويلة؟

فبادرته ليلى بقولها:

- لقد وُلد مهر صغير في مزرعتهم البارحة، وقد وعدني نجيب بأنه سيأتي لاصطحابي لرؤيته..

لم تكد ليلى تتم كلامها حتى أقبل فَتَيان يكبران علاء بقليل على أحصنتهما، فهتفت ليلى وهي تقفز هنا وهناك ملوحة لهما بيدها، لتظهر عصبة خضراء ملفوفة حول معصمها بإتقان، وهي تهتف:

- نجيب.. نبيل.. لقد تأخرتما كثيرا!

ترجل فتى قوي البنية عن حصانه البني وبدا أنه الأكبر، ألقى التحية مسلما على الفلاح ربيع، وما إن انتبه لوجود عماد حتى هتف فرحا وهو يعانقه:

- يا لهذه المفاجأة الرائعة، كيف حالك يا عماد، لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة زرتنا فيها في المزرعة!

ضرب عماد على كتفه ضاحكا:

- ما شاء الله.. لقد أصبحت رجلا يعتمد عليه يا نجيب..

ثم التفت إلى نبيل الذي ترجل عن حصانه هو الآخر..

كان لقاء حارا شعر علاء من خلاله بمدى قوة العلاقة التي تربطهم، فلم يشأ إزعاجهم بعد أن انتهى من ملء عربته حتى آخرها، ورغم أنه من غير اللباقة أن يذهب دون أن يسلم عليهم وعلى الفلاح ربيع بالذات، إلا أنه آثر الانسحاب بهدوء، فقد كان يشعر بالحرج من وجوده بينهم، لكن عماد انتبه له، فناداه قائلا:

- إلى أين أنت ذاهب، انتظر لحظة!

والتفت إلى نجيب ونبيل:

- لم أعرفكما بعلاء..

لم يكد عماد يتم عبارته، حتى أسرعت ليلى تقول:

- يقول أنه قتل ذئبا متوحشا في الغابة..

شعر علاء بالحرج لهذا الكلام، لكن نبيل أسرع يمد يده مصافحا:

- هذا رائع، لا شك أنك شجاع جدا ما شاء الله، اسمي نبيل، وهذا أخي الكبير نجيب، أهلا بك يا علاء، سررنا بمعرفتك..

ثم صافحه نجيب قائلا:

- لا شك أنك متقدم جديد لمدرسة النصر، فهذا ما تدل عليه هيأتك، أتمنى لك التوفيق فيها..

فابتسم علاء وقد سعد لهذا التعارف اللطيف:

- شكرا لك، جزاك الله خيرا على دعوتك الطيبة..

ثم سأله مستدركا:

- وهل هناك ملامح خاصة للمتقدمين للمدرسة؟

فابتسم نجيب:

- لست أدري تماما، ولكن هذا ما شعرت به..

فبادله علاء الابتسام:

- يبدو أنك تمتلك حواس خاصة تكشف لك الأشياء!

فضحك نجيب ونبيل وهما يتبادلان نظرات ذات معنى، قبل أن يقول نبيل موضحا:

- هذا ما كنت أقوله لأخي دائما..

فتدخل عماد معلقا:

- توارد أفكار رائع يا شباب، يبدو أنه لم يعد لي مكان بينكم!

فقال ربيع:

- إن كنت أنت تقول هذا، فماذا عني أنا!

وضحك الجميع بمرح..

انتبه علاء لمرور الوقت الذي لم يكن في صالحه، فاستأذن معتذرا:

- لقد سعدت كثيرا بمعرفتكم، ولكن علي الذهاب الآن..

وبعد أن شكر الفلاح ربيع بأدب جم، صافح نبيل ونجيب الذي شد على يده قائلا:

- ابذل جهدك يا علاء، فستصبح فارسا مذهلا بلا شك..

لم ينتبه علاء لتلك النبرة الحزينة في صوت نجيب، فقال محمسا:

- وماذا عنك يا نجيب، لماذا لا تلتحق بالمدرسة أيضا، سيكون هذا رائعا جدا..

لكنه بتر كلامه بسرعة بعد أن لاحظ أثر كلماته على وجه نجيب، كانت بمثابة الخنجر القاتل دون أن يدري، لكنه أدرك ذلك متأخرا بعد أن رد عليه نجيب باقتضاب:

- لكل منا ظروفه..

ثم التفت إلى نبيل وهو يمتطي حصانه:

- هيا بنا، لقد تأخرنا نحن أيضا..

أسرعت ليلى تجري خلفه وهي تهتف:

- إلى أين يا نجيب؟ ألم تعدني أن تأخذني لأرى المهر الصغير!

إلا أنه لم يلتفت إليها وهو يعدو بحصانه مبتعدا، فأسرع نبيل يساعدها على النهوض من سقطتها أثناء محاولتها اللحاق بنجيب، مهدئا:

- سنعود لأخذك في ما بعد يا ليلى، فلدينا بعض الأمور الهامة الآن، هيا ابتهجي أرجوك..

شعر نبيل بحرج شديد من الموقف الذي أربك علاء وأحزن أخاه، فحاول اصطناع ابتسامة وهو يودع علاء، ممتطيا حصانه هو الآخر:

- اعذرنا على هذه العجلة يا علاء، فلدينا أشغال هامة، نراك على خير فانتبه لنفسك يا صديقي..

ابتعد نبيل ولم ينبس علاء ببنت شفة، فلم يكن قادرا على استيعاب ما حدث، حتى فاجأته ليلى بنظراتها المحتدة وقد نفرت من عينيها دموع ساخنة:

- كل هذا بسببك، لقد كنت قاسيا جدا في كلامك مع نجيب، ألا تعلم أنه لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة!!

فأسرع الفلاح ربيع يعتذر نيابة عنها، وهو يؤنبها:

- ما هذا الذي تقولينه يا ليلى، هذا عيب، علاء لم يفعل شيئا!

فاكتفت ليلى بالبكاء وهي تجري مبتعدة داخل الحقل، مما زاد من شعور علاء بالذنب فأطرق نادما وهو يقول:

- بل ما تقوله صحيح يا عمي، لقد أخطأت فلم أكن أعرف شيئا عن نجيب، ولم أكن أقصد..

ثم نظر اليه بعينين متوسلتين:

- أرجوك بلغ اعتذاري له، وأعتذر مرة أخرى عما سببته من إزعاج للجميع، فعلي الذهاب الآن..

ربت ربيع على كتفه مبتسما:

- لا تشغل بالك بما حدث يا علاء، فسرعان ما سيعود نجيب لطبيعته ، وأنا متأكد من أنه سيعود لاصطحاب ليلى لترى المهر، وستنسى ما حدث وكأن شيئا لم يكن، إنه سريع الانفعال وحسب هذا كل ما في الأمر، لقد اعتدنا عليه..

صافح علاء الفلاح ربيع بحرارة، ثم التفت إلى عماد مادا يده:

- حسنا إلى اللقاء..

لكن عماد استوقفه مقاطعا:

- ماذا أصابك يا ولد، سأعود معك.. فمنزلي في الطريق..

كانت هذه هي المرة الأولى التي لا يلاحظ فيها علاء ملامح الطريق الذي يسير فيه، وهو يسلك طريق الوادي كما أخبره المشرف عاطف، فقد كان فكره لا يزال مشغولا بما حدث، ورغم أن عماد حاول التسرية عنه، إلا أن محاولاته لم تجد نفعا، فقال أخيرا:

- إلى متى تنوي البقاء على هذا الحال يا علاء، الموضوع لا يستحق كل هذا!

لكن علاء أجابه بحزن عميق:

- بل يستحق أكثر، وربما لن تتاح لي فرصة رؤية نجيب مرة أخرى لأعتذر عما بدر مني، ليتني أستطيع إصلاح ما أفسدته على الأقل، بعد أن جرحت مشاعره دون أن أدري!!

- لا تقلق يا علاء، فنجيب ليس ضعيفا، وسرعان ما سينسى، ألم يخبرك العم ربيع بذلك؟؟ إنها مجرد لحظات عابرة لا أكثر..

فقال علاء بألم:

- ولكنني أنا السبب فيها، ما قالته ليلى كان صحيحا..

فوكزه عماد في خاصرته:

- لا تكترث لكلامها فهي ما تزال صغيرة لا تعي ما تقول، ثم إنها مستعدة لفعل أي شيء من أجل الدفاع عن نجيب ونبيل، فهي تعتبرهم بمثابة أخوتها الحقيقيين خاصة وأنه لا يوجد لديها أخوة أو أخوات، لذا تراها تتصرف أحيانا مثل الأولاد على عكس أختهم نهى التي تصغرها بعامين فقط..

فنظر إليه علاء متسائلا:

- هل تعرفهم جيدا يا عماد؟

أومأ عماد مجيبا:

- بالطبع، فقد كان والدهم السيد جابر رحمه الله مزارعا معروفا وصاحب أكبر مزرعة خيول في المنطقة، كما كان صديق والدي المقرب رحمه الله.

- والدهم توفي إذن!

- أجل يا علاء، ولهذا السبب تحمل نجيب مسؤولية كبيرة، في مساعدة والدته للعناية بأخوته والقيام بشؤون المنزل عوضا عن المزرعة الكبيرة، فقد توفي والده قبل أن تضع أمهم أختهم الصغيرة نور التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات الآن. ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- نجيب فتى طموح جدا يعانق السحاب بطموحه وآماله التي لا حد لها، لكن الظروف لا تسمح له بتفجير طاقاته المكبوتة في صدره، لذا تراه عصبي المزاج أحيانا، ومن لطف الله به أن سخر له ذلك الأخ الرائع نبيل، ما شاء الله..

كان علاء لا يزال مطرقا يفكر بما يسمعه، عندما سمع صوتا يناديه من بعيد فتوقف على إثره ملتفتا إلى الوراء ليشاهد نجيب على صهوة جواده يلوح له من فوق قمة جبل مشرف على الطريق، ولم يكد علاء يرفع يده ملوحا لنجيب هو الآخر وقد أشرق وجهه بشرا، حتى قذف نجيب نحوه لفافة كبيرة، قائلا بصوته الجهوري:

- أحتفظ بها وألجم بها حصانك، فهي هديتي لك يا علاء..

التقط علاء ببراعة الرمية المسددة نحوه بإحكام، هاتفا:

- جزاك الله خيرا يا صديقي، أعدك بأنني سأعود لزيارتكم عندما تتاح لي الفرصة إن شاء الله..

كان حدثا كفيلا بقشع سحائب الغمة عن وجه علاء، أما عماد فقد سُرّ كثيرا برؤية صديقه الصغير يستعيد بهجته من جديد، فابتسم قائلا:

- ألم أقل لك!

فابتسم علاء وهو يحمل اللفافة كمن يحافظ على كنز ثمين:

- لا.. لم تقل بأن نجيب سيأتي!

ضحك عماد وهو يرى علاء بمزاج جيد فأحب ممازحته قليلا:

- بالمناسبة، ما رأيك بليلى، رأيتك تحدق فيها، فهل أعجبتك؟

ارتبك علاء لتلك الملاحظة، فأسرع يدافع عن نفسه:

- لقد لفتت نظري وحسب فشكلها يبدو غريبا عن المكان..

فغمزه عماد بعينه قائلا:

- أخبرني ألم تكن جميلة ؟

ثم ابتسم متابعا وقد أعجبه انفعال علاء:

- هيا اعترف، دعنا نقول أنك أحببتها مثلا..

صرخ علاء وقد احمر وجهه من شدة الغضب:

- كفاك هراء ما هذا الكلام يا عماد، إنها لا تعدو عن فتاة صغيرة تُذكرني بأختي المتوفاة!

لم يكن عماد يعلم عن أخت علاء شيئا وشعر أنه قد يقلب عليه مواجعه، فأدار دفة الحديث وهو يخرج من جيبه علبة اسطوانية الشكل، فتحها وأخرج منها عودا قائلا:

- ما رأيك بعود كيومار لعله يعدل مزاجك قليلا؟

شهق علاء وهو ينظر إلى عماد بدهشة:

- هل تستعمل الكيومار يا عماد؟

فرد عماد بلا مبالاة:

- وما الغضاضة في ذلك!! إنها صنعة الرجال..

شعر علاء بغيظ يتميز في جسده:

- أي رجال هؤلاء!! ألم تسمع عن أضراره؟؟

فأجابه عماد بثقة:

- ولكنه ليس حراما، هناك من أفتى بأنه لا يعدو كونه مكروها لا أكثر..

ثم تابع كلامه وهو يشعل العود ويقدمه لعلاء:

- صدقني لن تندم، جرب واحدة فهي تهدئ الأعصاب كثيرا..

لم يكد يتم كلامه، حتى تلقى ضربة قوية من يد علاء أطارت العود من يده، أطلق إثرها صرخة مروعة:

- لقد كدت تكسر يدي!! ما هذا يا ولد!!

فرد علاء ببرود:

- تستحق أكثر من ذلك، هذا ما كان ينقصني منك يا عماد!!

فأجابه عماد متأوها وهو يفرك يده:

- لا ينفع معك المزاح أبدا..

فرد علاء:

- أرجو أن يكون درسا لا تنساه..

ثم استدرك معاتبا:

- أخبرني، لماذا أسأت إلى مدرسة النصر، وتكلمت عنها بغير الحقيقة؟

فقال عماد:

- اعترف أنني أخطأت.. لكنني كنت أعتقد دوما أنها سبب تعاسة ابن جيراننا الذي حطم آمال والده حين رفض منها بسبب فشله..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- ولا أخفيك قولا يا صديقي .. فقد رفضت من العمل فيها بداية أنا أيضا..

فغر علاء فاه دهشة:

- أحقا ما تقول!!

ابتسم عماد:

- وما الغرابة في ذلك! هل تبدو علي النباهة والذكاء إلى الحد الذي يجبرهم على قبولي!

قالها ضاحكا.. وسط تعجب علاء، ثم تابع :

- اعترف أنني لم أكن أصلح لشيء وقتها رغم جهود والدي الكبيرة – رحمه الله – لكنني تغيرت الآن كثيرا بفضل الله ثم بدعاء أمي لي.. بالتأكيد ..

ثم ابتسم مازحا:

- ألا تعتقد بأنني أتحلى بشجاعة كبيرة لأتحدث عن نفسي هكذا! ما رأيك يا صديقي الصغير؟

فابتسم علاء:

- بل إنني واثق من هذا..

فهز عماد رأسه برضا:

- إذن، لا تكن مثل عمك عماد يا ولد، وابذل جهدك لتلتحق بمدرسة النصر بإذن الله..

وأخيرا نظر علاء إلى عماد نظرة إعجاب، فابتسم الأخير وهو يحك رأسه:

- لا تحدق بي هكذا يا ولد! إنك تشعرني بالحرج!!

فبادله علاء الابتسام قائلا:

- حسنا ولكن لا تنسني من دعواتك الطيبة يا عم عماد..

عندها تكلم عماد بنبرة شيخ وقور وهو يربت على كتف علاء:

- وفقك الله يا بني..

وضحك الاثنان..

وبعد أن تناولا الشطائر التي أعدتها والدة عماد على عجل وقد تضورا جوعا، قال علاء:

- لا أعرف ما الذي جعلك تصر على اصطحابي إلى منزلك تلك الليلة!

فابتسم عماد قائلا:

- في الحقيقة أحببت إدخال البهجة على قلب أمي، فهي تفرح بالضيوف كثيرا لا سيما وهي تقضي معظم الوقت وحدها..

هز علاء رأسه متفهما:

- هكذا إذن..

فقال عماد مؤنبا:

- ولكن إياك أن تكرر ما فعلته مرة أخرى، فمن لطف الله بك هذه المرة أنني لم أكن سيئا على الإطلاق، كن أكثر حذرا في المرات القادمة..

عندها رمقه علاء بنظرات متسائلة:

- هل تعني أنك أجريت لي امتحانا ففشلت فيه يا أستاذ عماد؟

فابتسم عماد مداعبا:

- تستطيع قول هذا، فيبدو أنني أحببت أن تشاركني الشعور بالفشل في الامتحان..

فابتسم علاء:

- أعاذنا الله من الفشل واليأس ووفقنا لخيري الدنيا والآخرة..

وردد عماد:

- اللهم آمين..

كانا قد وصلا مفترق الطريق، فشد عماد على يد علاء يودعه وهو يحاول إعادة العصا إليه، لكن علاء رفض قائلا :

- لست بحاجة إليها، بينما أنت مازلت في حاجتها حتى تصل المنزل، فقدمك لم تشف بعد..

فقال عماد وهو يرمي بثقله على العصا:

- إذا كنت مصرا فجزاك الله خيرا..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع بجدية كبيرة، رغم طبيعته الساخرة:
- نصيحة صغيرة أرجو أن تتذكرني بها يا علاء.. لا تغضب كثير ا لتعليقات الآخرين وإلا كنت هدفا سهلا أمامهم وتذكر قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾..

أشرق وجه علاء وقد أدرك أمرا عظيما يفتقر إليه كثيرا:

- جزاك الله خيرا، لن أنسى نصيحتك القيمة أبدا بإذن الله..

***

وصل علاء المدرسة ليجد عدنان بانتظاره على أحر من الجمر ..

- الحمد لله على سلامتك يا علاء، لقد قلقت عليك كثيرا!

فاعتذر علاء وهو يصافحه:

- أنني آسف حقا فــ..

لكن عدنان لم يمهله ليتم عبارته إذ سارعه بقوله:

- فيما بعد يا صديقي ستخبرني بكل شيء- إن شاء الله- أما الآن فالمدير شامل بانتظارك..

خفق قلب علاء بشدة وهو يدلف إلى غرفة المدير بحذر، وكأنه بات يخشى المفاجآت..

وما إن وقف أمامه حتى ابتدره المدير بوجه يخلو من أي تعبير:

- عدت توا من مهمتك، أليس كذلك ؟

أومأ علاء برأسه وهو يشعر بحرج شديد:

- بلى..

فتابع المدير بحزم:

- وهل أديتها على الوجه المطلوب منك؟

أطرق علاء -وقد دارت الأفكار والأحداث التي مر بها في رأسه بسرعة - قبل أن يجيب:

- ليس تماما!

فسأله المدير:

- ما الذي تقصده بقولك هذا؟؟ أريد جوابا شافيا..

سرت رعشة خفيفة في جسد علاء لتلك اللهجة الصارمة، وهو يعلم يقينا أن لا شيء يعلو على الصدق وقول الحقيقة، فجمع شجاعته وهو عازم على ذكر أسباب تأخيره، بداية من جدار الأخبار وحتى التقائه بعماد وما صادفهم بعد ذلك، فقال:

- إن أذنت لي يا سيدي المدير فسأحدثك بما حدث معي لتحكم بنفسك..

أبدى المدير موافقته بقوله:

- هات ما لديك..

***

احتار علاء بعد خروجه كثيرا؛ فهو لا يعرف جهة محددة ينصرف إليها، إلا العودة إلى ذلك الإسطبل من جديد، فالمدير لم يجد له عملا آخرا ولم يعلمه بما يتوجب عليه فعله..

استقبله عدنان بقلق شديد وهو يرى أمارات التجهم والذهول بادية على وجهه فهرع إليه، ليجلسا معا فوق القش في الإسطبل، بعد أن وضع عدنان فرشاة التنظيف من يده:

- خير يا علاء، ماذا حدث ؟ هل من جديد!!

أطرق علاء وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه، رغم قلقه الشديد:

- الحمد لله، لا تقلق بشأني يا عدنان..

لكن عدنان لم يتركه:

- ألم يقل لك المدير شيئا ؟

تنهد علاء أخيرا وهو يقول:

- لا أدري ما الذي كان يعنيه بالضبط، لكنه أشار إلى أن الشجاعة والقوة من أهم ركائز المدرسة، ثم سألني عن أهم فائدة خرجت بها من تلك المهمة!

فسأله عدنان بلهفة:

- وماذا كان جوابك يا علاء؟

فقال علاء بعد أن قص على عدنان ما حدث معه في الطريق:

- قلت له بعد تفكير عميق، أنه برغم الفوائد الجمة؛ إلا أن هناك فائدتين عظيمتين احتار في تفضيل إحداهما على الأخرى، فالأولى تتعلق بشخصيتي، حيث نبهني عماد جزاه الله خيرا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تغضب).. بالإضافة إلى قضية هامة وخطيرة متمثلة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ ، أما

الثانية فهي أهمية اختيار الكلمات وانتقائها بدقة قبل نطقها، فقد نسبب إيذاءً لشخص ما دون أن ندري، وربما تكون سببا في ندامة لا تحمد عقباها، فالكلمة تملكها قبل أن تخرج، فإن خرجت ملكتك ولن تستطيع إعادتها..

وصمت علاء يلتقط أنفاسه وصورة نجيب لا تفارق مخيلته، لكن عدنان حثه على المتابعة وهو يسأله:

- وماذا كان رد المدير؟

أغمض علاء عينيه كمن يتأمل المشهد لينقله بدقة:

- دعا لي بالبركة والتوفيق ثم قال، آمل أن تكون قد وعيت ذلك جيدا، بعدها أخبرني أنني أستطيع الانصراف!

فابتسم عدنان وقد اطمأن قلبه إلى حد كبير:

- أبشر بخير يا صديقي، فكلام المدير مطمئن جدا..

أطرق علاء برأسه مرددا:

- أرجو ذلك..

ثم التفت إلى عدنان والتردد باديا في عينيه، ولم يخف على عدنان ملاحظة ذلك فشجعه على الكلام بقوله:

- كأن أمرا ما يشغل فكرك بشدة، هل هناك شيء يا علاء؟؟

فقال علاء رغم تردده الواضح:

- لا أعرف إن كان من حقي السؤال أم لا!

وبعد أن التقط نفسا تابع:

- هل تعرف نجيب ونبيل يا عدنان؟

فقال عدنان:

- تقصد أصحاب مزرعة الخيول؟

فأومأ علاء برأسه إيجابا:

- أجل، لقد أخبرني عماد أنهما يمتلكان مزرعة للخيول..

فابتسم عدنان:

- بالطبع أعرفهما، فهناك صلة قرابة تربطني بهما من جهة أمي..

عندها فتح علاء فاه من المفاجأة:

- أحقا ما تقول!! إذن أنت تعرفهما جيدا!

ضحك عدنان من لهفة علاء قائلا:

- إلى حد ما، فقد كنت أزورهما مع أمي، ولكن أخبرني، ما الذي تريد معرفته عنهما؟

احمر وجه علاء خجلا فقد شعر أن في كلام عدنان إشارة إلى فضوله، لكنه قال:

- لقد أخبرتك بما حدث مع نجيب وتأثره بكلامي.. في الحقيقة..

وبتر كلامه، فتابع عدنان:

- تريد أن تعرف الطريقة المناسبة لمساعدة نجيب في تحقيق طموحه وأحلامه بالالتحاق بالمدرسة؟ فأنت تشعر بالأسى من أجله أليس كذلك يا علاء؟

فأجاب علاء بلهفة:

- أنت تفهمني تماما يا عدنان!

ثم تابع بانفعال شديد:

- إذا كان لكل شخص ظروف تعيقه عن تحقيق أهدافه العظيمة؛ فمن سيقف في وجه أعداء أمتنا؟؟ ألسنا بحاجة لكل فارس قوي شجاع؟؟ لكم أتمنى أن أرى نجيب..

وبتر علاء عبارته وهو في أوج انفعاله، فقد بات كلامه واضحا، عندها أومأ عدنان برأسه:

- حسنا سأخبرك كل شيء عنهم، ولكن قبل ذلك أجبني، هل ما زلت تذكر مبادئ تنظيف الخيول؟

بدت الدهشة على وجه علاء، لكنه أومأ برأسه:

- أجل، ولكن ما علاقة هذا بما كنا نتحدث عنه!!

فأردف عدنان موضحا:

- ألم أنبهك الى ضرورة ملاحظة ضربات أذنها حتى لا تضغط على الأجزاء الحساسة في جسمها، فتلقى ما لا يحمد عقباه؟

لمعت عينا علاء وقد فهم مغزى الحديث، فقال:

- معك حق يا صديقي، يلزمني الكثير حتى أنتبه للأوتار الحساسة عند الآخرين فلا أضرب عليها، أعدك أنني سأبذل جهدي لأتجنب الوقوع في هذا الخطأ مرة أخرى إن شاء الله..

فابتسم عدنان:

- اسأل الله أن يوفقنا جميعا لحسن التصرف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هل وجود هذه الأجزاء الحساسة في جسم الحصان تمنعه من أداء مهمته؟

لاذ علاء بالصمت وهو يحاول التمعن فيما يرمي له عدنان الذي التقط نفسا عميقا قبل أن يتابع:

- أخبرني يا علاء، هل الأمة بحاجة إلى أن يصبح جميع أبنائها فرسانا!!

كان سؤاله مباغتا، هز كيان علاء بشدة، إذ لم يخطر بباله قط التفكير بهذه الطريقة، فأطرق برأسه مفكرا حتى قطع عدنان الصمت بقوله:

- بالطبع لا يا علاء، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾؟ لو التحق الجميع بمدارس الفروسية ليتخرجوا فرسانا؛ فمن سيقوم بالأدوار الأخرى التي تحتاجها الأمة؟؟ هناك العديد من الثغرات، و لكل منا دوره الخاص الذي يسخره الله له، علينا اكتشافها بأنفسنا مستعينين بما أعطانا الله إياه من قدرات وهبات وسخر لنا من ظروف لنقوم بدورنا على الوجه الأفضل..

بدا علاء ساهما غارقا بتفكير عميق قلب موازينه التي يعرفها، فتكلم أخيرا:

- هل تقصد أن دور نجيب ليس في مدرسة الفروسية؟

- لا أعني نجيب تحديدا، وإنما أقصد بشكل عام أنه ليس بالضرورة أن يلتحق الجميع بمدرسة الفروسية ليقدموا شيئا للأمة، ومن يدري فقد يكون دور نجيب خارج المدرسة أنفع للأمة من التحاقه بها!

ثم استدرك عدنان قبل أن يقول:

- كأننا تحدثنا عن شيء كهذا من قبل، ألا تذكر يا علاء؟

بدت امارات الرضا على وجه علاء أخيرا وهو يستعيد من ذاكرته آثار ذلك الحوار الذي لم يكن قد وعاه جيدا آنذاك، فقال:

- جزاك الله خيرا يا عدنان، لقد فتحت لي آفاقا جديدة وأنا مدين لك بها..

فابتسم عدنان:

- أرى أنه لم يعد هناك شيء تريد معرفته عن نجيب وعائلته..

عندها تذكر علاء شيئا أثار فضوله بشدة، لكنه آثر الصمت، ولدهشته الشديدة، فوجئ بعدنان يقول له:

- تريد السؤال عن ليلى أليس كذلك؟ إنها فتاة يتيمة وهي ابنة السيد ربيع بالرضاعة..

فهتف علاء وهو يحملق بعدنان:

- لقد أصبحت تقرأ أفكاري يا عدنان! يبدو أن فضولي تجاوز الحدود!!

فابتسم عدنان:

- لا ألومك يا علاء فمظهرها يثير الفضول فعلا حتى أنني..

وصمت عدنان فلم يكمل عبارته، ولاحت له صورة قديمة لم تبرح ذاكرته، كيف لا وهي المرة الأولى التي يرى فيها تغير ملامح الفلاح ربيع، ذي الطبع الهادئ والوجه المتسامح، في صورة لم يعهده فيها من قبل، يومها كان يعاونه في حقله برفقة نجيب ونبيل ومعهم ليلى الصغيرة، التي شعرت بالحر الشديد وقد أخذ العرق يتصبب منها، كانت تجلس القرفصاء إلى جواره وهم يقتلعون الأعشاب الضارة، وهي تردد متذمرة:

- يا لهذا الحر!

فابتسم نبيل:

- لم يجبرك أحد على المجيء معنا!

لكن ليلى رمقته بنظرة حادة:

- أنا لم آت معك أنت!

عندها شعر نبيل بأنه أغضبها فتدارك الموقف بسرعة:

- كنت أعني أن الحر شديد عليك يا ليلى، ثم لماذا ترتدين هذا المعطف ذا الأكمام الطويلة؟ لماذا لا تخلعينه؟

لكن الوجوم خيّم على وجهها، وهي تردد بحزن:

- لا أستطيع!

عندها التفت نجيب نحوها تاركا ما بيده وهو يسألها بلهفة متوجسة:

- لماذا؟ هل هناك شيء؟؟

لم تجب ليلى في حين ألح عليها نجيب السؤال- كمن وجد شيئا ويخاف إضاعته من جديد- إلى أن ردت أخيرا:

- لا شيء..

وهمت بخلع معطفها، لكنها لم تكد تفعل ذلك حتى انتبه الفلاح ربيع لها؛ فانتهرها بمشهد لم يألفوه من قبل، وهو يمسكها بقوة من يدها موبخا:

- لقد نقضت الاتفاق!

لكن ليلى أسرعت تدافع عن نفسها:

- صدقني لم أقصد، كان الحر شديدا يا أبي!

فهب نجيب مدافعا عنها- ونبيل إلى جواره:

- أعذرنا يا عمي فنحن من اقترح عليها ذلك..

كان عدنان يحاول وقتها تجاهل ما يجري، فعليه العودة مع أمه، لكنه لم يستطع منع فكره من الخوض فيما رآه، فقد كانت تلفت نظره قطعة القماش الملتفة حول معصمها باستمرار، إذ لا يذكر أنه رآها بدونها، أفيعقل أن تكون الأكمام عوضا عنها؟؟ ربما لم تكن ترتديها، رغم أنها لا تفارق معصمها أبدا..

بدا عدنان شاردا في أفكاره، وكأنه نسي وجود علاء إلى جواره، وهو يسترجع تلك الأحداث، حتى أنه لم يدر كيف سأل علاء:

- هل انتبهت إلى معصمها؟ أما زالت تلفه بقطعة القماش؟

فوجئ علاء من سؤال عدنان، فسأله بتعجب:

- وهل لهذا دلالة ما؟؟

فابتسم عدنان ضاحكا بعد أن انتبه لنفسه:

- لا تهتم لهذا يا صديقي، كان مجرد سؤال عابر!

ولم يخطر ببال أحد أن قطعة القماش الصغيرة تلك، تخفي تحتها سرا خطيرا وعظيما، أعظم من أن يستوعبه عقل فتاة صغيرة، تعيش حياة بسيطة وسعيدة بين المزارع والحقول..

مر الوقت سريعا، فانتبه عدنان إلى أنه لم ينته من تنظيف الخيول بعد، فنهض من مكانه وهو يردد كفارة المجلس:

- سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، أرجو أن لا أكون قد أثقلت عليك بكلامي يا علاء..

فقاطعه علاء:

- بل اعذرني أنا فقد أخذت من وقتك!

لكن عدنان بادره مطمئنا:

- لا تقل هذا يا علاء فقد أوشكت على الانتهاء تقريبا، وكنت بحاجة لاستراحة على أي حال..

وأخيرا تساءل علاء:

- ترى، ماذا يفترض مني أن أعمل الآن! هل أعاود العمل في الإسطبل من جديد؟

فأجابه عدنان وهو يتابع عمله بتنظيف الخيول:

- لا أعتقد ذلك فقد أخبرني المشرف عاطف أن إجازتي الطارئة قد انتهت وهذا يعني أنك أنهيت عملك في الإسطبل..

فتساءل علاء مجددا:

- وماذا سأفعل إذن!

توقف عدنان مفكرا للحظة، قبل أن يقول:

- لماذا لم تسأل المدير قبل خروجك ؟

فتنهد علاء:

- في الحقيقة لم اعرف كيف أتصرف وقتها..

ثم التقط نفسا وهو يشمر عن ساعديه، قائلا:

- على أية حال سأساعدك، لعلي أستطيع تعويض الوقت الذي تحدثنا فيه..

فهز عدنان رأسه وهو يعصر خرقة التنظيف:

- أوكد لك أنه لا داعي لذلك فقد أوشكت على الانتهاء، ثم إنك لم تنم ليلة أمس، فما رأيك أن تأخذ غفوة صغيرة قبل الظهر؟

لكن علاء أصر على قوله وهو يلتقط نفسا عميقا، فاتحا ذراعيه بقوة:

- إنني في قمة النشاط بفضل الله، ولا أشعر بالنعاس الآن، لذا تستطيع الاستراحة أنت، وسأكمل ما تبقى عنك، فانا لا أحب الجلوس متفرجا هكذا!

فابتسم عدنان:

- إذا كان لابد من ذلك؛ فسنعمل معا..

وفي تلك اللحظات دخل عليهما عاطف، فابتسم وقد سر لرؤيتهما يعملان معا:

- بارك الله فيكما يا أبنائي فقد أحسنتما صنعا، يد الله مع الجماعة ..

ثم وجه حديثه لعلاء:

- المدير يريدك في غرفته بعد صلاة الظهر..

والتفت إلى عدنان:

- وأنت يا عدنان.. تعال معه..

***

فوجئ علاء برؤية آخر شخص يتوقع رؤيته في غرفة المدير، فلم يستطع إخفاء دهشته بقوله:

- عماد!! أنت هنا!!!

ابتسم المدير مؤنبا:

- هل من اللباقة والأدب التكلم مع الضيوف هكذا يا علاء ؟

أطرق علاء وقد احمر وجهه خجلا:

- أرجو المعذرة، إنني أعتذر عن تصرفي الخاطئ ..

فابتسم المدير برضا:

- حسنا، لقد عفونا عنك هذه المرة، فقد رغبنا بمفاجأتك، لكن حاول أن تكون أكثر سيطرة على انفعالاتك..

فأومأ علاء برأسه:

- سأحاول ذلك إن شاء الله..

عندها أدرك علاء في لحظات ما غاب عنه، إذ لم يكن عماد سوى الشخص المكلف بمتابعته أثناء الاختبار! كانت مفاجأة حقيقية بالنسبة له، حتى أنها كادت أن تفقده توازنه وهو يسترجع الأحداث في ذاكرته بسرعة، محدثا نفسه:

- كيف لم أنتبه لهذا!

لكنه استدرك نفسه وهو يستخرجها من تلك الدوامة، فقال بأدب:

- عفوا، استدعيتني أيها المدير؟

هز المدير رأسه إيجابا، وهو يشير إلى المقعد المقابل لمقعدي عماد والمشرف عاطف:

- تفضل بالجلوس يا بني..

وجلس عدنان إلى جواره. وما هي إلا لحظات حتى أقبل رجل يحمل في يده مجموعة من الأوراق، بدا في الخمسين من عمره، تعلو وجهه بشاشة محببة للنفوس، و تتوج رأسه عمامة ناصعة البياض بمظهر غاية في الأناقة، وبعد أن ألقى التحية، واتخذ مجلسه إلى جانب المشرف عاطف، قال المدير معرفا به وهو يخاطب علاء:

- المعلم أمين، أمير المعلمين الذي أشرف على امتحانك العلمي..

وابتسم المعلم أمين مشيرا برأسه تحية لعلاء دون أن ينبس ببنت شفة..

لم يكد يتم المدير عبارته حتى خفق قلب علاء بشدة، هل هذا هو يوم إعلان نتائج الاختبار؟

ورغم أن المجلس لم يضم سوى المدير الذي جلس في الواجهة على مكتبه، وعن يمينه عماد والمشرف عاطف والمعلم أمين، في حين جلس عدنان إلى يساره بجانب علاء، إلا أن علاء شعر برهبة شديدة من هذا الاجتماع وكأنه سيحدد مصير العالم، وخُيل إليه أن خفقان قلبه أصبح مسموعا عن بعد أميال!

استهل المدير حديثه بقوله:

- يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.. انطلاقا من هاتين الآيتين؛ بنت المدرسة أسسها على علم الجدال والجلاد، تأسيا بالصحابة رضوان الله عنهم، فهم أكمل الخلق في الفروسيتين، فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعن، ففتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان، تصديا لكل من حارب حرية العقول في الاختيار ليكرهها على الكفر، حتى أقام الله دين الإسلام بقاعدته الخالدة ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾..

أخذ علاء ينصت باهتمام شديد لتلك الكلمات الكبيرة، والمعاني العظيمة، بعد أن هدأت نفسه تدريجيا، لتستشري الحماسة في أوصاله من جديد، في حين تابع المدير كلامه موضحا:

- هناك مساران رئيسان في مدرستنا لا نستطيع تفضيل أحدهما على الآخر، الأول في علم الجلاد ويشمل خمس مراتب؛ بعد مرتبة المبتدئين، بداية من مرتبة همام وحتى مرتبة صنديد، يتقن خلالها الفارس أنواع الفروسية الأربعة، ركوب الخيل و الرمي بالقوس والمطاعنة بالرماح، وأخيرا المبارزة بالسيوف، بالإضافة إلى السباحة ومهارات أخرى، أما المسار الثاني فهو في علم الجدال، حيث تقع سبع مستويات، تشبه في معظمها مستويات التعليم النظامي في المنطقة، بداية من المستوى الرابع وانتهاء بالمستوى العاشر، تُدرّس فيها علوم المدارس النظامية في المنطقة، بالإضافة إلى عدد من العلوم الإضافية الخاصة بمدرستنا..

كان علاء يستمع بشغف، متلهفا لخوض غمار تلك المسارات، حين سأله المدير:

- لقد أنهيت دراسة المستوى الخامس في منطقتك يا علاء دون أن تقدم فيها اختبارا بسبب الحرب، أليس كذلك؟

أومأ علاء برأسه مجيبا بنعم، فتابع المدير:

- وكان يفترض أن تكون الآن في المستوى السادس، ولكنك كما تعلم مضى شهران تقريبا على بدء الدراسة فيها..

غاصت الكلمات في حلق علاء وهو يشعر بمرارة لا مثيل لها، كلما تخيل أنه سيخسر سنة من عمره يعيد فيها المستوى الخامس، الذي لم يقدم فيه اختبارا في منطقته، هذا إن قُبل أصلا، فاكتفى بإيماءة من رأسه، تلاقت بعدها أعين المدير شامل والمعلم أمين، ليتابع الأخير الكلام قائلا لأول مرة:

- لقد أديت اختبارا يقيس مدى تلاؤمك مع مستويات الدراسة هنا، وكانت النتيجة كالتالي..

وصمت المعلم أمين وهو ينظر في الأوراق بين يديه، وكأنه يفسح المجال أمام قلب علاء ليخفق بشدة لا حدود لها، وقد تجسدت أمامه صورة الامتحان كاملة بما فيها أحداث الورقة الأخيرة التي كانت كالغصة في حلقه، وأخيرا تكلم المعلم أمين:

- كما تعلم فإنك تحتاج إلى سبعين جزءا من أصل مئة؛ لتجتاز الامتحان الذي سيؤهلك لدخول المدرسة في المستوى السادس، وقد حصلت على خمس وثلاثين جزءا من أصل أربعين في القسم الأول، أما القسم الثاني في الورقة الأخيرة فقد حصلت على ستين جزءا كاملا من أصل ستين..

لم يصدق علاء ما سمعه بالنسبة للقسم الثاني تحديدا، فهو يذكر تماما أنه لم يكتب أي بيت من تلك القصيد، وشعر أن هناك خطأ ما لذا لم يعط نفسه فرصة ليفرح بالنتيجة العالية حتى لا يصاب بخيبة أمل، بل استأذن بالحديث قائلا:

- عفوا يا معلمي الفاضل، ولكنني لا أذكر أنني أجبت على الورقة الأخيرة!

فابتسم المعلم أمين، وهو يتبادل النظرات مع الحاضرين، قائلا:

- بل أديتها على أكمل وجه!

بدا الوجوم واضحا على وجه علاء، فتكلم عدنان أخيرا بعد أن أشار له المعلم بالكلام:

- ألا تذكر ما حدث وقتها يا علاء؟؟ لقد كان امتحانا للأمانة وقد تجاوزته بنجاح منقطع النظير..

عندها فتح علاء عينيه بدهشة وهو يحملق في عدنان بذهول وقد أدرك كل شيء:

- حتى أنت يا عدنان! لقد أديت دورك بمهارة، أنت ممثل بارع بحق!

ورغم جدية الاجتماع إلا أن تعليق علاء وردة فعله أثارت ضحك الجميع، وابتسم عدنان:

- ها قد برأت نفسي أمامك من أن أكون معينا على الغش، فمن غشنا فليس منا، ولم أكن كذلك بفضل الله..

عندها شعر علاء بسعادة تغمره، لكنه أحب التأكد أكثر قبل أن يطلق العنان لنفسه، فسأل المعلم أمين:

- عفوا يا معلمي، ولكن هل أفهم من كلامك أنني سألتحق بالمستوى السادس في المدرسة؟

أومأ المعلم أمين بابتسامة عريضة مؤكدا:

- أجل يا بني، ثم إن مراجعتك و إلمامك بذلك القدر من المعلومات في يومين، يدل على أنك تمتلك القدرة لتعويض ما فاتك خلال الشهرين الماضيين في المستوى السادس بإذن الله، فاحمد الله على هذا التوفيق..

وقبل أن تتاح الفرصة لعلاء لقول أي شيء، تابع قائلا:

- ولكن بقي هناك أمر آخر..

والتفت إلى المدير شامل الذي قال بدوره:

- هذا بالنسبة لمسار علم الجدال، أما بالنسبة لعلم الجلاد..

وصمت المدير مشيرا لعماد الذي تكلم بهدوء وروية أشعرت علاء بأنه شخص آخر غير عماد الذي التقاه في الطريق:

- لقد كان حادث الذئب الذي ساقه الله إليك يا علاء من أهم أسباب تقصير مدة الاختبار، فالشجاعة والقوة وكرم الأخلاق من أهم الركائز التي يجب توافرها في أي فارس نبيل، وقد أثبت جدارتك في ذلك وإن كانت هناك بعض نقاط الضعف التي نأمل منك تجاوزها، فهي قد تجعلك صيدا سهلا للمغرضين، في غياب التصرف الحكيم المتروي..

وصمت عماد ليتابع المدير الكلام:

- أعتقد أن الأمور باتت واضحة لك الآن يا علاء، لذا و بناء على ما سبق بالإضافة إلى إتقانك مهارة التعامل مع الخيول في خضم الأسابيع القليلة الماضية، رأينا أن نلحقك بمرتبة همام مباشرة دون المرور بمرتبة المبتدئين، وهكذا تستطيع اللحاق برفاقك في المستوى السادس الذين ترقى معظمهم إلى مرتبة مقدام من فترة وجيزة، فابذل جهدك واعلم أن الصدق والصبر، والحلم والأناة والتواضع والإخلاص بالإضافة إلى الشعور بالمسؤولية إلى جانب الشجاعة والقوة في الجسم وفي الإرادة ؛ أمور هامة، على الفارس الناجح التحلي بها..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع :

- والآن نهنئك يا علاء بهذا القبول في مدرسة النصر للفروسية، و سيريك المشرف عاطف غرفتك الجديدة ويطلعك على برنامج المدرسة وتعاليمها..

ترقرقت دمعة في عيني علاء وهو يردد:

- الحمد لله..

واستأذن وهو ينهض من مكانه ليؤدي سجدة شكر لله، شعر فيها بعجزه الشديد عن أداء حق الشكر لخالقه الجواد الكريم المنان..

***

استأذن علاء المشرف عاطف بمرافقة عماد أثناء توجهه لبوابة المدرسة وابتدره بقوله:

- لقد أتقنت دورك جيدا يا أستاذ عماد!

ابتسم عماد لتلك النبرة الجادة:

- لا داعي لهذا التكلف فنحن ما زلنا أصدقاء، واعذرني إن لم أكن واضحا معك يا صديقي الصغير؛ فهذا واجبي..

لكن علاء تابع:

- هذا يعني أن كل ما حدثتني به من نسج خيالك؟

فهز عماد رأسه نفيا:

- كلا يا علاء، أنا لم أكذب عليك إطلاقا وجميع ما حدثتك به صحيح، باستثناء ما وصفت به مدرسة النصر بداية بحكم الاختبار وقد اعترفت بذلك آنذاك..

ثم أطرق متابعا:

- لقد كنتُ فعلا سيئا في البداية، ورُفضتُ من مدرسة النصر- للعمل بها- لكن إصرار والدي، ودعاء والدتي لي غيرا من مجرى حياتي الكثير بفضل الله، وها أنا ذا أبذل جهدي الآن لمساعدة المدرسة بقدر استطاعتي، وقد أصبحت مصدر ثقة لديهم بفضل الله، مثل الفلاح ربيع، وغيرنا كثيرون ممن يهمهم النهوض بأمتنا من براثن الهلاك لتكون كلمة الله هي العليا، ثم مد يده مصافحا:

- عدني يا علاء أن تكون عند حسن ظننا بك، وتذكر أن فرصة عظيمة أتيحت لك لم تتح للكثيرين غيرك فابذل جهدك..

كانت لتلك اللهجة الصادقة المؤثرة، المنبعثة من أعماق قلب غمره الإخلاص، أثرها العميق في نفس علاء، فشد على يديه بقوة:

- أعدك بذلك وسأبذل أقصى جهدي، إن شاء الله..

***

الفصل الثالث

الأخوّة

أسرع علاء باتجاه المشرف عاطف الذي كان ينتظره قرب غرفة المدير:

– أرجو أن لا أكون قد تأخرت..

فابتسم عاطف:

– كلا يا بني، والآن سآخذك إلى غرفتك في الطابق الثالث، ستكون جولة مفيدة في التعرف إلى المدرسة..

ثم أشار بيده باتجاه الطرف البعيد من الدهليز الطويل الممتد على يسار غرفة المدير قائلا:

– سنصعد ذلك الدرج في آخر الممر..

فالتفت علاء إلى الدرج القريب خلفه على يمين غرفة المدير بنظرة متسائلة، فتابع عاطف موضحا وقد فهم قصده:

– هذا الدرج غير مخصص للطلبة هنا، هيا بنا يا علاء، ستتعرف الى قاعات الدراسة في هذا الطابق ايضا..

تبع علاء عاطف وهو يتأمل اللوحات المعلقة على الجدار، بدا الممر هادئا رغم بعض الاصوات الخفيفة التي تدل على وجود دروس خلف الابواب المغلقة. أشار عاطف بيده الى أحدها قائلا:

– هذه قاعة الدراسة للمستوى السادس..

لم يكد عاطف يتم جملته حتى شعر علاء بتعرق واضح وتسمر مكانه للحظات يتأمل تلك القاعة المغلقة التي ستفتح له الافاق، حاول أن يرخي سمعه لعله يلتقط شيئا لكنه لم يسمع سوى جلبة خفيفة تدل على نقاش شائق في درس ممتع؛ او هكذا خيل اليه، حتى انتبه الى صوت عاطف وهو يحي المعلم الذي خرج من خلف أحد الأبواب التي فتحت للتو، ليتبعه عدد من الطلبة بقلانس بيضاء ناصعة بدوا أصغر سنا من علاء. التفت عاطف الى علاء وهو يقدمه للمعلم قائلا:

- هذا هو الطالب الجديد الذي التحق بالمستوى السادس بمرتبة همام، علاء نور الدين..

ثم وجه كلامه لعلاء معرفا:

- المعلم برهان، سيدرسك علم الحياة وعلم الطبيعة والفلك..

ورغم ما يبدو على المعلم من ارهاق وهو يرفل في عمامته البيضاء المغبرة قليلا من الجانب الايمن، عوضا عن شحوب بدا في وجهه وأسفل عينيه، الا انه ابتسم ابتسامة هادئة وهو يصافح علاء ويشد على يديه مرحبا:

- اهلا بك يا بني، ارجو ان تشحذ همتك في تعويض ما فاتك، فما زلنا في البداية، وقد اثبتّ جدارتك بالامتحان فأنت أهل لذلك يا علاء..

سعد علاء كثيرا بمصافحة المعلم برهان، وشعر بحماسة اضافية تلهب مشاعره جراء كلماته:

- باذن الله سأكون عند حسن ظنك يا معلمي..

كانت المرة الاولى التي يرى فيها علاء الطلبة وهم يخرجون مجتمعين باتجاه ساحة المدرسة، ولاحظ عاطف اهتمامه- وهو يسير معه في الممر الطويل باتجاه الدرج- فعلق قائلا:

- هؤلاء طلبة المستوى الرابع، وجميعهم من مرتبة المبتدئين لذا تراهم بالقلانس البيضاء..

لم يدرك علاء تماما ما الذي قصده المشرف عاطف بقوله، ولم يسأله عن ذلك اذ استوقفته لوحة كبيرة معلقة على الحائط لفتت نظره، حتى ان عاطف نظر اليه متسائلا:

- توجد واحدة مثلها مقابل غرفة المدير، الم تنتبه لها هناك؟

هز علاء رأسه نفيا وقد بدأ يشعر بالالفة تجاه المشرف عاطف:

- هذه اول مرة ارى مثل هذه اللوحة الغريبة الرائعة! تبدو معقدة بعض الشئ اليس كذلك يا معلمي؟

ثم هتف فجاة كمن انتبه الى شئ ما:

- هناك خطوط و كتابات داخلها ايضا!! كيف لم انتبه لها في البداية؟

فابتسم عاطف موضحا:

- هذه اللوحة مخطط تفصيلي لمراتب المدرسة ومستوياتها برموزها والوانها، تستطيع ان تتأملها فيما بعد يا علاء اما الان فهيا بنا..

بدت الدهشة واضحة على وجه علاء؛ اذ لم يخطر بباله قط ان يكون مخطط المدرسة بهذا الشكل، وود لو انه تفحصه ليعرف أكثر عن نظام المدرسة ومستوياتها، لكن المشرف عاطف بدا مستعجلا فتبعه مستسلما.

اشار عاطف الى باب على الجانب الايسر من الممر أمامهما قائلا:

- هذه قاعة المكتبة يا علاء، تستطيع زيارتها في اي وقت تشاء، وستجد قيّم المكتبة نوح على أهبة الاستعداد لتقديم يد العون دائما..

وفي تلك اللحظة فُتح باب المكتبة وخرج منها طالبان بعمائم رمادية، أحدهما بدا مميزا بسحنته المائلة للسمرة مع عينين خضراوين واسعة، حيوا المشرف عاطف الذي بادلهم التحية بدوره داعيا لهما بالتوفيق ثم التفت الى علاء قائلا:

- هؤلاء من افضل الطلبة في المستوى الخامس ومن مرتبة همام مثلك يا علاء، ستقابلهم في التدريب ان شاء الله..

التفت علاء الى الخلف يتابعهما بنظرات متفحصة وهما يتابعان طريقهما في الدهليز باتجاه باب المدرسة الخارجي، ويحدث نفسه:

- أرجو أن يكونا طيبين!

وما ان وقع بصره على الواجهة الزجاجية للمكتبة - على يده اليسرى- والتي اظهرت رفوف الكتب الكثيرة التي لم يشهد علاء مثلها من قبل، حتى هتف:

- ماشاء الله!!

أومأ عاطف برأسه ايجابا وقد سره انبهار علاء، فتابع موضحا:

- هذا ما يبدو لك من الواجهة الزجاجية فقط، وعندما تدخلها سترى أعداد الكتب الهائلة فيها، فالمدير شامل حريص جدا على تزويدها بكل ما يفيد رغم صعوبة الحصول على الكتب غالبا، لا سيما وأن العديد منها لا يتوافر الا في مركز المكتبات الرئيس في المنطقة، حتى انه استأجر ناسخا خاصا ينسخ الكتب لصالح المدرسة، وخصص مبلغا كبيرا من المال لأجل ذلك، هذا بالاضافة الى الكتب التي يحضرها اثناء تجواله في المناطق والممالك المختلفة، جزاه الله خيرا كثيرا، والحمد لله إذ أصبحت مكتبتنا مرجعا للعديد من طلبة العلم والمهتمين من خارج المدرسة ايضا..

واستدرك عاطف فجأة:

- لقد استطردت كثيرا في الحديث عنها، على كل حال، سيساعدك القيم نوح في التعرف عليها بشكل أفضل..

كان علاء يدرك تماما مقدار الجهد المبذول من أجل مكتبة ضخمة كهذه، فحتى مجمع المكتبات الرئيس في مدينته لم يكن يحوي أعداد هذه النسخ الكثيرة.

قطع علاء مع عاطف ثلثي الدهليز تقريبا وعيناه معلقتان بالواجهة الزجاجية للمكتبة حتى وصلا بابها الثاني القريب من الدرج، عندها لم يتمالك علاء نفسه من إبداء ملاحظته:

- لم أتخيل أنني سأرى مكتبة بهذه الضخامة!

لكن عاطف أشار إلى الباب المقابل لذلك الباب على يده اليمنى قائلا:

- هذه قاعة التجارب العلمية، لا شك انك ستستمتع بإجراء التجارب فيها مع المعلم برهان بإذن الله..

وأخيرا وصلا نهاية الدهليز المؤدي للدرج، وقبل أن يصعداه، لفت نظر علاء باب حديدي صغير أحكم إغلاقه بالمزاليج وعدد من الأقفال الحديدية يقبع في الزاوية المخفية خلف الدرج، وكأنه يؤدي إلى قبو فسيح، أو هكذا خيل لعلاء، لكن عاطف لم يشر له بشيء بل تابع طريقه صاعدا الدرج بخطوات ثابتة.

تابع علاء طريقه خلف المشرف عاطف وعلامات الانبهار بالممرات الواسعة النظيفة اللامعة لا تفارق عينيه. وقف عاطف ومعه علاء على أول الممر في الطابق الثاني القريب من الدرج مشيرا إلى الأبواب على جانبي الممر قائلا:

- هذه غرف ومكاتب المعلمين والمدربين والعاملين في المدرسة..

ثم أشار إلى باب بدا مختلفا في تصميمه واتساعه عن الأبواب الأخرى، يقع على الناحية اليسرى عند الطلوع من الدرج قائلا:

- هذه قاعة الطعام، عليك الالتزام بالحضور، خاصة على موعد الإفطار الجماعي..

ثم صعدا الدرج إلى الطابق الثالث، وبعد أن تجاوزا ثلاثة أبواب في الممر على جانبهما الأيمن، وقف أمام باب طرق عليه ثلاث مرات قبل أن يفتحه، ليطلا على غرفة متوسطة الاتساع بها ثلاثة أسرة.

فسح عاطف المجال لعلاء كي يدخل قائلا:

- تفضل، هذه غرفتك يا علاء..

وخمن علاء السرير المعد خصيصا له؛ إذ بدا واضحا أنه أُضيف مؤخرا للغرفة عوضا عن كون آثار زميليه في الغرفة واضحا على السريرين الآخرين، ولم يخف على عاطف ملاحظة نظرات علاء المتفحصة للسريرين، فعلق مازحا:

- هل حدثتك الأسرة بشيء عن صاحبيهما؟

عندها أسرع علاء بصرف بصره وقد احمرت وجنتاه وهو يقول:

- كنت أحاول التخمين فقط، وأظن أن صاحب هذا السرير منظم جدا، أما الآخر فيبدو بسيطا للغاية!

عندها بدت علامات الإعجاب بوضوح على وجه المشرف عاطف وهو يقول:

- فراستك في محلها ما شاء الله..

ثم أشار إلى السرير القريب من النافذة:

- ستكون مسئولا عن ترتيب سريرك وتنظيفه، فاهتم به جيدا، كما ستقوم مع رفاقك بغسل ملاآتكم الخاصة بكم مرة في الأسبوع على الأقل، فالنظافة من الايمان، وهي ضرورية للفارس النبيل..

واتجه نحو خزانة خشبية بها عدد من الأدراج، فتح أحدها ليخرج ثيابا بيضاء ناصعة، طويت بعناية، مع قطعة قماش رمادية قدمها لعلاء قائلا:

- هذا درجك و سترتدي هذه الثياب الخاصة بالمدرسة من الغد إن شاء الله..

ثم أشار إلى الرف الثالث من الرفوف المثبتة بالجدار، الزاخرة بعدد من الكتب والأقلام والكراريس، موضحا:

- وهذه كتبك وأدواتك التي تحتاجها في الدراسة..

وتابع وهو يتناول لائحتين من فوق الرف:

- هذه لائحة الدروس والتدريبات في المدرسة، وهذه اللائحة الخاصة بأوقات الدروس في المستوى السادس وتدريبات مرتبة همام خلال الأسبوع، اطلع عليهما لتستعد للغد إن شاء الله..

ثم اتجه نحو باب الغرفة خارجا منها وهو يقول:

- تصرف على راحتك فالغرفة غرفتك..

لكنه توقف مستدركا- قبل أن يغادر:

- هناك قاعة كبيرة في نهاية الممر للدراسة، وفقك الله..

فشكره علاء بأدب:

- جزاك الله خيرا، أعدك أنني سأكون عند حسن ظنك إن شاء الله..

وما إن أغلق عاطف الباب خلفه حتى أخذ علاء يتأمل اللوائح بتمعن:

<table>
<tr><th colspan="2">دروس الفروسية</th></tr>
<tr><td>ا- (علم الجدال)</td><td>ب- (علم الجلاد)</td></tr>
<tr><td>القرآن وعلومه
الحديث وعلومه
السيرة النبوية
علم الفقه
الأخلاق والآداب
علم الفراسة
سير أعلام الفرسان</td><td>ركوب الخيل والكر والفر بها
الرمي بالأقواس
المبارزة بالسيوف
المطاعنة بالرماح
الصراع والمشابكة</td></tr>
<tr><td colspan="2">دروس التعليم النظامي (المستوى السادس)</td></tr>
<tr><td colspan="2">علم الإسلام العام
لغة العرب
علم الحساب
علم الطبيعة والفلك
علم الحياة
الحوادث والأيام
أشكال الأرض والبلاد
لغة رامان
لغة سومار (إضافي)
تقويم الأبدان</td></tr>
</table>

بعدها تأمل علاء لائحة أوقات الدروس للمستوى السادس صباحا، ومرتبة همام ظهرا، وهو يدقق النظر في دروس الغد الاثنين:

"فترة الصباح: القرآن وعلومه/ الحديث وعلومه/ علم الحياة/ علم الحساب/ الحوادث والأيام/ لغة العرب/ لغة رامان.

فترة الظهيرة: ركوب الخيل/ الرمي بالأقواس."

ثم التقط نفسا عميقا واستلقى على سريره، بعد أن وضع ثياب المدرسة على طرفه، وتأمل السريرين مرة أخرى محدثا نفسه:

- ترى ، من هو صاحب هذا السرير المرتب بعناية فائقة!! أي نوع من الفتيان هو!! هل تراه مغرورا؟ هل هو صديق للآخر!! و هل سيتقبلان وجودي بينهما!!

أغمض علاء عينيه قليلا:

- هذه هي البداية..بداية الطريق فقط، أعني يارب.. أمي أبي اطمئنا، أعدكما أن تعبكما معي لن يضيع هباء ولا سدى، و سأبذل قصارى جهدي بإذن الله..

وشعر برهبة سرت على أثرها قشعريرة في جسده، فهب واقفا باتجاه النافذة. شعر بسعادة غامرة لكونها تطل على واجهة المدرسة الأمامية، فاستطاع رؤية جامع الفتح من بعيد، ثم لمح عدنان وهو يجر عربة التبن باتجاه الإسطبل الذي استطاع رؤية جزء منه من مكانه. فأسرع لتوه خارجا من الغرفة..

استعد عدنان للعودة إلى منزله مع غروب ذلك اليوم الجميل، وهو سعيد بنجاح صديقه، وما إن خطا خارج الإسطبل حتى فوجئ برؤية علاء أمامه، فسأله بدهشة:

- ألم تذهب إلى غرفتك؟

فأومأ علاء برأسه إيجابا:

- بلى، ولكنني لم أشأ البقاء فيها وحدي، فزميلاي في الغرفة لم يعودا بعد..

فسأله عدنان باهتمام:

- وهل عرفت من هما؟

هز علاء رأسه نفيا:

- ليس بعد، أتمنى أن يكونا طيبين، ويتقبلا وجودي معهما!

فابتسم عدنان مطمئنا:

- لا تقلق من هذا الشأن ، فالطلبة هنا يتفاهمون بسرعة بفضل الله، إنهم كالأخوة..

فابتسم علاء بدوره:

- أرجو ذلك..

فتابع عدنان مشجعا:

- ستبدأ غدا دروسك الأولى إن شاء الله، فاحرص أن تأخذ قسطا كافيا من الراحة..

لكن شرود علاء أوقفه عن المتابعة، فسأله باهتمام:

- ما الذي دهاك يا علاء، ألست سعيدا بالتحاقك بالمدرسة بعد ذلك الجهد والعناء؟

- بلى يا صديقي وإنني أحمد الله على هذه النعمة العظيمة .. ولكن هناك أمر يحيرني بشأن هذه المدرسة..

بدا الاهتمام واضحا على وجه عدنان وهو يسأله:

- أخبرني ماذا هناك ؟

أطرق علاء مترددا:

- في الحقيقة لا أعرف إن كان من حقي السؤال!!

فحثه عدنان على المتابعة وقد بدأ الفضول يسيطر عليه:

- هيا يا صديقي، أخبرني بما يحيرك ولا تخفِ عني شيئا، فهذا أفضل من أن تبقى أسير أفكارك..

عندها انفرجت أسارير علاء وهو يقول:

- أنت على حق يا صديقي.. إنني متعجب فقط؛ فالمسئولون هنا لا يأخذون مالا مقابل ما يقدمونه لنا، فكيف يسددون احتياجات المدرسة الكثيرة!! لقد أذهلني بناؤها الضخم والإعدادات الهائلة المزودة بها، لا سيما تلك المكتبة الضخمة التي لم أر مثلها من قبل، ما شاء الله..

عندها شعر عدنان بارتياح، بعد أن اطمأن على صديقه، فأجاب مفسرا:

- لا تنس أن والد المدير شامل السيد شاهين كان من أقرب المقربين للحاكم، عوضا عن ثرائه البالغ. تستطيع القول إن معظم الأراضي والحقول في المنطقة كانت تحت سيطرته ومن ضمن ممتلكاته، ويقال أنه كان ظالما مستبدا كغيره ممن هو في مثل منصبه، لذا لم يثق الناس فيه بداية عندما بدأ بإقامة المدرسة، لكن حرصه على إعادة المظالم لأهلها في نهاية حياته وإغداقه الأموال على الفقراء، جعل الناس يتخلون عن تلك الفكرة شيئا فشيئا لا سيما وأن ابنه الذي تسلم زمام الأمور من بعده، اشتهر بورعه وتقواه، وهكذا فإن ريع تلك الممتلكات يصرف لصالح المدرسة.. وقد بارك الله فيها..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع همسا:

- يقال أن سبب تغير حاله تلك؛ دعوة عجوز فقيرة رق لحالها على غير عادته.. وأي كان، فالله على كل شئ قدير..

ردد علاء متأثرا:

- رحمه الله، اللهم اجعل عمله هذا خالصا لوجهك الكريم واقبله صدقة جارية له إلى يوم القيامة واغفر له ما قد سلف..

وأمن عدنان على دعائه:

- اللهم آمين..

في تلك اللحظة ارتفع صوت أذان المغرب من جامع الفتح، فذهبا معا، ليقرر علاء بعدها البقاء في الجامع حتى صلاة العشاء، فقد كان بحاجة لخلوة يخلوها مع ربه، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة وهامة في حياته..

***

عاد علاء إلى غرفته- بعد صلاة العشاء- وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى، طرق الباب ثم وضع يده على المقبض وقلبه يخفق بشدة:

- ترى هل سأجد زميلي في الغرفة!! من هما.. يارب..

وما إن فتح الباب حتى وجد طلال يقف أمامه مرحبا:

- أهلا بك في غرفتك يا علاء، كنا بانتظارك بعد أن خرجنا قبلك من الجامع، إذ لم نشأ أن نعكر صفوك هناك، إنني أهنئك من أعماق قلبي، واسأل الله أن يسعدك معنا، وأن لا تجد منا ما يسوؤك..

تهلل وجه علاء فرحا:

- سبحان الله غير معقول.. ما هذه المفاجأة السارة، أنت طلال كامل على ما أذكر، الذي التقيتك في الإسطبل مع عدنان!!

أومأ طلال رأسه مبتسما:

- الحمد لله، ها أنت تتذكرني يا صديقي، والآن أقدم لك صديقنا الجديد الذي سيشاركنا غرفتنا.. حسام عبد اللطيف..

استبشر علاء كثيرا برؤية حسام معه أيضا، فقد دخل قلبه من أول مرة رآه فيها في الإسطبل..

ابتسم حسام الذي وقف منتظرا دوره للترحيب بعلاء:

- من لطف الله بي أن طلال تذكرني أخيرا، وإلا لبقيت متفرجا هكذا حتى الصباح..

ثم صافح علاء بحرارة وهو يقول:

- أسمعت! كما يقول طلال إنني صديقكما الجديد، لذا عليكما الاهتمام بي وعدم إزعاجي وإلا أخذت فكرة سيئة عنكما من البداية لا قدر الله..

سر علاء كثيرا بذلك الاستقبال الطريف، فابتسم قائلا:

- جزاكما الله خيرا، وإنني لأرجو أن لا أكون سبب إزعاج لكما..

فقاطعه طلال :

- لا تقل هذا الكلام يا صديقي، فنحن نسعد كثيرا بالتعرف إلى أصدقاء طيبين جدد، وقد أصبحنا من هذه اللحظة أسرة واحدة..

فتدخل حسام مازحا:

- كن على حذر يا علاء، فهو لن يتورع عن رمي أحماله الثقيلة عليك..

فرمقه طلال بنظرة عتاب:

- بدأنا!! سامحك الله يا حسام، هل رأيت مني شيئا سيئا لا قدر الله؟

فضحك حسام مازحا:

- أبدا، إنما قصدت نصائحك المفيدة، عسيرة الهضم، وعلاء يفهمني جيدا وبالتأكيد لن يأخذ عنك أي فكرة سيئة، أليس كذلك يا علاء؟

هز علاء رأسه موافقا بابتسامة مرحة:

- بل سأسعد كثيرا بذلك..

فحسم طلال الموضوع بابتسامة لطيفة:

- إذن إليكما أولى هذه النصائح، هيا إلى النوم قبل أن يأخذنا الوقت، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك..

وضحك الثلاثة وهم ينفضون فراشهم استعدادا للنوم.

شعر علاء بسعادة كبيرة وهو يرمق طلال بطرف عينه، وهو ينفض فراشه بهدوء ويخلع خفيه ليضعهما إلى جانب السرير بترتيب فائق متهيئا للنوم، فحدث نفسه:

- صدق حدسي كما توقعت، طلال منظم جدا ما شاء الله..

ورمق حسام الذي سرعان ما غط بالنوم بعد أن قرأ أذكار النوم بسرعة، وابتسم في سره:

- كم أنت بسيط وطيب يا حسام حفظك الله..

ثم ردد وهو يستشعر بذور الأخوة التي بدأت تضرب جذورها في قلبه:

- جزاكم الله عني خير الجزاء يا أخوتي..

أغمض علاء عينيه وتقلب في فراشه كثيرا، ثم نظر نحو النافذة متأملا.. هاهو يقطع شوطا هاما في حياته وحيدا بعيدا عن أهله ومدينته.. ولاح له طيف والده يحييه مبتسما، فيما تخيّل أمه وهي تضمه إليها بحنان وحب، وتراءت له هناء بمرحها الطفولي العذب تشد على يديه فخورة به كعهده بها دوما:

- أحسنت يا أخي..

فشعر بسعادة غامرة وأراد أن يعانقها لولا أن خُيّل إليه صوت أخيه الأصغر بهاء يبكي بهلع وذعر، ثم انطلقت صرخات تفطر الأكباد من كل مكان وأصوات تستغيث وعويل طويل ونيران مشتعلة وجثث منتشرة..

أفاق مذعورا يتلفت حوله:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قالها وهو يتفل ثلاثا نحو كتفه الأيسر..

يبدو أنني كنت أحلم، ترى في أي جزء من الليل نحن الآن؟؟ وما لبث أن سمع طرقات خفيفة على الباب..

فنهض عن فراشه وفتح الباب بهدوء، ابتسم عاطف في وجهه:

- السلام عليكم.. كيف أصبحت يا علاء؟ أرجو أن تكون قد نمت جيدا..

فرد علاء وهو ينهض من فراشه:

- الحمد لله، لولا ذلك الحلم الذي أزعجني..

لا تزعج نفسك به كثيرا يا بني، استعذ بالله من الشيطان الرجيم، و اتفل على يسارك ثلاثا كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولن يضرك بإذن الله، أما الآن فاستعد سينادي المؤذن لصلاة الفجر بعد قليل..

انصرف عاطف وانتبه علاء إلى فراش رفيقيه الفارغ.. وماهي إلا لحظات حتى دخل حسام ووجهه يقطر ماءً:

- السلام عليكم، كيف أصبحت يا صديقي؟

فابتسم علاء وقد زالت آثار النوم عن وجهه:

- بخير والحمد لله.. لقد طرق المشرف باب الغرفة قبل قليل..

فقال حسام موضحا:

- هذا ما يفعله كل يوم، احتياطا من أن يكون النوم قد غلبنا..

أشار علاء برأسه متفهما، قبل أن يسأل:

- ومتى استيقظت؟

ربما قبلك بقليل فقد رأيتك وأنت تتقلب في فراشك ولكنني لم أشأ إزعاجك، نحن عادة نستيقظ في مثل هذا الوقت، فأجسادنا اعتادت على ذلك، ثم ابتسم متابعا:

- أما طلال فأظنه لم ينم إلا القليل، وهو في قاعة الدراسة كالمعتاد ما شاء الله..

وفي تلك اللحظة دخل طلال الذي سمع حديثهما، قائلا:

- سيرفع الآذان بعد قليل..

انتبه حسام لنفسه:

- جزاك الله خيرا أنك نبهتنا، كدت أنسى رغم أنني توضأت، ثم التفت إلى علاء:

- الميضأة في أول الممر قرب الدرج ، وركعتان في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها، ودعاء ثلث الليل الأخير مستجاب بإذن الله..

ابتسم علاء وقد تراءت له كلمات والده تتراقص أمام عينيه:

- الزم الرفقة الصالحة يا بني، تذكرك إن نسيت، وتعلمك إن جهلت، وتعينك على خير دنياك وآخرتك..

فتمتم:

- بارك الله فيكما وجزاكما الله خيرا يا صديقي العزيزين..

أدى علاء ركعتين أطال سجودهما وهو يدعو الله من أعماق قلبه أن يُطمئنه على والديه ومدينته ويوفقه في مدرسته الجديدة ليرفع الظلم ويعيد الحق الى نصابه، دعا ودعا بحرقة حتى بللت الدموع الغزيرة موضع سجوده..

ارتفع أذان الفجر واستعد الجميع للذهاب إلى الجامع، التفت حسام إلى علاء وهو يربط حزامه بعد أن ارتدى ثيابه، متسائلا:

- ألم يعطك المشرف عاطف الثياب الخاصة بالمدرسة؟

أجاب علاء وهو يتجه نحو الدرج ليخرجها منه:

- بلى..

فتابع حسام:

- إذن استعد لارتدائها فلن نعود إلى الغرفة بعد الصلاة إلا لأخذ كراريسنا وأدواتنا..

لكنه بتر عبارته فجأة وهو يرى قطعة القماش الرمادية في يد علاء، هاتفا بحماس:

- ما شاء الله، هل قبلت بمرتبة همام مباشرة يا علاء؟

أومأ علاء رأسه إيجابا.

- وكيف عرفت؟

فانتهز حسام الفرصة مداعبا:

- سر الصنعة..

لكن طلال الذي خرج لتوه من خلف الستارة في زاوية الغرفة بعد أن بدل ملابسه، أفسد عليه متعته بقوله:

- من لون العمامة يا علاء، فلكل مرتبة عمامة خاصة بها، وعادة يلتحق الطلبة بمرتبة المبتدئين حيث يتم الاكتفاء بالقلانس وحدها..

ثم أشار إلى نقش يتكون من ثلاثة خطوط في طرف عمامة علاء، قائلا:

- هذا النقش يدل على المستوى السادس، فلكل مستوى نقش خاص به يتكون من عدد معين من هذه الخطوط..

فضحك حسام وهو يحك رأسه:

- سامحك الله يا طلال أضعت علي فرصة ذهبية..

فابتسم علاء وقد تذكر ما أخبره به عدنان سابقا عن المراتب وألوان العمائم المميزة لها:

- لا تقلق فما زالت أمامك فرص عديدة مع طالب جديد مثلي..

فأسرع حسام يرد بنبرة جادة:

- سامحك الله يا صديقي لم اقصد الاستهزاء بك..

فأجابه علاء بمرح:

- وأنا لم أقصد ما فهمته!

فابتسم حسام وقد اطمأن قلبه:

- تعادلنا اذن!

عندها قال طلال وهو يرتدي عمامته الخضراء- الدالة على مرتبة مقدام- ويلفها حول رأسه أمام المرآة المعلقة على الجدار:

- هيا حتى لا نتأخر، بدّل ملابسك يا علاء لنريك كيف ترتدي العمامة..

لبس علاء سراويله الواسعة التي وصلت إلى نصف ساقه، وارتدى القميص الطويل، الذي غطى وركه، ذا الأكمام القصيرة التي تصل الى نصف ساعده، وزرره بإتقان، ثم ساعده حسام على إحكام ربط حزامه على وسطه، بالطريقة المتبعة في المدرسة، ومن ثم قال طلال لعلاء وهو يناوله عمامته الرمادية، بعد أن هيأها بطريقة خاصة:

- والآن كوّرها بلفتين على رأسك كما رأيتني وحسام نفعل، ومن ثم اغرزها من ورائك لترخي ذؤابة من الخلف..

وبعد أن انتهى علاء، وهو يردد:

- اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له وأعوذ بك من شره وشر ما هو له..

هتف حسام باسما:

- ما شاء الله تبارك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، تستحق وسام الوسامة في المدرسة يا علاء..

وابتسم طلال مؤكدا:

- هذه أكثر كلمة جادة قد تسمعها من حسام..

فقال علاء وقد بدأ ينسجم معهما بشكل كبير:

- حسنا لن أقول أنني لم أسر بهذه المبالغة اللطيفة، جزاكما الله خيرا..

فقال حسام:

- إلا هذه!! ليست مبالغة أبدا و بشهادة طلال..

فرد طلال مؤكدا، ومنهيا الحديث:

- بالطبع ليست مبالغة، البس جديدا وعش سعيدا ومت شهيدا، والآن هيا إلى الصلاة..

اتجه الجميع صوب جامع الفتح القريب، وهم يستنشقون الهواء النقي العليل الذي أنعش رئاتهم رغم برودة الجو في باكورة هذا الصباح من أواخر أيام الشتاء..

ردد طلال بصوت مرتفع – بغرض التذكير:

- اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا..

فالتفت حسام إلى علاء:

- هذا دعاء الذهاب إلى المسجد، أتعرفه يا علاء؟

أومأ علاء رأسه بالإيجاب:

- كنت أردده مع أبي أثناء ذهابنا للصلاة..

فتابع حسام:

- أما أنا فلم أعرفه إلا بعد التحاقي بهذه المدرسة..

وقال طلال:

- الحمد لله تعلمنا الكثير، وما زال أمامنا الكثير..

انتهت الصلاة وأقبل طلال وحسام يرافقهما علاء على الإمام الشيخ عبد الرحيم؛ يسلمون عليه، والذي رحب بعلاء بابتسامة مشجعة:

- لمحتك في أول يوم جئت فيه إلى هنا، لكنك كنت تخرج مستعجلا دائما..

فأكد علاء:

- هذا صحيح، فقد كان لدي الكثير من الأعمال التي علي انجازها آنذاك..

ثم ابتسم الشيخ بنباهته المعهودة:

- وحتى مساء الأمس لم أشأ قطع خلوتك فقد كنت مستغرقا بصلاتك ودعائك بارك الله فيك يا بني وثبتك على الحق والصلاح، والحمد لله قد أكرمك الله بصحبة صالحة فطلال وحسام من أفضل الفتيان، ليس في المدرسة وحسب بل في الأمة كلها، ما شاء الله، نحسبهما كذلك ولا نزكي على الله احدا، والطيور على أشكالها تقع..

أطرق الفتيان رؤوسهم خجلا، وقال علاء:

- جزاك الله خيرا، لا شك ان دعاءك ودعوتك يا شيخنا الكريم تؤتي ثمارها الطيبة في كل حين، وإن أذنت لي فسألتحق بالدرس القصير بعد صلاة الفجر وحلقة العلم بين صلاتي المغرب والعشاء، فقد حدثني طلال وحسام عن تلك الحلقات المفيدة، وإنني أتوق شوقا للاستفادة منها أيضا، فهي تذكرني بجامع مدينتي..

أعجب الشيخ عبد الرحيم بلباقة علاء:

- بارك الله في حسن أدبك يا بني، أهلا بك فسيبدأ الدرس بعد قليل، والحمد لله ها أنت أخيرا في مدرسة النصر بتوفيق من الله، فسر على بركة الله وإذا عزمت فتوكل على الله، وكن عند حسن ظن المسلمين بك..

شعر علاء بروح حماسة جديدة تدب في أوصاله، وهو يخرج من جامع الفتح، حتى أنه التفت الى صاحبيه مستفسرا:

- كأن الدرس أعد خصيصا من أجلي هذا اليوم!

فابتسم حسام معقبا:

- هذا ما كنا نقوله كل يوم، إن في كلام الشيخ عبد الرحيم سرا يشعر كل شخص يسمعه أن الكلام موجه اليه تحديدا وكأنه يخاطبه على انفراد بعد أن كشف خبايا نفسه.

وقال طلال:

- هذا بسبب إخلاصه، والله اعلم، ولا نزكيه على الله، إضافة إلى علمه الغزير ما شاء الله وخبرته في الحياة، عوضا عن علاقاته المتينة بمدرستنا..

فأكد حسام:

- كثيرا ما كنا نفاجأ بما يعرفه عنا، لم نتوقع ان يهتم بنا كثيرا إلى هذا الحد، كأننا من أبنائه..

ثم استدرك:

- ستتعرف ابنه زيد ان شاء الله، فهو معنا في المستوى السادس..

هتف علاء:

- حقا، كم هذا رائع!

وفي تلك الأثناء وصلوا بوابة المدرسة الخارجية، فتوقف علاء على حين غرة قائلا:

- سأذهب لرؤية عدنان أولا، لا بد أنه في الإسطبل الآن..

وبعد أن تبادل طلال وحسام نظرات متفهمة، قال طلال:

- حسنا سنأتي معك، ولكن عليك أن تسرع حتى لا تتأخر عن موعد الإفطار..

بدت خيبة علاء كبيرة وهو يبحث عن عدنان حول الإسطبل إذ لم يجده فيه، وبدا مصرا على رؤيته وهو يقول:

- سأنتظره هنا فهو لن يتأخر..

لكن طلال قاطعه بقوله:

- لا يصح التأخر عن موعد طعام الإفطار الجماعي!

وبدا حسام أكثر تعاطفا معه وهو يقول:

- أفهمك جيدا يا صديقي، ونحن نقدر لهفتك الشديدة لرؤية عدنان، ولكن هيا بنا الآن و ستراه فيما بعد إن شاء الله..

وأمام إلحاحهما الشديد لم يجد علاء بدا من الإذعان لهما، وما إن دلف علاء إلى قاعة الطعام حتى تهلل وجهه بشرا وعيناه تقعان على عدنان الجالس حول مائدة الطعام، فهرع إليه مسرعا دون وعي بما حوله وهو يهتف:

- لقد ذهبت لأسلم عليك يا صديقي ولم أجدك، قلقت عليك..

فشد عدنان على يديه مسلما دون أن ينهض من مكانه وهو يحدجه بنظرات ذات معنى، انتبه علاء على اثرها إلى العيون المحدقة به، لقد كانت المرة الأولى التي يدخل فيها قاعة الطعام ومع ذلك دخلها بدون القاء التحية على الجمع الذين كانوا بانتظارهم، حتى طلال وحسام أخفضا رأسيهما وهما يقدمان الإعتذار على التأخير للمشرف عاطف الجالس على رأس المائدة، والذي قال:

- هذه المرة الأولى التي تتأخر فيها يا طلال، كنا على وشك أن نبدأ..

شعر علاء بحرج شديد، لكنه أسرع يقدم العذر ويبرر موقف صديقيه:

- كنت السبب في ذلك، لا ذنب لهما ايها المشرف..

ظهرت على وجه المشرف عاطف ابتسامة مقتضبة حاول اخفاءها، بقوله:

- حسنا لا بأس، ولكن لا تكرروا ذلك مرة اخرى فالانضباط هام جدا للفارس، هيا اغسلوا ايديكم و خذوا أماكنكم بسرعة..

ثم التفت إلى الرجل الجالس عن يمينه معرفا:

- هذا هو الطالب الجديد علاء..

ثم نظر إلى علاء معرفا:

- السيد كريم، طباخ المدرسة والمسئول عن قاعة الطعام..

فحياه علاء بأدب جم:

- تشرفت بمعرفتك..

ورد كريم:

- أهلا بك، ارجو أن يعجبك طعامي الذي أعده خصيصا لكم..

فرد علاء:

- بالتأكيد سيعجبني جزاك الله خيرا هذا من لطفك معي..

وبعد أن غسل علاء يديه في حوض الماء مع رفيقيه، أخذ مجلسه إلى جانب عدنان، جالسا على رجله اليسرى، رافعا اليمنى مرتكزا عليها كما فعل جميع المتحلقين حول الطاولة قصيرة الأرجل، في حين جلس حسام بينه وبين طلال، وبدأ عاطف باسم الله، متناولا التمرات أمامه، ومذكرا وهو ينظر الى علاء تحديدا:

- لا تنسوا البدء بالتمرات السبع أمام كل واحد منكم ففضلها كبير، وفيها فائدة عظيمة للجسم والعقل، اللهم بارك لنا في ما رزقتنا وقنا عذاب النار باسم الله..

كانت المائدة عامرة بأطباق الجبن والزيت والزيتون والبيض، مع الخبز الساخن والكعك الشهي، حتى أنها ذكرت علاء بمائدة الجد سعيد هذا بالإضافة إلى سلة الخضراوات والفواكه، وأكواب اللبن الطازج أمام كل واحد، جنبا إلى جنب مع التمرات السبع..

وأثناء الطعام تبادل الجميع أحاديث شتى، أما حسام الذي بدا كثير التقلب في جلسته فقد أدهشه اتقان علاء لها فعلق قائلا:

- أنت رائع يا علاء لقد اتقنت الجلسة بسرعة!

لكن علاء رد عليه بقوله:

- لقد اعتدنا هذه الجلسة في بيتنا أيضا، فقد حرص أبي جزاه الله خيرا على تعويدنا عليها اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم منذ الصغر..

فردد حسام بانبهار ملحوظ:

- ما شاء الله، هكذا اذن..

ولمعت صورة لبيت مترف جدا في ذهن حسام، رسمت في عينيه شيئا من الحزن؛ لكنها سرعان ما تلاشت بعد أن وكزه طلال، الذي استمع حديثهما، هامسا:

- لكلٍ ثغرته..

فابتسم حسام وهو يتابع إفطاره بمرح وحيوية بدت مصطنعة:

- أنت تفهمني جيدا يا أخي العزيز..

أما علاء فقد كان يتحدث إلى عدنان:

- لم أتوقع أن ألقاك في قاعة الطعام، فأنت لم تخبرني أنك تتناول إفطارك هنا!

فابتسم عدنان:

- هذا صحيح، فإني أفضل الإفطار في البيت قبل أن آتي إلى العمل، لكنني قررت اليوم تناوله في المدرسة حتى أراك..

فأكمل علاء:

- في حين ذهبت أنا لأراك في الإسطبل!

فقال عدنان معلقا:

- القلوب عند بعضها يا صديقي، المهم أنني اطمأننت عليك..

فتدخل حسام ممازحا:

- و هل كنت قلقا عليه إلى هذا الحد منا؟

فابتسم عدنان مبررا:

- لو رأيت علاء البارحة لفهمت ما أعني..

فوخزه علاء بيده:

- ليس إلى هذه الدرجة..

وضحك الجميع. كانت المرة الأولى منذ فترة طويلة التي يشعر فيها علاء بمتعة تناول الطعام، حتى أنه أكل بشهية كبيرة، إلى أن سمع صوت تأوه مفاجئ التفت إلى مصدره ليجد أحد الطلبة الصغار- ذوي القلانس البيضاء- يهز يده اليسرى متألما، في حين قال عاطف، وهو يضع عصاه الرفيعة والطويلة جانبا:

- هذه المرة العاشرة التي نذكرك فيها يا صفوان، (يا غلام كل بيمينك)..

وتابع كلامه بسرعة حتى لا يترك مجالا لاحراج الطالب:

- أعرف فارسا أعسراً أحضر شخصا خصيصا؛ ليراقبه أثناء الطعام حتى يعتاد الأكل باليمين، لحرصه على تطبيق السنة..

ورمق حسام باسما:

- أليس كذلك؟

فتكلم حسام بظرفه المعهود:

- هذا صحيح ولكنني أظنه فعل ذلك بداية خوفا من العصا..

وضحك الجميع لتعليقه، لكن حسام تابع بجدية:

- من فضل الله علينا أن يُسخّر لنا من يعيننا على تطبيق هذه السنة..

وعقب كريم:

- انتم تذكرون يا أبنائي قصة ذلك الرجل الذي أصر على تناول الطعام بيساره أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدّعي أنه لا يستطيع الأكل باليمين، حتى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم (لا استطعت)، فشلت يده..

فتساءل طالب آخر من الطلبة الصغار بقلق:

- هل شلت يده حقا!! ولكنه لم يكن يستطيع الأكل باليمين فما ذنبه إن خلقه الله أعسر؟؟

فابتسم عاطف موضحا:

- سؤال وجيه يا طارق، لقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم سبب ذلك في تتمة الحديث، ما منعه إلا الكِبر، وأنتم تعرفون خطورة الكبر، أليس كذلك؟

فأجاب طارق وقد بدا أكثر اقتناعا بما سمعه:

- يكفي أن ذرة واحدة منه تحول دون العبد ودخول الجنة، هذا ما أخبرنا به المعلم أمين.

وأردف حسام - الذي بدا عضوا هاماً في ذلك النقاش:

- هذا لأن الكبر يحول بين المرء وقبول الحق الذي يعرفه، ويمنعه من التعلم والتراجع عن الأخطاء، فلا عيب في الجهل وارتكاب الأخطاء وإنما العيب في الإصرار على ذلك الخطأ والتكبر عن طلب العلم والخضوع للحق..

عندها سأله صفوان - وكان من أشد المعجبين بشخصية حسام الآسرة:

- هل حقا أنت ذلك الفارس الأعسر يا حسام؟

فابتسم حسام بتواضع:

- وما العجيب في ذلك! ولولا فضل الله ثم تلك العصا لما تأدبت..

عندها تهلل وجه صفوان وقد نسي ألم الضربة وإحراجها، وابتسم وهو يقول:

- سأحاول أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تمسني بها العصا أيها المشرف عاطف، أعدك بذلك بإذن الله..

فابتسم عاطف مستبشرا:

- هذا ما أتوقعه منك يا صفوان، بارك الله فيكم يا أبنائي..

وعرف علاء سر تلك المحبة التي يأسر بها حسام القلوب، وأدرك تماما كيف يكون تناول الطعام عبادة يؤجر عليها المسلم، والتي انتهت بالدعاء:

- الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين..

***

نزل علاء برفقة صاحبيه نحو قاعة الدرس في الطابق الأول ومعهم كراريسهم وأقلامهم، قال طلال ممهدا:

- ستحضر معنا الدروس النظامية ودروس علم الجدال للمستوى السادس، في الفترة الصباحية ومن ثم تبدأ تدريبات علم الجلاد لمرتبة همام، بعد صلاة الظهر إن شاء الله، وسنبدأ بعلوم القرآن ثم الحديث مع المعلم أمين إن شاء الله كالعادة..

فأومأ علاء برأسه معبرا عن معرفته بذلك مسبقا:

- لقد اطلعت على اللائحة أمس..

ثم استطرد مستفهما:

- وانتم ستذهبون لتدريبات مرتبة مقدام، هذا يعني أننا سنفترق في فترة الظهيرة، أليس كذلك؟

فأسرع حسام بالرد:

- لا تقلق يا علاء فما زال هناك طلبة من مرتبة همام في المستوى السادس معنا، ستذهب معهم..

وفي تلك اللحظة كانوا قد وصلوا باب قاعة الدرس في الطابق الأول، فتناهى إلى سمع علاء من خلال شق الباب الذي لم يغلق تماما، أحاديث مختلطة أشبه بنقاشات محتدة، ولم يكد طلال يلقي السلام وهو يدلف إلى الداخل حتى هرع إليه مجموعة من الفتية، قال أحدهم- وكان يرتدي عمامة خضراء:

- جئت في وقتك يا طلال، ما الذي طلبه منا المعلم رائد، أنكتب تصورنا عن الحادثة أم رأينا فيما حدث؟؟

وقال آخر- ذو عمامة رمادية مثل علاء:

- هيا أخبره يا طلال، قلت له إنني متأكد مما سمعته، علينا أن نكتب آراءنا فيما حدث لا أن ننسج قصصا خيالية..

فقال الأول ذو العمامة الخضراء:

- هذا رأيك يا حسان، زيد وياسر مثلي فهِما من المعلم غير ذلك..

وقبل أن يتفوه طلال ببنت شفة، وهو يحاول فهم ما يجري، تدخل حسام قاطعا الحديث بقوله:

- ألا تستطيعون تأجيل هذا إلى وقت آخر!!

عندها انتبه الجميع إلى علاء الذي وقف إلى جانب حسام، قرب باب القاعة يتأملهم بصمت، فأسرع حسان إليه:

- طالب جديد، لماذا لم تعرفونا به!!

فقال طلال أخيرا:

- وهل تركتم لنا فرصة!

وما هي إلا لحظات حتى تحلق الطلبة حول علاء ، وقال الفتى ذو العمامة الخضراء- الذي أسرع إلى طلال بداية يسأله من قبل- وهو يشد على يد علاء بحرارة:

- أنت الفتى الذي قابلناك مع عدنان، أليس كذلك! مبارك قبولك بيننا هل تتذكرني؟ اسمي معاذ، و أرجو أن تعذرنا يا علاء، فلم ننتبه إليك عند دخولك..

فابتسم علاء:

- لا تقلق، فلقد سررت بلقائكم..

وقال حسان وهو يصافحه بدوره:

- لم أكن أعلم أنك التقيت معاذ من قبل، ولكن تأكد أنني سأكون مسرور بك أيضا، أهلا بك..

فعقب فتى آخر بعمامة رمادية بمرح:

- كان هذا مجرد عينة من نقاشاتنا الودية الكثيرة.

ثم مد يده مصافحا علاء:

- اسمي أصيل يسرني أن أدعوك لتنضم إلى صفي في تشجيع حسان..

لم يفهم علاء ما الذي يعنيه أصيل تماما، لولا أن تدخل طلال بقوله:

- أهذا وقت المزاح!

فضحك أصيل:

- كنت أريد أن أضعه في الجو مباشرة، أليس هذا أفضل يا علاء؟؟

وابتسم حسام معلقا:

- لا تستعجل.. فسرعان ما سيرى كل شيء بنفسه، من يقف معك اليوم، يقف ضدك غدا، ولا أحد يثبت على حال، وسيقرر علاء موقفه بنفسه،

عندها قال معاذ:

- ما هذا يا شباب أشعرتمونا وكأننا في أرض معركة!

وضحك الجميع قبل أن يقول طلال لعلاء موضحا:

- كل ما في الأمر أنهم يحبون النقاش وإبداء أرائهم بكل شيء ثم يختلفون ويبدؤون بالتأييد أو المعارضة وهكذا..

فأكمل أصيل متصنعا الجدية وهو يسعل واضعا قبضة يده اليمنى على فمه:

- باختصار، ستجد فلاسفة العصور كلها مجتمعين في هذه القاعة، ويسعدنا انضمام فيلسوف جديد الينا..

عندها علت أصوات الضحكات في القاعة بمن فيهم صوت علاء؛ الذي شعر بانسجام سريع معهم وكأنه يعرفهم منذ زمن بعيد، ثم اقترب منه فتى بعمامة خضراء، عريض المنكبين بدا قوي البنية بشكل ملحوظ، مد يده مبتسما:

- جاء دوري الآن، أخوك زيد..

وشد على يد علاء بقوة وهو يتابع:

- نحن أسرة واحدة بفضل الله كما ترى، فلا تهتم للخلافات الصغيرة التي تشهدها أحيانا، هذا يحدث في كل بيت..

فأسرع حسام معرفا:

- زيد ابن الشيخ عبد الرحيم الذي حدثناك عنه صباحا..

فتهلل وجه علاء فرحا وقد تذكره بعد أن رآه أول مرة:

- سررت برؤيتك، كم أنت محظوظ بوالدك ما شاء الله..

فابتسم زيد:

- الحمد لله، هذا من فضل ربي، لقد حدثني والدي عنك اليوم أيضا، فعادة ما أحضر الدرس بعد الفجر لكن أمي كانت تريدني في شيء هذا الصباح فخرجت مسرعا بعد أن قُضيت الصلاة..

وتقدم طالب آخر يرتدي عمامة رمادية يريد التعرف إلى علاء- بدا أضعفهم بنية وأهدأهم طبعا- لولا دخول المعلم أمين، فانتظم الجميع في أماكنهم يردون التحية..

أخذ المعلم أمين مقعده أمام الطلبة، الذين تحلقت مقاعدهم حوله في نصف دائرة، ليُشَكّلوا مجلسا أشبه ما يكون بحلقات العلم في المساجد- حيث ان هذا هو النظام في قاعات الدراسة في المدرسة- وفتح الجميع مصاحفهم على المناضد أمامهم..

استهل المعلم كلامه بقوله:

- نتابع اليوم إن شاء الله ما بدأناه من مخارج الحروف وصفاتها، مستفتحين بتلاوة سورة الفتح للتطبيق..

ثم نظر نحو علاء بابتسامة عريضة:

- علاء نور الدين منصور، أهلا بك بين إخوانك..

لم يكد المعلم يذكر اسم علاء كاملا، حتى علت همهمات في قاعة الدرس، بين مستفهم وغير مصدق، حتى طرق المعلم بيده على الطاولة أمامه فالتزمت ألسنتهم الصمت وفي عيونهم ألف سؤال! وتابع المعلم كلامه موجها حديثه لعلاء:

- كم تحفظ من القرآن يا بني، وما هو مدى معرفتك بأحكام التجويد؟

فأجاب علاء بأدب:

- أحفظ عشرة أجزاء بحمد الله، كما أنني أنهيت دراسة أحكام الميم والنون الساكنتين والتنوين، بالإضافة إلى أحكام المُدود وبدأت بالدروس الاولى فقط لمخارج الحروف وصفاتها في حلقات المسجد..

تهلل وجه أمين بشرا وهو يقول:

- ممتاز جدا ما شاء الله، بإذن الله تتابع معنا دروس المخارج والصفات بسهولة، ثم نظر نحو معاذ محمسا:

- أخيرا وجدنا من ينافسك في الحفظ يا معاذ، فها هو علاء يحفظ عشرة أجزاء أيضا.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وما زلت عند وعدي لكم يا أحبائي، والمكافأة من نصيب أول من يتقن حفظ القرآن كاملا..

ثم ابتسم بمرح متابعا:

- والمنافسة مفتوحة أمام الجميع..

والتقط نفسا قبل أن يتابع:

- والآن ما رأيك أن تبدأ يا علاء بالتلاوة هذا اليوم..

وانطلق صوت علاء بترتيل مجود خشعت له القلوب..

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

وما إن خرج المعلم أمين بعد درس الحديث الذي تلا علوم القرآن، حتى هرع الطلاب نحو علاء الذي كان جالسا على المقعد في طرف نصف الحلقة إلى جانب طلال، وكان أصيل أول المتلهفين سؤالا:

- هل أنت ابن القائد نور الدين منصور حقا!!

انفرجت شفتا علاء عن ابتسامة خفيفة وهو يومئ برأسه إيجابا لتنهال الأسئلة عليه بعد ذلك:

- وكيف وصلت إلى هنا؟؟

- كيف هي الحال في منطقة المروج الخضراء الآن؟؟

- حدثنا عن القائد نور الدين، نريد أن نعرف المزيد عنه..

وألقى معاذ نظرة عتاب إلى طلال وحسام اللذين لم تكن مفاجأتهما أقل من الآخرين:

- هكذا!! علاء يقيم في غرفتكم ولم تسارعوا إلى تعريفنا إلى كونه ابن القائد نور الدين!!

فرد حسام مبرئا نفسه:

- حتى نحن لم نكن نعلم أنه ابن القائد نور الدين؛ إلى أن سمعنا ذلك من المعلم أمين مثلكم!

وأكد طلال موضحا:

- أنت تعرف أنه لم يتسن لنا ذلك وإلا لما قصرت أنا وحسام في تعريفكم به، ثم إن علاء لم يأت إلى غرفتنا إلا البارحة!!

بدا الاقتناع على وجه معاذ بعذرهما فأسرع مادا يده نحو علاء مصافحا:

- الحمد لله الذي أكرمني بمعرفتك، وأعدك بإذن الله أن نشهد منافسة قوية..

فابتسم حسان:

- كما قال المعلم أخيرا وجد معاذ من ينافسه في الحفظ، ولكن إياك أن تستخف بنا.. فنحن هنا أيضا!

فرد معاذ:

- استغفر الله، منذ متى عهدتني استخف بمسلم يا حسان!

فتابع أصيل مازحا:

- إنه يقصد تحذيرك فقط فلا داعي لأن تتحامل عليه هكذا يا أخي!

عندها تدخل زيد:

- ما زال علاء جديدا بيننا ولا داعي لأن تظهروا خباياكم كلها من أول يوم، اصبروا قليلا يا جماعة!

فضحك حسام:

- لا تقلق بهذا الشأن، فقد أخذ درسا مصغرا في غرفتنا ليلة أمس، دعه يرانا على حقيقتنا بدلا من أن يغتر بمظاهر الوقار!!

ثم التفت إلى ياسر- ذلك الطالب الهادئ الخجول ذي العمامة الرمادية الذي ما زال منتظرا الفرصة المناسبة ليسلم على علاء- ورمقه بنظرة مازحة متابعا:

- بالطبع نستثني بعض الأخوة الأفاضل..

فتوردت وجنتا ياسر وهو يقول بصوت خافت:

- تعرفني لا أحب المبالغات أبدا..

ثم اقترب من علاء مادا يده ليصافحه:

- اسمي ياسر، ويشرفني الالتقاء بك يا ابن القائد نور الدين..

فنهض علاء من مقعده وهو يشد على يده بحرارة:

- ويشرفني الالتقاء بك أيضا يا ياسر، شكرا لك..

لكن ياسر التفت فجأة نحو أصيل وهو يهتف على غير عادته:

- ربما هو من تبحث عنه يا أصيل!!!

وخيم الصمت فجأة والعيون معلقة بعلاء وكأنها تتفحصه لتتأكد من كونه الضالة المنشودة، حتى سأله أصيل:

- هل ذهبت قبل يومين إلى جدار الأخبار في مركز التسوق؟

لم يكد أصيل يتم عبارته حتى قفزت صور أحداث ذلك اليوم أمام ناظري علاء وهو يذكر لهفته لسماع أي خبر عن مدينته وأهله، محدثا نفسه:

- هل مضى يومان على ذلك حقا!! كأنه حصل منذ زمن بعيد!!!! يا رب.. ألا من خبر جديد، هل من أمل!!

وتسارعت نبضات قلبه وهو يومئ برأسه مجيبا أصيل:

- اجل، كنت أسأل عن أخبار المروج الخضراء لكنني لم أجد سوى أخبار مر عليها ثلاثة أسابيع...

عندها اندفع أصيل نحوه يعانقه بشدة، وهو يهتف:

- الحمد لله الحمد لله... أخيرا وجدتك حمدا لله، سيسر أبي كثيرا..

وبدا الفرح على الجميع وسط ذهول علاء، وعلق معاذ:

- على رسلك يا أصيل لقد خنقته!!

فقال حسان باسما:

- دعه يعبر عن فرحه يا رجل!

وتنهد حسام بارتياح:

- أخيرا أعفينا من واجب البحث الذي أرهقنا به أصيل، لا أدري كيف لم يخطر ببالنا منذ البداية أن علاء هو المقصود..

وأخيرا قال علاء الذي ما زال غارقا في ذهوله:

- ألا أستطيع فهم ما يجري هنا؟؟

فضحك الجميع كيف غاب عن ذهنهم توضيح الصورة لعلاء، وقال طلال:

- أصيل ابن السيد بلال مدير جدر الأخبار الرئيسة في المدينة، وقد أخبره السيد جاد عن مرور فتى يسأل عن أخبار المروج الخضراء، وخمن أن تكون من مدرسة النصر، مما أثار اهتماما لدى السيد بلال فطلب من ابنه البحث عن هذا الفتى ليسلمه النسخة الجديدة التي وصلت بعد أن غادر جدار الأخبار بقليل!

كانت تلك مفاجأة حقيقية لعلاء، ولم تعد قدماه تقويان على حمله لكنه تماسك وهو يلتفت نحو أصيل بلهفة شديدة حتى أنه نسي شكره:

- ما هي الأخبار؟؟ أين النسخة؟؟ هل أستطيع رؤيتها الآن!!!!!!!

كان موقفا مؤثرا للغاية حتى أن دمعة ترقرقت من عين أصيل وهو يرد مطمئنا:

- الحمد لله أخبار مبشرة بالخير، اطمئن يا صديقي..

ثم أسرع نحو حقيبته ليناول علاء النسخة..

وفي تلك اللحظة دخل المعلم برهان فالتزم الجميع أماكنهم. وبعد أن القى عليهم التحية، قلب نظره بين الطلبة حتى وقعت عيناه على علاء فابتسم مرحبا:

- علاء نور الدين.. أرجو أن تتابعنا جيدا، فدروس علم الطبيعة والفلك وعلم الحياة ممتعة وشائقة تزيدنا تفكرا وتدبرا في مخلوقات الله سبحانه والتأمل في بديع صنعه، والله سبحانه يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والعلوم بفروعها تحتاج إلى تركيز وانتباه شديدين، فإذا استعصى عليك أمر يا علاء - خاصة في تعويض ما فاتك من دروس- تستطيع مراجعتي، كما أن طلال يستطيع مساعدتك أيضا..

ثم وجه سؤاله إلى البقية:

- أنهينا دراسة تركيب العين، أليس كذلك؟

بدأ الدرس وحاول علاء بذل قصارى جهده في محاولة يائسة للفهم والتركيز دون جدوى- خاصة أن فكره مشغول بأخبار أصيل- وشعر أنه في دوامة كبيرة، لا يستطيع الخروج منها بل أخذت تدور به، حتى كاد يهوي ممسكا برأسه، لكنه تمالك نفسه فلم ينتبه إلا وطلال يخاطبه:

- خيرا يا علاء ما الذي أصابك، تبدو شارد الذهن!! لقد انتهى الدرس.. وخرج المعلم..

نظر إليه علاء بنظرة باهتة كمن أفاق من حلم طويل:

- حقا!!

ولم يكن حال علاء مع المعلم نبراس بأفضل مما كان عليه مع المعلم برهان، خاصة وأنه دخل مباشرة بعده فلم يتسن له أخذ النسخة من أصيل وإلقاء نظرة سريعة عليها لتطمئن نفسه، و رغم محاولاته الجاهدة للتركيز بدرس علم الحساب إلا أنها باءت بالفشل، هذا رغم شعوره بأنه جالس على مجموع أعصابه دفعة واحدة، خوفا من سؤال مباغت يطرحه المعلم نبراس عليه دون أن يعرف الإجابة، فلسان حال المعلم بدا واضحا له منذ البداية، يا ويل من يسرح في درس الحساب، وبدا ذلك أوضح في ردود أفعال زملائه في الدرس، التركيز ثم التركيز ولا شيء هنا غير التركيز، ومع ذلك كله سرح بتلك النسخة رغما عنه، وكأنه احتمى بكونها المرة الأولى له في الدرس فليغتنمها ببعض الشرود الذي لن يتكرر مرة أخرى! فلم ينتبه إلا على طلب المعلم من الجميع بحلّ مسألة حسابية معقدة وتنبيههم بقوله:

- كما أرجو من كل واحد منكم الاعتماد على نفسه وحل المسألة بمفرده ، والنقاش فيها ممنوع هذه المرة، لأطلع على قدرة كل واحد منكم على حدة، وسأمهلكم أسبوعا كاملا..

ومن لطف الله بعلاء أن ما تبع ذلك كان أشبه ما يكون بفترة استراحة خفيفة، أسرع فيها أصيل نحوه مقدما له النسخة:

- ها هي نسخة الأخبار يا علاء، أرجو أن تجد فيها ما يسرك..

فنظر إليه علاء بامتنان وهو يتناول النسخة وقد بدا أكثر سيطرة على نفسه:

- جزاك الله خيرا يا أصيل..

والتقط نفسا عميقا محاولا الاسترخاء على مقعده وهو يطالع النسخة يلتهمها بعينيه بسرعة حتى تسمرت عيناه على خبر:

"... ويشك جنود رامان بأن تكون تلك المرأة هي نفسها زوجة القائد نور الدين."

وشهق علاء:

- أمي!!!

فهرع إليه حسام الذي كان يتابعه بنظرات قلقة:

- ماذا هناك يا علاء؟ خير إن شاء الله!

أطرق علاء برأسه وهو يحاول التركيز أكثر فيما يقرأه:

- كأنهم يذكرون أمي!!

فتساءل زيد بتعجب:

- أمك!! ماذا هناك؟

وتركزت الأنظار على علاء الذي بدا لا يعي ما يقرؤه، غائبا عما يدور حوله، فرد أصيل موضحا:

- إنهم يذكرون خبر التحاق امرأة بجماعة نور الدين، بعد تمكنها من التسلل خلسة إلى مدينة شمس وتجاوز حراسة جنود رامان المشددة، لأول مرة تظهر امرأة تواجه وتتحدى الجنود بتلك القوة ثم تفلت منهم، لقد أصبحت حديث الأخبار!

وتعالت عبارات الإعجاب والفخر بتلك المرأة العظيمة، وعلق حسان:

- هذا خبر عظيم، لك أن تفخر بأمك حقا!

فربت طلال على كتف علاء:

- ألا تحدثنا بقصتك يا علاء؟ أنت لم تخبرنا ماذا حدث معك وكيف وصلت إلى هنا!

وصمت الجميع وهم ينصتون باهتمام إلى علاء الذي حدثهم أخيرا عما حدث معه، حتى حان موعد درس الحوادث والأيام ، بعد أن خمدت شعلة حماس الطلاب له ونسوا خلافهم من أجله، وهم يستمعون إلى علاء. فقال معاذ:

- إذن هذه أول مرة تسمع عن أمك منذ ذلك الحين يا علاء!

وهتف حسام بتفاؤل:

- الحمد لله ، أبشر يا علاء، فهذا يعني أن أمك بخير وجنود رامان لم يتمكنوا من الحاق أي أذى بها حتى الآن بفضل الله..

فرد علاء محاولا الابتسام:

- أرجو من الله ذلك..

ثم استدرك فجأة، فتناول الصحيفة ليعيد قراءتها بتمعن أكثر، والقلق باد على وجهه، فسأله حسام وقد انتقلت إليه عدوى القلق بسرعة:

- ماذا هناك؟ خير إن شاء الله!

فتنهد علاء:

- لا يوجد في الخبر ما يشير إلى وجود طفل صغير معها!!

فأجابه أصيل وهو يعيد النظر في الصحيفة مع علاء:

- ربما لم يلقوا بالا لذلك!

فقال علاء بخيبة أمل:

- أو ربما لا تكون أمي!!

فربت حسام على كتفه مطمئنا:

- تفاءل بالخير يا صديقي، لا شك في أنها أمك..

رد الطلبة على تحية المعلم رائد الذي فاجأهم بدخوله، وكأنهم لم يكونوا على دراية مسبقة بالدرس التالي!! فعلق مبتسما وهو ينظر نحو علاء بعد أن تفرق الطلبة من حوله عائدين إلى أماكنهم:

- لقد أصبحت مركز الأحداث الهامة، أهلا وسهلا بك يا علاء..

ثم قال موجها حديثه للجميع:

- أعددتم واجب الأمس؟

فهب حسان واقفا:

- أرجو المعذرة يا معلمي، لي استفسار بسيط، لقد طلبت منا رأينا في حادثة سقوط مملكة شيلاس، أليس كذلك؟

فرد المعلم مستفهما عن المقصود:

- بلى، هل من شيء؟

فاستأذن معاذ:

- لقد فهم بعضنا أنك تطلب تصورنا عما حدث وليس رأينا فيه!

أطلق المعلم رائد ضحكة خفيفة وهو يقول:

- وما الفرق أيها الفلاسفة ؟؟ لقد أثرت عليكم قصة نشوء علم الكلام كثيرا هذه الأيام، الخير في أنكم أديتم الواجب..

ثم قال موجها حديثه لعلاء:

- لقد تحدثنا في الدرس السابق عن حادثة سقوط مملكة شيلاس - التي مر عليها ما يقارب ثمان سنوات- وانضمام أراضيها إلى مملكة رامان وما قيل عن دور المسلمين في ذلك، كما تحدثنا عن ضرورة ربط دروس الحوادث والأيام بدروس أشكال الأرض والبلاد، فعندما ندرس حادثة ما؛ لا بد لنا من دراسة طبيعة الأرض، وشكل البلاد التي حدثت فيها. والآن دعنا نرى ما لديك يا علاء، ما الذي تعرفه بداية عن موقع مملكتي شيلاس و رامان؟

استذكر علاء ما يعرفه في عقله بسرعة قبل أن يجيب بثقة:

- تقع أراضي مملكة شيلاس في الشمال الشرقي للمناطق الاسلامية، التي يفصلها عنها البحر، وتعتبر من أكثر الأراضي خصوبة وأقلها وعورة، فساهمت في قيام مملكة قوية بثروتها، لسنوات طويلة. في حين تحتل مملكة رامان الأراضي الشاسعة شمال بحر الشمس، والممتدة من ساحل بحر الغيوم غربا وحتى الوادي العظيم، الذي كان يفصلها عن مملكة شيلاس شرقا، وبعد أن ضمت إليها أراضي مملكة شيلاس أصبحت المملكة العظمى بلا منازع..

بدا الرضا على وجه المعلم رائد:

- أحسنت، والآن نريد عرضا سريعا لآرائكم التي قمتم بتسجيلها..

وأكمل باسما:

- أوتصوراتكم، فمن يبدأ؟

فاستأذن حسان ليبدأ قائلا:

- رأيي هو تأييد ما قام به المسلمون من المساهمة في اسقاط تلك المملكة، فقد كانت لديها مواقف عدائية خاصة لأولئك القاطنين في البلاد القريبة من أراضيها..

وقال معاذ:

- أتصور انه من غير المستبعد أن يكون ما ذكر عن دور المسلمين في إسقاط مملكة شيلاس صحيحا، فقد زاد الظلم الواقع على المسلمين منها، فهب المجاهدون لرفع الظلم وايقاف المعتدي!

فاستأذن زيد ليتحدث، لكن المعلم رائد استوقفه مستطردا:

- لقد تعمدت أن أبدأ بكما يا حسان ومعاذ لأرى ما الفرق بين الرأي والتصور في عرفكما، فإذا بكما تحملان المضمون نفسه!!

تبادل حسان ومعاذ النظرات، وابتسم الجميع، وعيونهم تقول:

- فهمنا المغزى أيها المعلم..

ثم التفت المعلم رائد إلى زيد:

- قل ما لديك يا بني.

فعرض زيد فكرته:

- بما أن مملكة شيلاس وقفت إلى جانب الخلافة الإسلامية في فترة من الفترات، فلا أظن أنه من المنطقي أن يساهم المسلمون في اسقاطها، لا سيما وأنهم لم يجنوا من سقوطها شيئا، ولو بدر منهم ذلك لكان الأولى هو إسقاطهم لمملكة رامان صاحبة الموقف العدائي الأول! وأتصور أن مملكة رامان هي وراء ترويج تلك الإدعاءات الكاذبة لصالحها، خاصة وأنها المستفيد الأكبر مما حدث..

هز المعلم رأسه معبرا عن رضاه بما سمع ثم تابع:

- ومن يشاركنا أيضا؟؟

قالها وهو يركز عينيه على ياسر الذي انشغل بكراسته، فاحمر وجهه واستدرك نفسه بسرعة:

- أوافق زيداً في تصوره، وإذا كان ما ينسب إلى دور المسلمين في سقوط شيلاس صحيحا فإني لا اؤيد ما حدث، إذ لم يفدنا ذلك إلا في تشويه سمعة المسلمين وازدياد نفوذ رامان أكثر!

أما علاء فقد كان مبهورا بما يسمعه من عرض ونقاش وحوار لم يشهد مثله من قبل، وشعر لوهلة أنه في مكان صناعة الأحداث في هذا العالم!

***

وفي غرفة المدير شامل- حيث اجتمع المدربون بعمائمهم السوداء الحرقانية- كان المدرب ثابت والمدرب سعد يناقشان قضية تدريب علاء بشيء من الحدة، قال ثابت:

- أنت تعلم أيها المدير أننا لا نرقّي إلى مرتبة همام إلا من يحسن ركوب الخيل والثبات عليه، وقيادته وحده دون مساعدة، فكيف نتصرف مع علاء في هذه المرتبة وهو لم يمتط حصانا قط!!

وأكد سعد كلامه:

- الشيء نفسه في الرماية، كيف سيتدرب مع زملائه في مرتبة همام على الرمي في المدى المتوسط، وهو لم يتقن مسك الأقواس بعد!! ألا تظن أننا نخالف أنظمة المدرسة أيها المدير؟؟؟

رد المدير بوقار مطمئنا:

- أقدر موقفكما وأتفهمه تماما، ولكن ثقا بأنه سيتقن تلك المهارات في خضم يومين على الأكثر، إن شاء الله..

والتفت إلى المدرب جهاد الذي كان يجلس مبتسما بصمت، وهو يهز رأسه موافقا، أما المدرب عمر الذي وقف مرتكزا إلى الحائط مكتفا ذراعيه وهو يفكر بعمق، فقد قال أخيرا:

- في الصراع و المشابكة، يحتاج الجسم إلى لياقة بدنية عالية تساهم فيها التمرينات المتتالية والتدريجية، وهذه اللياقة أيضا تحتاجها الأذرع عند رمي الرمح والمطاعنة به، أليس كذلك يا علي؟

قال عمر جملته الأخيرة وهو يلتفت إلى المدرب علي الجالس قبالته مستغرقا في التفكير، فأومأ المدرب علي رأسه إيجابا، وتابع عمر كلامه مخاطبا المدير بقوله:

– هل هذا يعني أنك تطلب منا أيها المدير أن نخصص له من وقتنا أكثر مما يفترض لمن هم في مرتبة همام، و إعطائه تدريبات إضافية عن باقي زملائه في المرتبة بغض النظر عن كون ذلك مخالفا للقوانين؟

فهز المدير رأسه نافيا بشدة ما سمعه:

– لم أقصد هذا، بل ولا أريده أن يحدث، إلا إن طلب منكم مساعدة معينة ووافقتم على ذلك طواعية، ولكن إياكم أن تعرضوا عليه أدنى فكرة من هذا القبيل، سيتدبر أمره بإذن الله، فلا تقلقوا..

وصمت المدير قبل ان يستدرك قائلا:

– ثم إن هذه القوانين وضعية وليست كلاما منزلا لا يمكننا المساس بها عند الضرورة!!

تبادل المدربون الأربعة النظرات في دلالة واضحة على التردد حتى قال ثابت أخيرا:

– لا أملك إلا تنفيذ ما تطلبه أيها المدير، وإن كنت غير مقتنع بذلك، خاصة وأن المدرب جهاد يوافقك الرأي على ما يبدو وهو أمير المدربين هنا، وقد قطعنا عهدا أن نعمل يدا واحدة ولا نشق وحدة الجماعة..

ثم التقط نفسا عميقا قبل ان يتابع بحزم :

– ولكن ثق أنني لن أتساهل معه أبدا مهما كلفني الأمر!

بدا شامل أكثر ضبطا لنفسه وهو يجيبه بهدوء:

– ونحن لم نطلب منك غير ذلك، ونسأل الله التوفيق لكم جميعا والقبول..

جزاكم الله خيرا..

***

بعد أن أنهى المعلم عاصم بيان أثر الطبيعة على قصائد المتأخرين من الشعراء، متغنيا بجمال لغة العرب وبديع وصفها، نظر إلى زيد قائلا:

- هيا يا زيد أتحف مسامعنا بالأبيات، وأرجو من الجميع الإنصات..

وبصوت زيد الجهوري المتزن، شرع في القائه الرائع:

رأيت الشمس ضاحكة خيوط الدفء تغزلهـا
نسيم العصر ينشد تحتـ ـها الأشعار يسمعها
فمرّت غيمـــة غضبى وقالت سوف أحجبهـا
وأخفت خلفها شمسـا تنـادي من يساعدهـا

ورغم عدم اهتمام علاء بالشعر عادة، إلا أنه شعر بقوة خفية تشده نحو تلك الأبيات وكأنه يسمعها لأول مرة.. في حين يتابع زيد:

فهب الريح في غضب ولبى صوت نجدتها
وشد العزم مهتاجـا وعارك كي يحررهـا

انفعل علاء بشدة، وبدا متلهفا على متابعة ما يجري من أحداث..

وعاد بزهوة النصر زهور الروض يقطفها
وقال لشمسه عذرا هدايا النصر أجمعها

وسرح علاء بعيدا فلم يتابع بقية الأبيات، حتى انتبه مرة أخرى..

وحـل الليل مختـالا ونـادى اسـم فارسهـا
لقد أخفيت يا ولدي شموس الكون أجمعها
فإن أخفقت لا تيأس وصبرا كي تشاهدهـا

ابتسم المعلم لحسن آدائه:

بارك الله فيك يا زيد..

ثم نقل بصره بين الطلاب:

- من يرغب في إضافة تعليق؟

استأذن علاء:

- إذا سمحت لي يا معلمي..

ابتسم المعلم بسرور بالغ، فقد كان يتلهف لسماع مايدور بخلد هذا الصبي وهو يتابع ما ارتسم على وجهه من تعابير واضحة حتى كأنه ما طرح السؤال إلا لهذا الغرض..

قال علاء:

- لا أعرف مالذي عناه الشاعر بالضبط أثناء كتابته لهذه الأبيات، لكنني أشعر بها وكأنها تتحدث عن مدينتي شمس التي غابت حريتها خلف غيوم القهر والظلم، وباتت تئن تحت وطأة الطغيان، وإني لأسأل الله أن تهب عليها رياح النصر قريبا، ولعلها تأتي من مدرستنا مدرسة النصر في مدينة رياح، فتنقشع الغيوم وتعود الشمس لتشرق من جديد..

وحتى ذلك الحين لن نيأس أبدا، سنجتهد ونثابر ونصبر فالنصر قريب بإذن الله..

هتف المعلم:

- ماشاء الله تبارك الله، أحسنت يا علاء بارك الله فيك..

ثم التفت إلى البقية معبرا عن إعجابه بكلام علاء:

- هل لدى أحدكم تعليق أفضل من هذا؟

فاستأذن طلال:

- إن سمحت لي يا معلمي، لقد قلت لنا فيما مضى قولا بليغا..

فحثه المعلم قائلا:

- تفضل يا طلال ذكرنا به ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾..

فتابع طلال كلامه:

- "ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة"، لذا لن تجد بيننا من يضيف معنى أفضل وأجود مما قاله صديقنا علاء..

علت ابتسامة مشرقة وجه المعلم عاصم:

- أصبت المعنى يا طلال، بل و ساعدت على بيان ذلك المعنى أيضا..

وفي نهاية الدرس قال المعلم:

- اليوم أريد من كل واحد منكم الكتابة عن موضوع يختاره بأسلوب جيد ولغة قوية..

انتهى الدرس ونهض حسان متململا من مكانه:

- يا إلهي متى تنتهي هذه الكتابات!! مرة عن الطبيعة ومرة عن المواقف المؤثرة، ومرة عن المجتمع... واليوم موضوع نختاره!!! من أين آتي بكل هذه الأفكار!!

فرد عليه معاذ مهدئا:

- هون عليك يا رجل، أشعرتنا وكأن مصائب الدنيا اجتمعت فوق رأسك!! اذهب إلى المكتبة وستجد هناك ما يفيدك بالتأكيد..

فتنهد حسان بضيق:

- ومتى أجد الوقت لذلك!! الدروس مستمرة حتى الظهر، ثم بعد التدريب علي العودة بسرعة إلى المنزل! ليت أمي تعفيني من المسؤوليات يوما واحدا على الأقل!!

عندها تدخل زيد بسرعة:

- ما دمت ستعود من أجل أمك، فسيبارك الله في أفكارك بالتأكيد، خذها نصيحة مني..

أما أصيل فلم يقاوم إضافة تعليق يتندر به على حسان:

- أمك أم بطنك !! حاول الاختصار على الأقل من وجبة الغداء التي تشغل فترة الاستراحة كلها عندك..

لم يجد حسان ما يرد به، فلاذ بالصمت، وإن بدا غير مقتنع تماما بما سمعه..

أما علاء فقد كان مشغولا بعالمه الذي اثارت القصيدة شجونه وأشواقه، كانت روحه هناك.. في مدينة شمس.. يحدث نفسه ويسائلها:

- أتكون تلك المرأة أمي!! يارب احفظها.. يارب احفظ أمي من كل سوء..

واقترب منه حسام يربت على كتفه :

- ستشرق الشمس حتما يا علاء، ثق بالله وتوكل عليه..

وفي تلك اللحظة انتبها على صوت طرقات متتالية، نهض ياسر على أثرها بسرعة نحو النافذة، وفتحها ليحط على يده ذكر حمام أبيض بديع:

- وديع!! ما الذي أتى بك الان!!!

اغتنم حسام هذه الفرصة ليخرج علاء من عزلته قائلا:

- إنه زاجل ياسر، أذكى وأروع ذكر حمام زاجل رأيته، وريشه ناعم جدا ما شاء الله، تعال وانظر..

لكن أصيل كان قد سبق الجميع إليه وهو يقفز حوله:

- دعني احمله يا ياسر ارجوك لقد وعدتني المرة الماضية، هيا بسرعة قبل أن يأتي المعلم..

و بسرعة ضمه بيديه محاولا إحكام قبضته عليه قبل أن يطير، فقال ياسر:

- على مهلك يا أصيل بهدوء أرجوك، ستؤذيه هكذا!!

فتدخل حسام:

- دع علاء يحمله قليلا، هيا.. سيأتي دورك في اللعبة لاحقا يا أصيل..

فقال أصيل:

- لكن علاء لن يمانع إن حملتُه أنا أولا..

فعلق حسان:

- يبدو أنني سأفكر بالعمل مع ياسر ووديع؛ لجمع الأموال من اللاعبين أمثالكم!

اما علاء فلم يدر كيف قفزت فكرة مفاجئة إلى رأسه في تلك اللحظة فهتف مخاطبا ياسر:

- هل هو من الحمام الزاجل حقا!!

أومأ ياسر رأسه مجيبا:

- أجل، هل تحب حمله؟ إنه وديع..

فابتسم علاء وعقله مشغول بفكرته التي بدأت تشق طريقها إلى النور، ثم مد يده أسفل وديع الذي استقر بين كفي ياسر، لكنه ما إن شعر بيد علاء حتى رفرف بجناحيه بقوة فابتعد علاء مذعورا إلى الخلف، فضحك ياسر:

- لا تخف إنه لا يؤذي، هيا تشجع يا علاء..

فابتسم علاء لنفسه بمرارة:

- حتى هذه تحتاج شجاعة!!! لم تكن جبانا يوما يا علاء، فما بالك تذعر من حمام وديع أليف!!!

وسرعان ما تدخل أصيل:

- قلت لك دعني أحمله أولا!

فرد ياسر وهو يربت على وديع مهدئا ليتسنى لعلاء حمله من جديد:

- ألا تستطيع الإنتظار قليلا يا أصيل!

فقال أصيل بنفاد صبر:

- دائما تقول هذا ثم تضيع الفرصة مع وديعك هذا!!!

حتى أتاه صوت معاذ وهو يقول:

- يبدو أن المعلم شاهر لن يأتي هذا اليوم، فقد تأخر أكثر من المعتاد!!

فهتف أصيل بمرح وقد نسي للحظة مشكلته مع وديع:

- هذا رائع، فأنا أكره هذه اللغة الغريبة..

فالتفت إليه طلال مؤنبا – والذي كان مشغولا طوال تلك الفترة بكتاب يقرؤه:

- لا تقل هذا يا أصيل، هل ستفرح إن أصاب المعلم مكروه لا قدر الله!

فأسرع أصيل بالرد مدافعا عن نفسه:

- لم أقصد هذا، أنت تعرف ما أعنيه!!

فعلق حسان:

- هكذا طلال دائما، يبالغ في الأمور كثيرا..

فأجابه طلال بحزم:

- ليس في الأمر شيء من المبالغة، وأنا أعني ما اقوله..

ابتسم معاذ متندرا:

- أنت تقول هذا يا طلال لأنك متفوق في دراستك ماشاء الله، أما أصيل مثلا، فلا يخفى على أحد ما يعانيه من إحراج شديد عندما يطلب منه المعلم شاهر قراءة نص جديد..

فرد أصيل بروح مرحة:

- وهل نسيت نفسك يا عزيزي..

فقال معاذ:

- لا أبدا، ولكني كنت أضرب مثلا..

فتدخل حسان بمزحة ذات مغزى:

- أم لأنك غدوت من مرتبة مقدام أصبحت ترى نفسك علينا!! لماذا لا تضرب نفسك مثلا يا أخي؟

فتقبلها معاذ بدعابة لحسم الموقف، وضرب يده قائلا:

- أيعجبك هذا يا صديقي!

فعلا صوت أصيل وحسان بالضحك:

- أرضيتنا بحق!

حينها دخل المعلم شاهر مسرعا:

- عذرا على تأخري يا أولاد.. أرجو أن تكونوا قد قرأتم النص الجديد في غيابي..

علت البسمة الوجوه، فهم يعرفون جيدا ما الذي فعلوه في تلك الفترة..

أخذ المعلم يقلب صفحات كتاب أمامه، ووجد ياسر نفسه في مأزق وهو يحاول إطلاق وديع من النافذة- التي يجلس إلى جوارها- دون أن يثير انتباه المعلم إلى وجود هذا الطائر الذي يصر على البقاء!

فوخزه أصيل الجالس إلى جواره هامسا:

- هذا لأنك لم تدعني أحمله، ولكنني عفوت عنك، من لطف الله بك أن المعلم شاهر ضعيف النظر قليلا، هيا تفاهم مع وديع بسرعة قبل أن..

لكنه بتر عبارته الهامسة إثر صوت المعلم وهو يوبخه:

- أصيل!!!! ألم تعدني بالكف عن الثرثرة!!!!!!!! هل وصل بك الحد إلى نقل العدوى إلى ياسر أيضا بعد أن نقلنا حسان من قربك!!!!

لكن الدهشة ألجمت المعلم بعد أن انتبه إلى وجود وديع الذي حاول ياسر إخفاءه دون جدوى، فنظر إليه مؤنبا:

- حتى أنت يا ياسر!! أهذا وقت الحمام؟؟؟؟

نهض ياسر مطرقا رأسه بحرج:

- اعذرني ايها المعلم..

لكن المعلم شاهر قاطعه بسرعة:

- اخرجه بسرعة الان لا وقت لدينا نضيعه، وإياك أن تكرر ذلك مرة أخرى!

اتجه ياسر إلى النافذه محاولا افمهام وديع ان لا وقت لديه للعب الان، لكنه انتبه إلى الشريط الأبيض الملفوف حول ساقه فنزعه وأخفاه في جيبه بسرعة ، ليطير وديع بعدها أخيرا من النافذة بسلام بعد ان أدى الأمانة!

التقط الجميع أنفاسهم وتكلم المعلم شاهر وقد استعاد رباطة جأشه بسرعة:

- سنتابع اليوم إن شاء الله شرح وتوضيح رؤية الإنطلاق في قصة (جوران ماركينا) فقد توقفنا في المرة الماضية عند نهاية الفصل السابع..

وهي كما قلنا سابقا، أشهر قصة في أدب رامان وللتذكير كما اتفقنا؛ نحن لا نوافق على ما ورد بهذه الرواية من أخطاء تنافي ديننا الحنيف، ولكننا مضطرون إلى دراستها بصفتها جزءا مما قُرّر تدريسه في مدارس منطقة الجبال. لذا سنحاول الاستفادة منها بطريقتنا الخاصة، لا كما يريد كاتبها وأسأل الله أن يوفقنا في معالجتها على الوجه الصحيح، فهي فرصة جديدة لكم لتتعرفوا على طريقة تفكير الآخرين ومواجهتهم دون أن تؤثر سلبياتها في نفوسكم. بالإضافة لاكتسابكم

القدرة للتمييز بين الحق والباطل، وتحصلوا على الخبرة الكافية في كيفية مواجهة الأفكار الدخيلة على أمتنا ومعالجتها، والآن لنبدأ على بركة الله.. فمن يقرأ؟

وقلب بصره بين الطلبة حتى وقعت عيناه على علاء الذي انتبه إليه لتوه:

- علاء نور الدين، مرحبا بك يا بني، كيف هو اتقانك للغة رامان؟

فأجاب علاء بثقة:

- جيدة، فقد بدأنا دراستها من المستوى الثالث في مدينتي وكنت متفوقا فيها بفضل الله..

فابتسم شاهر وعلامات الرضى بادية على وجهه:

- الحمد لله هذا جيد، والآن ابدأ القراءة من بداية الفصل الثامن..

وشرع علاء بالقراءة بلهجة قوية ولغة سليمة..

وبعد أن أنهى قراءة ما يقارب الصفحة قال المعلم:

- هذا يكفي، رائع يا علاء، لغتك ممتازة وكأنك من أهلها ما شاء الله حفظك الله يا بني، والآن من يترجم هذا المقطع؟

شعر علاء بسعادة كبيرة لذلك الإطراء، وشجع نفسه يخاطبها:

- هذه بداية الطريق فقط ان شاء الله..

ثم انتبه بسرعة ليركز مع طلال الذي شرع بالترجمة:

- عندما رفض والد ماركينا السماح لها بالذهاب لمقابلة جوران، أدركت أنه لا يحبها، وعجبت لهذا الأب القاسي الذي يقف في طريق سعادة ابنته الوحيدة التي طالما فعلت المستحيل من أجل إدخال الفرحة إلى قلبه. فلم تتمالك نفسها وأسرعت إلى غرفتها تجهش بالبكاء، وأخيرا أدركت أن بكاءها لن يفيدها بشئ فأخذت تفكر بحيلة تمكنها من لقاء جوران، وذهبت لتستشير خادمتها الذكية بعد أن شرحت لها الموقف.. وبالفعل قررت ماركينا الهرب من النافذة والسير على

الحواف البارزة في الجدار حتى تصل إلى فروع غصن الشجرة العالية رغم خطورة ذلك، ومن بعيد شاهدت جوران يقف تحت الشجرة الكبيرة بانتظارها، فارتبكت كثيرا ولم تستطع السيطرة على نفسها فسقطت وكسرت رجلها، وعندما سمع والدها صرخة الألم التي أطلقتها، أسرع إليها وقد انسكبت الدموع من عينيه قائلا:

- سامحيني يا ابنتي فقد كنت أنانيا معك..

أنهى طلال ترجمته بتلك العبارة.

فقال المعلم:

- أحسنت، ترجمة ممتازة يا طلال ما شاء الله، وفقت في اختيار المترادفات المناسبة وصياغة الجمل بإتقان إلى حد كبير بارك الله فيك.. والآن من له تعليق على هذا المقطع، قبل أن نبدأ بتوضيح قواعد اللغة ومعاني الكلمات الجديدة التي مرت بنا؟

فاستأذن معاذ:

- هل من الممكن اضافة تعليق على الموضوع بلغتي العربية؟

فأومأ المعلم شاهر بإشارة من رأسه على عدم الموافقة قائلا:

- كما اتفقنا، الكلام داخل درس رامان بلغة رامان وحسب، وإلا كيف ستتعلمون المحادثة؟؟ حاول التحدث بلغة رامان ولا بأس من بعض الأخطاء..

التقط معاذ نفسا عميقا مشجعا نفسه، وبصعوبة صاغ فكرته بقوله:

- الآباء عادة يحرصون على مصلحة أبنائهم وإن بدا فيها بعض من القسوة أحيانا لذا كثيرا ما يظن الابناء أن هذا بسبب كره الآباء لهم فيتمردون وهم يظنونه حقاً لهم على ما يلاقونه من ظلم بحسب ظنهم ولكن لابد أن يأتي ذلك اليوم الذي يتأكد فيه الابن من حقيقة هذه المشاعر ويندم على ما بدر منه من تصرفات وما أجدره بمراجعة أخطائه والاعتذار قبل فوات الآوان..

فابتسم المعلم وهو يهز رأسه:

- أحسنت يا معاذ، تعليق مناسب وصياغة جيدة بتطور ملحوظ بارك الله فيك.. هل من تعليق آخر؟

فتكلم حسام بلغة سلسة سليمة وتميز واضح:

- أرغب في التركيز على النقطة الهامة التي طالما نبهتنا إليها يا معلمنا الفاضل فهذه الرواية تعكس صورة لمجتمع فسدت أخلاقه، لذا نرى الأب يعتذر في النهاية عن تصرف اعتبره سيئا، وقد حبك الكاتب القصة بحيث يشعر القارئ بهذا المعنى الفاسد بالإضافة إلى تعاطفه مع تصرفات ماركينا المشينة التي لا ترضاها الفطرة السليمة..

ابتسم المعلم بسعادة:

- بارك الله فيك يا حسام، أثلجت قلبي بهذا الكلام وإني لأرجو منكم جميعا أن تكونوا قد وعيتم جيدا ما أحاول تنبيهكم إليه دوما فهذه الروايات وأمثالها قد تؤثر كثيرا في القلوب خاصة تلك التي لم تتسلح بثقافة اسلامية جيدة تمكنها من تجاوز ذلك الخطر، والأفضل بطبيعة الحال الابتعاد عنها نهائيا مهما كان الانسان واثقا من نفسه فهو بلا شك غني عنها..

ثم تنهد:

- وللأسف فقد انتشرت هذه القصص في مناطقنا الاسلامية وعم فسادها في حين نفتقد إلى النقاد المخلصين الذين يدحضون مثل هذه الأفكار الهدامة، ولا نجد الكتاب البارزين الذين يتحفون مكتباتنا بقصص اسلامية هادفة تجلب الأنظار.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ورمق حسام بنظرة ذات معنى:

- ما رأيك أيها المقدام؟

ثم تناول اسطوانة جيرية بيضاء صغيرة، وبدأ بالكتابة على اللوح الاسود أمامه، قائلا:

- نتابع القاعدة الرابعة في الأفعال...

انتهى الدرس وأسرع ياسر وأصيل بلحاق المعلم شاهر لتقديم اعتذارهما عما بدر في البداية، في حين ارتفع صوت الاذان معلنا دخول وقت صلاة الظهر..

اتجه علاء برفقة اصدقائه نحو الجامع، وسار إلى جانب حسان يسأله عن مرتبة همام، وما هي إلا لحظات حتى لحق بهما ياسر وأصيل، فالتفت حسان نحو أصيل بلهفة:

- ماذا حدث؟؟

فأجابه أصيل وهو يرمق وجه ياسر الكئيب بنظرات ذات معنى:

- لا شيء جديد، اعتذرنا ووعدنا، وسمعنا ما سمعناه وانتهى الأمر، ومع ذلك ما زال الأخ ياسر أمامك زاما شفتيه، رغم أنني أنا من وُبخت بسببه!

فقال حسان:

- هيا يا ياسر، لا داعي لهذه الكآبة كلها!!

فتكلم ياسر أخيرا:

- أخشى أن يخبر أبي بما حدث!

فتساءل علاء:

- وهل والدك شديد إلى هذه الدرجة! وضح له ما حدث وسينتهي كل شيء!

حملق ياسر في عيني قليلا، ثم أرخاهما دون أن يقول شيئا، فقال أصيل نيابة عنه:

- أنت تعرف والده يا علاء، فما رأيك؟

فرد علاء وقد بدا عليه بعض الضيق:

- هل تمزح معي؟؟ من أين لي أن أعرفه!

فتدارك حسان بسرعة:

- يقصد المعلم نبراس، معلم علم الحساب..

عندها اتسعت عينا علاء بدهشة- وقد لاحت أمامه صورة المعلم الصارمة ، التركيز ولاشيء غير التركيز- فهتف:

- حقا! هل أنت ابن المعلم نبراس!!

فانفلتت ابتسامة مقتضبة من بين شفتي ياسر وهو يقول:

- هل فاجأك الخبر إلى هذه الدرجة! ألا أشبه أبي؟؟

فتدارك علاء موقفه بسرعة وقد انتبه فعلا لوجود بعض الشبه بينهما:

- لم أقصد ولكن الطباع تبدو مختلفة قليلا!

فلم يملك أصيل كتم ضحكة عالية وهو يقول:

- بل كثيرا جدا!!

عندها التفت إليهم طلال الذي كان يسير إلى جانب حسام أمامهم ويسبقهم بعدة خطوات:

- اخفضوا أصواتكم يا شباب، انتم في طريقكم إلى الجامع وقد اقتربنا منه!

فهمس أصيل إلى ياسر بحيث يسمعه علاء وحسان:

- تفاءل يا ياسر فلن يكون والدك أشد من طلال علينا..

وبصعوبة كتموا ضحكاتهم إثر ذلك التعليق، وهم يعبرون بوابة الجامع بعد أن وضعوا أحذيتهم في أماكنها المخصصة على الرفوف بالخارج، مرددين دعاء دخول الجامع:

"بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب رحمتك"

***

قُضيت الصلاة واتجه علاء برفقة حسان وأصيل وياسر باتجاه الإسطبل استعدادا لتدريب ركوب الخيل، وجدوا عدنان أمام المدخل وهو يعبئ صناديق الحشائش بعد أن عاد من الصلاة بسرعة كالعادة، فوقف علاء معه قليلا شادا على يديه- في حين دخل الآخرون لاصطحاب أحصنتهم- قائلا:

- أشعر وكأنني لم أرك منذ دهر!

فابتسم عدنان:

- لقد كنا معا البارحة فقط! يبدو أن صباحك كان حافلا!!

ثم تابع:

- عليك الذهاب إلى السيد نافع في البداية، ليقرر لك حصانا يرافقك أثناء التدريب، ومن ثم تعود به إلى هنا مع بقية رفاقك بعد التدريب..

فتساءل علاء مستفسرا:

- وأين أجده؟

فرد عدنان مشيرا بيده إلى الجهة اليمنى خلف إسطبله:

- في الإسطبل الكبير..

وفي تلك اللحظة تدخل حسان بقوله- وقد خرجوا لتوهم وهم يمسكون بزمام أحصنتهم:

- سنأتي معك إلى هناك يا علاء ومن ثم نذهب معا إلى ساحة التدريب.

***

راود علاء شعور غريب وهو يتناول خطام الفرس البنية (أصيلة) من السيد نافع ليسير بها مع رفاقه باتجاه الساحة الخلفية للمدرسة، محدثا نفسه:

- لقد بدأ الجد الآن! وود لو انه يمتطيها ويطير بها نحو شمس! لكنه سرعان ما صحا من أحلامه بمجرد وصوله مكان التدريب حيث أسرع طلاب المستوى الخامس من مرتبة همام بالتحلق حوله، وقد سبقه اسمه إليهم، بادره فتى طويل القامة بقوله:

- لنا شرف مقابلتك يا علاء ومن حسن المقادير أن نكون معك في المرتبة نفسها، ادعى ماهر كريم ويسرني..

وقبل أن يتابع كلامه اندفع أحدهم وبدا جريئا جدا بقوله:

- هل حقا أنت ابن القائد نور الدين، هيا حدثنا، أريد أن أعرف كل شيء عما يحدث هناك..

حاول علاء أن يبادله حماسه، لكنه بدا غير قادر على مجاراة الموقف أكثر، وهو يتنهد في سره:

- كم مرة علي إعادة القصة نفسها!! هل أصبحت حكواتي!

لكن فتى آخر تدخل بقوله:

- ألا تعرفه بنفسك أولا يا نضال!

ثم مد يده مصافحا علاء معرفا بنفسه:

- اسمي زياد وهذا صديقي نضال أعتذر نيابة عنه وأهلا وسهلا بك في مدرستنا يا علاء، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تعلن اجتماعا في المدرسة تحدث من خلاله الجميع بقصتك مرة واحدة بدلا من الإعادة في كل مرة..

عندها أطلق أصيل ضحكة ملأ فمه معلقا:

- كأنكم تثبتون له أن طلبة المدرسة بجميع مستوياتها على الشاكلة نفسها، اصبروا قليلا يا جماعة!

لم يمرر نضال تعليق أصيل بسهولة بل رد عليه بقوله:

- لا تتفلسف علينا يا أصيل، لا شك أنه رأى منكم العجب هذا الصباح، أفلا يوجد لنا نصيب!! على قول المثل: الفرسان على أشكالهم في المدرسة اجتمعوا!

فضحك أصيل معلقا:

- ومنذ متى كان هذا الكلام الركيك مثلا يا نبيه!!

فرد نضال:

- منذ هذه اللحظة!

وضحك الاثنان في حين لم يجد الآخرون ما يثير الضحك. وفي تلك اللحظة انتبه علاء لوجود ذلك الطالب ذو البشرة السمراء والعينين الخضراوين الذي التقاه في الممر أثناء سيره إلى جانب المشرف عاطف ليلة أمس، كما لفت نظره إمساكه بخطام حالك، ذلك الحصان الحساس الذي عانى معه قليلا في الإسطبل أثناء الاختبار! ولم يخف على علاء ملاحظة لكنة الفتى الغريبة وهو يقترب مسلما عليه ويحيه بقوله:

- أدعى قاسم رجب مرحبا بك يا علاء، لقد سبقك اسمك إلينا كما ترى، ويسعدنا أن نكون أصدقاء..

فشد علاء على يديه بحرارة:

- ويسعدني ذلك أيضا، لقد رأيتك البارحة في الممر وأنت خارج من المكتبة، كما لمحتك صباح اليوم أثناء الإفطار..

فأومأ قاسم برأسه:

- علمت أنك قد أقمت في غرفة طلال وحسام، فغرفتي تقابل غرفتكم..

فابتهج علاء بذلك:

- من الرائع أن أجد أحدا من مرتبة همام يقيم في المدرسة معنا، ربما أسألك عما فاتني في المرتبة إن لم يكن لديك مانع..

فابتسم قاسم رغم سحنته الجادة:

- بكل سرور..

ثم سأله:

- ألم تلتحق بمرتبة المبتدئين؟

فتولى حسان الإجابة نيابة عن علاء بقوله:

- لقد كان أداؤه رائعا جدا في الاختبار، ما شاء الله لدرجة أنهم سمحوا له بتجاوز تلك المرتبة، أليس كذلك يا علاء؟

آثر علاء الصمت، فلم يكن متأكدا من ذلك بالفعل، لكن قاسم أردف معلقا:

- هذا متوقع من ابن القائد نور الدين!

أقبل المدرب ثابت على صهوة جواده المهيب، بعمامته السوداء اللامعة، وبعد أن ألقى التحية مسلما على الجميع، أشار بيده اليمنى- متجاهلا وجود علاء معهم لأول مرة- وهو يصيح بصوت جهوري أجش:

- استعداد..

فامتطى الفتية ظهور جيادهم بسرعة لينتظموا في صفوف مرتبة خلفه، في حين بقي علاء واقفا إلى جانب فرسه، ولسان حاله يقول:

- وماذا عني أنا!!!

إذ لم يكن قد امتطى حصانا قط!

التفت ياسر إليه، فحاذاه وهو على صهوة جواده متأخرا عن البقية مشجعا:

- أصيلة فرس مسالمة ومدربة ولن تؤذيك..

وتبعه أصيل الذي انتبه لهما متدخلا بقوله:

- هيا يا علاء ضع رجلك في الركاب واقفز بسرعة..

لكن المدرب ثابت الذي افتقدهم بين الصفوف، صرخ بأعلى صوته مصرا على تجاهل علاء بينهم:

- أصيل، ياسر، ماذا لديكما هناك!

تبادل ياسر وأصيل نظرات ذات معنى دون أن يخفى على قسماتهما تعجبهما من موقف المدرب ثابت تجاه علاء، فقال أصيل:

- علاء نور الدين طالب جديد معنا، ويحتاج لمساعدة في امتطاء الفرس..

لكن ثابت قاطعه:

- وهل وكلك للتحدث نيابة عنه!! هيا أسرع ودعه يتصرف، فلن نتأخر في تدريباتنا من أجل طالب واحد فقط!

ورغم أن كلماته وقعت كالصاعقة على رأس علاء، - كما وقعت على ياسر وأصيل بل وجميع الطلبة الذين انقسموا إلى صفين على جانبي المسافة بين المدرب ثابت والمؤخرة حيث وقف علاء، إلا أنه حاول أن يتماسك محاولا قدر الاستطاعة تجاهل العيون المحدقة به بتساؤل وإشفاق، ولم يكتف المدرب ثابت بذلك القدر بل ألحقه بالمزيد من الصراخ إثر تلك النظرات المتسائلة المطلة من جميع العيون بلا استثناء وكأنه يرد عليها بقوله مخاطبا علاء:

- الثبات على ظهر الفرس من المسلمات في مرتبة همام، فاركب وراقب الطلبة أمامك، هيا بسرعة ولا تضيع وقتنا أكثر!

تمنى علاء لو يستطيع أن يقول شيئا إذن لقال:

- وما ذنبي أيها المدرب أن وضعوني في هذه المرتبة!! أنا لم أطلب منهم ذلك!

لكنه آثر الصمت ولم يجد بدا من التغلب على مخاوفه، وما إن وضع قدمه في الركاب كما أخبره أصيل وهو يمسك بالسرج حتى اهتزت الفرس قليلا فشعر علاء ببعض الارتباك، لكنه ثبت عليها ليجد قدميه معلقتين بالركاب، من جهة، في حين مال رأسه على الجهة الأخرى من الفرس وبطنه على ظهرها، ولم يكن

السقوط مع تهشم عظامه يخيفه بقدر الإحراج الذي سببه موقفه وهو يحادث نفسه وعيناه تحدقان في الأرض تحته:

- أما زالوا ينظرون إلي!!

فجاءه صوت المدرب ثابت مجيبا على تساؤله:

- أهكذا تُمتطى الجياد!! كان عليك أن تراقب رفاقك جيدا وهم يفعلون ذلك..

واقترب الصوت شيئا فشيئا من علاء في حين أعلنت خطوات وقع الحوافر عن وصول المدرب ثابت إلى جانبه، وما هي إلا لحظات حتى شعر بيد المدرب القوية تمسكه من ظهره وترفعه قائلا:

- ثبت قدمك اليسرى في الركاب فقط واقفز برجلك اليمنى إلى الجانب الآخر..

لم يدر علاء كيف استقر على ظهر الفرس بعدها، وحاول التركيز أكثر حتى لا يسمع المزيد من توبيخات المدرب الذي بدا مترصدا لأخطائه. حرك اللجام يمنة ويسرة كما فعل رفاقه والصراعات في رأسه تتزايد وهو يلاحظ اختلاس النظرات المشفقة أو المستطلعة إليه، فلم ينتبه إلى سرعة الفرس التي بدأت تتزايد أيضا وهي تتبع التعليمات، وفي أقل من لحظة أختل توازنه أمام حركة مفاجئة من الفرس رفعت فيها قوائمها الأمامية فأسقطته أرضا..

انتهى التدريب وابتعد علاء عن الجميع، بصعوبة تملص منهم وأفهمهم أنه يرغب بالسير وحده، حتى عدنان لم يستطع تكليمه، وهو يعيد الفرس أصيلة إلى الإسطبل، كان يريد أن يتناسى تلك اللحظات العصيبة لكنه لم يستطع أن ينساها، لا يدري لماذا شعر في تلك اللحظة أنها أقسى لحظات حياته! ربما لأنها خيبة أمل كبيرة جاءت على حين غرة بعد أن اطمأن إلى ركن دافئ في أحضان هذه المدرسة، لم يسبق وأن عامله أحد بهذه القسوة من قبل، أجل لقد بدا المدرب قاسيا جدا وهو ينظر إليه بجدة وهو ملقى على الأرض، لا يستطيع الحراك من أثر السقطة، صحيح

أن الأرض لم تكن صلبة، لكنه تألم كثيرا وكثيرا جدا.. كان كلام المدرب مازال يتردد في أذنه وهو يلقي باللوم كله عليه:

"عليك أن تكون أكثر اتقانا لامتطاء صهوة فرسك ما دمت هماما!!"

أغلق أذنيه بكفيه وهو يحاول النسيان، لم يكن يريد سماع كلمات المواساة من أحد، قاسم رجب وحده وقف بعيدا يرقبه من كثب وذهب دون أن يقول كلمة واحدة، ربما كان هذا هو الأفضل! لا يدري لماذا شعر بالامتعاض مما سمعه من نضال رغم ثقته بحسن نيته وهو يقول له: " أنت ابن القائد نور الدين وستثبت للمدرب جدارتك قريبا بإذن الله!!" ألأنه ابن القائد نور الدين فقط وضعوه في مرتبة ليس أهلا لها!!

سار مختفيا عن الجميع قدر الاستطاعة، حتى وجد نفسه يقترب مجددا من الأرض الممهدة، حيث تدريب ركوب الخيل.. فوقف من بعيد يراقب طلبة المبتدئين بقلانسهم البيضاء، وقد ثبتوا على ظهور جيادهم وبدؤا السير بثبات في صف منتظم دائري، واستطاع علاء من مكانه سماع صوت المدرب ثابت الجهوري الذي توسطهم وهو يلقي التعليمات من فوق صهوة جواده، بدا مختلفا كثيرا عما شاهده عليه علاء أثناء التدريب، لا سيما وهو يتجه صوب ذلك الطالب الذي وقف خارج الدائرة يراقب الجميع، اقترب المدرب ثابت منه وهُيئ لعلاء من لسان حاله أنه يخاطبه بقوله:

- راقب الطلاب جيدا وهم يتدربون..

قبل أن يلتفت إلى طالب آخر مناديا:

- هيا يا صهيب، أرنا عرضا سريعا فيما تعلمته من مهارة ركوب الخيل..

شد صهيب لجام حصانه وانطلق به في حركات رشيقة رائعة، مُظهرا سيطرته الكاملة عليه، فأثار إعجاب علاء بشكل خاص والذي يشاهد مثل هذا العرض لأول مرة.. فتابعه باهتمام شديد.. وهو يحلم بان يصبح مثله، محدثا نفسه بحسرة:

- حتى طلبة مرتبة المبتدئين يتقنون الركوب!!

ثم تبع صهيب البقية الواحد إثر الآخر بناءا على توجيهات المدرب ثابت وعلاء يتابعهم بصمت.. وأخيرا سمع المدرب ثابت يخاطب ذلك الطالب:

- والآن حان دورك يا طارق فاستعد..

ارتجف طارق بداية، رغم روح الحماسة التي تغمر وجهه، فهو كما يبدو لعلاء لم يمتطِ جوادا قط..

فشجعه المدرب:

- ستسير الأمور بأسهل مما تتوقع، سأساعدك هذه المرة فقط في امتطاء جوادك على أن تعتاد ذلك في المرات القادمة إن شاء الله، اركب باسم الله..

وأخيرا استوى طارق على ظهر الحصان وبدأ المدرب يقوده من الخطام، بعد أن أمسك طارق باللجام، مثبتا قدميه بالسرج، ثم أخذ الحصان يعدو شيئا فشيئا..

استلقى علاء على العشب الأخضر في واجهة المدرسة، في مكان وثق أن لا يراه فيه أحد ريثما تنتهي فترة الاستراحة القصيرة قبل تدريب الرماية، وتراءت له مدينته تتوارى خلف السحب وهو يحث الخطا مسرعا إليها على صهوة جواده محلقا في الأجواء، وترقرقت دمعة في عينيه وهو يناجي ربه:

- يا الله أعني كي أعوض ما فاتني من دروس وتدريبات فأنت وحدك تعلم أنني لم أفرط يوما في واجبي..

وبينما هو يتابع حركات الغيوم.. تناهى إلى أذنه صوت أصيل:

- ماذا تفعل هنا يا علاء، لقد بحثنا عنك طويلا ؟

هب علاء واقفا وقد أعاده صوت أصيل إلى واقعه وهو يقول:

- لقد حضر المدرب سعد، واستأذنت منه لإخبارك..

بدا ترحيب المدرب سعد بعلاء لطيفا رغم نظرة التأنيب التي ألقاها في عينيه:

- سأعفو عنك اليوم فقط، وإياك أن تكررها ثانية، فالدقة في المواعيد من أهم واجبات المسلم الأساسية..

أطرق علاء برأسه معتذرا، وقد شعر ببعض الارتياح تجاه المدرب سعد، مقارنة بما رآه من المدرب ثابت!

ولم ينس المدرب سعد أن يُسمع أصيل بعض الكلمات المؤنبة:

- وأنت يكفيك إقحاما لنفسك في شؤون الجميع، لقد سمحت لك باستدعاء علاء هذه المرة فقط، فعلى كل واحد منكم أن يتحمل مسؤولياته بنفسه..

وأردف قائلا:

- والرماية بوجه خاص، هامة جدا..

قالها وهو يوجه حديثه للجميع ثم تلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قوله: (ألا إن القوة الرمي)..

والتقط نفسا قبل أن يقول:

- استعداد، على بركة الله..

ثم التفت إلى علاء بقوله:

- عليك أن تراقبهم جيدا، فالرماية في المدى المتوسط لا تختلف كثيرا عن المدى القريب الذي يتعلمه المبتدئون الآن..

ورغم أن تلك الكلمات كانت أشبه ما تكون بوخزات إبر تتناغم مع لائمات المدرب ثابت التي ما شفي من ألمها بعد، إلا أن علاء تقبل ذلك بصدر رحب إلى حد ما، ربما لأنه بات يتوقع الأسوأ!

أخذ الطلاب مواقعهم، وهم يشدون أوتار أقواسهم، بعد تثبيت سهامهم المصوبة على أهداف أمامهم..

وما هي إلا لحظات، حتى صاح المدرب:

- إطلاق، باسم الله..

التقط علاء أنفاسه، وانطلق سهم نضال في مقدمة السهام؛ ليصيب الهدف من منتصفه بدقة متناهية، في حين ازداد عجب علاء- الذي بدا له الأمر سهلا- من إخفاق الآخرين في دقة الإصابة. وبعد عدة جولات أخرى حصل فيها نضال على أعلى النقاط.. التفت المدرب سعد إلى علاء قائلا:

- والآن جاء دورك..

كان علاء قد أعد نفسه لهذه اللحظة، فلم يكن ينقصه المزيد من اللوم والتأنيب، فحرص على مراقبة كل طالب بدقة مع الاستفادة من توجيهات المدرب، دون أن يفوت فرصة واحدة للاستفادة، وأمام دهشة الجميع استطاع علاء الإمساك بالقوس بمهارة فائقة، ثم ثبت سهمه بإتقان شديد وهو يشد الوتر، أظهرت مدى حسن ملاحظته وتركيزه في مراقبته للمتدربين، وبعد تصويب دقيق أطلق سهمه ليستقر بعيدا عن الهدف بمسافة أصابت علاء بدهشة شديدة، فلم يملك أن قال:

- ولكنني متأكد من أنني صوّبتُ بدقة!!

فقال المدرب الذي لم يستطع إخفاء إعجابه بما رآه من علاء في أولى محاولاته:

- ليس الأمر بهذه السهولة التي تتصورها يا بني، لكنها محاولة جيدة وبداية موفقة فأنت لم تبعد كثيرا.. وعليك أن تستفيد من مهارة نضال فهو ثاني أمهر رام في المدرسة ما شاء الله..

لم يصدق علاء أذنيه، هل حاز على رضا المدرب حقا!! ولم يستطع أحد أن يتخيل بما فيهم علاء نفسه، كم رفعت تلك الكلمات من روحه المعنوية، حتى بعد أن انتهى التدريب، أصر أن لا يبرح مكانه حتى يصيب هدفه، فأذن له المدرب سعد بالاحتفاظ بالأدوات على أن يعيدها قبل أذان العصر، وقف نضال إلى جانبه مشجعا:

- لن أيأس أنا أيضا وسأظل إلى جانبك لعلي أحظى بأول سهم صائب تطلقه باذن الله.

فابتسم علاء:

- أرجو أن لا تشعر بالملل..

و بعد محاولات عديدة وبينما هو يحاول جاهدا إصابة هدفه ولو من طرفه، اقترب منه المدرب سعد الذي كان يراقبه بصمت عن كثب، ليفاجأ علاء بقوله:

- أحسنت، بارك الله فيك يا بني، عليك أن ترتاح الآن وإلا آلمتك عضلات ذراعيك، وفي جميع الأحوال سيحين أذان العصر بعد قليل..

سر علاء كثيرا بما سمعه وشعر بامتنان لا حدود له نحو المدرب سعد، بعد أن استعاد روح الحماسة في نفسه، فناوله القوس والسهام شاكرا:

- جزاك الله خيرا يا مدربي وأعدك أن لا ترى مني إلا ما يسرك..

ومضى المدرب سعد وقلبه يدعو لهذا الهمام الذي حاز على إعجابه بهمته وإصراره وهو يحدث نفسه:

- معك حق أيها المدير.. إنه همام بجدارة..

صافح حسان وأصيل علاء بقوة قبل أن يعودا إلى منزلهما، وقال حسان:

- هيا ابتهج يا علاء هذه بتلك..

وعلق أصيل مازحا:

- لقد أنستني هذه النهاية السعيدة ما نلته بسببك من المدرب وأنا أبحث عنك..

وتابع باسما:

- إلى اللقاء نراك غدا إن شاء الله..

أما نضال الذي سر كثيرا بثناء المدرب على علاء، فقد قال:

- والآن ألن تحدثني عن المروج الخضراء؟

ورغم أن علاء لم يكن بمزاج يسمح له بالتحدث عن ذلك، إلا أنه وجد نفسه مدينا لنضال بوقوفه إلى جانبه، لكن تدخل زياد الذي أقبل عليهما في تلك اللحظة، أنقذه من الموقف كله، فما إن وقعت عينا زياد على نضال حتى هتف:

- أما زلت هنا؟؟؟ ستنطلق العربة الآن إلى وسط المدينة، ولست مستعدا لقطع المسافة مشيا على الأقدام إلى موقف الإركاب التالي في آخر الطريق..

ثم التفت إلى علاء باسما:

- لا شك أنني أنقذتك من إزعاجه..

قالها وأمسك نضال من ذراعه:

- هيا بنا..

في حين التفت نضال إلى علاء ملوحا بيده:

- إلى اللقاء يا علاء، ستحدثني فيما بعد إن شاء الله..

فابتسم علاء مرددا:

- إن شاء الله..

ووجد نفسه وحده مع ياسر الذي بدا أكثر تأثرا مما حدث لعلاء مع المدرب ثابت من علاء نفسه، وهو يقول له بنبرة لا تخلو من ألم وحزن:

- أنا متأكد من أن المدرب ثابت لم يقصد ما فعله اليوم، فهو طيب جدا، صدقني يا علاء وإن كنت لا أجد تفسيرا لما حدث!

وبدا لعلاء أن عليه مواساة ياسر وهو يلاحظ دمعات تترقرق في عينيه أيضا، فربت على كتفه:

- لا عليك يا صديقي، فلم يعد يهمني الأمر..

ولاذ علاء بالصمت وهو يفكر بموضوع آخر أكثر أهمية بالنسبة له، فكل ما حدث معه اليوم لم ينسِه فكرته التي ما زالت تلح عليه، ورغم حيرته في طريقة عرضها أمام ياسر، إلا أنه وجد نفسه أخيرا يقول بدون مقدمات:

- وديع من الحمام الزاجل المعروف بنقل الرسائل، أليس كذلك؟

أومأ ياسر برأسه إيجابا وقبل أن يتفوه بكلمة أخرى تذكر الرسالة التي سلمها له وديع، فدس يده في جيبه وأخرج الرسالة بسرعة في لهفة لمعرفة محتواها، وقبل أن يقرأها انتبه إلى نفسه فالتفت إلى علاء معتذرا:

- أرجو المعذرة فلم تكمل كلامك، كنتَ تقول شيئا؟؟

فابتسم علاء وقد وجدها فرصة مواتية لما كان يرغب بالحديث عنه:

- لا بأس ، اقرأ الرسالة أولا يا ياسر..

وبعد أن أنهى ياسر قراءتها بسرعة، قال:

- إنها دعوة للمشاركة في سباق الحمام الزاجل التي ستقام الشهر المقبل على مستوى المنطقة..

لكن علاء تساءل بتعجب:

- ومن الذي أرسل هذه الرسالة؟

فأجابه ياسر:

- إنها من (منظمة الحمام الزاجل في المنطقة)، فبعد أن اشتركت بوديع بإحدى المسابقات تم إعطاؤه رقما مسجلا بملكيتي له، حيث تم تدريبه ليتردد عليها وبهذه الطريقة تصلني رسائلهم..

هتف علاء:

- ما شاء الله، هذا رائع، بل مدهش جدا، لم أكن أعرف أن وديع بطل سباق!

لكن ياسر رد بخجل:

- ليس إلى هذه الدرجة، فهو لم يكسب المرتبة الأولى في سباقاته حتى الآن!

إلا أن علاء بث في نفسه روح الأمل:

- سيحصل عليها بإذن الله، إنني واثق..

سر ياسر بما سمعه، فقال:

- أرجو ذلك، فوديع ذكي جدا ويتعلم بسرعة ما شاء الله..

وخفق قلب علاء بشدة فقد حانت اللحظة الحاسمة لعرض طلبه، فقال بدون تردد:

- هل يستطيع وديع إيصال رسالة للمروج الخضراء؟

فوجئ ياسر بهذا السؤال، لكنه فهم قصد علاء أخيرا:

- تريد إرسال رسالة لوالديك، أليس كذلك؟

أومأ علاء برأسه وبريق الأمل يشع من عينيه الصافيتين، فلم يشأ ياسر أن يطفئه بالحقيقة التي يعرفها، غير أنه لم يجد بدا من إيضاح الصورة الواقعية بقوله:

- أتمنى لو كان بإمكانه ذلك، ولكنني أصدقك القول بأنني لا أعرف تماما ما إذا كانت خريطة وديع تسمح له بالتعرف على شخص لا يعرفه في الأماكن البعيدة!

وقبل أن تلوح خيبة الأمل بوضوح على وجه علاء؛ أسرع ياسر يتابع كلامه بعزم:

- أعدك أنني سأجد وسيلة لتحقيق ذلك بإذن الله..

ثم ابتسم قبل أن يتابع:

- لو كان حسام معنا لقال لك، تفاءل يا صديقي! حتى الحصان يمكنه الطيران على منهجه المتفائل!

فابتسم علاء تفاؤلا:

- جزاك الله خيرا يا صديقي..

***

دلف علاء إلى غرفته بعد صلاة العشاء دون أن يبادل طلال وحسام سوى بضع كلمات قليلة، ولم يحاولا اختراق حاجز الصمت الذي لف نفسه به نزولا عند رغبته، رغم قلقهما عليه. بدل ملابسه ونفض فراشه وقرأ أذكاره، ثم أغمض عينيه:

– أمي.. أبي.. لقد كان يوما طويلا حافلا بالأحداث، تعلمت فيه الكثير من الدروس وتعرفت الكثير من الأصدقاء، حتى اختلطت أسماؤهم في رأسي، غير أن مشاعر الأخوة الصادقة قد استحكمت في قلبي.. أتمنى أن أكتب لكم قريبا وأطمأن عليكم، يا رب يسر لي ذلك كله..

وغط علاء في نوم عميق بسرعة، ليرى والديه كما تمنى، فكم كانت روحه بحاجة ماسة لتحلق بلا حدود...

***

الفصل الرابع
الأوروج

استهل المعلم أمين كلامه بابتسامة عريضة تدل على الرضا وهو يحدث طلبة المستوى السادس بقوله:

- لقد تحققت (المبادرة) بشكل رائع في تصرفاتكم خلال الشهر المنصرم- ما شاء الله- وهذا بشهادة جميع الأساتذة والمدربين الذين اطلعوا على تقاريركم وقارنوها بتصرفاتكم بارك الله فيكم، وسنبدأ اليوم بخلق جديد إن شاء الله..

والتقط نفسا قبل أن يتابع وهو ينقل بصره بين الطلبة وقد سره رؤية أثر كلماته على وجوههم:

- الخلق الذي سنتحدث عنه هذه المرة خلق عظيم جدا، من تحلى به نال مراده وتحققت أحلامه وصب عليه الأجر صبا..

تحفز الطلبة بمن فيهم علاء، الذي بدأ ينسجم معهم في الدرس، لمعرفة كنه هذا الخلق، لكن المعلم أمين هز رأسه بأسى وهو يتابع:

- لكن للأسف من النادر جدا أن نجد من يتحلى به..

ثم استدرك وهو يتجول في القاعة:

- بالطبع قد نجد من يتحلى بقسم واحد منه، وقد نجد من يتحلى بقسمين، لكن أن نجد من يتحلى بأقسامه كلها فهذا هو النادر..

واسترسل أمين في كلامه، مثيرا فضول الطلبة، دون أن يبوح بسر هذا الخلق العظيم.

***

لا يدري علاء كيف استطاع التسلل من وسط زملائه بعد انتهاء الدروس الصباحية، ولكنه نجح أخيرا في الذهاب إلى المكتبة دون أن يلحظه أحد، إذ لم يكن يرغب بالحديث مع كائنٍ من كان دون أن يدري السبب الحقيقي لذلك..

التقط نفسا عميقا، بعد أن ألقى السلام على قيم المكتبة الأستاذ نوح، وسأله عن القسم الذي جاء من أجله، شعر علاء بالارتياح الشديد فالمكان هادئ جدا وهذا ما ينشده الآن..

قلب بصره مليا بين الأرفف حتى استقر أخيرا على كتاب تناوله محدثا نفسه:

- أرجو أن أجد فيه ما يفيدني، فلم يبق إلا القليل على موعد المطاعنة بالرماح وسأحرص أن لا يتكرر معي ما حدث مع المعلم ثابت أمس..

وشعر بغصة في حلقه وكأنه يحدث نفسه بصوت مسموع، إذ كان يحرص ألا يعلم أحد بمدى الألم الذي يشعر به جراء ذلك.

تركزت عيناه على إحدى الصفحات التي تحوي رسوما توضيحية وقرأ بتمعن:

"إن من التحرك بالرمح في الحرب: المواجهة، وهي أن تحمل على مبارزك وقد أخذت الرمح تحت إبطك وجعلته بين أذني فرسك، وتقصده مستويا حتى تقترب منه، فإن رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة ، وإن طرحه يسرة فاطرح رمحك عنه واجتهد بأن تبدأ بالحمل عليه كي تدهشه فلا يدري من أين تجيئه.."

لم يدر علاء كم مر عليه من الوقت وهو مستغرق في قراءة الكتاب حتى انتبه على يد خفيفة تربت على كتفه برفق وصوت هامس يلقي عليه التحية، فالتفت نحوه بعد أن أغلق الكتاب بسرعة:

- وعليكم السلام، حسام ما الذي جاء بك؟

فوجئ حسام بذاك الرد، لكنه ابتسم قائلا:

- لم أكن أعلم أن وجودي يزعجك يا صديقي، أرجو المعذرة..

شعر علاء بالحرج من نفسه فأسرع يعتذر قائلا:

- سامحني لم أقصد ذلك!

فرد حسام مطمئنا:

- لا عليك يا صديقي كنت أمزح معك..

ثم تابع دون أن يسأل علاء عن سبب مجيئه للمكتبة وهو يحاول أن لا يظهر لعلاء قلقهم عليه بعد أن فهم ما يدور بذهنه:

- سيحين أذان الظهر بعد قليل فهل سترافقنا إلى الجامع؟

وقبل أن يجيبه علاء بشيء سمعا همهمة أشبه ما تكون بصوت مختنق خلف أحد الرفوف في المكتبة، فتوجها بسرعة نحو مصدر الصوت، ليجدا قاسم جالسا على أحد الكراسي، وقد وضع رأسه غافيا فوق الطاولة أمامه، وقربه كتاب مفتوح وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة وقد بدا تحت تأثير حلم مزعج..

ربت حسام على رأسه بهدوء مسميا بالله:

- السلام عليكم، استيقظ يا قاسم، لا بأس عليك..

حتى رفع قاسم رأسه أخيرا وهو يتصبب عرقا وحملق فيهما بذهول قبل أن يقول وقد تنفس الصعداء:

- الحمد لله كان مجرد حلم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

وتفل على يساره ثلاثا ثم نهض قائلا:

- جزاكم الله خيرا..

وهم بالخروج بعد أن أعاد الكتاب إلى مكانه، لكن حسام استوقفه بقوله:

- لحظة يا قاسم!

فالتفت إليه قاسم مستفهما:

- ماذا هناك؟

فأجابه حسام بحزم:

- هل هناك ما يزعجك هذه الأيام يا قاسم؟ لقد تغيرت في الفترة الأخيرة ولم تعد تشاركنا همومك؟

فاصطنع قاسم ابتسامة وهو يقول:

- جزاكم الله خيرا لاهتمامكم، اطمئن فلا شيء يثير القلق، عن إذنكما..

ثم أسرع خارجا..

أما علاء الذي راقب الموقف بصمت فقد شعر بإحساس غريب بأن قاسم يقاسمه هما مشتركا وإن لم يعرف كنهه بعد، فسأل حسام:

- منذ متى تعرفون قاسم؟ انه يبدو شخصا غامضا جدا، أليس كذلك؟

ورغم قلق حسام على قاسم إلا أنه سر بأن وجد فرصة للحديث مع علاء وإخراجه من عزلته التي يحاول وضع نفسه فيها، فقال:

- لم يكن كذلك في البداية، فقد التحق بالمدرسة السنة الماضية بعد أن قدم من بلاد الاوروجال التي غادرها للمرة الأولى، وقد اضطر لأخذ دروس إضافية حتى يتقن لغة العرب بعد أن واجهته صعوبات كثيرة فيها حتى التحق أخيرا بالمستوى الذي يصغرنا بعام، رغم أنه يكبرنا بعامين إلا أن ذلك كله لم يؤثر فيه بل كان يشاركنا الحديث في مختلف المواضيع وهذا ما ساعده لتحسين لغته العربية بسرعة، وقد كنا سعيدين بأحاديثه لا سيما وأنها فرصة نادرة للاطلاع على ثقافات شعوب جديدة..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- أما الآن فقد تغير وأصبح يميل إلى العزلة أكثر،صحيح انه لم يتح لي الاختلاط معه بشكل كبير من قبل فهو في مستوى آخر ولم يحدث أن اجتمعنا في المرتبة نفسها، فعندما ترقى إلى مرتبة همام كنت قد ترقيت إلى مقدام ولكن ذلك لم يمنعنا من قضاء بعض الأوقات الجميلة؛ لا سيما وأنه يجاورنا في الغرفة المقابلة لنا..

ثم نظر إلى علاء مبتسما:

- ربما تتعرف إليه بشكل أفضل فهو معك في مرتبة همام..

لكن علاء سأله وقد بدا قاسم قد استحوذ على تفكيره:

- ألا يوجد لديه أقرباء هنا؟

فكر حسام قليلا قبل أن يجيب:

- لا أدري ولكن على الأغلب أن لديه بعض المعارف من بلاده، فقد كان يبيت عندهم أحيانا خاصة في الأعياد والإجازات..

بدا علاء مهتما لأمره جدا وهو يقول مفكرا:

- أظن أنه يشعر بـ....

ولم يكمل كلامه فقد أقبل عليهما القيم نوح في تلك اللحظة قائلا:

- أما زلتما هنا؟؟ لقد ارتفع أذان الظهر وكنت على وشك إغلاق المكتبة!

فهتف حسام:

- حقا! لم انتبه لهذا!!!

تابع القيم نوح تفقده لأرجاء المكتبة قبل إغلاقها وهم حسام بالخروج لكن علاء استوقفه مشيرا إلى أحد الكتب:

- أليس هذا هو الكتاب الذي كان مع قاسم؟

دقق حسام النظر حيث أشار علاء وقرأ بصوت مرتفع:

- "السنين الغابرة و الممالك العابرة"..

ثم قال:

- ربما، لم انتبه للكتاب الذي كان بيده لكنه معروف باهتمامه الشديد بالحوادث والأيام..

عندها قال علاء:

- كأنه يبحث عن شيء ما.. حقيقة ما.. أشغلته عمن حوله حتى صارت أكبر همه!!

حملق حسام بدهشة وإعجاب بذلك الاستنتاج هاتفا:

- يبدو هذا مؤكدا! كيف لم يخطر ببالي هذا التفكير من قبل!!أنت رائع يا علاء ما شاء الله..

لكن صوت السيد نوح الحازم الذي جاء مؤنبا:

- أما زلتما هنا!!!!!!!!!!!!!

نبه حسام على ضرورة تأجيل انفعاله بهذا الاكتشاف إلى وقت آخر فخرجا مسرعين..

***

نجح علاء بنيل إعجاب المدرب علي وهو يرى إلمامه الجيد بطريقة المطاعنة بالرماح لكن القراءة شيء، والتطبيق شيء آخر! فلم يفلح علاء بإصابة أي هدف طوال فترة التدريب وقد كان ذلك شيئا طبيعيا لمن يمسك الرمح للمرة الأولى ولكن علاء لم يقنعه ذلك أبدا فقد كان يتوقع من نفسه أكثر! حتى أن عبارات الإعجاب التي أمطره بها نضال لم تلق لديه سوى أرضٍ صلبة، لا تنبت فرحا، ولم تزهر رضا عن نفسه أبدا، وكأنه ما سمع شيئا!

انتهى التدريب و قال ياسر مخاطبا رفاقه :

- هل أنتم مستعدون للمسابقة.. ألن تذهبوا إلى المسبح اليوم؟

فتدخل نضال الذي كان يود أن يبقى فترة أطول للحديث مع علاء:

- ولكن لا يوجد لديكم اليوم درس سباحة!

فرمقه أصيل بنظرات مستفزة:

- وما دخلك أنت يا ولد؟ من لطف الله بنا أننا لا نأخذ دروس تقويم الأبدان معك!

لكن نضال رد عليه بأسلوبه نفسه:

- شعور متبادل يا عزيزي ولكن لعلاء رأي مختلف بلا شك..

قال جملته الأخيرة وهو يغمز لعلاء بعينه كي يوافقه الرأي، فابتسم علاء دون أن يقول شيئا فقد كان هذا الجدل آخر اهتماماته. فقال أصيل متظاهرا بالحكمة وقد وجدها فرصة مواتية:

- هل تظن أن علاء سيجرح مشاعر ولد مثلك؟؟ على كل حال لا ننكر أن صحبتك ظريفة نفتقدها أحيانا!

فهتف نضال بمرح:

- قلتها أخيرا! لا أصدق أذني، اسمعوا يا شباب أصيل يفتقدني!

فزفر أصيل قائلا:

- قلت أحيانا، لا تبالغ كثيرا، المهم لقد تأخرنا عن المسبح وهذا بسببك!

وكالعادة لم يفضّ ذلك الجدل إلا بتدخل خارجي، عندما قال زياد:

- من الأفضل أن نعود مبكرين للبيت هذا اليوم!

فابتسم نضال:

- فكرة ذكية لإنهاء الكلام..

ثم نظر نحو أصيل مازحا:

- أرجو أن لا يؤثر ذهابي عليك كثيرا يا صديقي، حاول التركيز من دوني، نراكم على خير..

لم يحتمل أصيل تلك الجملة المستفزة لكنه هضمها أخيرا بقوله:

- وأنت كذلك يا صغيري، اعتن بنفسك جيدا!

وأخيرا قال حسان:

- ألن تذهب إلى المسبح يا أصيل؟

- بلى، فلا أظن أنني تدربت بما فيه الكفاية وعلينا الاستعداد..

ثم التفت إلى علاء قائلا:

- ما رأيك يا علاء أن ترافقنا إلى المسبح فأنت لم تره جيدا حتى الآن..

أومأ علاء برأسه موافقا:

- فكرة جيدة..

ثم تساءل:

- عن أي استعداد تتحدثون؟

أجاب حسان:

- مسابقة السباحة بعد يومين إن شاء الله، وقد أخبرنا المدرب عادل بأنه سيختبر من خلالها مستوى أدائنا ومهاراتنا في السباحة..

حدث علاء نفسه قائلا:

- قد تكون هذه فرصتي، فلو تدربت اليوم قليلا أفضل لي من أن أذهب هكذا غدا أمام المدرب عادل للمرة الأولى!

سار علاء مع حسان وأصيل وياسر باتجاه المسبح الضخم الذي يقبع في الجانب المعد خصيصا لدروس تقويم الأبدان، حيث أعدت كل الوسائل اللازمة لذلك بما فيها الأرض الممهدة للثلاثية؛ أشهر الألعاب على مستوى العالم بأسره.

فوجئ الأربعة برؤية حسام وطلال وقد سبقوهم بملابس السباحة داخل الماء وما إن لمحهم حسام حتى لوح لهم بمرح:

- لقد تأخرتم كثيرا يا شباب، يفترض أن تدريبكم قد انتهى منذ مدة!

تبادل الأربعة نظرات مستفهمة قبل أن يقول أصيل:

- وهل كنتم تنتظرون قدومنا؟ لا أذكر أننا تواعدنا على ذلك من قبل!

فرد حسام :

- هذه هي الفراسة يا أخي!

لكن طلال قال باسما:

- لم يبق سوى يومين على المسابقة ومن البديهي أن يأت الجميع للتدريب.

وبسرعة دخل أصيل وحسان الغرف الصغيرة المبنية على جانب المسبح ليبدلا ملابسهما، في حين التفت ياسر إلى علاء قبل أن يبدل ملابسه بدوره قائلا:

- لقد راسلت منظمة الحمام الزاجل أمس لأسألهم عن إمكانية تدريب وديع على إيصال الرسائل، وما زلت انتظر منهم ردا..

وابتسم قبل أن يتابع:

- أحببت أن أخبرك فقط بأنني لا زلت مهتما بالموضوع..

تهلل وجه علاء بشرا وشد على يدي ياسر بابتهاج:

- جزاك الله خيرا يا ياسر لن أنسى لك هذا الجميل أبدا..

وفي تلك اللحظة اقترب منهما حسام بعد أن خرج من المسبح وهو يقطر ماءً:

- هل أعجبك المسبح يا علاء؟

فابتسم علاء في حين ذهب ياسر لتبديل ملابسه:

- بالتأكيد، وإنني لأتساءل هل السباحة صعبة؟

فجاءه صوت طلال من حافة المسبح قربهما:

- ليست صعبة إذا توفرت لديك العزيمة والرغبة و المدرب الماهر، ومدربنا عادل بفضل الله لا تنقصه المهارة أبدا..

فتابع حسام :

- كل ما تحتاجه الصبر والمثابرة ومتابعة تعليمات المدرب مع التوكل على الله..

وابتسم مشجعا قبل أن يقول:

- راقبني جيدا..

ثم انتصب واقفا رافعا ذراعيه ملوحا بهما في الهواء و هو يأخذ نفسا عميقا:

- هكذا..

ومن ثم فرد ذراعيه على استقامتهما قبل أن يقفز باتجاه الماء أمام انبهار علاء الذي شعر برغبة شديدة في تقليده، خاصة وأن رفاقه يتدربون بمرح داخل الماء. كان علاء يراقب حركاتهم بدقة وشرود حتى انه لم ينتبه لصوت حسام الذي ناداه إلا بعد عدة مرات:

- كن حكما يا علاء، واحكم من الفائز فسنجري سباقا تجريبيا الآن وعليك أن تعلن شارة الانطلاق..

فتنهد علاء في سره:

- مسكين يا حسام كم تتعب نفسك وأنت تحاول أن تشركني معكم بأي طريقة كانت..

لكنه أجابه بصوت جهوري:

- حسنا إذن، استعدوا.. واحد.. اثنان... ثلاثة، انطلاق!

وانطلق المتسابقون بأقصى طاقاتهم مبتعدين عن علاء نحو نهاية المسبح، في حين استحكمت تلك الفكرة في رأس علاء، فالسباحة تبدو أسهل من غيرها ومن الأفضل أن يجربها الآن، فلا أحد سيرى محاولاته الأولى مهما كانت سخيفة! وما هي إلا لحظات حتى حدث ما لم يكن بالحسبان..

لم يدرك علاء خطورة ما أقبل عليه إلا بعد أن فتح عينيه ليجد نفسه محاطا بعيون رفاقه القلقة، ويسمع أصواتهم المستبشرة:

- الحمد لله لقد استيقظ.. هل أنت بخير يا علاء..

تلفت علاء حوله بذهول:

- حسام.. طلال.. ياسر.. حسان.. أصيل.. معاذ.. ماذا حدث!!!!

فبادره طلال بقوله:

- الحمد لله على سلامتك يا علاء، لولا لطف الله بك بأن سخر وصول معاذ في اللحظة المناسبة لكنت الآن في عداد الغرقى!

وأردف حسام بندم:

- سامحني يا علاء ربما كنت السبب فيما حدث لك فلم أكن أقصد أن أدفعك إلى تجريب السباحة بنفسك، لا بد من وجود مدرب معك في البداية..

دارت الدنيا بعلاء وقد تذكر ما حدث.. كان حريصا أن لا يرى أحد أولى محاولاته فإذا به يجمع الجميع حوله بفعلته!! صدق المثل القائل:

الجاهل عدو نفسه!!

***

دخل حسام قاعة الدراسة ليجد طلال فيها كالعادة منهمكا في الدراسة، فقاطعه قائلا:

- اسمعني يا طلال، إنني قلق على علاء، أخشى أن يصيبه الإحباط إذا بقي على حالته هذه، حاول أن تفعل شيئا من أجله! لقد وضحت له أهم النقاط الرئيسة في الدروس التي فاتته في علم الطبيعة والفلك أما في باقي العلوم فأنت ما شاء الله متمكن أكثر مني فيها وبإمكانك مساعدته بشكل أفضل بإذن الله..

فأجابه طلال وقد اتسعت عيناه دهشة:

- وماذا بوسعي أن أفعل! لقد سألته إن كان بحاجة إلى أي مساعدة في الدروس وأجابني بأنه سيسألني إن احتاج إلى شيء، ما الذي تريد مني أن أفعله أكثر؟؟

فرد حسام بنوع من الحدة:

- الجميع يعلم أنك لا تبخل على أحد بالمساعدة، ولكن هل تظن أن أحدا يجرؤ على الاقتراب منك، وأنت منغمس في كتبك هكذا؟ وكأنك تعلق على ظهرك لائحة الخطر" ممنوع الاقتراب!!!!!!"

كاد طلال أن يطلق ضحكة خفيفة لذلك التعليق لكنه بدلا من ذلك قال:

- ما رأيك أن تهتم بدروسك أولا، فلا أظنك أنهيت واجب الـ..

لكن حسام قاطعه بقوله:

- لا أعرف بأي قلب تتكلم، أنت لا تتغير أبدا!

وخرج من القاعة وقد بدا الغضب على وجهه، فهب طلال واقفا:

- حسام انتظر قليلا..

فرد عليه حسام دون أن يلتفت إليه:

- شكرا لا أريد سماع المزيد من نصائحك!

ثم التفت إليه بابتسامة مفاجئة:

- لا تقلق، لم أغضب منك يا صديقي العزيز، ولكنني لا أستطيع أن أكون مثلك.. إلى اللقاء..

فابتسم طلال وقد اطمأن قلبه قليلا ثم قال:

- وأنت لم تتغير يا حسام..

وجدها حسام فرصة مواتية فتوقف قليلا ليقول له:

- أنا أنا وأنت أنت ولا أحد يستطيع أن يكون مثل الآخر، ولم أقصد أن تتخلى عن دراستك من أجل الآخرين، فنحن بحاجة للمتفوقين من أمثالك، ما شاء الله تبارك الله، وأنت تعلم كم أنا فخور بك يا صديقي العزيز، ويشرفني أن أكون صديقك المقرب، ولكنني أقولها لك الآن لأنك الأقدر على مساعدة علاء في محنته هذه، فهو بحاجة إلى من يشجعه ويعيد روح الحماسة إلى قلبه، وأنت الأول وعلاء يعرف ذلك، لذا سيكون لكلماتك الأثر البالغ في نفسه، وسيثق بها أكثر مما لو أنها خرجت مني مثلا، وهو يرى أن مستواي في الدراسة....

فقاطعه طلال بقوله:

- أقدر لك ثقتك بي، ولكن لماذا تستخف بنفسك هكذا وأنت من أكثر الشخصيات تأثيرا ما شاء الله، ثم إن مستواك جيد وقد حصلت على المركز الثالث رغم أنك تضيع وقتك بأمور أخرى تراها أكثر أهمية!!

فأجابه حسام موضحا:

- لم أستخف بنفسي إطلاقا، ولا أريد أن أدخل في نقاش حول هذا الموضوع، فأنت تعلم وجهة نظري فيه تماما.. ولكنني أحدثك عن طبائع البشر، فقد كان علاء الأول في مدرسته كما أخبرنا، وبالتأكيد سيتأثر بكلام الأول مثله أكثر من غيره! هذا ما عنيته فقط..

فابتسم طلال - وهو يعلم تماما أن حسام من أكثر من قابلهم رضا عن نفسه، فلم يكن من النوع الذي يهمه نظرة الآخرين اليه أبدا، ولم يحدث أن تمنى أن يكون في مركز غيره قط:

- حسنا أيها الحكيم فهمت الدرس..

فضحك حسام وهو يتجه خارجا:

- أعجبْتني.. وأتمنى أن تكون عند حسن ظن أستاذك الحكيم..

أطلق طلال تنهيدة طويلة بعد أن خرج حسام وهو يحدق في الكتب أمامه دون تركيز محدثا نفسه:

- ما أوسع قلبك يا حسام، لكأنني أراه يتسع أكثر بمرور الأيام و أرجو أن لا يؤثر ذلك عليك يا أخي الحبيب.. ربما كنت محقا فيما قلته، فلم يحدث أن قاطعني أحد في دراستي سواك..

ولأول مرة لم يستطع طلال متابعة ما بدأه، وكلمات حسام ترن في أذنيه، فأغلق كراسته ورتب أدواته و كتبه، ونهض من مكانه بهدوء..

***

كان علاء يتمشى وحيدا في الساحة الخلفية للمدرسة بعد أن خلت من الطلبة، عندما انتبه لصوت طلال يسلم عليه من خلفه، فالتفت إليه وقد فوجئ برؤيته:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ظننتك في قاعة الدراسة يا طلال!

فابتسم طلال قائلا:

- شعرت بعدم التركيز قليلا فخرجت لاستنشاق الهواء، وماذا عنك أنت؟

أطلق علاء تنهيدة طويلة ولم يقل شيئا، فبادره طلال بقوله:

- ما الذي دهاك يا علاء، لقد كنت شارد الذهن معظم الوقت!!

وبعد فترة صمت أجاب علاء أخيرا:

- في الحقيقة إنني أشعر بضياع كبير، فلم أستطع فهم كلمة واحدة من المعلم برهان حتى الآن، ولم استوعب ما حله المعلم نبراس من مسائل، رغم أن علم الحساب هو المفضّل لدي!لا أعرف ما الذي أصابني بالضبط!!

فقال طلال مطمئنا:

- لا تقلق بهذا الشأن يا صديقي فهذا طبيعي في البداية، لا سيما وقد فاتتك الدروس الأولى، وبإذن الله ستتمكن من تعويضها قريبا بعون الله..

تنهد علاء بألم:

- لا أصدق أنني كنت الأول في دروسي يوما من الأيام، أشعر الآن بأنني لم أعد أفهم شيئا، حتى علوم الجلاد والتدريبات...

فقاطعه طلال حتى لا يسترسل في عباراته المحبطة:

- لا تكن متشائما هكذا يا صديقي، فليس هذا ما يفعله المؤمن الواثق بربه المتوكل عليه، مشكلتك أنك تريد تعلم كل شيء بسرعة، ونسيت أن حكمة الله تقتضي غير ذلك، لا بأس من أن تخطئ في البداية لكن البأس كله في أن تستسلم لذلك الخطأ..

ثم استدرك قائلا:

- هل نسيت درس الآداب والأخلاق مع المعلم أمين بهذه السرعة؟

توقف علاء قليلا كمن أصابته وخزة في الصميم وهو يراجع ما سمعه:

- "خلق عظيم جدا، من تحلى به نال مراده وتحققت أحلامه وصب عليه الأجر صبا.."

في حين تابع طلال كلامه:

- الصبر مفتاح الفرج.. وسأبذل جهدي بإذن الله لمساعدتك على أن تشد من همتك وتقوي عزيمتك، فما ينتظرك أهم وأعظم..

و ابتسم مشجعا:

- ثم إنني أريدك منافسا قويا يا علاء..

نظر علاء إليه نظرة امتنان شاكرة:

- جزاك الله عني خيرا يا صديقي..

***

أخذ قاسم يجري بسرعة محاولا الهرب، في حين لف الضباب المكان وأخذت تلك اليد الخبيثة تلاحقه، ولم يجد قاسم بدا من المواجهة، فتناول رمحه وسهامه لتتساقط أمامه الواحدة تلو الأخرى بلا فائدة، كادت أنفاسه أن تتقطع وهو يجري نحو اللاشيء، وسط الظلام الحالك، و الضحكات المجلجلة تلاحقه:

– لن تفلت مني أبدا ولن تنجو من قبضتي مهما حاولت، سأسحقك سحقا كما سحقتهم، لن يبقى منكم أحد، سأتبعك إلى آخر مكان في الدنيا، لا أمل لك بالفرار ولا البقاء..

وانقضت اليد الكبيرة على عنق قاسم لتخنقه فأخذ يصرخ ويستغيث حتى هب من فراشه مذعورا:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا الكابوس الذي يلاحقني!!

ونظر حوله فوجد عمير الذي يشاركه الغرفة غاطا في نوم عميق، فتنهد بارتياح:

– الحمد لله أنني لم أكن أصرخ حقيقة وإلا لأيقظته! ترى في أي جزء من الليل نحن الآن؟

ونهض من فراشه خارجا من الغرفة ليجد النور منبعثا من قاعة الدراسة فحدث نفسا قائلا:

– لا شك أنه طلال، من الجيد أنه مستيقظ سأذهب للحديث معه..

لكنه عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة فعاد إلى سريره متمتما:

– كلا..لست بحاجة إلى أحد!!

***

بدأت الروح المعنوية ترتفع عند علاء في اليوم التالي، لا سيما في درس سير أعلام الفرسان مع المعلم رائد، الذي شعر بأنه أعد خصيصا له: "الصبر في حياة الفرسان"

رفع زيد يده مستأذنا بالإجابة عن سؤال المعلم رائد، قائلا:

- ومن أكبر الأمثلة على أهمية الصبر في إحراز النصر؛ هو ما لحق بالمسلمين من هزيمة في (معركة أحد) بعد أن خالف الرماة أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم واستعجلوا جمع الغنائم بدلا من أن يصبروا، وكما قيل: "إنما النصر صبر ساعة"..

تهلل وجه المعلم رائد:

- أحسنت يا زيد وبارك الله فيكم يا أبنائي، فقد ذكرتم أمثلة طيبة من حياة الصحابة رضوان الله عنهم، فمن يذكر لنا الآن أمثلة من حياة الفرسان من غير المسلمين لنعلم أن الصبر ضروري جدا لمن يريد تحقيق النصر، بغض النظر عن دينه ومعتقده، فهذه من سنن الله في الكون..

كانت كلمات المعلم تلك من أغرب ما سمعه علاء حتى تلك اللحظة، لكنه سلم بها دون أن يعلم أن أثرها سيكون كبيرا جدا في حياته..

***

تدرب علاء مع رفاقه على التمارين اللازمة، خاصة تلك المتعلقة بقوة الساعدين، استعدادا للمبارزة.

خاطب المدرب جهاد علاء بقوله:

- بما أن هذه هي المرة الأولى لك معنا، فعليك أن تراقب رفاقك جيدا..

ثم وجه كلامه للبقية:

- سنعيد اليوم ما أخذناه سابقا بصورة سريعة وهي فرصة جيدة لكم لتثبيت مهاراتكم، وأرجو أن تكونوا قد أتقنتم مهارة التلويح بالسيف والسيطرة التامة عليه..

وقف الطلاب على مسافات متباعدة في صفوف منتظمة وهم يمسكون بسيوفهم في وضع الاستعداد..

فصاح المدرب بصوت مجلجل :

- بسم الله، الله أكبر..

وبدأ الاستعراض بكلمات المدرب الموجهة..

(أمام.. أعلى.. أسفل.. يمين.. يسار.. قطع.. تلويح.. إبراق.. استدارة.. خلف)

والتي ترجمها الجميع بحركات رائعة منتظمة، أثارت إعجاب علاء ودهشته في آن واحد، ثم نادى المدرب:

- حسان وزياد ، نفذا المهارات الرئيسة في مبارزة سريعة..

والتفت إلى علاء:

- راقبهما جيدا..

استمتع علاء كثيرا بتلك المبارزة الرائعة، ولم يخف عليه ملاحظة تفوق حسان الواضح وحركاته البارعة وهو يتابعهما بذهن متوقد وقد أخذ لبه ما رآه، حتى قال المدرب:

- هذا يكفي أحسنتما..

ثم رفع صوته بقوله:

- ليس لدينا اليوم جديد فقد أبليتم بلاء حسنا حتى الآن، ومن يرغب منكم بالانصراف، فلينصرف ومن يرغب في متابعة تدريبه فلا بأس في ذلك..

ثم التفت إلى علاء مبتسما:

- هيا استعد يا علاء، فستبدأ درسك الأول الآن..

لم يصدق علاء أذنيه بداية، وهو يحادث نفسه بين الحقيقة والخيال:

- أهذا معقول!! المدرب يعرض علي أن يدربني بنفسه!! سبحان مغير الأحوال، عندما قررت أن أتقبل الدروس كما هي دون أن يؤثر علي ردود أفعال المدربين تجاهي وكنت على استعداد تام بأن لا أخجل من أخطائي كما هي أمام الآخرين وأتخلى عن حساسيتي المفرطة بشأن ذلك، يأتي هذا المدرب ليقول هذا الكلام الذي كنت بحاجة لسماعه من قبل!! سبحان الله كما قال طلال حكمة الله تقتضي غير ذلك!

وأخيرا هتف بسعادة :

- أنا على أتم الاستعداد أيها المدرب..

فابتسم المدرب جهاد وكأنه قرأ أفكاره كلها:

- إذن استعن بالله وستتقن اليوم المهارات الأساسية بإذن الله..

كان لتلك الكلمات الأثر البالغ في نفس علاء فتوقدت نفسه حماسة وهو يردد:

- باسم الله، توكلت على الله..

وشعر بقوة مضاعفة تنصب في ذراعه صبا، فرفع سيفه بنفس الطريقة التي شاهدها أثناء الاستعراض دون أن يخطئ، مما أثار إعجاب المدرب فابتسم مشجعا:

- أحسنت.. خطوة جيدة وإلى الأمام..

وما هي إلا مدة قصيرة حتى بدأ المدرب بمبارزة علاء معلما إياه الحركات الأساسية، مستعينا بنباهة علاء ودقة ملاحظته التي جنى ثمارها بسرعة، إلى أن شعر علاء بالتعب وقد آلمته عضلات ساعده.. فتوقف المدرب جهاد قائلا:

- سنكتفي بهذا القدر اليوم، وعليك الاهتمام أكثر بتقوية عضلات ساعديك حتى يسهل عليك السيطرة على السيف بمرونة أكثر..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- لقد أحرزت ما لم يحرزه أحد في سرعة تعلمك، و لربما تسبق الجميع إن شاء الله إذا واصلت التدريب على هذا النحو، أو ربما أقل من ذلك، فتدريبك اليوم كان مكثفا جدا..

أشرق وجه علاء بشرا رغم التعب الذي حل به وقد علت وجهه الحمرة:

- جزاك الله خيرا أيها المدرب الفاضل، أعدك أن أكون عند حسن ظنك بإذن الله..

ابتسم جهاد - وهو يربت على كتفه:

- ثق بالله، ثابر ولا تيأس أبدا..

شعر علاء بيد المدرب جهاد الحانية ورقته البالغة.. فأثارت مشاعر كامنة في نفسه وهي تعيد له ذكرى والده الحنون الغائب.. وكادت دمعة أن تغلبه لولا أن جاءه صوت طلال:

- أحسنت يا علاء، لقد كنت رائعا ما شاء الله..

وأقبل حسام عليه باسما:

- لقد راقبتك مع طلال طوال فترة تدريبك، فلم يكن لدينا الكثير من التدريب اليوم، وأصدقك القول أنني لم أر أحدا بمهارتك في أيام تدريبه الأولى..

فابتسم علاء:

- جزاكم الله خيرا على هذا التشجيع ومحاولاتكم الجاهدة لرفع معنوياتي..

فقال حسام بجد:

- ولكنها الحقيقة يا صديقي!

وأكد طلال كلامه بقوله:

- أنت موهوب فعلا يا علاء ما شاء الله، وعليك أن تستغل هذه النعمة التي منّ الله بها عليك وإياك التفريط فيها..

ثم تابع باسما:

- لأنني أود مبارزتك في منافسة شريفة يا صديقي..

فأجابه علاء وقد علته روح الحماسة مجددا:

- أود ذلك فعلا يا طلال..

فقال حسام:

- اتفقنا، وسأكون الحكم بينكما..

وهتف الجميع معا:

- إن شاء الله..

***

خرج قاسم بعد صلاة العصر مسرعا واستقل العربة المتجهة إلى وسط المدينة، بعد أن خلع عمامته الرمادية ووضعها في حقيبة معه..

انضم قاسم إلى المجتمعين في احد البيوت الذين بدوا من نفس هيأته، وبعد أن ألقى عليهم التحية وأخذ مكانه بينهم.. بادره أحدهم بصوته الغليظ:

- كم مرة قلنا لك أن الحديث بيننا بلغتنا فقط!

فرد قاسم بحدة:

- لقد ألقيت السلام وحسب، ثم إنني لا أدري لماذا تصرون على هذا الشرط الغريب! فما المانع من تَكَلُمِنا بلغة العرب؟

فجاءه صوت رجل آخر بدا أكثر حدة:

- هل هذا يعني أنك تخليت عن لغة أبائك وأجدادك! آلا تعلم أن اللغة هي أساس الانتماء!

وتدخل آخر:

-لا أدري ما الذي يجعلك تتمسك بلغة تبرأ منها أهلوها، ألا تلاحظ بأنهم دائما ما يتباهون بالتحدث بألفاظٍ من لغة رامان وسومار! فلماذا تصر على التكلم بها؟!

لم يعد قاسم قادراً على تمالك نفسه أكثر، فصرخ بهم و قد طفح به الكيل:

- ماذا أصابكم! وكأنها ليست لغة القران الكريم أوكأنكم لستم مسلمين؟

أهذا هو الاجتماع الذي جئنا من اجله!!

عندها لاذ الجميع بالصمت وصعد أحدهم على منصة في المقدمة قائلا:

- كما تعلمون جميعا اليوم هو من أبرز أيامنا التي نفتخر بها وكان لا بد لنا من الاجتماع، نحن أبناء الأوروجال العظيمة، لإحياء ذكراها..

وعلت الهتافات:

- تحيا الأوروجال.. تحيا العزة .. تحيا العظمة.. تحيا الأوروجال العظيمة..

وبصعوبة استطاع المتحدث متابعة كلامه وسط الهتافات:

- كما تعلمون فإن مدينة (أوج) عاصمة بلادنا العظيمة قد اشتهرت بفنون عديدة كانت محط أنظار العالم أجمع ويصادف اليوم إنشاء أكبر دار للرقص التراثي لبلاد الأوروجال، والذي يؤمه المتجولون من مختلف أنحاء العالم، وقد استطعنا توفير نسخ من الكتاب الذي نشر مؤخرا عن تلك الأيام الفاتنة "أيام أوج الخالدة"، وسيتم توزيعها عليكم احتفالا بهذه المناسبة العظيمة..

لم تكد عينا قاسم تقعان على الصورة في أول صفحة من الكتاب حتى هب من مكانه واقفا:

- ما هذا العار!!!!!

حملقت العيون بقاسم ...وقد بدا الوضع متوترا جدا ..غير أن المتحدث حاول الإمساك بزمام الأمور قائلا:

-اهدأ يا بني.. هذه هي أيامنا التي تعاهدنا على إحيائها حتى لا تضيع مع مجدنا التليد..

لكن قاسم بدا غير قادر على ضبط أعصابه فصرخ بحدة:

- إذا كانت هذه هي الأيام التي تريدون إحياءها فإنني أفضل أن أراها ميتة وإلى الأبد..

وتعالت الصيحات في القاعة مع نهوض ذلك الرجل الضخم من مكانه مواجها قاسم بقسوة:

- لقد طفح بنا الكيل منك يا هذا!! أنت تهين كرامتنا !!! ما الذي تظنه بنفسك يا قزم!!! ألأنك التحقت بتلك المدرسة العربية أصبحت تعتر من أمجادك!! نحن أبناء الأوروجال العظيمة، التي كانت سيدة العالم أجمع بما فيها بلاد العرب

كلها، العرب الخونة الذين أعانوا الأعداء على أسيادهم العظماء، رغم ما وفروه لهم من حماية ورعاية وأمن ورخاء!

شعر قاسم ببعض الندم على تسرعه بالتفوه بتلك الكلمات الغاضبة، التي لم يحقق منها فائدة ولم يجن منها سوى تلك العيون المحمرة المحدقة به من كل جانب والشرر يتطاير منها، في حين تابع الضخم كلامه:

- رغم أنني لست من مدينة أوج مثلك لكنني أشعر بالانتماء لها لكونها عاصمة بلادي بلاد الأوروجال العظيمة، أما أنت يا ابن مدينة أوج فلا وفاء لك، أو ربما لا يوجد لك فيها أصل..

لم يحتمل قاسم تلك الإهانة الصريحة فرد مدافعا عن نفسه:

- أنت لا تعرف مع من تتكلم أيها الضخم إنني ابن..

وبتر عبارته فجأة بعد أن هم بالإفصاح عن سر والده الخطير وقد أخذت كلماته ترن في أذنه: "إياك أن تخبر أحدا بذلك كائنا من كان إنه سرنا وقد استأمنتك عليه لثقتي بك.. إياك يا قاسم.. إياك أن تحدث بذلك أحدا .. إنني استأمنك.. إياك..."

كانت من أقسى اللحظات على قاسم، وقد وضع نفسه بموقف لا يحسد عليه وفتح بابا كان في غنى عنه وهو يسمع التعليقات والهمسات حوله:

- ابن من ؟ من عائلته؟؟ ربما صدق .. لا أصل له..

لكنه تماسك وأظهر اللامبالاة فيما يدور حوله مما استثار غضب ذلك الضخم:

- هيا قل أيها القزم.. ابن من؟؟

وبدون سابق إنذار سدد لكمة قوية إلى فك قاسم والذي استطاع تفاديها بمهارة، وكاد أن يرد عليه بلكمة مشابهة ويكيل له فيها الصاع صاعين، لولا تدخل ذلك الشيخ الكبير الجالس على طاولة مستديرة في زاوية الغرفة:

- اهدؤوا يا رجال فليس هكذا تحل الأمور!! نحن أقلية في هذه البلاد وعلينا أن لا نختلف، تذكروا الهدف الرئيس من تجمعنا في هذا المكان، كنا نجتمع هنا دائما من أجل الأوروجال وباسم الأوروجال أطالبكم بالتوقف..

عندها فقط هدأت ثورة الغاضبين بمن فيهم ذلك الرجل الضخم، فعاد إلى مكانه وهو يردد:

- من أجل الأوروجال لا من أجل ذلك الوغد!

***

لم يغمض لقاسم جفن تلك الليلة، ومئات الأفكار تدور في رأسه.. فلم يستطع البقاء في سريره فنهض متناولا قلما و مجموعة أوراق؛ اتجه بها نحو مكان تمنى أن لا يجد فيه أحدا في ذلك الوقت، ولم يجد غير الجلوس في أعلى الدرجات المؤدية إلى سطح المدرسة، أشعل مصباحه وانحنى على أوراقه، مطلقا العنان لأفكاره..

هل أنا على صواب أم على خطأ! لقد وعدتك يا أبي أن أعود وأعيد معي مجدنا الضائع بعد أن علمتني أن مجدنا هو مجد أمة الإسلام، مجد أمة نبينا العربي الصادق الأمين، فما لي أرى الموازين قد انقلبت مع بني جلدتي في ديار الغربة هنا!! لقد أخبرتني أننا حكمنا العالم بالعدل والإيمان وإقامة شرع الله في الأرض، بل وبالافتخار بلغة القرآن لتكون هي اللغة الرسمية لدولتنا.. فما لي أرى الآن بني قومي يتفاخرون بأيام لم أسمع عنها منك من قبل!! ولا أظنك ترضى أن تكون فخرا لنا نتغنى به!!! هل كانت أيامنا ليالي حمراء وراقصات وغناء!! هذا ما سمعته وقرأته في ذلك الكتاب، وهذا ما جعل اولئك الرجال يهبون للدفاع عنه وكأنه من مقدساتنا التي لا يجوز المساس بها؛ وإلا اتهمت بالخيانة وعدم الولاء!!! هل حقا كانت مدينة أوج منبرا لهذا الفساد باسم الرقي!! اعذرني يا أبي ولكنني ألومك إن كنت تعلم هذا كله ولم تخبرني به من قبل، إذن لهانت علي المصيبة بالاستعداد لها على الأقل!! بل ربما لم أجهد نفسي بالحث والتقصي عن سبب ضياع ملك أجدادنا!! لقد نشأت وكبرت وأنا لا أعلم سوى أننا ننحدر من أسرة ملتزمة بدينها حكمت العالم بشرع الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.. أما الآن....

لقد عرفت كيف ضاع ملكنا يا أبي، وليتني لم أعرف..

واعتصر قاسم رأسه بكلتا يديه قبل أن يتابع الكتابة:

لم أصدق ذلك في البداية بل رفضته بشدة باعتباره من دسائس الحاقدين والناقمين لا غير، حتى عدت إلى الكتب وغرقت فيها بحثا عن الحقائق المروية بأقلام العدول والثقات، لأصطدم بالحقيقة التي لا مراء فيها..لا بد لنا من الاعتراف بالحقيقة وان كانت مرة، لكن الذي لا استطيع احتماله هو الافتخار بذالك العار الذي لوث ثيابنا النقية!!

فوجئت بالظلم الذي أرهق كاهل الفلاحين والمزارعين والرعاة الفقراء بالخراج والمكوس بلا رحمة بحجة دعم الدولة التي كانت على وشك الانهيار!! ألم تخبرني أننا أسرة متدينة فأين كنا من هذه المنكرات وهذا الظلم الذي لا يطاق!! ليس من حقي أن ألومهم الآن، فأنا لم أر تلك الأحداث بعيني ولا أعرف الظروف المحيطة بهم..

لم أعد أستطيع النظر في عيون زملائي الذين ما زالوا يتغنون بالخلافة التي حكمت بلاد الإسلام لفترة طويلة من الزمان بعد أن كنت أشعر بالفخر كلما سمعتهم يتحدثون عنها..أصبحت أخشى أن تتلوث صورتها المشرقة في أذهانهم رغم أنني علمت الحقيقة..إنني أكذب على نفسي!!

إنني في صراع شديد، فقد استيقظت الحمية في داخلي ولم أكن أظنها موجودة!! أأقف مع بني جلدتي على ما أرى من خلافهم لمبادئي التي ربيتني عليها، أم إلى جانب من يطلقون عليهم العرب- أو الخونة فلا فرق عندهم- وفيهم رفاقي ومعلميّ ومدربيّ في مدرسة النصر التي أرسلتني إليها!!

قد يبدو الخيار واضحا ولكنه صعب جدا.. بل قاتل يا أبي!! أأهجر أبناء جلدتي الذين يعشقون أرضي كما أعشقها من أجل أن أبقى مع من يشاركني المبادئ والقيم فأكون خائنا لوطني!! لقد بدأت أسمعها منهم كثيرا.. يقولون إنني تأثرت بالعرب فانظر ما الذي سيفعلونه لك، إنهم خونة وسيبقون خونة فلا تلم إلا نفسك إن فضلت الغريب على القريب..!! يقولون لي لماذا تحرص على تعلم لغتهم في حين أنهم لا يلقون بالا للغتنا والتي كانت لغة الخلفاء الذين رفعوا راية الخلافة الإسلامية في البلاد !!ولا أخفيك أن كلماتهم قد وجدت صداها في نفسي!! هذا ما حدث فعلا يا أبي بل أكثر منه، حتى إنني بت أخشى أن أقول لهم هيا نقرأ القرآن فيقولون لي هذا كتاب العرب!!

أبي أنت الذي أرسلتني إلى هذه المدرسة- مدرسة العرب بنظر أبناء جلدتي- وأنت الذي طلبت مني التعرف على أبناء جلدتي في هذه البلاد، فكيف لي التوفيق بينهما!!أبي أقولها لك صريحة.. لقد أضعت المفتاح!!!!

***

وقف علاء في صفوف المشجعين وهو يتابع السباق بلهفة حيث انطلق المتسابقون بسرعة يمخرون عباب الماء بقوة مع شارة البداية التي أطلقها المدرب عادل..

خفق قلب علاء بشدة وهو يتابع المشهد المثير، فقد استطاع حسان التقدم على زيد الذي وصل نهاية المسبح أولا وكان عليه العودة من جديد إلى نقطة البداية ومن خلفه حسام ومعاذ يحاولان اللحاق به، أما طلال الذي تأخر عن الجميع بداية فقد أخذ يبذل قصارى جهده، ويتقدم بسرعة ملحوظة تثير الإعجاب، وما هي إلا لحظات حاسمة حتى أعلن المدرب الفائز الأول:

- حسان!

يليه زيد وطلال الذي أذهل الجميع.. وتأكد علاء في قرارة نفسه أن لا شئ مستحيل، في حين أن أصيل كان آخر المتسابقين..

أسرع علاء يهنئ الفائزين:

- كانت منافسة حامية، لم أشاهد مثلها قط ..

فابتسم حسان:

- الحمد لله الذي خصني بهذا الشرف، فلا شك أنني أصبحت بطلك المفضل يا علاء!

فقال زيد باسما:

- أهنئك من أعماق قلبي يا حسان على هذا الشرف ولكن إياك أن تحلم بالتقدم علي مرة أخرى..

فتدخل طلال مازحا:

- أقدم لك نصيحتك نفسها يا صديقي العزيز زيد، فالمركز الأول سيكون من نصيبي في المرات القادمة إن شاء الله..

عندها هتف أصيل بمرح:

- وماذا عني أنا!

وغرق الجميع بالضحك...

ربت المدرب عادل على كتف علاء:

- أرجو أن تكون قد استمتعت بمسابقة اليوم واستفدت منها أيضا علما بأنني سأبدأ معك الدروس الأولى للسباحة في المرة القادمة إن شاء الله..

فسأله علاء بأدب جم - وقد أخذته روح الحماسة:

- ألا أستطيع البدء بتعلمها اليوم؟

فابتسم المدرب:

- لا مانع عندي، إن كانت لديك الرغبة في ذلك..

ثم التفت إلى البقية:

- أحسنتم جميعا، تستطيعون الانصراف، فالسباق يكفي لهذا اليوم وأظن أن كل واحد منكم قد عرف نقاط قوته و ضعفه بنفسه، ليعمل على تطوير المهارات التي يفتقدها..

هم حسان وأصيل بالانصراف عندما أسرع حسان نحو علاء:

- سنعود إلى المنزل الآن ولن أتمكن من مشاهدتك أثناء تدريبك، لذا أقدم لك نصيحة صغيرة؛ عليك بالاسترخاء التام حتى تسهل عليك السباحة..

ابتسم علاء بامتنان بالغ:

- جزاك الله خيرا على نصيحتك القيمة، سأذكرها دوما إن شاء الله..

فاستدرك أصيل:

- تذكرت شيئا هاما طالما نسيت إخبارك به، ما رأيك أن تزورنا في بيتنا يا علاء، فأنا وحسان جيران ومنازلنا ليست بعيدة من هنا، وقد حدثت أبي عنك كثيرا وهو في شوق لرؤيتك..

علت وجنتا علاء حمرة خفيفة ولاذ بالصمت دون أن ينبس ببنت شفة.. لكن أصيل أصر عليه بقوله:

- هيا ماذا قلت؟ أنتظر منك تحديد الموعد فقط!

فقال علاء:

- جزاك الله خيرا يا صديقي فإن فكري مشغول الآن ولا أعرف ماذا أقول، دع هذا إلى وقت آخر أفضل إن شاء الله..

أمضى علاء وقته في المسبح وهو يحاول إتقان حركات السباحة التي تعلمها من المدرب عادل بمساعدة حسام وطلال اللذيْن مكثا إلى جانبه.. وبعد مدة قال طلال:

- لقد كنت تصر بعناد على إتقان الرماية ومن ثم المطاعنة بالرماح، وها أنت الآن تصر على إتقان السباحة وكأن ذلك سيحدث في يوم واحد.. أوكأنه الشيء الوحيد لديك.. فمتى ستجد الوقت الكافي لواجباتك الأخرى!!

عندها انتبه علاء لنفسه وهو يرتعش من البرد بعدما خرج من المسبح:

- يا إلهي لقد نسيت أمر تلك المسألة التي لم أفهمها بعد..

ثم استدرك متسائلا :

- متى طلب منا المعلم نبراس تسليم الحل؟

فأجابه طلال:

- غدا يا صديقي العزيز! لذلك أحببت تذكيرك فأنت لا تُعطِ كل شئ حقه، لا شك أن المعلم نبراس سيمهلك بعض الوقت بسبب ظروف تأخرك ولكن من الجيد أن تظهر أمامه بمظهر المجد المهتم..

جفف علاء نفسه بسرعة:

- جزاك الله خيرا أنك ذكرتني..

ثم ضرب جبهته بيده:

- تذكرت درس الطبيعة والفلك أيضا، لم أفهم منه شيئا بعد!!

فقال حسام مهدئا:

- لا تزعج نفسك إلى هذا الحد، فما زال أمامنا الوقت الكافي..

فقال علاء بجد:

- إذن علي أن لا أضيعه..

أما طلال فقد رمق حسام بنظرة ذات مغزى مغتنما الفرصة:

- هل حللت المسألة يا صديقي أم أنك تؤجل واجباتك كالعادة؟

احمر وجه حسام خجلا:

- لا داعي لهذا الإحراج يا طلال، فأنت تعلم أنني كنت مشغولا..

فقال طلال بلهجة لا تخلو من تأنيب:

- مشغول بماذا يا أخي؟ ألسنا جميعا مثلك .. أم أن لديك واجبات خاصة أيها الأستاذ المحترم!!

ثم تابع بنبرة يفهمها حسام جيدا:

- أظن أنه لم يعد هناك ما يشغل فكرك الآن!

فابتسم حسام وقد فهم قصده جيدا:

- يكفي تأنيبا هذا اليوم، فمازال أمامنا وقت، ثم إنني بدأت بالتفكير في حل المسألة.. اطمئن..

فقال طلال:

- التفاؤل طيب، لكن الوقت ليس ملكنا دوما عندما نحتاجه..

عندها قال علاء:

- حسنا، سيكون هذا درسا جيدا لي في المرات القادمة إن شاء الله، أما الآن فمن الأفضل أن نلحق بما تبقى من الوقت قبل أن يفوتنا..

فهتف حسام بمرح- وقد أُنقذ من موقف حرج:

- معك كل الحق يا علاء، هيا يا طلال لا تضيع وقتنا الثمين بهذا الجدال..

تمالك طلال نفسه بقوله:

- هكذا إذن! أصبحت أنا من ضيع وقتكم الثمين جدا!! لا بأس سأقبل هذا المزاح الثقيل اليوم فقط من أجل علاء..

فابتسم علاء:

- جزاك الله خيرا يا صديقي! لن أنس لك هذا الجميل أبدا..

ثم التفت إلى حسام:

- لا تنس أنك مدين لي بنجاتك من غضب طلال..

وضحك الثلاثة وقد توطدت صداقتهم أكثر..

***

استأذن نضال وزياد بالدخول إلى مكتب المعلم أمين في الطابق الثاني من المدرسة، وبعد أن انتهى بهما المجلس إلى حيث أشار لهما، لاذا بالصمت وكل واحد منهما يشير إلى صاحبه أن يبدأ الحديث، حتى قال المعلم أمين مشجعا لهما:

- خيرا إن شاء الله، هل حدث مكروه؟ أم أنه بخصوص خلق التعاون الذي بدأناه بالأمس! إن كان كذلك فقد أخبرتكم من البارحة أنني فتحت لكم المجال في اختيار التطبيق الذي ترونه مناسبا لتحقيق ذلك..

تبادل زياد ونضال النظرات قبل أن يتكلم زياد أخيرا:

- جئنا بخصوص قاسم رجب يا معلمي..

بدا الاهتمام على وجه المعلم أمين وهو يعتدل في جلسته مصغيا باهتمام، في إشارة لزياد أن يقول ما لديه، فتابع الأخير ببعض التردد:

- أرجو أن تفهمنا يا معلمي فلم نكن نقصد التجسس..

وتلعثم قليلا، وهو يحاول أن يرى أثر كلماته على المعلم أمين، قبل أن يتابع بارتياح:

- كنا عائدين من المدرسة بعد أن نزلنا من العربة لنتابع الطريق إلى منازلنا مشيا وقبل أن نفترق؛ لمحنا قاسم يمشي على عجل في الطريق فرغبنا بمفاجأته لا سيما وأن وجوده في هذا المكان قد أثار فضولنا فهو يقيم في المدرسة ومن النادر أن يخرج منها خلال الأسبوع..

***

جلس طلال قرب علاء تحت شجرة كبيرة أمام واجهة المدرسة قبل صلاة المغرب يوضح له ما استعصى عليه فهمه من الدروس، وبعد فترة تنهد علاء:

- سامحني يا طلال، لا تتعب نفسك معي أكثر خاصة وإنني أشعر بعدم مقدرتي على فهم شئ حتى الآن بل وعدم الرغبة في ذلك أصلا !!

ثم قال بعد أن بدأ يشعر بالارتياح نحو طلال:

- سأخبرك بما يدور في نفسي يا صديقي فبعد اطلاعي على نظام المدرسة وأنا أتساءل إن كان بقائي هنا ذا فائدة تذكر!! لا أدري ما هي الضرورة من هذا كله إذا كانت غايتي الرئيسة هي العودة بسرعة لمدينتي!! أشعر بأن هذا كله مجرد إضاعة للوقت!! فهل علي الانتظار طوال هذه الفترة وأنا انتقل من مستوى لآخر و أترقى في المراتب حتى أصل لمرتبة صنديد ومن ثم...

وعلى خلاف حسام، لم يستطع طلال الاستماع أكثر لذلك الكلام، وإن كان به نوع من المشاركة لعلاء في همومه، فقاطعه بنبرة صارمة:

- إنني أقدر ظروفك جيدا، وأفهمها تماما أكثر مما تتصور، فلست وحدك من مر بظروف صعبة، لكن هناك أمورا أخرى تستحق منا الاهتمام أيضا، خاصة وإن إهمالها لن يعيد لنا ما فقدناه بل سيزيد الوضع سوءا، فما الذي بوسعك فعله الآن وأنت فتى في الثانية عشرة من عمرك لم تفقه بأمور الحياة بعد!!

قال جملته الأخيرة بلهجة من يكبره بعشر سنوات على الأقل، ثم التقط نفسا عميقا قبل أن يتابع:

- افهمني جيدا يا صديقي؛ عليك أن لا تشغل فكرك بما مضى والأولى لك أن تضاعف جهودك لتتابع الطريق حتى تحقق ما تريده بإذن الله.. وأنا واثق من أن والديك لن يسعدهم أن تبقى شاردا وحزينا، فهذا كله لن يغير من الواقع شيئا، بل إن تصرفك هذا يدل على أنك ما زلت بحاجة للمزيد من الدروس والتدريبات.. تذكر درس الأخلاق والآداب وابدأ التطبيق، فهذه الدروس ليست للتسلية! استعذ

بالله من الشيطان الرجيم وتوكل على العزيز الرحيم.. (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)..

كان لتلك الكلمات الأثر الكبير في نفس علاء الذي قوي عزمه على تحدي العقبات، فأشرق وجهه وعلت همته بعد أن تركت كلمات طلال أثرا طيبا في نفسه:

- سأكون عند حسن ظنك يا طلال، ولن تجدني ضعيفا بعد اليوم بإذن الله..

فابتسم طلال وقد سره سماع ذلك:

- إذن سنتابع الآن دروس علم الحساب التي فاتتك.. فعلى بركة الله..

***

أطلق المعلم أمين زفرة طويلة، قبل أن يعلق على ما سمعه من المعلم رائد بقوله:

- كما توقعت!!

فتساءل المعلم رائد ببعض القلق:

- وما الذي تراه إذن؟

أطرق المعلم أمين مليا قبل أن يلتفت إلى المشرف عاطف الذي دخل الغرفة لتوه حاملا بيده رزمة من الأوراق:

- هذه هي ملاحظاتي على قاسم رجب خلال الأسابيع الفائتة..

***

اقترب طلال من حسام الجالس على حافة النافذة يتأمل النجوم كعادته في مثل هذا الوقت من أول الليل..

وسأله:

- ظننتك صعدت إلى السطح كعادتك.. بماذا تفكر؟ هل حدث شيء؟؟

فالتفت إليه حسام:

- ولماذا تسأل؟؟ هل تريد إسماعي المزيد من النصائح!!

فوجئ طلال بذلك الرد الجاف:

- ماذا دهاك يا حسام! أما زلت غاضبا مني؟

فأطلق حسام ضحكة خفيفة:

- لا تبالغ يا صديقي، ألا تستطيع فهم مزاح صديقك بعد!!

فرمقه طلال بنظرات عاتبة:

- أهذا وقته الآن؟؟

فابتسم حسام وهو ينهض من مجلسه على النافذة قفزا:

- لا وقت يحدني كما تعلم..

ثم استدرك بسرعة:

- استغفر الله لم اقصد..

وتابع بجدية أكبر:

- كل ما كنت أريد قوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾..

فقال طلال باستنكار:

- هل تعتقد أنك أرحتني بكلامك هذا!

فوجدها حسام فرصة مواتية ليقول له مستفزا:

- بناء على نصائحك وتوجيهاتك القيمة لا تشغل نفسك بهموم الآخرين، فواجباتك أهم..

لكنه أسرع يقول مهدئا وهو يلمح تغير وجه طلال:

- حسنا سأقول لك ، أرجوك لا تغضب!

فابتسم طلال بهدوء:

- ومن قال لك بأنني غاضب!!

فقال حسام:

- إذن لا داعي لأن أقول شيئا!!

عندها قال طلال بنفاد صبر:

- حسام!! أرجوك هذا يكفي!

وأخيرا تكلم حسام وهو يجلس على سريره:

- سامحني يا طلال لم أكن أقصد استفزازك في البداية، ولكنني أعلم رأيك مسبقا فيما يشغلني، أشعر بأن قاسم يمر بظروف عصيبة جدا وغير عادية وربما تؤثر علينا جميعا إن لم نفعل له شيئا..

فتساءل طلال:

- وما الذي جعلك تشعر بهذا؟؟ صحيح أن قاسم تغير في الأيام الأخيرة ولكن قد يكون الأمر طبيعيا فالمشاكل لا تنتهي ولكل واحد همه في هذه الحياة..

لكن حسام تابع معلقا:

- أوافقك الرأي إلى حد ما ولكن أن ترى قاسم، ذلك الفتى الواثق من نفسه ذو الشخصية القوية، منزوياً في مكان لا يظن أن أحدا فيه لينكب على أوراقه

يكتب عليها بنشيج وهمهمات يحدث فيها نفسه؛ فهو أمر مقلق خاصة مع تزامنه بأحداث كثيرة تحيط به هذه الأيام!

أطرق طلال مفكرا قبل أن يقول:

- قد تكون محقا في كلامك يا حسام بشأن قاسم، ولكنني ما زلت مقتنعا بأنك تكلف نفسك فوق طاقتها، فإلى متى ستحمل هموم العالم أجمع على ظهرك يا صديقي!

تنهد حسام قائلا:

- لا أريد أن نخوض في جدال عقيم مرة أخرى، فأنت تظن على ما يبدو أنني أقحم نفسي في مشاكل الآخرين أو أنني أبحث عن المتاعب لأوكل نفسي بحلها.. ولكن المواقف هي التي تأتي في طريقي، حتى أنها تشعرني وكأنها رسالة موجهة إليّ.. فهل تعمدت مثلا الذهاب لرؤية قاسم في موضعه ذاك أم أن القدر ساقه ليجلس في المكان الذي اعتدت الذهاب إليه منذ أن وافق المشرف عاطف على إبقاء باب السطح مفتوحا أثناء الليل؟؟ بالتأكيد لم يكن قاسم يعلم أنني سأكون هناك، كما أنني حاولت ألا أشغل فكري به من قبل رغم قلقي على تغير حاله خاصة بعد ذلك الموقف الذي رأيته فيه مع علاء في المكتبة! أمور كثيرة يا طلال تحدث من هذا القبيل تشعرني بأن من واجبي الوقوف إلى جانبه، وإن كنت لا أعرف تماما ما الذي علي فعله غير الدعاء، ولكنني سأحاول.. وقد فكرت في أن أخبر المعلم أمين بأمره غدا إن شاء الله لعله يستطيع مساعدته بطريقته الخاصة..

لم يجد طلال ما يرد به على حسام، فابتسم موافقا:

- أقنعتني تقريبا..

عندها هب حسام هاتفا:

- أخيرا..

فاستدرك طلال:

- قلت لك تقريبا ولكن أرجو أن تهتم بنفسك أكثر..

فضحك حسام قائلا:

- لا تقلق من هذا الجانب فقد أنعم الله علي بصديق مخلص يؤدي الواجب وزيادة

فابتسم طلال:

- هكذا إذن!!

في حين تابع حسام بمرح:

- اعمل حسابك أن تعد لي الملخصات المختصرة والمفيدة في دروس علم الحياة، فلا وقت لدي لقراءتها..

فرمقه طلال بنظرات عميقة و قوية، جعلت حسام يستدرك بسرعة قائلا وهو يلوح بكفيه:

- كنت أمزح فقط يا أخي هون عليك..

وضحك الاثنان..

***

بقي علاء مستيقظا يحاول حل تلك المسألة الحسابية في غرفة الدراسة، حين شعر بيد تربت على كتفه:

- السلام عليكم..

التفت علاء إلى طلال بدهشة:

- أما زلت مستيقظا!! ظننتك قد ذهبت لتنام!!

فابتسم طلال قائلا:

- كنت مستلقيا على وشك النوم عندما تذكرتك، فأحببت إسداء نصيحة صغيرة لك..

ابتسم علاء بامتنان:

- جزاك الله خيرا يا صديقي، إنك تتعب نفسك معي كثيرا..

لكن طلال بادره بقوله:

- لا تقل هذا يا علاء، فهذا واجبنا جميعا ولو كنتَ مكاني لفعلت الشيء نفسه.. ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- ما رأيك أن تذهب الآن إلى فراشك، وتستيقظ قبل الفجر، فأظنك مرهقاً جدا بعد هذا اليوم المجهد، وسيضيع وقتك سدى في التفكير في هذه المسألة دون جدوى..

فأطرق علاء:

- ولكن أخشى أن لا يسعفني الوقت..

فأجابه طلال:

- هل هذا يعني أنك تريد قضاء الليل بأكمله في حل المسألة؟؟

فرد علاء مفكرا:

- لم أقصد هذا..

عندها تابع طلال كلامه بثقة:

- خذ مني هذه النصيحة اليوم فلن تخسر شيئا، فالمعلم لن يطالبك بحل المسألة غدا على أي حال.. نم الآن واستيقظ قبل الفجر وسترى أن تركيزك قد تضاعف بإذن الله ولن يأخذ منك حل المسألة وقتاً يذكر.. ثق في قول رسولنا الكريم- صلى الله عليه وسلم- عندما دعا لأمته: (اللهم بارك لأمتي في بكورها)..

نهض علاء باسما وهو يلملم كتبه وأقلامه:

- أرحتني يا طلال، جزاك الله خيرا فإنني متعب حقا..

***

علت النقاشات كالعادة في قاعة المستوى السادس بعد درس فقه الصيام، قال أصيل وقد بدا منفعلا:

- من كان يتخيل هذا.. قلة الطعام تساعد على التركيز!!

ونظر إلى حسان:

- هل سمعت يا حسان!! وكأن المعلم أمين سمع حديثنا بالأمس!! ألم أقل لك..

وابتسم وهو ينظر نحو طلال الذي كان مشغولا بكتابه كالعادة، فناداه قائلا:

- فهمنا السر يا طلال!

فنظر إليه طلال بعينين متسائلتين:

- عن أي سر تتحدث؟؟

فضحك أصيل - وهو يرى الفضول في العيون التي التفتت إليه- قائلا:

- كشفت سر سرعة فهمك ما شاء الله، فلماذا لم تخبرنا عن سبب كثرة صيامك وحبك له من قبل!! كشفتك!

فرد طلال:

- سامحك الله وهل تعمدت إخفاء ذلك!

فقال أصيل موضحا بسرعة قبل أن يأتي المعلم برهان:

- لا تأخذ الأمور بجدية هكذا، لقد سعدت بهذه الملاحظة وحسب، وأحببت مشاركة الجميع بها..

فقال حسان باسما:

- إنها ملاحظة دقيقة جدا، تستحق أن تضيفها إلى مجموعة الملاحظات التي طلبها منا المعلم برهان..

فتدخل معاذ وهو يقول بجدية:

- ولم لا.. فكرة رائعة..

ثم تابع باسما:

- سأكتبها أنا إن لم تكتبها أنت..

كاد أصيل أن يضيف تعليقا لولا دخول المعلم برهان الذي بدأ الدرس بقوله:

- درس اليوم مرتبط بفقه الصيام الذي درستموه مع المعلم أمين قبل قليل فكما تعلمون يا أبنائي فإن قلة الطعام تقوي الأفهام والبطنة تذهب الفطنة، وسندرس اليوم ذلك بشكل عملي تفصيلي يوضح أداء وظائف الجسم في الحالات المختلفة أثناء الصيام و من دونه، فمن كان له ملاحظة في هذا الصدد فليسجلها..

قال المعلم برهان كلامه في حين التقت عيون الطلبة الباسمة وهي تنظر نحو أصيل الذي لم يستطع كبت ضحكة مكتومة.. فنظر إليه المعلم برهان مؤنبا:

- هل هناك ما يضحك؟ .

فأسرع حسان يقول:

- عفوا يا معلمي ولكن عند أصيل ملاحظة قيمة جدا بهذا الخصوص كنا نتناقش فيها قبل قليل..

عندها علت أصوات الضحكات رغما عن أصحابها وابتسم المعلم برهان متفهما:

- أضحكونا معكم يا فرسان!

***

أخذ المعلم نبراس يقلب الأوراق بين يديه في حين انتظم الطلاب في أماكنهم، وبينما هو كذلك إذ بدت دهشة واضحة على وجهه، ثم قال:

- علاء نور الدين، كنت سأمنحك وقتا إضافيا بسبب تأخرك؛ فالمسألة بحاجة إلى فهم عميق وشامل للدروس بأكملها، فهل نقلتها من أحد؟

هز علاء رأسه نفيا وهو يقول:

- لقد شرح لي طلال الدروس الفائتة وحسب وقد حاولت بعدها حل المسألة بمفردي كما طلبت منا يا معلمي..

أومأ المعلم برأسه موافقا:

- حسنا سأنظر في ورقتك..

ورغم حرص المعلم نبراس على أن لا يضيع لحظة من درسه إلا أنه لم يقاوم رغبته في إلقاء نظرة فاحصة سريعة على ورقة علاء قبل أن يبدأ الدرس وما هي إلا لحظات حتى هتف على غير عادته وقد تهلل وجهه بشرا:

- ما شاء الله! أحسنت يا بني فقد استطعت الوصول إلى الخطوة قبل الأخيرة بنجاح، إن هذا يطمئنني إلى أنك استطعت تعويض ما فاتك والحمد لله..

أجاب علاء مبتسما وقد اطمأن قلبه:

- الحمد لله هذا بفضل الله وتوفيقه، ثم بفضل مساعدة طلال لي، جزاه الله خيرا..

نظر المعلم إلى طلال نظرة شكر وتقدير باسما:

- لم تزل عند حسن ظني يا طلال، بارك الله فيك يا بني وكثّر من أمثالك..

علت حمرة الخجل وجه طلال وهو يقول بتواضع بالغ:

- لم أفعل أكثر مما يحتمه علي الواجب، هذا غير أنني لم أوضح لعلاء سوى بضع نقاط بسيطة، في حين أنه درس الباقي بمفرده..

ابتسم المعلم مشجعا:

- بارك الله فيكم جميعا يا أبنائي..

***

اصطحب علاء ورفاقه أحصنتهم إلى الإسطبل بعد التدريب، حيث وجد عدنان منهمكا في التنظيف كعادته، فأسرع إليه مبتهجا برؤيته:

- السلام عليكم.. كيف حالك يا صديقي؟ لم أرك منذ مدة..

فرفع عدنان رأسه إليه مبتسما:

- الحمد لله، مازالت الدنيا بخير، ها أنت مازلت تذكرني يا علاء!

رمقه علاء بنظرة عتاب:

- سامحك الله!! أو تظن غير هذا؟؟

ثم استدرك:

- لقد افتقدتك في الآونة الأخيرة!

فرد عدنان موضحا:

- في الحقيقة لقد طلبت إذنا بإجازة قصيرة ليتسنى لي رعاية أمي المريضة و قد جئت متأخرا هذا اليوم..

بدا التأثر واضحا على وجه علاء وهو يسأله:

- لا بأس عليها طهور إن شاء الله، وكيف حالها الآن؟

فأجابه عدنان مُطَمْئنا:

- الحمد لله تحسنت صحتها بعد أن التزمت أوامر الطبيب بالراحة، فقد كانت تنهك نفسها كثيرا بالأعمال، وما يطمئنني أكثر أن أختي الكبيرة انتقلت أخيرا للعمل مربية في منزلٍ قرب منزلنا ولن تضطر للمبيت عندهم..

ثم استدرك باسما:

- بالمناسبة نجيب ونبيل وحتى ليلى أوصوني بإبلاغ سلامهم لك..

فهتف علاء كمن سمع خبرا ينتظره من مدة:

- رااائع.. هل زرتهم؟؟

فأجاب عدنان:

- ذهبت مع أمي لزيارتهم أمس فقد كانت بحاجة لبعض التغيير حتى تستعيد عافيتها، وكما تعلم لا أجمل من زيارة أقارب يقطنون في مزرعة كبيرة..

ثم استطرد:

والآن أخبرني عن أحوالك يا صديقي..

فقال علاء:

- الحمد لله إنني في تحسن مستمر بفضل الله، واليوم فقط استطعت إحكام السيطرة على حصاني ويكفيني أن المدرب ثابت بدأ يتقبل وجودي في هذه المرتبة والحمد لله.. أما السباحة فما يزال وضعها حرج بعض الشيء..

وبينما هما يتحدثان، إذ انتبه عدنان إلى حسام الذي أخذ يذرع الساحة جيئة وذهابا، فتساءل:

- ترى ما الذي جرى لحسام هذا اليوم؟

هز علاء رأسه:

- في الحقيقة لا أدري، كل ما أعرفه أنه سألني عما إذا ما حضر قاسم التدريب اليوم وعن أدائه فيه وقد بدا قلقا عليه بعد أن تغيرت تصرفاته فجأة كما يقول - فأنا لا أعرف قاسم من قبل- وهو لم يعد يرغب بالحديث مع أحد.. أو ربما..

وما لبث أن ضرب جبهته بيده قائلا:

- يا إلهي.. لقد نسيت..

فبادره عدنان يسأله بلهفة:

- خيرا إن شاء الله..

فأجاب علاء:

- لقد طلب منا المعلم عاصم الكتابة عن موضوع نختاره وتسليمه غدا إن شاء الله، وأنا حتى الآن لم أفكر في هذا الموضوع فقد شغلتني الدروس الأخرى..

وزفر بضيق وهو يتابع:

- إن الوقت يدركني دائما، لذا أرجو أن تعذرني يا صديقي إن تأخرت عن زيارتك..

ابتسم عدنان مطمئنا:

- أنا أعذركم جميعا، فالوقت مشكلة الجميع وليست مشكلتك وحدك، كما أنني لا ألوم أحداً أبدا، فلكل منا عذره الخاص..

ثم استدرك قائلا:

- ما الذي قلته يا علاء! هل قلت إنك لم تفكر في الموضوع بعد..

أومأ علاء برأسه إيجابا:

- أجل.. فلم أتفرغ حتى الآن لذلك..

فابتسم عدنان:

- وهل الأمر بحاجة إلى تفكير.. فأنت ستكتب ببساطة عن مدينتك وما حدث لك من صعاب..

هتف علاء بحماسة:

- هذا صحيح، كيف لم تخطر الفكرة ببالي.. يبدو أنني نسيت نفسي!

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع بتردد:

- هل تعتقد أنني سأنجح في كتابته؟

فابتسم عدنان مشجعا:

- أو تشك في هذا؟ ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة يا علاء..

***

طرق قاسم الباب ثلاث مرات قبل أن يأذن له المعلم أمين بالدخول، فدخل مسلما:

- طلبتني يا معلمي؟

ابتسم المعلم أمين وهو يدعوه إلى الجلوس:

- أجل يا بني تفضل..

وبعد أن أخذ قاسم مكانه بصمت منتظرا ما سيطلبه منه المعلم، فوجئ بسؤاله:

- كيف حالك يا قاسم؟

اتسعت عينا قاسم وهو يواجه المعلم أمين بسحنة متعجبة، قبل أن يطأطئ رأسه دون أن يزيد على قوله:

- الحمد لله بخير..

مرت لحظات صمت تقافزت خلالها مئات الأسئلة في رأس قاسم:

- ترى هل علم المعلم بما حدث؟؟ ...كيف عرف؟؟... من أخبره؟؟...

وأمام إصرار قاسم على الصمت ناوله المعلم أمين كتابا وهو يقول:

- هل اطلعت على هذا الكتاب من قبل يا قاسم؟

رفع قاسم رأسه متناولا الكتاب، وما إن وقعت عيناه على الغلاف حتى ارتعشت يداه من هول المفاجأة!! وهو يقرأ العنوان المكتوب بخط كبير:

(الأوروج)

***

هم علاء بالذهاب إلى فراشه، في حين جلس طلال على مصلاه يتلو آيات من القرآن، وما إن أنهى تلاوته حتى بادره علاء بقوله:

- لقد تأخر حسام عن موعد نومه على غير عادته، أليس كذلك؟

كبت طلال ضحكة خفيفة:

- مازال يفكر في موضوعه.. قال إنه لن يهدأ له بال حتى ينهيه قبل أن ينام رغم انه قد اعتاد أن ينام ملء أجفانه، معتمدا على ساعات ما قبل الفجر لإكمال واجباته..

ثم استدرك:

- وماذا عنك؟ هل انتهيت من كتابة موضوعك؟

فأومأ علاء رأسه بابتسامة:

- الحمد لله، انتهيت منه قبل العشاء.. وأنت؟

فأجاب طلال بثقة:

- أنهيته في اليوم الذي طلبه منا المعلم بفضل الله..

هتف علاء:

- ما شاء الله!! إنك مجتهد حقا يا طلال..

فابتسم طلال مازحا:

- وهل كنت تشك في هذا؟

فرمقه علاء بنظرات ذات مغزى:

- إذن لقد كان حسام على حق في تحذيراته الدائمة لك، فالغرور قريب منك جدا على ما يبدو يا صديقي العزيز..

فأرخى طلال عينيه:

- معك الحق!! استغفر الله.. وما توفيقي إلا بالله..

وما هي إلا لحظات حتى دخل حسام وهو يحيط رأسه بكلتا يديه، فقال طلال مواسيا:

- الحمد لله على سلامتك..

فرد حسام متأوها:

- أي سلامة تلك التي تجعل رأسي كالبركان الثائر، قد ينفجر في أي لحظة! والحمد لله على كل حال..

فلم يستطع طلال منع نفسه من لومه:

- لم تستمع لنصيحتي كالمعتاد وأجلت عمل اليوم إلى الغد فلا تلومن إلا نفسك..

نظر حسام إليه نظرة متوسلة:

- سامحك الله، صدقني.. من اللحظة الأولى التي طلب فيها المعلم عاصم كتابة الموضوع وأنا أفكر وأفكر..

فتابع طلال:

- ومازلت تفكر وستظل تفكر ولكن إلى متى؟؟

ثم رمقه بنظرات ذات معنى:

- تفكر بماذا بالضبط؟؟

فقال حسام بنبرة متوسلة:

- كفاك مزاحا يا طلال.. هل ستسخر مني وأنا في أشد حالات الضيق؟؟ أهكذا هي الصداقة!!!!

فابتسم طلال لجملته الأخيرة مستسلما:

- دائما تغلبني بكلامك، أعذرني يا صديقي، فلم أقصد إزعاجك أبدا أنت تعرف هذا!!

فقال حسام و هو ما يزال يعصر رأسه:

- أعرف.. نعم أعرف، لكنني لم أعد أعرف ماذا أفعل الآن؟

فنهض طلال من مكانه ووقف إلى جانب سريره حيث جلس واضعا يده على رأسه:

- هدئ من روعك يا صديقي ، فلا داعي لكل هذا التوتر، هل تشعر بصداع؟

أومأ حسام برأسه بالإيجاب، فأخذ طلال يمسح على رأسه وهو يردد:

- اللهم رب الناس أذهب الباس أشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما..

وبعد أن رددها سبع مرات قال:

- لا بأس عليك طهور إن شاء الله، واطمئن فمازال أمامنا وقت..

فنظر إليه حسام بعينين منهكتين:

- هل تهزأ بي يا طلال؟

فأسرع طلال يقول:

- صدقني لم أقصدها هذه المرة أبدا، سامحك الله ولكنني أحاول مساعدتك..

ورغم الضيق الذي يشعر به حسام في تلك اللحظات إلا أنه لم يمنع نفسه من أن يقول باسما:

- هذا يعني أنك كنت تقصدها من قبل؟؟

فضحك طلال:

- الآن من حقي أن أقول لك أهذا وقت المزاح!

ثم صمت قبل أن يتابع:

- هل تحب أن أساعدك في موضوعك؟

فرمقه حسام بنظرة ذات معنى.. وهو يقول:

- سبحان مغير الأحوال..

فأسرع طلال يدافع عن نفسه:

- لم أقصد أن أكتب لك الموضوع فلا تُسِء الظن بي يا صديقي، وإنما أساعدك بأفكار بسيطة أو حتى كلمات قليلة يأتي منها الفرج بإذن الله.. هذا إن رغبت في ذلك..

فرد حسام:

- بل أفضل الاعتماد على نفسي وجزاك الله خيرا..

لاذ حسام بالصمت مفكرا - في حين أخذ طلال يرمقه بنظرات إشفاق - قبل أن يقول أخيرا:

- ما رأيك يا طلال أن أنام الآن وأستيقظ في الصباح الباكر لإكمال الموضوع؟

فابتسم طلال قائلا - وهو ينظر إلى علاء الذي ابتسم بدوره:

- ظنناك غيرت تلك العادة يا حسام، يبدو أنه لا استثناء فيها أبدا! وهل عرفت عن ماذا ستكتب أولا؟

فابتسم حسام معاتبا:

-أنت تسيء الظن بي كثيرا يا صديقي، فلست مهملا إلى هذا الحد! لقد حددت الموضوع ورتبت أفكاره وبدأت بكتابتها لكنني لم أنته منها بعد..

تنهد طلال بارتياح بالغ:

- الحمد لله أرحت أعصابي، فالمشكلة أبسط مما تصورت بكثير.. إذا كان الأمر هكذا؛ فلا بأس عليك من أن تنعم بنوم هادئ تحلم فيه بنهاية الموضوع..

فضحك حسام:

- هذا ما كنت أنتظر سماعه.. جزاك الله خيرا، فقد بدأ النعاس يداعب أجفاني..

فابتسم طلال:

- هكذا إذن، تريد أن تلقي المسؤولية على عاتقي!

وغرق الاثنان بالضحك..

أما علاء الذي بقي صامتا يرقبهما وهو مستلقٍ على فراشه، فقد ازداد إعجابه بصديقه المخلص طلال، محب الخير للجميع.. وهو يرى صداقة تمثل فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

***

كانت الحماسة مشتعلة على أوجها في قاعة الدراسة الخاصة بالمستوى السادس يخالطها التفاعل والتحليل والنقاش في جو من المرح - الذي امتازت به دروس المعلم أمين- والكل يحاول الإدلاء بدلوه في التقاط الأمثلة من هنا وهناك عن ما سمعوه أو مر بهم من حوادث وقصص عن الصبر، حتى قال المعلم أمين:

- كل هذه الأمثلة تندرج تحت أقسام الصبر الثلاثة فمن يذكرنا بها مرة أخرى؟

فأجاب علاء:

- الصبر على المصيبة (أقدار الله المؤلمة)، الصبر على الطاعة، الصبر عن المعصية..

فعقب المعلم أمين- بعد أن أثنى على علاء- قائلا:

- ستبدؤون من هذا الأسبوع- إن شاء الله- إعداد التقارير عن أكثر المواقف التي تمر بكم وتحتاجون معها الصبر بشكل رئيس في حياتكم، والكيفية التي ستطورون بها أنفسكم لتعتاد الصبر، فكما تعلمنا: إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتصبر يصبره الله.. خاصة وأننا مقبلون على شهر رمضان إن شاء الله شهر الصبر والقرآن، وسأستلم منكم التقارير بعد العيد إن شاء الله.. وتذكروا أن هذه الدروس تطبيقية، فلا معنى لأي كلمة تكتبونها؛ إن لم تكن قد طبقت فعلا..

ثم نظر إلى علاء:

- سترى من زملائك كيفية إعداد هذه التقارير، فهذا هو الخلق الخامس الذي تم تطبيقه خلال المستويات الثلاثة حتى الآن، وستجد نسخا منها في المكتبة، فاسأل القيّم عنها، وحاول الاطلاع على أساليب زملائك فيها، وأنصحك بقراءة تقرير طلال في المبادرة وتقرير حسام في الصدق وتقرير حسان في الحياء وتقرير زيد في البر أما في التعاون فمعظم التقارير متقاربة ولم يكن بينها تفاوت كبير..

***

ابتسم المعلم عاصم وهو يرى اللهفة بادية على الوجوه وهو يقول لهم حاملا كراريسهم التي كتبت عليها مواضيع مختلفة:

- لم أطلع على المواضيع كالعادة لأنني أريد أن أطلع عليها معكم لتروا ردود أفعالي أمامكم مباشرة ولنشارك جميعا في الحكم عليها دون أن تكون لدي فكرة سابقة عن أي واحد منكم..

ثم تابع قائلا:

- سيقرأ كل واحد منكم موضوعه بنفسه ومن ثم سأجمعها لأرى صحة كتاباتكم ودقة إملائكم، أما اليوم فسنختار الموضوع الأجمل إن شاء الله..

ثم صمت برهة مفكرا بطريقة تعم فيها الإثارة قبل أن يقول:

- ليكتب كل واحد عنوان موضوعه في ورقة صغيرة يسلمها لي..

وبعد أن جمعت الأوراق قلبها بين يديه بنظرات فاحصة ثم قال:

- العناوين بصفة عامة جيدة ولنبدأ بـ (الواجبات أكثر من الأوقات) فهو مفيد جدا لنا..

ولم يخف على أحد صاحبه، فقد تكلم طلال وسط ابتسامة الجميع، أما حسام فقد حاول إخفاء ضحكة مكتومة وهو يدرك أنه المقصود الأول من كلام طلال..

ابتسم المعلم بإعجاب بعد أن أنهى طلال قراءة موضوعه:

- ما شاء الله.. مازلت الأول يا طلال حتى من دون معرفة مسبقة مني بأنك صاحب الموضوع.. بارك الله فيك يا بني.. وأرجو أن يكون الجميع قد وعوا ما سمعوه..

وقلب الأوراق بين يديه مرة أخرى قبل أن يقول:

- والآن من صاحب..

ثم صمت مفكرا قبل أن يتابع:

- يبدو أن صاحب هذا الموضوع على قدر كبير من النباهة والفطنة والذكاء، كما أن موضوعه على جانب كبير من الأهمية خاصة في هذا الزمن، لكنني لن أستطيع الجزم بذلك إلا بعد سماع الموضوع..

تلهف الجميع لمعرفة صاحب هذا المديح وهم يكتمون أنفاسهم من شدة الانفعال، وأخيرا قال المعلم:

- من كاتب (الأفكار السوداء تغزو أمتنا .. فمن يتصدى ؟!!)

ووسط ترقب الجميع.. تكلم حسام بحياء وقد علت محياه حمرة الخجل.

لم يستطع المعلم عاصم إخفاء مشاعر الغبطة والسعادة وهو يستمع لهذا الفتى وهو يوضح ما خفي عن الكثيرين حتى ممن يدعون الخبرة الطويلة والفهم العميق..

إلى أن ختم حسام كلامه بقوله:

- والمؤمن كيس فطن، لا يخفى عليه الخبيث من الطيب، وقد جعل قرآنه دليله، وقلبه حاديه في طريقه، قلمه منبر دعوته و لسانه يصدح بفكرته، وهو على ثقة بنصر ربه، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ..

هتف المعلم:

- ما شاء الله، لقد ازداد إعجابي بالموضوع أكثر بعد سماعه فهو على قدر رفيع من جزالة المعاني وقوة الأسلوب.. والآن الموضوع المشابه له على ما أعتقد، (القلم .. دعوة وجهاد).. ثم ابتسم متابعا:

- وما ينطبق على حسام من الثناء، ينطبق على صاحب هذا الموضوع لكن بعد أن نستمع له طبعا..

وبدأ زيد بالقراءة والمعلم يبدي إعجابه الشديد بالأسلوب الشائق الذي اتبعه زيد، حتى انتهى بقوله:

- ولئن كان هناك جهاد بالسيف فلا يخفى عليكم جهاد القلم الذي آن لنا خوض غماره بقوة..

وبعد أن أثنى المعلم عليه، قال بدهشة واضحة:

- إنني لأتساءل عن الدافع الذي دفعكم إلى الكتابة في هذه المعاني.. هل طرأ جديد؟؟

ابتسم حسان:

- الفضل في ذلك يعود لرواية (جوران ماركينا)، وما أثاره المعلم شاهر من تنبيهات حولها جزاه الله خيرا..

فابتسم المعلم عاصم:

- إذن شكر المعلم شاهر دين علينا، وجزاه الله خيرا حيث نبهكم إلى أمر خطير كهذا، مثيرا فيكم هذه الحماسة..

ثم استدرك مازحا:

- أم نشكر مؤلف الرواية الذي كان السبب الرئيس لهذه الضجة على رأي حسان!

فضحك الجميع بأدب ثم تابع المعلم:

- أستطيع الجزم إذن بأن هذا الموضوع (هل الحرية مطلقة ؟!!) نابع من نفس هذه الإيحاءات..

أجاب أصيل مبتسما:

- تماما..

وبعد أن أنهى أصيل قراءة موضوعه، الذي لم يخل من مقاطع أجبرت الجميع على الضحك، وختمه بقوله:

- والذي يصر بعد هذا كله على أن الحرية مطلقة فلا يعتبن على من ضربه وشتمه وأهان كرامته وسلبه حقوقه، فهكذا تكون الحرية برأيه ويسعدني أن أبدأ بتطبيق هذه الحرية معه فورا والسلام..

قال المعلم عاصم ضاحكا:

- ما هذا يا أصيل تستحق جائزة أطرف موضوع خارج عن المألوف!

وأومأ الجميع برؤوسهم موافقين، ثم قال المعلم عاصم:

- إن فضل المعلم شاهر علينا أعظم مما تصورت و بارك الله فيكم يا أحبائي..

ثم قلب نظره في الأوراق مرة أخرى قبل أن يقول:

- والآن أعتقد أننا بحاجة لغسل وجوهنا بالدموع قليلا مع علاء نور الدين وموضوعه (جراح في أمة).. فساعة وساعة..

قالها أمام تساؤل علاء الذي تساءل:

- وكيف عرفت أنه لي يا معلمي؟؟

فأجابه المعلم مبتسما:

- أو هناك صعوبة في ذلك يا علاء!

انطلق علاء يقرأ بصوت مجروح وقلب مكلوم وآهات حزينة خنقتها الدموع، ولم يخطئ المعلم قولا.. إذ سرعان ما اغتسلت الوجوه بأنهار الدموع الغزيرة النابعة عن مشاعر مكبوتة طال حبسها في أعماق النفوس السحيقة..

***

أعلن المدرب عادل قرب موعد المباراة الحاسمة بين فريقي المستوى السادس والخامس للثلاثية، وأخذت أصوات الهتاف والتشجيع تنطلق من مشجعي الطرفين وهم ينتظمون في أماكنهم حول الأرض المثلثة بانتظار شارة الانطلاق..

أخذ كلا الفريقين أماكنهم حيث وقف حسان وأصيل في مثلث البداية لفريقهم يقابلهما ماهر وعمير، أما حسام ونضال فقد وقفا في مثلث الرماية كلٌ في فريقه، وأخيرا أخذ معاذ مكانه في مثلث الحماية مقابلا لزياد..

كان كلا الفريقين على أهبة الاستعداد، عندما قال نضال مخاطبا الفريق الآخر:

- من حسن فألنا أننا نقوم بتطبيق خلق التعاون هذه الأيام وسنتعاون حتى الفوز عليكم، لذا كونوا مستعدين لتطبيق خلق الصبر عند خسارتكم في النهاية..

أنهى جملته وهو يطلق ضحكة مكتومة..

لكن أصيل لم يسكت بل رد عليه بابتسامة تحدّ:

- وما يدريك أننا لن نطبق الصبر حتى النصر، في حين أن علينا كذلك التعاون في مواساتكم بعد الخسارة؟؟

أما المدرب عادل، الذي كان يقف قرب عصا الانطلاق في رأس المثلث، فقد ترك مكانه وهو يحمل الثلاثية بيده مقبلا نحوهما بعد أن سمع كلامهما ونادى بصوت عال:

- أصيل.. نضال.. خارج اللعبة..

التفت الجميع بعيون متسائلة نحو الاثنين اللذين فوجئا بقرار المدرب، والذي عقب بقوله:

- الاستفزاز والتجريح ممنوعان وعلى الجميع التحلي بالروح الطيبة أثناء اللعب..

تبادل أصيل ونضال النظرات وأسرعا يعتذران للمدرب، قال أصيل:

- كنا نمزح فقط صدقنا أيها المدرب لم نقصد الإساءة، أليس كذلك يا نضال؟

وأومأ نضال برأسه موافقا فقال المدرب وهو يحاول الظهور بمظهر أكثر جدية:

- لا أحب كثرة المزاح هذه!

فطأطأ الاثنان رأسيهما معتذرين:

- نعدك أن لا نكررها مرة أخرى..

وبعد أن عادا إلى أماكنهما تبادلا النظرات التي فهم منها نضال تهديد أصيل فابتسم:

- سترى أكثر مما سمعت!

أعلنت شارة البداية وانطلقت الثلاثية في الهواء عاليا، لتبدأ مباراة مثيرة تابعها الجميع بحماسة باستثناء قاسم الذي جلس مجاملة لا أكثر، في حين أن فكره كان يسترجع ما حدث مع المعلم أمين، الموقف الذي لم يكن يتوقعه أبدا..

فبعد أن فتح الكتاب وقرأ أول جزء فيه: " الأوروج هو اسم القبيلة التي تنحدر من مدينة أوج في بلاد الأوروجال الأعجمية والتي ينتمي إليها خلفاء الخلافة الإسلامية لسبعة قرون، حيث ضمت تحتها جميع المناطق والبلاد الإسلامية عربية وغير عربية، وقد صنف هذا الكتاب- بعون الله وتوفيقه- ردا على من فرط بحقهم العظيم متجاهلا فضلهم ودورهم على مر القرون في حماية ديار المسلمين ووقوفهم في وجه المعتدين والمتآمرين، متناسيا موقف الخليفة (عبد القادر أوروج السابع) في درء الفتن و محاولته الفريدة في التنازل عن الخلافة للقائد العربي العظيم بدر الدين، لولا رفض الأخير وإصراره على البقاء تحت راية خلفاء الأوروج، فأسند إليه جل المهام ليعملا معا في التصدي للمكائد التي بدأت تنخر في عضد الأمة.. وبالمقابل فإن هذا التصنيف ينير الطريق أمام من أفرط في المبالغة بوصف العدل وحسن السياسة على الإطلاق، مشددا على أن الخلافة ما انهارت إلا بمؤامرات خارجية فقط، غاضا الطرف عن المنكرات والمظالم التي ازدادت في العصور المتأخرة، بالإضافة إلى الانغماس في الترف، وما صاحب ذلك من انتشار الجهل وفساد

الأخلاق، فكانت سببا في تعجيل زوال الخلافة الإسلامية، بمقتل الخليفة عبد السلام اوروج..."

كان قاسم غارقا في القراءة تماما وقد نسي من حوله حتى فوجئ بالمعلم أمين يباغته بقوله:

- يبدو أنك لم تطلع على هذا الكتاب من قبل لذا يمكنك استعارته، فستجد فيه إجابة على تساؤلاتك يا.. قاسم أوروج!

لم يصدق قاسم ما سمعه في البداية.. وظن أنه أخطأ سمعه، لكن المعلم أمين أعاد كلامه بما لا يدع مجالا للشك:

- لا تقلق يا قاسم فأنت لم تكشف سر والدك، وأنا لم أخبر أحدا بهذه الحقيقة، يا حفيد الخليفة عبد القادر أوروج السابع..

لم يذكر قاسم ما الذي حصل بعد ذلك فلم يكن ذهنه المشوش آنذاك قادرا على معرفة ما حدث، ولا يدري كيف واتته الجرأة ليسأل المعلم أمين من أين علم بهذا، في حين أن المعلم أمين لم يزد على قوله بابتسامته المعهودة:

- ألست من يدرسكم علم الفراسة يا قاسم!!

***

كان علاء على وشك أن يغط في النوم عندما سمع طرقا على الباب، في حين رفع حسام رأسه من فوق الوسادة وهو يقول:

- تفضل..

فُتح الباب ودخل قاسم وهو يحمل طبقا من الكعك اللذيذ قائلا:

- أعتذر عن الإزعاج، ولكنني أحببت أن تشاركوني هذا الكعك الذي وصلني من بعض معارفي هنا..

لكن حسام الذي هب واقفا بمجرد رؤيته فقد تهلل وجهه مستبشرا:

- أي إزعاج هذا يا أخي!! إنه ألذ إزعاج على الإطلاق، تكفينا طلعتك البهية، فجزاك الله خيرا..

فابتسم قاسم:

- كيف يا ترى استطيع رد سيل هذه المدائح المنهمرة، إنك تجعلني أتردد في زيارتكم مرة أخرى..

فهتف حسام بنبرة رجاء:

- إلا هذه.. أرجوك..

وضحك الاثنان قبل أن يقول قاسم:

- جزاك الله خيرا يا حسام لن أنس وقوفك إلى جانبي وأرجو أن تعذرني إن بدر مني ما يسوؤك فقد أخطأت كثيرا بحقكم يا أصدقائي فأنتم إخوتي بحق..

وفي تلك اللحظة دخل طلال حاملا كتبه فسر برؤية قاسم وقد أشرق وجهه من جديد، فقال مستبشرا وهو يرى طبق الكعك الشهي:

- هل هذا احتفال مسبق بقدوم رمضان؟

فابتسم قاسم:

- بل استعداد لاستقبال أعظم فرصة يمن الله بها على عباده المؤمنين من أجل انطلاقة جديدة بإذن الله..

(اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان)

***

الفصل الخامس

القوارير

اقترب المدرب علي من معاذ الذي بدا شاردا- بعد أن انتهى تدريب المطاعنة بالرماح لمرتبة مقدام:

- معاذ.. ليس هذا هو مستواك الذي عهدتك به.. هل هناك ما يشغلك؟؟

انتبه معاذ من شروده وحاول أن يصطنع ابتسامة ليقول بأدب:

- لا شيء!

فابتسم المدرب علي قبل أن يذهب قائلا:

- انتبه لنفسك يا بني، وإن احتجت لشيء فنحن موجودون.

فقال معاذ وقد شعر ببعض الحرج:

- جزاك الله خيرا يا مدربي، سأكون بخير إن شاء الله..

***

قضيت صلاة العصر وخرج معاذ من الجامع والهم باد على وجهه وما إن انتهى من انتعال حذائه ونهض واقفا حتى ارتطم بزيد الذي كان بانتظاره:

- هذا أنت!

فرد زيد:

- وما الغريب في هذا!!

ثم استطرد:

- لا تبدو على ما يرام أبدا يا معاذ، ومع ذلك تصر على أن لا تخبر أحدا بشيء، حتى أنك لم تكن بمهارتك المعهودة وأنت أفضل مطاعن بالرماح في المرتبة! فما الذي حدث يا صديقي؟؟

وعلى سور الحديقة القريبة من المسجد ارتكز معاذ ليحدث زيداً بما يشغله بعد إلحاحه الشديد عليه، في حين جلس زيد قربه ينصت باهتمام.

أطلق معاذ تنهيدة طويلة وهو يقول:

- كما ترى يا صديقي إرضاؤها يبدو شبه مستحيل!

ومرت فترة صمت قبل أن يقول زيد:

- أقدر ما تمر به يا صديقي ولكن.. لا شيء مستحيل، فقط علينا التفكير بهدوء لإيجاد الحل المناسب، ثم إن أمك بلا شك لن يرضيها أن تراك مهموما هكذا، ولم تكن تقصد أن تكلفك ما لا تطيق!

فرد معاذ:

- أعلم هذا، وأحاول دائما تفهم ما تمر به من ضغوط كثيرة، ولكن ما ذا بوسعي أن أفعل!! أبي مشغول بعيادته و مرضاه، وطلباته كثيرة بسبب طبيعة عمله ولا وقت لديه لإعطاء أمور المنزل حقها في النقاش والتوضيح كما تريد أمي؛ فأصبحت تتحمل هذا العبء وحدها! زد على ذلك أن أخي الصغير حمزة عبء كبير لوحده..

وصمت معاذ قليلا قبل أن يتابع:

- كثيرا ما تمنت أمي أنها لو رزقت ببنت تعينها، رغم أنني أبذل جهدي لأشعرها بأنني مستعد لكل شيء ولكن بلا فائدة!

ثم زفر بأسى وهو يقول:

- والأسوأ من هذا كله عندما يختلف والداي فتطلب مني أمي شيئا ويطلب والدي ضده! عندها أصبح عاجزا عن التفكير ولا أعرف ما ذا أفعل؛ حتى أنني قد أُغضب الاثنين معا!!

ومرت فترة صمت أخرى قطعها معاذ مستدركا:

- بالمناسبة يا زيد..

ثم صمت مترددا، فنظر إليه زيد مشجعا:

- ماذا هناك؟

فقال معاذ:

- حسنا أرجو أن تعذرني يا زيد، وأن لا يزعجك كلامي، فهناك سؤال يلح علي كثيرا!

فابتسم زيد مطمئنا:

- لا عليك يا صديقي لن تزعجني أبدا إن شاء الله فاسأل ما بدا لك، وهات ما لديك..

فتكلم معاذ أخيرا:

- رغم أنك سريع الغضب إلا أنك تبدو على نقيض ذلك تماما مع أمك.. أذكر يوم أن خرجنا ذات مرة من الجامع وكنّا نتحدث مع باقي الرفاق حول بحث علم الفلك فنادتك أمك موبخة لأنك تأخرت على طلبٍ طلبته منك، فاستأذنت

منا على عجل وأسرعت إليها معتذرا دون أن ألحظ عليك أي تمعر في وجهك غضبا لمناداتها لك بتلك الطريقة أمام رفاقك.. لقد أثرت عجبي يومها يا زيد!

دهش زيد لما سمعه:

- هل حدث ذلك حقا!! لا أذكر!! ما شاء الله! يبدو أنك شديد الملاحظة يا معاذ!

فابتسم معاذ:

- هذا لأن الموضوع يهمني..

ثم قال:

- إن برك لأمك معروف يا زيد ولطالما رغبت في معرفة سر ذلك، خاصة وأن من طبعك سرعة الغضب فكيف يختفي هذا كله فجأة مع أمك!! هذا ما يحيرني فعلا، لذا أشعر أن وراء ذلك سرا!

فوجئ زيد بتلك الملاحظة الدقيقة ثم أطرق رأسه مفكرا قبل أن يقول وقد تذكر ذلك الموقف الذي كاد أن ينساه وإن انطبع أثره عميقا في نفسه وردود أفعاله:

- الفضل في ذلك يعود بعد الله لأبي جزاه الله خيرا..

حملق معاذ في عينيه متسائلا:

- الشيخ عبد الرحيم! كيف؟؟

فتابع زيد:

- كما تعلم يا معاذ لا يوجد بيت يخلو من مشكلات، وعندما كانت تحدث أحيانا خلافات بين أمي وأبي كنت أثور كثيرا لأنني أرى أبي عالما وأعرف قدره وهيبته أمام الناس، لذا فهو بنظري الأعلم ولا يجوز لأي أحد كائنا من كان أن يخالفه الرأي أو يناقشه في كلامه حتى ولو كانت أمي ، رغم أن أبي نبهني لذلك كثيرا وأمرني بعدم التدخل، حتى جاء ذلك اليوم الذي لم أره غاضبا كما كان آنذاك..

ثم استطرد مبتسما:

- كما تعلم يا معاذ أنا الولد الوحيد وسط أخواتي البنات، فكنت أشعر أنه من الواجب علي الانتصار للجنس الذكوري في البيت بفطرتي!

فابتسم معاذ:

- أما في بيتنا فلا تجد أمي المسكينة من يساندها من الإناث فتولت المواجهة بنفسها..

ضحك الاثنان قليلا قبل أن يقول معاذ بلهفة:

- حسنا ما الذي حدث في ذلك اليوم؟

قال زيد راجعا بذاكرته إلى الوراء:

- يومها علا صوت أمي في جدال على أحد الأمور وكانت تُخطِّئ فيه تصرف أبي الذي أخذ يحاول شرح رؤيته لها بدون فائدة، فلم أحتمل ورفعت صوتي في وجه أمي وأنا أقول لها أن أبي أعلم منها فلماذا تجادله! لقد وقفت في وجه أمي دفاعا عن أبي فما كان منه إلا أن ضربني بقوة لم أعهدها منه من قبل بل ربما كانت المرة الوحيدة التي ضربني فيها بتلك الطريقة، كنت ما أزال غاضبا و متفاجئا في الوقت نفسه من ردة فعله نحوي وأنا الذي لم أحتمل طريقة خطاب أمي له، لقد نسي أبي وقتها خلافه مع أمي وأخذني إلى غرفة مغلقة وآثار الغضب من تصرفي بادية بوضوح على وجهه..

عصر زيد ذاكرته لتنقله إلى أحداث ذلك اليوم ولتلك الجلسة تحديدا وأخذت كلمات ذلك الحوار تتردد في أذنه وكأنها حدثت للتو..

التقط الشيخ عبد الرحيم أنفاسه الغاضبة بصعوبة:

- يبدو أن الكلام لم يجد معك نفعا فاضطررت لاستخدام يدي، أهذا يعجبك يا زيد!! هل تظنني أفرح عندما ترفع صوتك في وجه أمك!! حتى وإن أخطأت هي فهذا ليس مبررا لك أبدا، هل تفهم؟؟

فأجاب زيد والغضب ما يزال مسيطرا على نبرته:

- ولكن ألم تر طريقة تفكيرها وردودها إنها تثير الغيظ فعلا وأنت...

فقاطعه الشيخ عبد الرحيم بقوله:

- أهكذا تتحدث عن أمك؟؟ أهذه هي التربية التي جهدت في تنشئتك عليها!! ثم من أنت حتى تحكم على أمك؟ هل اطلعت على جميع العلوم والآراء و الأفهام حتى تأتي لتحكم عليها؟؟ أجبني.. أهكذا ربيتك يا زيد؟؟

أطرق زيد ولم يقل شيئا، فتابع والده كلامه:

- هل تظنني سأكون سعيدا وأنت تتحدث مع أمك بتلك الطريقة؟؟ سأعتبر نفسي مربيا فاشلا إن فرحت يوما بوقوفك في وجه أمك انتصارا لي!!!

وتنهد الشيخ عبد الرحيم قبل أن يقول بلهجة حانية:

- يا بني، إنني أحبك وأخاف عليك، فإذا أردت السلامة والنجاة فالزم بر أمك، ثم إنها بفضل الله امرأة صالحة ولم يحدث أن أمرتك بما يغضب ربك، لذا أرجوك يا بني أن أردت أن تقر عيني بحسن تربيتي لك فالزم بر أمك، أعرف أنك سريع الغضب وستحتاج وقتا حتى تضبط طبعك هذا وتطوعه على ما يرضي الله ولكن إياك ثم إياك أن تغضب أمك.. إياك يا زيد.. سأرددها وسأظل أذكرك بها فإياك أن تنساها، أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك..

وأخيرا تكلم زيد بعد أن لاحظ هدوء نفس والده قليلا:

- لقد وعدتك يا أبي أنني سأحرص على برها ولكن..

فشجعه والده على متابعة الكلام:

- ولكن ماذا؟ قل ما لديك يا زيد لنتناقش في الموضوع فهذا أفضل..

فقال زيد بشيء من التردد:

- أنني أتعجب منك يا أبي، كيف لي أن أتمالك نفسي وأنا أراك تُشعر أمي أحيانا- بردود أفعالك تجاه كلامها- أنها قد تكون أعلم منك في مسائل معينة، رغم أنها لم تدرس مثلك ولم تتلق العلم كما تلقيته عن الشيوخ والعلماء الأجلاء! عليك أن تُفهمها بوضوح أنه لا حق لها بمجادلة من هو أعلم منها!

أطرق الشيخ عبد الرحيم برأسه نحو الأرض متنهدا:

- هكذا إذن!!

ثم رفع رأسه متأملا في وجه ابنه المتسائل قبل أن يقول:

- من قال لك يا زيد بأن العلم والفهم وإصابة الرأي تقاس بعدد الدروس التي يتم حضورها أو بعدد العلماء الذين نستمع لهم؟؟ كلا يا بني، أنت مخطئ..

باغت زيد ذلك الرد الذي لم يتوقعه، فتساءل بدهشة:

- بماذا تقاس إذن؟؟

فقال الشيخ عبد الرحيم موضحا:

- لو كان الأمر كذلك لما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم عند مشورة زوجته أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية، ولما قال سيدنا عمر (أصابت امرأة وأخطأ عمر)، إياك أن تظن بأنني عندما أتحاور مع أمك أتحاور معها بصفتي أكثر منها علما، إذاً لما وصلنا إلى نتيجة ولكان الجدال عقيما، نحن نتحاور لنصل إلى الرأي الأقرب للصواب وفي أحيان كثيرة وجدت أن رأيها أصاب الحق أكثر مني فاقتنعت به، أما الخلاف بيننا فهو شيء طبيعي وعادة ما ينتهي ببعض التفاهم والحمد لله..

وصمت قليلا قبل أن يتابع:

- لقد قيل (من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم) ، وقد تكون أمك قليلة علم بنظر الآخرين ولكنها تطبق ما تعلمه فزادها الله بذلك علما على صاحب علم كثير لم يعمل به، فلا تغرنك الكميات والمظاهر واعلم أنك لا تملك أن تحكم على أحد بمظهره والله أعلم بجوهره..

ثم استطرد:

- وفي جميع الأحوال بغض النظر عن هذا وذاك، عليك بر أمك قدر استطاعتك ففيها نجاتك وسعادتك..

والتقط نفسا عميقا قبل أن يتابع قائلا:

- ما زلت في مقتبل العمر يا بني ولكنك رجل في عيني، وإنني أخشى عليك أن تكبر وفيك هذه الحدة مع أمك!

ثم قال وفي نبرته تأنيب واضح:

- ألا تدرك معنى أن تجد في نفسها عليك؟؟ ألم أخبرك أن صحابيا حرم نطق الشهادة بسبب ما كان في نفس أمه عليه وهو لا يدري؟؟ فكيف إن كنت تدري؟؟

لا أريد أن أعيد على مسامعك ما تعلمته وتقرأه باستمرار، عن فضل الأم وعظيم تضحيتها من أجل أبنائها وبناتها، ولكنني أريدك أن تفكر بينك وبين نفسك في ذلك وتأكد أن ما قدمته أمك وما زالت تقدمه أضعاف ما يخطر ببالك، ولولا ذلك لما قيل أن الجنة تحت أقدامها..

وأخذت الكلمات تتردد في ذهن زيد لتلامس كل جزء في جسده وكأنه ناقوس يدق بانتظام:

- أمك.. ثم.. أمك.. ثم.. أمك.. ثم.. أبوك..

أنهى زيد كلامه، في حين أطرق معاذ مفكرا، قبل أن يقول:

- مسكينة أمي! ماذا عساي أن أقول عنها بعد كل هذا!! لقد كنت استثقل واجبي تجاهها دون أن التفت إلى مشاعرها.. فقد كان معها الحق عندما تمنت ابنة تحن عليها وتقف إلى جوارها، لقد أشعرتني بكبر المسؤولية تجاهها يا زيد ونبهتني إلى خلل لم آخذه بعين الاعتبار سابقا.. كان الله في عونها..

ثم هتف فجأة:

- لقد عرفت، سأكتب عن الصبر في بر أمي فهذا ما ينقصني فعلا!!

فابتسم زيد:

- فكرة جيدة، ولكن هذا يدل أنك ما زلت تستثقل برها يا أخي!

فانتبه معاذ لكلماته وأسرع مبررا لنفسه:

- قد يكون معك الحق في هذا سأحاول أن أصل إلى المرحلة التي أشعر فيها بحلاوة برها إن شاء الله ولكن لا تتوقع مني أن أتغير فجأة! لا بد من الصبر على التغيير..

وابتسم متابعا:

- ثم إنني عثرت على موضوع أكتبه على أي حال!

فوافقه زيد قائلا:

- في هذه الحال ربما أكتب عن الصبر على أخواتي في البيت، فربما هذا هو أكثر ما أحتاجه الآن، خاصة وأنني أشعر أحيانا بأنني محاصر!

فضحك معاذ:

- من يراك مع المدرب عمر في الصراع و المشابكة لا يصدق أنك نشأت في بيت مع أخوات فقط!

فعلق زيد باسما:

- ما يدريك، ربما بسبب هذا وجدت في تدريبات القوة متنفسا لي، فأنا لا أستطيع التعبير عن غضبي في البيت أبدا مهما فقدت أعصابي منهن!

ثم قال مرددا كلمات والده:

- أنت رجل قوي.. وإياك أن تؤذي القوارير!

***

بالكاد استطاع علاء التقاط أنفاسه وهو يلهث بقوة- على ظهر الفرس- ماسحا عرقه بطرف كمه أثناء استعداده لمحاولة أخرى من جديد..

لاذ طلال بالصمت وهو يراقبه وقد أدرك أنه ما من أحد يستطيع ثني علاء عما عزم عليه الآن، أما حسام الذي كان يتابعه بقلق فقد قال أخيرا:

- هذا يكفي يا علاء لقد أجهدت نفسك كثيرا!!

لكن علاء أجاب بإصرار:

- ليس بعد، علي أن أنجح هذه المرة إن شاء الله فلم يعد هناك وقت..

وأخذت كلمات ذلك الحوار الذي سمعه تتردد في رأسه مشعلة فيه روح التحدي، حدث ذلك قبل يومين بعد انتهاء التدريب الذي أتقن فيه أخيرا مهارات السيطرة الأولية على الحصان والجري به وحده ليحوز على رضا المدرب ثابت لأول مرة، يومها سمع أصيل يتحدث بحماس:

- ستُعلن أسماء المرشحين لاختبار الترقي الثاني لمرتبة مقدام، قبل شهر رمضان، إن شاء الله..

فقال حسان:

- ومن أين أتيت بهذه الأخبار؟هل ستقول لي أن والدك تصله أخبار مدرستنا أيضا بحكم عمله!

فضحك أصيل:

- ليس إلى هذه الدرجة!

ثم تابع بجدية أكبر:

- سمعت المدربين يتحدثون عن هذا الموضوع أثناء ذهابي لرؤية المدرب سعد والاعتذار منه على ما حصل أثناء التدريب..

فعلق حسان:

- لا أدري إلى متى ستظل تخطيء وتعتذر!

فابتسم أصيل مربتا على كتفه بمرح:

- هون عليك يا رجل، فإن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون!

أما علاء الذي شغل فكره موضوع اختبار الترقي فقد سألهم باهتمام:

- هل تعرفون كيف يتم الترشيح؟؟

فأجاب حسان:

- بالنسبة للترشيح لمرتبة مقدام؛ عليك أن تكون قد اجتزت المستوى الخامس والربع الأول من المستوى السادس بواقع ٧٠ جزءاً في علوم الجدال، بالإضافة لإتقانك مهارات مرتبة همام بشهادة المدربين..

فسأل علاء بلهفة:

- وما هي المهارات المطلوبة؟

فأجابه حسان:

- إحكام السيطرة على الخيل في الركوب والجري والقفز واتقان الرمي في المدى المتوسط واستعمال العصا عوضا عن الرمح في الدفاع عن النفس وأخيرا المبارزة بالسيوف من الدرجة الثانية، ذات النصل الخفيف..

فأردف أصيل موضحا:

- هناك ثلاث فرص للاختبار؛ فمن لم يحرز سبعين جزءا مثلا في الربع الأول من المستوى السادس فلديه فرصتان بعد الربع الثاني وبعد الربع الثالث لإحراز الأجزاء المطلوبة..

انتبه علاء من شروده مع أحداث ذلك اليوم على صوت حسام الذي صرخ قائلا:

- انتبه يا علاء!

وفي اللحظة الأخيرة استطاع علاء جذب لجام فرسه، ليقفز معها فوق الحاجز، الذي كاد أن يرتطم به، وهو يندفع نحوه بسرعة شديدة والعزيمة تردد أصداءها في

نفسه.. "كلما أسرعت في اجتياز الاختبارات ومراتب الترقي؛ اقتربت أكثر من تحقيق حلمك والعودة إلى مدينتك فارسا صنديدا قويا".. كانت قفزة مذهلة أثارت الغبار بقوتها.. علا الهتاف على أثرها وقفز حسام من فوق السياج بفرح منقطع النظير:

- لقد فعلتها يا علاء، ما شاء الله رااااااااااااااائع..

وأسرع مع طلال وقاسم- الذي كان يراقبه بهدوء- نحوه يهنئونه، في حين أرخى علاء رأسه لتلامس رقبة الفرس وقد انهكت قواه مرددا:

- الحمد لله.. لقد فعلتها إذن!!

قال قاسم:

- أحسنت صنعا يا علاء، لقد كانت قفزة موفقة بفضل الله..

ولم يستطع حسام ضبط انفعالاته المتحمسة، فجذبه من فوق فرسه يعانقه، حتى كاد أن يسقطه أرضا:

- أنت رائع فعلا ما شاء الله لقد فاجأتنا أيها الفارس البطل!! أحسنت يا صديقي أحسنت..

أما طلال الذي تهلل وجه بابتسامة عريضة فقد قال معلقا:

- على رسلك يا حسام لقد خنقته!

فقال حسام ضاحكا:

- يستحق أكثر من هذا فقد خنق أنفاسي وأنا أراقبه!

فضحك علاء:

- آسف ولكنك لم تكن مضطرا لذلك يا صديقي!

فرد حسام:

- وهل تركت لنا خيارا آخر! هذه هي فرصتنا الوحيدة لرؤيتك، ولو كنت معنا في التدريب نفسه لكان لي معك شأن آخر!

فقال قاسم:

- بإذن الله سيكون معكم قريبا..

ثم نظر إلى علاء مشجعا:

- أتوقع أن يتم ترشيحك لاختبار الارتقاء فاستعد جيدا يا علاء!

خفق قلب علاء بشدة وخيم الصمت للحظة قبل أن يقول حسام:

- أسأل الله أن يسهل ذلك ويكتب لك الخير فيه..

وابتسم طلال مطمئنا بعد أن شعر بانفعال علاء إثر ذكر الاختبار:

- المهم أنك تدربت باجتهاد وبذلت جهدك ومهما كانت النتائج فهي من الله وحده وكلها خير..

ثم قال:

- سيحين وقت صلاة المغرب وأنت لم تُعد الفرس إلى الإسطبل بعد كما وعدت السيد رافع، ولا تنس أن عليك إطعامها وتنظيفها أيضا فقد انتهى وقت عمل عدنان..

فقال علاء مازحا بعد أن هدأت نفسه:

- لا تقلق سيساعدني حسام تعبيرا عن فرحه، أليس كذلك يا صديقي العزيز؟

فابتسم حسام:

- على الرحب والسعة ولكن إياك أن تعيدها ثانية!

وضحك الجميع بمرح..

كانت من أروع اللحظات التي مرت على علاء منذ وصوله المدرسة، إنها القفزة الأولى بنجاح..

***

"كيف حالك يا أخي العزيز؟ أرجو أن تكون بخير ..

الحمد لله نحن بخير، ومصعب أصبح يتكلم بطلاقة، أما حاتم فما زال يفتقدك كثيرا حتى أنه طلب مني أن أعيد له قراءة رسالتك الأخيرة عشر مرات على الأقل!! هذا إلى جانب احتفاظه برسائلك في خزانته الخاصة وكأنها كنزه الثمين! وقد ألحقه أبي بدار أطفال الوزارة مؤخرا إلا أنه لم يزل خجولا يرفض الاحتكاك ببقية الأطفال، ولا يخفى عليك قلق أمي عليه من هذه الناحية رغم أنها أصبحت أكثر انشغالا بعد أن تولت الإشراف على مدارس الفتيات العليا و افتتحت دار الأيتام الجديدة، و من ثم اختيارها لتكون رئيسة دور رعاية الأيتام في المدينة، بالإضافة إلى منصبها في وزارة الرعاية الاجتماعية، وأبي يستعد في هذه الايام لاستلام مهامه الجديدة في وزارة كبار التجار بعد أن عُين من قبل الحاكم ليكون المسئول الأول عن التجارة في منطقة التلال، علما بأنه قد تم إعلان التصنيفات الجديدة مؤخرا لأكبر العائلات المرموقة الثرية في المنطقة؛ فكانت عائلتنا في المركز الخامس بعد عائلة الحاكم و الوزير الأول وعائلتين لا أذكرهما.. و كما ترى فالجميع مشغولون كالعادة ويزدادون شغلا مع الأيام، بالمناسبة أوصاني البستاني والحارس وسائقا العربات بإبلاغ سلامهم لك، أما مرجانة و درة فيفتقدان الفوضى التي تحدثها بالمنزل، إذ لم يعد لديهما الكثير من الأعمال للقيام بها خاصة بعد أن عهدت أمي بمصعب لمربية جديدة تدعى لطيفة وهي لطيفة بالفعل وطيبة نرجو أن تكون عند حسن الظن، كما أحضرنا طاهية جديدة بعد أن قررت سعيدة السفر مع عائلتها، كان فراقها مؤلما لنا جميعا وقد أوصتني بإعطاء الطاهية الجديدة طريقة صنع الحلوى التي كنت تحبها بعد أن كتبت وصفتها، فلا تقلق.. كما تعلم أيها السيد المحترم حسام؛ محبوب من الجميع كالعادة (واللهم لا حسد)...."

توقف حسام عن القراءة قليلا، وهو يذكر تلك اللحظات السعيدة التي قضاها مع سعيدة، ومسح دمعات امتلأت بها عينيه، وهو يدعو" أسأل الله أن يوفقها أينما كانت ويجازيها خير الجزاء".. ثم تابع القراءة:

"بالنسبة لي أشعر بالملل الشديد فدروس المستوى الثامن أكثر مللا من المستوى السابع التي كنت أظنها في قمة الملل!! أنهيت قراءة جميع الروايات والقصص المتوفرة بالسوق وعزمت على الدخول في إتقان فن رسوم (الكوماسيل) فهي فكرة ممتعة ومسلية في الوقت نفسه ومن يدري لعلي أنافس رسّامي بلاد الناسينال وأبدأ بشق طريقي الخاص في هذا المجال، لكن لا تقلق ما زلت الأولى في المدرسة..

أخبرتني إحدى صديقاتي أن الجزء الرابع من رواية (لابورا) قد بيعت في منطقة الجبال لذا أرجو منك أن ترسلها لي بالبريد العاجل وسأكون بانتظارها، ولا أريد سماع حججك حولها فلا تخيب أملي فسيستغرق وصولها لمنطقة التلال وقتا أطول، بل انه لا أحد هنا يعرف متى ستصل إلى المنطقة أصلا وأنا لا أطيق الانتظار.."

تنهد حسام وجلس على حافة سريره بعد أن كان مستلقيا والرسالة ما تزال في يده:

- هداك الله يا أختي، لقد أخبرتك عما قاله المعلم شاهر عنها فكيف لي أن أبعثها لك بيدي هاتين!!!

وفي تلك اللحظة دخل طلال حاملا منشفة ينشف بها رأسه المبلل بالماء، فألقى السلام على حسام ثم سأله مستفسرا:

- كيف حال أهلك؟ أرجو أنهم بخير؟

فنظر إليه حسام والحزن باد في عينيه:

- الحمد لله الجميع بخير سوى أن الخالة سعيدة قد سافرت..

بدا الاهتمام على وجه طلال:

- تقصد تلك الطاهية الطيبة التي كانت تعمل لديكم منذ أكثر من خمسة عشر عاما؟

أومأ حسام برأسه إيجابا:

- أجل فنحن لم نحضر طاهية غيرها خلال تلك الفترة.. لقد كبرنا وهي معنا، إنها حال الدنيا لقاء وفراق..

ثم تابع بلهجة لا تخلو من حيرة:

- لا أعرف كيف أتصرف مع حليمة، لقد طلبت مني إرسال الجزء الرابع من لابورا رغم أنني سألت المعلم شاهر عنها وقال بأنها تحمل الكثير من الأفكار الخاطئة فماذا أفعل؟ هل أرسلها لها بناء على طلبها؟ فانا لا أريدها أن تغضب مني..

جلس طلال أمام حسام وأطرق مفكرا:

- ليست أختك الوحيدة التي تتابع مثل هذه الروايات، ثم إنها قد قرأت الأجزاء الثلاثة الأولى وستشتري الجزء الرابع بمجرد وصوله لمنطقتكم على أي حال، وعدم إرسالك الجزء لها سيشعرها بمقدار التغير الذي طرأ على تفكيرك، خاصة وأنك كنت تشاركها قراءة الروايات من قبل وستعزو ذلك كله للمدرسة والبيئة التي انتقلت لها فيشعرها بالحنق تجاهها..

كانت كلمات طلال تجسد الواقع الذي يعيشه حسام والذي لم يكن يجهله وإن حاول تناسيه مرات عديدة، فلبث صامتا هنيهة قبل أن يزفر بأسى:

- لطالما تمنيت أن أكون من أسرة عادية تعيش في منزل عادي بهدوء.. لقد شعرت الفرق الكبير بين ما كنت عليه سابقا وما أصبحت عليه الآن، وكم أتمنى أن تعيش أختي الجو الذي أعيشه بل وأهلي جميعا، فلم أعرف طعم الحياة الحقيقي إلا بعد أن جئت إلى هنا.. كرهت المجاملات وتعامل الناس معك لأجل منصبك، فلا تميز بين من يحبك حقا ومن يستغلك ويخدعك.. كم أكره تلك المناصب وذاك النفوذ الذي يحول بينك وبين معرفة الآخرين على حقيقتهم!

كان طلال يدرك تماما أبعاد ما يقوله حسام، وعاد بذاكرته إلى الوراء إلى تلك الأيام التي التقاه فيها لأول مرة....

قبل خمس سنوات في إحدى مدارس المستويات الأولى النظامية في مدينة نجم الواقعة في منطقة التلال فوجئ طلال بما سمعه من بعض التلاميذ -الذين يعدهم حسام من أصدقائه- كان أحدهم يقول وبدا كالزعيم بينهم:

- لن يظل حسام محبوبا هكذا من المعلمين، بعد أن يصبح والدي أغنى من والده..

فقال آخر:

- لقد سمعت أن والده يرشي المعلمين لكي يتجاوزوا عن أخطائه!

وأكد ثالث:

- هذا صحيح فالجميع يعرف نفوذ كبير التجار عبد اللطيف سلمان لذا فهم يتقربون منه..

لم يستطع طلال وقتها أن يظل صامتا، رغم أنه لم يكن على معرفة وطيدة بأولئك الأولاد، فهو لم ينتقل إلى المدرسة إلا من فترة بسيطة.. لكنه يعرف أن للتاجر عبد اللطيف سلمان فضلاً كبيراً.. فتدخل بالحديث معهم قائلا:

- لا يجوز أن تحكموا عليه هكذا فقط لأنه ابن كبير التجار، أنتم لم تروا بأعينكم ما تدّعونه.. ثم إن حسام ولد طيب ومحبوب من الجميع حتى أنتم.. تحبون اللعب معه وتدّعون صداقته فكيف تتحدثون عنه هكذا؟؟

التفت إليه الأولاد بدهشة ثم قال زعيمهم:

- وأنت كيف تتجسس علينا؟

فرد طلال مدافعا عن نفسه بقوة:

- لم أكن أتجسس، كنت مارا من هنا وأنتم من يتحدث بصوت مرتفع!

خاف الأولاد من تلك اللهجة القوية، وقال أحدهم وقد بدا أكثرهم توترا:

- أنت لن تخبره بما قلناه أليس كذلك؟

فقال طلال بثقة:

- لست نماما لأفعل ذلك، ولكنني أنصحكم بعدم العودة لمثلها..

وفي تلك اللحظة أقبل حسام يجري مسرورا مع ثلاثة من الأولاد وهو يهتف:

- لقد فزنا على فريق الكواكب، هيا ابتهجوا يا أصحابي لقد تقدم فريقنا فريق النجوم ليصعد إلى مقدمة الفرق المشاركة..

ثم قال أحد الأولاد الذين أقبلوا معه:

- لقد حقق حسام نقاط الفوز الساحقة برميته الثلاثية الرائعة، لقد كان رائعا جدا يا أصحاب..

وتحلق بقية الأولاد حول حسام وهم يرمقون طلال بنظرات استجداء لينسى ما سمع..

أحداث كثيرة مرت على نفس هذا المنوال..

تنهد طلال وهو يحدث نفسه مسترجعا تلك الذكريات:

- رغم أننا كنا صغارا ولم نكن نفقه الكثير إلا أن ذلك يبدو استثناء في لغة المال التي يفهمها الجميع!!

ثم التفت إلى حسام الذي أرخى عينيه محدقا نحو الأرض وهو يضع رأسه بين يديه مخللا شعره بأصابعه مرتكزا بمرفقيه على فخذيه، دون أن يقول شيئا فاقترب منه طلال وجلس إلى جانبه قائلا:

- هذا ليس بيدك، فقد كتب الله لك أن تولد في أسرة ثرية جدا ذات مكانة مرموقة وهي بالطبع لها ظروفها المختلفة عن الآخرين..

ثم صمت قليلا قبل أن يتابع:

- أشعر معك يا صديقي ولا أريد أن أقسو عليك بكلامي ولكن عليك التصرف بحكمة حتى لا تخسر علاقتك بأسرتك التي بدأت تستاء من تغيرك،

والحمد لله والدك رجل طيب وأمك سيدة فاضلة وكل من عرفهما يشهدون لهما بحسن التعامل وسمو الخلق وهذه نعمة كبيرة فلا تغم نفسك كثيرا ببعض التساهلات التي تحدث..

لقد خلقت لغاية عظيمة ووجودك في هذه العائلة يخدم هذه الغاية بلا شك، ثم أين تفاؤلك المعهود يا صديقي؟؟ لماذا تتركه جانبا عندما يختص الموضوع بعائلتك؟؟

عندها رفع حسام رأسه مبتسما وكأن شيئا لم يكن:

- ما زلت متفائلا والحمد لله إنها مجرد أحاديث نفس لا أكثر..

فابتسم طلال:

- هذا ما أتوقعه منك دائما..

لكن حسام استدرك قائلا:

- والآن ماذا علي أن أفعل مع حليمة؟

فقال طلال الذي كان قد أعد الجواب له:

- لم لا تسأل المعلم أمين أو الشيخ عبد الرحيم؟

***

لم يستطع حسان إرغام نفسه على الصمت وهو يستمع لكلام المعلم أمين في درس (الحديث وعلومه)، فاستأذن بالكلام- قبل أن ينهي المعلم أمين كلامه- قائلا:

- كيف لنا أن نشاورهن يا أستاذ وهن ناقصات عقل ودين؟؟

بدا الاهتمام على وجه المعلم و بدلا من أن يغضب لتسرع حسان بالكلام - قبل أن يأتي دوره في الحديث- ابتسم قائلا:

- بارك الله فيك يا حسان فقد أثرت نقطة هامة جدا، فهذا من أكثر الأحاديث التي أُسيء استخدامها لتناسب بعض الأهواء والمصالح الشخصية، فكم من امرأة حكيمة راجحة العقل تطاول عليها سفيه لا يفقه من أمر دينه شيئا ولا يحفظ من كلام نبيه إلا هذا الحديث وما شابهه، بعد أن وجد فيه شفاء لغروره وإرضاء لنفسه.. لهذا الحديث يا أبنائي مناسبة وقصة فابحثوا عنها إذ لن يتسع المجال لذكرها في درسنا هذا، وسنتناقش فيه فيما بعد إن شاء الله، ولكن إياكم أن تغتروا بمثل تلك الاستنتاجات الخاطئة وضعوا نصب أعينكم حديث اليوم (ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم) وحاشا للكريم وأكرم الكرماء صلى الله عليه وسلم أن يقصد من كلامه ذاك إهانتهن..

ثم استطرد قائلا:

- ومحال أن يخالف الدين الصحيح الذي أرسله الله رحمة للعالمين الفطرة السليمة التي تأبى الإهانة والتجريح.. فاحذروا يا أبنائي من مزالق الفهم السقيم والذي حدا بالجهلة من الآباء والأزواج والأخوة بالتسلط على بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم بغير وجه حق فسلط الله علينا أعداءنا وساقنا إلى ما نحن عليه من جرأتهم علينا، (وكما تكونون يول عليكم).. والمصيبة الكبرى عندما يتطاول الأبناء على أمهاتهم من هذا المنطلق أيضا متناسين عظيم فضلهن وعقوبة من أغضبهن، فعليكم يا أبنائي الفرسان تقع مسؤولية إعادة الأمور إلى نصابها.. ورفقا بالقوارير..

عندها تبادل معاذ وزيد نظرات صامتة وابتسامة تقول: " وكأنه سمع حديثنا البارحة.. لقد فهمنا الدرس يا معلم"..

انتهى الدرس وخرج المعلم أمين ليطلق أصيل ضحكة كبيرة وهو يقول:

- يا لفرحة أختك سارة يا حسان، كأن الدرس قد فُصّل خصيصا لها.. هون عليك يا حسان، لا يستحق الأمر كل هذه الكآبة..

لكن حسان تنهد بضيق:

- هكذا تشمت بي يا أصيل!! لو كان لديك أخت مثلها عنيدة وتتفنن في التنكيد لتثبت جدارتها وتفوقها عليك لما ضحكت هكذا!! هذا ما كان ينقصني!!!

فابتسم أصيل ولم يقاوم متابعة مزاحه في هذا الموضوع بالذات:

- ليست شماتة يا صديقي، ولكنها فرصة سارة الوحيدة للتشفي منك، فإن لم تخبرها أنت عن هذا الدرس فسأخبرها أنا..

ولم يستطع إيقاف ضحكه وهو يتخيل منظر حسان وشقيقته المشاكسة، حتى دخل المعلم شاهر ولكزه ياسر ليصمت فبذل جهدا كبيرا قبل أن يلتزم الهدوء التام أمام نظرات المعلم الصارمة..

" لم تستطع ماركينا إخفاء خوفها الشديد من تصرفات ذلك المجرم المرعبة، فصرخت بأعلى صوتها مستنجدة بكل القوى..

لكن جوران وقف بتحد واضح أمام خصمه وجها لوجه:

- ماذا تظن نفسك يا أوزوجا!! لن يخيفني نذل مثلك! واعلم أنك لن تكون فارسا حقيقيا إن لم تحسن معاملة النساء"

عندها طلب المعلم شاهر من ياسر بالتوقف عن متابعة القراءة معلقا:

- هذه إحدى اللفتات الجميلة التي تستحق منا الوقوف عندها، فعلى الرغم من معظم الأفكار الخاطئة التي تحويها الرواية وأمثالها إلا أنها لا تخلو من بعض الفوائد، فإذا كان هذا كلام من لا يلتزم منهجا ولا دينا فكيف بفرسان المسلمين

الذين أوصاهم رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم بأن لا يؤذوا امرأة ولا شيخا!!

لو تأملنا في حالنا يا أبنائي لعرفنا السبب الذي يحدو بفتياتنا وفتياننا أيضا إلى التعلق بأمثال هذه الروايات والقصص، فيفتنون بالبلاد القادمة منها وإن لم يدركوا حقيقة ما يحدث فيها، خاصة ونحن نتجاهل كلام رسولنا صلى الله عليه وسلم (أوصيكم بالنساء خيرا)، ولا يكفينا هذا التجاهل وحسب بل ونختلق الأعذار والمبررات أيضا لما نقوم به من تعنت وتشدد إرضاء لشهوة التسلط باسم الدين، والدين منه بريء مما أدى إلى ظهوراتجاه معاكس تماما ولكن من أجل شهوة أخرى.. ألا وهي جعل نسائنا دمى طيعة متحررة من كل خلق وكرامة! وانقسمت النساء قسمين، قسم منهن خاف على دينه فرضين بالتنازل عن حقوقهن هذا إن كن يعرفنها أصلا وانشغلن بتوافه الأمور بعد أن وجدن فيها متنفسا لهن، وقسم طفح به الكيل فآثرن التحرر من كل شيء ولو على حساب الدين و الخلق!

انتبه المعلم شاهر إلى أنه تكلم أكثر مما يجب فابتسم قائلا:

- وكما يقول لكم المعلم أمين دائما، عليكم يا أبنائي الفرسان تقع مسؤولية إعادة الأمور إلى نصابها..

وقبل أن يخرج التفت إلى حسام قائلا:

- تعال إلى غرفتي بعد نهاية الدروس فسأكون بانتظارك إن شاء الله..

أومأ حسام إيجابا وقد خامره الفضول لمعرفة ما الذي يريده المعلم لكن طلال همس له:

- ربما بشأن ما حدثت به الشيخ عبد الرحيم بعد صلاة الفجر عن موضوع أختك حليمة..

نظر حسام متأملا:

- ربما..

لم يكد المعلم شاهر يخرج من قاعة الدرس حتى علت أصوات الضحكات والعيون تنظر إلى حسان الذي قال بغيظ:

- هذه مؤامرة ضدنا!! بدأت أشك بأن لسارة ضلعاً في هذا الموضوع.. أشعر بالظلم وسأطالب بحق الولد المسكين!!

فقال معاذ مازحا:

- ألهذه الدرجة يا حسان!! يعني لا داعي لأن أحزن لعدم وجود أخوات لي؟

فرد حسان:

- بل افرح يا أخي وارقص طربا!

وعلت الضحكات مرة أخرى أما علاء الذي جلس بصمت فقد كانت مشاعره مختلفة تماما عما يسمعه، حتى انتبه على يد حسام التي تُلوّح أمام عينيه:

- إلى أين وصلت!!

فابتسم علاء:

- إلى ما وراء الأفق..

ثم استطرد قائلا:

- لاحظت منذ التحاقي بالمدرسة أننا إذا تكلمنا في موضوع ما في أحد الدروس، فإن بقية الدروس تدور حول الموضوع نفسه، حتى خُطَب الشيخ عبد الرحيم أيام الجمعة ودروسه تأخذ المنحى نفسه!

فقال حسام:

- هذه ليست ملاحظة وحسب، بل حقيقة.. فعلى هذا الأساس أنشأت المدرسة منهجها؛ (الترابط والتكامل) ولن تجد حلقات مبعثرة، بل كلها منتظمة في سلسلة فريدة بل وجميلة أيضا، هذا من أكثر ما يميز الدراسة هنا عن غيرها..

***

ختم المعلم رائد كلامه عن أم عمارة الأنصارية (نسيبة بنت كعب) رضي الله عنها في درس سير أعلام الفرسان بقوله:

- لذلك لم يكن دور النساء في تحقيق الانتصارات بأقل من دور الرجال، حتى وإن لم تُكثر الأخبار من ذكرها..

ثم نظر إلى علاء الذي كان ينصت باهتمام وآلاف الصور ترتسم في مخيلته، فابتسم قائلا:

- ولا يخفى عليكم دور السيدة أسماء عبد القادر والدة صديقكم علاء فيما يحدث الآن من التصدي لجيوش رامان في منطقة المروج الخضراء وقد أذهلتهم بشجاعتها فلم يملكوا إلا الاعتراف بعجزهم أمام تخطيها حواجزهم رغم أنوفهم..

أرخى علاء عينه وقد خفق قلبه وتوردت وجنتاه: "يا للإحراج!!!"

لكن المعلم رائد قال بلهجة واثقة قوية:

- بل ارفع رأسك عاليا فخرا بأمك التي أعادت لذاكرتنا أمجاد أسماء بنت أبي بكر و خولة بنت الأزور رضي الله عنهم جميعا..

وقبل ان يخرج التفت إليهم مذكرا:

- لا تنسوا البحوث، وإياكم والتكرار فاتفقوا فيما بينكم..

***

فوجئ حسام بعنوان الكتاب الذي ناوله إياه المعلم شاهر:

" لابـــــــــــــــــــــــــــورا

الجـــــزء الرابــــع

دوبسلاس ريف"

والتفت إليه قائلا:

- ألم تخبرني يا معلمي من قبل أنها قصة ليست جيدة؟

فابتسم المعلم شاهر قائلا:

- بلى ولكنها نسخة خاصة..

لم يبد على حسام أنه فهم شيئا، فتابع المعلم شاهر كلامه:

- كما قال لك الشيخ عبد الرحيم من الصعب أن تمنع إنسانا شيئا اعتاده دون أن تعطيه البديل، وحفاظك على علاقات طيبة مع أسرتك أمر هام في جميع الأحوال، ثم إنك تعلم أن أختك تنوي شراء النسخة عاجلا أم آجلا ولكن الفرق أنها إن اشترتها بنفسها ولم ترسلها لها ستكون من وجهة نظرك أنت قد برّأت نفسك أمام الله، أما هي ففي الغالب ستأخذ منك جانبا سلبيا تضيفه إلى حصيلة تراكمية كبيرة قد تؤدي إلى عواقب أخرى أكثر سوءا.. وكما قلت لك هذه نسخة خاصة.. فافتحه لترى ما فيه..

قلب حسام ورقات الكتاب ليجد هوامشها مزدحمة بتعليقات المعلم شاهر وإضافاته بشكل مرتب وواضح، لدرجة أنها أثارت فضوله، فتابع المعلم شاهر موضحا:

- القصة شائقة بلا ريب ومحبوكة بإحكام ولا أحد يستطيع أن ينكر جمال صياغتها وروعة عرض أفكارها وتسلسل أحداثها ومع ذلك لا أنصح أحدا بقراءتها لما تحويه من أفكار خاطئة تنافي معتقداتنا ومبادئنا، لكن هذا لا ينطبق على

أختك التي تتابعها أصلا، في هذه الحالة يكون من الحكمة بيان ما فيها على طريقتهم..

أعجب حسام كثيرا بذلك الحل الذي لم يخطر بباله، لكنه تساءل:

- ما الذي تقصده يا معلمي بطريقتهم؟

فقال المعلم شاهر:

- بصفتي معلما للغتي سومار ورامان فإنني أتابع دائما جديدهما ويهمني الاطلاع على قصصهم ورواياتهم التي تنتشر بيننا ومدى تفاعل الناس معها ودراسة تأثيرها خاصة على الناشئة والشباب، والذين يحبون عادة النقاش بما يقرؤونه فيما بينهم وهذه هي طريقتهم التي يستمتعون من خلالها بتلك القصص والروايات وأظن أختك واحدة منهم..

عندها أدرك حسام ما يعنيه المعلم شاهر تماما، ستتحمس حليمة لتلك التعليقات والإضافات بلا شك، لكن المعلم شاهر قطع حبل أفكاره بقوله:

- وأخذا للحيطة حتى لا تستاء أختك من كونك لم تحضر لها نسخة جديدة، أخبرها أنك رغبت في الإسراع بإرسال الكتاب لها ولم يكن لديك الوقت الكافي لشرائه من السوق فأعطاك المعلم شاهر نسخته.. ولست كاذبا في ذلك..

وابتسم المعلم شاهر:

- ما رأيك؟

فابتسم حسام موافقا وقد ازداد إعجابه بمعلمه الذي عمل حسابا لكل شيء..

ظن حسام أن اللقاء قد انتهى فهم بالانصراف لكن المعلم استوقفه قائلا:

- هل تجيد أختك لغة سومار جيدا؟

فابتسم حسام وهو يقول:

- بل بشكل ممتاز جدا ما شاء الله، أختي تجيد ثلاث لغات بطلاقة غير لغة العرب..

أبدى المعلم شاهر إعجابه قائلا:

- ما شاء الله يبدو أنها فتاة شديدة الذكاء ولديها قدرات كبيرة..

ثم تناول كتابا آخر قدمه لحسام قائلا:

- هذه رواية قيمة بلغة سومار اطلعت عليها مؤخرا ولم أجد لها ترجمة، وقد عزمت على إعداد دروسكم القادمة في لغة سومار منها عوضا عن الرواية المقررة في دروس المنطقة النظامية..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- أرسلها لأختك أيضا ففيها من الحكم الكثير وستعجبها بلا ريب

ألقى حسام نظرة على الغلاف، وشعر بحماسة شديدة وهو يقرأ:

"الطريـــــــــــق إلى الشمــــــس

لورابار كولي"

***

بدا التذمر واضحا على وجه حسان وهو يسير مع رفاقه باتجاه جامع الفتح لأداء صلاة الظهر، فعلق أصيل:

- إلى متى ستتحفنا بهذا الوجه العابس يا رجل!! هل أرسم لك ابتسامة كبيرة بالقلم؟

فرد حسان:

- لا داعي لهذا المزاح فلست بمزاج جيد..

ثم التقط نفسا قبل أن يقول بحنق:

- كيف لي أن أحتمل ما قاله المعلم أمين بأن علينا تعليم أخواتنا وبناتنا حقوقهن لأن جهلهن بها وسكوتهن عنها هو الذي ساعد الرجال على التمادي في الظلم، كأن هذا ما ينقص أختي!! والأجدر بي أن أتعلم كيف آخذ حقي منها!!

فقال ياسر:

- لم لا تذهب للمعلم أمين وتخبره، بدلا من أن تظل حانقا على كلامه هكذا!!

لكن حسان أردف قائلا:

- لا أشعر أننا بمدرسة للفروسية على الإطلاق! لا نأخذ ركوب الخيل إلا مرتين في الأسبوع والشيء نفسه مع الرماية وباقي علوم الجلاد، في حين أننا لا نكل ولا نمل من دروس علوم الجدال الكثيرة!! لا أعرف كيف سنصبح صناديد على هذا المنوال؟؟ أليس من الأفضل لهم أن يدربونا على مهارات أكثر في القتال والمواجهة لنكون فرسانا بحق!!

فابتسم حسام- الذي التحق برفاقه بعد أن وضع كتب المعلم شاهر في غرفته- مجيبا:

- هذا إن كنت تريد أن تصبح آلة صماء بلا عقل أو قلب تحارب بلا تفكير ولا رحمة..

وتابع طلال مؤكدا:

- يبدو أنك أخطأت فهم معنى الفارس الحقيقي الذي تسعى مدرسة النصر لإعداده يا صديقي..

طأطأ حسان برأسه، قبل أن يقول بأسى:

- ربما حمّلت الأمور أكثر مما ينبغي، ولكنكم لا تعرفون أختي ولو عرفتموها لعذرتموني ولكان للمعلمين رأي مختلف بلا شك!

عندها قال علاء الذي لم يبدِ رأيه حتى الآن:

- لو أنك فقدت أختك؛ لتمنيت اليوم الذي تعود فيه لتشاكسك مهما كانت!

انتبه حسان لنفسه فأسرع يقول متأثرا:

- اعذرني يا صديقي لم أقصد أن أثير أشجانك!

فابتسم علاء مُطَمئنا:

- لا تقلق فقد تعلمت درسا هاما من المعلم أمين..

وصمت وقد أحمرت وجنتاه دون أن يقول شيئا وكلمات المعلم أمين ترن في أذنيه وهو يحادثه على انفراد:

- إن شعرت أن الدروس التي تتحدث عن الأسرة والأهل عديمة الفائدة لك الآن أو أنها تثير أشجانك فقط فاعلم أن هذا درس ضروري لك أيها الفارس الهمام في مواجهة الحياة، فكن قويا ولا تتأثر بها إلا إيجابا، واعلم أنك قطعت أشواطا أكثر من زملائك وسيأتي اليوم الذي تستفيد منها بطريقتك..

عندها تذكر علاء ريحانة، تلك الفتاة التي قابلها في رحلته، ابنة صاحب قصر الذهب، فحدث المعلم بخبره معها وسأله:

- كيف لي التصرف مع هذه النوعية من الفتيات؛ إن واجهتني مرة أخرى؟

فابتسم المعلم أمين:

- أحسنت يا علاء بدأت تطبق الدروس بشكل جيد، مهما حدث يا بني حاول أن تحفظ نفسك مستعينا بالله ولكن كن رفيقا و إياك والإهانة أو التجريح..

***

استأذن قاسم بالدخول على المعلم أمين، وهو يحمل الكتاب (بحذر)، ثم فتح الباب ليجد حسان عنده فاعتذر بسرعة قائلا:

- ظننت أنني سمعت إذنك بالدخول يا معلمي، آسف على المقاطعة!

لكن المعلم أمين ابتسم قائلا:

- على مهلك يا قاسم، تفضل فلا شيء خاص، يمكنك الجلوس..

فوجئ حسان بكلام المعلم أمين، فهو يستشيره في أمر أخته ويستوضح أكثر عما أثار حفيظته في دروس اليوم، ثم هو يقول لا شيء خاص!!

لكن المعلم أمين تابع موضحا ليزيل أي لبس من ذهن حسان وقد لاحظ تغير وجهه:

- الكلام عن الحقوق والواجبات يهم الجميع، أليس كذلك يا حسان؟

أومأ حسان برأسه إيجابا ولم يقل شيئا، فقال المعلم:

- سيفيدك السماع عن هذا الموضوع أيضا يا قاسم، كنا نقول أنه في اللحظة التي يعرف فيها المستضعف حقه فلن يسكت عنه وستكون المواجهة أليمة ولا أحد يستطيع تخمين حجم الخسائر والتضحيات التي ستحدث حينئذ..

عندها سأله حسان بوضوح أكثر فلم يعد يرى أي حرج في متابعة الموضوع على هذه الشاكلة حتى ولو كان أمام شخص آخر:

- إذن لماذا تدعونا إلى تعليمهن ذلك يا معلمي؟ أليست القاعدة الفقهية تقول أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع؟

فابتسم المعلم أمين متعجبا من ذلك التفكير، وإن وجد فيه نباهة، ثم رد عليه بدوره:

- إذن لا داعي للتصدي لأعدائنا أو مواجهتهم حتى لا نتكبد الخسائر ولنرفع أيدينا بالاستسلام!

تابع المعلم أمين كلامه وهو يلحظ وقعها على نفس حسان:

- وعلى هذا المبدأ نفسه لن يكون هناك معنى لمعركة بدر الكبرى ولا غيرها من المعارك التي خاضها الصحابة و الرعيل الأول إعلاء لكلمة الحق..

والتقط نفسا قبل أن يتابع:

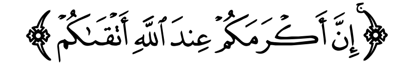
- الحق لن يسود بدون ثمن، ومن يرضى بالانهزامية لا يستحق أن يعيش في ظل العدل، ونحن نعدّكم يا أبنائي حتى لا تكونوا من أولئك الرجال الذين استمرؤوا التجبر وفرحوا بالسلطة والأتباع والطاعة العمياء، بل ولتقفوا في تلك الأزمة في مواجهة الأفكار الخاطئة في الداخل والتي قد تكون أصعب على أمتنا من المعارك الضارية مع أعدائها في الخارج، لعل الله أن يحفظ بكم الأسر المسلمة من التفكك والانهيار فلن يكون قبول ذلك سهلا على الذين اعتادوا فكرا ينسجم مع أهوائهم!!

وتنهد المعلم أمين بألم:

- ستكون المواجهة أليمة.. وربما أشد إيلاما من سقوط ضحايا في وجه حاكم جائر، أو شهداء خروا صرعى بعد معركة دامية مع أعداء لا يملكون في قلوبهم مثقال ذرة من الرحمة!!

كانت الكلمات تأخذ منحنيات مختلفة في نفس كلا السامعين، ففي الوقت الذي كانت تعصف فيه بمواريث الأفكار المتجذرة في نفس حسان، حفزت قاسم كثيرا ليقدم على ما عزم عليه، وهو يحدث نفسه:

- سأواجه بني جلدتي بالحق الذي عرفته حتى وإن خسرت صحبتهم فلا شيء يعلو على الحق ولن يدوم الباطل كثيرا، سأبذل جهدي لأبين لهم الطريق الصحيح بإذن الله عسى الله أن يجمع شملنا عليه، فيا رب وفقني وخذ بيدي واصرف عني نزعة الجاهلية وارزقني التقوى فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى..



***

عاد حسان إلى بيته متأخرا أكثر من المعتاد وهو يفكر بكل ما سمعه اليوم.. لقد كانت أفكارا غريبة تماما عليه، ولا يعرف كيف يمكنه تقبلها أو من أين يبدأ بتطبيقها فعليا.. وأخيرا عزم على أمر محدثا نفسه:

- لن أخسر شيئا فلنجرب!

و أخذت كلمات المعلم أمين تتراقص أمام ناظريه:

"لم يبق سوى ثلاثة أيام أو أقل لشهر رمضان، فاجعله فرصتك في التغيير.. حاول أن تنظر إلى الموضوع من زاوية أخرى.. من منظورها هي.. وسترى الصورة بشكل مختلف عما تراه الآن.."

و لم يكد يدخل البيت ويلقي التحية، حتى سمع صوت سارة تبكي بحرقة وهي تخاطب أمه:

- لماذا علي أن أسكت؟ لماذا؟؟ هذا ظلم.. ظلـــــــــم..

في حين كانت أمها تحاول تهدئتها وهي تقول:

- أنت فتاة مهذبة وعليك أن تعتادي السمع والطاعة، وإلا لنفر الجميع منك، ولا تغتري بجدالي الحاد أحيانا مع والدك فهذا لم يحدث إلا مؤخرا ومن أجلكم، وإلا فالحياة تتطلب الكثير من التنازلات..

فقالت سارة:

- ولكنني أريد أن أبدي رأيي، إنني أفكر ولي عقل وأريد متابعة دراستي، هذا ليس عدلا.. حسان يفعل ما يريده وأنا كل شيء محرم عليّ.. لماذا.. لمـــــــــــــــــاذا!!!!!

لم أعد أحتمل هذا أكثر ولا يمكنني أن أطيق الحياة هكذا..

فربتت عليها أمها مهدئة بحنان:

- أخشى عليك يا ابنتي إن كبرت على هذا التفكير أن لا تجدي من يرضى بك زوجة له..

فردت سارة:

- وأنا لا أريد زوجا يعاملني كإنسانة غبية!

وقف حسان جانبا وابتعد عن الغرفة قبل أن يلحظه أحد، وقد شعر بالتعاطف مع سارة لأول مرة في حياته..

كان يوماً مختلفاً في حياته وهو يراقب ما يجري بصمت.. من زاوية أخرى..

***

كان معاذ يسير بصحبة أخيه الصغير حمزة، وهو يحمل الحاجيات من مركز التسوق المجاور لمنزلهم، عندما جذبه حمزة من كمه قائلا:

- انظر هناك، أليس ذاك صديقك حسان..

فالتفت معاذ باتجاه الحديقة، ليجد حسان بصحبة أخوته الصغار محسن وسوسن وهم يتأرجحون..

في حين ألح عليه حمزة بقوله:

- دعنا نذهب ونلعب معهم قليلا..

فرد عليه معاذ بقوله:

- لقد طلبت منا أمي أن نحضر لها الحاجيات بسرعة..

لكن حمزة قال له:

- أرجوك لن نتأخر، فقط لعبة واحدة!

وأخيرا استجاب معاذ لطلبه، خاصة وقد وجدها فرصة للسلام على حسان أيضا والحديث معه.. فنادى عليه مسلما في حين أسرع حمزة يشارك محسن وسوسن ألعابهم..

التفت إليه حسان:

- ما هذه المفاجأة يا معاذ، لم أتوقع رؤيتك في مثل هذا الوقت؟ هل اشتريتم مؤن التوزيع؟

فابتسم معاذ:

- أجل لقد وجدتُ المحل الذي أخبرتني عنه، من الجيد أن تجد من يبيع بسعر خاص لعمل الخير في رمضان، جزاه الله خيرا..

فقال حسان:

- لقد كنتُ مع أصيل هناك وأنهينا شراء الحاجيات تقريبا، وقد أخذت أخوتي حتى يبتهجوا برؤية الاستعدادات لرمضان أيضا، لقد ذهب أصيل قبل أن تأتي بقليل..

عندها قال معاذ:

- هل ستقيمون موائد الإفطار في الجامع القريب من منزلكم كرمضان الماضي؟

طأطأ حسان برأسه قبل أن يقول:

- لا أعرف يا صديقي، فظروفنا مختلفة هذه السنة ووالدتي تبدو متعبة، ربما تقوم والدة أصيل بذلك وحدها..

ثم تنهد قبل أن يقول:

- يبدو أن رمضان هذا العام مختلف عما قبله.. لقد تغيرت أمور كثيرة..

فرمقه معاذ بنظرات قلقة:

- ما الذي تعنيه يا حسان؟ خير إن شاء الله.. كنت أود الاطمئنان عليك بعد دروس اليوم فلم تكن في مزاج جيد ويبدو أنك ما زلت كذلك، فهل ما زال الموضوع يزعجك؟؟

عندها تنهد حسان:

- لو تعلم ما حدث يا صديقي، فقد تغيرت الحال..

فتساءل معاذ باستغراب:

- ما الذي تعنيه بتغير الحال؟؟

فرد حسان:

- القصة تطول، ولكن المعلمين على حق فيما يقولونه..

فوجئ معاذ بما سمعه، فسأله بتعجب:

- ما الذي غيرك بهذه السرعة يا حسان!! لا أكاد أصدق!!!

أمضى معاذ وقتا لا بأس به مع حسان قبل أن ينتبه إلى مرور الوقت، وبصعوبة أقنع حمزة بالعودة وأسرع إلى منزله ليجد أمه بانتظاره:

- هل هذا ما وعدتني به يا معاذ؟

فأسرع معاذ يبرر موقفه:

- لقد رغب حمزة باللعب بالحديقة قليلا..

لكن حمزة تدخل بقوله:

- بل كان يتحدث مع حسان يا أمي!

فرمقه معاذ بنظرات حادة:

- ألم تطلب مني أن آخذك إلى الحديقة لتلعب؟

وبدلا من أن يعترف حمزة بما حصل أمسك بثوب أمه قائلا:

- أنظري إلى معاذ يا أمي، إنه يخيفني بنظراته!

فضحكت أمه قائلة:

- حسنا لقد فهمت..

وابتسم معاذ وقد اطمأن قلبه:

- على كل حال ما زلت عند وعدي لك يا أمي، لن تجدي مني ما يسوؤك إن شاء الله، بل وسأصبح أرق من الابنة الحنونة يا أمي الغالية!

فحملقت فيه أمه بنظرات متعجبة:

- ما الذي حدث يا بني؟ هل حدث لك مكروه لا سمح الله حتى تقول مثل هذا الكلام؟؟ هل هذا هو ما أنتظر سماعه من الفرسان الأشداء الذين كنت أحلم بإنجابهم!!

فاستدرك معاذ:

- كنت أمزح معك فقط يا أمي..

ثم ضحك قائلا:

- لقد حيرتموني معكم يا جماعة!

و ضحكت أمه قبل أن يقول لها معاذ- وهو يقبل يدها بحب:

- سيكون رمضان هذه السنة نقطة تغيير في حياتي يا أمي، إن شاء الله..

***

كادت اللقمة أن تقف في حلق حسان -أثناء تناوله طعام العشاء- مع صراخ والده:

- لقد قلت وانتهى الأمر، لن تذهبي إلى مدرسة المستويات الخامس الثانية، يكفي ما تعلمته من عدم التهذيب في المستويات الخمس الأولى.. لذلك لا أريد سماع أي شيء يخص هذا الموضوع! لست أحسن من أختك سمية!

فقالت سارة بحدة:

- ولكن هذا ظلم وأنت لا ترضاه لنفسك يا أبي ودائما ما تعيب على الناس ذلك، فلماذا لا تستمع لنا ونتناقش بالموضوع بدلا من أن تحكم على الأمور هكذا؟ أنا لست مثل سمية ترضى بالتنازل عن حقوقها!

فحملق الأب فيها بغضب:

- كيف تجرئين على التحدث مع والدك بهذا الأسلوب؟؟

عندها وجدت الأم ضرورة ماسة لتدخلها بقولها:

- سارة فتاة ذكية و لم تقصد..

لم تكد تكمل كلامها حتى قاطعها الأب بقوله:

- أنت السبب في ما وصلت إليه ابنتك من وقاحة، علميها الأدب أولا فهذا أفضل لها.. ولك..

تمالكت الأم نفسها بصعوبة حتى لا ترد بشيء، فنهضت من حول المائدة وشدت سارة من يدها بعصبية:

- تعالي معي الآن..

واستدركت ملتفتة نحو محسن وسوسن اللذين كانا يأكلان بهدوء على غير عادتهما، فرمتهما بنظرات نارية:

- اغسلا ايديكما وأسرعا إلى النوم لا أريد إزعاجا هذه الليلة، هل هذا مفهوم؟؟

وبعد أن خرجتا قامت سمية (الابنة الكبرى) بتنظيف المائدة وغسل الأطباق بصمت في حين قال حسان:

- ما المشكلة يا أبي في أن تلتحق سارة بالمستوى السادس؟ فالمدرسة ليست بعيدة من هنا وما زال أمامنا وقت حتى يحين موعد الالتحاق بها ودفع المستحقات ثم إنها أحرزت درجة عالية في دراستها وأبدت تميزا واضحا في علم الحساب وعلم الطبيعة من النادر أن تجد من يتفوق عليها فيهما ممن هم في مثل سنها ما شاء الله..

فأجاب والده:

- انظر إلى أمك لأنها كانت معلمة تجد لنفسها الحق في التجرؤ على زوجها ولولا صبري عليها وحلمي معها لكان شيء آخر، ألا ترى كيف تختلق المشاكل!! فهل تريد من أختك أن تصبح مثلها!!

فقال حسان:

- ولكن أمي لا تختلق المشاكل يا أبي، وكل ما في الأمر أنها تقول الحق الذي تراه ولا تسكت عن الخطأ، وهي مع ذلك تتغاضى عن أمور كثيرة كان بإمكانها أن تتكلم فيها!

فرد والده ببعض الحدة:

- تتغاضى!!! أي تغاض هذا الذي تتحدث عنه!!! أصبحت تحشر أنفها حتى في التجارة التي خبرتها وورثتها تاجرا عن تاجر!! أصبحت تحلل وتفسر سبب خسارة تجارتي الأخيرة وكأنها كبيرة التجار!!

فقال حسان بتودد:

- ولكن يا أبي ما الذي يمنع من أن يكون رأيها صوابا؟

فرد والده بغضب:

- ومن هي حتى تبدي رأيها في شيء لا تعلم عنه شيئا!! تدعي أنها تفهم الدين وتقرأ القرآن والقرآن يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، فهل هي من أهل الذكر في هذا المجال حتى تتكلم؟؟

صمت حسان ولم يقل شيئا وهو يتساءل في نفسه.. هل يا ترى هذا ما عناه المعلم أمين...!! ثم هم بأن يقول: "ولكن أمي كانت سببا في تنبيهك على خطأ فادح في تجارة سابقة ثم تبين لك يا أبي صواب ما قالته وليس من العدل تجاهل ذلك"، لكنه آثر الصمت في حين تابع والده قائلا:

- حتى سارة التي لم تر من الحياة شيئا بعد ؛ أصبح لها رأي في الموضوع أيضا!! هذا ما كان ينقصنا!! علمناهم الدين ثم جاؤوا يستعرضون أنفسهم بفهمهم السقيم ونسوا أن المرأة إذا (صلت خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت الجنة)، هذا ما يجب على النساء تعلمه، فعلا.. ناقصات عقل ودين..

ثم تنهد قائلا:

- هذا خطئي من البداية، فقد كنت متساهلا أكثر مما يجب، ولولا إصرار أمك في البداية لآثرت إخراج سارة من هذه المدرسة أيضا.. فقد تعلمت بما فيه الكفاية ومن الأفضل لها أن تتعلم عمل المنزل وكيف تحسن معاملة زوجها في المستقبل (لتكون زوجة صالحة)..

عندها شعر حسان بالغضب:

- وماذا عن هذا الزوج يا أبي!! هل هو طفل صغير أم معتوه حتى تفني البنت جل حياتها في تعلم كيفية التعامل معه!! هذه إهانة لنا يا أبي، ولن أقبل أن أكون ذلك الرجل الذي يحتاج إلى كل تلك الرعاية والمداراة ويزعم أن بيده القوامة!!

فوجئ الأب بذلك الرد فقال موضحا:

- لم يزد التعليم البنات إلا سوءا في الأخلاق، رحم الله أمي لم أسمعها تعترض على أبي في حياتي كلها ولا حتى تناقشه بشيء، حتى أخواتي كلهن لم تكن واحدة منهن تجرؤ على الحديث بهذا الأسلوب.. هل تتوقع أن أجدادنا كانوا يسمحون بمثل هذه الفوضى؟؟ رحم الله ذاك الزمن..

فرد حسان معلقا:

- ولكن أليس ذلك الزمن هو الزمن الذي توالت فيه النكبات على الأمة بعد تمزق وانهيار الخلافة؟

حملق الأب بحسان بنظرات ذات مغزى وهو يقول:

- أهذا الذي تتعلمه في مدرسة الفروسية؟ لقد أرسلتك إلى هناك لتصبح فارسا قويا لا لتجادل بالمبادئ والقيم التي تربينا عليها!! ما الذي جرى لك يا حسان؟؟ لم تكن هكذا أم أنهن أثرن عليك أيضا!! أريدك أن تكون رجلا!!

فخفض حسان صوته وهو يقول - كأنه مخاطبا نفسه:

- وهل الرجولة في تجاهل آراء الآخرين وتسخيفها!!

وفي تلك اللحظة دخل وسام - شقيق حسان الكبير- مسلما فالتفت إليه والده قائلا:

- وعليكم السلام، هل بعت البضاعة؟

فأجاب وسام وهو يجلس متناولا طبق الطعام الذي وضع خصيصا له:

- لقد انتظرت المشتري طويلا لكنه لم يعد فأغلقت المتجر..

ثم استدرك:

- هل حدث شيء؟ أمي تبدو معكرة المزاج!!

فرد والده:

- ومنذ متى رأيتها بمزاج جيد!! القصة نفسها منذ أن أدخل المنزل جدال وصراخ.. وكأنه لا ينقصني إلا هذا الهم..

فقال وسام وقد شعر بتعاطف كبير مع والده:

- كل هذا لأنك طيب يا أبي، كان الله بعونك، قلت لك ألف مرة النساء لا ينفع معهن إلا الرجل الحازم صاحب العين الحمراء وأنت متساهل جدا..

لم يستطع حسان السكوت فهب واقفا:

- ما الذي تريده بكلامك هذا!!

فالتفت اليه وسام:

- وما دخلك أنت؟؟ هل صرت في صف النساء!!

فقال حسان بحدة:

- ألا تعرف عن من تتحدث بهذه الطريقة؟

فتدخل الأب قائلا:

- يكفي هذا الآن..

فنهض حسان وقبل يد والده قبل أن يخرج قائلا:

- سامحني يا أبي إن رفعت صوتي أو أغضبتك فلم أكن أقصد..

اتجه حسان نحو غرفة أخته سارة ليجد سمية جالسة معها تواسيها:

- أنت فتاة شجاعة وأنا فخورة بك، ولكنك لن تأخذي حقك بهذه الطريقة..

لكن سارة قاطعتها بقولها:

- لا أريد نصائحك هذه، انظري إلى نفسك سلبية دائما، لا رأي لك ولا احترام رغم أنك أكبر من وسام وحسان!!

فقالت سمية بهدوء:

- أوافقك الرأي يا أختي، هم مخطئون بلا شك ولكن علينا التصرف بحكمة، ثم إن أجر التسامح...

فقاطعتها سارة مرة أخرى بنفاد صبر:

- قلت لك لا أريد سماع نصائحك، هذا ليس تسامحا بل ضعف واستسلام واستكانة وأنا لا أريد أن أكون مثلك؛ بل مثل أبي وأنا ابنته.. انظري إليه، يشتكي من ظلم الحاكم ليل نهار وأن قوانينه وتسلطه كانا سببا في خسارة تجارته، ويعيب عليهم إغلاق أبوابهم دون سماع رأي الناس، ولا يأتي مجلساً إلا ويتكلم في هذا الموضوع.. فلماذا لا يقدم السمع والطاعة ويعفو ويصفح ويتسامح!!

حاولت سمية أن تكون أكثر حكمة بقولها:

- إنني أقدر موقفك يا أختي، بل ومعجبة بك وبقوة شخصيتك رغم أنك أصغر مني بسبع سنوات، ولكنني خائفة عليك من أن تغضبي والدي فيغضب الله عليك وهيهات أن تُوَفّقي بعدها!

فقالت سارة:

- أنا لا أتعمد إغضابه، ثم إنني لست سيئة- ولله الحمد- كل ما أريده حقي فقط، وأن أكون مثل والدي فلماذ يعيب عليّ ما يفعله!!

فقالت سمية:

- اسمعيني يا أختي أنت تشعرين بالظلم رغم أن حالنا أفضل من حال الكثيرين والحمد لله، تذكري أن أبي رجل طيب وهو أفضل من غيره من الرجال، أنت لا تعرفين ماذا يصنعون..

فأجابتها سارة:

- هذا ليس مبررا!! وكما قلت لك أنا أفضل من بنات كثيرات أيضا وأنت لا تعلمين ماذا يصنعن من وراء آبائهن هؤلاء..

عندها قالت سمية وقد بدا أنها استنفدت كل ما لديها:

- كفاك عنادا يا أختي أرجوك.. حاولي أن تتعلمي الصبر، فهذا قدرنا..

فردت سارة بجدة:

- وسأكون قدرهم إن شاء الله..

وفي تلك اللحظة نادت الأم على سمية فلبت نداءها مسرعة في حين ألقى حسان التحية على سارة مستأذنا بالدخول- إذ لم يشأ مقاطعتهما من قبل- فالتفتت إليه سارة بعيونها المتورمة من كثرة البكاء:

- ما الذي تريده أنت أيضا ؟؟؟

فقال حسان:

- ألا يمكنني الجلوس لنتكلم قليلا؟

فأجابته سارة بعصبية:

- لقد سئمت منكم كلكم، حفظت الدروس غيبا.. جدي وجدتي.. عمي وعمتي، شكرا لا أريد سماع المزيد..

ولأول مرة يحاول حسان احتواء أخته الغاضبة؛ فقال بروية:

- لقد سمعت ما قلتيه لسمية وأوافقك الرأي في معظمه..

لم تصدق سارة أذنيها في البداية فقالت:

- أجئت لتسخر مني؟؟

لكن نظرات حسان الجادة ونبرته الحازمة، جعلتها تطمئن فأصغت له باهتمام وهو يقول:

- لقد أخذنا درسا جديدا اليوم في المدرسة وأظنه سيعجبك..

تلهفت سارة لسماع ذلك الدرس لا سيما وأنها من أشد المعجبين بمدرسة النصر للفروسية ولطالما غبطت حسان على التحاقه بها، وما إن أعاد حسان عليها ما أخذه من دروس حتى قفزت سارة بفرح وهي تهتف بحماس:

- يعيش المعلم أمين.. يعيش..

ثم صمتت فجأة تستوثق مما سمعته وألف سؤال وسؤال يدور بخلدها:

- هل حقا هذا ما قاله المعلم؟؟ هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأخذ برأي زوجاته ويستمع إلى بناته؟؟ هل كان لهن دور كبير في انتشار الإسلام وبناء حضارة الأمة، غير طاعة الرجل سواء كان أبا أو زوجا أو أخا!!

فابتسم حسان مؤكدا كلامه في حين ترقرقت عينا سارة بالدموع:

- كم أحب الرسول صلى الله عليه وسلم، ليتني أراه.. أريد أن أقرأ كل شيء عنه، أجل.. أريد أن أتعلم عنه كل شيء.. كل شيء إن شاء الله.. يا حبيبي يا رسول الله..

وردد حسان:

- اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

ثم قال:

- لقد طلب منا المعلم رائد أيضا إعداد بحث عن إحدى أولئك النساء العظيمات، فهل تساعدينني فيه؟

عندها نظرت اليه سارة بمكر:

- هكذا إذن، أسمعتني كل ذلك الكلام حتى أساعدك!!

فأسرع حسان يدافع عن نفسه:

- سامحك الله لم يخطر ذلك ببالي أبدا، ولكن قلت ربما تحبين الموضوع!

فابتسمت سارة:

- كنت أمزح معك لا تقلق، ثق أنني سأبذل جهدي في ذلك..

فقال حسان وهو يتنفس الصعداء:

- الحمد لله..

ثم تابع:

- في البداية لا أعرف عن من سأكتب؟ فالمعلم لا يريد موضوعا مكررا، وتقريبا اختار رفاقي معظم الشخصيات التي كنت أنوي الكتابة عنها!

فهتفت سارة وهي تضرب الطاولة بكفها:

- وجدتها.. أتمنى أن لا يكون أحد من رفاقك قد كتب عنها..

فنظر إليها حسان متسائلا:

- من هي؟

فقالت سارة بثقة:

- السيدة سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم، ما رأيك؟

بدا التردد قليلا على وجه حسان وهو يقول:

- لا أعلم إن كانت تعد ممن لهن دور كبير في نشر الإسلام، فدروسنا في سير أعلام الفرسان تتحدث عن الفارسات بشكل رئيس..

فحدجته سارة بنظرات حادة قائلة:

- ألا يكفي أنها صمدت في وجه ذلك الرجل الطاغية المتغطرس المغرور أبو جهل ولم تستسلم له، فكانت أول شهيدة في الإسلام!! لن أساعدك في الكتابة عن غيرها، أريد لأختي سمية أن تعرف أكثر كيف كانت أول شهيدة في الإسلام التي يقول أبي أنه سماها على اسمها..

فابتسم حسان موافقا وهو يرفع كفه أمامها:

- حسنا حسنا.. ولكن لا تنظري إلي هكذا وكأنني أبو جهل!!

فضحكت سارة وهي تقول:

- اتفقنا إذن..

***

أعلن وقت الاستراحة في مدرسة النور للبنات، وتحلقت الفتيات حول ليانا ابنة المحامي الداعي إلى السفور والكاتب المتحرر المشهور (نديم السامر)، يستمعن لها بعيون حالمة وهي تحدثهن عن الحفلة التي أقاموها في منزلهم ليلة أمس..

ثم تساءلت إحداهن غير مصدقة:

- هل حقا حضر المغني أيهم إلى منزلكم أيضا!! لا أصدق!! كيف استطعتم الوصول اليه ودعوته؟؟

فردت ليانا بغرور:

- وليس هذا فحسب؛ فقد طلب مراقصتي أيضا وقال إنني فتاة جميلة..

ثم أخرجت دفترها الصغير، وفتحت على إحدى صفحاته، تأكيدا لكلامها ورفعته أمام العيون المتسمرة على ما كتب فيه:

"ليانا..أنا أحبك"

وهتفت البنات بإعجاب شديد:

- إنه خط المغني المميز، ومذيل بختمه أيضا.. كم أنت محظوظة يا ليانا..

فقالت ليانا بلا مبالاة:

- قلت لكم أن لوالدي علاقات كثيرة فلم تصدقنني..

ثم تابعت:

- لقد طلبت من والدي أن نستضيفه لإحياء حفلات الإفطار في رمضان، وسندعو إليها كبار العائلات أيضا..

فسألتها إحدى الفتيات بلهفة:

- وهل وافق والدك على ذلك؟

فنظرت إليها ليانا بفخر:

- ولم لا يوافق!! أبي لا يرفض لي طلبا..

لم تستطع راما التي كانت تشعر بالغيرة الشديدة من ليانا احتمال سماع المزيد، فقالت في محاولةٍ لصرف نظر الطالبات عن ليانا:

- هل قرأتن الجزء الجديد من لابورا، إنه جزء رائع جدا لقد اشتريت النسخة قبل يومين، ولم استطع تركها حتى أنهيتها..

فالتفتت إليها إحدى الطالبات:

- هل قرأتها حقا؟؟ لقد سمعت أختي الكبيرة وصديقاتها يتحدثن عنها، ولكنني وجدتها صعبة، حتى أن أختي تقول أنها ليست للصغار رغم أنني لست صغيرة..

سُرّت راما لتلك الملاحظة؛ فوجدتها فرصة لإبراز قدراتها أمام الأخريات، وهي تقول:

- ربما يكون أسلوبها صعباً، ولكن القصة مشوقة ثم إنني اعتدت على هذا المستوى من الكتابات..

عندها قالت ميسون- التي تحمست مع الرواية:

- لقد قرأت الجزء الثالث، ولم يتسن لي حتى الآن شراء الجزء الرابع فهو باهظ الثمن، فأخبريني ماذا حدث مع لابورا، بعد أن قابل تلك الفتاة الفقيرة الجميلة؟ لا شك أنه وقع في حبها أليس كذلك؟ ولكنني أشعر بالأسى من أجل سينالي، فلابورا لا يعرف حقيقة مشاعرها نحوه لقد غاظني الموقف.. إنني متشوقة لمعرفة ما سيحدث..

فأجابتها راما وقد تفاعلت مع القصة:

- فاتك نصف عمرك، مشهد سينالي مع لابورا يفوق الوصف.. لا أريد أن أفوت عليك متعة الأحداث، سأعيرك الجزء إن شئت، لقد أحضرته معي..

قفزت ميسون طربا:

- هذا يعني أن لابورا عرف بمشاعر سينالي.. شكرا لك راما..

فقالت سمر:

- سأستعيرها بعد ميسون يا راما هل تسمحين؟

فردت راما بابتسامة عريضة:

- طبعا يا عزيزتي بكل سرور..

في حين قالت ريم:

- هل قرأت قصة جوران ماركينا؟ أنها تُدرّس في الدراسة النظامية للمستوى السادس، حدثتني عنها أختي..

فأومأت راما رأسها إيجابا- وقد سرها تفاعل الفتيات معها- قائلة:

- لقد قرأت النسخة المختصرة منها إنها جميلة فعلا!

فأكدت ريم بانبهار:

- يا ليت جوران يأتي ويأخذني معه، كم أغبط ماركينا على حبه لها..

عندها قالت ميسون:

- هل تتابعن قصة سوركالا المسلسلة؟

فهتفت الفتيات:

- طبعا وهل هناك أحد لا يتابعها!

فتابعت ميسون كلامها قائلة:

- ستصدر الحلقة الأخيرة منها غدا..

عندها هتفت راما:

- حقا، من الجيد أنك أخبرتني، سأمر على العم جاد لأحجز نسختي من اليوم..

فقالت ريم:

- هل رأيتن ما أروع سوركالا وهو يحتضن سونار بحب، رغم معاملتها القاسية له! لا شك أنه سيتزوجها بالنهاية، كم هي محظوظة..

فوافقتها ميسون:

- بلا شك! أرأيت كيف ساعدها على الخروج من محنتها، وطلب منها الزواج رغم أنها لم تكن تجيد الطبخ ولا الحياكة ولا أعمال المنزل.. فقط لأنه أحبها..

فتنهدت ريم بحزن:

- كم أتمنى أن يحبني أحد..

وفي تلك اللحظة أقبلت سارة وقد سمعت جزءا من حديثهن، فقالت معلقة:

- يحبني أو لا يحبني.. لا يهمني!! المهم أن يحترمني، الاحترام هو الأهم، وهذه كلها قصص خرافية يخدعنكم بها..

فرمقتها راما بابتسامة ماكرة:

- ولكنك تقرئينها أيضا يا سارة، لقد رأيتك!

فاحمرت وجنتا سارة، لكنها قالت بثقة:

- وماذا في ذلك! أنا أقرؤها لأرى ماذا يكتبون من سخافات.. ثم إنني أهتم أكثر بالفصول التي يواجه فيها الظلم، هذه مشاهد مقبولة..

فغمزتها ميسون:

- قولي الحقيقة، القصة جميلة وتعجبك، أليس كذلك؟

وتحلقت الفتيات حول سارة بانتظار سماع جوابها ورأيها في الموضوع، إذ كانت ذات شخصية قوية ومؤثرة ولها كلمتها عند معظم الفتيات، وقبل أن ترد عليها سارة بشيء تدخلت ليانا، إذ لم يعجبها انصراف البنات من حولها خاصة بعد مجيء سارة عدوتها اللدودة وقد وجدتها فرصة للتشفي منها، فقالت بكبر لا حدود له:

- أنتن جميعا تستمتعن بهذه القصص لأنكن محرومات، أما أنا فأعيشها على أرض الواقع.. الحب يملأ حياتي.. ورأيي محترم دائما.. وسأعيش بلا شك أجمل قصة حب لم تسمعن مثلها من قبل، بل وأروع من كل ما قد تقرأن عنه..

ورمقت سارة تحديدا بنظرات استخفاف، وهي تتابع:

- أما انتم يا أهل الدين فيكفيكم السمع والطاعة والعمل في المنزل..

وأطلقت ضحكة مستهزئة وهي تهم بالخروج من القاعة، لكن كلمات سارة استوقفتها قليلا وهي تسمعها تقول بثقة:

- ومن قال لك أن أهل الدين لا يعيشون قصص حب رائعة؟؟

حملقت العيون في سارة بدهشة، في حين التفتت إليها ليانا بنظرات تحد:

- احضري لنا أمثلة غدا أيتها المتحذلقة.. سأكون بانتظارك..

وما إن خرجت، حتى أسرعت الفتيات نحو سارة يسألنها بلهفة:

- هل أنت واثقة مما تقولينه يا سارة؟ هل حقا هناك من أهل الدين من يتكلم عن الحب؟

أطرقت سارة رأسها وهي تفكر بصمت قبل أن تقول:

- في الحقيقة لا أعرف!

أسقط في يد الفتيات وهن يشعرن بخيبة أمل كبيرة وقالت لها راما التي لا تطيق رؤية أي انتصار لليانا:

- لماذا وضعت نفسك في ذلك الموقف إذن! لقد أحرجتنا معك أيضا!!

لكن سارة أجابتها بهدوء:

- لم أقل أنه لا يوجد، وإنما قلت أنني لا أعرف!

تبادلت الفتيات نظرات استفهام وتعجب أما سارة فقد ابتسمت قائلة:

- اطمئنوا فأنا واثقة من وجودها وسأبحث عنها اليوم، إن شاء الله..

فسألتها ميسون:

- وما الذي يجعلك واثقة هكذا يا سارة؟

فغمزتها سارة بعينها مبتسمة:

- بالعقل والفطرة السليمة..

لم تكد سارة تزرع الأمل في قلوب الفتيات حتى اقتلعته سعاد- التي كانت صامتة طوال الوقت- من جذوره وهي تقول بنبرة حزينة:

- كلام فارغ.. أبي شيخ ومفتي و لا يوجد مثل هذا الكلام فلا تكابري يا سارة.. علينا أن نعترف.. كل شيء حرام .. وكل شيء في الجنة فقط..

وتنهدت بحسرة ويأس وهي تتابع قائلة:

- للأسف ليانا محقة فيما تقوله فنحن لا رأي لنا ولا احترام، وأما الحب فحرام.. لا أعرف متى سأموت وأذهب إلى الجنة.. هذا إن ذهبت إليها أصلا فالصبر صعب ويبدو أنها لا دنيا ولا آخرة كما تقول أختي!!

شعرت ميسون بتعاطف شديد معها فأسرعت تخفف عنها قائلة:

- على الأقل أنت تأتين إلى المدرسة وحالك أفضل من حال ابنة جارنا إمام المسجد، لا يسمح لها والدها بالخروج من البيت مطلقا إلا لضرورة قصوى، والمجئ الى المدرسة ليست من ضمن هذه الضروريات كما يقول!

فقالت سعاد:

- ومن قال لك أنني التحقت بالمدرسة بسهولة، ولا أظن أبي سيسمح لي بالذهاب إلى مدرسة المستويات الخمس الثانية، و لولا تدخل أقاربنا لما خرجت من البيت أيضا، أقولها لكم بصراحة.. لو ترك لي الخيار لاخترت أن أكون مثل ليانا!

صعقت الفتيات مما سمعنه، فسعاد من أسرة تعد رمزا من رموز الدين بنظر الجميع ووالدها الشيخ (سامع جهلان)؛ من أكبر مهاجمي والد ليانا نديم السامر، وقد أفتى بحرمة قراءة كتبه لما فيها من دعوة للتبرج والسفور وانحلال الأخلاق..

أما أشدهن دهشة فقد كانت ليانا، التي عادت لقاعة الدرس على حين غرة؛ لتسمع جملة سعاد الأخيرة، وكان هذا هو أسوأ شيء توقعته الفتيات في ذلك اليوم!!

ابتسمت ليانا وهي تشعر بنشوة الانتصار:

- من حسن الحظ أنني نسيت محفظة أقلامي لأعود اليكن يا عزيزاتي.. نسيت إخباركن أنكن مدعوات لحفل افطار في أول أيام رمضان..

ثم نظرت إلى سعاد وابتسمت لها قائلة:

- وأنت مدعوة كذلك يا عزيزتي، لا تقلقي.. والدي يبذل جهده من أجل إنقاذكن من البؤس الذي تعشن فيه، نعلم أن والدك أجبرك على ارتداء الحجاب منذ أن كنت في السابعة ولكن اطمئني، أطول طريق يبدأ بخطوة..

عندها تدخلت سارة وقالت بحزم:

- ما الذي تعنينه بقولك يا ليانا؟؟ الزمي حدودك ولا تتدخلي فيما لا يعنيك..

فالتفتت إليها ليانا وقالت باحتقار:

- بل أنت من يجب عليها أن لا تتدخل فيما لا يعنيها، بدلا من أن تشكرنني لأنني أريد لكن السعادة و أساعد أبي الذي يضحي من أجلكن..

وتابعت بحدة:

- لا تحاولي إقناعي بأنكن سعيدات في حياتكن فالجميع يعرف، ولا شيء يخفى على أحد..

لأول مرة شعرت سارة بأنها لا تملك ردا، فهي لم تكن سعيدة فعلا ولكنها واثقة تماما بأن ذلك ليس بسبب ما تدعيه ليانا ووالدها!

خرجت ليانا وهي تقول:

- لا تنسِ ما وعدتني به غدا..

وأطلقت ضحكة استهزاء مجلجلة..

لم تتمالك راما كتم غيظها مما سمعته، فقالت بعصبية:

- يا للمتعجرفة، لا أصدق كلمة واحدة مما تقوله! تشعرنا دائما بأنها أسعد منا وتعيش الحب على أصوله!! من تظن نفسها!!!

فردت ريم بحسرة:

- بل صدقي، أختها الكبيرة كانت مع أختي في المستوى العاشر وقد تعرفت على شاب وسيم في إحدى الحفلات أحبها وأحبته وسيتقدم لخطبتها قريبا، لقد دعت أختي مع بقية الزميلات لحفلتها..

و صمتت وهي تنظر بإشفاق إلى سعاد التي كانت تبكي وهي ترتجف خوفا :

- يا ويل ويلي لو عرف أبي بما حدث اليوم، ستكون النهاية وربما يطلق أمي لأنها شجعت على إرسالي للمدرسة..

ثم التفتت ريم إلى البقية- تاركة راما مع ميسون للتكفل بالقيام بواجب المواساة اللازمة نحو سعاد- وهمست بأسى:

- يا لها من مسكينة، من يتمنى أن يكون له والد مثلها! بسبب أن والدي محافظ قليلا أشعر بالاختناق من الظلم الذي أراه، في حين لا تجرؤ أمي على مخالفته وإلا هددها بالطلاق أو الزواج من أخرى!! فكيف بسعاد المسكينة ووالدها يعد من أكبر أهل الدين!! المسكينة كم أشفق عليها،معها الحق في أن تحسد ليانا على حالها..

وأكدت سمر كلامها بقولها:

- أرأيت والد ليانا عندما حيانا ونحن عائدات للمنزل؟ إنه لطيف وعطوف جدا، ألم تلاحظي كيف استمع إلى ليانا باهتمام وهي تعرفه بنا، إنها محظوظة حقا بوالدها و بلا أدنى شك!!

فتابعت ريم:

- لقد رأيته أيضا ذات مرة- عندما كنت برفقة أمي في السوق- وهو يساعد زوجته على الصعود إلى العربة، بعد أن انتظرها بهدوء وهي تحادث صديقاتها.. كان رقيقا جدا في مشهد لم أتخيل رؤيته على أرض الواقع!

فتنهدت سمر:

- لا أعرف لماذا يقول أبي عنه إنه رجل سيء!

فأجابتها ريم:

- هكذا هم أهل الدين دائما يتكلمون عن الآخرين، ونسوا أن هؤلاء الذين يتكلمون عنهم ويحذرون الناس منهم-على الأقل- أحسن تعاملا وأرق طباعا وأكثر رفقا!

فتكلمت سارة أخيرا بعد أن أفاقت من ذهولها بما حدث من انقلاب في الموازين:

- هذا في الظاهر والله أعلم بالمخفي!

فقالت ريم:

- حتى لو كان كلامك صحيحا فأنا أريد نصف هذا الظاهر ولو في الظاهر.. يكفيني هذا، وبصراحة لن أعرف طعم السعادة إلا إذا كنت ولدا أو لا يكون أبي محافظا أو متدينا هذا هو الحل الوحيد..

عندها تذكرت سارة ما كانت تود إخبارهن به من قبل، فاستعادت رباطة جأشها وخاطبتهن بقولها:

- اسمعنني يا بنات، كفاكن سخفا، من قال لكن إن الدين هو السبب؟؟

فردت عليها ريم بقولها:

- التجربة خير برهان!

فقالت سارة وهي تستعيد ثقتها بنفسها من جديد، وقالت بلهجة قوية:

- كلا ما ترونه ليس هو الدين، والدين منه بريء، لقد حدثني أخي بما أخبرهم به المعلم أمين في مدرسة النصر..

بدأت الفتيات يستمعن إليها والاهتمام بادٍ على وجوههن وهي تتحدث عن كل ما أخبرها به حسان ليلة أمس، حتى سعاد توقفت عن البكاء؛ لتسمع ما لم تسمعه أو تعرفه طوال حياتها..

ختمت سارة كلامها بقولها:

- وقال إن الفارس المسلم الحق لن يكون كذلك إن لم يحسن معاملة البنات ويحترمهن! كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم)..

فهتفت ريم بانفعال:

- هذه تشبه جملة جوران!

ثم قالت بنبرة حالمة:

- لو أن أبي ذلك الفارس لما أجبرني على تنظيف أحذية إخواني المتسخة كل يوم!

وقالت سمر:

- ليت أخي يصبح فارسا مسلما، على الأقل لقاسمني الحلوى الشهية التي يشتريها من مخصصاته الكثيرة ويأكلها وحده!

لكن سارة قاطعتهن بقولها:

- ألا تفكرن بغير هذه الأمنيات السخيفة!! يكفينا أن يكون لنا رأي محترم!

فتبادلت سمر وريم النظرات قبل أن تقول الأخيرة:

- ولكنك أنت نفسك لا تحترمين رأينا!!

فانتبهت سارة إلى نفسها ثم ضحكت:

- لم أنتبه إلى ذلك!! معكن الحق.. يبدو أنني أصبت بعدوى عالم الذكور!

وضحكت الفتيات، وقد عاودتهن روح الحماسة التي بذرتها فيهن سارة، في حين هي قائلة:

- لقد ذهبت إلى المكتبة، واستعرت عددا من الكتب.. انظرن..

واطّلعت الفتيات على الكتب التي وضعتها أمامهن، حتى سعاد قامت من مكانها لتلقي نظرة.. وأخيرا قالت ريم:

- إنها كتب إسلامية!! في السيرة النبوية وعن بنات الرسول- صلى الله عليه وسلم- وزوجاته وقصص الصحابيات.. هل ستجدين فيها قصصا عن الحب التي تحديت بها ليانا؟؟

فأجابت سارة:

- بالتأكيد يا عزيزتي، وسأمر أيضا على دار الوراقين في طريق عودتي إن شاء الله لإحضار المزيد من هذه المواضيع..

ثم قالت:

- هل تعلمون أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- أحنى ظهره؛ ليساعد زوجته السيدة صفية- رضي الله عنها- لتركب دابتها!

شهقت ريم:

- حقا!! يعني مثل ما يفعل والد ليانا!! إذا لماذا يعيب عليه الرجال تصرفه هذا؟؟

فقالت سارة:

- بغض النظر عن ليانا ووالدها، لقد اكتشفت أن رجال الدين هؤلاء الذين نعاني منهم على النقيض تماما مما كان عليه الرسول- صلى الله عليه وسلم- لذلك عزمت على دراسة سيرته والاطلاع على ما كانت عليه أحوال النساء في عصره وقراءة سيرهن أيضا..

هل تتخيلن أن النساء كن يشاركن في بناء الدولة المسلمة بل وفي المعارك أيضا!! حتى أن الصحابية نسيبة بنت كعب كانت من القلة الذين صمدوا في معركة أحد، وهي تدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم لدرجة أن قطعت يدها من أثر الجراح؟

فهتفت سمر:

- حقا!! ألهذه الدرجة؟؟ لا أصدق.. هذا مدهش!!

في حين قالت ريم:

- لا عجب، لو كنت مكانها لفعلت أكثر من ذلك..

فضحكت سارة:

- لا تبالغي يا ريم، والله أعلم بما سيكون!

لكن ريم ردت بثقة:

- أنا لا أبالغ، تخيلي لو أن رجلا جاء لينقذك من الظلم والإهانة والاستغلال، ويضع حدا لكل المتغطرسين والمتكبرين من الرجال، ما ذا كنت ستفعلين؟؟

سادت لحظة صمت تبادلت فيها كل واحدة مع نفسها أفكارا كثيرة..

سعاد التي شعرت أنها تسمع عن الرسول لأول مرة.. راما، التي لم تكن لتسمع هذا الكلام كله لولا غيرتها من ليانا ووقوفها إلى جانب أي شخص ضدها، ميسون.. ريم .. سمر .. جميعهن شعرن بأن آفاقا جديدة فتحت أمامهن لم يكن يعرفن عنها شيئا..

وهن يرددن.. صلى الله عليه وسلم..

ولم يقطع ذلك الصمت إلا صوت ريم وهي تقول:

- لقد قررت أن أصبح مثل السيدة نسيبة، وسأقرأ عنها كل شيء، إن شاء الله..

فقالت ميسون وقد خرجت من لحظات صمتها:

- رغم أنني أعرف قدرا كبيرا من السيرة وقصص الصحابة، إلا أنني أشعر وكأنها المرة الأولى التي انتبه فيها لهذه المعاني! لا أعرف لماذا لم نكن نسمعها على هذا النحو؟ سأحاول إعادة قراءتها بتمعن أكبر، وسأقتدي بأم المؤمنين خديجة- رضي الله عنها- فلطالما بهرتني بحكمتها ورجاحة عقلها وحنانها وعطفها، وهي تقف إلى جانب الرسول- صلى الله عليه وسلم- إنها قدوتي الأولى..

وقالت سمر:

- وأنا سأبحث لي عن قدوة منهن أيضا..

ووافقتها سعاد وراما ثم التفتن إلى سارة التي كانت تبتسم بصمت، وسألنها:

- ماذا عنك يا سارة؟

فابتسمت قائلة:

- سأكون مثل أم المؤمنين السيدة عائشة- رضي الله عنها- لأعلّم هؤلاء الرجال الدين على أصوله.. بإذن الله..

***

أثنى المدرب سعد على نضال، الذي أحرز جميع الأهداف المقررة ذلك اليوم من المرة الأولى، وقال له مشجعا:

- إذا تابعت على هذا النحو؛ فربما تسبق حسام وتعتلي المركز الأول في الرماية على مستوى المدرسة، بارك الله فيك..

ثم التفت نحو علاء، الذي كان يحرك ذراعه اليمنى بسطا وقبضا، بعد أن شعر بشد فيها إثر التدريب:

- لقد أحرزت تقدما مدهشا في فترة قصيرة يا علاء، أحسنت..

وأخيرا خاطب الجميع:

- كل عام وانتم بخير، فلا تنسوا المشاركة في تحري هلال شهر رمضان هذه الليلة، فهي فرصة لا تعوض..

لكن أصيل الذي انشغل فكره بموضوع آخر، فقد سأل المدرب سعد بتوجس:

- ألم تظهر بعد قائمة أسماء المرشحين لاختبار الارتقاء الثاني لمرتبة مقدام؟

فابتسم المدرب سعد:

- إنها معلقة في لائحة الأخبار أمام المكتبة..

حبس علاء أنفاسه وتسارعت نبضات قلبه بعد انتهاء تدريب الرماية وهو يتجه بسرعة مع رفاقه نحو القائمة التي أعلنت فيها أسماء المرشحين لخوض اختبار الارتقاء الثاني لمرتبة مقدام، وكم كانت خيبة أمله كبيرة وهو لا يرى اسمه بين الأسماء..

حسان نبيل نعمان

ياسر نبراس عبد الشكور

أصيل بلال إسماعيل

شعر به ياسر الذي وقف إلى جواره، فاقترب منه مواسيا:

- ما تزال أمامك فرصة أخرى هذا العام يا علاء..

أما أصيل، الذي كاد أن يطير من الفرح لرؤية اسمه، فقد تدارك نفسه أخيرا وهو ينتبه لخيبة أمل علاء الذي كان يمني نفسه بالترشح للاختبار هذه المرة، لكن حسان أسرع يشير إلى ما كتب في نهاية القائمة:

- انظر يا علاء هناك ملاحظة تقول أنه من الممكن أن يترشح آخرون قبل بداية الاختبار، الذي سيبدأ في الأسبوع الثالث من شهر رمضان، أي أنها ليست القائمة الأخيرة فلا تفقد الأمل..

فردد علاء بجزم:

- لعله خير..

فابتهج ياسر لذلك كثيرا وتشجع ليعرض على علاء ما كان يود إخباره به من الصباح:

- لقد أخبرت أبي بأنني سأدعوك إلى منزلنا اليوم فهل توافق؟ أرجوك لا ترفض دعوتي يا علاء، لقد أعددت لك مفاجأة..

كان ذلك آخر شيء يخطر ببال علاء في ذلك الوقت، وشعر بالحرج من رفض دعوة ياسر اللبقة، فقال:

- جزاك الله خيرا يا صديقي، لا تتعب نفسك معي..

لكن ياسر ألح عليه بقوله:

- هيا قل لي أنك ستأتي معي اليوم..

عندها تدخل أصيل قائلا:

- رغم أنني دعوتك قبله لكنني أنصحك بأن لا ترفض دعوة ياسر، فأنا لا أحب رؤيته مكسور الخاطر!

عندها قال ياسر معاتبا:

- ما هذا الذي تقوله يا أصيل؟ يكفيك سخرية!

لكن أصيل أسرع معتذرا:

- لم أقصد السخرية ولكنها الحقيقة! ثم من هذا الذي يجرؤ على السخرية منك يا صاحب القلب الطيب؟

فاحمر وجه ياسر ثم ابتسم:

- قل ما تريده.. لن أغضب منك..

فابتسم علاء:

- وأنا قبلت الدعوة، جزاك الله خيرا..

لم يكد علاء ينهي جملته حتى شعر بحرج المأزق الذي وضع نفسه فيه، فوالد ياسر ما هو إلا المعلم نبراس الذي لا يجرؤ على النظر في عينيه الحادتين، ولو كان المعلم أمين مثلا لما حمل هما ولكان الوضع مختلف برأيه.. ولم يخرجه من أفكاره تلك إلا صوت أصيل وهو يضربه على كتفه قائلا:

- أتمنى لك وقتا ممتعا في بيت المعلم نبراس..

ثم غمزه باسما:

- خذ الأمور ببساطة يا علاء واستمتع بوقتك..

وما هي إلا فترة بسيطة، حتى وجد علاء نفسه إلى جانب ياسر الذي جلس قرب والده وهو يسوق العربة، وقد بدا المعلم نبراس ألطف بكثير مما يبدو عليه في قاعة الدرس - رغم طبيعته الحازمة - مما أشعر علاء ببعض الارتياح، خاصة وهو يتأمل جمال الربيع في الطريق الذي يراه لأول مرة.. إذ أنه منذ أن اجتاز الاختبار، لم يبتعد عن حدود جامع الفتح المقابل للمدرسة..

***

عادت سارة إلى بيتها فرحة مسرورة وهي تقفز وتدندن كعادتها عندما تكون سعيدة، حتى أن كل من اعتاد رؤيتها في الطريق أصبح على علم بتقلبات مزاجها..

لمحها أصيل وهو عائد مع حسان من المدرسة، فقال له باسما:

- أليست تلك سارة؟؟ يبدو أن درس الأمس عدّل مزاجها بشكل كبير..

فنظر حسان إلى حيث أشار قائلا:

- رغم أنها ارتدت الحجاب قبل شهرين إلا أنها ما زالت تتصرف كالأطفال!! لا أفهم أختي هذه!! أحيانا كالكبار وأحيانا كالصغار..

ثم قال فجأة:

- ولكن غريب! يفترض أن دوامها المدرسي قد انتهى منذ فترة!!

لكنه استدرك ضاحكا:

- لا شك أنها كانت في دار الوراقين..

فابتسم أصيل وهو يقول بمكر:

- يا لك من انتهازي.. ولكن لا بأس؛ أنا صديقك العزيز فلم لا تطلب منها أن تقوم بعمل بحثي أيضا!

فنظر إليه حسان قائلا:

- ألا يمكنك أن تأخذ أي موضوع على محمل الجد!!

فضحك أصيل:

- ومن قال بأني غير جاد في هذا الموضوع!!

فرمقه حسان بنظرات ذات معنى، جعلت أصيل يسرع قائلا:

- قلت من قال لك؛ مجرد سؤال ولم أقل بأني جاد.. كنت أمزح يا أخي!!

فقال حسان:

- لا أعرف متى ستجد حلا لهذه المشكلة!!

فابتسم أصيل:

- ومن قال بأنها مشكلة!

ثم صافح حسان قبل أن يذهب إلى منزله، وهو يشد على يده باسما:

- خذ الأمور ببساطة يا عزيزي..

انتبهت سارة لوجود حسان قبل أن يفاجئها من الخلف، فالتفتت نحوه بسرعة هاتفة:

- مرحبا..

فجفل حسان قليلا قبل أن يضحك قائلا:

- يبدو أنه لا يمكنني منافستك أبدا!

فابتسمت سارة:

- طبعا..

فقال حسان باسما:

- أنصحك بعدم الغرور..

ثم استطرد قائلا:

- تبدين سعيدة اليوم، هل حدث جديد؟

فردت سارة ووجهها يتهلل بشرا:

- لقد أخبرت صديقاتي اليوم عن درس المعلم أمين، لم يصدقنني بالبداية وفوجئن بأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد أوصى بهن بهذا الشكل..

ثم التقطت نفسا قبل أن تتابع:

- تخيل!! اكتشفت أن أبي أحسن الموجود!!!

فكتم حسان ضحكة كادت أن تفلت منه، وتظاهر بالغضب قائلا:

- ما الذي تقصدينه!!

فأسرعت سارة مستدركة:

- لا تسِء فهمي يا أخي، أبي على الرأس والعين وأنا أحترمه ولا أنسى فضله ولكن.. لا أعرِف كيف أشرح لك قصدي!!

فأومأ حسان برأسه متفهما:

- أفهمك يا أختي لا تقلقي..

وأخذت كلمات أخيه وسام تتردد في أذنيه:

"أنت يا أبي السبب فقد ساعدتهن على التمادي، تعال وانظر في كل مكان، لا تجرؤ أخت على أن تكلم أخاها بهذا الأسلوب عوضا عن أبيها!! أما أنت فقد فتحت لهن المجال بطيبتك!! كان عليك أن تكون أكثر حزما وصرامة مثل باقي الرجال!!!"

وتنهد حسان محدثا نفسه:

- أصبح من يقوم بأقل الواجب هذه الأيام يعد طيبا للغاية!! صدق المعلم أمين.. ستكون المواجهة.. كارثة!!!!

ثم سأل سارة- التي كانت منفعلة وهي تحدثه بما أخبرت به الفتيات:

- متى وجدتن الوقت لكل هذه الأحاديث؟

فأجابته سارة بابتسامة عريضة:

- من لطف الله بنا أن المعلمات ألغين درسين من دروس اليوم بسبب اجتماع خاص بهن..

فقال حسان:

- لذا قضيتن الوقت بالثرثرة!!أرجو أن لا تكوني قد بالغت في نقل الكلام! فنحن لا ينقصنا المشاكل!

فرمقته سارة بنظرات متعجبة:

- بالغت في ماذا!! ألم تقل أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تأخذ بيده الجارية فتذهب به إلى أي مكان تريده حتى تقضي حاجتها؟ وكان يستمع إلى رأي النساء؟ وأوصى بهن خيرا؟ وأخذ بمشورة زوجته؟ وكان يخصف نعله بنفسه رغم وجود نسائه وبناته؟ وكان...

وأخذت سارة تسرد عليه سلسلة طويلة من الأسئلة وهو يومئ برأسه:

- أجل.. أجل.. أجل..

فقالت سارة أخيرا:

- فإلى متى سنخفي هذه الحقائق أو نذكرها على استحياء؟؟؟ سترى يا أخي ماذا سيحدث بإذن الله، وسأتولى بنفسي إخبار البنات جميعهن بهذه الأمور إن شاء الله..

ثم هتفت بحماسة:

- ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ..

فأسرع حسان يهدئها قائلا- وهو يدلف بسرعة إلى باحة المنزل:

- حسنا حسنا فهمت.. ولكن اخفضي صوتك قليلا فنحن لم ندخل البيت بعد!

فضحكت سارة بمرح:

- هذه هي البداية فقط!

***

شعر علاء بالحرج من الاستقبال العطوف، الذي حفته به السيدة زبيدة والدة ياسر وزوجة المعلم نبراس.. كانت سيدة رقيقة ولطيفة جدا وطيبة للغاية حتى أن علاء ابتسم لنفسه وقد أدرك سر ياسر الذي يدهشه دائما برقته ووداعته، فلطالما تساءل فيما إذا كان يصلح أن يكون فارسا قويا أم لا!! وحدث نفسه:

- إنه ابن أمه بجدارة.. مسكين المعلم نبراس لا حظ له في ابنه!

أخذه ياسر إلى غرفته الخاصة، التي رتبت ونظمت بعناية فائقة، ليفاجأ بلوحات لمناظر جميلة مرسومة بإتقان، معلقة في كل مكان على جدران الغرفة بشكل بديع، ثم وقعت عيناه على أدوات رسم إلى جانب لوحة تبدو وكأنها قيد التنفيذ، فسأل ياسر بدهشة:

- هل أنت من رسم هذه اللوحات يا ياسر؟

فأومأ ياسر برأسه إيجابا:

- أجل بتوفيق الله وفضله..

فقال علاء وقد ازداد إعجابه بياسر:

- لم أكن أعرف أنك رسام ماهر يا صديقي! إنك صاحب حس مرهف للغاية حتى تبدع مثل هذه اللوحات الرائعة ما شاء الله!

وازدادت دهشة علاء وهو يلمح إحدى اللوحات فأشار إليها قائلا:

- إنها تشبه تلك المعلقة في المدرسة عن مراتب الفروسية ومستوياتها، أليس كذلك؟

فرد ياسر وهو يقول بحياء:

- إنها اللوحة التجريبية لتلك اللوحة قبل أن أرسمها بالشكل النهائي بناء على طلب مدير المدرسة..

عندها هتف علاء:

- ما شاء الله!! هل أنت من رسم تلك اللوحة يا ياسر!! أنت مبدع وموهوب.. ما شاء الله.. بل ومتواضع جدا أيضا..

اصطبغ وجه ياسر باللون الأحمر تماما، فأسرع يغير الموضوع بقوله- وهو يتجه نحو أحد الأدراج:

- ها هي المفاجأة!

ثم أخرج مجموعة من الأوراق- وضعها أمام علاء- قائلا:

- إنها من منظمة الحمام الزاجل بالمنطقة، لم أكن أتصور أنني مقبل على عمل كبير قبل أن تتم تلك المقابلة معهم، وأطّلع على هذه الوثائق..

وأشار إلى ما كتب في أحد الأوراق:

- "على المتدرب المشارك أن يقسم بالولاء للمنظمة التي ستشرف على تدريب زاجله، فلا يسمح له تحت أي ظرف من الظروف أن يقوم بإرسال أي رسالة تسيء إليها أو يفشي بأسرار التدريب إلى منافسيها، وإذا تم ضبط المشارك في أي شبهة تخالف هذا الاتفاق فإن من حقها انتزاع ملكية زاجله منه، ورفع أمره إلى القضاء في حكمٍ لا يقل عن عشر سنوات سجن عوضا عن التعويض المادي البالغ مائة ألف قطعة ذهبية..."

لم يستطع علاء متابعة القراءة وهو يشهق بوجل:

- ما هذا؟؟ يبدو أن الأمر خطير!!

أومأ ياسر برأسه موافقا:

- هذا ما قالته أمي أيضا ولكن أبي شجعني على المضي فيه وقال بأنها ستكون تجربة مفيدة لي، إن شاء الله..

فقال علاء موضحا أكثر:

- ما أقصده أيضا أن الموضوع يبدو كبيرا جدا أكثر مما كنت أتخيله!

وهم بأن يقول لياسر بأنه موضوع أكبر من أن يتحمله فتى مثلك لكنه أمسك لسانه باللحظة الأخيرة، في حين قال ياسر وهو يقلب في الأوراق أمامه:

- هناك الكثير من الأسرار التي كنت أجهلها عن عالم الحمام الزاجل، وقد بهرت بما اطلعت عليه من دراسات وأبحاث وتجارب عديدة تخص هذا المجال..

بدا علاء مذهولا جدا وهو يتابع مطالعة تلك الوثائق والمخطوطات حتى قال أخيرا:

- ولكن كيف استطعت الحصول عليها؟

فأجابه ياسر مبتسما:

- مقابل ثمن بسيط.. في البداية لم يلقوا لي بالا ربما لصغر سني، رغم أنني من المشاركين في سباقات الحمام، إلى أن رأوا براعة وديع وما بيننا من تفاهم بفضل الله، بالإضافة إلى مميزاته التي تؤهله لهذه المهمة كما قال المتفرسون، رغم أنهم قالوا في البداية أن تدريب الزاجل يجب أن يبدأ بعد فطامه عن أبويه مباشرة! ومن ثم عرضت عليهم عمل لوحة تنظم جميع أعمال المنظمة وتلخص برامجها، وبعدها بدأنا بالتفاهم حتى تمت الموافقة على تدريب وديع مقابل ثمن بسيط نسبة إلى الأثمان الباهظة التي يطلبها المدربون عادة، وبالطبع بعد التوقيع على وثيقة المنظمة..

فشهق علاء:

- هل وقعت على تلك الوثيقة حقا يا ياسر!!!

فرد ياسر بحياء:

- أجل، ألم أقل لك أن أبي شجعني على ذلك! ثم إنه لم يكن أمامي خيار آخر لأتعرف على نظام الرسائل!

وابتسم وهو يقول بحماسة:

- ألا تريد أن ترسل رسالة لوالدك؟

بدا علاء متأثرا للغاية- وهو يسمع ما أقدم عليه ياسر- فقال بتأثر بالغ:

- لا أعرف كيف أشكرك يا صديقي لقد أتعبت نفسك كثيرا من أجلي..

فرد ياسر مبتسما:

- لم أفعل شيئا يا علاء، بل أنت من يجب علي شكره، فقد جعلت لعلاقتي مع وديع معنى عظيما لم أكن أتخيله، لقد أصبح لي هدف كبير معه غير التسلية واللعب..

ثم تابع مطمئنا:

- لقد استخرنا ومن ثم لم يتطلب الأمر مني إلا أسبوع واحد بفضل الله، وطوال تلك الفترة كنت أقدم نفسي على أنني هاوٍ مفتونٍ بالحمام لا أكثر، وقد تقبلوا ذلك بسرعة باعتباري فتى موهوباً برأيهم وقد أُفيدهمً في المستقبل..

ثم استطرد قائلا:

- لم أكن أعلم أن قلة هم من يتقنون التعامل مع نظام الرسائل عن طريق الحمام الزاجل، لذا فهم يتقاضون أجورا عالية جدا، هذا بالإضافة إلى أن الموضوع يحتاج إلى صبر طويل..

و استدرك قائلا- وهو ينظر إلى علاء مبتسما:

- لقد خطر لي أن أجعل تقريري عن الصبر في هذا المجال، ما رأيك؟

فبادله علاء ابتسامته قائلا:

- فكرة جيدة..

فقال ياسر:

- لا أريد أن أطيل عليك بذكر التفاصيل، المهم أنني منذ أن تلقيت ردا بالموافقة، بدأ وديع دروسه الأولى بفضل الله..

ثم قال:

- انظر..

تناول علاء الورقة الملفوفة من ياسر ونظر فيها، في حين تابع ياسر كلامه:

- إنها أول رسالة يحملها لي وديع من جدي الذي يقيم في قرية نسيم الجبل، بل إنها أول رسالة أتلقاها من أي أحد باستثناء رسائل المنظمة، بعد أن أرسلت لجدي أول رسالة أيضا..

ثم تابع مبتسما:

- لم يستغرق وديع للوصول إلى هناك سوى جزء يسير من يوم، رغم أننا نستغرق يومين حتى نصلها بالعربة.. هذه أولى الثمرات وهي تعتبر إنجازا كبيرا بفضل الله، وبإذن الله ستقل هذه المدة مع التدريب..

عندها هتف علاء وهو يعانق ياسر بفرح، أنساه غياب اسمه من قائمة المرشحين للاختبار:

- جزاك الله خيرا يا صديقي.. سيصبح حلمي حقيقة عما قريب، إن شاء الله..

فابتسم ياسر بسرور:

- إن شاء الله.. رغم أن وديع ما زال في بداية الطريق، لكنني واثق بإذن الله من أننا سنصل إلى الطريقة التي يتمكن فيها من الوصول إلى والدك..

وهمس لعلاء مستدركا:

- بالطبع، كما قلت لك، لم أخبر أحدا بحقيقة ما ننويه، فقد أخبرتني أمي أنه من الأفضل أن يبقى ذلك الأمر سرا، وإلا لواجهتنا صعوبات نحن في غنى عنها ولربما تعرضنا للخطر!

وابتسم قائلا:

- من الأفضل أن أبدو أمامهم مجرد هاوٍ يحب اللعب بالحمام! وسيكون الهدف الحقيقي سراً بيننا..

فشد علاء على يده:

- اتفقنا..

فردد ياسر:

- إن شاء الله..

وأطلق صافرة مميزة- وهو يتجه نحو النافذة- ليحط وديع على يده خلال لحظات معدودة، فرفع ياسر جناحه قائلا:

- هنا توضع الرسائل عادة، حفاظا عليها من تغيرات الجو..

وقبل أن يكمل كلامه دخلت فتاة شقراء رقيقة بها شبه كبير من ياسر– بدت أصغر منه بسنتين- وهي تحمل صحيفة طعام، فسلمت بحياء وهي تضعها على المنضدة بهدوء ثم خرجت مسرعة، فسأل علاء ياسر باستغراب:

- ألم تقل لي أنه لا يوجد لديك أخوة ولا أخوات؟

فأجاب ياسر:

- أجل هذا صحيح، إنها ياسمين ابنة خالتي، مثل أختي تقريبا فقد نشأنا معا في قرية نسيم الجبل قبل أن ننتقل إلى هنا..

وابتسم متابعا:

- لقد جاءت مع خالتي لزيارتنا، بعد أن أخذت إذنا من مدرستها في القرية لمدة يومين أثناء قضاء والدها بعض الأعمال في المدينة هنا، فكان لها نصيب في مشاهدة انجاز وديع الأول..

***

استمرت سارة بقراءة كتاب يتحدث عن بنات الرسول صلى الله عليه وسلم بشغف حتى وقت متأخر بعد صلاة العشاء، فلا بد لها من الفوز بالتحدي غدا ولن تستسلم لليانا مهما كلفها الأمر.. أصبحت المسألة لا تخصها وحدها.. إنها مسألة أمة كما يحلو لها أن تسميها.. هكذا أخذت تفكر، وهي تشعر بكبر المسؤولية الملقاة على عاتقها، عندما انتبهت لصوت والدها- الذي دخل عليها الغرفة- مناديا عليها بعصبية:

- لماذا لا تردين من أول مرة؟؟

فردت سارة :

- آسفة لم أنتبه لندائك يا أبي!

فقال والدها بحدة:

- ما الذي تعنينه بلم أنتبه!! ألهذه الدرجة والدك غير مهم عندك!!! أم أن ما تفعلينه أهم من والدك!!!

ارتبكت سارة كثيرا لذلك الأسلوب الغاضب، الذي لم تلق له سببا خاصة وأنها لم ترتكب أي خطأ منذ عودتها اليوم من المدرسة، بل على العكس كانت هادئة تماما حتى أنها تجنبت فتح موضوع دراستها مع أي فرد في المنزل مما جعل سمية تلاحظ عليها ذلك فسألتها:

- هل هذا يعني أنك رضيت بالأمر الواقع؟

فأجابتها ضاحكة:

- هذه هدنة فقط فلا وقت لدي اليوم لاستئناف المعركة.. هناك ما هو أهم!

راجعت سارة أحداث اليوم بسرعة فلم تجد سببا وجيها يجعل والدها يغضب منها هكذا، حتى قطع صراخ والدها قائمة مراجعاتها وهو يقول:

- لا تتغابي أمامي هكذا!! ما الذي قلتيه للبنات في المدرسة؟ هيا تكلمي؟؟

بوغتت سارة بهذا السؤال، وما لبثت أن شعرت بالغيظ الشديد لتصب جام غضبها على حسان وهي تتوعده بسرها، فهو الوحيد الذي أخبرته بما حدث فما الذي نقله لوالدها يا ترى؟؟ لكنها حاولت أن تكون أكثر صلابة وهي تجيب:

- ما الذي قلته؟؟ قلت أشياء كثيرة لا أذكرها كلها!!

فقال والدها:

- كفاك تغابيا، هيا قولي ما الذي قلتيه للفتيات؟؟ اسودّ وجهي مع الرجال بسببك! لقد جاءني الشيخ سامع ونبهني إلى ضرورة تأديبك بعد أن أفسدت أخلاق البنات بكلامك!

كان هذا آخر شيء تتوقع سارة سماعه فانفجرت غاضبة:

- لم أقل لهم إلا الحق! هذا ما أخبرني به حسان نقلا عن المعلم أمين!! رجال دين جاهلون مغفلون لا يفهمون الدين ولا يعرفون شيئا عن بناتهم ويستحيل على العقل التصديق بأنهم يعرفون أي شيء عن الدين الذي جاء به رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

فأسكتها والدها وهو يهم بضربها:

- تأدبي و اعرفي قدرك أيتها...

والتقط أنفاسه الغاضبة بصعوبة وهو يتابع:

- وضعك أسوأ مما توقعت بكثير، يبدو أنك تستحقين الحرمان من المدرسة وسأضطر لفعل ذلك وإن جاء قراري متأخرا، فالحق علي وأنا الملوم في تهاوني معك وهذه هي النتيجة! لم يأتني منك إلا وجع الرأس..

فقالت سارة مدافعة عن نفسها:

- هذا ليس عدلا يا أبي وأنت لا تعرف ما حدث، فلا يحق لك أن تحكم علي هكذا!!

فرمقها والدها بنظرات حارقة:

- تعلمينني كيف أتعامل معك أيضا!!

وفي تلك اللحظة أقبلت أمها مسرعة بعد أن سمعت الصراخ:

- ما الذي حدث؟ ماذا هناك؟

فالتفت إليها الأب قائلا:

- وما دخلك أنت؟ اذهبي واهتمي بشؤونك، كم مرة قلت لك أن لا تتدخلي بيني وبين الأولاد.. كل ما حدث من سوء أدبهم كان بسببك..

لكن الأم التفتت إلى سارة بنظرات مؤنبة:

- كم مرة قلت لك أن لا تتجادلي مع والدك؟؟

وشدتها من يدها قائلة:

- لقد تأخرت في النوم ..

وقبل أن تكمل كلامها قال الأب:

- لا تتعبي نفسك فلا مدرسة غدا، سأرى ما الذي يمكنني عمله مع هذه البنت.. إما أنا أو هي، ولا تتدخلي أنت يا امرأة!

ثم استطرد:

- تريد منا إرسالها إلى مدرسة المستويات الخمسة الثانية أيضا!! كأنني جننت لأفعل ذلك، لم تتجاوز الحادية عشرة وبدأت تتحذلق بفهم الدين فما الذي ستفعله بنا إن كبرت أكثر!! صدق أبي رحمه الله: التعليم يضر البنات.. وهذا ما حدث..

وفي تلك اللحظة دخل عليه وسام، فالتفت إليه الأب بقوله:

- هل هذا تصرف عقلاء!!!

فجلس وسام إلى جانب والده يحاول التخفيف عنه وصدره يغلي غضبا من أجله:

- قلت لك يا أبي ألف مرة أنت متساهل جدا معهن، لا أعرف كيف تحتمل تلك العقول المتحجرة..

فردد الأب:

- حسبنا الله ونعم الوكيل، ما الذي سنفعله يا بني، حفظ الله علينا عقولنا، حتى حسان الذي كان يفكر قليلا، أصبح مثلهن والله المستعان!

***

كانت النجوم المتلألئة ترصع السماء الحالكة السواد عندما صعد علاء مع رفيقيه طلال وحسام إلى سطح المدرسة في محاولة لتحري هلال شهر رمضان، رغم أن الشيخ عبد الرحيم أخبرهم بعد صلاة العشاء أنه لم تثبت رؤية الهلال، وبالتالي يكون غدا الأحد المتمم لشهر شعبان ثلاثين يوما وسيكون الاثنين أول أيام شهر رمضان المبارك لهذا العام ..

كانت تلك من المرات النادرة التي يصعد فيها علاء للسطح ليلا منذ قدومه إلى المدرسة مما أشعل حماسا في نفس حسام، الذي لم يقاوم نفسه من الإشارة إلى بعض المجموعات النجمية ذاكرا أسماءها، حتى أشار إلى مجموعة (بنات نعش) قائلا:

- ما الذي يوحيه لك منظرها يا علاء؟ انظر إليها جيدا..

وأخذ يشير بيده متتبعا رسمها في السماء، حتى قال له طلال باسما:

- لا داعي لكل تلك التأثيرات، دعه يراها بنفسه..

أما علاء فقد تأملها مليا قبل أن يقول:

- وكأنها علامة استفهام كبيرة؟؟

عندها هتف حسام بحماسة:

- تماما، هذا ما توحيه لي أيضا، كلما رأيتها شعرت وكأنها خطاب استفهامي من السماء

"أفلا يتفكرون؟" "أفلا يعقلون؟" "أفلا ينظرون؟"

إنها مجموعتي المفضلة، وأنت يا علاء ما هي مجموعتك المفضلة؟

فابتسم علاء قائلا:

- لم يخطر ببالي هذا السؤال من قبل!

في حين علق طلال مقلدا حسام في تعبيراته:

- ما هذا يا علاء!! ألا تحوز هذه النجوم الرائعة على إعجابك وتأخذ حيزا من تفكيرك!! لقد خيبت أملي!!

فضحك حسام:

- لم تتقن الدور تماما يا سيد طلال! تحتاج إلى مزيد من التدريب..

فابتسم طلال:

- ربما لم أبالغ بما فيه الكفاية!

وضحك الثلاثة في رحاب أجواء إيمانية هادئة وهم يودعون آخر ليالي شهر شعبان..

***

لم تجد كل محاولات الاستعطاف مع والد سارة بالسماح لها بالذهاب للمدرسة والذي اشترط أن تغير سارة من نفسها أولا وأن لا تفتح فمها في أي موضوع، في حين أصرت سارة على رأيها بأنها لم ترتكب خطأً!

حاولت أمها معها كثيرا كي تكف عن عنادها لكنها لم تستمع لنصائحها، وأخيرا قالت:

- اسمعيني يا ابنتي لا يهمني أي شيء ولكن لا أريد أن أراك تبكين بهذه الحرقة مرة أخرى، ما الذي سيفيدنا إن خسرت عافيتك؟؟

فتدخلت سمية:

- أرجوك يا أمي لا تتعبي نفسك معها، فستهدأ بعد قليل..

لكن أمها قالت:

- عليكم جميعا أن تدركوا أنني لا أطيق رؤية أي واحد منكم مريضا أمامي!

عندها أقبل وسام- الذي سمع حوارهن من الغرفة المجاورة- وصرخ في وجه أمه وهو في أشد حالات الغضب، في حين تبعه أخوته الصغار ينظرون بصمت:

- انظري إلى ابنتك المدللة، يعجبك هذا!!! ها هي لا يكفيها التطاول على أبي بل أيضا لا يهمها أمرك، فلتعلم أن أبي ليس راضيا عنها..

فردت عليه سارة بحدة:

- خف على نفسك أولا من إغضاب أمك، وتذكر ما تفعله كل يوم..

فنهرتها الأم:

- يكفي جدالا، وأنت يا وسام كن قدوة حسنة أمام أخوتك الصغار..

لكن وسام تابع كلامه:

- بل سأعلمهم كيف يكون التصرف في هذا المنزل، فلو كان أبي مثل باقي الرجال لما تحمل ما يحدث أبدا، أنتم تستغلون طيبته ولا تستحقون ما يقدمه لكم، ولولا خوفي من أن رضوخه لطلباتكم لما..

فلم تستطع سارة السكوت وقاطعته قائلة:

- كيف تتكلم أمام أمي بهذه الطريقة..

فقاطعتها الأم:

- لا تتدخلي أنت يا سارة، واهتمي بشؤونك الخاصة..

فعلق وسام:

- بل دلليها أكثر يا أمي، دعيها تفيدك..

لكن الأم تابعت حديثها مع سارة:

- أخرجي من هنا أفضل..

فقالت سارة بغضب:

- إنه يتطاول عليك هكذا، لقد أصبح يتمادى كثيرا ولن أسكت عليه، ولا يهمني إن ذهبت إلى المدرسة أو لا!!!

فصرخت فيها الأم بعصبية:

- كل واحد ينظر إلى نفسه، هيا اخرجي..

لكن وسام تبع أمه التي خرجت مع سارة قائلا:

- علميها أعمال المنزل..

عندها انفجرت الأم فصرخت بأعلى صوتها وقد فقدت أعصابها:

- وساااااااااااام، كفى.. أم أنك لن تسترح حتى تقضي علي!!

وفي تلك اللحظة عاد الأب إلى المنزل فأسرع وسام يستقبله بابتسامة مرحبة:

- كان الله في عونك يا أبي، كيف تركت المتجر؟؟

لكن الأب انتبه إلى صوت زوجته وهي تتحدث بعصبية من الغرفة الأخرى مع سمية التي أخذت تحاول تهدئتها، فتساءل:

- ما الذي حدث!! صراخ في كل وقت.. أعوذ بالله !! أما زالت سارة على حالها!

لكن سارة فاجأتهم بدخولها وهي تقول:

- بل لأن وسام تمادى في التطاول على أمي وتجاوز الحدود كلها حتى أثار غضبها ثم يأتي متظاهرا بالبراءة، وبعدها تلقي باللوم على أمي كالعادة!

فرمقها الأب بنظرات مستنكرة:

- وما دخلك أنت، أمك تعرف الكلام ولا تحتاج من يتحدث نيابة عنها..

فقالت سارة بحرقة:

- ولكنك لا ترى ما يحدث كل يوم يا أبي، هذا الوسام لا يستحق أن يكون أخا كبيرا أبدا وأنت تظنه...

فقاطعها والدها:

- احترمي أخاك الكبير يا صاحبة اللسان الطويل، لا شك أنكم تثيرون جنونه كان الله في عونه..

فقالت سارة:

- ولكنه لا يحترم أحدا لا سمية التي تكبره ولا حتى أمي ولا يستحق...

فصرخ والدها فيها:

- قلت لك اغربي عن وجهي..

ومن لطف الله بالعائلة أن حسان عاد في تلك اللحظة من بيت أصيل، بعد أن أنهيا أداء إحدى الواجبات معا، ليكون سندا مع سمية في احتواء الجميع حتى تمر الليلة بسلام..

وفي الصباح الباكر جلس حسان مع والده- أثناء انتظاره شروق الشمس ليؤدي صلاة الضحى- يحاول إقناعه حتى قال:

- لم لا تسأل الشيخ عبد الرحيم يا أبي؟

فأجابه والده بقوله:

- مع احترامي لذلك الشيخ لكنني لا أثق برجل محكوم من زوجته وبناته ولا يقول إلا ما يرضيهن!!

صدم حسان بذلك الجواب غير المتوقع، فقال مدافعا عن الشيخ عبد الرحيم الذي يكنّ له كل حب واحترام وتقدير:

- لا يجوز لنا يا أبي أن نحكم عليه بهذا الشكل! الله أعلم بنيته وهو شيخ فاضل وعالم حكيم أيضا بشهادة الجميع ما شاء الله..

فقال والده منهيا الحديث:

- حسنا حسنا بارك الله فيكم، أنا أعرف من أسأل.. هيا اذهب إلى المدرسة فأصيل يناديك..

قبّل حسان يد والده وخرج وهو يتنهد بارتياح:

- على الأقل وسام ليس في المنزل والحمد لله..من الجيد أن والدي كلفه بمهمة فتح المتجر من بعد الفجر..على الأقل لن تزداد الأمور سوءا في المنزل..

أو هذا ما كان يأمله..

لم ينس حسان السلام على والدته التي جلست تقرأ القرآن في غرفتها في محاولة جاهدة لكبت غيظها مما يحدث، وبعد أن قبل حسان يدها مسلما توقفت عن القراءة قائلة:

- أما زال والدك مصرا على رأيه؟ بأي حق يحرم البنت من الذهاب إلى المدرسة؟ لا أعرف ما الذي سيحدث لي في هذا المنزل!!

فارتبك حسان وهو يحاول تلطيف الجو:

- ربما كان من الأفضل لسارة أن ترتاح هذا اليوم وغدا- إن شاء الله- تذهب..

فقالت أمه:

- إذا بقي على هذه العقلية وبهذا التفكير متأثرا بالشيخ سامع هذا، فلا أحد يعلم حجم المعاناة التي سنلاقيها منه والله يسترنا!

فقال حسان مطمئنا:

- ثقي بالله يا أمي ولن يكون إلا الخير بإذن الله، ولكن أرجوك هدّئي أعصابك قليلا ..

لكنها نهضت قائلة:

- لقد تأخرت عن المدرسة يا بني إذهب، وفقك الله..

لم يكد حسان يخرج حتى ارتفع صوت الجدال بين والديه، فيما حاولت سمية تهدئة الأوضاع بينهما، ولأول مرة تدخلت لتقول الحق الذي تراه وهي ترى أمها على وشك أن تفقد أعصابها من شدة الغضب، فوجهت حديثها لأمها قائلة:

- أعلم يا أمي أنك على حق ولكن...

لم تكد تكمل كلامها حتى صرخ والدها بقوة مقاطعا:

- أما والدك على باطل!! حتى أنت أصبح لك لسان؟؟

فقالت أمها مخاطبة زوجها بحدة:

- لماذا تصرخ في سمية هكذا!! لم تقل شيئا..

ارتبكت سمية بشدة إذ فاجأها ما حدث ولم تكن تريد أن تزيد الطين بلة، فحاولت توضيح ما تعنيه بقولها:

- لم أقصد ذلك يا أبي وكنت...

فقاطعها والدها مرة أخرى وهو ينهض خارجا بغضب شديد:

- لم يعد هناك احترام للأب ولا تقدير لرب الأسرة في هذا المنزل .. حسبنا الله ونعم الوكيل..

كانت لحظات عصيبة على سمية شعرت فيها بالدوار الشديد لكن أمها خاطبتها قائلة:

- حاولي أن لا تتدخلي مرة أخرى فهذا أفضل لك، لا أعرف ما الذي حدث لوالدك في الفترة الأخيرة، ومن الأفضل أن لا تعاندوه فهو والدكم على أية حال، وسأعرف كيف أتفاهم معه وحدي إن شاء الله.. لا أريد مساعدة..

وتمتمت في سرها:

- لم يعد هناك مجال للسكوت أكثر على ما يحدث، وإلا كنت مشاركة في ظلم البنات، يجب أن أكون أكثر حزما وأسأل الله أن يرزقني الحكمة ويعينني والله المستعان..

ثم ربتت على كتف سمية التي حاولت جاهدة حبس دموعها:

- لا تقتلي نفسك بالهم، حاولي أن تكوني أكثر قوة فلا شيء يستحق أن تخسري عافيتك من أجله لا قدر الله..

فابتسمت سمية:

- لا تقلقي علي يا أمي، سأكون بخير إن شاء الله..

وبعد أن سلمت سمية على والدها وقبلت يده، وهو خارج من المنزل نحو متجره، جلست مع سارة لعلها تكف عن عنادها قليلا في حين أجابتها بإصرار:

- كيف أعد أبي بشيء يستحيل علي فعله!! الجميع يتكلم في كل شيء وأنا أصمت!! لماذا؟؟ ثم إن اليوم موعد التحدي وعلي إخبار ليانا بقصة حب إسلامية..

توردت وجنتا سمية مما سمعته:

- يا لجرأتك يا سارة؟؟ ما هذا الذي تفعلينه في المدرسة!!

لكن سارة تابعت كلامها وقد بدأت تتقبل فكرة غيابها عن المدرسة بعد أن استنفدت طاقتها في البكاء ليلة أمس:

- نحن يا سمية لا نعرف شيئا عما كانت عليه بنات الرسول صلى الله عليه وسلم ونساؤه ونجهل حقيقة تعامل النبي- صلى الله عليه وسلم- معهن تماما..

ثم ناولتها كتابا قائلة:

- لو اطلعت على هذا الكتاب لعرفت أننا نطبق الدين بالمقلوب ثم ندعي فهمه! ولو سمعت ما قاله حسان لفهمت قصدي، ولن أثق بعد اليوم إلا بمعلمي مدرسة الفروسية، فكلامهم الوحيد الذي يدخل العقل ويوافق المنطق..

فتحت سمية الكتاب وتصفحته قليلا، ثم قالت:

- إنها قصص للصحابيات مع النبي، صلى الله عليه وسلم..

ثم هزت رأسها متفهمة وقد تفجر في داخلها مزيج من المشاعر المختلفة:

- من منا يا أختي لا يتأثر بمثل هذه القصص!! ولو أحسن إخراجها وأعيدت صياغتها بلغة عصرنا لطغى أثرها على قصص ممالك رامان وسومار وبلاد الناسينال وغيرها..

فأومأت سارة برأسها:

- أنا متأكدة من هذا..

ثم استدركت:

- ما الذي تعنينه بإعادة صياغتها؟؟

فقالت سمية موضحة:

- تذكرين قصة لومي التي جذبتنا جميعا وحرصنا على متابعة أجزائها؟ لو فكرت فيها بشكل آخر لوجدت أنها باختصار قصة عادية لفتاة طيبة صبرت على ظروف الحياة الصعبة حتى تزوجت من أمير نبيل في النهاية، ولكن حبكة القصة والإبداع في إخراجها مع المؤثرات العديدة في المشاهد المختلفة جعلتها أعمق أثرا من قصص حقيقية نراها ونسمعها وربما تكون أكثر تعقيدا.. مثلا تذكرين كم بكينا وتأثرنا بموت الرجل الطيب الذي ضحى بحياته لينقذ لومي من الأشرار وهي

صغيرة في حين أن هناك آلافاً من الشهداء يقتلون دفاعا عن بلادهم ولا تذرف عيوننا دمعة واحدة عليهم، والسبب هو أننا نتأثر بطريقة صياغة القصة أكثر من القصة نفسها، وبهذه الطريقة أستطيع أن أقص عليك القصة نفسها بصيغ عديدة يكون أثرها مختلفا عليك في كل مرة رغم أنها قصة واحدة..

كانت سارة تنصت باهتمام ثم قالت:

- لم أكن أعلم أنك خبيرة بهذا المجال يا أختي، لقد أوحيت لي بفكرة!

ثم قلبت صفحات أحد الكتب، ووضعت أصبعها على موضوع معين، وهي تقول:

- هل يمكنك أن تعيدي صياغة هذه القصة يا أختي؟

ألقت سمية نظرة على الموضوع، ثم ابتسمت:

- فهمت قصدك.. ولكنني لست بارعة ولا أظن...

فقاطعتها سارة:

- بل بارعة جدا ما شاء الله، جميع صديقاتي وبنات جيراننا يشهدن بأنك أبرع من قص القصص..

فعلقت سمية مبررة:

- هذا لأنكن كنتن صغارا!

فقالت سارة:

- هيا يا أختي كفاك تواضعا..

ثم ابتسمت في سرها وهي تتذكر غيابها عن مسرح الأحداث في المدرسة اليوم بصدر رحب:

- لعله خير..

***

سار قاسم إلى جانب علاء- وهما يقودان جواديهما نحو الإسطبل بعد تدريب شاق- وقد أدرك ما يدور برأسه، فبادره بقوله:

- قد يكون لكل واحد منا هدف مختلف في هذه المدرسة يا علاء، رغم أن كلانا يمارس التدريبات نفسها باذلا فيها جهده، ولكن في جميع الأحوال علينا أن نكون أكثر اتزانا..

توقف علاء قليلا و قد أثارته كلمات قاسم، فسأله:

- ما الذي تعنيه!

فأجابه قاسم وهو يتابع سيره:

- تمر بنا مواقف أحيانا تثير حماستنا وتستفز مشاعرنا، فنسرع بتصرف قد يكون متهورا ما هو إلا رد فعل مباشر لما واجهنا فنفعله دون اتزان! وقد نندم عليه فيما بعد!!

لم تزد كلمات قاسم علاء إلا حيرة، حتى خيل إليه أن قاسم يتحدث مع نفسه أكثر من كونه يوجه له رسالة! ولم يكن يرغب أن يصارحه بما خطر بباله لكنه أصر على استيضاح ما يعنيه فقال:

- تقصد أن ما أقدم عليه الآن من تدريبات إضافية، ما هي إلا فعل متهور نتيجة لعدم ترشحي لاختبار الترقي لمرتبة مقدام؟؟

فأومأ قاسم برأسه:

- إلى حد ما..

ثم تابع:

- لا تقتل نفسك بتدريب شاق تعجز بعده عن الحركة..

فرد علاء:

- ولكن حسام وطلال يتدربون أكثر من ذلك بكثير!

فقال قاسم:

- لا تنس أنهما من مرتبة أعلى وقد تم تهيئتهما لذلك تدريجيا، فلا تظن أن فترات التدريب قد وزعت عشوائيا بين المراتب المختلفة، ففي حين أننا نأخذ تدريب ركوب الخيل مرتين أسبوعيا، يأخذونها هم ثلاث مرات في مرتبة مقدام وهذا يتناسب مع بقية التدريبات في المرتبة..

لاحظ قاسم أن كلامه لم يرق لعلاء كثيرا، فتابع موضحا أكثر:

- لا أعني أنك لست أهلا لذلك؛ ولكن احذر من التهور والمبالغة، فنحن نريدك فارسا صنديدا لا جثة هامدة!

وأطرق برأسه وهو يردد:

- وهذا الكلام موجه لي أيضا وإن كان بطريقة أخرى!

***

كانت سارة مشغولة تماما بالكتاب الذي تقرأه، حتى خيل لحسان الذي رآها على تلك الحال منذ رجوعه إلى المنزل أن موضوع المدرسة لم يعد يعنيها! لكنه سلم عليها قائلا:

- أبي يدعونا جميعا لجلسة شورى..

رفعت سارة عينيها عن الكتاب، وحملقت فيه قليلا وكأنها تراه لأول مرة، قبل أن تقول:

- حسنا سأنهي هذه الصفحة فقط..

لكنها استدركت فجأة:

- لم أصل العصر بعد، سأتأخر قليلا حتى أصلي..

و تنهدت في سرها بعد أن خرجت من عالم الكتاب الذي اندمجت فيه تماما:

- أرجو أن لا تكون مثل الجلسة الماضية التي فرحت بها في البداية، وإلا لن أعرف لماذا يتعب أبي نفسه بما يسميه جلسة الشورى!! درس طويل في معنى الشورى وآدابها وبعدها.. قولوا ما لديكم ثم أفعل ما يحلو لي!

لكنها أقنعت نفسها:

- يظل أبي أفضل من غيره.. أصبح لدينا مجلس يسمى بالشورى على الأقل.. لا بأس..

وفي الصالة الكبيرة جلس الأب مع وسام- الذي عاد إلى المنزل باكرا- بانتظار الباقين..

حضرت الأم على مضض واجتمعت الأسرة ليبدأ الأب الحديث كالمعتاد، وأخيرا قال:

- نحن مقبلون على شهر كريم ولا نريد إضاعة الوقت فيه بالمشاكل، نريد أن نتفرغ للعبادة ، لذا سنحاول أن ننهي الكلام في الموضوع الذي يشغل الجميع الآن حتى لا يتم النقاش فيه فيما بعد.. سارة ستنهي دراستها في المستويات الخمس

الأولى وسيبدأ التسجيل في مدارس المستويات الخمس الثانية خلال الأيام المقبلة، وبغض النظر عن عدم قناعتي أصلا بتلك المدارس للبنات - إذ يكفي ما يتعلمنه من قراءة وكتابة - مدارس المستويات الخمس الثانية كما تعلمون لن تكون مجانية، ونحن حاليا لا نملك مدخرات تكفي لها فهناك أولويات أخرى..

فقالت الأم:

- ما زال الوقت مبكرا على دفع تكاليف المدرسة، المهم أن تقدم طلب الالتحاق بها، وبإذن الله سيسهل الله ذلك في حينه..

وقالت سمية:

- أوافق أمي وأضيف أنه بإمكاننا استخدام ثمن البضائع التي..

فقاطعها وسام بنبرة غاضبة موجها حديثه لوالده:

- أرأيت يا أبي!! قلت لك أنه لا داعي لأن تخبرهم بذلك الموضوع، انظر كيف بدأت تتكلم فيما لا يعنيها، ألا يكفينا تعليقاتهن الدائمة على كل شيء!

فعقب الأب على كلامه مؤنبا سمية:

- اعرفي كيف تتكلمين مرة ثانية، هل يعقل أن يصدر هذا الكلام الأحمق من فتاة عاقلة تجاوزت الثامنة عشرة!!

فصرخت الأم في وسام تعبيرا عن غضبها مما سببه لسمية:

- احترم نفسك يا وسام أولا ولا تقاطع أختك الكبرى، ما تقوله سمية صحيح وستكون...

عندها قال الأب- موجها حديثه لزوجته:

- كم مرة علي أن أعيد على مسامعكم آداب الشورى! لا أحد يتكلم في غير دوره وأظنك قلت ما لديك سابقا يا مريم..

فردت عليه الأم بقولها:

- أنظر إلى ابنك أولا!!

فنظر الأب إلى وسام معاتبا:

- قلت لك لا تسبب المشاكل..

لكن وسام نهض غاضبا وهو يقول:

- أنت يا أبي تفسح أمامهن المجال كثيرا ثم تضع نفسك في ورطة وربما تجد نفسك مضطرا لإعطائهن ثمن البضائع التي اتفقنا سابقا بأنها لن تتجاوز حدود المتجر، أنا لم أعد احتمل أكثر من هذا!

وخرج من الغرفة.. فقالت الأم:

- أيعجبك حاله هذا!!

فرد الأب:

- كان الله في عونه من يقعد مع النساء لا بد أن يفقد عقله، كيف تريدونه أن يحتمل كلاما لا يصدر عن عقلاء!!

عندها لم تحتمل سارة البقاء صامتة، فقالت:

- وأين احترام الرأي الآخر الذي أسمعتنا إياه يا أبي في آداب الشورى!! أم أننا المقصودون فقط باحترام آرائكم انتم وحدكم!

وعلقت الأم بقولها:

- قلت لك في المرة السابقة لا نريد هذه الاجتماعات التي نخدع أنفسنا بها ونسميها شورى!

فنهض الأب وهو يقول بلهجة ثائرة:

- حقا أنتن لا تستحقون من يفتح حوارا معكم، فكل ما تعرفنه هو الصراخ وعدم الاحترام، حسبنا الله ونعم الوكيل..

أما حسان الذي بقي يراقب ما حدث بصمت، فقد كان غارقا في دوامة من الأفكار لا يعرف منتهاها..

و قبل أن توشك شمس آخر يوم في شعبان على المغيب اجتمعت العائلة مرة أخرى على طبق حلوى أعدته سمية احتفالا بقدوم شهر رمضان، لعلها ترسم البسمة على وجوه الأسرة من جديد، ولسان حالها يقول:

مهما حصل نظل أسرة واحدة.. وكل عام وانتم بخير..

***

تبادل الجميع التهاني بحلول أول ليالي شهر رمضان المبارك، ونهض المصلون في جامع الفتح لأداء صلاة التراويح خلف الشيخ عبد الرحيم بعد أن أدوا ركعتي سنة العشاء.. وقف علاء إلى جانب حسام في الصف الثاني، ومشاعر عديدة تختلج في نفسه..

- مثل هذه الليلة من رمضان الماضي كنت أقف إلى جانب والدي في جامع مدينة شمس، يا رب.. متى سأصلي هناك مرة أخرى؟؟؟ هل سيطول الغياب يا ترى!!

وذرفت عيناه الدموع وهو يكبر للصلاة.. حتى إذا ما دعا الشيخ عبد الرحيم في دعاء القنوت بصلاة الوتر:

"..اللهم انصر إخواننا المظلومين في كل مكان، اللهم انصرهم في المروج الخضراء...."

بكى علاء من أعماق قلبه وبكت كل خلية في جسده، تاركا العنان لدموعه كي تنهمر بغزارة، وكأنها تغسل هموما وأشواقا تراكمت؛ وقد حان أوان تخفيف لوعتها في أيام الرحمة..

قُضيت الصلاة وتصافح الجميع وشعر علاء بيدين من الخلف تضغطان على عينيه في حركة مرحة، ما لبث أن ظهر أصيل على أثرها باسما:

- مفاجأة، أليس كذلك؟

فابتسم علاء مرحبا:

- لكنها سعيدة.. لم أتوقع أن أراك هنا، ألست تصلي في الجامع القريب من منزلكم؟

فقال أصيل:

- هذا في الأيام العادية أما في رمضان فقد اعتدت أنا وحسان على صلاة التراويح في جامع الفتح، فنحن نحب صوت الشيخ عبد الرحيم والشيخ مسعود في تلاوة القرآن، ثم إن إمام الجامع قرب منزلنا لا يختم القرآن في صلاة التراويح..

وتابع بمرح:

- ولا تنس أنها فرصة للالتقاء بأصدقائنا الأعزاء مثلك يا علاء..

فقال علاء مبتسما:

- جزاك الله خيرا يا أصيل، هذا من لطفك يا صديقي..

فتابع أصيل:

- صلاة التراويح في جامع الفتح فرصة لا تعوض، ولكن بالطبع علينا أن نخرج أبكر من المعتاد حتى نلحق الصلاة من أولها، فلم نلحق اليوم إلا الركعة الأخيرة من صلاة العشاء..

وما هي إلا لحظات حتى وجد علاء نفسه محفوفا بأصدقائه، أصيل.. حسان.. زيد إضافة إلى حسام وطلال رفيقيه في الغرفة، واللذان أصبحا بمثابة أخويه.. حتى ياسر فاجأه بقدومه، في حين تلفت أصيل حوله قبل أن يقول:

- يبدو أن معاذ لم يأت الليلة! سوف يلقى حسابه غدا إن شاء الله..

لم يكد يتم جملته حتى سمع صوت المعلم نبراس خلفه قائلا:

- لماذا؟؟ هل هو تحت سلطتك حتى تصدر أحكامك عليه!!

تجمد أصيل في مكانه مرتبكا في موقف لا يحسد عليه، وهو يردد في سره:

- لو قالها أحد غير المعلم نبراس! يا إلهي كيف لم انتبه لوجوده!! لا ينقصني رعبا منه! يكفيني مسائل الحساب المعقدة!!!

فابتسم المعلم نبراس مربتا على كتفه وهو يلاحظ ما حل به:

- أعلم أنك تحب المزاح فأحببت مشاركتك قليلا..

فابتسم الأصدقاء بهدوء واحترام شديد وعيونهم في الأرض، في حين ذاب أصيل خجلا!! فرغم أن المعلم نبراس بدا مرحا معهم في تلك اللحظة؛ إلا أن ذلك لم ينقص من مهابته وسحنته الجادة من شيء خاصة عندما قال لهم:

- كل عام وأنتم بخير يا أولاد، رمضان فرصتكم.. شدوا الهمة، وشمروا عن سواعدكم والأذهان متقدة؛ فالمسائل الحسابية أروع ما تكون والبطون فارغة!

وكم كانت سعادة علاء كبيرة عندما خصه المعلم نبراس بالكلام:

- أرجو أن تكون قد قضيت وقتا ممتعا يا علاء يوم أمس، تعال لزيارة ياسر متى أحببت، فقد سررنا جميعا بزيارتك يا بني..

وقبل أن يخرج المعلم نبراس برفقة ابنه ياسر التفت إلى أصيل وحسان قائلا:

- هل تحبون أن أوصلكم إلى منزلكم؟

فبادره حسان بالرد معتذرا بخجل:

- جزاك الله خيرا يا معلمي، فمنزلنا ليس بعيدا وسنمر على الدكان المجاور؛ لشراء بعض الحاجيات..

فابتسم المعلم وهو ينظر إلى أصيل:

- وماذا عنك يا أصيل؟

تلون وجه أصيل بالحمرة تماما، وأرخى عينيه في الأرض وهو يردد ما قاله حسان متلعثما:

- جزاك الله خيرا يا معلمي..

ولم يكد المعلم نبراس يخرج حتى تنفس أصيل الصعداء:

- يا إلهي كاد يغمى علي!!

فضحك حسام وهو يردد جملة أصيل المعتادة:

- خذ الأمور ببساطة يا عزيزي..

وضحك الأصدقاء ناسين أنهم ما زالوا في الجامع، حتى إذا ما انتبهوا للعيون المحدقة بهم خفضوا أصواتهم وخرجوا بسرعة..

كانت أجواء الجامع أشبه ما تكون بأجواء عائلة سعيدة أنست علاء همومه، خاصة وهو يسير مع أصدقائه في ليلة صافية لم يقطع سكونها إلا حركة المصلين الخارجين من الجامع في جو بهيج.. وزادت حماسة علاء وهو يناقش مع أصدقائه ما سيفعلونه في هذا الشهر الكريم، وقبل أن يسلك حسان وأصيل طريق منزلهما عند مفترق الطرق، قال طلال:

- هل سمعتم ما قاله الشيخ عبد الرحيم بعد الصلاة؟ سيعقد في قسم النساء في جامع الفتح دروس قصيرة للفتيات خلال شهر رمضان تقدمها ابنتاه جويرية وميمونة بعد صلاتي العشاء والتراويح، لا تنسوا إخبار أهلكم ومن يهمه الأمر..

فتساءل أصيل:

- وماذا عن دروس السيدة رغدة؟ من الجيد أنك ذكرتني فقد طلبت مني أمي السؤال ما إذا كانت ستستمر خلال الشهر أم لا ومتى سيكون موعدها في رمضان؟

فأجابه حسان:

- أعتقد أنها ستوقفها وستستأنفها بعد رمضان إن شاء الله، هذا ما فهمته، ولكن اسأل زيد احتياطا..

فسألهم علاء:

- ومن هي السيدة رغدة؟

فأجابه أصيل:

- زوجة الشيخ عبد الرحيم، وهي تعقد حلقات علم للسيدات، في يومي الاثنين والأربعاء من كل أسبوع.. أمي حريصة جدا على حضورها..

أبدى علاء إعجابه بما سمع؛ فهو لم يكن يعرف ذلك عن عائلة الشيخ عبد الرحيم، لكنه تساءل باستغراب:

- ولكن سيكون الوقت متأخرا على الفتيات بعد صلاة التراويح! أليس كذلك؟

فضحك أصيل:

- أنت لا تعرف الناس هنا! لقد اعتادوا السهر بعد التراويح وستجد متاجر التسوق مكتظة بهم حتى منتصف الليل.. ولا تنس أن أنوار الفوانيس الرمضانية المعلقة في الشوارع؛ تكاد تقلب الليل إلى نهار!!

وقال حسان موضحا:

- لن تتأخر الدروس بعد التراويح كثيرا، ثم إنها بديل جيد لمعظم الفتيات اللآتي يقضين وقتهن حتى وقت متأخر عند صندوق الحكايات..

***

لم يغمض لحسان جفن تلك الليلة، فنهض من فراشه وخرج باتجاه الصالة ليجد والده جالسا وحده مهموما.. فألقى حسان عليه السلام، ثم جلس إلى جواره، وبعد أن رد والده عليه السلام قال:

- ألم تنم بعد!!

فقال حسان:

- لم أستطع النوم، فقد تقلبت في فراشي كثيرا دون فائدة!

ثم تابع قائلا:

- هناك أمر يشغلني يا أبي، وأود سؤالك فيه إن سمحت لي..

فقال والده:

- خير إن شاء الله..

فتكلم حسان قائلا:

- ما الذي يعنيه احترام الرأي الآخر!! مثلا لو كانت اختي الكبيرة ترى رأيها أحمق لما تبنته، ثم ما يدرينا أن آراءنا التي نعتز بها نحن لا يراها الآخرون في منتهى الحماقة؟؟

صمت الأب كثيرا قبل أن يقول كمن يحدث نفسه:

- أمور عديدة ترسخت في العقول ويصعب تغييرها بين عشية وضحاها..

والله المستعان..

بدا مهموما بشكل كبير حتى أن حسان شعر بالقلق فسأله:

- هل حدث شيء يا أبي؟

فأطلق والده زفرة طويلة قبل أن يقول:

- حال الدنيا، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد وصلني خبر وفاة ابن صديقي سميح الذي كان يسعى لإلحاقه بمدرسة المستويات الخمسة الثانية..

كتم حسان شهقة قوية كادت تخرج منه وهو يقول:

- تقصد ابنه الوحيد الذي جاء بعد خمس بنات!!

ولم يشأ أن يكمل أمام والده الكلام الذي يعرفه الجميع عن السيد سميح حتى لا يثير جروحا أكبر..وتنهد في سره:

- سامحه الله، لقد حرم جميع بناته إكمال دراستهن في المستويات الخمس الثانية حتى يدخر المال لابنه الوحيد وها هو يفقده..إنا لله وإنا إليه راجعون..

لكن والده التفت إليه وهو ينهض قائلا:

- اذهب إلى فراشك يا بني، علينا أن ننام حتى نتمكن من القيام للسحور..

فقبل حسان يد والده:

- حسنا يا أبي.. تصبح على خير وكل عام وأنت بخير..

***

اجتمع علاء مع رفاقه المقيمين في مدرسة النصر حول المائدة في قاعة الطعام لتناول طعام السحور، أخذ يرمق قاسم الجالس إلى جانب عمير.. وكأنه يحاول اختراق حدود جسده لعله يعلم حقيقة ما يعنيه بكلماته التي لم تزل تتردد في رأسه منذ الأمس، حتى انتبه على صوت السيد كريم وهو يقول:

- من يرغب منكم في المساهمة في ترتيب طعام الإفطار في جامع الفتح أو توزيع التمر على الصائمين فليأت قبل المغرب..

فالتفت حسام إلى علاء- وكأنه يتأكد من كونه سمع ما قاله السيد كريم بعد أن لاحظ شروده- قائلا:

- ما رأيك يا علاء؟هل تحب المشاركة؟

فسأله علاء وكأنه لم يكن موجودا عندما تكلم السيد كريم:

- وما المطلوب منا عمله؟

فأجابه حسام:

- نحضر إلى هنا ونأخذ التمر والماء وبعض الطعام لنرتبها في الجامع حيث أننا نتناول طعام الإفطار في رمضان هناك عادة، ونشارك بقية الصائمين، سيكون عملا ممتعا ولا تنس أن من فطّر صائما كان له مثل أجره..

فنظر علاء إلى طلال قبل أن يقول:

- ولم لا! سأشارك إن كان هناك وقت إن شاء الله..

فقال طلال وقد فهم ما يدور بخلد علاء:

- سيكون هناك وقت بالتأكيد فلن ندعك تقتل نفسك بتدريبات إضافية قبل الغروب!

وقبل أن يقول أي منهم كلمة أخرى، قال السيد كريم:

- حاولوا إنهاء ما في أطباقكم بسرعة فسيرفع أذان الفجر بعد قليل..

***

لم تكد سارة تدلف من باب المدرسة، حتى وجدت صديقاتها باستقبالها وهن يسرعن نحوها بلهفة، قالت سمر:

- لماذا لم تأت بالأمس، كدت أن تُشمتي ليانا بنا!

فابتسمت سارة معلقة:

- هذا يعني أنها لم تشمت بعد.. حمدا لله..

فردت سمر:

- ليس هذا وقت المزاح!

لكن سارة قالت:

- على رسلك يا عزيزتي، رمضان كريم وكل عام وانتن بخير..

فابتسمت ريم:

- وأنت بخير،لقد أنسيتنا بغيابك أن اليوم هو أول أيام رمضان!

فضحكت سارة:

- ألهذه الدرجة! يبدو أن أحداثا مثيرة فاتتني!!

فأكدت سمر:

- من لطف الله بنا أن ميسون حدثتنا بقصة حب رائعة لم تستطع أمامها ليانا فتح فمها بكلمة واحدة!

فتهلل وجه سارة فرحا:

- هكذا إذن يا للروعة، عن ماذا تحدثت؟

ثم استدركت قبل أن يجبنها بشيء:

- لا شك أنها حدثتكن عن السيدة خديجة رضي الله عنها، أليس كذلك؟

فأومأن برؤسهن إيجابا وقالت سمر:

- كأنني أول مرة أسمع عن قصة الرسول صلى الله عليه وسلم معها، إنها مؤثرة جدا وأروع مما كان ببالي!

فابتسمت سارة:

- حسنا وقد أحضرت لكن قصة أيضا..

لكن المعلمة المسؤولة عن النظام أقبلت عليهن و قاطعتهن بقولها:

- هيا إلى قاعات الدرس بسرعة فسيبدأ الدرس الأول..

***

" في ذلك البيت السعيد الهانئ حيث ساد الحب والوئام ترعرعت بطلة قصتنا بكر والدها ونشأت كأروع فتاة حازت الحسن كله، فهي الفتاة الخلوقة ذات النسب والجمال.. ولم يخف على أحد تطلع الشبان لها يرقبون نموها لعلهم يفوزون بخطبتها، لولا ذلك الشاب الذي وقف حاجزا في طريقهم دونها.. انه ابن خالتها الفارس الشهم الذي فاق أقرانه قوة وشجاعة وخلقا ومالا فهو من أبرز من سافر في رحلات التجارة في ذلك الزمن.. كان يترقب اللحظة المناسبة ليطلب يدها وهو يتمنى أن يكون قد صدق حدسه في ما تبادله من مشاعر.. إذ كان يسرع لبيت خالته كلما عاد من تجارة أو سفر ليقصّ عليهم ما حدث معه بحديثه الذي يسعد السامعين ويؤنسهم فيغدون في شوق لإكماله.. وهو يلحظ ابنة خالته ويرقبها سعيدا بإنصاتها له وبقربها منه.. فهي الوحيدة التي ملكت عليه لبه، وما وجد أفضل منها ولا أحسن في حله و ترحاله.. حتى جاء ذلك اليوم الذي لم يعد يطيق فيه الصبر أكثر وقد بدأت أعين الخاطبين تتجه نحوها.. فحزم أمره واتجه إلى بيت خالته، كان استقباله محفوفا بالود والمحبة كالعادة، فزوج خالته أعظم رجل وقعت عليه عيناه، ويكن له كل التقدير والاحترام والحب، وخالته تعتبره ابنها الحبيب، احتار في اختيار كلماته بداية وبدا مترددا فهذه بالنسبة له زيارة مختلفة..

لم يستطع أن يضع عينيه في عين والدها ذلك الرجل العظيم الحاني وهو يذكر اسمها، رغم أنه لا يخفى عليه مكانته عنده لا سيما وأنه قد عُرف مثله بأمانته، حتى ابتسم له ابتسامة أدخلت الطمأنينة في قلبه، إذ لاقى قبولا لديه وهو يقول له بأن الأمر لصاحبة الشأن..

أما هي فقد توردت وجنتاها حياء ولم تستطع أن ترد بكلمة واحدة وقد أرخت عيناها وهي تسمع ما تقوله أمها.. ابن خالتك يذكرك.. فهل أنت موافقة؟؟

وأمام صمتها أُعلن القبول وحدد يوم النكاح، لتبدأ قصة حب سامية سطرتها الأيام.."

توقفت سارة عن القراءة وهي تتأمل في وجوه زميلاتها بسرور، فسألتها سمر:

– هل أنت متأكدة من أن هذه القصة إسلامية؟ ومن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم!!

فأكدت سارة بثقة:

– طبعا!! ألم أقل لكن ذلك من قبل!

ثم ابتسمت:

– هذه هي البداية فقط و القصة طويلة جدا..

لكن ريم تساءلت بتعجب:

– ولكن البطلين قد تزوجا وانتهى الأمر، فما الذي بقي من القصة؟؟

فردت سارة:

– بل إن القصة الحقيقية تبدأ بعد زواجهما وهذا ما ستثبته الأيام، أما ما نقرؤه في القصص العادية والتي تختم بزواج البطلين فما الذي يدرينا أنهما بقيا محبين لبعضهما أم لا!! اختبار الحب الحقيقي يكون بعد الزواج..

فنظرت إليها ميسون:

– من أين جئت بهذا الكلام؟؟

فضحكت سارة:

– في الحقيقة أختي سمية أخبرتني بأمور كثيرة تخص هذا الموضوع، وقالت بأن الواقع مختلف تماما عما نقرؤه بالقصص وهذا سبب فشل معظم الفتيات المتأثرات بتلك القصص في بناء أسر مستقرة، عوضا عن خيبة أملهن الكبيرة بعد أن يصدمن بالحقيقة!

تبادلت الفتيات نظرات متعجبة، في حين قالت سارة:

– بالعودة إلى قصتنا ، اسمعن هذه الجملة:

"حياة جميلة قضياها لم يعكر صفوها شيء حتى جاء ذلك اليوم الذي كان نقطة تحول كبيرة في حياتهما بل وفي حياة البشر جميعا.."

والتفتت إلى صديقاتها قائلة:

- من هنا تبدأ القصة الحقيقية التي نحن بصددها..

رددت ميسون ما سمعته بتؤدة:

- نقطة تحول في حياة البشر!!

ثم هتفت:

- لا شك أنه يوم البعثة وظهور الإسلام، أليس كذلك؟

فأومأت سارة برأسها:

- أحسنت يا عزيزتي، إنه ذلك اليوم تماما، وهنا كان أول مفترق في حياة الزوجين الحبيبين، التفاصيل كثيرة ولكن الخلاصة أن كل واحد منهما اختار وجهة مختلفة، فقد أسلمت هي كما أسلم أهلها.. أما هو فقد بقي على شركه رغم أنه كان واثقا بصدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن هنا بدأت معاناتها إذ كانت تتمنى أن يكون زوجها من السباقين للإسلام..

فقالت سمر بغيظ:

- مادام كان واثقا لماذا لم يسلم ويرح أعصابنا!!!

في حين تساءلت ريم بقلق:

- يا إلهي ما الذي حدث بعد ذلك، هل تفرقا؟؟

فتابعت سارة:

- كلا فلم يكن قد حرم الإسلام زواج المسلمة من المشرك بعد، أما هو فقد تمسك بها محترما اختيارها ورأيها وهو يحاول أن لا يجعل اختلاف الدين بينهما يؤثر على علاقتهما، إذ كان يحبها كثيرا كما كانت تبادله الشعور نفسه، وربما كان

هذا أحد الأسباب التي منعته من الإسلام، فقد خشي أن يقول عنه الناس أنه أسلم إرضاء لزوجته.. بل أكثر من ذلك - دليلا على حبه لها- عندما طلب منه كبار المشركين تطليقها- إمعانا في إيذاء المسلمين والرسول صلى الله عليه وسلم- وعرضوا عليه أن يختار غيرها من يشاء من النساء الحسناوات رفض ذلك بشدة وقال إنه لا يمكن لأي واحدة أن تحل محلها مهما كانت..

لم تستطع ريم حبس أنفاسها فهتفت بإعجاب شديد:

- يا للروعة! هذا هو الفارس الحقيقي!!

وتابعت سارة:

- لقد كان لها درعا حاميا أمام المشركين إذ لم يكن أحد يجرؤ على إيذائها وهم يعرفون مكانة زوجها بينهم، حتى عندما حوصر المسلمون في شعب أبي طالب، بقيت هي في بيت زوجها الذي بذل جهده للتخفيف عنها وهو يرى معاناتها مما يحدث لأهلها والمسلمين، حتى أنه قيل أنها كانت ممن يوصل الطعام خفية للمسلمين في الشعب، بعلم زوجها بالطبع، و مرت السنوات وبدأت الهجرة نحو المدينة حتى لم يبق في مكة سواها وقلة قليلة من المسلمين، وعندما لم يبق لها في مكة أحد من أهلها؛ بذل جهده ليعوضها عن كل شيء، حتى جاء أصعب يوم في حياتها.. يوم غزوة بدر....

خفق قلب ريم بشدة:

- هل خرج زوجها في المعركة؟؟ يا الهي لو حدث شيء كهذا فهي الكارثة بعينها!! زوجها الذي تحبه ضد المسلمين؟؟

فقالت سارة:

- بل أكثر من ذلك، والدها هو قائد المسلمين بعينه!

عندها هتفت سمر:

- هل هي بنت الرسول صلى الله عليه وسلم؟؟

أومأت سارة برأسها في حين قالت ميسون التي لم تدر كيف فاتها معرفة ذلك من البداية:

- إنها السيدة زينب رضي الله عنها، والآن سيأتي دور القلادة..

فتبادلت سمر وريم نظرات استفهام:

- أي قلادة!!!

ثم قالت سمر مستدركة:

- تذكرت، القلادة التي افتدت بها زوجها يوم وقع في الأسر بعد انتصار المسلمين..

وأضافت ميسون:

- وهنا تجتمع أروع قصص الحب، حب الرسول صلى الله عليه وسلم لزوجته الراحلة خديجة رضي الله عنها وهو يرى قلادتها التي أهدتها لابنته يوم عرسها، وحب السيدة زينب رضي الله عنها لزوجها وهي تفتديه بأغلى ما تملك..

فقالت سارة وقد سرها تفاعلهن معها:

- والأروع من ذلك بنظري ما سيقدم عليه هذان الحبيبان امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد أدهشني تصرف (أبو العاص بن الربيع)، الذي أدى الأمانة بحذافيرها ولم يقرب زوجته رغم اشتياقه وحبه الشديد لها ، ومسارعتها هي لامتثال أمر ربها فلحقت بالرسول صلى الله عليه وسلم مُفارِقة لزوجها وهو أحب الناس إلى قلبها!

عندها شهقت ريم:

- هل تفرقا؟؟؟؟

فأومأت سارة برأسها:

- أجل فقد أسر الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي العاص قبل أن يعود إلى مكة بأن عليه أن يرسل زينب إلى المدينة، لأن الإسلام قد حرم زواج المسلمة من المشرك..

فقالت سمر بضيق:

- لا أعرف لماذا لم يسلم ويخفف تلك المعاناة!! عقول صعبة! لا أدري ما الذي كنت سأفعله معه لو كنت على زمانه، يستحق لكمة في وجهه أو ضربة على أم رأسه.. إنه يغيظ بمعنى الكلمة!

فردت سارة:

- إنك لا تهدي من أحببت...

أما ريم فقد أخذت تحدث نفسها بصوت مسموع:

- خيار صعب!! ترى لو كنت مكانها ما الذي كنت سأفعله!! هل أترك شخصا أحبه وأرحل مبتعدة عنه وربما لا ألتقيه ثانية وقد يتزوج وينساني، أم أخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم!!!

ثم وضعت رأسها بين كفيها وهي تتخيل الموقف كما لو أنها تعيشه تماما:

- مستحيل!!! لا يمكنني الاختيار!

ثم استحثت سارة على المتابعة:

- حسنا، هيا أكملي ماذا تنتظرين؟ ما الذي حدث بعد ذلك؟؟

فقالت سارة بابتسامة مستفزة:

- ربما في وقت آخر فقد انتهت فترة الاستراحة..

فردت ريم بنفاد صبر:

- لم تأت المعلمة بعد، هيا يا سارة أخبرينا، هل يسلم زوجها في النهاية أم ماذا؟؟

استساغت سارة تحرّق ريم لمعرفة القصة فأحبت ممازحتها قليلا ، لكن ريم التفتت إلى ميسون:

- ما الذي يحدث بعد ذلك؟

لكن ميسون هزت رأسها:

- في الحقيقة لا أدري، فلا أذكر أنني اطلعت على بقية القصة!

كانت فرصة سارة في اللعب بأعصابها أكثر لكنها قررت أن تكون أكثر نبلا ولطفا فقالت باسمة:

- حسنا يا عزيزتي، ما الذي تتوقعينه؟؟

ثم أكملت- وهي تتذكر كلمات سمية:

- سيدة عظيمة كالسيدة زينب رضي الله عنها تركت زوجها وحبيبها من أجل الله وحده ممتثلة لأوامره صابرة محتسبة، رغم أنها ما تزال تحبه وتدعو له بالهداية ليل نهار، هل سيضيعها الله؟؟

ثم تابعت وهي تقرأ من الورق أمامها:

- " كانت المدينة قد بدأت تستعد لصلاة الفجر والسيدة زينب - رضي الله عنها - في بيتها تناجي ربها وتدعوه عندما فوجئت بصوت تعرفه جيدا يطرق بابها.. ترى أيكون هو!! أم أن شوقها هو ما أوحى لها بذلك؟؟ لم تنسه لحظة واحدة ورفضت الزواج من بعده، كان أملها بالله كبيرا وثقتها به أنه لن يخيب رجاءها.. وعاد الصوت يهمس بنبرة وجلة:

- افتحي يا زينب أنه أنا.. أجيريني أرجوك..

وكانت المفاجأة!! لكنها تماسكت وحافظت على رباطة جأشها وهي تواجهه بقوة إذ انه لم يعد زوجها:

- ما الذي جاء بك يا أبا العاص!

فأجابها منكسرا:

- لقد استولى المسلمون على القافلة التي عدت بها من الشام لاسترداد أموالهم التي تركوها في مكة كما قالوا، واستطعت الفرار منهم، وجئتك مستجيرا، أتجيرينني؟

وما هي إلا لحظات حتى أدخلته الغرفة ليجلس قرب أولاده الصغار يتأملهم وآلاف المشاعر تختلط في نفسه، أما هي فقد خرجت من بيتها والمسلمون يؤدون صلاة الفجر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادت بأعلى صوتها:

- أيها الناس لقد أجرت أبا العاص بن الربيع.."

توقفت سارة عن القراءة ونظرت إلى الآذان المشدودة نحوها من بعيد، إذ كانت سعاد تجلس صامتة طوال الوقت فلم تحدثها منذ أن عادت إلى المدرسة، ولم يخف على سارة معرفة السبب فقد كان أمرا متوقعا بالنسبة لها، وتساءلت سمر بتعجب:

- هل حقا صرخت السيدة زينب بأعلى صوتها هكذا؟ هل أنت متأكدة من أن أحداً كان يجرؤ على فعل ذلك من النساء؟؟ تجير رجلا يبحث عنه المسلمون وتنادى بأعلى صوتها وهي ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم؟؟

وأخيرا قالت ريم بصوت مرتجف وكأنها هي من ستواجه مصيرا محتوما:

- هيا أكملي بسرعة قبل مجيء المعلمة، ما الذي حدث للسيدة زينب بعد الذي فعلته؟ ما الذي فعله بها الرسول بعد أن سمع صوتها هكذا وهم في الصلاة؟؟

فابتسمت سارة وهي تقول:

- وما الذي تتوقعنه من نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم؟؟

ثم تابعت القراءة:

- ".. وما إن سلم الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاة الفجر حتى التفت إلى أصحابه رضي الله عنهم قائلا:

- "هل سمعتم ما سمعت؟؟ أجرنا من أجارت.."

وقبل أن تكمل سارة جملتها هتفت سمر وريم معا:

- حقا!! يا للروعة!! ما أعظم الرسول صلى الله عليه وسلم!!

ورددت ميسون بتأثر وقد بدأت تسترجع أحداث السيرة- التي قرأتها قديما- في ذاكرتها:

- كم أحبك يا رسول الله.. صلى الله عليك وسلم تسليما كثيرا..

ودخلت المعلمة قبل أن تنهي سارة القصة، ولم يلحظ أحد تلك الدمعات التي نفرت من عيني سعاد ولسان حالها يقول:

- أين أنت يا رسول الله، لترى ما فعل الرجال من بعدك وهم يدّعون أنهم يطبقون سنتك!!

أما ليانا التي جلست بين اثنتين من صديقاتها المقربات؛ فقد كانت تحاول التركيز لالتقاط كلمات حديث سارة دون أن تبدي اهتمامها بالموضوع، في حين رددت راما التي دخلت قبل دخول المعلمة بقليل- ولم تشأ أن تقطع حديث سارة:

- "صلى الله عليه وسلم"..

كانت لحظات مؤثرة لم يخف أثرها على جميع الفتيات دون استثناء، وفي نفس كل واحدة نسجت أحاديث.. خلاصتها.. ليتك بيننا يا رسول الله، صلى الله عليك وسلم..

و في الليلة الظلماء يفتقد البدر..

***

غسل علاء وجهه عدة مرات وخلل شعره بماء بارد بعد أن خلع عمامته، وقد جف ريقه وآثار التعب بادية عليه بوضوح، فقال له حسان:

- لقد أجهدت نفسك كثيرا يا علاء، انتبه لنفسك أكثر حتى تستطيع الاستمرار!

فقال ياسر:

- لم يكن هناك داع لتدريبات الركوب الإضافية بعد تلك المبارزة الحامية خاصة وأننا في رمضان!

لكن علاء رد عليه بقوله:

- وما الفرق!! فاختبارات الارتقاء تقام في رمضان كالأيام العادية، ولا تنسوا أن انتصارات المسلمين معظمها كانت في رمضان!

همّ ياسر بقول شيء لكن قاسم سبقه بلهجته الواثقة:

- لا خلاف على ذلك، ولكن تذكر أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمرهم بالإفطار يوم ملاقاة العدو كما حدث في بدر.. ثم إننا نخاطبك أنت يا علاء فجسدك لم يعتد بعد على الصيام ولست مضطرا لتجهده بهذا الشكل خاصة و أننا ما زلنا بأول أيام رمضان، فعليك بالرفق..

وقبل أن يضيف أي منهم كلمة أخرى التفت الجميع نحو مصدر ذلك الصوت الحازم الذي فاجأهم بقوله:

- كما يقول قاسم، أرفق بنفسك يا علاء فقليل دائم خير من كثير منقطع!

عدل علاء وقفته بسرعة قبل أن يلف عمامته التي ما زالت بين يديه، وخفق قلبه:

- المدرب ثابت!

لكن المدرب ثابت تابع كلامه:

- التدرج ضروري جدا وإلا أهلكت نفسك يا بني، فإن المُنْبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى..

لم يفهم علاء جملة المدرب الأخيرة وإن وصله المعنى المراد، لكنها المرة الأولى التي يشعر فيها باهتمام المدرب ثابت به، مما أشعره بسعادة لا توصف فأجاب بقوله:

- حسنا أيها المدرب سأحاول ذلك..

فما كان من المدرب ثابت إلا أن مد يده قائلا:

- تعدني يا علاء؟ فنحن لا نريد أن نخسر فرساننا بسرعة!

لم يصدق علاء ما يراه ويسمعه في البداية ، فوقف مشدوها وهو لا يجد تفسيرا لتصرف المدرب ثابت المفاجئ بالنسبة له، حتى كرر عليه المدرب ثابت قوله:

- ألن تعدني بالرفق بنفسك يا علاء؟

فمد علاء يده مصافحا يد المدرب ثابت القوية و سعادة خفية تغمره:

- أعدك بذلك إن شاء الله..

وبعد أن مضى المدرب ثابت، أسرع نضال نحو علاء هاتفا:

- موقف مؤثر، ومن حسن حظي أنني رأيته! لا بد أن المدرب ثابت شعر بالذنب نحوك أخيرا..

فقاطعه قاسم:

- ما هذا الذي تقوله يا نضال! لم يكن المدرب ثابت بالذي يتعمد الإساءة لأحد! ولا شك أن لديه أسبابه المقنعة لما يفعله؛ فهذه هي طبيعته..

فابتسم علاء مجاملا نضال:

- المهم أن الموقف أعجبك!

فضحك أصيل وهو يلاحظ تغير لهجة علاء الذي لم يكن يستسيغ كلام نضال سابقا:

- لقد أثر عليك حسام كثيرا!!

ولم يكد يتم جملته حتى سمعوا صوت حسام مقبلا عليهم:

- ألم ينته تدريبكم بعد!! سيرفع أذان العصر بعد قليل وقد بدأ السيد كريم بإعداد سلال التمر وصرر الطعام، ويريد أن يعرف عدد من سيشارك في توزيع الإفطار، هيا ألن تشاركوا ؟

فهب نضال هاتفا:

- كيف نسيت رغم أنني اتفقت مع زياد على توزيع طعام الإفطار في رمضان أثناء عودتنا من المدرسة، فنحن نقابل العديد من الأشخاص وغالبا ما نصل قبيل المغرب بقليل..

فسأله علاء بتعجب:

- ولكنكم تستقلون العربة! فهل منزلكم بعيد إلى هذه الدرجة؟

فرد نضال:

- تقريبا.. فبعد أن نستقل العربة الأولى من موقف الإركاب المجاور لجامع الفتح إلى موقف الإركاب العام في المدينة ، نستقل العربة الثانية من هناك ومن ثم نتابع الطريق مشيا..

والتفت نحو زياد - الذي كان يقف بعيدا عنهم مع بعض الأصدقاء- معلقا:

- لو كنت أنا من تأخرت عليه لأسمعني وابلا من النصائح القاتلة! علينا أن نتحرك بسرعة فسيشتد الزحام بعد العصر!

ثم نادى بأعلى صوته:

- زياد، سأذهب لإحضار سلال الإفطار.. هيا تعال ساعدني..

اتجه معظم الطلبة الذين يقيمون خارج المدرسة إلى قاعة الطعام قبل العصر لأخذ السلال؛ حيث قاموا بتوزيعها في طريق عودتهم إلى منازلهم، أما الطلبة المقيمون في المدرسة فكان عليهم التوجه إلى قاعة الطعام قبل الغروب لاستلام سلال التمر..

كانت تجربة مثيرة في حياة علاء أشعرته بسعادة بالغة وهو يشارك أصدقاءه توزيع التمر على المارين في الطريق أمام المدرسة ومن ثم إعداد موائد الإفطار في جامع الفتح في جو يغمره التآلف والمحبة..لحظات لا تنسى أحيت في ذاكرته مشاهد رمضان في مدينته يوم كانت ترسله أمه بالطعام إلى بيوت الجيران والمحتاجين قبل أذان المغرب..

***

انتظر أصيل حسان كثيرا قبل أن يخرج أخيرا، فبادره قائلا:

- ما الذي تفعله طوال هذا الوقت؟ ستفوتنا صلاة العشاء على هذه الحال! ألم نتفق البارحة أن نذهب مبكرين حتى نجد مكانا مناسبا في الصفوف الأولى؟؟

لكن حسان اعتذر بقوله:

- معك الحق يا صديقي، سامحني..

ثم قال بتردد:

- ولكن اعذرني فسأنتظر سارة، ستأتي معنا..

عندها قفز أصيل على أحد غصون شجرة الجوز المتينة محاولا إخفاء تذمره، فسأله حسان بتعجب:

- ما الذي تفعله الآن؟؟

فرد أصيل:

- وما الذي تراه أمامك؟؟ أجمع بعض ثمار الجوز كي نتسلى بها قليلا!

فقال حسان:

- أهذا وقت الجوز؟؟

فرد أصيل لا مباليا:

- لا تقلق، لن نتأخر أكثر من فتاة تعد نفسها للخروج!

لكنه فوجئ بسارة التي خرجت لتوها قائلة:

- سمعتك.. هكذا إذن، أنت من تفسد أخي حسان علي!!

ارتبك أصيل لسماع صوتها المفاجئ، ورغم مهارته الفائقة في تسلق الأشجار وحفظ توازنه عليها إلا أنه فقده بعد أن زلقت قدمه ليقع على الأرض في طرفة عين!

فضحكت سارة ملء فيها:

- تستحق أكثر من ذلك!

أما أصيل الذي كان يتأوه من ألم السقطة فقد قال لها:

- و أنت تستحقين فعلا كل ما كان يقوله حسان عنك، فتاة مشاكسة!

فرمقت سارة أخوها بنظرات صارمة:

- ماذا؟؟؟

وجد حسان نفسه بورطة حقيقية فهو لم يكد يهنأ بتصالحه مع أخته بعد، ليأتي من يفسد الموضوع مرة أخرى، فنظر نحو أصيل بغضب وهو يتجه نحوه ثم أمسكه من يده ورفعه عن الأرض بقوة:

- هيا بنا لقد تأخرنا وأنت ما زلت تثرثر كالبنات!

عندها خرق سمعه صوت سارة:

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا!! لقد كنت تخدعني طوال الوقت إذن!!

فالتفت حسان إلى سارة مبررا موقفه:

- لا تأبهي لهذا الكلام السخيف ولنسرع قبل أن تفوتنا الصلاة!

وسار بسرعة وهو يشد أصيل من يده، بينما أخذ الأخير يستنجد متأوها:

- لحظة يا رجل ! ما زالت قدمي تؤلمني!!

لكن حسان رد بقوله:

- لا أظن ذلك، فجسمك معتاد على السقطات.. وخاصة لسانك!!

أما سارة التي أخذت تتبعهم بخطوات متسارعة فقد رفعت صوتها قائلة:

- هل تعتبرون أنفسكم فرسانا وأنتم تركضون وحدكم هكذا!!

وقبل أن يرد حسان بشيء، بادرها أصيل بقوله:

- إذا كنت خائفة فلا أحد يجبرك على المجيء...

لكنه بتر عبارته وهو يصرخ من الألم إثر قرصة حسان القوية، في حين أردفت سارة بلا مبالاة:

- فليكن في حسابكم أنه لا مانع لدي من الذهاب إلى جامع الفتح وحدي، لولا أبي الذي يصر على عدم خروجي وحدي بالليل!

كان قسم النساء في جامع الفتح يعج بالفتيات اللاتي حضرن من أجل الدرس بعد الصلاة، ومعظمهن ممن وجدنها متنفسا لهن وفرصة للترويح عن النفس..

فوجئت سارة برؤية راما، فسلمت عليها قائلة:

- لم أتوقع رؤيتك!

فابتسمت راما:

- لقد أخبرتني سمر عن الدرس فلم أشأ تفويت الفرصة..

أما سمر فقد قالت لها:

- لقد أنهيت قراءة القصة، إنها رائعة وهناك الكثير من الأحداث التي لم تذكريها لنا!!

فقالت راما:

- تقصدين قصة السيدة زينب رضي الله عنها؟

فردت سمر:

- أجل، لم تذكري لنا يا سارة ما الذي حدث أثناء هجرتها إلى مكة، كان مقطعا مؤثرا جدا، خاصة ما حدث بعد سقوطها عن الجمل..

فقالت سارة:

- لقد قلت لكن أنني لن أذكر التفاصيل..

أما راما فقد سألتهن:

- أي جمل!! لم أكن موجودة معكن منذ البداية و لم أعرف ما الذي حدث، لكنني تأثرت بما سمعته عن زوجها، فهل أسلم في النهاية؟

وقبل أن ترد سارة بشيء، بادرتها ريم:

- كلا لا تخبريها يا سارة، اقرئي القصة من أولها أجمل..

وما هي إلا لحظات حتى رفع المؤذن الإقامة، فانتظمن جميعا في الصفوف المتراصة..

وبعد أن قضيت الصلاة أقبلت فتاة صغيرة نحو سارة وصديقاتها قائلة بظرف:

- إن كنتن تردن اللحاق بالدرس فتلك هي حلقة الآنسة جويرية..

فابتسمت سارة وهي تمد يدها مصافحة، وقد وجدتها فرصة مناسبة للتعرف على هذه الفتاة التي لفتت نظرها بحيويتها ونشاطها داخل الجامع رغم أنها تصغرها بعدة سنوات:

- شكرا لك يا عزيزتي، اسمي سارة هل أنت ابنة الشيخ عبد الرحيم؟

أومأت الفتاة برأسها وابتسامة مرحة تزين وجهها الجميل:

- أجل واسمي حفصة..

التحقت سارة بحلقة الآنسة جويرية، التي ضمت الفتيات اللآتي تجاوزت أعمارهن العاشرة، في حين خصصت حلقة الآنسة ميمونة للفتيات دون تلك السن..

سعدت الفتيات كثيرا بالتعرف إلى جويرية- تلك الشابة الرزينة التي بدت في أوائل العشرين من عمرها- لا سيما وهي تقول مشجعة:

- لن تكون هذه دروسا بالمعنى المعهود، وإنما حلقات نقاش لمواضيع تطرحنها وترغبن في مناقشتها حتى نعرف كيف يمكننا التعامل معها من خلال دراستنا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

فبادرت أكبر الفتيات في الحلقة الكلام بقولها:

- أريد أن أعرف لماذا فرض الله علينا الحجاب، و جعل لنا الصفوف الخلفية بالمسجد ، حتى في المشي يطلب مني أبي أن أسير خلف أخي وأصدقائه، رغم أنني أنا من يعرف الطرق أفضل منهم ومن حقي أن أكون في المقدمة، ثم يستشهد لي بقصة سيدنا موسى في مدين! لماذا علينا أن نكون في الخلف دائما؟؟

وأيدت أقوالها فتاة أخرى:

- لماذا يحاسب الدين الإناث وحدهن ويتغاضى عن الذكور؟ يحل للرجال كل شيء ويحرمها على النساء!

فتشجعت فتاة أخرى لتضرب مثالا على ذلك وهي تقول:

- ربما يحبسني أبي في البيت أياما إن عرف بأنني تحدثت مع أحد الأولاد وإن قلت له انظر إلى أخي الكبير الذي يحادث الفتيات بل وقد يسير معهن، يوبخني قائلا:

- هو ولد وأنت بنت!

والأدهى من ذلك أن أخي قد يشتمني إن تحدثت مع أحد وينسى نفسه!! أنا لم أعد أفهم شيئا، أين العدل!!

كانت جويرية تستمع للجميع بصبر وهي تهز رأسها بين الفينة والأخرى، بين التأييد أو المعارضة حتى بدت أن سلسلة الاحتجاجات الغاضبة لن تنتهي، فقد ثار البركان وهيهات أن يخمد!

وأخيرا قالت جويرية:

- إذن سيكون كلامنا إن شاء الله حول حقوق وواجبات النساء في الإسلام، ما لهن وما عليهن.. حتى لا يختلط علينا ما يفرضه المجتمع على البنات من ضغوط بسبب الجهل، وما يوجبه الإسلام عليهن بعين العدل..

وسنبدأ بالتعرف على طبيعة كلا الجنسين التي فطرهم الله عليها، لنرى يقينا عدل الله في ما شرعه لنا..

ظهرت علامات التأفف على عدة وجوه في قسم الرجال وهم يسمعون دوي النقاشات غير المفهومة الصادرة من قسم النساء، حتى صرخ أحدهم:

- أعوذ بالله.. ألا يكفينا إزعاجا في المنزل ليلحقونا إلى الجامع!! لماذا يا شيخ عبد الرحيم تسمح بهذه الفوضى!! لم أعد أستطيع التركيز في القرآن الذي أتلوه، استغفر الله، النساء حبائل الشيطان ..مكانهن البيوت وهي خير لهن! صدق رسول الله !!

فابتسم الشيخ عبد الرحيم بهدوء:

- بارك الله في تلاوتك يا أخي، ولكن ألا تلاحظ أن صوتك وصراخك هذا أزعج الكثيرين من حولك!

فرد الرجل بحدة:

- درء المفاسد أولى.. ولو أنك منعتهن من المجيء لما أنزعج أحد!!

فقال الشيخ عبد الرحيم بلطف:

- قد أوافقك الرأي يا أخي في أن بيوتهن خير لهن ولكن كيف أصنع والرسول صلى الله عليه وسلم ينهانا عن ذلك!! (لا تمنعوا إماء الله بيوت الله وبيوتهن خيرٌ لهن).. ثم إن هذا ليس بيتي لأمنع من أشاء واسمح لمن أشاء، هذا بيت الله.. فإن شعرت بالانزعاج تستطيع أن تذهب إلى مكان آخر لا يزعجك فيه أحد! فالجميع يتناقش هنا بعد الصلاة ولكن يبدو أنك لم تنتبه إلا على الصوت القادم من قسم النساء!!

تابعت جويرية عرض الأفكار بسلاسة والفتيات ينصتن باهتمام، ثم قالت:

- ولأن الإسلام يحرص على الرقي بنا جميعا مراعيا احتياجاتنا في جو تسوده الطهارة، فقد أوجب الحجاب على النساء ليحفظهن من أذى الناظرين كما أوجب غض النظر على الرجال ليحفظهم من الفتنة، فالمرأة بطبيعتها التي خلقها الله عليها لا يفتنها رؤية الرجال بالدرجة التي يفتتن الرجال بها برؤيتها، إلا في حالات استثنائية ونادرة؛ يجب على المرأة عندها أن تغض النظر أيضا.. وبالطبع إن أقدم أي منهما على خطأ فاحش يسيء إلى طهارة المجتمع، فحسابهما أليم عند الله سواء كان المذنب رجلا أو امرأة، ولكننا في مجتمع غلب عليه الانحياز إلى جانب الرجل فيكتفي بلوم المرأة وحدها وهذا من الظلم..

عندها هتفت إحدى الفتيات:

- هذا يعني أنك مقتنعة بأن الفتيات مظلومات؟

فأومأت جويرية برأسها:

- أجل مظلومات من سوء تطبيق الدين وليّ نصوصه ليوافق الهوى، ولكنني مقتنعة أيضا أنهن أسعد المخلوقات بعدل الإسلام الذي ضمن لهن حقوقهن وزيادة..

ونقلت بصرها بينهن لإشعال حماستهن:

- وهذا ما سنناقشه بالتفصيل إن شاء الله..

***

استأذن عدنان في الدخول على المدير الذي إذن له:

- أنا بانتظارك يا بني، تفضل واسترح هنا فلدينا حديث قد يطول..

ثم تابع:

- هل عاد والدك إلى البحر مجددا؟

فأجابه عدنان:

-أجل ليس أمامه غير ذلك فلم يجد مكانا أفضل منه لجلب الرزق..

ودار بينهما حوار دافئ أجاب فيه عدنان عن أسئلة المدير:

- وماذا عن الديون؟

- مازلنا مدينين بالكثير من المال للسيد غانم..

- على ما أذكر ستسلمونه المنزل بعد أيام قليلة إن لم تستطيعوا سداد دينه، أليس كذلك؟؟

- هذا صحيح، وقد حاول أبي طلب مهلة إضافية دون جدوى..

- وهل تظن أن بإمكانكم سداده قبل الموعد المحدد؟

لمعت دمعة في عين عدنان لكنه قال بثبات:

- لن نفقد الأمل أبدا بالله، فمنزلنا آخر ما تبقى لنا بعد تلك الكارثة..

فابتسم المدير وهو يهز رأسه بسرور:

- أحسنت يا بني، بارك الله فيك، إياك واليأس، فالله عند ظن عبده به..

ثم استطرد:

- وما هي أخبار أخيك المريض؟؟

- مازال طريح الفراش ، فعلاجه باهظ الثمن وليس بمقدورنا توفيره..

نهض شامل وربت على كتف عدنان مبتسما:

- إن مع العسر يسرا، ورمضان شهر كريم بفضل الله جاء وجاء معه الخير..

ثم اتجه نحو أحد الأدراج وهو يقول:

- لقد وصلنا مبلغ كبير جدا من المال من فاعل خير يقول عنه انه من حق المسلمين وحدهم وهو يطلب منا مساعدته لوضعها في المكان المناسب، وبسبب معرفتك بأحوال العائلات المحتاجة فقد أوكلت إليك مسؤولية توزيع هذه الأموال و إيصالها لمستحقيها..

ووضع بين يديه كيسا كبيرا مملوءا بالمال:

- أعتمد عليك، فأنت موضع ثقة في هذه المدرسة..

لكن عدنان قال:

- ولكنه مبلغ كبير جدا أخشى عليه!

فأجابه المدير بلهجة مشجعة:

- لا تقلق، بإذن الله سيكون في أمان لديك..

ثم ابتسم ملاحظا:

- ولا تنس أن الأقربين أولى بالمعروف..

انهمرت الدموع من عيني عدنان رغم محاولته الجاهدة لإخفائها:

- جزاك الله خيرا، وأعدك أن أكون عند حسن ظنكم بإذن الله..

فقال المدير:

- تذكر أن هذه الأموال ملك لمستحقيها ولا فضل لأحد في إيصالها إليهم إلا بقدر اجتهاده في تسليمها لهم بتوفيق الله.. وفقك الله يا بني..

***

أخذ أصيل يلتقط أنفاسه وهو يسدد الرمح من جديد بعد عدة محاولات لم يصب بها هدفه وهو يردد:

- يجب أن انجح هذه المرة، فاختبار الارتقاء قريب وعلي أن أجتازه بإذن الله..

في حين تبارز علاء مع ياسر الذي أدهشه بصلابته وقوته رغم ما يبدو عليه من وداعة، حتى أن علاء وجد صعوبة في صد ضرباته المتلاحقة!

أما حسان الذي كان يطلق سهامه الواحدة تلو الأخرى صوب أهداف مختلفة بهمة قوية، فقد بدا أكثر تحملا وعزيمة من أي وقت مضى..

وقف قاسم يتأملهم على صهوة جواده كعادته أثناء فترة التدريب الحر والصور العديدة تمر في مخيلته..

***

أسرع عدنان نحو علاء بمجرد أن رآه بعد صلاة العصر ليخبره بالأمانة الصعبة التي كلفه بها المدير و أردف بقوله:

- أعتقد انك لن تمانع في مشاركتي هذه المهمة يا علاء، أليس كذلك؟؟

فأومأ علاء برأسه مؤكدا:

- بالطبع يا صديقي..

ثم تنهد:

- إنه مبلغ كبير، فهل بإمكاننا المحافظة عليه؟؟

بذل عدنان جهده ليقول بنبرة مشجعة:

- هذا ما أخشاه أيضا، ولكننا سنبذل جهدنا إن شاء الله، فمتى سنبدأ؟؟

فأجابه علاء:

- يجب أن نزيح هذا العبء الثقيل في أسرع وقت عنا وخير البر عاجله..

ثم استطرد قائلا :

-لا أظن أن بإمكاننا اليوم إنجاز هذه المهمة معا، فقد اتفقت مع الأصدقاء على إكمال بحث المعلم برهان بعد عصر اليوم ومراجعة النقاط الرئيسة في علم الفلك!

فقال عدنان مطَمئنا:

-لا بأس، أستطيع الانتظار إلى الغد، وغدا الجمعة فما رأيك بمباشرة مهمتنا بعد الصلاة؟؟

تشجع علاء لتلك الفكرة:

-هذا جيد ، هل يزعجك طلبي من طلال وحسام مرافقتنا في هذه المهمة؟

فتهلل وجه عدنان:

- بل سيكون من دواعي سروري موافقتهم على ذلك فالمبلغ كبير كما تعلم..

عندها شد علاء على يد عدنان وهو يصافحه:

- إذن نلتقي بعد صلاة الجمعة في جامع الفتح إن شاء الله..

وأكد عدنان:

- اتفقنا..

***

عاد عدنان إلى المنزل ليجد أمه في حالة يرثى لها، فخفق قلبه وهو يسألها بوجل:

- خير إن شاء الله، هل من جديد يا أمي؟؟

فقالت والهم يعلو كلماتها:

- لقد خرج من عندنا موكل السيد غانم منذ قليل، جاء ليخبرنا بأن المهلة ستنتهي بعد يومين، وهو يؤكد علينا بأنه لن يتهاون في أخذ منزلنا عوضا عن الدين إن لم يتم تسديده خلال هذه الفترة، ولا أدري إلى أي مكان سنرحل..

فحاول عدنان التخفيف عنها متسائلا:

- ألم توضحي له موقفنا يا أمي؟؟

لكنها ردت عليه بلهجة يائسة:

- حاولت بشتى الوسائل دون فائدة..

وأجهشت بالبكاء..

أمسك عدنان يدها مهدئا وطبع قبلة على جبينها:

-لا تقلقي يا أمي الحبيبة، فقد جاء الفرج بحمد الله..

ووضع الكيس بين يديها، وبدلا من أن يلمح بوادر فرحتها، شهقت بعنف:

- ما هذا يا بني؟ من أين لك كل هذا المال؟ ما الذي فعلته؟؟

و تهدج صوتها وهي تجهش باكية - مرة أخرى:

- كله بسبب السيد غانم سامحه الله..

ابتسم عدنان مطمئنا:

- هوني عليك يا أمي، فبحمد الله لدي من الدين و الخلق ما يجنبني الوقوع في الحرام..

وانطلق يحدثها بخبره مع المدير..

وأخيرا تنهدت الأم:

- يا لهذا الابتلاء العظيم..

وبعد فترة صمت، قالت:

- لن نأخذ أكثر من حاجتنا الماسة إليه فهذا رزق ساقه الله إلينا والحمد لله دائما وأبدا، وفي الحقيقة، إنني أفكر بمبلغ الدين فقط، فهناك من العائلات من هم أشدّ حاجة منا ولا يجدون لقمة العيش..

فتساءل عدنان بدهشة:

- وأخي سليم؟؟؟

وتذكرت الأم فجأة ابنها المصاب بداء عضال منذ سنوات، إلا أن دخول سكينة المفاجئ قطع عليها حبل أفكارها وهي تقول:

- لقد سمعت معظم الحديث من دون قصد، لذا أرجو المعذرة..

بدا الارتياح على وجه الأم لرؤية ابنتها الحكيمة كما تسميها:

- لا بأس يا ابنتي، فنحن بحاجة إلى أفكارك أيضا..

فقالت سكينة بثقة:

- أظن أن فكرتك يا أمي ممتازة بالاكتفاء بقضاء دين السيد غانم ، فعلاج أخي سليم مكلف وطويل ونحن بحمد لله نعتني به جيدا في المنزل ولا أظنه بحاجة إلى مشفى لا سيما و أنه لا يوجد علاج أكيد لحالته حتى الآن..

لاذت الأم بالصمت واتجهت نحو غرفة ابنها المريض لتجده مستلقياً على ظهره يحملق مفكرا كالعادة، وما إن لمحها حتى هتف:

- هل عاد عدنان إلى المنزل يا أمي، لقد سمعت صوته!

فأجابته الأم بلهجة حانية:

- أجل، إلا أنه لم يشأ إزعاجك فقد ظنك نائما..

فقال لها بلهجة متوسلة:

- اخبريني يا أمي بما يدور حولي فإنني أشعر أن هناك أمرا ما تخفونه عني، فأنا أعرف عدنان جيدا، يهرع دائما إلى غرفتي ليحدثني بأخباره بمجرد عودته إلى المنزل..

أمسكت الأم يديه بحنان بالغ وابتسمت في وجهه:

- كيف تشعر الآن؟ أرجو أن تكون تلك النوبة قد خفت حدتها بعد ذلك الدواء..

فطمأنها سليم بقوله:

- الحمد لله أشعر بتحسن كبير..

فابتسمت الأم:

- الحمد لله يسعدني سماع هذا..

ثم تابعت كلامها:

- الحمد لله لقد أصبح بالإمكان إرسالك إلى مشفى تلقى فيه العلاج اللازم بإذن الله..

لم يتمالك سليم نفسه فنفرت الدموع من عينيه رغما عنه:

- ما الذي تقولينه يا أمي ، تكاليف المشفى باهظة جدا.. ألا يكفي ما يبذله عدنان من جهد كبير لتوفير الدواء من أجلي!! لن أسمح لنفسي بإجهاده أكثر فقد تحسنت كثيرا بحمد الله ولن يضرني القليل من الصبر..

تأثرت الأم لتلك الكلمات كثيرا، فضمت سليم إلى صدرها قائلة:

- هون عليك يا بني ولا داعي لهذا الانفعال ، فقد ساق الله لنا رزقا وفيرا وقد آن الأوان لكي تتلقى العلاج اللازم لعل الله يمن عليك بالعافية..

علت الدهشة وجه سليم و بدا حائرا وهو يتساءل:

- هل أمطرت السماء ذهبا، إنني لا أفهمك يا أمي؟؟

فأطلقت أمه ضحكة خفيفة:

- تستطيع قول هذا، فالله لا ينسى من فضله أحداً..

أطرق سليم مليا ثم قال:

- سامحيني يا أمي، فانا أعرف أنكم تبعدونني دائما عن المشكلات المحيطة بنا ولكنني علمت بدين السيد غانم، و لربما فقدنا منزلنا على أثره، لذا أرى أن قضاء هذه الديون أولى من علاجي فقد استطعت التعايش مع مرضي بفضل الله..

لم يكمل سليم جملته حتى اشتد السعال عليه مرة أخرى فأسرعت أمه تضمه إلى صدرها من جديد والدموع في عينيها:

- لا ترهق نفسك يا بني فقد أخبرنا الطبيب بضرورة راحتك التامة..

وبعد أن أسندته برفق وهدأت نفسه، قال:

- أرجوك يا أمي، لا تتعبي نفسك معي واعذريني إذا ما أخبرتك أن إبعادي عن الأجواء المحيطة بي لهي اشد إيلاما لنفسي من هذا المرض!

ثم هتف متوسلا:

- لماذا لا تشركوني في أحزانكم و آلامكم، ألست فردا منكم وأستطيع تحمل المسؤولية؟

لم تستطع الأم إخفاء دموعها أكثر فانهمرت من عينيها رغما عنها وهي تقول:

- سامحنا يا بني، فيكفيك ما تعانيه من الآم صدرك وضيق تنفسك، ولا تنس أن صحتك تهم الجميع أيضا..

لكن سليم قال بإلحاح:

- ولكني لا أريد أن أكون عبئا ثقيلا عليكم!!

لم تستطع الأم تحمل سماع مثل هذا الكلام الذي فطر قلبها، فرفعت صوتها مؤنبة:

- ما الذي تقوله يا سليم، أرجوك توقف عن مثل هذا الكلام الفارغ!

وتنهدت:

- على أية حال مادامت هذه رغبتك فلا بأس من إطلاعك على كل شيء..

ثم أردفت بلهجة صارمة:

- وعليك أن تجد معنا الحلول المناسبة أيضا، هل هذا مفهوم؟

هتف سليم بنشوة بالغة:

- جزاك الله خيرا يا أمي، وسأبذل جهدي إن شاء الله..

وبعد أن حدثته بخبر عدنان مع المدير، قال:

- أعتقد يا أمي أنه من الأفضل الاكتفاء بقضاء الدين فقط لا سيما وأنه كبير جدا، ثم إن العلاج في المشفى ليس ضروريا إلى هذا الحد ويكفيني الدواء إذا ما اشتدت الأزمة لا قدر الله..

فقالت الأم بإشفاق:

- فكر جيدا يا بني، فصحتك هامة أيضا..

لكن سليم رد بثقة:

- أمي، هناك من هم أحوج منا إلى هذا المال، وقد أخبرني عدنان بأن مرضي يتساوى فيه الأغنياء والفقراء وعلاجه ليس أكيدا حتى الآن، وإنما هي مجرد مسكنات لتخفيف الألم لا غير، هذا ما قاله الطبيب يحيى.. والصبر جميل..

ثم ابتسم متابعا:

-هل نسيت ما أخبرتني به عن سيدنا أيوب عليه السلام، وليس بلائي بأعظم من بلائه، أليس كذلك يا أمي؟؟

اغرورقت عينا الأم بالدموع، ولم تقدر على التفوه بكلمة واحدة..

فتابع سليم:

- أمي الحبيبة اقدر شعورك نحوي وجهودك من أجلي، ولكنني أؤكد لك بأنني لا أرى ضرورة لعلاجي في المشفى خاصة وأنه ليس علاجا أكيدا للمرض، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أكون عبئا ثقيلا عليكم..

فقاطعته بلهجة صارمة:

- قلت لك انك لن تكون عبئا على احد..

فاعتذر سليم بسرعة:

- سامحيني يا أمي، فأنا لم أقصد..

فقالت الأم مبتسمة:

- حسنا إذن سأكون سعيدة إن لزمت فراشك، ولم ترهق نفسك حتى تسترد عافيتك بإذن الله..

و ما هي إلا لحظات حتى طرق الباب، فدخلت سكينة مع عدنان وبعد تشاور تم الاجتماع على الاكتفاء بقضاء الدين والقليل من المال لسد حاجات سليم الضرورية من الدواء فقط..

وأخيرا قالت الأم:

- أسأل الله العلي العظيم أن يرى نفوسنا تتنزه عن تناول ما يزيد عن حاجتنا من الكفاف، وتصبر على الابتلاء دون أن تغريها الدنيا الفانية..

فقال عدنان بلهفة:

- وسأبذل جهدي إن شاء الله لتعويض هذا المال الذي ساقه الله إلينا في هذا الوقت الحرج، فنحن من سيخرج الصدقات بإذن الله لا من يقبلها..

فهتفت سكينة بحماس:

- وأنا أيضا سأبذل جهدي فهذا المال الذي نقضي به دين السيد غانم ما هو إلا دين علينا لمن هو أحوج منا إليه..

فتدخل سليم:

- ولن أنساكما من صادق الدعوات خاصة و أنا مريض صابر بإذن الله..

فابتسمت الأم:

- بارك الله فيكم يا أبنائي فهذا هو عهدي بكم، ولا تنسوا الدعاء لوالدكم الذي هو في أمس الحاجة إليه وسط البحار الهائجة..

***

احتد النقاش بين وسام وسارة قبل موعد الإفطار بعد أن طلب منها تنظيف صالة الجلوس في حين رفضت هي إملاء أوامره عليها، فأقبلت الأم كالعادة تحاول فض الاشتباك المتوقع، في حين تظاهر الأب المنكب على مراجعة حساباته بتجاهل ما يدور..

بذلت الأم جهدها لإرضاء كلا الطرفين، وأخيرا قالت لوسام بحكمة بعد أن ذهبت سارة إلى غرفتها:

- حاول أن تتجنب مواطن الجدال يا بني، يكفي الإنسان من كلامه ما هو ضروري، طلبت من أختك طلبا فإن لم تجبك إليه فاختصر الموضوع ولا داعي لكل هذه المهاترات، أنت نفسك لا تتقبل إملاء أوامرنا فكيف تريد لأختك أن تتقبل أوامرك؟؟

وقبل أن يرد وسام بشيء علق الأب:

- مثل أمه..

شعرت الأم ببعض الضيق لكنها تمالكت أعصابها:

- اللهم إني صائمة..

وذهبت إلى المطبخ، أما حسان الذي شهد الموقف من بعيد فقد شعر بشيء لم يشعر مثله من قبل..

***

تأخر حسان بعد صلاة التراويح عن أصدقائه بعد أن طلب محادثة الشيخ عبد الرحيم على انفراد، وبعد تردد قال:

- لا أعرف ما الذي أقوله يا شيخ، ولكنني أشعر بأنني بدأت أفقد احترامي لأبي، خاصة بعد أن عرفت أشياء كثيرة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في طريقة التعامل مع النساء..

فابتسم الشيخ عبد الرحيم وقد أدرك بحدسه وخبرته ما الذي يعنيه حسان، فقال له متفهما:

- لو كنت مكان والدك لفعلت أكثر منه!

فحملق حسان بالشيخ متعجبا:

- ما الذي تعنيه يا شيخ عبد الرحيم؟

فتابع الشيخ كلامه:

- والدك رجل فاضل وشهم يا حسان، وهو على قدر كبير من التدين والصلاح، وأنت لم تعد تر منه الآن إلا ما سلطتَ عليه الضوء مما تعلمته مؤخرا؛ من خلال دروسك وما سمعته من أساتذتك، أليس كذلك؟

كان حسان يحاول استيعاب كل كلمة يقولها الشيخ، ولبث مفكرا مليا قبل أن يقول:

- ربما..

في حين تابع الشيخ كلامه مرة أخرى:

- لقد تحمل والدك أخطاءك الكثيرة منذ صغرك وما زال يتحملها بلا شك، ثم ها أنت قد كبرت و تعلمت الكثير- وما زال أمامك الكثير أيضا لتتعلمه- فهل بعد أن أصبحت تفكر و تميز بين الخطأ والصواب في بعض الأمور، وضعت نفسك حكما و جئت لتحاسب والدك بهذه الطريقة؟

فوجئ حسان بهذه اللهجة المؤنبة من الشيخ وشعر بشيء من التيه يتخبطه، لكن الشيخ لم يدعه لأفكاره طويلا، فقد قال:

- لا يوجد إنسان كامل يا بني فهذه طبيعة البشر، و لكن عليك أن تكون منصفا خاصة مع والديك، فقد أمرك الله سبحانه بحسن مصاحبتهما و برهما، ومن ذلك احترامهما وعدم إنكار فضلهما عليك؛ حتى وإن جاهداك على أن تشرك بالله، فما ظنك بما دون ذلك؟

واستطرد موضحا:

- قد يكون والدك قد أخطأ في أمر ما -ولا يوجد إنسان معصوم من الخطأ- جراء ضغوط معينة أو أفكار خاطئة ترسخت في عقله منذ الصغر ولا يمكن تغييرها بسهولة، عندها حاول أن تتعلم منه الحسن وتجتنب القبيح، وإن استطعت أن تنبهه إليه بحكمة وأدب فافعل، وإلا فيكفيك الدعاء له، ولا تنس ترديد ما علمنا إياه الرسول صلى الله عليه وسلم: " رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً"..

بدا على حسان الارتياح مما سمعه، فنهض مسلما على الشيخ:

- جزاك الله خيرا يا عمي، لقد أزحت هما ثقيلا عن كاهلي..

فابتسم الشيخ مربتا على كتفه:

- والكلام نفسه ينطبق على والدتك، بارك الله فيك وجعلك قرة عين لوالديك..

***

نودي لصلاة الجمعة واعتلى الشيخ عبد الرحيم المنبر في جامع الفتح وبعد أن سلم ورفع المؤذن الأذان بدأ خطبته..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ..﴾

فرض الله سبحانه وتعالى رمضان لتحقيق التقوى في النفوس، فلتكن فرصة لتغيير ما تراكَمَ من أخطاء أدت إلى إساءات عديدة في مجتمعاتنا باسم الدين والدين منه براء..

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

اتقوا الله عباد الله في أنفسكم ولا تظالموا، يامن تشكون الظلم وعدم تقدير رؤسائكم لكم هلا نظرتم في بيوتكم فتروا كيف أنتم فيها؟ اتقوا الله في نسائكم ولا تقايضوا حسن عشرتهن التي أوجبها الله عليكم، بتنازلهن عن حقوقهن التي ضمنها الله لهن! فإن لم تحفظوا وصية رسولكم في حسن معاملتهن (أوصيكم بالنساء خيرا)، فاتقوا الله في أبنائكم ولا تكونوا سببا في دفعهم إلى عقوقهن، راجعوا أنفسكم واعلموا أن معظم ما تواجهونه من متاعب هو بسبب تقصيركم في بر أمهاتكم، فلا تورثوا ذلك لأبنائكم وفلذات أكبادكم، (وحرم عليكم عقوق الأمهات).. ومن أشد ما يؤسف له رؤية بعض الرجال الذين يلقون باللائمة في تقصيرهم ببر أمهاتهم على زوجاتهم، فلا هم بروا الأمهات ولا أحسنوا إلى الزوجات ولا تلوموا إلا أنفسكم..

واعلموا أن الله ما جعل بيدكم القوامة إلا لأنه أعطاكم مقوماتها، فلا يطالب الرجل زوجه مالا تطيقه من صبر و حسن تعامل بحكمة، في حين قصر هو في أداء ذلك وهو الأقدر عليه..

اتقوا الله في بناتكم ولا تكونوا سببا في انقيادهن خلف دعوات السفور بسبب تشويه الدين في أعينهن لما يرونه من ظلم و سوء معاملة تتجاهل مشاعرهن وتنسب ذلك إلى الدين ظلما وبهتانا.. واعلموا أن الشارع سبحانه ما أمر بشيء وأوصى به

إلا لمطلق علمه وحكمته بعظيم أثر ذلك في خلقه وهو الأعلم بعباده سبحانه، فاحفظوا قوله سبحانه و تعالى:

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وكفاها وصية جامعة.. فوالله ما الدين بكثرة الصلاة والصيام، إنما الدين المعاملة..

فاتقوا الله وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم..

***

التقى عدنان صديقه علاء بعد صلاة الجمعة حسب الاتفاق فبادره بقوله :

- ألن يرافقنا طلال وحسام، لقد لمحتهما يسرعان بالخروج من الجامع بعد الصلاة ..

فأجابه علاء موضحا:

- إنهما يسرعان لإنهاء بعض الأعمال وقالا بأنهما سيلحقان بنا إن شاء الله..

فتساءل عدنان:

- وكيف سيعرفون بوجهتنا؟؟

فابتسم علاء مجيبا:

- ألم تخبرني بأنك ذاهب إلى أول وادي الغليل، حيث تعرف بعض العائلات هناك؟

فأومأ عدنان برأسه:

- هذا صحيح، ولكن بعد ذهابنا إلى السيد غانم الذي يقطن التل الأخضر!

أطرق علاء مفكرا قبل أن يقول:

- حسنا لا بأس لينتظرانا قليلا وأنا أعتقد أنهما لن ينهيا أشغالهما بسرعة..

وفي الطريق قال علاء:

- أسّمعت خطبة الشيخ عبد الرحيم! الجميع يتحدث هذه الأيام عن النساء والبنات وحقوقهن، هل هن مظلومات إلى هذه الدرجة!! حتى في المدرسة أصبح معظم النقاش في الدروس يدور حول هذا الموضوع، ما القصة يا ترى!!

فتنهد عدنان:

- أنت لا تعرف شيئا يا علاء! إنها مشكلة كبيرة فعلا..

ثم استطرد قائلا:

- تعرف عائلة نجيب ونبيل طبعا، تخيل.. بعد وفاة والدهم لم يكن بإمكان والدتهم ولا أخواتهم الحصول على أي جزء من ميراثه، ولولا نجيب ونبيل لذهبت المزرعة و الحقل و الخيول كلها لعمهم المقيم في مدينة أخرى! وكذلك والدتهم لم ترث درهما واحدا من ثروة والدها الثري، بل إن إخوتها قاطعوها وقسوا عليها بكلامهم عندما حاولت المطالبة بنزر يسير مما تستحقه!! القصة طويلة والقضايا معقدة، ولكن للأسف هذا جزء بسيط مما يحدث، حتى نحن لم نكن ندرك أهمية ذلك حتى بدأنا بالسماع لدروس الشيخ عبد الرحيم وغيره من العلماء المخلصين، ومع ذلك فقد تنازلت أمي عن حقها في ميراث والديها كما فعلت أخواتها رغم حاجتنا الشديدة للمال، حتى لا تخسر ود أهلها وأخوتها الذكور.. فإذا كان هذا يحدث في الحق الذي ضمنه القرآن بصريح العبارة لهن، فما بالك بما دون ذلك!!

هز علاء رأسه متفهما:

- هكذا إذن!

***

جلس السيد نبيل (والد حسان) مطرقا بعد صلاة الجمعة يقرأ أذكار الصلاة، بعد أن أصر عليه حسان حضور خطبة الجمعة في جامع الفتح، وكان على وشك

القيام للسلام على الشيخ عبد الرحيم ومحادثته في بعض الأمور عندما أقبل رجل على الشيخ وقد بدا الغضب في عينيه المحمرتين..

- أنت بكلامك هذا يا شيخ تزيد من جرأة الزوجات علينا، أفعالهن لم تعد تحتمل أبدا فما الذي تريده منا بالضبط؟؟

فقال الشيخ عبد الرحيم مهدئا:

- رمضان كريم وكل عام وأنت بخير، لم لا تجلس يا أخي وتحدثني بما حدث معك؟

شعر الرجل ببعض الحرج من فظاظة كلامه في البداية، لكنه سرعان ما استعاد تهيجه وهو يحدث الشيخ بنبرة لا تخلو من غضب:

- تخيل يا شيخ، كنت قد أحضرت ألف قطعة نقدية أخبرت زوجتي بأنها أمانة إلى حين عودة صديقي المسافر لأعطيها له، فأخذتها وتصدقت بها!! تخيل!! فما الذي تقوله يا شيخ في هذه الحادثة مع امرأة يظهر عليها سيماء التدين وهي لا تعرف من الدين شيئا!

لكن الشيخ سأله:

- هلا أخبرتني القصة من بدايتها وبكل تفاصيلها؟

فوجئ الرجل بداية من سؤال الشيخ، لكنه رد بغيظ:

- لا قصة ولا يحزنون، أسألك عن رأيك في هذا التصرف من نساء تطلب منا الصبر عليهن، هل هو صحيح أم لا؟ هل يجوز ذلك يا شيخ؟

وأمام إصرار الرجل على موقفه قال الشيخ بحكمة:

- لا أظن أن امرأة تفكر بالتصدق ويبدو عليها الصلاح كما تقول، أن تفرط بأمانة بهذه الطريقة، لا بد أن هناك حلقة مفقودة لم تخبرني بها، ولا أستطيع الحكم من دون معرفتها!

فاستشاط الرجل غيظا:

- أنت تريد إيجاد مبرر لها، أليس كذلك؟؟

فابتسم الشيخ وهو يجيبه بروية:

- هل تريد مني إسماعك الجواب الذي تريده أنت، أم الحكم الشرعي الذي أعرفه؟

هدأ الرجل قليلا وقد بدا عليه الاقتناع بما سمعه، ثم قال:

- حسنا، كل ما في الأمر أن ابني الصغير أصيب بمرض غريب أصابه بشلل مفاجئ، لم تجد معه حيلة الطبيب وأخبرنا بأننا نحتاج إلى نقله لمشفى أكثر تخصصا لعلهم يجدون له علاجا، وقبل أن نأخذه إلى هناك فوجئت بها تخبرني أنها اضطرت لاستخدام النقود المخبّأة، وبعد أن ألححت عليها أخبرتني بأنها تصدقت بها على نية شفاء ابننا المريض..

بدا الارتياح على وجه الشيخ عبد الرحيم، في حين سأله الرجل:

- والآن ما هو رأيك يا شيخ؟

لكن الشيخ عبد الرحيم رد عليه بسؤال آخر:

- كيف هي صحة ابنك المريض الآن؟

فقال الرجل وقد بدأ يشعر ببعض الغيظ مجددا:

- الحمد لله ابني بخير وقد شفي من مرضه بفضل الله وحده، فلا تعد على مسامعي كلام زوجتي أن الصدقة هي السبب! إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وحفظ الأمانة واجب مهما كان السبب!

فأكد الشيخ كلامه:

- لا يختلف اثنان على وجوب حفظ الأمانة، وقد لا أكون مقتنعا بما أقدمت عليه زوجتك وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن ألومها أبدا، فأنا رجل مثلك ولكنها.. أم!

بدا على الرجل الذهول وكأنه يسمع كلمة أم لأول مرة:

- أم!!

فتابع الشيخ كلامه:

- لا أستطيع أنا ولا أنت ولا العالم كله إيقاف أم تسعى لإنقاذ أطفالها! وإلا كنا كمن يعمل على تغيير طبيعة فطرها الله عليها وسنها الله في هذا الكون.. ألم تسمع عن دجاجة تستحيل وحشا شرسا أمام قطة تعتدي على صغارها، وأسد لا يجرؤ على إيذاء أشبال لبؤة!! وقس على ذلك الكثير..

والتقط الشيخ نفسا قبل أن يقول:

- بالطبع هذا لا يبرر كل شيء، ولكن لا شك في أن زوجتك لم تقدم إلا على فعل رأت فيه يقينا شفاء ابنها، بإيمانها الصادق بقول الرسول صلى الله عليه وسلم (داووا مرضاكم بالصدقة)، وكما لا نستطيع أن نقول أن تلك الصدقة هي السبب في ما حصل من الشفاء كما تقول، فإنك لا تستطيع أن تجزم أيضا أن تلك الصدقة لم تكن سببا في ذلك!

كان الرجل ينصت وصراع مرير يعتمل في نفسه عندما باغته الشيخ عبد الرحيم بسؤاله:

- بالمناسبة ما الذي كنت ستفعله لو طلب منك المشفى ألف قطعة نقدية أو أكثر إنقاذا لابنك من موت محقق؟

فأجاب الرجل:

- سأستدينها لأنني عندها أكون مضطرا!

فقال الشيخ عبد الرحيم:

- إذن كنت ستفعل الشيء نفسه الذي فعلته زوجتك عندما وجدت نفسها مضطرة!

لكن الرجل أجابه بحدة:

- أستدين لأعالج ابني في المشفى لا أستدين لأتصدق!!

شعر الشيخ عبد الرحيم بأن الحوار سيسلك منحى عقيما، فقال:

- إن كان مسمى الصدقة هو ما يسبب لك الإزعاج، فاعتبرها يا أخي صرفت ذلك المال لشراء دواء كتب الله به الشفاء لابنك!

فقال الرجل:

- والأمانة؟

فأجابه الشيخ عبد الرحيم بثقة:

- سيقضيها الله عنك ببركة يقينها وحسن ظنها بالله بإذن الله..

لم يعجب الرجل ذلك الرد كثيرا، وقبل أن يعلق بشيء سأله الشيخ عبد الرحيم:

- متى سيحين موعد السداد؟

فأجابه الرجل:

- عند عودة صديقي من سفره بعد أسبوعين..

فقال الشيخ:

- إن لم تتوفر لك ألف قطعة نقدية حتى ذلك الحين فإنني مستعد لتوفيرها لك إن شاء الله..

عندها شعر الرجل بإحراج شديد وقال متلعثما:

- أنا لم أقصد ذلك يا شيخ جزاك الله خيرا..

وقبل أن يتم الرجل كلامه، سمع صوتا نسائيا يصرخ بفزع من خارج المسجد:

- عبد الرحيم.. يا عبد الرحيم، إلحق ابنتك.. لقد أغمي عليها..

فنهض الشيخ عبد الرحيم وهو يردد:

- اللهم اجعله خيرا..

وقبل أن يخرج الشيخ عبد الرحيم ليجيب نداء زوجته، التفت إلى الرجل الذي وقف مبهوتا بما حدث ، وابتسم له قبل أن يخرج بسرعة:

- كما قلت لك.. أم ولا أستطيع أن ألومها..

***

حدث عدنان علاء عن السيد غانم، وما دار في منزلهم من أحداث بشأن المال يستطلع رأيه، وبينما هما على تلك الحال إذ فوجئا برجل يعترض طريقهما و الشر يعلو قسمات وجهه العبوس، فقال هازئا بابتسامة ماكرة :

- مرحبا بولدي الصغيرين..

قبض عدنان من فوره على محفظته وأخفاها في ملابسه جيدا وقد ارتجف جسده في حين أجابه علاء بحزم:

- ما الذي تريده يا عم ؟

فقهقه الرجل ضاحكا:

- لا شيء يا ولدي العزيز، فقط أحببت مرافقتكما في هذا الطريق المنعزل الخطير فقد يفاجئكما بعض اللصوص!

وانفجر يقهقه بصوته المرعب..

فأدرك الاثنان خطورة المأزق الذي وقعا فيه، فوقفا على أهبة الاستعداد في حين اقترب الرجل منهما ساخرا:

- لا تخافا يا عزيزي الصغيرين فأنا لا أريد إيذاءكما..

ثم تابع بلهجة صارمة:

- فقط أريد المال الذي معكما، فسيكون في أمان أكثر عندي ولا أعرف كيف يسمح لمثلكما اصطحاب هذا المقدار الكبير منه..

وأطلق ضحكة كبيرة قبل أن يقول متهكما:

- رفقا بحالكما سأسمح لكما بالعودة سالمين، وهذا كرم مني بالطبع لا أظنكم ستنسونه مدى حياتكم..

وانفجر يزلزل المكان بضحكاته الكريهة..

ورغم ارتباك عدنان الشديد؛ إلا أن علاء قال برباطة جأش لا مثيل لها:

- اتق الله ولا تتعدى حدودك! وارع حرمة شهر رمضان الذي نحن فيه على الأقل..

فما كان من الرجل إلا أن انفجر ضاحكا - رغم دهشته في البداية:

- لا بأس فأنا أحب التسلية أحيانا، وللأسف لست كبيرا بما يكفي أيها الشيخ الصغير لأجد فيك ندا لي..

ولم يزد كلام الرجل علاء إلا عزما وتصميما على مواجهته، فحاول ثنيه عن عزمه بتذكيره بالله فلم يزد الرجل إلا عجرفة وكبرا حتى قال علاء أخيرا:

- لا تكن من الذين قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ﴾..

فصاح الرجل غاضبا وقد طفح به الكيل:

- أظن أنني تحملتك بما فيه الكفاية، فمن تظن نفسك يا هذا، ألا تعرف من أنا؟

فأجابه علاء متحديا:

- بل أعرفك جيدا، عبد ذليل يتلاعب به صغار الشياطين كيفما شاء..

وبدلا من أن يعود الرجل إلى رشده اندفع باتجاه علاء يخور كثور هائج، إلا أن علاء تدارك الموقف بقفزة قوية خلف الرجل الذي انبطح أرضا وهو يحاول الانقضاض عليه، ثم نهض سريعا وهو يزمجر بوحشية:

- سوف أقضي عليك أيها الوغد..

لكنه توقف اثر صوت غليظ فظ ظهر فجأة:

- توقف يا دارم..

والتفت الجميع إلى مصدر الصوت لترتطم أبصارهم بعملاق اتخذ من القسوة والشر دثارا له حتى لكأنهما باديان على وجهه.. فهتف دارم:

- سيدي..

فاقترب العملاق منهم أكثر وهو يتفحص المكان بدقة:

- لقد طال انتظارنا لك يا دارم حتى شككنا في إخلاصك لنا، أتعجز حتى الآن عن إحضار المال من ولدين صغيرين؟؟

بدا التوتر على وجه دارم:

- ولكن يا سيدي..

إلا أن العملاق قاطعه بوحشية:

- لا أريد أعذارا..

وفي لمحة بصر خاطفة كان العملاق يطوق عدنان بيديه الغليظتين، فصاح مستنجدا في حين انفجر العملاق ضاحكا:

- اصرخ كما شئت يا صغيري، فلن يسمعك أحد هنا!

فصاح به علاء:

- ولكن الله يسمعه وهو يرانا فاتق الله..

اهتز بدن العملاق رغما عنه؛ فالتفت إلى علاء الذي وقف متحديا مستعدا للهجوم وهو يرمقه بنظرات نارية غضبى، فابتسم العملاق ساخرا:

- تعجبني شجاعتك يا فتى، ولكن يبدو لي أنك لم تسمع بفاتك.. العملاق الشهير بعد!

فشهق عدنان بفزع:

- يا الهي، أنت فاتك المجرم الخطير إذن!! لم أتوقع أن ألتقي بك يوما..

فقهقه فاتك:

- يسعدني أنك تشرفت بمقابلتي أخيرا يا صغيري..

فصاح علاء به:

- اترك صديقي وشأنه، فان كنت لا تخشى عقاب الله، فلن تسلم أبدا من أيدي رجال المحافظة على المنطقة..

ما كاد علاء يتم كلامه؛ حتى انفجر فاتك بضحكة مدوية هزت أرجاء المكان:

- يا لك من ساذج يا فتى، كل ما في الأمر أنني سأقضي إجازة ظريفة بين جدران صماء تنسيني إرهاق العمل في الخارج، أستعيد خلالها قواي ونشاطي وأجمع أفكاري حتى يتسنى لي العمل من جديد..

ثم أوثق قبضته على عدنان قائلا :

- ولذلك فأنا أحب انجاز أعمالي بسرعة لأن طبيعتي تكره الإجازات المفاجئة..

ثم تابع بلهجة ساخرة:

- وأحب إخبارك بأنني وطدت علاقتي مؤخرا مع أحد الرجال الذين تحذرني منهم، لذا أنصحك بالاستسلام بسرعة يا عزيزي..

استشاط علاء غيظا ولم يعد يتمالك نفسه أكثر، فجمع قواه واستعاد بذهنه كل ما تعلمه بالمدرسة، أما عدنان فقد حاول التخلص من قبضة فاتك القوية، والذي قال له بلهجة آمرة صارمة:

- هيا بسرعة أخرج ما لديك ولا تضيع وقتي..

وأمام تردد عدنان وارتباكه أخرج فاتك خنجرا من وسطه وما إن هم برفعه نحو رقبة عدنان لترويعه حتى فوجئ بضربة قوية من يد علاء الذي اندفع نحوه بمجرد ملاحظه حركة يده فأطاحت بالخنجر بعيدا، ارتبك فاتك قليلا لهذه الحركة المباغتة التي لم يعمل لها حسابا، فأسرع علاء يستغل هذه الفرصة يحاول تخليص صديقه من تلك القبضة القوية، التي مازالت تطبق عليه رغم هول المفاجأة، إلا أن فاتك قرر أخيرا مواجهتها بقوته الحقيقية فدفع علاء عنه بقوة كبيرة؛ أسقطته أرضا

سقطة كادت أن تهشم رأسه، في حين حاول عدنان الضغط على يد فاتك بقوة أسنانه فلم يكن نصيبه منه إلا لكمة قوية في فكه كادت أن تفقده وعيه.. وسرعان ما نهض علاء من سقطته القوية ليفاجأ بدارم يكبله من الخلف ويضمه إليه ليشل حركته:

- لقد انتهت اللعبة..

وحاول علاء جهده الإفلات منه دون جدوى وتناهى إليه صوت فاتك:

- لقد تجاوزتم حدودكم كثيرا بمقاومتكم لنا يا أولاد ولولا ضيق الوقت لقضينا معكم وقتا أكثر لتلقينكم درسا لا تنسوه أبدا..

والتفت إلى دارم:

- احتفظ بالصبي معك مدة أطول ريثما أتوارى عن الأنظار..

ثم صفع عدنان صفعة قوية، أتبعها بضربة قاسية على أم رأسه بلا رحمة طرحته أرضا فاقد الوعي.. و أخيرا استطاع فاتك العثور على محفظته، مما زاد من اهتياج علاء حتى استطاع التخلص من دارم، الذي لم يستطع الصمود أمام قوة كامنة توشك على الانفجار! وبكل ما أوتي علاء من قوة وبسرعة مباغتة شد ذراعيه ضاربا دارم بمرفقيه إلى الخلف مصيبا منه موضع الألم، في حين قفز إلى الأمام مندفعا نحو فاتك الذي أسرع يتوارى خلف شجيرات في جانب الطريق، فصرخ علاء بأعلى صوته:

- أتهرب مني أيها الجبان!!! الحمد لله الذي نزع رهبتك من صدري وألقى رهبتي في صدرك..

أما دارم الذي تلقى ضربتين مؤلمتين في خاصرتيه من مرفقي علاء، فقد نهض بصعوبة متعجبا من هول تلك القوة، لكن غروره وكبره أبى عليه الانسحاب وقد وغر صدره الحقد والرغبة في الانتقام، فغدا وحشاً كاسراً شرساً همه القضاء على ذلك الفتى بأي ثمن..

وأدرك علاء عدم جدوى ملاحقة فاتك خاصة وأن عدنان ملقى على الأرض فاقد الوعي فأسرع نحوه وما إن هم بالانحناء على الأرض يحاول الاطمئنان عليه حتى انتبه لانقضاض دارم المفاجئ في اللحظة الأخيرة فتداركه وابتعد جانبا جاذبا عدنان معه يضمه إليه ليسقط دارم أرضا مما زاد من شراسته واهتياجه فنهض لا يلوي على شيء سوى الفتك بعلاء.. و بأي وسيلة..

واستعد علاء للمواجهة بعد أن أبعد عدنان عن دائرته يحميه خلف ظهره، واندفع دارم بخنجره نحوه.. مرت لحظات عصيبة على علاء، فصديقه مغشي عليه والمكان خال إلا من ثلاثتهم بالإضافة إلى فكره المشغول بفاتك الذي هرب بالمال.. وبدأ قلبه يخفق بعنف:

- يا ودود يا ودود يا ودود يا فعالا لما تريد، اكفني شره وهب لي قوة من عندك يا أرحم الراحمين ارحمنا يا لطيف ألطف بنا..

ولم يكن أمام علاء سوى تفادي ضربات دارم بمهارة فائقة، بعد أن جن جنون الرجل حتى أنهكت قواه، و تلاهثت أنفاسه، دون أن ييأس من إعادة هجماته على علاء، الذي أخذ يتحين الفرصة المناسبة للهجوم، وبسرعة فائقة استطاع علاء الاستدارة خلف دارم قافزا قفزة هائلة وبكل ما أوتي من قوة؛ استطاع إصابته على أم رأسه بضربة قوية من قبضته، أتبعها بضربة من قدمه، استقرت في منتصف ظهره، ليترنح على إثرها دارم، ويخر أرضا على وجهه فاقدا الوعي..

استرد علاء أنفاسه المتلاحقة، وأسرع نحو عدنان الذي مازال تحت تأثير الصدمة، وبينما هو يحاول حمله ليبتعدا عن المكان؛ فوجئ بفاتك يقف أمامه وسط ثلة من الرجال الأشداء القساة، وهو يقول بغرور:

- هل تظنني سأدعك ترحل يا هذا دون أن أرد اعتباري، فالجميع يخافني هنا ولن أسمح لك بتغيير هذه الفكرة إطلاقا، وستعرف الآن من هو فاتك الفاتك..

بذل علاء قصارى جهده ليظهر تجلده:

- لن يزيدني كلامك هذا إلا احتقارا لك، بعد أن أخزاك الله أيها الجبان..

فقال فاتك بغضب:

- يبدو أنك بحاجة إلى تأديب لا تنساه طوال حياتك، وستعرف عاقبة تطاولك على أحد رجالنا..

فابتسم علاء بسخرية:

- تقصد ذلك الجبان الراقد هناك..

وتقدم الرجال ليحيطوا بفاتك الذي قصد إدخال الرعب في نفس علاء، الذي استطاع السيطرة على رباطة جأشه وهو يقول ساخرا:

- هل أحضرت هؤلاء جميعا للدفاع عنك أيها الجبان، ألا يكفيك ثلاثة فقط يرقدون قربك؟؟

همّ أحد الرجال بالاندفاع نحو علاء، لكن فاتك أوقفه وقد تميز غيظا:

- دع هذا العنيد لي، فإنني أحب تلقينه درسا قاسيا بيدي هاتين وبطريقتي الخاصة..

فهب علاء مستعدا له، وهو يحاول بذل جهده ليتمسك بشجاعته التي بدأت تنهار شيئا فشيئا أمام هذه الكثرة، إلا أن ثقته بربه كانت اكبر..

وأمام اندفاع فاتك بوحشية نحوه؛ لم يكن أمامه إلا الثبات وهو يحدث نفسه مستعدا للمواجهة:

- هذه هي فرصتي لاختبار مهاراتي التي تعلمتها في المدرسة، فيا رب وفقني وكن معي..

***

أسرع معاذ يجيب نداء والده في غرفة العيادة الملاصقة لمنزلهم، ليفاجأ برؤية الشيخ عبد الرحيم وزوجته حول ابنتهم الصغيرة حفصة الممددة على السرير، كان والده الطبيب يحاول طمأنة الأم القلقة:

- سيكون كل شيء على ما يرام إن شاء الله ، تبدو لدغة عقرب وبإذن الله يتم علاجها بسهولة.. لا تقلقي..

ثم التفت إلى معاذ الذي دخل الغرفة للتو:

- أين الجذور التي طلبت منك ملء الحافظة بها؟

أسقط في يد معاذ فقد نسي الذهاب إلى الغابة كما وعد والده وها هو يجد نفسه في موقف حرج جدا، وأمام الشيخ عبد الرحيم وزوجته! فتلعثم قائلا:

- سأحضرها حالا يا أبي إن شاء الله..

وانطلق بسرعة- قبل أن يرى المزيد من نظرات اللوم والتأنيب- متجها نحو المكان الذي بات يعرفه جيدا؛ حيث تنمو العديد من النباتات والجذور ذات الفوائد الطبية التي يستعملها والده في تحضير الترياق المضاد للسموم، وباقي المستحضرات العلاجية، وبينما كان يملأ حافظته بالجذور التي يعثر عليها؛ إذ انتبه على صوت جلبة قريبة استطاع تمييز أحد الأصوات فيها، ووراءه صوت بكاء طفل وامرأة تقول باستعطاف:

- صدقني وجدتها ملقاة هنا، لم أقصد سرقتها أبدا!

فأزاح معاذ بيده الأغصان وأوراق الشجيرات التي حجبته عن رؤية موضع الصوت، ليجد زيداً يقف أمام امرأة من الحاطبات برفقة طفلها الباكي وإلى جانبها عربتها الممتلئة بالأغصان الجافة وما يمكنها الاستفادة منه، وهو يقول لها:

- لا بأس لم آت لأحاسبك يا سيدتي، تفضلي هذه..

عندها انهمرت المرأة في البكاء:

- إنني أعمل هنا منذ الصباح، لعلي أجد ما أطعم به أطفالي الذين تركتهم في البيت، فلم نذق طعاما لأيام، و مع ذلك لم أفكر بالسرقة..

وناولته شيئا دون أن تترك له مجالا للتفكير و هي تتابع كلامها:

- وقد وجدت هذا ولكنني لن آخذه بعد أن ساقك الله إلينا أيها الفتى الكريم، فربما يكون هاما لها..

ورفعت يديها بالدعاء قبل أن تبتعد وهي تجر عربتها وطفلها خلفها:

- جزاكم الله خيرا ورفع الله عنكم كل بلاء..

اقترب معاذ من زيد مسلما عليه:

- ما الذي كنت تفعله هنا؟

فرد عليه زيد متأثرا:

- طلبت مني أمي تسليم صدقة لأي محتاج بسرعة، بنية شفاء حفصة بإذن الله، فبحثت كثيرا حتى وجدت هذه الحاطبة، إنها مسكينة فعلا، لا أدري عم كانت تتحدث، ولكن لم أفهم ما..

بتر زيد عبارته، إذ قاطعته نظرات معاذ الفزعة وهو يشهق:

- من هذه يا زيد؟

فالتفت زيد خلفه حيث تركزت نظرات معاذ؛ ليُراع بمشهد فتاة شابة بدت في الثامنة عشر من عمرها، تظهر عليها آثار الغنى، ملقاة على الأرض وقد أخفتها الحشائش المحيطة بها عن مستوى النظر، ففتح فاه وقد ألجمت الدهشة لسانه، ثم قال بصعوبة وكأنه يحدث نفسه:

- أتكون هذه هي من تعنيه تلك الحاطبة؟!!

في حين انحنى معاذ ليطمئن على الفتاة قائلا:

- إنها تتنفس، قد تكون فاقدة للوعي إثر تعرضها لسقطة ما..

ثم تابع مخمنا:

- ربما ظنتك الحاطبة قريبا لهذه الفتاة، وجئت تبحث عنها فأسرعت تبرئ نفسها من أن تظن أنها كانت السبب فيما جرى لها!!

فتساءل زيد:

- وما الذي علينا فعله الآن؟؟ من لطف الله بي أنك هنا وإلا لما عرفت التصرف وحدي!

فأجابه معاذ:

- وما أدراني أنا!

وفي تلك الأثناء سمعا صوت عربة قريبة فأسرع زيد نحوها:

- سأطلب منهم المساعدة، فنحن لا نستطيع ترك هذه الفتاة هنا وحدها..

ومن لطف الله بهما أن صاحب تلك العربة لم يكن سوى عماد - ذلك الشاب الذي يعرفونه جيدا، وكان له دور كبير في اختبارات المدرسة- وما أن وقعت عينا عماد على تلك الشابة الحسناء؛ حتى راعه جمالها فأسرع يغض نظره، وهو يقوم بواجبه في نقلها بمساعدة زيد إلى العربة..

قال عماد:

- يبدو أنها ابنة إحدى العائلات الثرية، ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا!

فتساءل معاذ:

- إن كانت كذلك فلم لا يُرسل أهلها بالبحث عنها، أو إعلام دور الأخبار كما يفعلون عادة إن ضاع شيء ثمين عندهم، فيخصصون المكافآت لأجل ذلك؟؟

فأجابه زيد:

- ربما لم ينتبهوا إلى غيابها بعد!

لكن عماد قال:

- أو فضلوا البحث عنها بصمت، فلا تنسوا أن عصابات اللصوص قد بدأت تزاول نشاطها بكثافة مؤخرا، وإشاعة خبر كهذا من شأنه أن يعرض حياة الفتاة للخطر..

***

كان علاء يواجه فاتك ورجاله باستماتة وهو يوشك على فقد آخر ما تبقى من قوته، بل كان قد فقدها فعلا عندما انطلق صوتٌ فجأة:

- خذها يا علاء..

ومع هذه الكلمات التقط علاء العصا الطويلة التي قُذفت نحوه بمهارة من شجرة على جانب الطريق، ورغم أنها منحته بعض القوة؛ إلا أنه بدا لوهلة عاجزا عن الحركة أمام اندفاع فاتك الذي لم تربكه المفاجأة، بل زادته قسوة و شراسة وهو يستل سيفه بغضب ليجهز به على علاء دون رحمة، مزمجرا بأعلى صوته:

- لن أتوانى في تقطيعك إربا أيها الجرذ الصغير، لقد طفح الكيل..

وما هي إلا لحظات معدودة حتى قفز طلال من تلك الشجرة بقوة باتجاه فاتك فأصابه بدقة متناهية أخلّت بحركته وكادت أن توقعه، فحالت دونه ودون علاء الذي تسمرت قدماه، والتفت فاتك نحو طلال والشرر يتطاير من عينيه:

- أتتجرأ عليّ أيها الوغد!! لاشك انك صديق ذلك الفتى اللعين..

واندفع نحوه بشراسة ليشتبكا في قتال عنيف، استطاع فيه طلال تفادي ضربات سيف فاتك المتلاحقة بمهارة، أما علاء الذي قويت عزيمته وتضاعف إصراره فقد أسرع بعصاه الطويلة يتصدى للرجال الذين انتبهوا على ذلك الحدث المباغت..

استطاع طلال أن يطرح فاتك أرضا بحركة ذكية عرقلته، لكنه نهض منها بسرعة وقد استشاط غيظا :

- ستندم على تدخلك فيما لا يعنيك..

فرد عليه طلال بتحد:

- بل يعنيني.. وأنت من سيندم على اجترائك على حرمات الله..

فما كان من فاتك إلا أن صرخ برجاله:

- فلتقضوا على هذين الجرذين بأي وسيلة..

كان علاء في تلك اللحظة قد تمكن من إصابة عدد من الرجال، الذين استنفروا إثر سماعهم أمر زعيمهم وكأنهم في مواجهة جيش جرار..

ولم تدم تلك المناورة طويلا، إذ سرعان ما انتبه الجميع إلى صوت عربات قادمة وقد تردد في الأرجاء دويّ صوتٍ واضح:

- هذا يكفي.. سلموا أنفسكم ولا تبدوا أية مقاومة فليس هذا في صالحكم..

هتف علاء بنشوة وهو يرى حسام في مقدمة تلك العربات المميزة، والتي حملت شعار أمن منطقة الجبال:

- الحمد لله..

أما فاتك فقد أُسقط في يده وآثر الهرب متواريا عن الأنظار قبل أن يلحظه أحد، وأقبل رجال المحافظة على المنطقة فتمكنوا من إلقاء القبض على بعض اللصوص في حين هرب الباقون..

***

كان معاذ يشعر بقلق شديد لم يستطع تحديد سببه تماما، أهو لكونه قد أحضر فتاة مغمى عليها لعيادة والده دون أن يعرف عنها شيئا، أم بسبب قلقه من تأخره على تلك الفتاة الصغيرة التي طلب منه والده إحضار الجذور لأجلها، أم لخوفه من توبيخ والده لتأخره في انجاز مهمته مرتين! أم لكل تلك الأسباب مجتمعة!! المهم أنه أخذ يدعو في سره أن تمر الأمور بخير، وبأقل الأضرار الممكنة..

وعندما دلف إلى غرفة العيادة مسرعا؛ اصطدم بالشيخ عبد الرحيم الذي كان على وشك الخروج، فاعتذر قائلا:

- آسف يا عمي، وأعتذر عن تأخري.. أرجو أن تكون حفصة بخير..

فابتسم الشيخ:

- الحمد لله، لا تقلق يا بني، لقد أتعبناك معنا!

والتفت إلى حفصة التي أمسكت بيد أمها وقد استعادت عافيتها مُتابعا كلامه:

- كما ترى ها هي بخير بفضل الله، و جزا الله والدك عنا خير الجزاء، و بإذن الله نراك طبيبا حاذقا مثله يا معاذ إلى جانب كونك فارسا..

وقبل أن يرد معاذ بشيء، وقد احمرت وجنتاه خجلا من ذلك التشجيع الذي شعر بأنه لا يستحقه، جاءه صوت والده من الداخل:

- من لطف الله بالفتاة أنني كنت أحتفظ بترياق احتياطي، ولو كنت سأعتمد عليك يا معاذ لما دريت بأي وجه سألقى الله وقد فرّطتُ في علاج المرضى!

تقبل معاذ تلك الكلمات بصدر رحب فقد كانت أقل مما توقعه بكثير، ثم أشار لوالده نحو عربة عماد الذي كان ينتظره بالخارج حيث ترقد تلك الفتاة وهو يخبره عنها على عجالة..

وبعد أن ألقى الطبيب نظرة عليها أسرع يحقنها بدواء ضد أي تسمم تكون قد تعرضت له، ثم طمأن الجميع قائلا:

- ستكون بخير إن شاء الله، ولكنها قد تأخذ وقتا قبل أن تفيق..

ثم التفت إلى الشيخ عبد الرحيم مغتنما وجوده:

- إن لم تمانع يا شيخ فأظن أن الفتاة ستكون بأمان في منزلك فهي في عمر بناتك، حتى تستيقظ ونعرف من تكون أو يأت من يسأل عنها..

وقبل أن يجيب الشيخ عبد الرحيم بشيء، قالت زوجته بكل ما يحمل قلبها من مشاعر أمومة:

- بل هذا واجب علينا..

***

فتح عدنان عينيه على وجوه قلقة تحيط به، فهتف علاء:

- الحمد لله على سلامتك يا عدنان كيف تشعر الآن ؟؟

وابتسم المدرب جهاد:

- من لطف الله بك يا بني أن الضربة لم تودِ بحياتك، كنا على وشك نقلك إلى المشفى..

وتذكر عدنان الأحداث التي مرت به، فأسرع يتحسس ثيابه:

- المال!! أين هي المحفظة..

فتنهد علاء:

- لقد استطاع رجال الحفاظ على المنطقة القبض على بعض أفراد العصابة، أما فاتك فقد تمكن من الهرب..

واطرق متابعا:

- سامحني يا صديقي لم استطع اللحاق به، واسأل الله أن يعوضك خيرا مما سرق منك..

وقع الخبر كالصاعقة على رأس عدنان، فدارت الدنيا به وكاد أن يفقد صوابه، لكنه استرجع:

- اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها..

فقال طلال:

- دفع الله ما كان أعظم، فالحمد لله على سلامتك يا صديقي فهذا من لطف الله بك وبنا..

فردد عدنان:

- الحمد لله رب العالمين على كل حال..

ابتسم حسام:

- لقد ساقنا الله إليكم في الوقت المناسب..

فتساءل عندها علاء:

- لم تخبروني حتى الآن كيف وصلتم إلينا؟

فأجاب حسام:

- سلكنا طريقا خاطئا ظنناه يؤدي إلى وادي الغليل، فإذا بنا نفاجأ بأننا قد ضللنا الطريق، ولكن الله قدّر لنا السير باتجاهكم، فاتفقت مع طلال على أن يبقى هو للتدخل في الوقت المناسب إذا لزم الأمر، في حين أذهب أنا لاستدعاء المساعدة، وبقدر من الله قابلت المدرب جهاد وأنا قادم مع رجال المحافظة على أمن المنطقة فجاء معنا..

أطرق عدنان مفكرا:

- والآن ما العمل!! ففاتك لا يُعرف له مكان ولا أعتقد أننا سنعثر على المال المسروق!

فقال حسام بضيق:

- لم تمض سوى أيام قليلة بعد الإفراج عن فاتك، الذي أنهى عقوبة السطو على منزل أحد الأثرياء! وهاهو يزاول عمله من جديد..

فعلق علاء بحنق:

- ليتني أعرف لماذا يُترك أمثال هؤلاء المجرمين دون ملاحقة جادة والقضاء عليهم بالكامل، ونحن نتغنى بجهود المحافظين على المنطقة صباح مساء!

عندها قال المدرب جهاد - وقد وجدها فرصة مناسبة لحديثه:

- أرأيتم يا أبنائي عاقبة ترك العمل بشريعة ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم!! فلو طبق حد السرقة مرة، لما تكررت السرقات وتمادى المجرمون، فالله

العليم بنا؛ هو وحده من يقرر العقوبة الأمثل، وهذا ينطبق على سائر أمور حياتنا.. لذا من صالحنا الالتزام بديننا والنصيحة لغيرنا على قدر المستطاع..

فقال عدنان بقلق:

- مادام فاتك طليقا، فإنه لا شك سيحاول الانتقام..

فطمأنه طلال بقوله:

- ولكننا لن نخشاه أبدا بإذن الله، مادامت قلوبنا معلقة بالله ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

وبعد برهة صمت قال علاء:

- ما رأيك يا عدنان أن تذهب للسيد غانم وتخبره بالقصة، فلعله يمهلكم أكثر ويقدر ظرفك، حتى ييسر الله لنا تدبير المال المطلوب..

عندها هتف عدنان:

- تذكرت.. لقد نصحتني أمي بوضع مبلغ الدين في محفظة منفصلة، وما زالت معي بقية الأموال التي أنوي إعطاءها لمستحقيها في وادي الغليل..

ثم أخرج عدة أكياس من ثيابه مبتسما:

- هذه نصائح أمي الخبيرة، طلبت مني تفريق الأموال في ثيابي احتياطا..

فهتف علاء:

- الحمد لله، هذا فضل من الله علينا كبير، والآن أعتقد أن باستطاعتك إعطاء السيد غانم من هذه الأموال، أليس كذلك؟؟

فأطرق عدنان قليلا ثم قلب نظره بين الأصدقاء، و أخيرا استقرت عيناه على المدرب جهاد الذي ابتسم قائلا:

- لا تحمل همّ العائلات في وادي الغليل فرزقهم على الله تعالى، وعليك الآن بقضاء الدين فتوكل على الله، والله وحده يعلم بنياتنا، و بإذن الله لا بأس عليك ولا حرج..

وهنا تساءل حسام:

- ما الذي أعلم فاتك ورجاله بأمر تلك المحفظة؟؟ فحسب ما ذكرته لنا يا علاء انه اتجه نحو عدنان مباشرة مفتشا في ثيابه!!

فابتسم طلال في حين قال المدرب جهاد منبها ومؤنبا في آن واحد:

- عليكما أن تكونا أكثر حذرا في المرات القادمة إن شاء الله، ومن يدري فلربما عرف الجميع بالقصة كاملة من حديثكما المرتفع.. والمؤمن كيس فطن، أليس كذلك يا أبنائي؟؟

احمرت وجنتا عدنان، وأطرق علاء خجلا وهو يقول:

- لقد تعلمنا درسا لن ننساه أبدا بإذن الله، ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين..

***

تناوبت جويرية وميمونة مع والدتهما الاطمئنان على تلك الفتاة الممدة على السرير في الغرفة المعدة لاستقبال الضيوف في منزلهم، وما إن بدأت بالتقلب وفتحت عينيها؛ حتى هتفت ميمونة بفرح:

- الحمد لله على السلامة..

وجدت الفتاة صعوبة كبيرة في التعرف على المكان حولها، وأمسكت رأسها بيدها وهي تحاول النهوض مستندة على ذراعها الأخرى:

- أين أنا؟

لكن ميمونة أسندتها وهي تحاول إعادتها إلى وضع الاسترخاء:

- أنت بخير يا عزيزتي، اطمئني فأنت في منزلنا، ونحن أصدقاؤك..

وابتسمت لها ابتسامة ملأتها حبا وطمأنينة، أشعرت تلك الفتاة براحة كبيرة جعلتها تلقي برأسها على السرير من جديد، مغمضة عينيها وهي تحاول استرجاع ما مر بها من أحداث حتى وصلت إلى هذا المكان..

ثم صرخت فجأة صرخة أفزعت ميمونة؛ وهي تتحسس أصبعها وتنهض من فوق السرير بفزع:

- الخاتم.. أين الخاتم!!

حاولت ميمونة تهدئتها وهي لا تعرف عن أي خاتم تتحدث تلك الفتاة:

- إهدئي قليلا يا عزيزتي، سنجده إن شاء الله لا تقلقي..

لكن الفتاة أخذت تبكي وتنتحب:

- أرجوك افهميني إنه كنز ثمين، وأمانة عظيمة، مستعدة للتضحية بأي شيء حتى أستعيده!

ربتت ميمونة على كتفها مطمئنة:

- سيكون بين يديك بإذن الله لا تقلقي، ولكن عليك أن تتناولي هذا الحساء أولا..

لكن الفتاة بدت عنيدة جدا، حتى أن ميمونة فرحت بدخول والدتها و أختها جويرية؛ لعلهما تحسنان التصرف في موقف كهذا أفضل منها، وقد أقبلن بعد سماعهن الصوت..

حاولت السيدة رغدة جهدها مع الفتاة التي قالت:

- سامحيني يا خالتي لقد أثقلت عليكن، ولكن لهذا الخاتم شأن كبير وقد يكون مصير العالم مرهونا به..

تبادلت الأم وابنتاها نظرات متسائلة- وهن يستمعن إلى ما تردده تلك الفتاة وكأنها جملة حفظتها عن ظهر قلب- ولسان حالهم يقول:

- أتراها تهذي!!

وهمت الفتاة بقول شيء، ثم عدلت عن رأيها وهي ترى تلك النظرات المستهجنة في العيون، لكن السيدة رغدة سرعان ما تداركت الموقف قائلة:

- اعذرينا يا ابنتي، فربما كان جهلنا بسر ذلك الخاتم سببا فيما ترينه من تعجبنا ونحن لا نشك في صدقك أبدا..

وفي تلك الأثناء دخلت حفصة وهي تمسك شيئا في يدها قدمته لوالدتها قائلة:

- يقول زيد أن هذا الخاتم قد يكون للفتاة! فقد أعطته اياه الحاطبة قبل أن تذهب..

لم تصدق الفتاة عينيها، فتناولت الخاتم بلهفة ووضعته في اصبعها، وهي تتنفس بارتياح:

- الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله...

ومرة أخرى تبادلت العيون نظرات متسائلة:

- هل هذا يوم العجائب؟؟ هل يشرح لنا أحدهم ما الذي يجري هنا!!

***

عاد السيد نبيل إلى منزله بصحبة حسان وسارة وأصيل بعد صلاة التروايح، التي أدوها في جامع الفتح لأول مرة- إذ كان يود الحديث مع الشيخ عبد الرحيم واستشارته في موضوع تعليم سارة- وقد أخذت كلمات الشيخ تلقى صداها في نفسه:

- إذا لم نفسح المجال أمام بناتنا الملتزمات و المتميزات في خوض غمار العلم وتفجير طاقاتهن في عمل أشياء مفيدة، فلمن نترك المجال إذن؟؟ ألن نكون السبب في تغييب القدوات الصالحة، وترك الساحة أمام من لا خلاق له ولا دين؛ ثم نأتي ونستنكر أثرهن السيء في بناتنا دون أن نعطي البديل الصالح؟؟

وما إن دلف نبيل إلى المنزل واطمأن على سوسن ومحسن في فراشهما، حتى دعا باقي أفراد العائلة إلى اجتماع هام، خفق له قلب سارة:

- استر يا رب!!

وكم كانت فرحتها عظيمة عندما وجدته اجتماعا مميزا من نوع آخر، فما إن سمعت إذن والدها بل وتشجيعه لها على إكمال دراستها- بعد أن استمع لها دون أي مقاطعة- حتى قفزت فرحة وهي تعانقه هاتفة:

- أبي فارس حقيقي.. جزاك الله خيرا يا أبي، وأعدك أن أكون عند حسن ظنك بي..

وشعر الجميع بنشوة كبيرة وقد آذنت الأجواء المشحونة على الرحيل، خاصة حسان الذي شعر بأنه نضج كثيرا في فترة وجيزة..

قالت مريم - وهي تنفض ما علق بيدها من طحين بعد أن أنهت عمل العجين خلال الجلسة استعدادا لخبزه على السحور:

- أرجو أن لا يكون هذا تغييرا مؤقتا..

فابتسم الوالد:

- ذكرونا يا جماعة، إن الذكرى تنفع المؤمنين..

فابتسمت سمية وقد تهلل وجهها وكأنه يشع نورا:

- على الرحب والسعة يا أبي الحبيب، و ستجدنا إن شاء الله من الصالحين..

في حين علق وسام:

- لقد ضحكوا عليك أنت أيضا يا أبي!

فأجابه والده:

- بل ربما أخطأت في حقك كثيرا يا بني وكنت سببا في حدة تفكيرك..

ثم تابع باسما:

- و لن أقوم بتزويجك قبل أن يجيزك الشيخ عبد الرحيم..

فقفزت نظرات استنكار إلى عيني وسام وهو يقول:

- لماذا؟؟ و هل كنت سأذهب لخطبة بناته!!

فردت سارة بتأهب:

- بل ومن قال لك بأنه سيرضى بتزويجهن لأمثالك!

فختم الوالد الجلسة قبل أن يحيد الاجتماع عن مساره:

- حسنا حسنا أيتها القوارير.. سنبذل جهدنا في الرفق بكن، ونسأل الله الإعانة؛ وإلا كنا أول المتضررين بشظايا الكسر لا سمح الله..

وضحك الجميع بمن فيهم وسام- الذي انفرجت أساريره أخيرا- وهم ينهضون إلى أسرتهم بسرعة، قبل أن تفقد الأم أعصابها، بسبب السهر وتأخر أولادها في النوم، مرددين كفارة المجلس:

- سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا اله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك..

***

الفصل السادس

الوثيقة

لم تكن أحداث يوم الجمعة لتمر دون اجتماع جاد ونقاش حاد بين مدربي مدرسة النصر، حيث عقد اجتماعهم الطارئ في غرفة المدرب جهاد في الصباح الباكر، ومن لطف الله بهم أن التدريبات لا تبدأ إلا بعد صلاة الظهر، وإلا لكان لزاما عليهم الاعتذار عن تدريب الطلبة وهم غارقون حتى آذانهم في جدل يندر حدوثه بينهم على ذلك النحو..

كان المدرب جهاد أكثرهم ضبطا لأعصابه، وهو يحاول إقناعهم بوجهة نظره، دون أن يحاول فرض سلطته عليهم؛ كونه أمير المدربين، في حين التزم المدرب عادل الصمت لفترة طويلة مكتفيا بهزات خفيفة من رأسه تأييدا لكلام المدرب جهاد، خاصة وأن تقييمه لعلاء في تقويم الأبدان بما فيها السباحة لن يؤثر على قرار الترشح في مراتب علم الجلاد المختلفة..

أما المدرب ثابت فقد بدا ثابتا على رأيه الى أبعد الحدود، ولا مجال لديه لقبول أي رأي مخالف في تلك الأثناء، حتى أعلنها بصراحة:

- لن أكون راضيا أبدا على ترشيح علاء لاختبار الارتقاء القادم لهذا السبب، بل إنني أرى أن ذلك السبب هو بحد ذاته كفيل بحرمانه من دخول الاختبار!

فتدخل المدرب عمر متسائلا:

- كنت قد وافقتك الرأي على عدم تأهل علاء الكافي للترشح لاختبار الارتقاء، رغم ما ذكره المدرب جهاد عن حادثة تصديه لعصابة فاتك، فبرأيي إن ذلك الحادث وما نجم عنه من استخدام علاء لمهاراته التي تعلمها في المدرسة بكفاءة

لا بأس بها كفيل بزيادة فرصته للترشح للاختبار القادم، ولكنني مع ذلك أرى أنها لم تكن كافية، أما أن تقول أن ذلك كفيل بحرمانه من الترشيح، فهذا لم أفهمه مطلقا!! هلا وضحت لنا الأمر أكثر؟؟

فأجابه ثابت بثقة:

- ألا ترى أن تفريطه بذلك المبلغ من المال كفيل بذلك؟

ثم التفت نحو المدرب جهاد:

- مع احترامي الشديد للمدير شامل، إلا أنني أرى أن تعويضه لذلك المبلغ المفقود لن يحل المشكلة، بل سيزيدها تعقيداً، خاصة إذا ذيلنا ذلك بقرار الترشيح المفاجئ!! لا أدري بعدها كيف سنتوقع من الطلبة تقدير معنى تحمل الأمانة والمسؤولية على هذا النحو! وإذا كان قد تم التهاون في قبول علاء في مرتبة همام بداية، فهذا لا يعني التهاون فيما يلي ذلك!!

عندها لمعت عينا المدرب علي ببريق خاطف، قبل أن يوجه حديثه لثابت خارجا عن صمته أخيرا:

- وماذا لو قام علاء بتعويض ذلك المبلغ ونجح في المهمة؟

فرمقه ثابت بنظرات متشككة:

- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟؟

لكن سعد الذي فهم ما يرمي إليه المدرب علي، بادره بقوله:

- هل كنت يا ثابت ستقول كلامك هذا لو أن علاء استطاع القضاء على عصابة فاتك، ونجح في إيصال المبلغ كاملا كما طُلب منه؟؟

استطاع ثابت أخيرا فهم ما وراء ذلك الكلام، فأجاب بحذر:

- لو افترضنا جدلا حدوث ذلك – رغم استحالته – لكان للحديث شأن آخر بلا شك!

عندها قال المدرب جهاد:

- مهما اختلفنا في الآراء فهدفنا واحد، وإن كنا سنصل إليه في النهاية بطرق مختلفة، لذا دعونا نتفق مجددا على هدف اختبار الارتقاء الأساسي قبل أن نخرج بقرار نهائي من هذا الاجتماع الذي طال أكثر من المتوقع..

ثم قلب ناظريه بين المدربين-الذين تحلقوا حوله قبل أن يستقر نظره على ثابت الذي بادره قائلا:

- هدفه بلا شك أن يحدد مستويات الطلبة ويبرز قدراتهم التي تؤهلهم لخوض تدريبات ذات مستوى أعلى، وكنا قد اتفقنا على قواعد أساسية نرشح من خلالها الطلبة لخوض غمار هذه الاختبارات حتى لا نعرضهم لمخاطر لا داعي لها، انطلاقا من سُنّة التدريج في الأمور، أليس كذلك؟

فأكد المدرب جهاد كلامه بقوله:

- أجل هذا صحيح، ومن هذا المنطلق جعلنا قواعد الترشيح تعتمد على تقييم المدربين للطالب أثناء التدريبات، ومدى إتقانه لها، واستعداده لخوض مهارات ذات مستوى أعلى، هذا طبعا بما يخص علم الجلاد..

والتقط المدرب جهاد نفسا قبل أن يتابع كلامه:

- فإذا تحقق ذلك من خلال اجتيازه الحدود الدنيا للتقييم في أربع مهارات من أصل خمسة اتفقنا على ترشيح الطالب لاختبار الارتقاء، اذ ان هدفنا ابتغاء مرضاة الله قبل كل شيء، من دون تشدد أو محاباة، لتقديم فرسان صناديد ينهضون بهذه الأمة..

صمت جهاد هنيهة، خيم خلالها الصمت على الجميع للحظات قبل أن يستأنف جهاد كلامه قائلا:

- وهذا ما حدث مع المرشحين الثلاثة: حسان وياسر وأصيل، رغم أن تقييمي لعلاء في المبارزة، وتقييم المدرب علي له في المطاعنة بالرماح كان سيرشحه لخوض

الاختبار بدرجة كبيرة، هذا بالإضافة إلى تقييم المدرب سعد الجيد له في الرماية، لكنني احترمت تقييم المدرب ثابت والمدرب عمر، ولم أناقش أحدا منهما في ذلك الموضوع، لكن ما حدث البارحة جعل من واجبي التحدث إليكم بهذا الشأن من جديد، فقد حقق علاء الهدف من الترشح كما أرى، مع اقتناعي بوجهة نظر المدرب ثابت حول أهمية الحفاظ على الأمانة، وتحمل المسؤولية تجاهها.. علما بأن موافقتكم على ترشحه لاختبار الارتقاء لا يعني انتقاله إلى مرتبة مقدام كما تعلمون!! وان اقتراحي هذا يستند على فهمي لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ عندما أجاز غلاما لمعركة بدر بعد أن كان قد رده لصغر سنه، فقط من أجل ما أخبره به الغلام من أنه يستطيع أن يصرع الغلام الذي أجازه الرسول صلى الله عليه وسلم قبله، وقد صرعه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل..

خيم على الجلسة صمت جديد قبل أن يقطعه المدرب علي بكلام متزن، يستعرض من خلاله خلاصة ما حدث:

- لقد كان الاعتراض الوحيد على ترشح علاء لاختبار الارتقاء هو عدم إثباته لمقدرته على التأهل بما يكفي من خلال حادثة الأمس، إذ إن إضاعته لذلك المال لم يكن لصالحه مطلقا، فهل هناك ما يمنع من ترشحه مجددا إن نجح بتعويض المال وإتمام المهمة؟؟

أطرق معظم المدربين رؤوسهم مفكرين قبل أن يتبادلوا النظرات المستفهمة، لتستقر عيونهم جميعا على المدرب ثابت الذي افترّت شفتاه عن ابتسامة صغيرة بدوره:

- يبدو أنني المعارض الوحيد المتوقع بنظركم، حسنا سأوافق على هذا شريطة أن لا يقوم المدير شامل أو أي واحد من المدربين بتغطية ذلك المبلغ المفقود، وأن تتم المهمة قبل موعد الاختبار بيوم على الأقل؛ حتى يتسنى لنا النظر في أمره مجددا، أي في غضون عشرة أيام فقط!

عندها تهلل وجه المدرب جهاد، وهو يؤكد كلامه:

- ولن أتنازل بدوري عن هذا الشرط، فإما أن يثبت علاء جدارته بهذه الفرصة وإلا فلا..

ثم قلب نظره بين المدربين من جديد، ليلمح علامات الرضا عن هذا القرار تزين وجوههم، فختم الحديث بقوله:

- إذن اتفقنا، وسأرفع هذا القرار إلى المدير شامل اليوم، إن شاء الله..

وفض الاجتماع مع كفارة المجلس:

- سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك..

***

علت أصوات انفعالات كثيرة من قاعة درس المستوى السادس، رغم انتهاء دروس علم الجدال لذلك اليوم، مما أثار فضول نضال الذي كان متجها مع زياد نحو ساحة المدرسة، فعلق بقوله:

- كأنني أسمع صوت أصيل في الداخل!! يبدو أن أمرا مثيرا يحدث في تلك القاعة، فليس من عادته أن يتأخر عن مغادرة قاعة الدرس!! دعنا نرى ماذا لديهم..

بدا التبرم واضحا على وجه زياد وهو يرد عليه قائلا:

- متى ستضع حدا لفضولك هذا؟!!

لكن نضال الذي اقتحم تلك القاعة بالفعل، لم يكن منتبها لجملته تلك ليرد عليها بحججه الجاهزة كالعادة، ووجد زياد نفسه محرجا أمام عيون طلبة المستوى السادس الملتفتة إليهم، بعد أن قطع نضال حديثهم بدخوله عليهم مسلما:

- ماذا لديكم يا شباب؟؟ يبدو أمرا مثيرا للاهتمام ؟؟

وبالطبع كان أصيل أول من يرد عليه:

- هذه أمور تخص الكبار وحدهم، فلا تقحم نفسك فيها يا ولد!

بدا نضال مستعدا للمناورة لكن زياد أسرع بتفويت تلك الفرصة عليه قائلا:

- نعتذر عن هذه المقاطعة...

لكن حسام- الذي أدرك بحدسه مقدار حرج زياد- قاطعه مرحبا:

- دع عنك هذه التكلفة، فأنت تعرف أن أصيل يمزح فقط! وقد صدق ظن نضال إذ حدثت أمور مثيرة بالفعل، ألا تريد أن تعرفها؟؟

عندها هتف نضال بحماسة:

- يا ليت الجميع يتفهمون الأمور مثلك يا حسام، أنت فعلا القدوة التي تستحق الإتباع، ليس في الرماية وحسب؛ بل في أمور كثيرة غيرها..

فاحمر وجه حسام، قبل أن يعلق باسما:

- ليس إلى هذه الدرجة، وإلا غيرت رأيي واقتنعت برأي أصيل!

فأسرع نضال يقول بلهجة متوسلة:

- إلا هذه.. أرجوك، إنني أعتذر.. وأقر واعترف أنني مخطئ فلا أحد يستحق الإتباع سوى الرسول صلى الله عليه وسلم..

وانطلقت الضحكات المتباينة من الجميع وهم يرددون الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قال أصيل- بصعوبة- وهو يحاول إيقاف نفسه عن الضحك:

- ألهذه الدرجة ترعبك آرائي العظيمة!! خيبت أملي أيها الهمام!

فرد نضال بتحد وقد بدا أنه نسي الموضوع الذي جاء من أجله:

- أتمنى أن لا تخيب آمال الجميع وتظل هماما فقط بعد اختبار الارتقاء القادم!

فأجابه أصيل بمرح:

- عندها سأدرك كم كنت تتمنى أن أبقى إلى جانبك يا صغيري!

وهم نضال أن يقول شيئا، لولا تدخل طلال، الذي قال بلهجة تشير إلى إنهاء الحديث:

- ألا تريد معرفة الأمر المثير الذي دخلت من أجله؟

فابتسم نضال:

- يبدو أنني نسيت هذا يا أستاذ طلال! أرجو المعذرة..

فتابع حسام بجملة مقتضبة:

- لقد واجه علاء أمس عصابة فاتك!

فشهق نضال وزياد معا، وهما يلتفتان نحو علاء:

- فاتك!!

وانهمرت الأسئلة والاستفسارات كالمطر على رأس علاء من جديد، خاصة وأن أصدقاءه لم يعلموا ببقية التفاصيل بعد، حتى قال:

- صدقوني لم يكن الموضوع يستحق كل هذا الاهتمام، رغم أن ذلك الوغد نجح بسرقة محفظة النقود!!

بدا الإعجاب واضحا على وجه نضال ونبرة صوته، وهو يقول بثقة:

- أنت بطل حقيقي يا علاء، لو كنت مكان المدربين لرشحتك فورا لرتبة صنديد، وليس لاختبار ارتقاء مقدام وحسب!

ولم يملك علاء إلا أن يقول مبتسما:

- رغم أنها مبالغة، إلا أنني أشكرك على هذا التشجيع، جزاك الله خيرا..

فرد نضال بجزم:

- صدقني لم تكن مبالغة أبدا، أنت لم تسمع ما يشاع عن فاتك وعصابته، لقد أصبحوا مصدر ذعر في الآونة الأخيرة..

وعند ذكر هذه الملاحظة؛ تبادل زيد ومعاذ نظرات ذات مغزى، قبل أن يضيف زيد:

- لقد لطف الله بتلك الفتاة إذ لم تكن في ذلك المكان..

فتساءل حسان باهتمام:

- اشتمّ حدثا مثيرا من بين كلماتكما، ترى ماذا حدث معكما أنتما أيضا؟

فضحك معاذ:

- يبدو أن الأمس كان حافلا بالمغامرات المثيرة..

وقبل أن يضيف أي من الموجودين كلمة أخرى، ارتفع صوت أذان الظهر، ليعلن انفضاض تلك الجلسة..

***

انقضت صلاة الظهر وانزوى الطبيب يحيى مع الشيخ عبد الرحيم في إحدى زوايا جامع الفتح، ليطمئن على الفتاة..

طأطأ الطبيب رأسه متفهما:

- بناء على ما ذكرته من أعراض، لا أظنها فاقدة لذاكرتها بالقدر الذي تحاول فيه إخفاء هويتها، وعلى الأغلب.. إنها تعاني من مشاكل نفسية مع عائلتها..

صمت قليلا قبل أن يتابع:

- أو عاطفية.. وهذا الذي يدفعها لفعل ذلك لا أكثر..

تنهد الشيخ عبد الرحيم:

- إنها مسؤولية كبيرة، والله المستعان..

وفي الجانب الآخر من الجامع حيث يقع منزل الشيخ عبد الرحيم، كانت السيدة رغدة وبناتها يبذلن جهدهن لإخراج تلك الفتاة عن صمتها، فمنذ أن استقر الخاتم في أصبعها لم تنبس بكلمة واحدة، ولم يكن الوضع مقلقا في البداية إذ سرعان ما غطت في نوم عميق، لكن الأمور لم تعد على ذلك النحو، فمنذ استيقاظها في الصباح الباكر وهي تبدو شاردة الذهن، حتى أن أحدا لم يعرف اسمها بعد!!

***

كان طلال يجلس قرب علاء تحت الشجرة الكبيرة التي اعتادا الدراسة تحتها، وهو يحاول تبسيط لغة سومار لعلاء، الذي لم يكن يعرف منها شيئا قبل مجيئه للمدرسة، فرفع علاء رأسه المثقل فجأة يتأمل السماء التي بدأت تتلون باللون البرتقالي، إيذانا بقرب الغروب، محاولا إقناع طلال بالتوقف عن شرح المزيد من قواعد تلك اللغة الغريبة عليه:

- علينا أن نتجهز للإفطار..

لكن طلال رد بحزم:

- لا يزال لدينا بعض الوقت، نستطيع إنهاء ثلاث قواعد على الأقل..

بدا التذمر واضحا في نبرة علاء وهو يقول:

- يا لهذه اللغة المعقدة، ألا تكفينا لغة رامان؟

فأجابه طلال بنوع من التفهم:

- في الحقيقة يا علاء لغة سومار أسهل بكثير، لكنك لم تعتد عليها، هذا كل ما في الأمر!

فقال علاء بامتعاض:

- وما ذنبي إن لم نأخذها في مدارسنا في منطقة المروج الخضراء؟

حاول طلال أن يكون أكثر تفهما لحال علاء وهو يحاول تشجيعه بقوله:

- لا تتذمر كثيرا يا صديقي، فأنت تتعلم بشكل جيد وسريع، ما شاء الله، وقد قطعتَ شوطا كبيرا في مدة قصيرة، أتقنت خلالها دراسة الحروف والمبادئ الأساسية للغة، وأتوقع أن تتقن اللغة في غضون شهرين أو أقل بإذن الله..

انتبه علاء لنفسه، فاستدرك قائلا:

- معك حق، الحمد لله دائما..

ثم استطرد:

- إنني أتساءل وحسب، لماذا ندرس هذه اللغة أيضا، هل هي ضرورية إلى هذا الحد؟

لم يجد طلال بدا من التوقف عن متابعة الشرح، لعل حواره مع علاء يثمر بشكل أفضل، فأجابه قائلا:

- إنها تأتي في المرتبة الثانية على مستوى العالم بعد لغة رامان..

فعلق علاء:

- حسنا ولماذا نتعب أنفسنا بها، ألا تكفينا لغة رامان؟

فأجابه طلال بما ينم عن حكمة كبيرة:

- لا تنس أنك في منطقة الجبال حيث يكثر التعامل مع سومار، وهناك اتفاقيات كثيرة بينهما..

هز علاء رأسه متفهما:

- هذا صحيح، فأهالي سومار ينتشرون هنا بكثرة..

ولاحت لعلاء صورة تلك العربة الغريبة على الحدود، قبل أن يتابع:

- هل تعلم يا طلال بأنهم يُعاملون باحترام زائد أكثر منا نحن!!

فرد طلال ببرود:

- هذا بديهي يا صديقي!

أما علاء الذي فوجئ بذلك الرد، فقد علق مستفهما:

- عجيب أمرك يا طلال!! ما البديهي في هذا؟؟ ألسنا الأولى ببلادنا؟؟

علت لهجة طلال حسرة خفيفة وهو يقول:

- وما العجيب في هذا يا علاء!!

ثم تابع بنبرة تحوي نوعا من السخرية:

- ألا ترى أنهم على قدر كبير من الكفاءة إذ يتسلمون معظم شؤون المنطقة ويشرفون عليها! حتى أنهم أشرفوا على تدريب جنودنا في المدارس الحربية!!

شهق علاء:

- حقا!!

ولم يملك بعد ذلك إلا أن يصرخ بغضب:

- ألهذه الدرجة من الذلة والهوان وصلنا !! أيكون مصير باقي المدن مثل مدينة شمس!!

لكن طلال تابع حديثه بهدوء:

- يريدون السيطرة الكاملة على فكرنا وعقولنا وتجريدنا التام من هويتنا، لا سيما وأن معظمنا اعتاد الكسل ورضي بالهوان، و هو مستعد لرفع راية الاستسلام بسرعة أمام أي عقبة تواجهه، دون أن يكلف نفسه عناء الجد والمحاولة والاجتهاد..

احمرت وجنتا علاء، فقد أدرك أن كلمات طلال تحوي في طياتها رسالة مبطنة إليه، في حين اكتفى طلال بالتقاط نفس واحد قبل أن يتابع:

- لكننا مع ذلك سندرس لغتهم بعناية.. أجل يا علاء، لن نتوانى في تعلم علومهم ولغتهم ودراستها، لا للفخر والتباهي بانسلاخنا من هويتنا العريقة، وإنما بنية خالصة لله سبحانه وتعالى، عساها أن تكون سببا في عزة المسلمين بإذن الله، ولعلنا ندرك ما فاتنا من ضياع مجدنا الذي نكتفي بالتغني به والبكاء على أطلاله، وإنما الأعمال بالنيات..

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يسفر فيها طلال عن دواخل فكره العميق الحاذق، لكنها كانت من أكثر المرات التي تركت أثرا كبيرا في نفس علاء شاعرا فيها بضآلة حجمه أمام ذلك الصديق الذي بدا سابقا لعمره بمراحل، ولم يستغرق علاء بأفكاره تلك طويلا، إذ انتبه الى صوت حسام يهتف باسمه وهو يجري مسرعا

نحوه، كمن قضى وقتا طويلا بالبحث عن بغيته حتى وجدها أخيرا، وما إن وصل إليهما، حتى التقط أنفاسه بصعوبة وهو يقول مستعجلا:

- المدير شامل يريد رؤيتك حالا يا علاء..

***

ارتفع صوت أذان المغرب وأسرعت الأيادي تمتد إلى أطباق التمر الموضوعة أمامها، ورددت الأفواه:

- اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله..

وأشرفت السيدة رغدة وابنتها جويرية على سكب الحساء الساخن أمام النسوة، اللاتي تحلقن حول المائدة الكبيرة في غرفة استقبال الضيوف الرئيسة في منزل الشيخ عبد الرحيم، أما ميمونة- التي آثرت البقاء إلى جوار تلك الفتاة العنيدة المصرة على الصمت- فلم تكن نظراتها تطرف لحظة واحدة عنها، وهي تتناول لقيمات الإفطار من الطبق الذي وضعته أمامها! كانت عيناها مركزتين عليها في محاولة لاستشفاف ما تحاول تلك الفتاة إخفاءه، فقد طال صمتها وصار الموضوع بالنسبة لميمونة أشبه بالتحدي!

وأخيرا لاح بريق أمل عندما انفرجت شفتا الفتاة لتقول بلهجة حيّية:

- ألن تذهبي لمشاركة ضيوفكم طعام الإفطار؟

تهلل وجه ميمونة بشرا وهي ترد بسعادة ملحوظة تعبر عن فرحة الانتصار:

- لا تقلقي يا عزيزتي، فموائد الإفطار تتكرر كثيرا في منزلنا خلال شهر رمضان، وما يهمني الآن هو أن تكوني بخير يا..

وتوقفت ميمونة برهة في إشارة تحثها على التعريف باسمها على الأقل، وأخيرا قالت الفتاة:

- انتصار.. اسمي انتصار..

كادت ميمونة أن تقفز من الفرحة لهذا الاكتشاف العظيم المبشر بالخير، عبرت عنها بابتسامة فرحة:

- ما شاء الله اسم جميل، ويبشر بالخير الكثير..

أرخت الفتاة عينيها بحياء:

- هذا من لطفك، شكرا لك، إنني فعلا أعتذر عما سببته لكم من قلق وإزعاج..

لكن ميمونة أسرعت تقاطعها بقولها:

- لا تقولي هذا الكلام يا انتصار فأنت أختنا والبيت بيتك، وأرجو أن تعدينا مثل أهلك تماما..

طأطأت انتصار رأسها قليلا واغرورقت عيناها بالدموع مرددة بهمس:

- أهلي!!

أدركت ميمونة مدى المعاناة التي تشعر بها انتصار، دون أن تعرف الطريقة الأمثل للتعامل معها، فهي لا تعرف عنها شيئا بعد، و لم تشأ أن تثقل عليها بالاسئلة أكثر، وانتبهت إلى مرور الوقت فنهضت قائلة:

- سأصلي المغرب..

والتفتت إلى انتصار مترددة؛ هل من الحكمة أن تدعوها للصلاة معها، وهي لا تعرف إن كانت تصلي أم لا، لكنها قالت أخيرا وهي تتجه نحو خزانة قريبة وتفتحها:

- هذه ملابس إضافية للصلاة، وفي تلك الزاوية تقع الميضأة..

وبعد أن ارتدت ملابس الصلاة الخاصة بها ووضعت الأخرى على كرسي قرب السرير الذي تجلس عليه انتصار، فرشت سجادتين باتجاه القبلة وشرعت بالصلاة..

***

كانت الفرحة بسماع ذلك الخبر قد بدأت تنحسر تدريجيا عن علاء، وهو يستعرض الشرط الذي يجب عليه تجاوزه ليتم ترشيحه لخوض اختبار الارتقاء، حتى أنه لم يستطع التركيز في صلاة المغرب، ولم يخف على صديقيه طلال وحسام ملاحظة كل تلك التغيرات، بداية من تلقيه الخبر وحتى هذه اللحظة، ولم يستطع حسام- الذي يفترض به أن يكون منهمكا في مراجعة دروسه- الصبر أكثر، فوضع كتابه جانبا ونهض باتجاه علاء الذي بدا عليه الشرود لأقصى حد وهو يحدق من خلال نافذة الغرفة أمامه إلى لا شيء معين!!

- ما الذي تنوي فعله الآن يا علاء؟ هل توصلت إلى خطة معينة!!

تنهد علاء:

- لا أعلم..

ثم قال بعد صمت:

- تعويض عشرة آلاف قطعة نقدية خلال عشر أيام ليس بالأمر السهل، يبدو أنني سأضطر للبحث عن مخبأ فاتك لأستعيد منه المال بالقوة..

شهق حسام بفزع:

- لا بد أنك تمزح!! أتدرك ما الذي تقوله الآن!!

لكن علاء أجابه بهدوء:

- وهل هناك حل آخر!! سأفعل المستحيل لأحقق هدفي فلا وقت لدي أضيعه، وعليّ أن أبذل جهدي حتى أعود لمدينتي بسرعة..

هز حسام رأسه متفهما:

- أشعر معك يا صديقي ولكن أرجوك لا تتهور، فكر بواقعية أكثر!

وفي تلك الأثناء دخل طلال والمنشفة على رأسه المبتل إثر اغتساله، فسلم عليهما وهو يحمل مظروفا في يده:

- قابلني المشرف عاطف وأنا صاعد إلى الغرفة فناولني هذه الرسالة لك يا علاء..

خفق قلب حسام فرحا، فلعل تلك الرسالة تحمل في طياتها ما يعين صديقه ويحول بينه وبين أفكاره المتهورة، في حين تناول علاء الرسالة وقرأ العنوان المرسلة منه، قبل أن يقول بشيء من عدم الاهتمام:

- إنها من منطقة السهول، لا شك أنها من أولاد المعلم عامر..

فلفت طلال نظره قائلا:

- لكنها تبدو رسالة مختلفة هذه المرة!

بدا الضيق على وجه حسام وهو يقول مخاطبا علاء بلهجة مؤنبة:

- أهذه هي الطريقة التي تستقبل بها رسالة من أصدقائك!!

شعر علاء بالذنب وهو يرد مدافعا عن نفسه:

- أنت تعلم أنني لم أكن بمزاج جيد، وهمي أكبر من..

قاطعه حسام:

- يفترض بمزاجك أن ينعدل حالا باستلامك رسالة من أولئك الأصدقاء الأوفياء مهما تكن!!

ربما لو صدر موقف كهذا من شخص غير حسام لكان لعلاء شأن آخر معه، أبسطه أن ينزعج من تدخله بشؤونه، أما مع حسام فالوضع مختلف تماما، فقد ابتسم علاء متفهما موقف صديقه القلق عليه:

- حسنا لا تغضب، بالتأكيد سينعدل مزاجي حالا..

لكنه بتر عبارته فجأة وهو يلاحظ الختم الخاص على الظرف باستغراب، مما أثار قلق حسام الذي سأله:

- هل هناك شيء غير طبيعي؟

هز علاء كتفه:

- لا أدري ولكنها المرة الأولى التي أستلم فيها رسالة منهم بختم البريد الخاص! طلال على حق، تبدو الرسالة مختلفة هذه المرة!!

فعلق طلال الذي انتهى من تجفيف شعره وتمشيطه، وبدأ بارتداء العمامة أمام المرآة استعدادا لصلاة العشاء:

- أظنها تحمل أخبارا سرية وذات أهمية، فتكاليف البريد الخاص الباهظة الثمن خصصت لضمان سرعة الإيصال وأمانه، من أجل هذا الغرض، رغم أن الرسائل عن طريقهم قد تفتح أحيانا في ظروف معينة بأمر رجال الحاكم، لكنني لم ألحظ أي أثر لذلك في ختم الغلاف..

و رغم انبهار علاء بمعلومات طلال حول هذا الموضوع، الا انه لم يقل شيئا بل شرع حالا بقراءة الرسالة، وأخذت تغيرات حقيقية تعلو ملامح وجهه، مع كل كلمة يقرؤها، لقد تغير مزاجه بالفعل، وبدا الاهتمام واضحا عليه حقيقة دون أي مجاملة أو تمثيل..

***

دخلت ميمونة الى الغرفة التي تجلس فيها انتصار بعد أن ارتدت ملابسها الفضفاضة للخروج، وأحكمت تعديل حجابها، وبعد أن سلمت على انتصار، قالت:

- لدي درس بسيط بعد صلاة التراويح في الجامع، وسأعود بعده إن شاء الله، إن احتجت شيئا فأمي موجودة..

أما انتصار التي فوجئت برؤية ميمونة على ذلك النحو، فقد تساءلت بدهشة كشفت عن بعض أفكارها:

- هل أنت متدينة!!

ابتسمت ميمونة وقد أدركت ما الذي يعنيه هذا السؤال، في حين أسرعت انتصار تعتذر بقولها:

- آسفة لم أقصد..

وبدت مترددة وهي تقول بتلعثم لتبرر سؤالها:

- أقصد أنني فوجئت فقط.. لم أكن أتوقع...

ولم تعد تعرف كيف تكمل الحديث فصمتت، لكن ميمونة أسرعت تخرجها من أزمتها بقولها:

- لا عليك يا عزيزتي، فأنا أفهمك تماما، لا تقلقي..

و تابعت باسمة:

- أعرف ما تفكرين فيه بناء على الفكر السائد بين الناس، المحجبة هكذا متدينة والمتدينة متجهمة..

وأطلقت ميمونة ضحكة خفيفة وهي تقول بمرح:

- وأزيدك من القصيد بيتا والدي هو إمام وخطيب الجامع، أي بناء على تلك الأفكار السائدة، يفترض بنا أن نكون أسرة معقدة..

وغمزتها بعينها باسمة:

- أليس كذلك؟

اكتفت انتصار بابتسامة خفيفة، وقد بدأ يزول عنها الشعور بالغربة، بل وحل محله الارتياح الشديد، ولدهشة ميمونة فوجئت بانتصار تقول لها على حين غرة:

- هل يمكنني حضور الدرس معك في الجامع يا ميمونة؟

وقبل أن ترد ميمونة بشيء استدركت انتصار بسرعة:

- بالطبع سأرتدي حجابا مثلك، إن كان لديك واحد إضافي ولم يكن لديك مانع..

تهلل وجه ميمونة فرحا وهي تهتف بسرور بالغ:

- وهل هذا سؤال يا عزيزتي!! بيتنا بيتك والجامع بيت الله، فمن يملك أن يمنع أحدا من الذهاب إليه!! أما ملابسي وأشيائي فأنت أختي ولك أن تنتقي منها ما تشائين..

وأسرعت باتجاه الخزانة تفتحها قائلة:

- هنا نضع معظم الجلابيب وألبسة الخروج، تعالي وانتقي ما يناسبك..

كانت انتصار ترتدي ملاءة نوم ألبستها إياها السيدة رغدة عندما أحضروها للمنزل، في حين علق ثوبها الثمين بعد أن تم غسله بعناية..

أخذت ميمونة تستعرض أمام انتصار ما قد يناسبها من ملابس، قبل أن يستقر الاختيار على ثوب أخضر طويل، له وشاح من اللون نفسه، فعلقت ميمونة:

- يبدو أنك تحبين اللون الأخضر مثل أختي جويرية..

فابتسمت انتصار:

- من الجيد أنني أشبهكم بشيء على الأقل..

لم تلق ميمونة بالا لتلك الكلمات التي تنم عن معنى عميق، بل قالت مستدركة:

- على ذكر أختي جويرية، إذا رغبت بحضور حلقتها فهي مخصصة للفتيات الكبيرات..

وتابعت بابتسامة ذات معنى:

- ربما تجدين لديها ما يعجبك، خاصة وأنها ستسلك في دروسها هذه المرة مسلكا جديدا، خلافا للنمط السائد في دروس المساجد..

بدت الحماسة على وجه انتصار، وكأنها تهم بخوض مغامرة جديدة لا تمت بصلة لواقعها الذي تعيشه، كمن يدرك تماما أنه في فرصة لن تعوض مرة أخرى يستطيع خلالها تجريب أي شيء دون أي حرج، فمنحت نفسها حرية كاملة؛ لتتجرد قليلا من أسلوب حياتها التي اعتادتها، ولتعيش اللحظة بكل ما فيها من غرابة لم تألفها..

***

قُضيت صلاة التراويح وتحلقت الفتيات حول جويرية بحماسة وهن ينتظرن الجديد الذي ستأتي به كما وعدتهن حول مفهوم الحجاب، وفي رؤوسهن آلاف الأسئلة وآلاف الاستفسارات، خاصة وقد بدأن يجدن في كلامها أسلوبا فريدا لم يألفنه من قبل..

أما انتصار التي ألفت الجو بسرعة فاجأتها هي نفسها، فقد كانت مفاجأتها أكبر- كمفاجأة معظم الفتيات في الحلقة- عندما بدأت جويرية درسها بسؤال:

- هل سمعتن عن "أسطورة جوريا كورفيلاس"؟؟

***

بدا اجتماعا ذا أهمية خاصة قد عقد في غرفة الأصدقاء الثلاثة، فلأول مرة يتأخر طلال وحسام وعلاء عن النوم بعد التراويح..

كانت ملامح القلق مرسومة بوضوح على وجه حسام وهو يقول:

- هل أنت متأكد من أنك لن تُطلع أحدا من الكبار عليها؟ ولا حتى الشيخ عبد الرحيم؟؟

بدا علاء جادا تماما في رده وهو يقول محاولا السيطرة على انفعالات غضبه الشديد:

- حتى الآن لم يثبت صدق هذا الخبر، ولا أريد إثارة ضجة لا داعي لها!!

لكن طلال الذي بدا مستغرقا في تفكيره، قال بتأمل:

- قد يكون كلامك صحيحا نوعا ما، ولكن تأكد بأنه لا ينطبق على الكبار الذين يعنيهم حسام بقوله، فالشيخ عبد الرحيم أو المعلم أمين- مثلا- من الثقات الذين لن يضرك اطلاعهم على هذه الأمور، بل قد يفيدنا رأيهم..

وأكد حسام قول طلال:

- أُقدّر حرصك على إبقاء الأمر سرا، حتى لا تعرض أحدا للخطر، وقد وعدناك بأننا لن نفشي هذا السر أبدا، ولكنني متأكد من أن حذيفة لم يرسل لك هذه الرسالة إلا ليستفاد منها، وما يدريك فقد ينتشر هذا الخبر قريبا هنا، ومن الحكمة أن نكون مستعدين للتصرف الصحيح حياله..

فأضاف طلال بحنكة:

- أو أنك تشك بمصداقية السبب الذي أدى لتعرض سالم ووالده لذلك الموقف، وتخشى أن يساء فهم الموضوع أو يشار إلى أصدقائك ووالدهم بأصابع الاتهام إذا ما حدث شيء ما أو تبين غير ذلك!!

فوجئ علاء بذلك الاستنتاج الذي ذكره طلال ولم يكن يتوقع أن يكون هناك من يستطيع قراءة دخيلة نفسه بهذا الوضوح، الذي قد يخطئ هو نفسه بالتعبير

عنه!! فآثر الصمت وهو يطأطئ رأسه مفكرا - وقد بدأت موجات الغضب التي اعترته جراء ما ورد في الرسالة تهدأ قليلا- قبل أن يفاجئه طلال بطلبه:

- هل لي أن أقرأ الرسالة بنفسي يا علاء، إن سمحت؟

كانت الرسالة لا تزال بين أصابع علاء المتشبثة بها بقوة وقد كان يهم بإعادة قراءتها للمرة السابعة، لكنه لم يستطع رفض طلب طلال الذي كرره للمرة الثانية:

- أعرف يا علاء أنك لولا الانفعالات التي صدرت عنك أول مرة بشأن الرسالة وأنت تقرؤها لفضّلت أن لا تخبرنا بها، لقد كنت منفعلا وقتها؛ لدرجة أنك لم تستطع إخفاء ذلك الموضوع عنا، لا سيما وأنها تلامس مواضيع حساسة جدا، وبالطبع لم تكن انفعالاتنا وقتها بأقل منك وأنت تحدثنا عن تلك الوثيقة حتى أننا تأخرنا جميعنا عن صلاة العشاء، ولكنني اؤكد لك- كما قال لك حسام- أن يبقى الأمر سرا بيننا كما وعدناك، فثق بي يا صديقي، فربما يكون الأمر أكبر مما تدركه عقولنا أو مما قد نتصوره جميعا ..

لم يترك طلال لعلاء مجالا آخر. فما كان من علاء إلا أن ناوله الرسالة معتذرا:

- أرجو أن لا تسيء فهمي يا صديقي، ولكنني لا أريد أن يظن الآخرون أنني لمجرد كوني ابن القائد نور الدين....

وبتر علاء عبارته.. فقال طلال بحزم:

- نور الدين هو قائدنا جميعا..

تأثر علاء بتلك النبرة القوية في صوت طلال، وهو يشدد على كلماته، وبدا الارتياح على وجه حسام الذي شعر بأن موقف طلال على وشك أن يؤتي أكله، في حين شرع طلال بقراءة الرسالة بتمعن شديد ليستوثق بنفسه مدى ضرورة إخبار أحد من الكبار بها:

"صديقي العزيز علاء، أعتذر منك لأننا لم نتمكن من الكتابة اليك مؤخرا، أو الرد على رسالتك الأخيرة التي سررنا بها كثيرا، حتى يمان ابتهج كثيرا بقراءة

رسالتك وسر بها سرورا لا يوصف، خاصة عندما أرسلت له سلاما خاصا باسمه، رغم أنه كان محبطا بسبب الظروف التي مررنا بها، والتي كانت سبب تأخرنا عن الرد اليك، و سأجازف بتحديثك عنها في هذه الرسالة -باختصار- رغم ما في ذلك من مخاطرة..

قبل كل شيء نهنئك بقدوم شهر رمضان المبارك، ونشكرك على تهنئتك اللطيفة التي سبقتنا بها، وأنك ما زلت تذكرنا رغم دروسك وواجباتك الكثيرة في مدرسة النصر. في الحقيقة لا أعرف من أين أبدأ ولكنني سأحاول أن أوضح لك الصورة قدر المستطاع..

لقد طرأت تغيرات كثيرة في منطقة السهول؛ بعد أن ذاع خبر وثيقة سرية بدأ صداها ينتشر كالنار في الهشيم، يقال أن وراءها رجلاً من أتباع القائد نور الدين، ويقال أنها مجرد قصة اخترعها شباب متطرفون، وقيل غير ذلك.. و مهما كان الدافع وراءها لكنها نجحت في تغيير تفكير كثير من الناس حول أوضاع الأمة الراهنة، حيث انطلقت دعوات مختلفة تؤكد على ضرورة توحيد أبناء الأمة الإسلامية تحت راية واحدة وإعادة عهد الخلافة قبل فوات الأوان، فجميعنا في سفينة واحدة، إن غرقت فسنغرق جميعنا، فقد نصت الوثيقة على معلومات خطيرة، استطعت نسخ بعض الأجزاء منها قبل أن يمنع تداولها ونشرها وتغلق دار الأخبار التي أذاعت نبأها، ورغم أن (جُدر الأخبار) المتنوعة لم تعد تذكر عنها شيئا، لكن آثارها لم تزل موجودة. لن أطيل عليك، وهذا نص الخبر- كما ذكر أول مرة- وقد قمت بنسخه لك كما ورد دون أي تغيير:

استطاع رجال نور الدين مهاجمة ثكنة عسكرية تابعة لجيوش رامان، تعد من أهم المراكز التي تدعم الوحدات العسكرية المنتشرة في المروج الخضراء، بل والمركز الرئيس الذي يرتبط بمركز القيادة في رامان مباشرة، وقد استطاعوا الحصول على وثائق مختلفة بما فيها وثيقة معاهدة سيباكوس السرية وهي تعد من أخطر الوثائق على الإطلاق، وقد تبين أنهم حصلوا على وثيقة أصلية تعد واحدة من النسخ الثلاث الأصلية لهذه المعاهدة، فجن جنون رامان لذلك، وثاروا بكامل إمكاناتهم

لاستعادتها قبل أن تتم إشاعتها، غير أن أحد رجال نور الدين استطاع الفرار بالوثيقة، وقد استطعنا الإطلاع عليها بطرقنا الخاصة وتم التأكد من كون توقيعات الشهود الستة على هذه الوثيقة حقيقية، فهم من كبار المسؤولين في مملكتي رامان وسومار، وهذا نص الوثيقة:

بعد إبرام المعاهدة بين المملكتين العظيمتين رامان وسومار، في اليوم السادس من مقتل الخليفة عبد السلام أوروج، وإعلان نهاية الخلافة الإسلامية اثر نجاح المكيدة التي دبرت له بالتعاون مع عملاء سيباكوس المخلصين، كان لا بد لنا من التأكيد على البنود الاتية:

- على كل مملكة الحفاظ على قسمتها من التركة، بطريقتها الخاصة حتى لا تقوم قائمة للخلافة الإسلامية من جديد، مع اتباع الخطوات المتفق عليها في (مكيدة سيباكوس) لتقسيم بلاد المسلمين إلى مناطق مستقلة والتي تعد الخطوة الرئيسة في تنفيذ الغاية الكبرى.
- الالتزام الذي تعهدت به مملكة رامان لشورال، تتحمل تبعاته رامان بهجوم عسكري مباشر، في حين تتكفل سومار بالدعم اللازم إن تطلب الأمر.
- بعد أن يتم إعلان إقامة مملكة شورال على أراضي منطقة المروج الخضراء، سيتم التوسع باتجاه الغرب أولاً، حيث ستمتد تلك المملكة الوليدة لتشمل المناطق الإسلامية الواقعة بين بحر شيلاس الغربي شرقا وبحر العيون الدافئة غربا، بما في ذلك المسار (ج) الذي سيسهل السيطرة عليه، إن تم تنفيذ المخطط بالطريقة المتفق عليها (طويلة المدى)..
- حصانة "البيش" من المعيقات التي تحول دون تحقيق الغاية، على أن تنعم ذريته من بعده بالقداسة و الأمان..

وعلى ذلك تم التوقيع بحضور الشهود

لوبر كينثيس، صوغين شغيهاك، سنعولا كيبتاس، لامسان جيكيس، نيفيقيم شولانيكيم، غوبونال لابيداف.

إلى هنا كان الجزء المنشور من الخبر، و لا أعلم إن كانت هذه الأخبار برمتها قد وصلت إلى منطقة الجبال أم لا ولكنني رأيت أن أرسلها إليك لعلها تفيدك، خاصة وأننا تعاهدنا على العمل جاهدين من أجل تحقيق أهدافنا في وحدة الأمة ونهضتها، لذا حرصت على نسخ الخبر لك كما هو قدر الاستطاعة، لعلك تدرك منه ما لم أدركه، وإنني استطيع تخيل وقع خبر كهذا عليك وأنت ابن القائد نور الدين الناشئ في المروج الخضراء، ولكنني لا أعرف مدى قدرتك على أن تتخيل أثر خبر كهذا على الناس هنا في منطقة السهول، فقد ثارت ثائرتهم بشكل غير متوقع، على الأقل بالنسبة لرجال الحاكم، فبدؤوا بشن هجماتهم على أي تجمع يشتبه به، خاصة وقد ازداد عدد الشباب المنادين بضرورة إتاحة الفرصة لهم للاطلاع على الوثيقة والتحقق منها بأنفسهم، بعد أن بدؤوا يشكون بأن تكون وراء ما يعانون من إحباط، بسبب انتشار الفقر وعدم قدرة الكثيرين منهم على مزاولة أعمالهم بحرية، وبالطبع يا صديقي لم ننج نحن أيضا من هذه المشاكل؛ إذ اقتيد أبي للتحقيق معه بعد أن اشتبه بكونه ممن يثيرون في الناس الحمية و الغضب تجاه تلك الوثيقة، حتى أخي سالم، لم يسلم من المساءلات التي غاب أثرها ما يقارب الأسبوع عن المنزل، و لك أن تتخيل حال أمي تجاه هذه الأحداث مجتمعة؛ لذا لم تتح لنا فرصة مراسلتك، خاصة وأنني لم أشأ أن اشغل بالك أكثر علينا، أما الآن- فبحمد الله- هدأت الأوضاع في منزلنا على الأقل؛ فقد أُفرج عن أبي وأخي، وان كانا ما يزالان في عداد المشبوهين. هذه أخبارنا، ولكننا على العهد إن شاء الله، ذلك العهد الذي قطعناه على أنفسنا قبل أن تسافر يا علاء، بعد أن أوقدت فينا روح الحماسة. لذا أرجو منك أن لا تنسانا من رسائلك وأخبارك الرائعة، وسلامي لأصدقائك وجميع الفرسان في مدرسة النصر.

صديقك المخلص: حذيفة عامر

طوى طلال الرسالة وناولها لعلاء الذي كان متلهفا لسماع أي تعليق جديد من طلال بعد قراءته للرسالة لكنه فوجئ به يقول:

- لن نستطيع فعل شيء في الوقت الراهن تجاه هذه الأخبار سوى أن نسلمها لمن يمكنه أن يستفيد منها بطريقته، فمهما يكن نظل نحن جاهلين بهذه الأمور ولا خبرة كافية لدينا بمواضيع الوثائق، وما نصت عليه من بنود، لذا أرى أنه من الأفضل أن تُطلع عليها أحدا يستطيع ان يتحمل مسؤوليتها..

وأيد حسام كلامه:

- صدقني يا علاء لن تخسر شيئا لو أريتها للشيخ عبد الرحيم على الأقل، بل إنني أخشى أن نندم كثيرا لو تجاهلت هذه الخطوة، فللكبار آراء وخبرات لا يستهان بها..

استغرق علاء بتفكير عميق، قبل أن يفاجئه طلال بقوله:

- يبدو أنك نسيت موضوع الترشح لاختبار الارتقاء تماما، ألم تفكر بطريقة تعيد بها النقود بعد؟؟

ضرب علاء جبهته بيده:

- لقد نسيته بالفعل!! يبدو أنك على حق، علي تسليم هذه الرسالة لمن يستطيع أن يتحمل مسؤوليتها، وسأعرضها غدا بعد صلاة الفجر على الشيخ عبد الرحيم إن شاء الله..

تنهد حسام بارتياح، كمن يزيح عبئا ثقيلا عن كاهله:

- الحمد لله، الآن أستطيع النوم ملء أجفاني.. تصبحون على خير يا أصحاب، لقد تأخر الوقت كثيرا وأخشى أن لا نستطيع القيام على السحور..

قالها وهو ينفض فراشه، ليغط بعدها في نوم عميق خلال لحظات معدودة بمجرد أن أنهى قراءة الاخلاص و المعوذتين ودعاء النوم..

***

تسللت أشعة شمس الصباح باستحياء من تحت طيات الستارة الزرقاء، لتوقظ انتصار بلطف.. فتحت عينيها تتأمل المكان من حولها من جديد، يبدو أنها ما زالت تعيش لحظات هذا الواقع الذي بدى لها كحلم جميل في منزل الشيخ عبد الرحيم؛ فالسيدة رغدة بحنانها المتدفق، وميمونة بصحبتها اللطيفة، وجويرية التي أبهرها درسها ليلة أمس..

أحقا هكذا هو الاسلام!!

ودارت بخلدها كلمات جويرية من جديد:

- لم يأت الإسلام ليحرمنا السعادة، بل جاء ليعلمنا كيف نعيشها حقيقة، فكان فرض الحجاب إحدى طرق نشر هذه السعادة..

وأخذت صور النقاش تجول في خاطر انتصار من جديد، وقد بدأت همهمات الفتيات تعلو في الحلقة:

- الحجاب سبب للسعادة!!

- كيف يكون سببا للسعادة وهو يضيق علينا حرياتنا!!

فما كان من جويرية إلا أن ابتسمت لهن قائلة:

- سنتابع النقاش في المرة القادمة بعد أن تقرأن الأسطورة، فسيكون لكلامنا طابع مختلف وقتها إن شاء الله..

وتلفتت انتصار حولها تستطلع أرجاء الغرفة المرتبة بعناية وبساطة في الوقت ذاته، لعلها تجد نسخة للأسطورة فوق الطاولة المستديرة، أو على أحد الكراسي، أو فوق حافة السرير، فقد وعدتها جويرية أمس أن تحضر لها واحدة بعد أن أخذت الفتيات ما لديها من نُسخ، وقد غاب عن بالها أن تبقي واحدة، لولا أن ذكرت انتصار لها ذلك فيما بعد..

طرق الباب ثلاث طرقات قبل أن تنتبه انتصار لذلك الصوت، وما لبث أن فتح الباب بهدوء لتطل منه ميمونة التي فوجئت برؤية انتصار واقفة أمامها، فاعتذرت وحيتها قائلة:

- السلام عليكم، ظننتك لا تزالين نائمة؛ لذا دخلت لأطمئن عليك وحسب عندما لم يجبني أحد..

فابتسمت انتصار مطَمْئنة:

- لا عليك، لقد استيقظت قبل قليل، ولكنني كنت غارقة في أفكاري على ما يبدو..

ثم استدركت قائلة:

- بالمناسبة هل وجدت جويرية نسخة إضافية من الأسطورة؟ لقد أثارت فضولي نحوها ليلة أمس!

هزت ميمونة رأسها إيجابا، وقد سرها ذلك الاهتمام من انتصار:

- لقد أرسلت لخطيبها وحدثته بذلك بعد صلاة الفجر، وقد أرسل إليها يخبرها بأنه سيرسل لها نسخة اليوم إن شاء الله..

لم تتوقع ميمونة أن تلك الجملة ستفتح آفاقا أخرى من الحديث، إذ بدت الدهشة على وجه انتصار وهي تسألها باستغراب:

- هل قلت حدثت خطيبها؟

أومأت ميمونة برأسها إيجابا:

- أجل، هل هناك شيء غريب!

علت حمرة الخجل وجه انتصار فأسرعت تعتذر مبررة:

- أرجو المعذرة على أسئلتي، ولكن أرجو أن تتفهمي موقفي، فهذه أول مرة أتعامل فيها مع أناس متدينين، وأظنك لاحظت ذلك، لذا تبدو لي الأشياء غريبة، أو بالمعنى الأصح أحاول أن أفهم أكثر عن حياتكم، فلي سبب وجيه في ذلك..

وبدت الكلمات قد خذلت انتصار، فلم تعد تعرف كيف تعبر عما يجول بخاطرها، لكن ميمونة أسعفتها بقولها مشجعة:

- بالطبع أفهمك يا عزيزتي، فاسألي عن أي شيء تريدينه بلا حرج، وبدوري سأكون صريحة معك فلا تقلقي، ألم نصبح صديقتين!!

ومدّت ميمونة يدها نحو انتصار باسمة، فمدت انتصار يدها وتصافحت الفتاتان في حركة توثق علاقة الصداقة الجديدة التي جمعتهما، وجلست ميمونة على المقعد أمام الطاولة المستديرة، بعد أن فتحت الستارة كاملة لتسمح لأشعة الشمس بأن تملأ الغرفة ضياء، مخاطبة انتصار:

- هيا اجلسي يا عزيزتي لأحدثك..

فجلست انتصار على المقعد المقابل لها شاكرة:

- في الحقيقة يا ميمونة، أشعرتني وكأنني أعرفك منذ زمن طويل، لقد سعدت كثيرا بصحبتك، فشكرا لك على كل شيء..

فأطلقت ميمونة ضحكة خفيفة تواري فيها حرجها من ذلك المديح:

- لا داعي لكل هذه المجاملات يا صديقتي، فالمشاعر متبادلة والتوفيق من الله..

فعلقت انتصار:

- لقد أعجبتني فيكن هذه الروح التي تذكرن الله فيها في كل مناسبة، أنتن طيبات جدا..

لم تجد ميمونة مفراً من حصار المدائح تلك، وهي تقول:

- هذا من فضل الله وحده، والآن ألا تريدين أن نكمل الحديث..

فضحكت انتصار:

- حسنا لن أُخجل تواضعك أكثر!

فشاركتها ميمونة ضحكتها:

- ليس إلى هذه الدرجة..

ثم قالت:

- لقد سألتيني عن جويرية وخطيبها، لا أعرف ما هي الفكرة التي تجول بخاطرك عن هذا الموضوع، لكن نكاحها قد عقد على معلم يدرّس لغة العرب في مدرسة النصر للفروسية قبل أربعة أشهر تقريبا، وقد تأخر الزفاف بسبب بعض الظروف على أن يتم بعد رمضان إن شاء الله..

واستطردت ميمونة:

- بالطبع، وأنت مدعوة من الآن إن شاء الله..

فابتسمت انتصار:

- شكرا للدعوة اللطيفة، التي أتمنى تلبيتها ويشرفني ذلك..

ثم صمتت قبل أن تقول:

- هل يمكنك أن تحدثيني عن طبيعة العلاقة بين جويرية وخطيبها؟ أقصد كيف يتعاملون مع بعضهم البعض؟!!

فكرت ميمونة قليلا قبل أن تقول:

- حسنا دعينا نعود إلى البداية، فقد تقدم خطيبها طالبا يدها من والدي الذي يعرفه تماما، فهو مدرس معروف في مدرسة النصر، ومن رواد المسجد وقد درّس أخي أيضا، و الحمد لله ظهر التكافؤ بين العائلتين، وكانت مطالبه واضحة تماما؛ فهو يريد زوجة تشاركه هدفه وتعينه على نشر التصور الصحيح للإسلام في المجتمع، حتى ينشأ جيل صالح و تنهض الأمة من جديد بإذن الله، وذلك ابتغاء

لرضا الله قبل كل شيء، وتبليغا لرسالة الحبيب صلى الله عليه وسلم، وهكذا تمت الموافقة المبدئية، حتى إذا ما زارنا مع أهله وجلس معها، ظهر القبول من الطرفين..

وصمتت ميمونة وهي تبحث عن شيء يمكنها أن تضيفه، قبل أن تقول:

- بالطبع يأتي لزيارتنا بين الحين والآخر..

وقبل أن تضيف كلمة أخرى، طرق الباب ودخلت جويرية مسلمة:

- الحمد لله لقد وصلت النسخة أخيرا..

ثم انتبهت إلى انها قد قطعت حديثهما، فبترت جملتها:

- أعتذر على المقاطعة، هل كنتما تتحدثان في موضوع خاص؟

فالتقت نظرات الفتاتين، وعلت البسمة وجهيهما، في حين قالت ميمونة باسمة بنبرة ذات مغزى لم يخف على جويرية:

- لا شيء خاص، كنا نتحدث عن حياة المحبين وحسب!

احمرت وجنتا جويرية، وهي تحاول تجاهل المعنى الذي فهمته:

- لقد جئت في الوقت المناسب إذن، حتى لا تطلقي العنان لخيالك..

ثم ناولت انتصار النسخة قائلة:

- أرجو أن تعجبك، فهي من أجمل الأساطير التي وردت عن البلاد الأخرى، بالنسبة لي على الأقل..

وابتسمت جويرية متابعة:

- والحكمة ضالة المؤمن..

ورغم أن لهفة انتصار لقراءة الأسطورة قد خفت قليلا إلى جانب انسجامها مع حديث ميمونة حول جويرية وخطيبها، إلا أن حماستها سرعان ما اتقدت من جديد بعد أن خرجت ميمونة من عندها؛ لتساعد أمها وأختها في بعض الأعمال..

قلّبت انتصار النسخة بين يديها، وابتسمت لنفسها مشجعة:

- هذا جيد فصفحاتها قليلة..

ثم اتخذت لها موضعا مريحا فوق السرير، بعد أن أسندت ظهرها إلى الوسادة، وبدأت بالقراءة لتجد نفسها قد استغرقت تماما في عالم الأساطير القديمة..

أسطورة جوريا كورفيلاس

(الملاك الطاهر)

تروي هذه الأسطورة قصة من الأزمنة القديمة حين تنازعت القوى المتناحرة على السلطة بهدف توحيد العالم آنذاك سعيا لتحقيق العدالة و السلام المنشود.. وقد برزت قوتان كبيرتان بشكل رئيس؛ الأولى تابعة للملك كورفيلاس الذي دانت له معظم الأراضي والمقاطعات، وسعد الناس في ظل حكمه حيث حرص على نشر العدل والاستقرار في ربوع البلاد، في حين وقفت في وجهه القوة الأخرى التي ترأسها شاب طموح يدعى كاريس خضعت له جموع كبيرة من الطامحين إلى سلطة مطلقة عليا، مطلقا على نفسه لقب الكوماس- أي المنقذ والقائد العظيم بلغة ذلك العصر القديم- وقد اشتهر باستخدامه القوة بشكل رئيس لتحقيق مآربه.. فدارت حروب طاحنة بين الطرفين .. كان آخرها معركة رجحت فيها كفة الكوماس كاريس بشكل كبير وتوسعت رقعة سيطرته إثر انتصاره الساحق على جيش الملك كورفلاس الذي قاده القائد الفذ ميشوكال..

كان ميشوكال ابن أخ الملك كورفيلاس قد نشأ في كنف عمه الملك الذي عده كإبنه، لا سيما وأن الملك لم يرزق سوى بابنة واحدة تصغر ميشوكال بعامين تدعى جوريا. لم يكن يسمح للفتاة بتولي الحكم في قوانين البلاد فخطط الملك لتزويج ابنته جوريا من ميشوكال وهيأه ليتولى الحكم بعده. أما جوريا تلك الفتاة الطيبة ذات الجمال الفاتن فقد نشأت مع ميشوكال وقضت طفولة سعيدة بصحبته يتدربان معا على المبارزة التي باتت هوايتهما المشتركة رغم معارضة والدها لها في البداية، إذ كان يرى أن على الفتاة أن لا تتدخل في شؤون القتال وما له علاقة

بذلك لولا تدخل ميشوكال الذي أقنعه بأنها مجرد لعبة مسلية لا أكثر.. أحبته جوريا حبا طاهرا بريئا وكانت تؤثره على نفسها في مواقف عديدة وكبر حبها له مع الأيام - إذ كان الشخص الوحيد الذي يملأ عليها حياتها بعد وفاة والدتها وهي في سن مبكرة- ورغم حبها الشديد لميشوكال وتعلقها به، إلى جانب ما تمتعت به من جمال فاتن أخاذ جعل الشباب والفرسان يتهافتون لخطبة ودها، إلا أنها اشتهرت بطهرها وعفتها، حتى أن الذين يتربصون بالملك وكانوا يحاولون البحث عما يسبب الإساءة له، لم يستطيعوا التعرض لها بشيء بعد أن ذهب مكرهم أدراج الرياح وهم يحاولون ايجاد ممسك عليها في أخلاقها.. فقد كانت مضربا للمثل في الطهر والنقاء.. ولم يحدث أن ضبطت في موقف شبهة واحد يمس أخلاقها بسوء..

كانت المؤشرات كلها تدل على أن حياة جوريا ستأخذ مسارا طبيعيا كما خطط لها، فقد اقترب وقت إعلان خطبتها على ميشوكال رسميا بأمر الملك لولا تلك المعركة التي قلبت الموازين، وكان للأقدار شأن آخر غير الذي رسمه الملك كورفيلاس مسارا لابنته..

عادت جيوش الملك كورفيلاس منهزمة وتعرض الملك لإصابات عديدة كادت أن تودي بحياته، أما القائد ميشوكال فلم يعد له أثر، وغلب الظن على الجميع بأنه قتل غرقا في احدى المناورات البحرية، إذ لم يعرف مصيره ولم يعثر على جثته..

بذلت جوريا جهدا كبيرا لتصبر قلبها المكلوم على فقد ميشوكال و لتواجه المصير الغامض الذي ينتظرها وينتظر شعبها الذي بدأ يتعرض للأذى من جنود الكوماس المعتدين، لا سيما وقد أصيب والدها بمرض أقعده عن مواصلة الحرب ولم يكن هناك قائد آخر يعتمد عليه،

جلست جوريا إلى جوار سرير والدها المريض تواسيه وتشد من أزره عندما لمحت دمعات تلوح في عينيه لأول مرة:

- لم يعد هناك رجال يمكننا الوثوق بهم ، لقد بدأ اليأس يتسلل إلى الرجال وجنود الجيش.. يبدو أنها النهاية!

كانت جوريا تحاول إخفاء حقيقة ألمها على ميشوكال وهي تتفهم أمنية والدها القديمة بأن يكون له ولد ذكر يعتمد عليه، فأمسكت بيد والدها مشجعة وقد اتخذت قرارا حاسما:

- اطمئن يا أبي، أعدك بأنني سأعثر على ذلك الرجل وحتى ذلك الحين، سأكون القائد ميشوكال من جديد، وسأقود جيش السلام نحو النصر، أعدك بذلك يا أبي.. أعدك..

رفع والدها عينيه بصعوبة ليتأمل وجهها الجميل بحزن، وقال:

- تذكري يا ابنتي أن دماء والدتك الطاهرة تجري في عروقك، أنت سليلة عائلة نقية طاهرة..

فشدت جوريا على يد والدها مطمئنة:

- لن آل جهدا في الحفاظ على هذا الإرث العظيم يا أبي فلا تقلق، وبمجرد أن أعثر على رجل قوي أمين نثق به سأتنازل له عن القيادة فورا ليتولى هو القيام بالباقي.. أما الآن فوداعا لجوريا حتى ذلك الحين..

دمعت عينا والدها تأثرا:

- سامحيني يا ابنتي، لقد ظلمتك كثيرا.. أنت بألف رجل، فليكن التوفيق حليفك..

ومنذ تلك اللحظة تخلت جوريا عن ثيابها الحريرية الناعمة وارتدت بزة حديدية، وقفازات خشنة، لتبدأ حياتها الجديدة باسم القائد ميشوكال، قائد جيش السلام التابع للملك كورفيلاس..

رفعت جوريا من الروح المعنوية للجيش وأعادت ترتيب صفوفه مستعينة بالحكماء والمستشارين وبخبرتها والمهارات التي اكتسبتها من صحبتها لميشوكال ..

وقادت معركة كبيرة كان لها الأثر في إعادة الأمور إلى نصابها بعد أن الحقت خسائر جمة في جنود الكوماس أثناء تصدي جيشها لهجومهم على أحد المناطق التابعة للملك كورفيلاس.. كانت ضربة مباغتة في صفوف الكوماس، لم يعمل لها حتى الكوماس نفسه حسابا رغم دهائه بعد أن كان على وشك الامساك بزمام الأمور!

لكن الكوماس استطاع تدارك المفاجأة بسرعة فشن هجوما معاكسا قاده بنفسه على أسطول جيش السلام الذي اتجه لملاقاته في عرض البحر الهائج، دارت معارك حامية تواجه فيها الكوماس مع القائد ميشوكال وجها لوجه، فدارت مبارزة حامية بين الطرفين بذلت فيها جوريا جهدا خارقا وهي تشعر بأنه من الاستحالة عليها الاستمرار أكثر أمام قوة الكوماس الكبيرة وعندما شعرت بقرب انهزامها على يده و خشيت أن تقع أسيرة في قبضته فيكشف أمرها، قامت بحركة خاطفة مكنتها من التراجع والانسحاب قافزة نحو إحدى سفنها التي ابتعدت بسرعة في حين لحقها الكوماس صارخا بغضب:

- اتهرب أيها الجبان!! سأريك..

لم تبال جوريا بالكوماس بل أعطت الأوامر لأسطولها باتباع تشكيلة الطوارئ للإنسحاب المنظم في حال غياب القائد، أما السفينة التي استقلتها جوريا فقد ابتعدت وغابت في عرض البحر لمحو أثرها عن سفن الكوماس التي شرعت بمطاردتها..

مضت عدة أيام على جوريا ورجال سفينتها وهم في عرض البحر حتى شعروا بقوة غريبة تجذبهم باتجاه أحد الجبال، حاولوا مقاومتها دون جدوى بعد أن فقدوا التحكم بمقود السفينة التي خرجت عن مسارها في البحر، وبات هلاكهم مؤكدا وهم يوشكون على الاصطدام بذلك الجبل الصلب، لكن شيئا غريبا حدث في اللحظة التي سبقت الارتطام، إذ خرجت أذرع ضخمة من بطن الجبل الذي لفه الضباب وأمسكت بالسفينة لتحول بينها وبين التحول إلى قطع مبعثرة جراء الاصطدام بالجبل!

لم تصدق جوريا ورجالها أنهم نجوا من موت محقق وهم مستسلمون لتلك الأذرع الضخمة التي قادت سفينتهم إلى كهفٍ داخل الجبل، لم يلاحظوا وجوده من قبل.. وما إن استقرت بهم الحال داخل المياه الساكنة في الكهف، حتى تبين لهم أن تلك الأذرع ما هي إلا أذرع سفينة غريبة الشكل وقف رجالها مع زعيمهم في مقدمتها لمواجهة السفينة القادمة دون أن يخفوا دهشتهم من رؤية أناس عليها..

بادرهم زعيم السفينة الغريبة بقوله- وقد بدا رجلا قويا مفتول العضلات:

- كيف وصلتم إلى هنا أيها الغرباء؟؟ فلا أحياء غيرنا يمكنهم الوصول إلى هذه المنطقة الخطرة، إذ لا يمكن للسفن العادية تجاوز جاذبيتها الكبيرة!!

أسرعت جوريا بتعريف نفسها، وقد شعرت بارتياح غريب نحو ذلك الرجل الذي تلتقيه لأول مرة بعد أن راودها شعور غامض بأنها ستجد بغيتها في هذا المكان الذي ساقهم إليه القدر سوقا:

- أنا القائد ميشوكال قائد جيش السلام التابع للملك كورفيلاس والذي يسعى لنشر السلام في هذا العالم والتصدي لجيوش الكوماس كاريس الظالمة، وهؤلاء هم رجالي.. فهلا قدمتم لنا المساعدة من أجل سلام العالم!

تبادل رجال السفينة الغريبة النظرات فيما بينهم قبل أن يطلق أحدهم قهقهة مدوية:

- وما شأننا بكم أيها الغريب! نحن لنا أسلوبنا الخاص في الاستفادة من ثروات السفن الضائعة في عرض البحر و..

لكن الزعيم أوقفه بنبرة صارمة:

- جيرا!

فقطع الرجل كلامه معتذرا:

- المعذرة أيها الزعيم

ثم التفت الزعيم إلى جوريا قائلا:

- كيف لنا أن نستوثق صدق كلامكم وسمو أهدافكم؟

فتهلل وجه جوريا بشرا وهي تقول:

- سيدي.. تستطيع التأكد بنفسك مما تراه حولك، فلا يخفى على أحد حجم الدمار الذي لحق بالأراضي جراء أطماع الكوماس كاريس، إنه يسعى للسيطرة على العالم بالقوة جاعلا الناس دمى طيعة في يده يتلاعب بهم كيفما شاء

لامست كلمات جوريا وترا حساسا عند الزعيم فقبض يده بقوة وهو يقول:

- أتحرق شوقا لليوم الذي التقي فيه الكاريس هذا! من يظن نفسه ذلك المتعجرف!!! سيريه ريوكاس من يكون!

بدت علامات الرضا واضحة على وجه جوريا إذ لاقى عرضها قبولا لدى الزعيم ريوكاس قائد السفينة الغريبة المدعوة بالأخطبوط، وكم كانت سعادتها كبيرة عندما مد الزعيم يده وقد صدق حدسها فيه وهي تسمعه يقول:

- عليك أن تعلم أن ريوكاس لا يمكن أن يخلف عهدا قطعه على نفسه، أو يخون حليفا وضع يده في يده..

وبإماءة واحدة منه هب رجاله صفا واحدا وهم يهتفون:

- نحن معك أيها الزعيم ريوكاس..

سُرّت جوريا بما رأته وسمعته خاصة وهي ترى الحماسة قد دبت في رجالها من جديد.. وقد ازداد اعجابها بالزعيم أكثر وهي تستمع لخططه التي بدأ بعرضها للايقاع بالكوماس، حتى أن جوريا سألته - بعد أن انطلقت بهم الأخطبوط باتجاه بلاد الملك كورفيلاس حسب الاتفاق:

- ما هو هدفك من قبول الدخول في هذه المعارك مع الكوماس؟

فأجابها بثقة:

- لا يعجبني من يستخدم القوة للتسلط على الآخرين كائنا من كان..

كانت جوريا تزداد ثقة مع الوقت بأن الزعيم ريوكاس هو الشخص المناسب لتولي المهمة، وأخذت تتوق شوقا للحظة التي تزف خبر عثورها على الرجل المناسب لوالدها وهم يقتربون أكثر من البلاد، وأخذت ترسم في مخيلتها الآمال العريضة التي ستبنيها على هذا التحالف الجديد عندما انتبهت الى أصوات تنبّه على اعتراض اسطول من السفن طريقهم وهي توجه المدافع نحوهم في اشارة لعدم التقدم أكثر!

توقفت الأخطبوط في عرض البحر لاستقبال الرسالة التي ارسلها قائد الاسطول الذي حاصرهم:

- نريد التأكد فقط أن القائد ميشوكال ليس معكم وسنسمح لكم بالمرور بعدها

كانت أعلام السفن تشير إلى أنها تابعة للكوماس كاريس، فرد عليهم الزعيم بغضب والذي سرعان ما أعطى أوامره أيضا بإعداد المدافع لتواجه الاسطول بدورها:

- ومن أنتم حتى تتجرؤون بإملاء أوامركم علينا؟؟ منذ متى كان البحر ملككم ايها الأوغاد! نحن أحرار في أن يكون معنا من يكون ولن أسمح لأحد بالتدخل في سفينة الزعيم ريوكاس مهما حصل..

فجاءه الرد واضحا:

- إذن لا مفر من مواجهتكم بالمدافع،

فقال الزعيم:

- إذن ستدفعون الثمن غاليا..

وصرخ بأعلى صوته:

- نااااااااااار

ففوجئ أسطول سفن الكوماس بوابل من القذائف المنهمرة عليهم كالمطر مما أطاح بعدد من السفن قبل أن تستطيع الرد بشيء، وارتبكت سفن أخرى وابتعدت أمام ذلك الهجوم غير المتوقع من سفينة غريبة ذات إمكانيات غير عادية، أما جوريا التي كانت تتابع المشهد من خلف قمرة القيادة فقد هالها رؤية ذلك الشخص الذي وقف على مقربة من مقود أحد سفن الأسطول والتي بدت أكثر صمودا من غيرها، وشهقت في نفسها:

- أيعقل أن يكون هو؟؟؟

وكادت أن تخرج بسرعة للتأكد مما رأته رغم خطورة الموقف وعدم الحكمة في الإقدام على خطوة كهذه بعد أن تكفلت الأخطبوط بايصالها لبلادها من أجل إعداد العدة من جديد لمواجهة الكوماس.. فتريثت قليلا خاصة بعد أن غاب ذلك الرجل عن ناظريها، وما هي إلا لحظات حتى تناهى إلى سمعها صوت استغاثة منطلقة من تلك السفينة وهي توشك على الغرق بعد أن أصابتها مدافع الأخطبوط ورأت ذلك الرجل نفسه مرة أخرى يقف على أعلى نقطة في السفينة وهو يستنجد ملوحا بذراعيه، عندها لم تستطع جوريا التفكير بشيء آخر سوى الاندفاع بقوة خارجة من القمرة وقلبها يخفق بشدة، أمام دهشة الزعيم الذي لمحها وهي تقفز نحو تلك السفينة الغارقة، فأشار لرجاله برمي أذرع الاخطبوط نحو تلك السفينة لمنعها من الغرق..

استطاعت جوريا الوصول إلى ذلك الرجل الذي باتت متأكدة من أنه هو من تبحث عنه، وهو ينظر إليها بذهول، فهزته بشدة من تلابيب ثوبه:

- ميشوكال!! أهذا أنت؟؟؟ ما الذي جرى لك.. تكلم أرجوك....

فأجابها الرجل أخيرا بنبرة غريبة:

- لم يعد ميشوكال الرجل الذي تعرفينه يا جوريا.. لقد انتهى ذلك العهد بيننا!

شهقت جوريا بفزع :

- مستحيل!! ما الذي أصابك يا ميشوكال، لا تقل لي أنك خضعت لتأثير الكوماس!!!! هيا استيقظ أرجوك، فنحن بانتظارك.. وأنا جوريا خطيبتك.. بانتظارك يا ميشوكال.. أرجوك..

وبدلا من أن تلقى كلماتها صدى لدى ذلك الرجل الذي بدا مسلوب الإرادة، أخرج خنجرا من كمه ووجهه إلى قلب جوريا مباشرة وهو يردد:

- يجب القضاء على قائد جيش السلام حالا..

لم تصدق جوريا أذنيها وشعرت بأن قلبها قد تمزق قبل أن يصله الخنجر، وخانتها قدماها؛ فلم تحاول تلافي تلك الضربة القاتلة التي تلافاها الزعيم بيده القوية - فجأة- فأطاحت بالخنجر بعيدا، لينقذها في اللحظة المناسبة..

لم تنتبه جوريا للسفينة التي لم تعد الحبال ولا اذرع الاخطبوط القوية قادرة على منعها من الغرق، بل إنها لم تلاحظ أصلا أن الحبال هي التي أخرت غرق السفينة، إذ لم يكن ذلك يعنيها بشيء أمام ميشوكال..

وفي اللحظة التي ساعد فيها الزعيم جوريا على القفز نحو الأخطبوط، لم يبق لتلك السفينة أثر بعد أن غاصت في المياه..

هتف الرجال فوق سفينة الأخطبوط فرحا بانتصارهم على سفن الكوماس، واختلت جوريا بنفسها داخل قمرة أغلقت بابها على نفسها، وأخذت تبكي بكاء شديدا بصوت مكتوم؛ لم تبك مثله في حياتها من قبل، حتى عندما سمعت بخبر اختفاء ميشوكال وما اشيع عن مقتله أول مرة..

لم تدر جوريا كم مر عليها من وقت وهي تبكي داخل تلك القمرة المغلقة عندما انتبهت لصوت طرقات على بابها، فمسحت دموعها وهي تحاول الظهور بمظهر متجلد، وما إن فتحت الباب حتى بادرها الزعيم بقوله:

- الجميع بانتظارك لحضور مأدبة الغداء على شرف نصرنا هذا اليوم..

لكن جوريا أجابته معتذرة:

- شكرا لكم، لا أجد في نفسي شهية للطعام.. تستطيعون البدء من دوني..

وقبل أن تغلق الباب فاجأها الزعيم بذراعه التي اعترضت اغلاقه قائلا:

- لا شك أن ذلك الشخص الذي كنت تكنين له المشاعر فيما مضى، قد تعرض لحادثة غسل دماغ قوية؛ أحالته لدمية مسلوبة الإرادة تماما! ولكن مهما تكن مصيبتك فادحة يا جوريا، فاعلمي أن هناك من مصائبهم أعظم! لا يهمني معرفة كل شيئ عن ماضيك وأصلك الذي سمعت طرفا منه، ولكن ما يهمنا جميعا الآن هو مصلحة العالم، وأنت الآن القائد ميشوكال قائد جيش السلام..

ألجم الصمت جوريا فلم تعرف بماذا تجيب، وقد كُشف أمر تنكرها أمام الزعيم، لكنه غمزها بعينه قبل أن يذهب قائلا:

- هذا سر بيننا ولن يعرف به أحد هنا.. والآن هيا أيها القائد، فسأكون بانتظارك..

فارخت جوريا عينيها وهمست مرددة:

- شكرا لك أيها الزعيم، فأنا ممتن لك جدا..

ثم رفعت رأسها نحو السماء لتستمد منها شموخها وإبائها قبل أن تلقي نظرة أخيرة على تلك البقعة السوداء التي غرقت فيها السفينة:

- وداعا يا ميشوكال.. سأحتفظ بذكراك الطيبة، وأعدك أن أقود الجيش الذي قدته من قبل بأمانة وإخلاص..

التقى الملك كورفيلاس أخيرا الزعيم ريوكاس وعرض عليه تولي منصب القائد الأعلى لجيوش البلاد و قيادة جيش السلام بعد أن حدثته جوريا عن قوته وشهامته وأبدت إعجابها الشديد به، لكن ريوكاس رفض ذلك معللا:

- أفضل العمل مع رجالي حليفا لكم لا أكثر، وسيكون القائد ميشوكال أقدر مني على قيادة جيش السلام الذي يستطيع قيادته بكفاءة عالية، وستكون الأخطبوط إلى جانبه بل وذراعه الأيمن..

وصلت أنباء التحالف الجديد مع جيش السلام إلى الكوماس، كما أثار جنونه ما بلغه عن الخسائر التي لحقت بخمس سفن من اسطوله المكلف بملاحقة القائد ميشوكال، فجهز جيشا ضخما للانتقام..

استمرت المعارك سجالا بين الطرفين مدة طويلة أبدى كل فريق ما لديه من قدرات قتالية وتخطيطية فائقة، حتى جاء اليوم الذي أدرك فيه الكوماس عدم جدوى إخضاع مناطق الملك كورفيلاس لسيطرته، فأرسل دعوة يطلب فيها مقابلة القائد ميشوكال لمباحثته في الأوضاع المتوترة، وإمكانية توقيع هدنة بين الطرفين، واشترط حضور القائد ميشوكال وحده في غير مظهر حرب دليلا على حسن النوايا..

وبعد أن اجتمع الملك والقائد ميشوكال والزعيم ريوكاس مع كبار المستشارين والحكماء، وجدوا أنه من الحكمة قبول هذه الهدنة بعد حروب طويلة أنهكتهم واستنفدت منهم الجهد والوقت، لكن الشرط الذي وضعه الكوماس أثار ريبة الجميع وكانت النظرات التي تبادلها الملك مع ابنته (القائد ميشوكال) تحمل الكثير من المعاني، قال الزعيم ريوكاس على إثرها:

- لا تقلق أيها الملك فسأرافق القائد ميشوكال بصفتي رفيقا ملازما له..

رحب الكوماس- الذي ارتدى أفضل وأبهى حلله - بالقائد ميشوكال ومرافقيه باستقبال مهيب أعده خصيصا لهذه المناسبة وهو يقول:

- كنت أود أن يكون حسن النوايا عنوانا لهذا اللقاء أيها القائد ميشوكال، لكن إصرارك على ارتداء البزة الحديدية و إحضارك لهذا الحليف معك لا يدل على ثقتك بنا..

والتقت أعين الكوماس والزعيم لأول مرة .. وبعد نظرات حادة من كلا الطرفين بدت وكأنها حرب ضروس. ابتسم الكوماس قائلا:

- سمعت أنك مقاتل شرس ومبارز بارع، فهل تمانع في مبارزة ودية على شرف هذا اللقاء؟

فابتسم ريوكاس بجدة صقر:

- بل كنت انتظر هذه اللحظة من وقت طويل..

تواجه الرجلان بسيفيهما لتدور مبارزة أشبه ما تكون بمعركة حامية الوطيس دون أن تصطبغ بالودية بأي شكل من الأشكال.

كانت جوريا تتابع ريوكاس بقلق وهي تشعر بأن قلبها سينخلع مع كل ضربة يوجهها الكوماس نحوه..

قضي معظم اليوم في تلك المبارزة العنيفة التي بدت وكأنها ستستمر إلى ما لا نهاية أمام عناد رجلين يصران على عدم الاستسلام وكأنها لن تنتهي إلا بمقتل أحدهما حتى صرخت جوريا فيهما:

- هذا يكفي!! فهذه ليست مبارزة ودية أبداً!! ونحن هنا لمناقشة بنود الهدنة وليس القتال!!!!

لكن صوتها ضاع وسط صليل السيوف، فالتفتت إلى مستشار الكوماس الكهل ديجانس وأومأت له بإشارة فهمها ليسرع كل منهما نحو صاحبه لايقاف المبارزة الدامية تلك..

وبصعوبة تم إبعادهما عن بعضهما البعض ليلتقطا أنفاسهما المتقطعة، وقال الكوماس:

- أعترف بقوتك!

وهمهم ريوكاس:

- وأنت لست سيئا..

وبعد أن أبرمت الهدنة ووقع عليها القادة اسماءهم بشهادة الشهود نهض الكوماس ملتفتا نحو القائد ميشوكال:

- لدي حديث خاص معك أيها القائد، فأرجو أن ترافقني..

ظهرت علامات التوجس على وجه جوريا فبادرها الكوماس وهو يلحظ ترددها:

- هل أنت خائف مني؟

تمعر وجه جوريا وقالت بلهجة غاضبة:

- ومن أنت حتى أخشى منك؟؟

فابتسم الكوماس:

- ألا تحتمل المزاح يا رجل، يفترض أن نستريح قليلا من أجواء الحرب بعد توقيع هذه الهدنة، فهل تمانع ببعض الحديث؟

لم تشأ جوريا أن تظهر قلقها من عرض الكوماس، فنهضت وهي تلتفت إلى الزعيم الذي توقدت عيناه:

- لن أتأخر

ثم سارت خلف الكوماس الذي قادها نحو غرفة مغلقة وقدم لها كرسي لتجلس عليه ثم جلس قبالتها أمام طاولة مستديرة وأخذ يحدق النظر في عينيها بشكل أثار حفيظتها فقالت وهي تصرف بصرها متظاهرة بتأمل جدران الغرفة وهي تقول:

- أرجو أن يكون حديثك على قدر من الأهمية يوازي الوقت الذي سأضيعه معك في هذه الغرفة المزركشة!

فقال الكوماس وقد فهم ما ترمي إليه:

- حسنا إذن سأدخل في الموضوع مباشرة، فأنا أريد إجابة واضحة عن سؤالي..

ثم واجهها بنظرة قوية وهو يسألها بصرامة:

- قل بصراحة.. من تكون؟؟

بوغتت جوريا بهذا السؤال لكنها تداركت الموقف بسرعة مبدية استهجانها من هذا السؤال الغريب:

- ما الذي تعنيه يا هذا؟؟ هل تستخف بقائد جيش السلام!! هذه إهانة لن أقبلها أبدا..

فقال الكوماس مهدئا:

- لا داعي لهذا الغضب كله، فأنت تعرف أنني لم أقصد الاهانة..

ثم استطرد موضحا:

- تذكر لقاءنا في المبارزة الأخيرة بيننا، لقد فاجأتني بانسحابك المفاجئ.. لا أنكر أنك مبارز ماهر ولديك ضربات خارقة لكن ليس هذا هو عهدي بميشوكال الذي أعرفه!

وحلت برهة صمت قبل أن يقول الكوماس بابتسامة ماكرة:

- وأنت تعرف قوة ميشوكال الحقيقي الذي قمت بانتحال شخصيته أكثر مني، أليس كذلك؟

كانت جوريا تعمل فكرها بسرعة لتجد مخرجا من هذا المأزق الخطير، فما إن أنهى الكوماس كلامه حتى بادرته بالسؤال:

- ما الذي ترمي إليه من هذا كله؟ ما الذي تريده بالضبط، هيا أجبني؟

فرد الكوماس وهو ينهض من مكانه متجها نحوها:

- اريد أن أعرف فقط.. هل أنت رجل أم امرأة؟

فهبت جوريا من مكانها واضعة يدها على مقبض سيفها، وقد اشتعلت عيناها كاللبؤة المفترسة على أهبة الاستعداد:

- إنني أحذرك!

فابتسم الكوماس وهو يعود إلى مقعده:

- لا داعي لكل هذا، فقد عرفت الجواب..

ثم نظر اليها متأملا:

- يمكنك الانصراف الآن يا.. آنسة جوريا..

شعرت جوريا بالدماء تغلي في عروقها، دون أن تجد تفسيرا لتصرف الكوماس الغريب، والكيفية التي عرف من خلالها حقيقة شخصيتها رغم تنكرها المتقن، فسألته بحدة:

- هل لي أن أعرف ما الذي يعنيه لك هذا؟؟

فأجابه الكوماس بلهجة مستفزة:

- هذا ما أفضل الاحتفاظ به لنفسي..

ثم فتح لها مجالا لتسير أمامه خارج الغرفة لكن ما حدث جعلها تضاعف حذرها منه أكثر، فقالت:

- يمكنك السير امامي فأنت الكوماس وهذا قصرك

فضحك الكوماس وقد فهم مغزى كلامها فقال وهو يسير خارجا أمامها:

- معك الحق، فمثلك لا يمكنه الوثوق بمثلي!

وما إن وصلت جوريا الصالة الكبرى يتقدمها الكوماس حتى روعت برؤية الكوماس يشحذ سيفه وهو يرى ريوكاس قد أردى عددا من رجاله قتلى في حين وقف الباقون يحاولون التصدي له ومنعه من المرور..

صرخ الكوماس بغضب:

- ما الذي فعلته برجالي أيها الوغد؟

لكن ريوكاس الذي رأى جوريا تعود سالمة؛ ابتسم دون مبالاة:

- لو لم يعد القائد ميشوكال الآن لما أبقيت على أحد من رجالك، هم الذين منعوني من المرور وليست تلك هي آداب الضيافة!

شعر الكوماس بغيظ شديد فشهر سيفه مندفعا نحو ريوكاس الذي استقبل ضرباته متصديا لها بخفة ومهارة ودارت مبارزة حامية بدى أن الكوماس قد صب فيها جام حقده على ريوكاس حتى أصاب فيه مقتلا تهاوى ريوكاس على أثرها أرضا، وفي اللحظة التي رفع فيها الكوماس سيفه ليجهز على ريوكاس بضربة قاضية فوجئ بجوريا تحول بينهما؛ وهي تواجهه بسيفها صارخة- ونظراتها المستعرة تكاد تلفح وجهه:

- أتغدر بنا بعد أن دعوتنا لتوقيع هدنة أيها الكوماس الغادر؟؟

أوقف الكوماس سيفه من أن يهوي فوق جوريا وهو يلتقط أنفاسه الغاضبة المتلاحقة وعيناه تتقدان شررا وهو يحدق في عينيها المتحديتين.. وبعد فترة خيم فيها الصمت إلا من النظرات المشتعلة والأفكار المتصارعة، أرخى الكوماس عينيه وأغمد سيفه ثم التفت إلى جنوده وهو يعطي أوامره:

- أفسحوا لهما الطريق..

كان جرح ريوكاس ينزف بغزارة عندما التفتت إليه جوريا فهرعت اليه وهي تنزع رباطا من سترتها وانحنت معطية ظهرها للكوماس الذي أخذ يراقبها بنظرات عميقة وهي تضمد جرح ريوكاس قائلة:

- سأساعدك على الخروج من هنا، علينا أن نرى الطبيب وستكون بخير، فهيا بنا..

لكن أحد رجال الكوماس أسرع بحركة مباغتة موجها سيفه إلى جوريا من الخلف وهو يصرخ بحرقة:

- سأنتقم!

فما كان من الكوماس إلا أن أوقفه بحركة سريعة خاطفة وهو يحدجه بنظرات غاضبة:

- ألم تسمع ما قلته!!

فقال الرجل:

- ولكنهم قتلوا رجالا منا!

فقال الكوماس بلهجة حاسمة:

- هذا أمر ولا نقاش فيه..

لم تكد جوريا وريوكاس يصعدان إلى الأخطبوط التي كان رجال ريوكاس بانتظارهم فيها ويبتعدون في البحر قليلا، حتى حوصرت السفينة بعدد كبير من السفن الحربية، فأعطت جوريا أوامرها للرجال:

- لا وقت لدينا للقتال، حاولوا العودة بالسرعة القصوى فصحة الزعيم في خطر..

لكن السفن المعادية ضيقت عليهم الحصار ولم يعد هناك بد من المواجهة، خاصة وقد بدأت بعض السفت تلقي بحبالها للتلاحم مع الاخطبوط، فعضت جوريا على شفتيها بحنق:

- يا للكوماس الغادر، ما كان علينا أن نثق به !

دارت معركة عنيفة على سطح الاخطبوط قاتلت فيها جوريا ببسالة، بعد أن طلبت من أحد رجال الزعيم الاعتناء به في قمرة القيادة نظرا لخطورة نزفه، لكن الزعيم تناول سيفه؛ واستطاع بحركات فريدة إزاحة عدد هائل من المعتدين على سفينته في لمح البصر، ليسرع بعدها إلى مقود السفينة الذي كان على وشك إدارته ليناور بالاخطبوط بمهارته المعهودة، لولا جرحه الذي أخذ ينزف بشدة، فأسرع إليه معاونه:

- أرجوك أيها الزعيم، لا تجهد نفسك!

لكن الزعيم أجابه بلهجة آمرة:

- لا تكن ساذجا واذهب لتقف إلى جانب القائد ميشوكال..

لم يكد الزعيم يتم عبارته حتى اهتزت الأخطبوط بعنف هزة أطارت بجميع من عليها من مكانه اثر ارتطام سفينة عملاقة بها..تدحرجت جوريا عدة دحرجات على أرض السفينة قبل أن تنهض مرة أخرى مستعيدة توازنها وهي تمسك بحافة السفينة، في حين اقترب منها رجل ضخم عملاق قفز على الأخطبوط من تلك السفينة التي تشبهه محدثا جلبة كبيرة وهو يقهقه بصوته الأجش:

- أنت القائد ميشوكال إذن.. لقد حانت نهايتك!

لكن جوريا باغتته بركلة قوية أفقدته توازنه، لتجد نفسها بعدها محاصرة بعدد كبير من رجاله الشرسين..

نقلت جوريا بصرها بينهم وهي تحاول ضبط أعصابها في حين أطلق العملاق ضحكة ساخرة:

- لا تحاول، فقد انتهى أمرك أيها المخادع!

وقبل أن يقدم أي واحد من أولئك الرجال على أدنى حركة فوجئ الجميع بصوت الكوماس وهو يهبط على أرض الأخطبوط شاهرا سيفه مخاطبا أولئك الرجال:

- كيف تجرؤن على مخالفة التعليمات أيها الحمقى؟ ألم ألزمكم جميعا بالهدنة؟؟

فما كان من الرجال إلا أن تقهقروا للخلف؛ وهم ينزلون سيوفهم في حين انطلق صوت العملاق الأجش يجعجع بغلظة وتحد واضح:

- أنا من أعطي الأوامر هنا أيها الكوماس الضعيف! لقد عارضت فكرة الهدنة من البداية التي برهنت فيها على ضعفك، ولا يمكنني الإذعان لهذه الأوامر السخيفة بعد اليوم!

فنظر إليه الكوماس والغضب يغلي في صدره حتى بات كالمرجل واحمر وجهه ككرة لهب مشتعلة:

- كيف تجرؤ! لقد تجاوزت حدودك كثيرا يا غيرال..

وبلمح البصر اندفع الكوماس نحوه بسيفه المتأجج نارا فلم تكن سوى ضربة واحدة جمدت الدم في العروق، سقط على أثرها ذلك العملاق جثة هامدة، اتبعها الكوماس بضربة أخرى قذفته بقوة في البحر.. كانت قوة عجيبة مذهلة ارتعدت لها فرائص رجال غيرال ووجفت لها قلوبهم، فرموا سيوفهم وانطرحوا أرضا بتوسل واستعطاف:

- العفو أيها الكوماس العظيم، لقد كنا ننفذ أوامر قائدنا غيرال وحسب. . نرجوك..

فرماهم الكوماس بنظرات ازدراء وقال لهم باحتقار شديد:

- اغربوا عن وجهي حالا وإياكم أن تفكروا بعصيان أوامري ثانية

فأسرع الرجال يتخبطون ببعضهم البعض، وهم يركضون نحو سفنهم؛ مغادرين الأخطبوط بسرعة..

أما جوريا التي هالها ما رأته فقد وقفت مشدوهة للحظات قبل أن تسرع باتجاه قمرة القيادة فاستوقفها الكوماس:

- انتظر لحظة!

فالتفتت إليه جوريا متسائلة في حين تابع الكوماس كلامه:

- إنني آسف لما حدث، ولا أطلب منك أن تشكريني فلم أقم إلا بما يحتمه علي واجب المعاهدة.. ولكنني أرجو منك أن تتوقفي عن التفكير بي كرجل شرير..

ثم قفز من الأخطبوط باتجاه سفينته المحاذية لها وهو يقول:

- أتمنى لك حظا طيبا..

لم تعلق جوريا بكلمة واحدة- رغم ان اصراره على مخاطبتها كأنثى متجاهلا تنكرها، قد استفزها قليلا- بل أسرعت باتجاه القمرة؛ لتجد ريوكاس ممدداً على أرضها، وهو مضرج بدمائه وحوله رجاله، فخفق قلبها بشدة وانحنت عليه تهزه:

- ريوكاس، اجبني.. هل أنت بخير؟

ثم نظرت في عيون الرجال حوله لتقرأ الإجابة التي لم تكن تود معرفتها أبدا..

لقد رحل الزعيم ريوكاس.. إلى الأبد..

استقبل الملك كورفيلاس وشعبه القائد ميشوكال استقبال الأبطال واختلطت الفرحة بما حققته الهدنة من فترات سلام وهدوء تعطش لها الجميع، بالحزن على فراق الزعيم ريوكاس البطل الشجاع، لا سيما جوريا التي عاشت مر الفراق لمرة أخرى.

كان الكوماس كاريس يذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا بتوتر بالغ، حتى قال له ديجانس أخيرا و الذي لم يخف عليه شيء من حال كاريس منذ يوم الهدنة:

- أعلم أنها جميلة جدا وذات شخصية آسرة، ولكنني لم أرك تبال بغيرها من قبل وهناك الجميلات الحسناوات..

فتنهد كاريس وهو يلقي بجسده على كرسي مبطن:

- كلا ليس الجمال هو السبب! .. لا أظن ذلك بل إنني متأكد.. إنه شييء آخر أجهله تماما، ولم أجده في غيرها.. ليتني أعرف كنهه فأعبر عنه..

وبعد أن شعر ديجانس بأن شرود الكوماس طال أكثر مما ينبغي قال له مستفزا:

- غريب ما اسمعه واراه منك الآن، يبدو أن عقلك إن خلا من التفكير بالحروب اشتغل بتوافه الأمور! أنت الكوماس العظيم الذي سحقت الجبابرة بقوتك، والشاب الوسيم الذي لم تلتفت طوال حياتك إلى أي حسناء تذللت بين يديك، ولم تهتم بمئات الفاتنات اللائي حرصن على ودك، و قد كن على استعداد ليكن دمية طيعة لديك! أبعد ذلك كله؛ تفعل تلك الفتاة كل هذا بك!!

عندها هب كاريس من مكانه غاضبا وأمسك بديجانس من تلابيب ثوبه حتى كاد أن يخنقه ثم أفلته قائلا:

- لولا أن أمي طلبت مني أن أجعلك مستشارا لي لقطعت لسانك منذ وقت طويل!

لم يكد كاريس يذكر أمه حتى لمعت في ذاكرة ديجانس صورة قديمة لتلك المرأة التي أقعدها المرض وأنهكها فباتت هزيلة ضعيفة لا تقوى على فعل شيء، ولا سلطة لها إلا على ابنها كاريس الذي لم يحدث أن خالف لها أمرا أو رد لها طلبا، وهي تردد كالعادة- كلما رأته متذللا بين يديها يحيطها بحنانه وعطفه:

- أدعو باسم الذي جعلك بارا بي أن يحفظك من دنس الخطيئة، ويكرمك بالطهر والنقاء..

ودمعت عينا ذلك الكهل تأثرا، فرغم أن عدة سنوات مضت على وفاة والدة كاريس إلا أنه ما يزال محافظا على عهده معها..

وحدث نفسه محاولا فهم ما يجري مع كاريس الآن:

- كيف لم أنتبه لهذه القضية من قبل، فكاريس رغم سلطته ما لمست يداه امرأة، ولا نظر بعينيه إلى عورة قط! أتراه يكون هذا طرف الخيط ..أهنا يكمن السر يا ترى!!!

استدعى الملك كورفيلاس ابنته جوريا التي لزمت غرفتها لفترة طويلة:

- اقدر ما تمرين به يا ابنتي ولكن هذه الهدنة هي فرصتنا لإعادة النظر في أمور منطقتنا ومستقبلها، فالهدوء لن يدوم طويلا وعلينا اغتنامه

فقالت جوريا:

- أنا رهن إشارتك يا أبي

فنظر اليها والدها بإشفاق وهو يرى أثر تلك الأحداث الدامية عليها:

- لقد تحملت الكثير يا ابنتي، ومهما حدث، علينا أن لا نتجاهل واقعنا، فأنت آخر من بقي من سلالة أسرتنا الحاكمة ولا يوجد وريث غيرك، واستمرار هذه السلالة في المستقبل مرهون بك..

كان هذا هو أكثر ما تخشى جوريا سماعه، لكنها آثرت الصمت مراعاة لوالدها، والذي بدأ بإعطاء أوامره لإقامة نزال كبير يدعى إليه كبار الفرسان والمقاتلين..

كانت جوريا واقفة أمام النافذة تحدق فيها بصمت عندما دخلت عليها ديميس – مربيتها الطيبة– وهي تقول مبتهجة:

– لقد طلب مني والدك الملك مساعدتك على إصلاح زينتك وتصفيف شعرك، فلم يبق وقت طويل على حفل افتتاح النزال..

فالتفتت اليها جوريا ونظرات الم عميقة بدت في عينيها:

– لا داعي لأن تتعبي نفسك يا ديميس، شكرا لك..

فأجابتها ديميس بمرح وهي تحاول اختيار أحد الثياب الزاهية لجوريا:

– لا عليك يا عزيزتي، فسأكون سعيدة وأنا أراك تستعيدين أنوثتك من جديد

أطلقت جوريا تنهيدة طويلة ولم تقل شيئا.. فالذكريات القديمة لا تفارقها..وقد مضى وقت طويل على تلك الثياب الناعمة..

ورغم بساطة الثوب الذي حاولت جوريا انتقاءه، وبساطة زينتها التي أصرت على ديميس أن لا تبالغ فيها؛ إلا أنها بهرت الأنظار عند دخولها القاعة الضخمة، لتأخذ مكانها إلى جوار والدها فوق المنصة الكبيرة المواجهة لحلبة النزال..

انقضت ستة أيام رشح فيه عدد لا بأس به من الرجال المشاركين الذين أبدوا مهارات قتالية فائقة حتى حان موعد النزال الأخير في اليوم السابع والذي سيحدد فيه المنتصر..

كان النزال على وشك البدء مع علو هتاف الحاضرين عندما فوجئ الجميع بفارس غطى نصف رأسه ووجهه بخوذة فولاذية، يقتحم المكان شاهرا سيفه قبل أن يمثل أمام الملك وهو يقول:

- أرجو المعذرة على تأخري أيها الملك، لكن خبر هذا النزال الذي اقيم على شرف ابنتكم الجليلة لم يصلني إلا متأخرا.. وأرجو أن تأذن لي بالمشاركة في هذا النزال الأخير الذي سيفوز به المنتصر بيد جلالة الأميرة..

لم تحتمل جوريا ما سمعته فهبت من مكانها- رغم حرصها على عدم الإقدام على أي فعل لا يرضي والدها- وهي ترد على ذلك الفارس بشدة:

- اسمعني أيها المتحذلق، أنا لست شيئا يفوز به من يفوز!!

وقبل أن تتم جوريا عبارتها، انحنى الفارس أمامها معتذرا:

- أقدم اعتذاري أيتها الأميرة الجليلة، فقد أثرت انفعالاتي على حدود كلماتي، وأعماني شرف المثول أمامكم عن حسن التعامل مع قدركم..

فقال الملك الذي أعجب بلباقته:

- لا بأس أيها الفارس النبيل يمكنك المشاركة.. وسأعيد على مسامع الجميع مرة أخرى كلاما هاما.. فقد أُعلنت الهدنة مع الكوماس كاريس لمدة وجيزة، وكانت فرصتنا لمتنفس نروح به عن أنفسنا بعد تلك الفترات الكئيبة، وسنستعيد فيها روح حماسنا ونعلن افراحنا بإعداد هذه النزالات التي ستبرز أفضل الفرسان والمقاتلين الشجعان والكفؤ المنتصر الذي يصلح لتولي مهمة قيادة جيش السلام محل القائد ميشوكال، و الذي يسرني أن تقبل به ابنتي زوجا لها كي ينشرا السلام في هذا العالم..

ولم يخف على من كان يراقب جوريا اثر وقع كلمات الملك على وجهها وكأنها خناجر تتلقى طعناتها بصمت وثبات..

في حين تابع الملك:

- ستكون القوة والأمانة هي أهم الصفات التي ستميز المنتصر عن غيره في هذا النزال..

عندها قال الفارس المقنع:

- أستطيع أن أثبت لجلالتكم أنني الأقوى ولكن كيف لي أن أثبت لكم انني الأمين؟

تعالت الهمهمات في صفوف الحاضرين:

- يبدو واثقا من نفسه كثيرا..

وبدا الاستنكار على وجوه الرجال المرشحين:

- من يظن نفسه هذا المغرور؟؟!!!

لكن الملك أجاب على سؤاله بجواب حاسم:

- فلترنا قوتك أولا..

كانت جوريا طوال تلك الفترة تحاول اقناع نفسها جاهدة بأن مصلحة البلاد والشعوب أهم من التفكير بنفسها، وقبولها بالمنتصر القوي الأمين زوجا لها؛ لا يعدو كونه واجباً تؤديه من أجل الحفاظ على استقرار البلاد، ووحدة الصف، حول أسرة مالكة لها مكانتها العريقة في النفوس..

كانت جوريا سارحة بأفكارها عندما انتبهت إلى صوت الهتاف الذي انطلق مع ضربات ذلك الفارس المتلاحقة والتي قضى فيها على خصومه الواحد تلو الآخر بسرعات خاطفة، حتى أجهز على آخرهم بضربة ساحقة قوية مذهلة حسمت النزال لصالح الفارس المقنّع بجدارة..

علا التصفيق والهتاف إعجابا بذلك الفارس القوي، حتى أن الملك نفسه وقف معبرا عن إعجابه الشديد بما رآه، ولم تجد جوريا بدا من مشاركة والدها وقفته لذلك الأداء الفريد النادر..

انحنى الفارس أمام الملك وابنته باحترام فائق وقال بأسلوب رقيق:

- أرجو أن أكون قد نلت إعجابك بأدائي البسيط في هذا النزال أيها الملك المبجل، وها أنا قد أريتكم جزءا من قوتي فكيف لي أن أري سيادتكم أمانتي ؟

فقال الملك:

- عليك التعريف بنفسك أولا أيها الفارس القوي، فلا شك ان لفارس نبيل مثلك سمعة يمكننا من خلالها الحكم على أمانتك وسمو أخلاقك..

لكن الفارس اعتذر بلباقة:

- استميحك عذرا أيها الملك المفدى، فلدي أسبابي الخاصة التي تمنعني من كشف هويتي في هذه اللحظات..

تهامس الحاضرون فيما بينهم عمن يكون ذلك الفارس الغامض وعلا صوت الضجيج حتى قطعه الملك بقوله:

- إن أسلوبك في الحديث ولباقتك باختيار الكلمات يدل على نبل أصلك ولا يسعني الا إنزالك منازل العظماء واحترام رغبتك..

فقال الفارس:

- شهادتك شرف افتخر به يا سيدي الملك..

لكن الملك تابع كلامه قائلا:

- ولكن كيف لنا أن نثق بك؟

فأجابه الفارس:

- إن فارسا قويا أيها الملك بإمكانه أن يحصل على ما يريده بالقوة ولن يجد من يقف في طريقه ثم اختار المثول بين أيديكم إتباعا للنظام، ألا يعد دليلا كافيا على أمانته؟

صمت الملك مفكرا قبل أن يقول:

- ما الذي تعنيه بكلامك أيها الفارس؟ هلا وضحت لنا أكثر!!

لكن جوريا تولت الرد على ذلك الفارس بنفسها وهي تحدجه بنظرات متفرسة:

- لا تكن واثقا بأنك لن تجد من يقف في طريقك.. فقوتك وحدها لا تكفي، ولسنا بالذي نثق بفارس غامض لا يجرؤ على كشف هويته و لا ندري ما هي أهدافه ومطامعه..

لم يخف الفارس مفاجأته من ردها قبل أن يقول:

- معك الحق أيتها الأميرة النبيلة، ولكنني أعدك أن أكون واضحا وصادقا في كلامي والفارس إن وعد لا يمكن أن يخلف أبدا.. فلدي هدفان سأسعى جاهدا لتحقيقهما مهما كلفني الأمر..

أبدى الملك ارتياحه لما سمعه فأشار للفارس الذي كبر في نظره أكثر:

- حسنا قل ما لديك..

فتابع الفارس كلامه:

- هدفي الأول هو العمل على توحيد البلاد والمناطق المتناحرة، حتى نضع حدا للحروب الطاحنة التي أزهقت أرواحا بريئة، ونرد المظالم التي انتهكت حرمتها لسنوات طويلة بما فيها مظالم الكوماس كاريس، سأعمل للقضاء على الظلم بكل أشكاله..

فابتسم الملك تعبيرا عن رضاه معلقا بقوله:

- وهذا هو هدفنا أيضا..

فتساءلت جوريا مستوثقة:

- أفهم من كلامك أنك ستقف في وجه الكوماس كاريس للقضاء عليه؟

فنظر إليها الفارس هنيهة قبل أن يقول:

- قضائي على الظلم لا يعني أنني أنوي القضاء عليه!

فقالت جوريا بحدة:

- هذا يعني أنك لا تعده رجلا معتديا ظالما!

فقال الفارس:

- قد يكون أقدم على أعمال ظالمة لكنني لا أستطيع أن أقول عنه ما لا أعرفه فيه.. لقد وعدتك أن أكون صادقا أيتها الأميرة..

أخذ الحاضرون يتناقلون كلمات الفارس، وكلٌ يؤولها بشكل مختلف، فمن معجب بصراحته إلى مرتاب في نيته، وقبل أن يكون هناك مجال أكبر للأخذ والرد حول ما قاله الفارس، حسم الملك الموقف قائلا:

- حسنا وما هو هدفك الثاني؟

عندها عدل الفارس قامته بطريقة تدل على عظم ما سيقوله وهو يجيب بلهجة آملة:

- أن ترضى بي الأميرة جوريا زوجا لها فنعمل معا على تحقيق الهدف الأول ونشر السلام في هذا العالم..

خيم صمت على المكان قبل أن يقول الملك:

- إن كنت صادقا فيما تقوله فأنت أهل لابنتي، فهل لديك دليل على صدق نواياك؟

فقال الفارس بثقة:

- أعدك بأن تقف الحروب ولن يعود أحد يخشى الكوماس كاريس وبطش جيوشه بعد اليوم، وسيرى الجميع ذلك بأم أعينهم..

وبشكل عفوي علا التصفيق والهتاف من الحاضرين؛ تعبيرا عن فرحهم وابتهاجهم بما سمعوه، و هز الملك رأسه:

- سنرى ذلك..

عندها قالت جوريا:

- وما أدرانا أنك لست جزءا من خطة ماكرة يحيكها الكوماس للإيقاع بنا؟؟

فرفع الفارس رأسه نحوها وتأملها بنظرات لم يفهم أحد معناها قبل ان يقول:

- ألم يطلب منك الكوماس أن تكفي عن التفكير به كرجل شرير؟؟ إن الفارس إن وعد لا يخلف وإن أعطى عهدا لا ينكثه أبدا..

وخلع خوذته أمام دهشة الجميع..

فقد كان الكوماس كاريس بعينه...

وبحركات تلقائية رفع الحراس حرابهم على أهبة الاستعداد للتصدي لأي هجوم قد يصدر من الكوماس الذي ابتسم بسخرية:

- يا للسذاجة..لو كنت سأقدم على فعلٍ ما، لما استطاعت رماحكم هذه إيقافي، وكشفي لخوذتي الآن لا يعني أنني لم أكن موجودا من قبل!

كان الملك أسرع من استعاد رباطة جأشه بعد تلك المفاجأة غير المتوقعة، فقال:

- معك الحق أيها الكوماس

وأعطى أوامره لجنوده بإنزال رماحهم وحرابهم والعودة إلى أماكنهم مع التخلي عن وضع المواجهة..

أما الكوماس الذي بدا في أبهى صوره فقد أعاد كلامه قائلا:

- ما زلت عند وعدي لك أيها الملك ، فسأعمل على رد المظالم ونشر السلام ولن يخشى أحد عدوان جيوش الكوماس بعد اليوم، فستقف الحروب بيننا إلى الأبد..

ثم التقط نفسا عميقا قبل أن يتابع:

- والآن أيها الملك المعظم، هل ترضى بي زوجا لابنتك؟

كان ظهور الكوماس المفاجئ قد أشغل الجميع عن هدف الفارس الثاني، وكأن أحدا لم يستطع الجمع بين الأمرين، لكنه أخذ يكرر طلبه مرة أخرى معبرا عن رغبته في الزواج من الأميرة جوريا..

أما جوريا فقد شعرت بدوامة كبيرة تجذبها نحو قاع محيط شاسع مظلم، حتى شعرت بالاختناق ولم تعد قادرة على التنفس، فقد كانت غارقة تماما في بحر همومها، وأمواج ذكرياتها القديمة تتلاطم وتعصف بها من كل جانب..

وأخيرا قال الملك:

- لا أعرف ما الذي غيرك أيها الكوماس ولا أعرف ما الذي حدا بك لتسعى للزواج من امرأة وقفت في طريقك واعتبرتك من ألد أعدائها ولا أظن جراحها قد شفيت منك بعد!

فقال كاريس:

- إن من يسعى لتوحيد العالم وبناء الحضارة لا يمكنه القيام بذلك إلا على أساس من الطهارة، ولن اجد من هو أطهر وأنقى من أميرة حفظت شرف عائلتها وشعبها رغم كل ما مرت به، إنني أنحني إجلالا لها ولن أجد غضاضة في تقبيل أرض يمشي عليها ملاك طاهر مثلها..

فما كان من جميع الحاضرين، بمن فيهم المستشارين وكبار رجال الملك، إلا أن وقفوا إجلالا لهذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد، فقد كانت جوريا بحق رمزا للطهارة والنقاء..

وأطرق كاريس رأسه وعلامات الندم واضحة عليه وهو يتابع كلامه:

- أما الجراح فسأعمل على لثمها ولن آل جهد في تحقيق ذلك مهما كلفني الأمر، فلشد ما يؤسفني أننا كنا طرفين متناحرين..

ولم تستطع جوريا البقاء في ذلك المكان أكثر فخرجت مسرعة تجرى باكية بكاءً مريرا، لم يعرف أحد له سببا محددا ولا حتى هي نفسها..

لم تذكر الأسطورة تفاصيل ما حدث بعد ذلك، ولكن تناقل الناس بأن الطهارة والقوة قد اتحدتا لبناء حضارة من أعظم الحضارات، أطلق عليها اسم (شيلاس)، المشتق من كلمة طهارة بلغة ذلك الزمن القديم، فما كان السلام ليحل

على العالم إلا إن التقى طاهر بطاهرة في جو طاهر كما ورد في الأسطورة، وأصبح نقش الملاك الطاهر- الذي كان سببا في انقاذ العالم- رمز لأسرة شيلاس الحاكمة، ينقش على معاصم أفرادها بمداد لامع دليلا على طهارة الدم الذي يجري في عروقهم..

كما تناقل الجميع أيضا؛ بأن صلوات والدة كاريس قد باركته لبره بها، وحمته من التلوث بالرذيلة رغم عدوانه وظلمه في بداياته، وأعدّته لتحقيق ما ورد في الأسطورة، فقد آمن الناس آنذاك أنه لا يمكن لطاهرة أن يمسها إلا طاهر مثلها، وكانت تلك الصلوات سببا في تغير حاله بعد ذلك وندمه على ما قدم، ليصبح رمزا للعدل والقوة في الحق ونشر السلام..

***

أنهى المعلم برهان كتابة الهدف من التجربة فوق لوح قاعة التجارب في المدرسة، قبل أن يلتفت إلى طلبة المستوى السادس المتحلقين حوله، قائلا:

- والآن إن فهمتم هدفنا من تجربة اليوم، ووعيتم تماما النتيجة التي نحن بصدد الوصول إليها، فستسهل عليكم إيجاد الخطوات المناسبة لتحقيقها..

و رغم أن تجارب علم الطبيعة من أكثر التجارب العلمية التي تثير حماسة الطلبة، إلا أن علاء بدا غير قادر على التركيز في أي شيء، وعقله مشتت بين الوثيقة التي يحاول وعي ما ورد فيها، والاختبار الذي يسعى للترشح إليه، وهو يحدث نفسه:

- لا شك أن أبي ورجاله سيقفون في وجه أي مخطط شرير يستهدف المروج الخضراء، ولكن ماذا عني أنا!! إلى متى سأظل بعيداً عنهم!! لا خيار آخر، ولا وقت لدي، يجب أن أُرشح للاختبار القادم بأي ثمن وعليّ أن أعود إلى مدينتي بسرعة...

لكنه انتبه من شروده ذاك فجأة على صوت المعلم برهان، الذي خاطبه بقوله، وهو يضع الساعة الرملية على المنضدة الكبيرة لتبدأ بالعد التنازلي:

- ما الذي تنتظره يا علاء لقد بدأ رفاقك إعداد أنفسهم للتجربة، فماذا عنك؟

تلعثم علاء قليلا وأخذ يلتفت يمنة ويسرة إذ وجد أنه الوحيد الذي لم يتحرك من مقعده بعد إنهاء شرح المعلم برهان لهدف التجربة الرئيس، وبدا حائرا حتى أنقذه نداء حسام بقوله:

- هيا يا علاء تعال بسرعة لتختار الجزء الذي ستقوم به، فقد بدأ طلال بتوزيع المهام..

فنهض علاء من مكانه وأسرع باتجاه أصحابه الذين كانوا يتناقشون في خطوات عمل التجربة وهم يستعرضون ما لديهم من أدوات، استعدادا للبدء في تنفيذها، وحمد الله في سره، أن العمل تعاوني، وإلا لوجد نفسه في موقف لا يحسد عليه..

وكأن المعلم برهان قد قرأ ما جال بخاطره فقال:

- لا داعي لنذكركم بأن العمل الجماعي لا يعني الاتكال على الآخرين..

وابتسم المعلم برهان وهو يراقب الطلبة المتحلقين حول طلال- قائد المجموعة في تجارب علم الطبيعة- قبل أن يخرج من القاعة كعادته حتى يشجع الطلبة على إنجاز التجربة بأنفسهم والتفكير بالخطوات المناسبة دون اللجوء إليه إذا ما استعصى عليهم أمر..

أعاد طلال على مسامع الجميع المعلومات الرئيسة، وهو يركز عينيه في عيني علاء، بنظرات ذات مغزى:

- اتفق العلماء منذ القدم على صحة ما قال به أرخميدس، من أن للسائل قوة تدفع الجسم الموضوع فيها للأعلى، وأطلقوا عليها اسم قوة الطفو، ويمكننا إثبات ذلك ببساطة؛ لأن وزن الجسم في السائل أخف كما نعلم، فهذا يعني أن هناك قوة تدفعه للأعلى..

فقال حسان:

- حسنا لقد فهمنا هذه الجزئية وقلنا بأننا سندونها في أول التقرير، فلماذا الإعادة!!

فوخزه ياسر بيده محاولا أن يفهمه بأن طلال يفعل ذلك من أجل علاء الذي لم يكن معهم في البداية، وكاد حسان أن يسأله بصوت عال عن معنى تلك الوخزة، لولا أن حسام أسرع يقول:

- بما أننا متفقون جميعا على سهولة هذه الخطوة و سبق أن قلنا بأننا سنكتفي برسوم توضيحية لاتجاهات القوى في حالة جسم يسقط في الماء، ومقارنته بجسم يسقط في الهواء، فدعنا نعرج على الخطوة الثانية قبل أن يدركنا الوقت..

ولم يكن طلال بحاجة إلى تذكيره بضرورة الانتباه إلى الوقت ولكنه أخذ ذلك بعين الاعتبار، فقال بابتسامة لم يخف معناها على حسام:

- جزاك الله خيرا يا حسام لتذكيرنا بالوقت..

وتابع وهو ينقل بصره بين الجميع:

- والآن علينا أن نثبت بأن قوة الطفو هي نفسها وزن السائل الذي يزيحه الجزء المغمور من الجسم، ومن ثم نثبت أن حجم الجزء المغمور هو نفسه حجم السائل المزاح.

فعلق أصيل مازحا:

- وإذا لم يثبت ذلك معنا نكون قد اكتشفنا بأن كلام العلماء طوال القرون الماضية خاطئ!

فرد عليه حسان متهكما:

- بل سنضطر لإعادة التجربة مرة أخرى يا عزيزي!!

فضحك حسام وهم بأن يقول شيئا؛ لولا أن طلال أعادهم بسرعة إلى صلب التجربة بقوله:

- وقتنا محدود وعلينا أن نفكر بسرعة بأفضل الطرق التي تقلل من نسبة الخطأ في القياس والحساب..

قال زيد وهو يستعرض المكعبات والأجسام المختلفة التي أحضرها من أحد الرفوف:

- أظن أننا كلما استخدمنا أجساما كبيرة، كان ذلك أفضل..

أضاف معاذ - الذي ملأ حوضا كبيرا بالماء ووضعه على الأرض:

- يكفينا- على ما اعتقد- استخدام نوع واحد من السوائل، والماء يقوم بالغرض، أليس كذلك؟

فأجابه طلال:

- أجل فنحن بصدد دراسة العلاقة بين قوة الطفو وحجم الجسم، بغض النظر عن السائل المستخدم..

فعلق ياسر:

- إذن سنحتاج إلى أجسام مختلفة في الحجم، ثلاثة على الأقل!

أومأ طلال بالإيجاب مضيفا:

- نريد أجساماً مصنوعة من المادة نفسها أيضا، حتى نركز على اختلاف الأحجام وحسب..

كان زيد يفرز المكعبات الكبيرة حتى أخرج ثلاثة مكعبات خشبية مجوفة، مفتوحة من جانب واحد، قائلا:

- هذه ستفيدنا، سنضعها في الماء على شكل قارب..

فقال طلال:

- جيد فهذا سيسهل المهمة كثيرا عند قياس حجم الجزء المغمور، خاصة وأن سماكتها قليلة..

ثم وجه خطابه لعلاء الذي بدا مشتت الفكر بعض الشيء:

- هل هناك ما يشكل عليك يا علاء؟

رد علاء ببعض الحرج متحاشيا النظر في عيني طلال:

- في الحقيقة لم أفهم تماما الهدف الرئيس من التجربة بعد! وما هو الشيء الذي سنثبته بالتجربة!! ولكنني أخشى أن أكون سببا في تأخيركم!!

فقال طلال يطمئنه:

- لا تقلق، ستفهم كل شيء حالاً بإذن الله..

وبتصرف سريع وجّه طلال كلامه لرفاقه:

- دعونا نجمع الأدوات كلها أولا..

قال جملته وهو يتجه نحو أحد الرفوف، ليحضر منه الميزان ذا الكفتين، في حين أحضر حسام حبال القياس والأثقال.. وبعد أن اكتملت الأدوات جلس الأصدقاء حولها في حلقة دائرية على الأرض، وأخذ حسام بتدوينها:

- ثلاثة مكعبات كبيرة مختلفة الحجم، وعاء مملوء بالماء ،ووعاء آخر أكبر منه، ودلو ماء، حبال قياس، بالإضافة إلى الأثقال و الميزان..

لكن أصيل سألهم فجأة:

- لماذا هذه الأوعية الكثيرة؟؟ ألا يكفي وعاء واحد مملوء بالماء!!

فأسرع حسان يجيبه:

- وأين تريد أن تجمع الماء المزاح أيها الذكي!!

فقال أصيل بجدية:

- لن يكون الماء المزاح كثيرا فلماذا هذا الوعاء الكبير! ألا يكفينا وعاء صغير؟؟

فأجابه معاذ:

- وكيف ستضمن أنك جمعت الماء المزاح كله من جميع الأطراف! سنضع وعاء الماء المملوء داخل الوعاء الكبير؛ ومن ثم سنضمن أننا لم نضيّع قطرة واحدة من الماء المزاح، وبهذا نقلل نسبة الخطأ في القياس..

هز أصيل رأسه متفهما، في حين علق ياسر:

- نحتاج إلى دقة كبيرة في العمل، خاصة ونحن نضع وعاء الماء المملوء داخل الوعاء الكبير، حتى لا ينسكب الماء داخل الوعاء الكبير قبل أن نبدأ فيختلط علينا الماء المزاح مع الماء المسكوب من قبل، أظن أنه كان علينا أن نضع وعاء الماء في الوعاء الكبير أولا، ثم نملأه بالماء!

جثا معاذ على ركبتيه وهو يحاول حمل الوعاء المملوء بالماء ليضعه في الوعاء الكبير، ورغم محاولاته الجاهدة للحفاظ على توازن الوعاء، إلا أن بعض القطرات انسكبت منه داخل الوعاء الكبير، عندها هب حسام واقفا وهو يهتف:

- سنحتاج إلى منشفة لتجفيف الوعاء الكبير، هذا كل ما في الأمر!

فتهلل وجه طلال:

- لقد حلت مشكلة كبيرة، أضفها إلى قائمة الأدوات لو سمحت..

ثم أخذ دلو الماء قائلا:

- قبل ذلك سنحاول إعادة ملء الوعاء بالماء إلى فوهته تماما، ومن ثم نجفف الماء المسكوب في الوعاء الكبير دفعة واحدة

وبمهارة شديدة استطاع طلال أن يضيف الماء بقطرات متتالية - أمام العيون المثبتة عليها بتوتر- حتى امتلأت الفوهة تماما دون أن تنزل قطرة واحدة إلى الوعاء الكبير، فوضع الدلو على الأرض بينما هتف حسام:

- ما شاء الله، دقة متناهية يا طلال، كأنك حسبت عدد القطرات اللازمة لملئ الوعاء بالضبط، وأجزم أننا لو أضفنا قطرة واحدة فقط لانسكب الماء!

فعلق أصيل (متفلسفا):

- الفضل في ذلك يعود لظاهرة التوتر السطحي!

فابتسم حسام:

- حسنا لقد عرفنا أنك فهمت تلك الظاهرة أخيرا..

وضحك الجميع في حين قام طلال بتجفيف الوعاء الكبير بالمنشفة تماما، قبل أن يقول:

- والآن الخطوة التالية، ما رأيكم أن نبدأ بإثبات كون حجم السائل المزاح هو نفسه حجم الجزء المغمور، وبعد ذلك نثبت الجزء الثاني لنخلص إلى النتيجة بأن قوة الطفو هي نفسها وزن السائل المزاح وهكذا نحقق الهدف من التجربة؟

أعرب الجميع عن موافقتهم على الفكرة، فتابع طلال:

- إذن فلنبدأ بوضع المكعب الكبير أولا برفق، حتى لا نزيح من الماء كمية أكبر مما سيزيحه المكعب بنفسه

فأمسك زيد المكعب الكبير وجعل جانبه المفتوح للأعلى وهو يضعه برفق داخل الماء، وبعد أن تأكد من أن سطح المكعب السفلي قد لامس سطح الماء رفع يده، فانغمر ثلث المكعب تقريبا داخل الوعاء مزيحا كمية من الماء، لتنسكب داخل الوعاء الكبير

وأخذ طلال يتأمل صفحة الماء المهتزة اثر وضع المكعب فيها قائلا:

- هيا استعدوا لتدوين الملاحظات..

كان ياسر قد أنهى رسم جدول بأربعة صفوف وأربعة أعمدة على لوح صغير، وكتب عنوان كل عمود في الصف الأول (المكعب، حجم الماء المزاح، حجم الجزء المغمور من المكعب ، ملاحظات أخرى)

المكعب	حجم الماء المزاح	حجم الجزء المغمور من المكعب	ملاحظات أخرى
الكبير			
الوسط			
الصغير			

فقال مبادرا:

- سأبدأ بملاحظتي الأولى حول طريقة قياس الحجم، إذ لا داعي لها في هذا الجزء بما أن هدفنا هو أن نثبت فقط بأن حجم الجزء المغمور هو نفسه حجم الماء المزاح..

فسأله أصيل بتعجب:

- ما هذا الذي تقوله يا ياسر!! كيف سنثبت أن لهما الحجم نفسه دون أن نقيس حجم كل منهما، ومن ثم نقارن بينهما لنثبت أنهما متساويان؟؟

لكن معاذ أسرع يجيبه وقد فهم قصد ياسر:

- الأمر واضح، سنستفيد من كون المكعب مجوفاً مفتوحاً من الأعلى وذا سماكة قليلة، لقد خطرت الفكرة نفسها لي، عندما أشار طلال بأن المكعب المفتوح سيسهل المهمة!

هز أصيل رأسه بطريقة مضحكة:

- ما شاء الله عليكم، يبدو أنني آخر من يفهم الأشياء هنا!

فابتسم حسان قائلاً:

- لا تقلق فأنا معك، بالكاد وعيت الفكرة الآن!

عندها التفت طلال نحو علاء الذي بدا وكأنه يتابع مشهدا لا يعنيه:

- هيا يا علاء جاء دورك، عليك تحديد الجزء المغمور من المكعب..

فنظر إليه علاء مستفهما:

- كيف؟؟

عندها انتبه أصيل فعلق قائلا:

- كأنها الكلمة الأولى لك اليوم!! ما الذي أصابك يا علاء؟ هل أنت على ما يرام؟؟

وقبل أن يحيد الموضوع عن مساره، قال طلال:

- ضع إشارة بالقلم على المكعب تحدد الجزء المغمور منه بالماء ولكن انتبه حتى لا تدفع المكعب للأسفل فيزيح كمية إضافية من الماء، كن حذرا!

أمسك علاء بالقلم- وكأنه يمسكه للمرة الأولى رغم أن فهمه لهدف التجربة بدأ يكتمل تدريجيا- وكانت العيون مثبتة على يد علاء بقلق؛ خشية أن تنسكب كمية إضافية من الماء، وهو يحاول رسم خط عند التقاء المكعب بسطح الماء بحذر شديد، وبعد أن رسم عدة خطوط صغيرة من جميع جوانب المكعب بنجاح، تنفس الجميع بارتياح وعلق حسام:

- لقد أنجزت الجزء الأصعب من المهمة بسلام ولله الحمد، سأتابع تدوين الخطوات الآن وأنا مرتاح..

ابتسم علاء:

- جزاك الله خيرا على هذا التشجيع..

فقال طلال:

- لقد أحسنت فعلا يا علاء، والآن إلى الخطوة التالية..

فأخرج علاء المكعب من الماء ووصل بين الخطوط المتقطعة ليكمل الخط الفاصل بين الجزء الطافي من المكعب خارج الماء والجزء المغمور منه فيه، ثم حاول جهده أن يرسم الخط الفاصل داخل المكعب بدقة. بعد ذلك قام معاذ بإخراج وعاء الماء من الوعاء الكبير ومن ثم سكب الماء المزاح الموجود داخل الوعاء الكبير في المكعب، وتجمعت العيون فوق المكعب ليتأكدوا من أن الماء المزاح فعلا أخذ حجم الجزء المغمور، ثم هتف أصيل بفرح:

- لقد فهمت الفكرة أخيرا، حقا لا داعي لقياس الأحجام، فقد أخذ الماء المزاح حجم الجزء المغمور، وهذا يعني أن حجم الماء المزاح هو حجم الجزء المغمور من المكعب، فإذا تكررت النتيجة مع المكعبات الأخرى؛ نكون قد أثبتنا الجزء الأول من التجربة..

فعلق حسام ضاحكا وهو ينظر إلى ياسر:

- سجل هذه في قسم الملاحظات: أصيل فهمها أخيرا!

وضحك الجميع، قبل أن يقول علاء وهو يدقق النظر داخل المكعب وخارجه وقد بدأ ينسجم مع التجربة:

- كأن مستوى سطح الماء المزاح داخل المكعب اقل من الخط الفاصل، أي أن حجم الماء المزاح أقل من حجم الجزء المغمور من المكعب بقليل!

فأجابه طلال موضحا:

- خذ بعين الاعتبار أن هناك قطرات ماء ضائعة نتيجة الالتصاق بالوعاء الكبير، فإذا أخذنا نسبة الخطأ هذه بعين الاعتبار، كانت النتيجة مقبولة، ولذلك قال زيد أنه كلما كان حجم الأجسام أكبر كانت نسبة الماء الضائع إلى نسبة الماء المزاح أقل، وبالتالي نقلل نسبة الخطأ في التجربة..

هز علاء رأسه متفهما:

- هكذا إذن..

لكن زيداً تساءل باستغراب:

- غريب! صحيح أن سماكة أسطح المكعب قليلة جدا، ولكن يفترض أن حجم الوعاء من الداخل اقل من حجمه من الخارج ولو بنسبة قليلة، أفلم يعوض ذلك النقص في الماء المزاح؟؟

فرد عليه طلال بعد تفكير:

- يبدو أن كمية القطرات الضائعة من الماء المزاح أكثر، خذ بعين الاعتبار ظاهرة التبخر أيضا إضافة إلى كثرة الأسطح التي ستلتصق فيها القطرات وتسبب ضياعها..

بدا علاء مذهولا وهو يستمع إلى ذلك النقاش العميق، حتى شعر بأنه يحتاج إلى سنوات كثيرة ليصل إلى هذا المستوى من التفكير، في حين قال ياسر:

- لقد أضفت هذه الملاحظات في الجدول، فإذا تكررت الحال نفسها مع بقية المكعبات، وحسبنا نسبة الفرق بين الأحجام استطعنا أن نعرف كمية القطرات الضائعة أيضا

فضحك أصيل الذي لم يكلف خاطره بالتفكير في ما دار بين زيد وطلال:

- يا عيني عليك يا ياسر، لقد انضممت رسميا إلى معشر العلماء، ما رأيك أن نعدها قطرة قطرة!!

فابتسم ياسر:

- ليس إلى هذه الدرجة، كانت مجرد ملاحظة!

فقال طلال:

- ولكنها ملاحظة رائعة- ما شاء الله- لقد أعجبتني فعلا!

واستطرد بسرعة، وقد خطرت بباله فكرة طارئة قبل أن يفسح المجال أمام تعليقات إضافية:

- ما رأيكم أن نوزن هذا الماء المزاح أولا ونُثْبت أن قوة الطفو هي نفسها وزن الماء المزاح، قبل أن نكرر الخطوات السابقة مع المكعبات الأخرى؟

فقال حسام متأملا:

- تقصد أن نحقق هدف التجربة بجزأيها في خطوة واحدة!!

ثم هتف:

- فكرة جيدة ستختصر الوقت علينا

لكن ياسر قال:

- عندها علينا أن نضيف عموداً آخر للجدول، وأنا لم أعمل حسابا لهذا!

فعاتبه أصيل:

- كان عليك أن تعمل حسابا لخطوات مفاجئة أثناء العمل، فقد حدث معنا هذا من قبل!

فقال زيد:

- قدر الله وما شاء فعل..

و قال حسان:

- هذا جدول مبدئي و لا داعي لأن تكون الأعمدة متساوية أضف عموداً على الهامش، فنحن سنعيد رسمه على أية حال عندما نعد التقرير!

وقبل أن يتم حسان جملته كان ياسر قد عدل في رسم الجدول دون أن تضيع الملاحظات التي دونها من قبل:

المكعب	حجم الماء المزاح	حجم الجزء المغمور من المكعب	ملاحظات أخرى	وزن السائل المزاح
الكبير				
الوسط				
الصغير				

أبدى طلال إعجابه قائلا:

- جزاك الله خيرا يا ياسر، والآن إلى الخطوة التالية..

وقبل أن يتم جملته قفزت فكرة طارئة أخرى لذهن حسام، فقال بحماسة:

- ما رأيكم أن نستخدم أدوات القياس التي صممناها بأنفسنا في المستوى الخامس، بدلا من الأدوات المعتادة!

فهتف معاذ و زيد بالموافقة:

- فكرة ممتازة!!

في حين قال حسان:

- ستزيد نسبة الخطأ في التجربة في هذه الحال!

لكن طلال قال:

- بل ستكون فرصة مناسبة لنختبر مدى دقة أدواتنا، وسنفاجئ المعلم برهان بها

فقال زيد:

- إذن دعونا نستخدم (التمراك) للوزن فهو أفضل المقاييس التي قدمناها كما قال لنا المعلم برهان..

أما أصيل الذي بدأ يشعر بالملل فقد قال:

- أخشى أن ينتهي الوقت ونحن لم نحقق الهدف المطلوب منا بعد!

فأسرع طلال يرد عليه:

- اطمئن من هذه الناحية، فقد أخذت ذلك بعين الاعتبار ولا تنس أننا قمنا بدمج خطوتين بخطوة..

وبسرعة كان حسام قد نهض ليحضر الأدوات والأثقال من فوق الرف الخاص بها، قبل أن يعود إلى مكانه مرة أخرى وهو يضعها على الأرض أمامهم، وأخذ علاء يتأمل الأثقال المصنوعة من أنوية التمر، متسائلا:

- ما هذا؟؟ أهذا هو التمراك الذي تحدث عنه زيد؟؟

فأجابه طلال:

- هذه احدى الموازين الخاصة التي قمنا بابتكارها السنة الماضية بعد أن درسنا أدوات القياس و الموازين، فكما تعلم فإن القيراط المستخدم في الأوزان يعادل وزن ثلاث حبات شعير، والمثقال المعروف يعادل أربعاً وعشرين قيراطا أي اثنتين وسبعين حبة شعير، و على هذا المنوال يبتكر العلماء مقاييسهم الخاصة، وقد كلفنا

المعلم برهان السنة الماضية بعمل مماثل فكانت النتيجة هي أننا اتفقنا على استخدام أنوية التمر، وقمنا بإلصاق كل أربع حبات معاً كمقياس ثابت..

فقال حسان:

- هذا بالطبع بعد أن اتفقنا على نوع واحد من التمر و جمعنا عدداً كبيرا من الأنوية، وقمنا بوزنها عدة مرات قبل أن نخلص إلى ذلك المقياس الذي أطلقنا عليه اسم (تمراك)..

فأضاف أصيل باسما:

- كنا سنسميه طليل نسبة إلى العالم طلال كامل..

فضحك حسام:

- ألا يكفيك ما نالك منه في ذلك الوقت!!

فشاركه أصيل الضحك والتعليق:

- ذكرتني عندما حاولنا تكوين اسم للمقياس باستخدام حروف أسمائنا الأولى، كان أمرا مسليا جدا.. لقد فاتك يا علاء منظر طلال وقد بدأ يفقد أعصابه وقتها!!

لكن طلال تابع بجدية:

- لا وقت للسخرية الآن، وهيا بنا إلى الخطوة التالية..

قال جملته الأخيرة وهو يحمل المكعب المملوء بالماء ليضعه على أحد كفتي الميزان الذي مال إلى الأسفل، في حين أخذ حسام يضع أثقال التمراك في الكفة المقابلة إلى أن مالت الكفة تقريبا بعد أن وضع حسام التمراك العاشر، فقال طلال:

- حسنا سنكتفي بتسعة تمارك ومن ثم نزيد أجزاء التمراك المفردة..

وبالفعل أخذ حسام يضيف نواة نواة من أنوية التمر المفردة والمعدة بشكل خاص، وبعد أن أضاف نواتين تساوت الكفتان تقريبا. فقال ياسر:

- حسنا سأدون هذا: وزن المكعب مع الماء المزاح تسعة تمارك ونصف..

وأردف طلال، وهو يرفع المكعب من فوق كفة الميزان، ويسكب الماء منه:

- والآن سنزن المكعب وحده، لنحسب وزن الماء المزاح..

فقال حسام وهو يناوله المنشفة:

- لا تنس تجفيف المكعب جيدا تلافيا لخطأ القياس..

فابتسم أصيل وهو يخاطب ياسر:

- وأنت يا أخ دون ملاحظة، حول أهمية منشفة حسام في التجربة..

فضحك حسام، وهو يضع أوزان التمراك في الكفة المقابلة، معلقا:

- وسيكون من الجميل أيضا أن تضيف على ذلك أهمية الدور الذي أقوم به مع التمراك!

عندها علق طلال باسما:

- جاء دوري لأذكرك بعدم الغرور..

وتابع وهو يلاحظ التمراك السابع الذي وضعه حسام:

- تمهل قليلا الآن ودعنا نتابع اتزان الكفتين بإضافة نواة نواة..

وبالفعل اتزنت الكفتان بعد ثمان تمارك وربع، وبعد أن دون ياسر هذه الملاحظة، قال زيد:

- هذا يعني أن وزن الماء المزاح تمراك واحد وربع..

فتساءل معاذ:

- حسنا ماذا بعد؟؟ أوجدنا وزن الماء المزاح والآن علينا أن نجد قوة الطفو، فكيف سنحسبها؟؟

خيمت لحظة صمت، قبل أن يقول طلال كمن يراجع معلوماته:

- قوة الطفو هي الفرق بين وزن الجسم في الهواء ووزنه في السائل، ونحن قد أوجدنا وزن الجسم في الهواء، وبقي علينا أن نجد وزنه في الماء..

فقال معاذ:

- وهنا مربط الفرس، كيف سنجد وزن المكعب في الماء؟؟

أطبق الصمت من جديد عليهم وهم غارقون بالتفكير قبل أن يقول طلال:

- حسنا سنترك هذه الخطوة مؤقتا، ودعونا نكمل التجربة بإعادة الخطوات السابقة للمكعبات الأخرى..

وبالفعل تناوب الأصدقاء بإعادة خطوات التجربة مع المكعب الأوسط ثم الصغير، ليحصلوا على النتائج نفسها تقريبا، ولم يبق أمامهم إلا الخطوة الأخيرة التي سيكملون من خلالها تحقيق هدف التجربة، وأخيرا قال حسام بعد أن أكمل تدوين خطوات العمل التي قاموا بها:

- علينا أن نفكر بطريقة مختلفة، فلن يكون من السهل قياس وزن المكعب داخل الماء باستخدام ميزان يوضع أسفل المكعب حسب الطريقة الاعتيادية!

فقال زيد:

- تقصد أننا بحاجة لميزان يقيس الوزن من الأعلى؟؟

عندها قال طلال وهو ينهض من مكانه:

- سنستخدم عصا الارتكاز الطويلة ونثبت فوقها عصا الاتزان التي استخدمناها في تجربة الروافع، ونقوم بتثبيت خيطين متساويين في الطول بخطافين متماثلين على طرفيها ، احدهما نعلق به الجسم والآخر لإضافة موازين التمراك..

فهتف حسام بحماسة وهو يهب من مكانه، ليساعد طلال في موازنة عصا الاتزان فوق عصا الارتكاز الطويلة:

- فكرة ذكية ما شاء الله..

ثم وضع إشارة بالقلم على منتصف عصا الاتزان، قائلا:

- بهذه الطريقة نستطيع التأكد من كون عصا الاتزان مرتكزة من المنتصف تماما خلال خطوات العمل..

أما أصيل الذي بدا واجما للحظات محاولا استيعاب ما يحدث، فقد التفت إلى حسان، الذي أخذ يجرب طريقة لتعليق المكعب بخطاف الخيط المتدلي من عصا الاتزان:

- هلا أفهمتني ما الذي تحاول فعله!!

فرد حسان:

- فكر معي بطريقة نعلق بها المكعب..

فأجابه أصيل بسرعة:

- وهل هذا يحتاج إلى تفكير؟ لف خيطا حول المكعب من الجهات الأربع ثم اعقده من الأعلى على شكل حلقة، لا يحتاج الموضوع إلى ذكاء خارق أيها الذكي!!

لكن طلال علق قائلا وهو يزيد في طول الخيط المتدلي من طرف العصا:

- أحسنت.. فكرة جيدة، لا تستخف بأي فكرة فقد تغيب عن البال أحيانا!

فرك أصيل يديه بسعادة وصاح:

- مرحى، لقد حصلت على إعجاب المعلم طلال أخيرا، ستعوضني بلا شك عن الملاحظات التي كتبتها عني للمعلم برهان في المرة السابقة..

فقال طلال بابتسامة:

- هذا إن لم تجبرني على تغيير رأيي!

فعلق أصيل:

- حسنا ولكن لا تصدق نفسك كثيرا كنت أجاملك فقط!

ثم استدرك بسرعة:

- أمزح طبعا، دعنا نكمل التجربة..

فضحك حسام:

- يبدو أن ملاحظات طلال قد بدأت تؤتي أكلها..

وفي تلك الأثناء كان معاذ وزيد قد وجدا الطريقة المناسبة لتعليق أوزان التمراك في طرف الخيط الآخر، وبدءا بلف الخيوط حولها مع عقدها على شكل حلقات، وعلق زيد:

- بما أن الخيط خفيف جدا فلن يؤثر كثيرا في أوزان التمراك و يمكننا إهمال وزنه..

فقال طلال:

- هذا صحيح ولكن من باب الاحتياط؛ حاولا أن تقتصدا قدر الاستطاعة في استخدام الخيوط..

أما علاء الذي كان يدرك تماما بأن طلال لن يحابيه في كتابة ملاحظاته، التي سيرفعها للمعلم برهان عن أدائه في التجربة، فقد شعر بالحرج من قلة مشاركته وتشتت ذهنه، ودعا الله في سره أن يلهمه فكرة تعوضه عن تقصيره، وهو يشارك معاذ وزيد في لف التمارك بالخيوط..

كان ياسر قد أعد جدولا جديدا بأربعة أعمدة وأربعة صفوف لتدوين الملاحظات، وكتب عنوان كل عمود في الصف الأول:

المكعب	وزنه في الهواء	وزنه في الماء	قوة الطفو (الفرق بين الوزنين)
الكبير			
الأوسط			
الصغير			

عندما قال طلال، وهو يعلق المكعب الكبير بخطاف الخيط المتدلي من أحد الجوانب:

- لمزيد من الدقة علينا أن نعيد وزن المكعبات باستخدام هذا الميزان الجديد، ويمكننا بالطبع مقارنته مع الوزن الذي حصلنا عليه من الميزان السابق ذي الكفتين..

وقف علاء ليحافظ على ضمان ارتكاز عصا الاتزان من منتصفها فوق عصا الارتكاز وبدأ حسام يعلق التمارك في خطاف الخيط المقابل، إلى أن بدأت عصا الاتزان المائلة باتجاه المكعب تتزن تدريجيا، ومن ثم أخذ يعلق نواة نواة إلى أن قال طلال وهو يلاحظ استواء عصا الاتزان:

- أظن هذا يكفي..

وأكد علاء قوله كما أكده زيد وحسان، أما معاذ فقد قال:

- أشعر بأن العصا مائلة قليلا باتجاه أوزان التمراك

وأكد ياسر كلامه:

- وأنا أشعر بهذا أيضا ربما عليك أن تزيل نواة يا حسام!

وما إن فعل حسام ذلك حتى بدت عصا الاتزان مائلة قليلا باتجاه المكعب مرة أخرى، فقال طلال:

- الوزن السابق كان أفضل!! ما رأيكم؟؟

فوافقه ياسر و قال حسام بعد أن أعاد النواة واتزنت العصا مرة أخرى:

- وزن المكعب ثماني تمارك ونصف..

فقال معاذ الذي بدا غير راض عن النتيجة تماما:

- لو استطعنا إزالة نصف نواة لكان أفضل، أظن أننا بحاجة لتقسيم التمراك إلى ثمانية أقسام عوضا عن أربعة!

فقال زيد:

- لا بأس فنحن نتوقع نسبة من الخطأ في القياس

فعلق أصيل مشيرا إلى حبات الرمل؛ التي أخذت تنساب بانتظام داخل الساعة الرملية الموضوعة على المنضدة أمامهم، معلنة مرور ثلاثة أرباع الوقت المتاح:

- سينتهي الوقت وأنتم تضيعونه بهذه الدقة الزائدة!

أردف طلال:

- كانت ملاحظة جيدة، أما الآن واستثمارا للوقت دعونا نركز في الخطوات المتبقية..

وقرأ ياسر المقارنة بين وزن المكعب في الحالتين:

- باستخدام الميزان ذي الكفتين؛ وجدنا أن وزن المكعب ثماني تمارك وربع، أي أنه يقل بنواة واحدة عن الوزن الذي وجدناه الآن!

فقال طلال:

- الحمد لله هذا جيد فالنتيجة متقاربة، ونسبة الخطأ فيها مقبولة..

قال معاذ:

- لو اعتمدنا القياس بإزالة النواة لكانت النتيجة متطابقة..

فقال طلال:

- ولكننا لا نستطيع اعتمادها من الناحية التجريبية، فلم تكن عصا الاتزان مستوية وقتها أبدا باتفاق الجميع!

هز معاذ رأسه مستسلما:

- ربما..

فتابع طلال وهو يقرب وعاء الماء من المكعب:

- والآن علينا أن نقيس وزن المكعب في الماء

وهمّ حسام بإزالة أوزان التمراك من الجهة الأخرى ليبدأ من جديد، فاستوقفه علاء قائلا:

- لحظة يا حسام، هدفنا أن نقيس قوة الطفو، لذا لا داعي لأن نعيد وزن المكعب داخل الماء من البداية، دعونا نضع الوعاء وهو فارغ تحت المكعب المعلق ثم نزيد الماء تدريجيا إلى أن يطفو المكعب فوق سطح الماء، عندها ستميل عصا الاتزان باتجاه أوزان التمراك التي كانت توازن المكعب وهو معلق بالهواء، ومن ثم نبدأ بإزالة الأوزان نواة نواة إلى أن تتوازن العصا مرة أخرى، وبهذا تكون قوة الطفو مساوية لأوزان التمراك التي تمت إزالتها..

تهلل وجه طلال:

- مدهش يا علاء ما شاء الله، رائع جدا..

وهتف حسام بفرح:

- لقد اختصرت علينا الوقت أيها العبقري!

وأكد زيد:

- فكرة رائعة هيا نبدأ التنفيذ..

قالها وهو يفرغ الماء من الوعاء ويسكبه في الدلو، ليضع الوعاء فارغا تحت المكعب، في حين كان معاذ وياسر وحسان يحاولون فهم الفكرة الجديدة، أما أصيل فقد قال بنفاد صبر:

- كم أكره الشعور بأنني المغفل الوحيد هنا!!

فقال طلال:

- ركز قليلا فالفكرة بسيطة، كل ما في الأمر أننا سنقيس قوة الطفو بشكل مباشر، بدلا من أن نقوم بقياس وزن المكعب في الماء ثم نطرحه من وزنه في الهواء!! هل وضحت الفكرة الآن؟؟

فتابع حسان موضحا وهو يراجع معلوماته:

- وزن الجسم في الماء سيكون أقل من وزنه في الهواء وذلك بسبب قوة الطفو التي تدفعه إلى أعلى، ونحن الآن أوجدنا وزنه في الهواء عن طريق موازنته مع أوزان التمراك ووجدنا أنه يساوي ثماني تمارك ونصف، بعد ذلك سنبدأ بملء الماء في الوعاء تحت المكعب المعلق إلى أن يطفو فيخف وزنه وتميل عصا الاتزان باتجاه الثماني تمارك ونصف فنبدأ بتخفيف الوزن فيها إلى أن تتزن العصا مرة أخرى، عندها تكون الأوزان التي تمت إزالتها مساوية لقوة الطفو.. أليس كذلك؟؟

فقال طلال:

- بالضبط تماما..

فكر أصيل قليلا قبل أن يقفز فرحا:

- الحمد لله فهمتها فهمتها..

فابتسم حسام معلقا:

- فكيف إن وجدتها!!

فأجابه أصيل ضاحكا:

- لقد بدأت أتفهم شعور أرخميدس الآن؛ عندما صاح وجدتها وجدتها.. والله يستر علينا!!

فضحك حسام حتى استلقى على قفاه، وضحك الجميع حتى طلال لم يقاوم الضحك هذه المرة، وبعد أن هدأت الضحكات قليلا قال معاذ الذي كان آخر من فهم ما عناه أصيل بكلامه وهو يجاهد ليوقف ضحكاته:

- لو دخل علينا أحدهم الآن لظن أننا أصبنا بنوبة جنون – نسأل الله العافية..

فعلق ياسر باسما:

- هل أدون هذه في الملاحظات!

فابتسم طلال:

- لا بأس فبعض الضحك مفيد للصحة..

عندها قال أصيل بلهجة صبغها بطابع الجدية تهكما:

- لا لا عليك أن تنتبه لنفسك يا سيد طلال، لقد أصابتك العدوى حتما..

فأجابه طلال:

- لا تقلق حتى هذه الضحكات بحساب.. والآن إلى الخطوة التالية..

أخذ زيد يصب الماء في الوعاء تحت المكعب المعلق بالخيط حتى بدأ الجزء السفلي منه ينغمر في الماء تدريجيا، وأخذ يزيد الماء بحذر شديد رويدا رويدا حتى إذا ما وصل الماء إلى الخط الفاصل الذي رسمه علاء حول المكعب، طفا المكعب ومالت عصا الاتزان باتجاه أوزان التمراك، وبعد أن تأكد الجميع من كون المكعب طافيا فوق الماء، بدأ حسام بتخفيف أوزان التمراك وهو يزيلها نواة نواة ويتوقف بعد كل واحدة حتى تستقر عصا الاتزان من جديد أمام العيون المحدقة المترقبة، حتى قال معاذ أخيرا:

- هذا يكفي، لقد اتزنت العصا..

ووافقه الجميع، فقال حسام بعد أن عد الأوزان التي أزالها من الخطاف:

- تمراك وثلاث أنوية..

فقال ياسر:

- أي تمراكان إلا ربع، وهذه النتيجة تزيد بربع تمراك عن وزن الماء المزاح الذي وجدناه سابقا، فقد كان تمراكاً ونصف..

قال زيد مبتهجا:

- إذا أخذنا نسبة الخطأ بعين الاعتبار، فهذا يعني أننا أثبتنا فعلا بأن قوة الطفو تساوي وزن السائل المزاح..

وارتسمت علامات الفرح على الوجوه وهتف علاء بسعادة:

- الحمد لله لقد حققنا الهدف من التجربة أخيرا

فقال طلال:

- ليس قبل أن نتأكد تجريبيا من أن هذه النتيجة هي نفسها للمكعبات الأخرى، فنستطيع بعد ذلك تعميمها..

في حين قال معاذ:

- لو وجدنا وزن الماء المزاح باستخدام هذا الميزان المعلق أيضا لكانت النتيجة أفضل وأكثر تطابقا!

صرخ أصيل محتجا:

- أرجوك لا تعكر فرحتنا بهذه الدقة الزائدة!!

فابتسم طلال وهو يلاحظ حبات الرمل وهي تنساب بإصرار من عنق الساعة الرملية معلنة قرب انتهاء الوقت:

- لا بأس سنقوم بذلك فيما بعد، يكفينا أننا استطعنا تحديد الفرق في الوزن بين الميزان المعلق والميزان ذي الكفتين، ويمكننا إضافة ذلك للنتيجة..

فقال ياسر وهو يدون الملاحظة:

- الفرق هو ربع تمراك تقريبا..

وقال حسام:

- لقد دونت خطوة العمل الأخيرة من هذا الجزء والحمد لله

قال طلال مشجعا أصدقاءه:

- لم يبق أمامنا إلا إعادة خطوات الجزء الثاني للمكعبين الاخرين بسرعة قبل انتهاء الوقت..

تبادل الأصدقاء الأدوار في إعادة الخطوات مع المكعبات التالية بناء على توجيهات طلال؛ حتى يتمكن كل واحد منهم المرور على أجزاء التجربة كلها وفهمها، وفي اللحظة التي سقطت فيها آخر حبة رمل من القمع العلوي في الساعة الرملية لتعلن انتهاء الوقت المتاح لهم، دخل المعلم برهان ليجدهم ساجدين شكرا لله كعادتهم عند تحقيق أي هدف بنجاح فابتسم قائلا:

- دعونا نشارككم الفرحة برؤية النتائج التي حصلتم عليها والتقرير الذي أعددتموه يا أبنائي..

فناوله طلال التقرير الذي دمجت فيه خطوات العمل التي كتبها حسام مع ملاحظات ياسر وجداوله، والذي صبغه ياسر بلمسة فنية مضيفاً إليها الرسوم التوضيحية التي أبدعها بإتقان، وذيله طلال بتقييمه لأداء كل واحد منهم ودوره في التجربة، مما جعل المعلم برهان يقول بفخر وهو يطلع على ذلك بنظرة خبيرة فاحصة:

- ما شاء الله، أنتم فعلا أبناء مدرسة النصر، وفرسانها العلماء الذين نفاخر بهم..

فهمس حسان لأصيل معلقا بصوت ظنه غير مسموع:

- وكأننا اكتشفنا شيئا جديدا!!

فابتسم المعلم برهان:

- ولكنها الطريق لفتح الأبواب أمام اكتشافات جديدة بإذن الله؛ ففهم الطريقة العلمية في التجارب من خلال تطبيقها على قواعد سابقة، يعوّدكم على التفكير السليم والاستنتاج المنطقي..

احمرت وجنتا حسان وابتسم أصيل هاتفا:

- أجل يا معلمي، بل ويدخل في عقولنا ما صعب علينا فهمه، ويجعلنا نعذر الآخرين إن وجدوها..

وانفجر الجميع بالضحكات، ليردد المعلم برهان كالعادة:

- أضحكونا معكم يا فرسان..

فاعتذر طلال موضحا:

- كانت ملاحظة أثارها أصيل حول أرخميدس عندما هتف بـ"وجدتها"..

فضحك المعلم برهان قائلا:

- يا لتفكيركم أيها الأولاد..

ثم استطرد مغتنما الفرصة:

- كلنا مدينون لأرخميدس و فيثاغورس وإقليدس وغيرهم من العلماء الذين قدموا العلم النافع فانتفعت به البشرية على مر القرون، وقد زالوا هم وما زالت آثارهم، وجاء المسلمون من بعدهم فدرسوا علومهم وجربوها ثم أضافوا عليها وطوروها، هذه هي طريقة ابن الهيثم والبيروني والخازن ومعظم العلماء المسلمين الأوائل، عندما أخلصوا في طلب العلم باحثين عن الحقيقة ناسبين الفضل لأهله منصفين من سبقهم من العلماء، دون إتباع للهوى، ولا ميل مع الآراء، فحفظ الله جهودهم ونفعنا بها ونسأله سبحانه أن يجزيهم عنا خير الجزاء، فاجتهدوا يا أبنائي لعل الله أن يكرمكم بعلم نافع خالص لوجهه الكريم، يجعله سببا في نهضة أمتنا وإعادة مجدها بعد توانيها وهوانها، فيسعد العالم كله بفتح مبين وخير عميم وسلام تهنأ به البشرية جمعاء بل والكون بأسره بإذن الله..

***

لم تعرف انتصار لم وجدت نفسها تبكي بشدة بعد إنهائها للأسطورة، حتى أنها لم تستطع تمالك نفسها على الأقل أمام ميمونة التي راعها مشهدها وهي بتلك الحال عندما دخلت عليها الغرفة، جلست ميمونة إلى جوارها وأخذت تضمها محاولة التخفيف عنها:

- خير إن شاء الله! هل حدث شيء؟؟

وبصعوبة تكلمت انتصار وهي تشهق شهيقا كاد أن يخنقها:

- آسفة لا شيء يستحق القلق.. اطمئني..

فاكتفت ميمونة بالصمت وهي تربت على كتف انتصار بحنان، وقد أدركت بحدسها أن للأسطورة علاقة بالأمر، وبعد أن هدأت انتصار قليلا، حسمت ميمونة أمرها وتجاوزت ترددها لتسألها مباشرة:

- هلا أخبرتني عن نفسك يا انتصار؟

شعرت انتصار بأنه قد آن الأوان لتتحدث عن نفسها، فمن غير المعقول أن تبقى صامتة هكذا وهي في ضيافة هذه العائلة الطيبة إلى الأبد، وأخيرا قالت:

- ربما لم أشعر بذلك من قبل ولكنني أستطيع القول بأنني نشأت في بيئة مترفة جدا، لم أكن أعرف فيها معنى المسؤولية، رغم أن أمي توفيت وأنا في سن الرابعة، فقد تولى أبي رعايتي وخصص لي الكثير من الخدم الذين يهتمون بشؤوني الخاصة لا سيما وأنني ابنته الوحيدة، إضافة إلى أنه لم ينجب من زوجته الأخرى التي جاءت لمنزلنا بعد عامين من وفاة أمي، والتي انشغلت بحياتها الخاصة منذ البداية فلم تكن العلاقة بيننا أكثر من اثنتين تعيشان في المنزل نفسه ولا يجمعهما إلا مائدة الطعام، ولم تكن تتدخل بشؤوني أبدا وربما كان هذا أفضل شيء فعلته بالنسبة لي..

نشأت بعيدة عن أترابي فقد كانت لي حياتي الخاصة أيضا و التي أشعرتني بالعزلة، فالدروس أتلقاها وحدي في المنزل على أيدي المعلمات اللاتي يختارهن لي أبي، ولم أكن أخرج إلا بصحبة مرافقات خاصات يعتنين بي، فقد كان أبي يخشى علي كثيرا حتى أنني لم أعلم بوجود خالة لي إلا بعد أن تجاوزت سن العاشرة، فلم

يكن ليسمح لي بزيارة أحد، ولم أستطع تفسير ذلك إلا بقلقه الزائد عليّ ولا أدري لماذا، لكنني لم أكن أجرؤ على التفكير في مخالفة أمره، ولا حتى أن أطلب منه الجلوس معي أو مرافقتي في نزهة، فهو مشغول دائما وذو شخصية صارمة حازمة، ويكفيني منه تعامله الطيب معي..

وصمتت انتصار قليلا فيما كانت ميمونة تتابعها باهتمام، وتحثها بعينيها على متابعة الكلام.. تنهدت انتصار وإمارات التأثر تعلو قسائم وجهها مما يشير إلى أنها قد اقتربت من الحديث عن الجزء الأخطر في حياتها:

– لقد كانت الأمور في حياتي تسير بشكل رتيب و ممل أحيانا، حتى جاء ذلك اليوم الذي طلبت فيه خالتي الوحيدة من أبي السماح لي بزيارتها والمبيت عندها فهي تقيم وحدها في منزلها بعد وفاة زوجها الذي لم تنجب منه، وبعد إلحاح شديد و ضمانات كثيرة تعهدت فيها خالتي بأن كل شيء سيكون على ما يرام، سمح لي أبي الذهاب إليها، وكنت متشوقة لمعرفة أية معلومات عن أمي وعائلتها، والتي لم أكن أعرف عنها شيئا، لقد شعرت بحنان الأم المتمثل في خالتي لأول مرة، حتى أنني ظننتها لوهلة انها أمي الحقيقية التي عشت بعيدة عنها طوال تسع سنوات مضت، فقد كنت وقتها في الثالثة عشرة من عمري، وقد توالت زياراتي بعدها لخالتي بحذر؛ حتى لا أغضب أبي فيمنعني من زياراتها نهائيا، فقد تعلمت منها الكثير حتى أنها علمتني الصلاة لأول مرة، وأهدتني مصحفا أقرأ منه، إذ لم يكن أبي يقيم لأمور الدين وزنا بل ويظن أنها سبب في تخلف المجتمع، وكانت خالتي حكيمة جدا فقد كانت هي أحرص مني على أن لا يحول أبي بيني وبين زيارتها، حتى أنني حينما حاولت ارتداء الحجاب تأسيا بها، منعتني معللة بأنه لم يحن الوقت المناسب لذلك بعد، وبالفعل لم يلحظ أبي أي تغير في تصرفاتي أو في تعاملي معه مما أتاح لي فرصة للتقرب من خالتي أكثر، فشعرت بأن لأسرة أمي ماضٍ عريقٍ يلفه بعض الغموض إلا أنني لم أفكر بالسؤال عنه مطلقا مكتفية بما تحدثني به خالتي..

وصمتت انتصار مرة أخرى في حين أخذت الدموع تفيض من عينيها مجددا، وهي تحتضن يدها اليمنى بيدها اليسرى وتضمها إلى صدرها، قبل أن تقول بحزن:

- ماتت خالتي الحبيبة بعد أربع سنوات عوضتني فيها عن أمي، فكان موتها صدمة كبيرة لي رغم أنها بذلت جهدا كبيرا لمواساتي وهي على فراش الموت، كانت تحاول إيصال رسالة لي وهي تضع في أصبعي خاتمها الغريب الذي طالما أثار فضولي، مرددة على أسماعي عبارتها التي لا زالت تطن في أذني "هذه أمانة فحافظي عليها، فقد يكون مصير العالم مرهون به"، ولم ألق بالا وقتها لذلك الكلام أمام فاجعتي الكبيرة بموتها، غير أن الخاتم غدا أعز ما أملك ما دام عزيزا عليها إلى ذلك الحد، فهو جزء منها، والصلة التي تربطني بها..

كانت الدموع تسيل بغزارة من عيني ميمونة التي حاولت جاهدة أن تتجلد أمام انتصار وهي تنصت إليها، حتى لا تثير أحزانها أكثر، لكن انتصار اصطنعت ابتسامة صغيرة وهي تقول:

- هوني عليك يا عزيزتي، لم يأت صلب الموضوع بعد! فحتى ذلك الحين بدت أحزاني عادية لما حصل بعد ذلك..

والتقطت نفسا عميقا وقد شعرت برغبة قوية تدفعها للبوح بكل ما لديها:

- للأسف لم يجد أبي حلا آخر لإخراجي من أزمتي تلك سوى إقامة الحفلات التي رفضتها بشدة في بداية الأمر فهي مختلفة تماما عن الجو الذي تفضله خالتي، ولكنني رضخت في النهاية لأمره حتى لا يُسمعني ما يسوؤني عن خالتي الراحلة التي كانت سببا في إفساد حياتي برأيه، حتى التقيت في أحد الحفلات، التي كنت أحضرها مرغمة، بشاب لطيف جدا علمت منه أنه ابن أحد أصدقاء والدي، كان لطيفا جدا معي ورقيقا أيضا، ورغم أنني حاولت الابتعاد عنه في البداية كما كنت أحاول تجنب غيره من الشبان الذين لا يكفون عن دعوتي لمراقصتهم أو حتى صداقتهم وهم يحاولون التقرب مني، إلا أنني وجدت فيه شيئا مختلفا فلم أعرف كيف بحت له بأحزاني وسمحت لدموعي بالنزول أمامه، حتى فوجئت به يحتضنني فجأة فنفرت منه وكلمات خالتي ما زال صداها يتردد في أعماقي، "صوني نفسك يا ابنتي فأمك سيدة عفيفة طاهرة"، لكنه أسرع يعتذر بأدب بأنه لم يكن يقصد أي سوء، إلا أن تصرفه هز مشاعري بقوة تاركا أثرا عميقا في قلبي، فعشت في صراع بين

القيم التي حرصت خالتي على غرسها في نفسي، وبين خفقات قلبي التي فاجأتني بشعور غريب لم أجربه من قبل..

وبترت انتصار كلماتها وهي تلتفت إلى ميمونة الجالسة الى جوارها قائلة:

- أعتذر عن التفوه بمثل هذا الكلام أمامك وفي منزلكم وأنت ابنة شيخ...

فقاطعتها ميمونة بقولها:

- ما هذا الذي تقولينه يا عزيزتي، لم الاعتذار!! أنت تتحدثين عن أمور طبيعية، وكلنا معرّضون لها، ولو كنت مكانك لشعرت بالشيء نفسه، فهذا شيء بديهي! أنا أفهمك تماما فلا تقلقي..

قفزت نظرات امتنان إلى عيني ميمونة، وصورة جويرية وهي تحدث الفتيات بالأمس تلتمع في ذهنها:

- أنتم حقا مختلفون عن أهل الدين الذين أسمع عنهم!

وضّحت ميمونة الموقف بكلامها:

- لم يُحرّم الدين المشاعر النبيلة التي جُبلنا عليها، لقد هذبها فقط ورعاها وأحاطها بعناية فائقة حتى لا تهدر فتنقلب همّاً وغماً على أصحابها، لقد تفهم رسولنا صلى الله عليه وسلم هذه الأمور ووجهنا إلى الطريقة المثلى في التعامل معها، هذا هو الإسلام الذي أرسل الله به رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم، فهو دين رحمة وحب وخير، أما ما ارتسم في الأذهان عن أهل الدين – كما يقولون؛ قاصدين بذلك الذين يحرصون على تطبيقه- فهو إما مبالغة أو ادعاء عليهم وإما جهل يصدر من بعض من ادعى التدين؛ فيسيء إلى الدين وهو يظن أنه يحسن، منفرا الناس عن تعاليم الدين التي جُمعت فيها سعادة البشرية..

وشدت ميمونة على يد انتصار وهي تقول لها مشجعة:

- أرجوك لا تشعري بأي حرج فأنا أختك قبل أي شيء..

طأطأت انتصار رأسها، وصمتت قليلا قبل أن تتابع قائلة:

- لم يمض على التقائي بذلك الشاب أكثر من شهر كثرت فيه زياراته لنا، خاصة بعد أن لاحظ ترحيب والدي به، وهو يراني قد استعدت عافيتي وبدأت أهتم بنفسي أكثر، دون أن يدرك حقيقة تعلقي به الذي بدأ يزداد تدريجيا مع الأيام، رغم محاولاتي الجاهدة في التزام الحدود المتعارف عليها بيننا، حتى ظننت أنني حصلت على سعادتي أخيرا بإعلان خطبتنا رسميا، وهنا بدأت المشاكل بالظهور..

فبعد أسبوع فقط خرجت معه لإحدى الحفلات فوجدته يتقرب من الفتيات الجميلات، ويستدرجهن ليملن إليه، رغم أنني خطيبته التي يحبها كما يزعم، لقد فاجأني المشهد في البداية لكنه برره لي بأنه غير مقصود وأنني أسأت فهمه، ولكنني لم أحتمل ما حدث بعد ذلك، فما كان منه إلا أن نعتني بالفتاة الغيورة الساذجة، ورغم أنني أعلنت غضبي من تصرفه أكثر من مرة إلا أنه لم يكترث بمشاعري، لقد شعرت وقتها بأنني مجرد فتاة مسكينة في نظره تستحق الشفقة، مما ترك جرحا غائرا في صدري بكيت على أثره كثيرا، دون أن أُطلع أبي على شيء، حتى قررت أن أتخذ موقفا حاسما منه، فامتنعت عن مقابلته وأنا أجاهد نفسي حتى لا أضعف أمامه لعله ينتبه إلى خطئه، لكنني لم أستطع الصمود كثيرا إذ سرعان ما استسلمت لباقة الورود الحمراء التي أرسلها تعبيرا عن حبه لي وحرصه على ودي، فخرجت معه مجددا لأفاجأ بأنني أرافقه كدمية يتباهى بها أمام أصدقائه، دون أن يحرك ساكنا لنظراتهم الوقحة وتصرفاتهم غير اللائقة نحوي، وعندما أبديت امتعاضي منهم وحدثته عن رغبتي بارتداء الحجاب، متأملة منه تأييدا لقراري، كشر عن أنيابه ولم يتورع عن وصفي بالجاهلة المغفلة!!

ولم تستطع انتصار حبس دموعها فبكت بحرقة:

- لقد أحببته بصدق، وكنت أريده زوجا طيبا يشاركني همومي ويتحمل معي أمانة خالتي التي ما زلت أجهل كنهها، إلا أنه لم يكترث بمشاعري.. فقد كنا مختلفين تماما!!

ربتت ميمونة على كتفها مواسية:

- أنت فتاة طيبة ومعدنك أصيل ولن يضيعك الله أبدا يا انتصار..

فتنهدت انتصار بألم:

- لقد بحت له بأسراري لعله يعينني على فهم سر خاتم خالتي التي طالما حدثته عنها وعن حنانها و أخلاقها، وبدلا من أن يقدّر ذلك وضعني على محك صعب، لم أتخيل أن أمر به قط..

والتقطت نفسا قبل أن تقول بقهر:

- لقد خيرني بينه وبين الخاتم الذي يذكرني بخالتي وقيمها البالية برأيه، مستخفا بما ذكرته له عن الأمانة!! ولا يمكنني أن أجد تفسيرا لذلك إلا أنه يحاول الإمعان في إذلالي مستغلا حبي له وتعلقي به، ومعرفته بموقف أبي السابق من آراء خالتي..

و لم تستطع انتصار متابعة كلامها؛ إذ أخذت تنشج نشيجا عاليا يمزق القلوب، فيما شعرت ميمونة بقلبها ينفطر ألما وصدرها يغلي غضبا على تلك النوعية من الرجال، وهي تحاول البحث عن كلمات مناسبة تخفف بها عنها، لكن انتصار هدأت قليلا، وهي تسترجع ما حدث معها، قائلة:

- لقد عبرت يومها عن غضبي الشديد وكنت على وشك إنهاء ما بيني وبينه، لكنه سرعان ما اعتذر لي زاعما أنه يختبر صدق حبي له فقط..

كادت ميمونة أن تصب عليه وابلا من الدعوات القاصمة إلا أنها آثرت الصمت، فتابعت انتصار:

- لا أعلم ما الذي سيحدث الآن فقد مضت ستة أشهر على خطبتنا ولم تعد بيننا نقاط تفاهم...

صمتت انتصار فجأة، فحثتها ميمونة على متابعة الكلام:

- وبالطبع لم تصارحي والدك بما يحدث؟؟

فأومأت ميمونة برأسها:

- لم أستطع مواجهة أبي بحقيقة ما يختلج في نفسي وهو يحدثني عن تحديد موعد الزواج، ولم أستطع نسيان خالتي الحبيبة التي ما زلت وفية لها، ولم أعد أحتمل تصرفات خطيبي أكثر..

وغصت الكلمات في حلق انتصار فتابعت ميمونة:

- في حين أن قلبك ما زال يحبه! أليس كذلك؟؟

ردت انتصار بحزن:

- للأسف نعم..

فعلقت ميمونة متفهمة:

- أنت فتاة رقيقة جدا..

وبدا أن الكلام لم ينته بعد، فحاولت ميمونة حث انتصار على متابعة الحديث، وفهمت الأخيرة معنى تلك النظرات المتسائلة فقالت:

- جاء الموقف القاصم بعدما سامحته والتمست له أعذارا كثيرة، حيث عرض علي نزهة برية بالعربة نناقش فيها مستقبلنا، و بعد أن ابتعدنا كثيرا بدأ حديثه فاختلفت معه في طريقة تفكيره ونظرته للحياة على أمل أن نصل إلى حلول مشتركة بيننا، فإذا به يغافلني فجأة لتصل به الجرأة إلى محاولة انتزاع الخاتم من أصبعي بقوة أثارت حفيظتي، فقاومته بشراسة خرجتُ فيها عن طوري، حتى اهتزت العربة بنا بشدة، ولكن دون جدوى.. فقد انهرت سريعا أمام اصراره المريب على موقفه، مما كاد أن يدفع بي إلى الجنون، وأنا أراه يرمي به على الأرض أمامي، فيما أخذ يحث الفرس على المضي بالعربة، حاولت إيقافه وأنا أصرخ لكن دون جدوى، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أقفز من العربة على الأرض مندفعة للبحث عن الخاتم في التراب وبين الأعشاب، كانت سقطة قوية؛ حتى أن خطيبي اضطر للتوقف ونزل طالبا مني الصعود لكنني رفضت الذهاب قبل العثور على الخاتم وجسمي ينتفض غضبا من تصرفه فلم أعد قادرة على مسامحته، فما كان منه إلا أن هددني بأن يذهب ويتركني، فلم أهتم له ولم أتوقع أن يفعلها حقيقة لكنه فعلها!

وهمهمت هامسة كمن تحدث نفسها:

- ربما كان تحت تأثير الشراب، فلا أظنه تصرف بكامل قواه العقلية وإلا لعمل حسابا لوالدي على الأقل!!

فوجئت ميمونة بما سمعته، لكنها لم تقل شيئا، فتابعت انتصار:

- قاومت آلام قلبي وجسدي فلم يكن يشغل بالي وقتها سوى كلام خالتي، حتى عثرت على الخاتم ولم أدر ما الذي حدث بعد ذلك..

بدا التأثر واضحا على وجه ميمونة وهي تقول:

- من لطف الله بك أن وجدك أخي وصديقه، كنتِ فاقدة للوعي لكن الطبيب طمأننا على صحتك فالحمد لله..

فنظرت إليها انتصار بامتنان:

- إنني مدينة لكم، ولا أعرف كيف أشكركم..

فابتسمت ميمونة:

- لا داعي لذلك، فقد قمنا بواجبنا وحسب، والحمد لله على سلامتك..

وبعد برهة قالت انتصار بقلق:

- إنني حائرة جدا ولا أعرف ما الذي علي فعله الآن، فكيف سأواجه أبي وأشرح له ما حدث، كم أكره هذا الشعور بضعفي وعجزي وهواني..

وغطت وجهها بكفيها وهي تبكي بنشيج يقطع أنياط القلوب، فاحتضنتها ميمونة والدموع تسيل على وجهها:

- ثقي بالله يا عزيزتي فهو لن يضيعك أبدا، سيجعل الله بعد عسر يسرا..

***

عادت سارة إلى المنزل مسرعة فقد كان لديها الكثير من الواجبات لذلك اليوم، والأهم من ذلك ، نسخة الأسطورة التي ناولتها إياها سمر- فقد تغيبت أمس عن درس جويرية بسبب الم في معدتها- وأخذت تراجع في عقلها واجباتها المنزلية وهي تتمنى أن تعفيها أمها من بعض الأعمال، فقد كانت متلهفة للأسطورة التي لن تستطيع قراءتها قبل أن تنتهي هي وسمية من غسل الملاءات، و بعد أن أدت صلاة الظهر بدأت بحل واجباتها المدرسية دون أدنى استراحة فعليها أن تنجز كل ذلك بسرعة قبل العشاء، وبينما كانت منهمكة في حل احد المسائل الحسابية، بلغها صوت صراخ سوسن وبكائها وهي تتشاجر مع محسن كالعادة حول أحد اللعب، فحاولت تجاهلها لتستطيع التركيز في المسألة، لكن صوت أمها وهي تناديها جعلها تترك كل شيء:

- نعم يا أمي، هل تريدين شيئا؟

فقالت لها وهي مشغولة بغسل و تقطيع بعض الخضار في المطبخ:

- اهتمي بسوسن ريثما أنتهي، أو اشغليها ببعض الألعاب و راجعي مع محسن كتابة الحروف..

بدا التذمر على وجه سارة رغم محاولتها كظم غيظها:

- ولماذا لا تهتم بهم سمية، فلدي الكثير من الواجبات لهذا اليوم!

رمقتها أمها بنظرات مؤنبة:

- لدى سمية الكثير من أعمال الحياكة وهي مشغولة بها، كوني مهذبة!

فاعتذرت سارة بسرعة:

- آسفة يا أمي..

وقفزت ببالها فكرة سريعة تجعلها تحقق رغبتها ورغبة أمها في وقت واحد، فنادت سوسن قائلة:

- لدي مفاجأة.. فسأحكي لك قصة جميلة..

لكن سوسن ردت باكية:

- أريد اللعبة أريدها ..

فالتفتت سارة إلى محسن الذي بدا متشبثا بلعبة على شكل حصان إمعانا في إغاظة سوسن:

- أعطها إياها و سأحكي لك قصة جميلة..

فرد محسن بثبات:

- هذه لعبتي أنا!

فقالت سوسن:

- بل لعبتي أنا!!

فحاولت سارة إقناعها:

- لدي دمية جميلة أجمل من هذه اللعبة وستعجبك بالتأكيد..

فهتفت سوسن:

- الدمية المعطرة، أريدها أريدها!!

فرمى محسن الحصان من يده:

- و أنا أريد الدمية، أنت لا تسمحين لي بمسّها هذا ليس عدلا!

فقالت سوسن:

- الدمية للبنات وأنت ولد!!!!

فرد عليها محسن:

- والحصان للأولاد فلماذا تريدينه!

فقالت سوسن بحدة:

- لا، الكل يركب على الحصان!

فقاطعها محسن بشدة:

- الحصان للأولاد!!

تدخلت سارة:

- حسنا حسنا، عليك بكتابة الحروف أولا ثم سنلعب معا لعبة الدمية والحصان..

وبعد أن هدأت الأوضاع وهمت سارة بمتابعة حل واجباتها، فوجئت بسوسن تقول لها وقد استقرت الدمية المعطرة في يدها:

- ألن تحكي لي القصة الجميلة؟؟

وسرعان ما وجدت سارة نفسها في ورطة وهي تحاول أن تحكيها لها بطريقة تفهمها، في حين كانت هي متشوقة لمعرفة الأحداث بسرعة.. وكلما اندمجت مع القصة، تهزها سوسن من كمها:

- هيا قولي ماذا حدث، اقرئي بصوت عال..

وفي تلك الأثناء عاد حسان إلى المنزل محيياً:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف حالكم؟

فهبت سارة من مكانها:

- يا إلهي هذا يعني أن صلاة العصر قد قُضيت وأنا لم أنجز شيئا بعد!!

فاستوقفتها سوسن:

- ماذا حدث مع جوريا؟ اخبريني هيا!!

فناولت سارة النسخة لحسان، قائلة لها:

- سيكملها لك حسان، سأذهب لأصلي العصر، لقد تأخرت كثيرا ولم أنته من واجباتي بعد!!

ثم خاطبت حسان قبل أن تخرج من الغرفة:

- اعتن بالنسخة جيدا فهي ليست لي!

فناداها حسان وهو لم يفهم شيئا بعد:

- لحظة أنا متعب جدا ولدي الكثير من الواجبات أيضا!!

لكن سوسن لم تمهله إذ أخذت تشده من ملابسه قائلة:

- أخبرني ماذا حدث مع جوريا؟؟

فزفر حسان بضيق:

- ومن هي جوريا هذه!!

ومن لطف الله به أن سمع صوت أمه وهي تنادي سوسن:

- ألا تريدين الذهاب في العربة مع وسام ، سيشتري بعض الحاجيات من السوق!

فهتفت سوسن بفرح وهي تجري لترتدي حذاءها بسرعة:

- بلى بلى..

و لم تنس الأم أن تؤكد عليها قائلة:

- كوني مهذبة ولا داعي للشجار مع محسن!

ووجهت الكلام نفسه لمحسن، الذي استعد للصعود إلى العربة:

- وأنت يا محسن كن مطيعا ولا تعاند أخاك الكبير واعتن بسوسن..

وما إن تحركت العربة، حتى تنهد حسان بارتياح:

- رافقتكم السلامة..

***

لم تكد ميمونة تحدث أمها وأختها جويرية عما حدّثتها به انتصار في عجالة، حتى دخل عليهم الشيخ عبد الرحيم محيياً بعد عودته من الجامع إثر انقضاء صلاة العصر وجلوسه مع عدد من المصلين الذين كانوا ينتظرون فراغه من الصلاة، بين مستفت وسائل أو طالب للنصح والمشورة..

وبعد أن جلس مستندا إلى وسادة -أسرعت جويرية بإحضارها له- قال:

- لقد حدثني أحدهم قبل قليل بأن أخبارا بدأت تشيع بين الناس عن اختفاء ابنة تاجر الذهب المعروف فاخر شفيع، فقد بدأ رجاله يجوبون بحثا عنها في المدينة..

ورغم أن ميمونة توقعت أن تكون انتصار ابنة أحد الأثرياء المعروفين في المنطقة لكنها لم يخطر ببالها قط أن تكون ابنة التاجر فاخر شفيع الملقب برجل الذهب الأول، الرجل الأغنى في المنطقة، والذي ضرب به المثل في الغنى وقوة النفوذ، وقد قيل أنه الداعم الرئيس لأفكار نديم السامر والجدار الحامي له، ولم تكن دهشة جويرية بأقل منها، في حين أسرعت أمهما بالسؤال بلهجة لا تخلو من قلق:

- وماذا قلت له؟؟ قد لا تكون ابنة فاخر شفيع فهي لم تخبرنا باسم عائلتها حتى الآن!!

لكن الشيخ عبد الرحيم طمأنها بقوله:

- لقد عملت حسابا لهذا، فلم أشعره بشيء، حتى نتأكد من الفتاة بأنفسنا قبل أن نكون سببا في التغرير بها وتعريضها للخطر..

ولم تنتظر ميمونة أكثر إذ نهضت من مكانها قائلة:

- سأتأكد من انتصار بنفسي..

فاستوقفتها أمها منبهة:

- لا تضغطي عليها يا ابنتي، وكوني حذرة في كلامك..

فطمأنتها ميمونة باسمة:

- لا تقلقي يا أمي فأنت تعرفين ميمونة..

وبعد أن طرقت ميمونة الباب فتحته لتجد انتصار لا تزال بملابس الصلاة جالسة على السجادة باتجاه القبلة وعيونها مبللة بالدموع، وما إن شعرت انتصار بها؛ حتى نهضت من مكانها وهي ترد التحية عليها، وبدون مقدمات كثيرة لم تكلف ميمونة نفسها عناء التفكير في صياغتها قالت:

- بالمناسبة يا انتصار لم تخبريني عن اسم والدك؟

فرمقتها انتصار بنظرات توجس قبل أن تقول بتردد:

- هل جاء من يبحث عني؟؟

شعرت ميمونة بالحرج من تسرعها، لكن انتصار أنقذتها من ذلك بقولها:

- لا عليك يا صديقتي فلن أستطيع الهروب من أبي وعائلتي إلى الأبد، أنا ابنة تاجر الذهب فاخر شفيع..

ورغم خيبة الأمل التي ارتسمت على وجه ميمونة؛ لأنها كانت تتمنى سماع غير ذلك- لا سيما وأن صورة فاخر شفيع في ذهنها لم تكن محمودة- إلا أنها أخفت ذلك كله بابتسامة عريضة:

- ما شاء الله، والدك ذو شخصية مرموقة ونفوذ واسع..

ولم يخف على انتصار ملاحظة حقيقة ذلك الانطباع على وجه ميمونة فردت ببرود:

- شكرا لمجاملتك اللطيفة، وإن كنت متأكدة من أنك لا تودين أن يكون لك والد مثله، فأنا أغبطك فعلا على وجودك في ظل عائلة متدينة ووالدين يرعيانك ويحميانك، لقد أصبحت أحب أهل الدين كثيرا وليتني ولدتُ في بيت متمسك بدينه مطبقا لأحكامه..

أسرعت ميمونة تستدرك نفسها وهي تقول بلهجة جادة مقتنعة:

- لا تقولي هذا يا عزيزتي، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، و لكلٍ منا مهمته المختلفة في هذه الحياة، فيسخر الله له أسبابها المناسبة لتؤهله لها، فدوري غير دورك ولا شك أن بيئتك التي نشأتِ بها، والظروف التي تمرين بها، تدل على أن الله سيستعملك لأمر عظيم، وكلٌ ميسر لما خلق له..

فتهلل وجه انتصار فرحا:

- أتظنين ذلك حقا!! شكرا لك يا ميمونة لقد أزاحت كلماتك هذه عبئا ثقيلا عن كاهلي..

ثم ابتسمت وهي تحاول استعمال العبارات التي تسمعها تتردد كثيرا في هذا البيت:

- جزاك الله خيرا يا ميمونة.. جزاكم الله خيرا كثيرا وبارك فيكم..

لم تتوقع ميمونة أن تؤثر كلماتها إلى هذا الحد في نفس انتصار، فحمدت الله في سرها أن ألهمها ما فيه الخير، وكلمات أمها التي طالما سمعتها تتردد في أذنيها "أحسني اختيار كلماتك يا ابنتي فالكلمة الطيبة صدقة"، ودمعت عيناها وهي تشد على يدي انتصار:

- وجزاك الله خيرا أنت يا انتصار، فقد تعلمت منك الكثير..

***

كان حسان يحاول جاهدا لف الخيط حول الدائرة التي رسمها على ورقة، ليحسب نسبتها إلى طول القطر - كما طلب منهم المعلم نبراس- عندما فوجئ بمحسن يجذبه من يده وهو على وشك أن يصل بالخيط إلى النقطة التي ابتدأ منها لفه على الدائرة، فصرخ بغضب:

- لقد أفسدت عملي في اللحظة الأخيرة!!

فما كان من محسن إلا أن علا صوته بالبكاء وهو يجري خارج الغرفة، وما هي إلا لحظات حتى دخلت عليه سمية:

- ما الذي فعلته لمحسن!! لقد جاء يناديك إذ سيحين موعد الإفطار بعد قليل، ألم تسمع أبي وهو ينادي عليك؟

نهض حسان من مكانه:

- غريب لم أسمع شيئا، يبدو أنني غرقت تماما في هذه الدائرة!

وما إن جلس حول المائدة معتذرا عما بدر منه حتى ارتفع صوت أذان المغرب، وبعد أن تناول الجميع التمرات مرددين الدعاء، خرج وسام وحسان مع والدهم إلى الجامع القريب في حين أدت سارة وسمية صلاة المغرب مع أمهما جماعة في البيت، قبل أن يتابعوا طعامهم ويجتمع الشمل من جديد على مائدة الإفطار..

لاحظ حسان أن محسن لم يزل بمزاج معكر جراء صراخه عليه، مما أشعره ببعض الذنب فحاول أن يلطف الوضع بقوله:

- هل تعرف كيف تلف الخيط حول الدائرة يا محسن؟؟ إنه أمر متعب جدا لذلك لم انتبه إليك عندما ناديتني وكنت على وشك الانتهاء!!

فبادرت سوسن معقبة:

- أنا ألف الخيط أنا أعرف..

فخرج محسن عن صمته بسرعة ليستعيد الزمام قبل أن يفلت من يده وتصبح سوسن هي محور الكلام:

- هذا أمر سهل، سأريك كيف ألف الخيط بسرعة

وهم بالنهوض ليتبع القول بالعمل، لولا أن أمه التي تجلس بينه وبين سوسن، جذبته قائلة:

- بعد الإفطار، فأنت لم تأكل شيئا اليوم!

فقالت سوسن:

- وأنا لم آكل شيئا، أنا صائمة أيضا..

فرد عليها محسن:

- بل شربت الماء وهذا ليس صياما!!

فردت بحدة:

- أنا لم آكل.. وحتى أنت شربت الماء!

وقبل أن يضيف محسن كلمة أخرى في ذلك الجدال الذي لن ينتهي كالعادة، قال الأب قبل أن تجبرهما الأم على متابعة طعامهما بالقوة:

- أنتما الاثنان ممتازان ورائعان..

واستطرد وهو يلتفت نحو حسان:

- ما هو الواجب المطلوب منك؟

فأجاب حسان:

- طلب منا المعلم نبراس حساب نسبة طول المحيط إلى طول القطر في عشر دوائر مختلفة على الأقل، لإيجاد العدد الطبيعي ٣,١٤، ومن ثم حل بعض المسائل على أساسها، وبما أنه سمح لنا بالتعاون فيها فقد تقاسمت مع أصيل الدوائر لكل واحد منا خمس، وكنت على وشك الانتهاء من الدائرة الأخيرة!!

فقال الأب حاملا كأس الماء بيده:

- بدلا من أن تضيع وقتك بلف الخيط على دائرة مرسومة، تستطيع لفها حول جسم اسطواني بسهولة أكبر، كهذا الكأس..

فهتف حسان بسعادة:

- فكرة رائعة ما شاء الله، جزاك الله خيرا يا أبي..

وهم أن يقفز بسرعة نحو غرفته ليحضر الخيط ويجرب لفه حول الكأس، لولا أنه تذكر ما حدث مع محسن قبل قليل فحاول ضبط نفسه وحماسته حتى ينتهي من الإفطار، وبعد لحظة صمت تساءلت سمية:

- ترى متى حسبوا هذه القيمة أول مرة؟؟

بادرت سارة بقولها:

- منذ زمن بعيد جدا على ما أعتقد!

فابتسم حسان:

- يعني منذ متى تقريبا، قبل كم سنة؟

فنظرت إليه سارة:

- وهل تعرف أنت؟؟

فأومأ حسان برأسه:

- لقد قرأت عنها اليوم، ونحن نبحث في مكتبة المدرسة، هيا من يخمن؟

أسرعت سوسن تجيب:

- منذ عشر سنوات..

فعلق محسن مستخفا بها:

- قالت سارة منذ زمن بعيد جدا فهل هذا زمن بعيد!!

سألته سوسن بتحد:

- فمتى إذن؟؟

فأجاب محسن بلهجة واثقة:

- ربما قبل عشرين سنة..

فضحك الأب وحسان وضحكت الأم و سارة وسمية، حتى وسام الذي كان يأكل بصمت انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة، قبل أن يقول الأب:

- كلٌ يقارن بنفسه..

فقال حسان الذي كان متحمسا للإجابة:

- هيا يا أبي خمن؟؟

فقال الأب:

- لا أدري ولكن لا أظنه يتعدى المائة عام!

فابتسم حسان و لم يقل شيئا ملتفتا إلى أمه:

- وأنت يا أمي؟

فقالت:

- ربما أوجدها العلماء المسلمون الأوائل، على زمن جابر بن حيان مثلا؟؟

فقالت سارة:

- هيا قل متى؟؟؟

فأجاب حسان بحماسة:

- تخيلوا أنها كانت معروفة قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام!!!

فعلت الدهشة الوجوه:

- سبحان الله!!!!

فتابع حسان:

- لقد حسبها أرخميدس..

فقالت سارة بفرح:

- أجل لقد قرأت عنه عندما كنت أبحث عن بعض المعلومات حول تخزين المياه، إنه عالم فذ ويقال أن الفضل يعود له في تصميم رافع المياه المستخدم، هذا بالإضافة إلى الكثير من الأعمال الأخرى، لكنني لم أكن أتوقع أنه عاش قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام..

فقال وسام بلهجة متشككة:

- و كيف حُفظت هذه العلوم من ذلك الزمن البعيد!!

ردت سارة:

- وهل هذه تحتاج إلى سؤال؟؟ تناقلها الناس بالتداول بينهم لكثرة حاجتهم إليها، فكيف تريدها أن تضيع؟؟

فهتف حسان:

- يا لك من عبقرية ما شاء الله، لم يخطر ببالي هذا التفكير من قبل..

فجأة وبدون سابق إنذار هتفت سوسن بحماسة:

- أنا أعرف قصة سيدنا عيسى عليه السلام.. أنا أعرفها، هل أحكيها لكم؟؟

فقال محسن:

- أنت مخطئة فأنت تعرفين قصة سيدنا موسى التي حكتها لنا سمية!

لكن سوسن أجابت بإصرار:

- بل أيضا أعرف قصة سيدنا عيسى وأمه اسمها السيدة مريم مثل اسم أمي، لقد حكتها لي سمية وأنت لم تكن معنا!

والتفتت إلى سمية:

- أليس كذلك؟؟

فابتسمت سمية:

- أجل يا عزيزتي..

فقال محسن بغضب:

- ولماذا لم تحكِها لي أيضا؟؟ هذا ليس عدلا!!

حاولت سمية ترضيته، فقالت:

- لقد ذهبت وقتها مع حسان إلى بيت معاذ لتلعب مع حمزة، ولكن سأحكيها لك بالتأكيد إن شاء الله..

فأسرعت سوسن تقول:

- أنا سأحكيها لك فأنا أعرفها..

لكن محسن أجابها:

- لا أريد، سأسمعها من سمية..

فقال لها والدها مشجعا:

- لا بأس ستحكيها لي فأنا أريد سماعها..

فردت سوسن وكأنها لم يرق لها أن تُدارَى كالصغار:

- أنت تعرفها طبعا، ولكن محسن لا يعرفها!

في حين قال محسن بكبرياء طفل يحاول تقليد الرجال الكبار:

- ومن قال لك بأنني أريد أن اعرفها منك؟؟

فتدخلت سمية:

- ما رأيكما أن يحسب كل واحد منكم كم عدد الأنبياء الذين تعرفون قصتهم، والذي يعرف القصة يحكيها للذي لا يعرفها؟؟

فبادرت سوسن بسرعة:

- أعرف قصة سيدنا آدم عليه السلام، وقصة سيدنا نوح وقصة سيدنا صالح..

فقاطعها محسن:

- وأنا أعرف قصصهم أيضا، وأعرف قصة سيدنا سليمان وسيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف.....

وبدأت قائمة المنافسة تطول بينهما، فيما نهضت الأم حاملة بعض الصحون الفارغة إلى حوض الغسيل مرددة:

- الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين، هيا يا أولاد حاولوا إنهاء واجباتكم بسرعة، فلا أريد سهرا عند عودتكم من الجامع بعد التراويح

فيما أسرعت سمية الى مساعدتها وهي تشمر عن ساعديها لتبدأ التنظيف، وتبعتها سارة وردد الأب وهو ينهض حاملا الصحن الفارغ أمامه كما فعل البقية:

- جزاك الله خيرا يا مريم، كان إفطارا شهيا والحمد لله الذي أطعمنا هذا ورزقنا اياه من غير حول منا ولا قوة..

***

جلس حسان مع أصيل قبل العشاء على المقاعد الخشبية أمام الطاولة المصنوعة من جذع شجرة مقطوعة في حديقة منزل أصيل لحل بقية الواجب، وما إن اطلع حسان على القيم التي أوجدها أصيل للعدد الطبيعي حتى هتف:

- ما شاء الله، ما هذه الدقة يا أصيل!! أخبرني كيف وجدتها؟

فضحك أصيل:

- تعاملت معها على أنها لعبة مسلية، تعال وانظر..

وأشار بيده إلى دوائر مرسومة بعود ومحفورة على التراب تحت شجرة الخوخ الكبيرة، متابعا:

- حاولت تقليد أرخميدس!

فقال حسان وهو يتأمل الدوائر التي بالكاد استطاع تمييزها على ضوء مصابيح الزيت المعلقة على أغصان الشجر:

- وهل حسبها هكذا!

فهز أصيل كتفيه:

- ربما، ألم نقرأ أنه كان يرسم دوائره على التراب!

هتف حسان بإعجاب:

- ما شاء الله، ربطك للأمور ببعضها البعض رائع، أنت موهوب يا أصيل ما شاء الله!

فضم أصيل قبضة يده اليمنى وقربها إلى فمه مصطنعا الوقار:

- هل أدركت ذلك الآن فقط!

لكزه حسان:

- دعك من هذا الآن، ودعنا نكمل الواجب قبل أذان العشاء..

رد أصيل متثائبا:

- لا تثقل علي هكذا فلم أهضم طعام الفطور بعد!

فصرخ به حسان:

- يا لك من كسول، متى سننتهى منها ونحن على هذه الحال!

قال أصيل:

- تذكر نفسك عندما قلتَ بعد العصر بأنك لن تركز ومعدتك خاوية، فعذرتك، والآن جاء دورك لتعذرني...

فراجع حسان نفسه قبل أن يقول:

- معك الحق، رغم أنني تابعت رسم الدوائر كما اتفقنا في المنزل ونسيت نفسي!

قال أصيل:

- إذن تعادلنا.. فدعنا نكمله بعد التراويح..

لكن حسان قال بتوسل:

- لن أستطيع السهر أنت تعرف أمي..

فأمسك أصيل كراسته وتابع بعينيه النتائج التي حصل عليها:

- لا تعقد الأمور كل ما علينا فعله هو حساب متوسط الأرقام، ومن ثم التعويض عنها في هذه المسألة، لن يأخذ منا وقتا طويلا فلا تقلق..

ثم استطرد قائلا:

- هل لاحظت شرود علاء اليوم!! قلبي يحدثني بأن هناك شيئا يخفيه عنا، وأظن ان حسام وطلال يعلمان بذلك، لقد كانت تصرفاتهم مريبة بعض الشيء!

فقال حسان:

- أرجوك لا تبدأ بأخذ دور المتحري الذكي، دعنا ننهي الواجب بسرعة!

لكن أصيل قال بإصرار:

- أنا جاد هذه المرة، ألم تلحظ ردة فعله بعد ثناء المدرب سعد عليه اليوم؟؟ لقد كانت أفضل مرة يصيب فيها علاء هدفا، ومع ذلك لم يبد سعيدا على غير عادته عندما ينجز شيئا ما!! حتى في تجربة اليوم في درس علم الطبيعة، بالكاد تفاعل معها بعد فترة!

فقال حسان:

- ربما بسبب موضوع اختبار الترشح الذي يؤرقه!!

رد أصيل بهزة رأس تدل على عدم اقتناع:

- ربما...

ثم استطرد:

- لقد أعجبتني فكرة نضال، فوقوف علاء وجها لوجه أمام فاتك، يؤهله للترشح للاختبار وليت المدربين يأخذون هذا بعين الاعتبار..

وقبل أن يتم أصيل كلامه فتح باب المنزل وخرج والده إلى الحديقة فسلم عليهما بعد أن انتعل حذاءه:

- السلام عليكم، كيف حالك يا حسان؟

فنهض حسان بسرعة، و مد يده مصافحا السيد بلال باسما:

- الحمد لله، أبي يسلم عليك ويعتذر عن عدم الذهاب اليوم، فقد شعر ببعض التعب وسيصلي العشاء والتراويح في الجامع القريب إن شاء الله..

فرد بلال:

- لا بأس عليه طهور إن شاء الله، كنت اعتزم تعريفه بأحد الأصدقاء في جامع السوق، بلغه تحياتي ودعواتي..

ثم استدرك قائلا:

- أرجو أن تكونوا قد أنجزتم واجباتكم..

فابتسم أصيل قائلا:

- الحمد لله اطمئن يا أبي كل شيء على ما يرام، لم يبق إلا القليل..

فرمق بلال حسان بنظرة مستفهمة، قائلا بابتسامة ذات معنى:

- أرجو ذلك..

هل تحبان أن أوصلكما بالعربة إلى جامع الفتح، فسأمر بطريقه..

فشهق حسان:

- هل حان موعد العشاء؟؟

فرد السيد بلال:

- لم يبق للاذان إلا القليل، هل هناك شيء؟؟

فأسرع أصيل يجيبه بقوله:

- كلا كلا ولكننا كنا نريد أن نقول أنه لا داعي للاستعجال، ثم إننا نحب أن نتريض قليلا بالمشي إلى هناك، أليس كذلك يا حسان!!

فأومأ حسان برأسه موافقا، فابتسم بلال:

- انتبهوا جيدا لأنفسكم وفقكم الله، ولا تنسوا أن تطفئوا المصابيح قبل ذهابكم، مع السلامة..

قبّل أصيل يد والده:

- اطمئن سنكون عند حسن ظنك يا أبي إن شاء الله

وما أن خرج السيد بلال حتى انهمك الاثنان يحاولان تعويض ما فاتهم من وقت، لإنهاء الواجب بسرعة، فلم ينتبها إلا على صوت سارة:

- لقد ظننت انكما ذهبتما ونسيتماني!! ماذا دهاكما، ستقام الصلاة بعد قليل، لقد تأخرنا!!

فتنهد حسان بارتياح وهو يغلق كراسته:

- الحمد لله لقد انتهينا.. جئت في الوقت المناسب!

في حين لم يستطع أصيل مقاومة تعليقه الساخر:

- رغبنا أن نعطيك الوقت الكافي هذه المرة لكي تعدي نفسك دون استعجال!!

فردت سارة بحدة:

- هكذا إذن، ترمون أخطاءكم علي كالعادة!

فقال حسان وهو يضغط على يد أصيل بقوة زفر على إثرها الأخير من الألم:

- حقك علينا والآن هيا إلى الصلاة..

***

آثرت انتصار الجلوس بصمت في الجامع بعد صلاة التراويح، في حين بدا الانفعال واضحا على وجوه الفتيات، وهن ينتظرن تجمع البقية لتبدأ جويرية حلقتها، وكل واحدة منهن مشغولة مع صديقاتها في مناقشة أحداث الأسطورة، وقد نسين في غمرة انفعالهن انهن في جامعٍ، بانتظار حلقة علم، بعد صلاة التراويح في رمضان!!!

كانت ريم تتحدث بلهجة انفعالية شديدة:

– لقد أغاظني عدم ذكر التفاصيل في النهاية، فقد كنت أنتظر تصويرا جميلا لمشهد زواج الكوماس من جوريا، أو أن يذكروا أن جوريا بدأت تتقبل الكوماس وتشعر بانجذاب نحوه على الأقل..

فردت عليها سارة:

– لا تكوني عاطفية، فقد أعجبتني النهاية هكذا، فمن غير الجميل زواج جوريا من الكوماس بعد كل ما فعله!

فتدخلت سمر بحماسة وهي ترد على سارة:

– ولكن الأسطورة أشارت إلى زواجهما، لقد تزوجا بالفعل!!

وقبل أن تضيف أي منهن كلمة أخرى بدأت جويرية كلامها بالثناء على الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم قالت:

– لقد قرأتن الأسطورة وكما اتفقنا سنناقش علاقتها بفهمنا للحكمة من الحجاب، فمن لديها الحماسة لتبدأ النقاش؟

فتبادلت سمر وريم ابتسامة، ولسان حالهما يقول "المهم هل تزوجا أم لا!!"، في حين ابتدأت سارة الكلام:

– لقد أعجبني في جوريا قوة شخصيتها وصلابتها وعزيمتها من أجل تحقيق هدفها النبيل الذي تسعى إليه، متجاوزة حدود العواطف التي قد تحيد بها عن جادة الصواب..

ابتسمت جويرية وهي تقلب بصرها متصفحة تعبيرات الوجوه المختلفة قبل أن تسألها:

- وهل العواطف مذمومة؟

حارت سارة في الرد:

- لم أفهم قصدك يا آنسة؟

التفتت جويرية نحو ريم لتجيب عن السؤال نفسه، فقالت ريم بحرج:

- لا أعرف الجواب الذي تريدينه تماما يا آنسة ولكنني عرفت بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مثالا في احتواء مشاعر الحب، وقد قرأت قصص حب جميلة في سيرته وسير الصحابة والصحابيات في عهده رضوان الله عليهم

فعلقت جويرية بابتسامة رضا:

- العواطف ليست مذمومة في حد ذاتها، ولم يحرم الإسلام أي عاطفة نبيلة يشعر بها الإنسان رغما عنه، وإنما هذبها ورعاها حتى لا تنقلب وبالا عليه..

وقلبت بصرها بين الجميع وهي تقول:

- لا شك أن كثيرات منكن قد بهرن بعاطفة الحب الجياشة من الكوماس نحو جوريا، وربما كان هذا أكثر ما ترك أثره في نفوسكن في القصة، أليس كذلك؟

أومأت سمر وريم ومعظم الفتيات برؤوسهن دليل موافقة، والبسمة تعلو وجوههن لتفهّم جويرية لمشاعرهن، في حين تابعت جويرية كلامها:

- ترى هل لو كان الكوماس ممن يطلق بصره يمنة ويسرة ويبادل الفتيات كلمات الحب وكذلك كانت جوريا، هل كنتن ستتأثرن بالقصة هكذا!!

فهزت سارة رأسها بشدة وهي تجيب بقولها:

- أظنها ستكون قصة مقززة جدا!!

في حين قالت ريم:

- بل أظن أننا سنحزن كثيرا لأن الفتيات اللاتي يحببن الكوماس سينكسر خاطرهن إن تخلى عنهن فجأة بعد أن كان يبادلهن مشاعر الحب، وكذلك ستكون الحال مع جوريا..

استأذنت سمر بالحديث:

- أرجو أن لا أكون قد خرجت عن الموضوع ولكن هذا ما حدث في قصة المقاتل شوما، حيث كان يبادل صديقته كومي الحب ويعدها بالزواج بعد أن يعود من رحلته لكنه يتعرض لظروف عصيبة ومن ثم يلتقي بفتاة طيبة جدا وجميلة اسمها جومي تعاونه في كثير من أموره، فيبهر بها وبجمالها ويقع في حبها كما تحبه هي أيضا وبعد أحداث كثيرة تقوى أواصر العلاقة فيها بين شوما وجومي، يكتشف شوما أن هناك العديد من الرجال غيره قد وقعوا في حب جومي وكلهم يطلب ودها بالإضافة إلى صديقها الذي كانت تبادله الحب سابقا قبل أن تلتقي بشوما فتأخذه الغيرة الشديدة ومن ثم تظهر كومي من جديد لتبدأ المعاناة الحقيقية عند الثلاثة معا..

علقت ريم:

- كانت قصة مأساوية جدا!

فقالت جويرية:

- جزاكن الله خيرا على هذه المداخلة، فلو أن كومي لم تكن على تلك العلاقة مع شوما ومعلقة قلبها به لما تأثرت بذلك الشكل والحال نفسه مع جومي، ولو أن شوما لم يتفرس في ملامح جومي ويفسح المجال لنفسه كي يتعامل معها بلا حدود لما وقع في حبها، ولو أنها حافظت على نفسها وحمتها من أعين الناظرين وتعاملت مع شوما وغيره في حدود الضرورة لما وجدت نفسها في ذلك الصراع المؤلم، ولهذا السبب وأمثاله شرع الحجاب وغض البصر وشرع الله لنا ما يحد من العلاقة بين الذكور والإناث إلا في نطاق الضرورة مع الالتزام بحدود الشرع في التعامل، فلا

يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، كما ورد في القرآن، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ..

ولم تملك انتصار دموعها وهي تردد الآية في سرها وتناجي ربها وكأنها انفصلت لوهلة عن محيطها:

- (فلا يؤذين)!! يا رب ما أرحمك بنا، ألهذه الدرجة ترفق بنا خشية أن نؤذى!! يا رب كم أحبك فارحمني فقد أوذيت فعلا ببعدي عن شريعتك.. يارب..

حتى انتبهت الى سؤال جويرية الذي طرحته:

- هل بإمكاننا التحكم في عواطفنا؟؟

قالت سارة:

- بالتأكيد وإلا لما حاسبنا الله عليها!

في حين قالت لينا – وهي فتاة تكبر سارة بأربع سنوات:

- أنا لا أفهم في الدين كثيرا ولكنني لا أظن ذلك، فمن الصعب أن يقرر الإنسان متى يكره الشخص الذي يحبه!

فهزت جويرية رأسها موافقة ثم التفتت إلى سارة:

- هل أنت متأكدة من أن الله يحاسبنا على عواطفنا يا سارة؟

بدا التردد على وجه سارة قبل أن تقول:

- ألم ينهنا الشرع عن التبرج والسفور، وعن أن يخلو رجل بامرأة ويجلسان مع بعضهما البعض، أو أن تصادق الفتيات الفتيان؟

قالت جويرية:

- أجل ولكن هذه ليست عواطف إنها أفعال يا عزيزتي، وهناك فرق كبير بين العواطف وردود الأفعال!

بدت اللهفة على الوجوه المتسائلة، رغبة في زيادة التوضيح، فتابعت جويرية:

- لا يمكننا اختيار عواطفنا التي نشعر بها تجاه الآخرين، ولكننا نستطيع التحكم بأفعالنا الصادرة عنها، كما أن الله سبحانه وتعالى وهبنا نعمة العقل ليعيننا على الابتعاد عن أي موطن يورث في قلوبنا ما يكون سببا لحسرته..

سألت سمر:

- ما الذي تقصدينه يا آنسة بالموطن الذي يكون سببا لحسرة القلب؟؟

ردت جويرية:

- سؤال جيد يا سمر، فالقلب إن امتلأ بعاطفة ما يرغب في أن يرى أثرها على الأفعال الخارجية، فمثلا إن امتلأ قلب إنسان بالكره الشديد نحو شخص معين؛ فسيرغب في أن يرى أثر ذلك فعليا، إما بإيذائه باللسان أو بالبطش باليد وقد يصل الأمر الى الرغبة في القتل، بالطبع سيكون أمام هذا الإنسان اختيار التصرف فإن استسلم لقلبه خسر نفسه وندم، وإن قاوم ذلك ازداد صراعه مع قلبه حتى يهدأ، في حين أنه كان من الممكن أن لا يعرض قلبه لأسباب ذلك الكره الشديد من البداية!

فأضافت سمر بحماسة- بعد أن فهمت الفكرة:

- نستطيع أن نقيس على ذلك فتاة أحبت شابا ما بشدة، عندها ترغب في الزواج منه فإن لم يحصل ذلك امتلأ قلبها حسرة، وبما أن قلبها ما يزال ممتلئا بحبه فسيدفعها إلى أن تحادثه وتصادقه وتخرج معه وهكذا، فإن استسلمت له خسرت نفسها في النهاية، وإن قاومت ما يمليه قلبها عليها نشأت الصراعات معه، وكان بإمكانها من البداية أن لا تضع نفسها في موقف يزيد تعلقها به وحبها له، أليس كذلك؟

أومأت جويرية برأسها:

- أجل يا عزيزتي، فالقلب كالفرس يهيج إن عرضناه لما يثيره عن طريق السماع أو النظر وما إلى ذلك، وقد يتحكم في أفعالنا إن أفلتنا لجامه ولم نحسن ترويضه، وستزداد حدة الصراع معه إن تركنا له العنان دون حسيب أو رقيب ثم جئنا نحاول السيطرة على أفعالنا بعد ذلك، فجاء شرع الله ليحفظنا من هذه الصراعات بالوقاية منها، مع إيجاد الحلول المناسبة إن أفلت القلب من الخطوات الوقائية..

تساءلت لينا:

- وهل هناك حل لفتاة لا يمكنها الزواج من الشخص الذي تحبه بشدة!!

فأجابتها جويرية بثقة:

- بالتأكيد فما من داء إلا وأنزل الله له دواء، ولكن الدواء لا يكون حلواً دائما، أليس كذلك؟

أومأت الفتيات برؤوسهن علامة الموافقة والترقب لما ستقوله جويرية:

- عليها بالصبر ومجاهدة نفسها وإشغال قلبها بحب الخير لجميع من حولها، أهلها والديها وإخوتها وأقاربها وجيرانها ومعلماتها وصديقاتها، وتحتسب الأجر من الله فإن المؤمن لا يشاك شوكة إلا وكتب الله له بها أجر، كما ورد عن الحبيب صلى الله عليه وسلم، فكيف إن كان الشوك في القلب!! ولتثق بالله وتلتجئ إليه وهي تعلم علم اليقين بأن الله سيعوضها خيرا كثيرا، فإما أن يسهل الله لها الزواج بمن تحب بالوجه الذي يرضيه؛ إن علم فيه خيرا لها، وإما أن يبدلها خيراً منه ويسعدها بحبٍ أروع وأنقى وأطهر، ولكن عليها بالصبر وعدم الاستعجال واللجوء إلى الله بالدعاء والاسترجاع كما علمنا الحبيب صلى الله عليه وسلم بقول (اللهم اجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها)، ولتعلم بأنها ما دامت حريصة على رضا الله في أفعالها فلن يضيعها الله أبدا، (ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه)،..

جاهدت انتصار لإخفاء دمعاتها وهي تشعر بأن ما تسمعه اليوم هي رسالة من الله لها، في حين ختمت جويرية الدرس بقولها:

- إن الله يدعونا لتطبيق شريعته التي تضمن لنا السلام مع أنفسنا ومجتمعنا، مع احتواء المشاعر النبيلة في جو طاهر، وكما قرأتن في الأسطورة لقد آمن الناس آنذاك أنه لا يمكن لطاهرة أن يمسها إلا طاهر مثلها، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾، إنها دعوة للطهارة، فلا تضعن أنفسكن في مواطن الشبهات..

وصمتت قليلا قبل أن تسألهن باهتمام:

- هل سمعتن عن مملكة شيلاس ومصيرها؟؟

خيم صمت غريب تبادلت فيه الفتيات النظرات المتسائلة، فأجابت انتصار بتردد:

- قرأت في عدد من كتب الحوادث والايام؛ أن المسلمين هم من اشعل النيران في قصر آخر ملوكها، لتزول المملكة بعدها وتصبح أراضيها تبعا لمملكة رامان..

ابتسمت جويرية:

- أجل، هذا ما تقوله بعض الروايات، فرغم انه لم يمضي على زوال مملكة شيلاس أكثر من ثمان سنوات، إلا أن هناك العديد من الروايات المتضاربة فيما بينها في تفسير ما حدث، حتى أن هناك من ينسب نشوب ذلك الحريق لبعض المندسين من مملكة رامان..

والتقطت نفسا قبل أن تعقب:

- بغض النظر عن الطريقة التي انهارت فيها تلك المملكة العظيمة، والتي تضارب الرواة في سرد تفاصيلها، نحن متفقون على ان أمرها قد انتهى وأصبحت أثرا بعد خبر، اليس كذلك؟؟

أومأت الفتيات بالايجاب، فتابعت جويرية:

- كنّ على ثقة يا عزيزاتي بأن الممالك العظيمة لا تنهار من الخارج، إلا إذا انهارت من الداخل أولا! وبالأخص؛ إذا انهار السبب الذي أُقيمت عليه..

بدا الوجوم على وجوه الفتيات، فوضحت جويرية كلامها أكثر بقولها:

- الاسطورة التي دار حولها النقاش قبل قليل؛ من أشهر اساطير مملكة شيلاس، والتي تعني الطهارة كما ورد في الاسطورة. وبغض النظر عن مدى واقعية أحداثها؛ إلا انها تُلقي ضوءا على طريقة تفكير أهل تلك المملكة العظيمة، والتي انعكست بلا شك على تصرفاتهم، فكانت (الطهارة) من أهم الأسس في حياتهم..

عندها لمعت عينا سارة بحماسة مفاجئة، لاحظتها جويرية، فقالت بابتسامة مشجعة:

- ماذا لديك يا سارة؟ هل وصلتك الفكرة؟

هزت سارة رأسها بسرور واضح:

- أظنك تقصدين يا آنسة، بأن هذا الاساس القائم على الطهارة قد انهار لديهم، فانهارت المملكة، اليس كذلك؟

أومأت جويرية برأسها موافقة:

- هذا صحيح، وانني أميل لتصديق رواية تقول بأن ابن الملك (جاندير)- آخر ملوك شيلاس- قد اعتدى على ابنة راعي فقير، وخان دماء عائلته الطاهرة، فحاول الملك التستر على ابنه، متجاهلا فداحة الجرم الذي اقترفه، بل إنه حاول استخدام سلطته؛ لإسكات الراعي الذي طالب بحق ابنته المعتدى عليها، فحلت الكارثة!! ويقال أن اليوم الذي أُحرق فيه قصر الملك جاندير، هو اليوم الذي يلي حفل توليته لابنه منصب ولاية العهد!

وقبل أن تقول كفارة المجلس، قالت انتصار بحياء:

- هلا ذكرت لنا خلاصة الدرس في حكمة قصيرة يسهل حفظها؟

ابتسمت جويرية وقالت بعد برهة:

- "قلبك ليس ملكك ولكن اللجام بيدك فاستعيني بالله على الترويض"

ثم استدركت قائلة:

- لذلك كان أكثر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم " اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك" وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

استأذنت لينا جويرية طالبة منها حديثا خاصا بعد انتهاء الدرس، وبعد أن وقفت معها جويرية في احدى الزوايا، قالت لينا:

- لا أعرف من أين أبدأ يا آنسة جويرية ولكنني بعد أن أعطيت الأسطورة لابنة جيراننا وهي صديقتي المقربة، أعادت لي القصة مع أختها الصغيرة وأرفقتها برسالة، ولم أعرف كيف أرد عليها أو أقف إلى جانبها..

وصمتت لينا فلم تعرف كيف تشرح أكثر فناولت ورقة صغيرة لجويرية التي فتحتها، لتقرأ فيها:

"اغرورقت عيناي دمعا بسبب جوريا، هل تذكرين حين كنت ملاكا!! هل لي برثاء نفسي؟؟؟ "

وبدلا من أن تطرح جويرية مزيدا من الأسئلة والاستفسارات كما توقعت لينا، اكتفت بنزع ورقة من كراسة تحملها وكتبت عليها شيئا، ثم ناولتها لها بعد أن طوتها قائلة:

- أعطي هذه الورقة لصديقتك يا عزيزتي، وقولي لها إن الله ستّير يحب الستر..

فوجئت لينا بردة فعل جويرية، فسألتها:

- هل بإمكاني قراءتها؟

ابتسمت جويرية:

- بكل تأكيد..

فأسرعت لينا تفتح الرسالة لتقرأ فيها:

"أختي الحبيبة.. أعلم كم يضيق صدرك ألما حين تلتفتين يمنة ويسرة بين صديقاتك فتشعرين بالدونية بينهم.. لكن صدقيني؛ الله وحده كفيل بأن يجعلك عزيزة بين قومك.. ولربما هذه دونية بينك وبين الله وحده يحبها هو.. يحب أن يراك تدعين وتناجين وتستغفرين.. فربما ملائكيتك التي تخيلتِها لم تعرّفك على الله الغفور الرحيم، ومدى افتقارك إليه.. ربما أشعرتك بالكمال الوهمي والاعتزاز بالنفس والعجب بها.. ولربما احتقرت من يقترف مثل هذه الذنوب، وهذا في ملكوت الله أقبح من الذنب الذي فعلت!! بالتأكيد ما حدث كان بينك وبين الله .. وقد سترها عليك حين كنت في معصية.. فكيف لن يسترها عليك في حال التوبة.. بل سيعزك ويرفع شأنك بين قومك فلا تشعري بالذل معهم.. وهنيئا ومباركا عليك أن أصبحت بشرا.. فلإن كان الله قد أوحى إلى رسولنا وحبيبنا وقدوتنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وجعل ذلك تشريفا له وهو أفضل الخلق أجمعين، فكيف لنا أن نحزن لغلبة طبع البشرية علينا!! لقد خلقنا الله بشرا نخطئ ونصيب وفضلنا على الملائكة الذين جبلوا على الطاعة، فلو لم نكن نخطئ لما شرع الله لنا التوبة وجعل لها أجرا عظيما، وكما روي عن الحبيب صلى الله عليه وسلم بما معناه (لو لم تكونوا تخطئون لذهب الله بكم وأتى بقوم يخطئون فيتوبون فيتوب الله عليهم).. فهنيئا لك علاقتك الخاصة مع الله، ذات الطعم المختلف والتي يختص الله بها من يشاء من عباده؛ ليفتح لهم بابا في السماء مختلفا عن باقي الأبواب.. هنيئا لك باب التوبة.. فابتهجي وافرحي بعظيم فضل الله، فوالله لو بلغت ذنوبنا عنان السماء، فإنها لا تساوي شيئا أمام رحمة الله الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ..

قد تظنين بأن هذه مجرد عبارات لا تداوي ألمك الكبير، ولكن ثقي بأن الله على كل شيء قدير.."

فما كان من لينا إلا أن حضنت جويرية بشكل عفوي وعيناها مبللتان بالدموع:

- شكرا لك يا آنسة، جزاك الله خيرا..

ثم انتبهت لنفسها، فاعتذرت:

- سامحيني ولكنني.. في الحقيقة...

وتلعثمت لينا وهي تحاول تبرير تصرفها فربتت جويرية على كتفها مطمئنة:

- لا تهتمي يا حبيبتي فأنت أختي الصغيرة..

قالت لينا متأثرة:

- الحمد لله هناك أمل، لقد كان درسك اليوم رائعا جدا يا آنسة فادعي الله لنا بالثبات..

وقبل أن ترد جويرية بشيء انتبهت مع الجميع على صوت جلبة خارج الجامع..

كان علاء يهم بالخروج من الجامع ليلتحق بأصدقائه عندما وصلت ثلاث عربات فارهة تدل على أنها ملك لأحد الأثرياء، لتقف في باحة جامع الفتح، مما أثار فضول الناس فتجمهروا حولها، وهم يشاهدون سائق العربة الأولى- وهي أكثرها فخامة- ينزل ليفتح الباب لسيده، وما هي إلا لحظات حتى ترجل منها رجل أشيب الشعر، صارم الملامح، أنيق الملابس لا يخفى على من يراه علو مكانته وسعة نفوذه..

فهتف حسام الذي وقف مع أصدقائه غير بعيد عنه:

- غريب.. إنه تاجر الذهب الكبير فاخر شفيع، ما الذي أتى به يا ترى!!

فسأله أصيل بتعجب:

- و كيف عرفت أنه هو؟؟

بوغت حسام بسؤاله ووجد نفسه في مأزق فلا أحد من أصدقائه غير طلال يعرف عن مكانة أسرته، ولم يكن يرغب هو بذلك فكيف له أن يخبرهم الآن بأنه

التقاه في عطلة العام الماضي عندما جاء لزيارة والده في منطقة التلال لمناقشة بعض الشؤون التجارية، لكن طلال أسرع يرد نيابة عنه:

- وهل هناك من لا يعرف التاجر الشهير فاخر شفيع!!

فقال أصيل:

- بالطبع سمعنا عن فاخر شفيع وإنما قصدت كيف عرف شكله!

ومن لطف الله بحسام أن ساند حسان كلام طلال بقوله:

- لقد رأينا صورة له في جدار الأخبار، ألا تذكر؟؟

فهز أصيل رأسه موافقا:

- ربما..

و همس معاذ في أذن زيد:

- لا شك أنه والد الفتاة!

أما حسام فقد حاول أن يتوارى عن مجال الرؤية خشية أن يتذكره التاجر فاخر شفيع فيضعه في موقف حرج، خاصة عندما اقترب منهم يسألهم:

- هل نجد هنا الشيخ عبد الرحيم؟

فأجاب زيد- الذي أخبره والده مسبقا عن هذه الزيارة:

- أجل يا عم تفضل إلى المنزل إن سمحت فأنا ابنه زيد..

فالتفت فاخر إلى رجاله الذين أحاطوا به:

- انتظروني هنا فأنا أريد التحدث مع الشيخ على انفراد..

فاقترب منه رجل ضخم بدا وكأنه مرافقه الملازم له أو حارسه الشخصي:

- ولكن يا سيدي..

فقاطعه فاخر بنبرة صارمة:

- كلامي واضح!

ثم سار خلف زيد الذي أدخله إلى صالة الاستقبال في المنزل، وأسرع بتقديم كأس من شراب البرتقال الطازج له قائلا:

- تفضل يا عم فسيأتي أبي حالا..

لكن فاخر اعتذر بقوله:

- شكرا لك سأكتفي بكوب الماء..

و ما هي إلا لحظات حتى دخل فيها الشيخ عبد الرحيم مسلما ومرحبا بضيفه فانسل زيد خارجا وأغلق الباب خلفه..

ارتبكت انتصار قليلا عندما عرفت بأن والدها جاء لاصطحابها، لكن ميمونة طمأنتها بقولها:

- لا تقلقي يا عزيزتي فقد ذهب والدي للقائه اليوم قبل المغرب وتحدث معه شارحا الموقف، وقد جاء بعد العشاء كما أخبر والدي ليأخذك معه فاطمئني، سيكون كل شيء على ما يرام بإذن الله..

فأومأت انتصار برأسها:

- أرجو ذلك!

وهمت بأن تقول شيئا لكنها أحجمت عن ذلك، فسألتها ميمونة:

- هل هناك شيء؟

فهزت انتصار رأسها بالنفي:

- لا شيء ذا بال..

لكن ميمونة أصرت عليها فقالت انتصار باسمة:

- تذكرت حكمة خالتي فأحجمت عن طلب ما كنت أريده..

ثم تابعت قائلة:

- استأذنك يا ميمونة، فسأرتدي ثوبي وأعد نفسي لأذهب مع أبي..

فابتسمت ميمونة وقد أدركت ما جال بخاطر انتصار:

- حسنا يا عزيزتي وآمل منك أن تتصرفي بحكمة حتى يتسنى لك زيارتنا أو حضور عرس جويرية في العيد إن شاء الله على الأقل!

فقالت انتصار بلهجة متفائلة:

- إن شاء الله..

وما إن انتهت انتصار من تمشيط شعرها- بعد أن ارتدت ثوبها الفاخر- حتى جاءت حفصة مسرعة وهي تقول:

- أبي يقول بأن والد انتصار ينتظرها في صالة الاستقبال..

فعانقت انتصار ميمونة:

- جزاك الله خيرا يا صديقتي العزيزة، كم أنا سعيدة بصداقتك

قالت ميمونة:

- صداقتك شرف لي أيضا يا انتصار، أحمد الله أن أتاح لي الالتقاء بصديقة رائعة مثلك

واحتضنتها جويرية:

- اعتني بنفسك جيدا، وتفاءلي بالخير، فلن يضيع الله أجر من أحسن عملا..

فقالت انتصار، بامتنان:

- لن أنسى دروسك أبدا يا جويرية، لقد كانت بلسما شافيا لآلامي فجزاك الله خيرا..

وبصعوبة حاولت السيدة رغدة حبس دموعها وهي تضمها إلى صدرها بحنان:

- استودعك الله يا ابنتي، حفظك الله من كل سوء..

فلم تملك انتصار دموعها قائلة:

- جزاك الله خيرا يا خالة، لقد كنت بمثابة خالتي التي أحببتها، ولن أنسى حنانك وعطفك علي أبدا، جزاك الله خيرا..

وطبعت انتصار قبلة على وجنة حفصة:

- لا تنسيني من دعواتك أيتها الجميلة..

فاحمرت وجنتا حفصة وهي ترد بخجل:

- إن شاء الله، إلى اللقاء..

لم تكد عينا فاخر شفيع تقعان على ابنته وهي بكامل صحتها وعافيتها، حتى تهلل وجهه بشرا وسعادة ونهض من مكانه محتضنا ابنته التي أسرعت نحوه تعانقه، في حين أرخى الشيخ عبد الرحيم عينيه تأثرا بعد أن استطاع بتوفيق الله الحصول على ثقة فاخر شفيع وكسب وده أيضا، ولم يملك فاخر في نهاية الجلسة وهو يهم بالخروج مصطحبا ابنته إلا أن يقول:

- أشكرك أيها الشيخ النبيل على كرمك وحسن ضيافتك..

وأخرج من جيبه محفظة مزركشة ممتلئة بالنقود، متابعا:

- أرجو أن تقبل هذه المكافأة، فقد خصصتها لمن يجد ابنتي الوحيدة لكنني خشيت الإعلان عنها خوفا على ابنتي من أن تقع في أيدي اللصوص وقطاع الطرق..

فرد عليه الشيخ عبد الرحيم معتذرا بجزم:

- أستميحك عذرا و أقدر موقفك، ولكنني لا يمكنني قبولها بأي شكل، فلم أقم إلا بواجبي وابنتك في مقام بناتي، فاعذرني إن لم أقبلها..

فوجئ فاخر شفيع برد الشيخ عبد الرحيم، ولم يُجدِ إلحاحه نفعا أمام إصرار الشيخ على موقفه، فشد على يده قائلا:

- لا أعرف كيف يمكنني مكافأتك أيها الشيخ الجليل؛ فجميلك هذا دين في عنقي، ولكن عدني أن لا تتردد في أن تخبرني إن احتجت إلى أي شيء..

ولم تنس انتصار أن تشكر الشيخ بقولها:

- جزاك الله خيرا يا عمي..

فردد الشيخ:

- حفظك الله يا ابنتي ورعاك وجعلك قرة عين لوالدك..

***

لم يغمض لعلاء جفن وظل فكره مشغولاً بما دار بينه وبين أصدقائه تلك الليلة، فقد عرفوا بما أخبره به المدير حول موضوع ترشحه، بعد أن حصره أصيل في زاوية ضيقة بعد التراويح ملحا عليه ان لا يخفي عنهم شيئا، فلم يجد بدا من اخبارهم بما أخبره به المدير متحاشيا ذكر خبر رسالة حذيفة، حتى زيد الذي انشغل قليلا مع ذلك الضيف، عاد بسرعة ليبدي استعداده مع بقية الأصدقاء لمساعدته والوقوف إلى جانبه بأقصى ما يستطيعيون، وأخذ لوم أصيل يرن في أذنه "لماذا لم تخبرنا بذلك منذ البداية، حتى نفكر معا في حلّ مناسب" وعندما برر موقفه بقوله:

- إن هذا الاختبار اختباري ويفترض أن أقوم بذلك وحدي فهذه مسؤوليتي..

لم يستطع تمييز أصواتهم المختلطة وقتها وهم يردون عليه بهجوم أفزعه:

- ومن قال لك هذا؟؟

- يفترض أننا متعاونون!!

- ألسنا أخوة؟؟؟

حتى اضطر أن يعتذر لهم بقوله:

- لم أقصد ذلك سامحوني، فنحن أخوة بالطبع، كل ما في الأمر أنني لم أشأ إزعاجكم معي..

تنهد علاء في سره و صور ما حدث تتراقص أمام مخيلته:

- ماذا عساهم أن يفعلوا!! فلو جُمعت جميع مدخراتهم لن تغطي أكثر من عشر المبلغ المطلوب في أحسن الأحوال!! لم يبق سوى تسعة أيام لديّ و عليّ خلالها إعادة المبلغ كاملا وتسليمه لمستحقيه، وليتها تسعة أيام خالصة إذاً لهان الأمر.. لدينا الكثير من الواجبات والتدريبات عوضا عن اختبارات الدروس النظامية، وعليّ أن أحرز فيها سبعين جزءا على الأقل حتى أنتقل إلى المستوى السابع.. وقد مر يوم كامل ونصف يوم، منذ أن أخبرني المدير بما عليّ فعله لأرشح لاختبار مرتبة مقدام، دون أي إنجاز يذكر.. يارب ماذا عساي أن أفعل.. أريد أن

انتقل إلى مرتبة مقدام بسرعة، فالأيام تجري، وأمي وأبي وأخي بانتظاري.. ترى ما هي أخبارهم الآن؟؟ هل ما زال بهاء يذكرني؟؟ أرجو ذلك فهو صغير جدا وبالكاد بدأ يردد بعض الكلمات، ولكنني أريده أن يفخر بأخيه الكبير، فسأكون قدوة له كما طلب مني والدي..

ولاحت في ذهنه ذكرى ذلك اليوم الذي زف والده لهم فيه البشرى عندما كان في التاسعة والنصف من عمره تقريبا، كان يبذل جهده ليأخذ دور الأخ الكبير بحق، وهو يحاول تهدئة اخته هناء ذات السبعة أعوام- والتي انخرطت في البكاء قلقا على والدتها المتعبة- قائلا:

- اطمئني يا أختي فستكون أمي بخير إن شاء الله، كفي عن البكاء أرجوك..

وما هي إلا لحظات حتى خرج والدهما من غرفة الولادة هاتفا بفرح:

- أبشرا فقد جاءكما أخ صغير..

لكن هناء أسرعت نحو والدها تحتضنه:

- وكيف حال أمي؟ أريد أن أراها..

فربت والدها على شعرها وهو يضمها إليه:

- الحمد لله أمك بخير ولكنها نائمة الآن، وقد أصبحتِ منذ هذه اللحظة أخت كبيرة، فاستعدي لمعاونة أمك في رعاية أخاك الصغير..

لكن هناء ردت بعبوس:

- أنا أريد أختا أما هذا فأخو علاء!! لقد أصبح لدينا ولدان وأنا بنت واحدة!! هذا ليس عدلا!!

فضحك والدها قائلا:

- ولكنه أخوك الصغير وسيحتاجك أكثر من علاء، فالاولاد لا يحسنون العناية بالأطفال!

قالت هناء بتعجب:

- حقا!!

ثم هتفت فجأة بحماسة:

- إذن سأسميه أنا.. أرجوك يا أبي دعني أختار له اسما يعجبني..

فسألها والدها:

- وماذا ستسمينه يا هناء؟؟

فأخذت هناء تدق بطرف سبابتها اليمنى على ذقنها، وهي مطرقة برأسها دلالة على التفكير العميق، قبل أن تقول:

- بهاء... هناء وبهاء اسمان متشابهان، ما رأيك يا أبي؟؟

فابتسم والدها:

- حسنا يا عزيزتي لا مانع لدي، ولكن علينا أن نسأل أمك اولا، فما رأيك أنت يا علاء؟

فابتسم علاء وهو يحاول التحدث بلهجة تتناسب مع دور الأخ الكبير:

- فكرة جيدة فالاسم جميل..

انتبه علاء من ذكرياته تلك على واقعه، فدمعت عيناه.. لقد قتلت أخته هناء، وهو لا يعرف بعد ما هي أخبار والديه وأخيه، لكنه جفف دموعه بسرعة و أخذ يفكر بجدية، فلا وقت لديه الان ليبكي على الماضي، فأمامه مهمات كثيرة وعليه إنجازها.. وأخذ يحادث نفسه:

- ماذا علي أن أفعل الآن، وبم أبدأ؟؟ ساعدني يارب.. ربما علي التفكير أولا بجمع المال..

ولاحت في مخيلته صورة ضيف الشيخ عبد الرحيم، وما تحدث به أصدقاؤه عن ثرائه الفاحش، فتساءل:

- يبدو أن للشيخ عبد الرحيم صلة به، فهل يمكنني اقتراض المال منه ثم أرده له فيما بعد!! فثري مثله لن يضره إقراضي عشرة آلاف قطعة نقدية، فهي بلا شك مبلغ زهيد بالنسبة له، بالطبع سأحرص أن لا يعرف الشيخ عبد الرحيم ما أنوي فعله، فربما أحرجه معي، سأذهب إلى فاخر شفيع وحدي وأخبره أنني صديق زيد ابن الشيخ عبد الرحيم وأطلب منه أن يبقي الامر سرا بيننا..

لكنه سرعان ما طرد الفكرة من رأسه:

- ما هذا الهراء الذي أفكر فيه، فأنا سأرد له المال على أية حال ولن أقبل شفقة من أحد، لذا من الأفضل أن أدبر أموري بنفسي من الآن.. الحل الوحيد هو مواجهة فاتك وهذا يتطلب مني المزيد من التدريبات، إذن علي التركيز فيها بشكل كبير، والحمد لله بدأت أحرز تقدما في ذلك بشهادة المدربين..

وسمح علاء لنفسه بابتسامة مشجعة وهو يشعر بالرضا مستذكرا مديح المدرب سعد له هذا اليوم، رغم أنه لم يلق بالا لثنائه عليه في ذلك الوقت، عوضا عن كلمات الإعجاب التي أمطره بها المدرب جهاد من قبل أثناء مبارزته لحسان وياسر، لكنه سرعان ما انتبه لنفسه فلم يسمح لها بالغرق في تلك الأفكار الممتعة كثيرا، وهو يراجع ما عليه إنجازه مخاطبا نفسه:

- بعد غد الثلاثاء لدينا اختبار في علم الحساب وعلم الطبيعة والفلك وعلم الحياة، وبعده لدينا اختبار في أشكال الأرض والبلاد والحوادث والأيام، والخميس لدينا اختبار في لغة العرب و لغتي رامان وسومار، هذا بالإضافة إلى التقرير الذي علي أن أبدأ في إعداده لدرس الأخلاق والآداب عن الصبر فقد تأخرت كثيرا.. حقا كم أحتاج إلى الصبر لاحتمال كل هذا!! ولكن لا بأس فسأكتب من واقع الحال الذي أعيشه، ثم إن علينا تسليم التقرير بعد العيد إن شاء الله وما زال أمامنا متسع من الوقت، فلا داعي للتفكير فيه من الآن فهناك أمور اكثر أهمية.. أظن أن

علي التركيز على علم الحياة وأشكال الارض والبلاد ولغة سومار، فدروسها أكثر ما أواجه فيها من صعوبات، رغم أنني قطعت شوطا كبيرا في لغة سومار مع طلال جزاه الله خيرا.. ولكن كيف سأنظم وقتي بين كل هذه الأمور!! من لطف الله بي أنني أضطر لحل واجباتي مع طلال وحسام وإلا لما وجدت الوقت الكافي لذلك، وبما انني لن أمارس أيا من التدريبات في الليل ولن أستطيع فعل شيء من هذا القبيل، فسأركز على الدراسة من أجل الاختبارات، فربما لن أجد لها وقتا في النهار إذا بدأتُ بالإعداد لمواجهة فاتك..

وأطلق زفرة لم تتجاوز حدود صدره:

– هل سأتمكن حقا من مواجهة فاتك!! ربما يكفيني يوم واحد لذلك، سأكون حذرا وأتسلل إلى مخبئه بهدوء فهدفي هو استرجاع المال لا مقاتلته في الوقت الراهن! فهل أغامر بتأجيل ذلك لآخر يوم قبل الترشيح!! لا أظنني استطيع المجازفة فربما لم أجده حينها.. ولكن كيف لي العثور على مكمنه!! لا بد أن أبدأ بالبحث والتحري عن ذلك في أسرع وقت، وسأبدأ من ذلك المكان الذي التقيتهم فيه أول مرة.. سأفتعل أي شيء لتحقيق هدفي ولن أتراجع..

راقت الفكرة لعلاء كثيرا، وحازت على استحسانه، لكنه استدرك وقد فطن إلى شيء هام:

– هل علي إخبار أصدقائي بما أنوي الإقدام عليه! كلا من الأفضل أن لا أفعل؛ فربما يعارضون الفكرة، ويعيقون خطتي..

ثم عصر رأسه بيديه:

– المشكلة ان اليوم هو الأحد، ولا وقت لدي يمكنني التسلل فيه غدا، فمن بعد شروق الشمس وحتى الظهيرة سنكون في قاعة الدروس ولا يمكنني التغيب عنها وإلا أثرت الشكوك من حولي، وسنبدأ التدريبات بعد صلاة الظهر مباشرة وحتى العصر، وبالطبع لا يمكنني التغيب عنها أيضا لا سيما تدريب الركوب مع

المدرب ثابت! ثم إنني بحاجة إلى تلك التدريبات على أية حال، أما بعد العصر.. فلن أستطيع إيجاد عذر يسوغ تغيبي عن حلقة المراجعة مع الأصدقاء!!!

واستدرك فجأة وقد لاح بريق أمل لديه:

– حسنا لا بأس، فلا توجد لدينا تدريبات بعد ظهيرة الثلاثاء وسأتمكن من تنفيذ خطتي في ذلك الوقت، انها فرصتي الوحيدة.. لذا علي استغلال الوقت حتى ذلك الحين، وإعداد نفسي لاختبارات الأربعاء فربما لا أجد وقتا كافيا للدراسة، وستكون فرصة مناسبة للتحري عن أي معلومة تفيدني في العثور على مخبأ فاتك دون أن الفت الأنظار..

وشعر علاء بالارتياح الشديد لما توصل إليه، فقفز من سريره وقد طار النوم من عينيه نهائيا وهو يعقد العزم على تكثيف جهوده في الدراسة منذ هذه اللحظة، ألقى نظرة على صديقيه اللذين يغطان في نوم عميق، ثم نظر من النافذة إلى النجوم المتشابكة.. ما زال الليل في ثلثه الأوسط، فردد في اعماق نفسه:

– يارب أعني فلا حول ولا قوة لي إلا بك..

وتذكر كلمات والده التي ما نسيها أبدا "يا بني إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة"، ففتح علاء باب الغرفة وأغلقه خلفه متسللا بهدوء خارج الغرفة متجها نحو الميضأة ليؤدي ركعتين، استخار الله فيهما على ما ينوي فعله..

***

فتح علاء عينيه بصعوبة على صوت حسام، الذي أخذ يهزه برفق بيده اليسرى فيما حمل كوبا من الماء بيده اليمنى:

– لقد أنهينا تناول طعام السحور وأنت لا زلت نائماً! هيا يا علاء اشرب كوبا من الماء على الأقل فأمامك تدريبات ولدينا دروس كثيرة هذا اليوم.. سيرفع أذان الفجر بعد لحظات معدودة..هيا انهض يا صديقي..

وما إن شرب علاء آخر ما في الكوب؛ حتى تردد صوت الآذان في الآفاق ليشق سكون الليل..

لاذ علاء بالصمت في الطريق إلى الجامع متحاشيا أي كلام مع صديقيه خشية أن يزل لسانه بما عقد عزمه عليه الليلة، ولم يخف عليهما ملاحظة ذلك لكنهما آثرا تركه لحال سبيله في الوقت الراهن..

ورغم محاولات علاء الجاهدة لإخفاء أي أثر لسهره إلا أنه لم يستطع مقاومة النعاس الذي غلبه بعد عودته من صلاة الفجر، فطلب من حسام- الذي رجع معه بعد الصلاة- أن يوقظه عندما يحين موعد المدرسة..

وأمام ذلك كله لم يجد حسام بدا من تنفيذ ما عزم عليه هو الآخر، وقد بدأ القلق يأخذ مبلغه في نفسه، فأشعل مصباحه الزيتي وهو يحرص على أن لا ينتشر شعاعه بالغرفة و فتح خزانته بهدوء باحثا عن بعض الأوراق الخاصة التي يضعها هناك، قبل أن يسير على أطراف أصابعه خارجا من الغرفة خشية أن يزعج علاء الذي بدا يتنفس بعمق ورتابة دلالة على دخوله مرحلة النوم العميق..

وفي القاعة الكبيرة المخصصة للدراسة في آخر الممر، جلس حسام على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه أثناء دراسته، وحمد الله في سره إذ لم يكن أحد هناك، فقد كان بحاجة إلى التركيز الشديد فيما ينوي فعله، وبعد أن جمع أفكاره؛ تجاوز تردده وانهمك في الكتابة، وقبل أن يملأ الورقة الأولى فوجيء بطلال يدخل عليه محيّا، وبحركة لا إرادية ارتبكت يداه وهو يحاول إخفاء ما يكتبه، فحاول تدارك نفسه وهو يرد السلام بابتسامة مصطنعة:

- ظننتك ما زلت تقرأ القرآن في الجامع حتى يحين موعد الشروق!

فرد طلال:

- لقد أنهيت وردي ولله الحمد، ثم تذكرتك فأسرعت للإطمئنان عليك.. لقد صدق حدسي للأسف!!

بدا التعجب على وجه حسام دون أن يفهم شيئا، فتابع طلال:

- تكتب رسالة لوالدك من أجل مساعدة علاء، أليس كذلك!!

بوغت حسام من ذلك الاستنتاج، فسأله بدهشة:

- وكيف عرفت؟؟

فابتسم طلال وهو يسحب كرسيا ليجلس قرب حسام، بعد أن أغلق باب القاعة قائلا:

- لن أكون صديقك المقرب إن لم أفهم ما تفكر به يا صديقي العزيز!

استغل حسام هذه الفرصة ليطلق نكاته المعتادة:

- بدأ الغرور يلعب دوره معك من جديد، وها قد أغلقت الباب حتى لا تترك لي فرصة للاستنجاد بالآخرين.. الله يسترني..

لكن طلال تابع كلامه بجدية:

- دعك من هذا الآن، و تذكر يوم أن قطعت عهدا على نفسك في أن تبدأ حياتك بعيدا عن ثروة والدك وجاهه مستغلا وجود المدرسة في منطقة أخرى بعيدة عن منطقة التلال، وبذلت جهدا كبيرا لتقنعه بأن لا يبعث لك بأي نقود إضافية مقنعا إياه بأنك ستكتفي بالمبلغ الذي تخصصه المدرسة لطلابها، لقد جئت إلى هنا وكلك أمل أن تبني نفسك بنفسك، فأخفيت عن الجميع حقيقة أسرتك، ولولا أنه من حق المدير أن يعرف عنك عندما تقدمت لاختبار المدرسة أول مرة لما أخبرته، لقد طلبت منه بشدة وقتها أن يحفظ سرك ففعل مرحبا بفكرتك، ثم تكلفت عناء

التغيير الذي طرأ على بيئتك بعد أن اعتدت حياة الرفاهية والترف، وتحملت الكثير حتى تتكيف مع الظروف الجديدة، وها قد مرت سنتان ونصف؛ نجحت فيها من تحقيق ذلك بفضل الله وتوفيقه، فهل ستفسد الأمر كله الآن؟؟

ورغم تأثر حسام بما قاله طلال، إلا أنه رد بإصرار:

- ومن قال لك بأنني سأفسد ذلك!! فلن يعلم أحد من أين أحضرت النقود!

فقال طلال:

- لا تكن متغابيا بهذا الشكل، هل تظن أنه من السهولة تصديق إحضارك لعشرة آلاف قطعة نقدية دون إثارة التساؤلات حولك، أم أنك ستلقيها تحت قدمي علاء وتهرب متظاهرا بأنك لا تعرف شيئا!! هذه ليست قصة خيالية تسمح فيها لخيالك الخصب بأن يملي عليك ما تفعله! كن جادا يا حسام ولو لمرة واحدة أرجوك!!

ورغم أن تشبيه طلال الساخر أثار ضحك حسام، لكنه كتمه مكتفيا بالابتسام تقديرا لما يفعله طلال من أجله، وقد بدا عليه الاقتناع بما قاله، فأخذ الرسالة ومزقها قائلا:

- للأسف أقنعتني!! جزاك الله خيرا على كل حال، ولكن هل لديك حل آخر أيها الذكي؟؟

لم يبال طلال بذلك التعليق الذي اعتاد عليه، بل أجابه مبتسما:

- بالتأكيد هناك حل، المهم أن ترجع للتصرف وحدك خارج نفوذ والدك..

فقال حسام:

- وماذا عنك أنت!! ألا يهمك أمر علاء!! ألم تر حالته بالأمس واليوم، أخشى أن يؤثر ذلك على دراسته خاصة ونحن على أبواب الاختبارات!

أطرق طلال برأسه متأثرا:

– ومن قال ذلك!! هل أبدو قاسيا إلى ذلك الحد! بالتأكيد يهمني، بل ويهمني جدا.. ولكن ليس من أجل ما تفكر فيه الآن.. فلست قلقا كثيرا بشأن موضوع ترشح علاء بقدر ما يقلقني...

و بتر جملته متنهدا قبل أن يقول:

– في الحقيقة إنني قلق جدا بشأن الوثيقة!

فوجيء حسام بكلام طلال الذي بدا غريبا بالنسبة له:

– غريب!!! لم يبد ذلك عليك أبدا، لقد كنت تتصرف طوال الوقت بشكل طبيعي جدا ما شاء الله، بعد أن أقنعت علاء بضرورة إطلاع الشيخ عبد الرحيم عليها ففعل.. لقد فاجأتني بقولك الآن!!!

قال طلال:

– لا أخفيك سرا يا صديقي فقد فاتحت الشيخ عبد الرحيم بما يجول بخاطري بعدها دون علم علاء إذ لم أشأ أن أشعره بحقيقة مخاوفي فأزيد قلقه، كنت أحاول البحث عن طريقة يمكننا من خلالها تجاوز الخطر المرتقب.. لكن الشيخ بدا قلقا أيضا ولم يستطع إخفاء ذلك عني.. أخشى أنه لا خيار أمامنا سوى الانتظار والمواجهة، فما أشبهنا بحراس قلعة تهدمت أبوابها وتصدعت جدرانها ويحاصرها الأعداء من كل جانب..

بدا الذعر في عيني حسام وهو يقول بتوسل:

– ما هذا الذي تقوله يا طلال، كن متفائلا أرجوك، لا أحب هذه اللهجة اليائسة أبدا.. ما الذي حدث أرجوك إنني لا أفهم شيئا!!

رد طلال:

– ليس يأسا وإنما حذر وترقب، فما ورد في الوثيقة يشير إلى أمور خطيرة جدا تفسر ما حدث في السنوات الماضية، وقد نشهد تغيرات حقيقية في هذا العالم عن قريب، لا سيما وأن مقدساتنا الإسلامية تقع ضمن المناطق المذكورة..

وتنهد قبل أن يتابع:

- لم يكن سقوط الخلافة إلا تمهيدا لتنفيذ ما يحاك بالخفاء..

فتساءل حسام بتوجس:

- أمور خطيرة تحاك بالخفاء!! ما الذي تعنيه بكلامك هذا يا طلال؟؟

قال طلال:

- هذا يعني أننا كلنا مهددون بالخطر وليست مدينة علاء وحدها.. فقد كانت هي البداية فقط!!

ولم يخف على حسام ملاحظة دمعات لمعت في عيني طلال حاول حبسها جاهدا، فهم منها حسام ما يجول بخاطره من ذكريات أليمة، فقد كان يعرف ماضي صديقه جيدا، فحاول صرف ذهنه عن ذلك الماضي الاليم وهو يقول باسما:

- أنت تدهشني يا طلال، لم ألحظ عليك كل هذا التأثر من قبل، فكيف تستطيع تجاهل ذلك كله والتركيز على دروسك بشكل طبيعي ما شاء الله؟؟

ابتسم طلال وقد أدرك مغزى صديقه من هذا الكلام:

- الحمد لله هذا من فضل ربي، ثم إنه لا خيار آخر؛ فهذه هي الحياة وعلينا أن نحسن التعامل معها بالإستعانة بالله، بل إن التركيز في الدروس وبذل الجهد فيها بشكل أكبر هو من صلب عدم تجاهل ذلك الموضوع..

فأطلق حسام ضحكة خفيفة معلقا:

- ما شاء الله.. ما أسرع ما تغتنم الفرص لتنهمر علي بنصائحك القيمة، ما أسهل تطبيق الكلام عندك يا صديقي.. أما بالنسبة لي فالوضع مختلف تماما.. أنت تعرف ذلك..

فضربه طلال على كتفه براحة يده قائلا:

- هذا لأنك لا تريد ذلك!

تنهد حسام:

- لا نريد أن نعود إلى جدال عقيم مرة أخرى!

واستطرد قائلا:

- ما يهمنا الآن هو التفكير بوسيلة نساعد فيها علاء على جمع المال المطلوب، قبل أن يقدم على فعل متهور..

قال طلال بعد لحظة تفكير:

- الطريق السليم المعروف لجلب المال هو العمل..

بدا الاهتمام على وجه حسام وهو يعيد ترديد ما قاله طلال في نفسه، ثم هتف فجأة:

- تقصد مزاولة الحرف والأعمال التي بدأنا بمزاولتها والتدرب عليها العام الماضي؟؟

أومأ طلال برأسه إيجابا:

- بالطبع، وإلا فما فائدة تلك الدروس إن لم تؤد دورها في الوقت المناسب!!

قال حسام بحماسة:

- يا لهذه الفكرة الرائعة ما شاء الله سيفاجأ الأصدقاء بها، فلا أظنها ستخطر ببالهم!

ابتسم طلال:

- لا تكن منفعلا هكذا فالفكرة بسيطة، وعلى كل حال سنرى ما لدى بقية الأصدقاء من أفكار هذا اليوم، ونتناقش فيها إن شاء الله..

فقال حسام:

– بالنسبة لي لقد أعجبتني هذه الفكرة وأنا مستعد لها، فهذه فرصتي لمزاولة النجارة قبل أن أنسى مهارتي فيها!

فقال طلال:

– وستكون فرصتي أيضا لمزاولة الحدادة إن شاء الله، فلم أمارسها منذ ذلك الوقت..

هتف حسام بفرح:

– هذا رائع، ستروق الفكرة لياسر أيضا، وكذلك حسان وأصيل على ما أظن فهما لا يزالان في مرتبة همام ولديهم متسع من الوقت..

واستطرد كمن يفكر مع نفسه:

– أما معاذ وزيد فربما يكون الوضع مختلفا لديهما، فتدريباتنا شاقة هذه الأيام، عوضا عن كونهما مختلفين عنا، فعليهم العودة إلى منازلهم ولديهم بلا شك واجباتهم الأخرى هناك، بالطبع لا نستطيع أن نجزم بذلك فربما تعجبهم الفكرة..

ثم استدرك فجأة وهو ينظر إلى طلال متسائلا:

– و لكن ماذا عن علاء؟؟

فأجابه طلال بثقة:

– سنساعده في إيجاد عمل مناسب له، أو اختيار حرفة تناسبه كما فعل معنا المعلم أمين السنة الماضية، فهذا واجبنا.. ألا تذكر يوم أن طلب منا المعلمون مساعدته على تعويض ما فاته من قبل! ودرس (العمل والحث عليه)؛ مما فاته ولا شك أنهم كانوا سينبهونه إليه عاجلا أم آجلا، فهو لن يستطيع التخرج برتبة فارس صنديد قبل أن يتقن عملا يكسب منه رزقه..

ورغم أن الاثنين كانا غارقين حتى النخاع في الحديث، إلا أن طلال انتبه بسرعة لمرور الوقت، فنبه حسام إلى أشعة الشمس التي بدأت تملأ الغرفة بضيائها وهو يختم الحديث بكفارة المجلس:

- سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك..

فنهض حسام بسرعة كالملدوغ:

- يا إلهي لم اوقظ علاء بعد، سيبدأ الدرس بعد قليل!!

في حين انتبه طلال للمصباح الذي ما زال يرسل ضوءه هباء متحديا ضوء الشمس، فأطفأه وجمع حاجيات حسام المبعثرة على الطاولة ليعيدها معه إلى الغرفة..

لم يكد طلال وحسام يدلفان إلى قاعة الدرس، حتى صرخ بهما أصيل:

- الحمد لله على سلامتكم وكأنكم جئتم مشيا على الأقدام من آخر المدينة، ولستم في الدور الثالث وحسب، لقد جئنا مبكرين خِصّيصاً لمناقشة ما اتفقنا عليه أمس..

وفي تلك اللحظة دخل علاء الذي استطاع تبديل ملابسه وتجهيز نفسه بسرعة، وقبل أن يكون هناك مجال لإضافة أي كلمة أخرى، دخل المعلم أمين ليبدأ الدرس الأول، وهكذا تلاحقت بقية الدروس لذلك اليوم حتى موعد أذان الظهر دون أن يجد الأصدقاء أدنى فرصة لعرض أي فكرة عوضا عن مناقشتها..

وقبل أن يتجهوا لصلاة الظهر، ناول زيد كيسا لعلاء على عجالة قائلا:

- عندما تأخرتم هذا الصباح وضعنا كل ماجمعناه وتمكنا من الحصول عليه في هذا الكيس، صحيح أنه لم يتجاوز المئتين وسبعين قطعة نقدية، ولكن لا بأس فربما تفيد في تغطية المبلغ المطلوب حتى نجد طريقة افضل..

فابتسم علاء شاكرا:

- جزاكم الله خيرا، ما كان عليكم أن تتعبوا أنفسكم معي، فسأتدبر أمري إن شاء الله..

قال معاذ الذي كان يقف إلى جانب زيد:

- ما هذا الذي تقوله يا علاء لقد تعاهدنا ان نكون يدا واحدة في السراء والضراء فلا تتصرف بأنانية هكذا!! أم تريدنا أن نعيد على مسامعك كلام الأمس!!!

فاعتذر علاء باسما:

- لا داعي لذلك..أستميحكم عذرا فلم أقصد..

ثم أسرع باتجاه الدّرَج قائلا:

- لا تنتظروني واسبقوني إلى الجامع فسأضع الكيس في الغرفة وأتبعكم..

وما إن ذهب علاء حتى قال معاذ:

- يبدو بمزاج جيد هذا اليوم، أليس كذلك؟

فأومأ زيد برأسه موافقا، في حين أقبل عليهما حسام خارجا من بناء الحمّام في المدرسة وهو يُنزل أكمامه بعد أن فرغ من الوضوء، واتجهوا جميعا نحو الجامع..

وفي الغرفة أسرع علاء بتناول قلم وورقة كتب عليها المبلغ الذي أخذه من زيد، إضافة إلى المبالغ التي أعطاها له حسام وطلال وكان قد دونها خلسة من قبل، إذ لم يشأ أن يشعرهم بأن ما أخذه منهم لا يعدو كونه دينا ينوي سداده يوما ما، وابتسم في سره وهو يتذكر ملامح حسام أثناء بحثه في جيوبه ومحفظته عن أي قطعة نقدية قد تكون مخبأة هناك بطريق الخطأ، فهو لم يكن من النوع الذي يفكر بادخار المال أبدا، حتى هو لم يكن جيدا بما فيه الكفاية برأيه، فرغم أنه يحصل على عشر قطع نقدية كل أسبوع كغيره من طلبة المدرسة المقيمين فيها، وقد مر على وجوده فيها قرابة ثلاثة أشهر، إلا أنه لم يتبق لديه أكثر من سبع وثلاثين قطعة! وحمد الله أن

ألهمه تلك الخطة التي أشاعت السكينة في نفسه، فها هو وأصدقاؤه لم يتمكنوا من جمع أكثر من ثلاثمائة وثمانين قطعة نقدية وقد ساهموا بجميع مدخراتهم التي يملكونها حتى الآن، وهي لا تتجاوز أربعة من المائة من القيمة المطلوبة!!!

ولم يفق علاء من أفكاره تلك إلا على صوت الإقامة لصلاة الظهر فأسرع يلف الورقة التي أجرى عليها بعض الحسابات ليخبئها في خزانته، قبل ان يهرع باتجاه الجامع..

انهى الإمام صلاة الظهر، فقام علاء ليعوض الركعة التي فاتته، وبعد أن انتهى من صلاته شرع بأداء ركعتي السنة، فهمس أصيل في أذن حسان:

- يبدو أننا سنؤجل مناقشة أفكارنا بشأن جمع المال لما بعد العصر، فسيبدأ تدريب الركوب مع المدرب ثابت بعد قليل ولا مجال للحديث في أي شيء!

سار حسام إلى جانب طلال برفقة معاذ وزيد وهم يتجهون إلى حلبة المبارزة والقلق باد عليه، فرغم أن علاء بدا في أفضل حالاته إلا أن ذلك لم يكن مؤشرا يدفع حسام للإطمئنان وقد استرجع في ذاكرته ما ذكره علاء عن موضوع مواجهة فاتك قبل يومين تقريبا، وتمتم مرددا:

- لا أظنه نسي موضوع جمع المال الذي كان شغله الشاغل بهذه السرعة، أخشى أن يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة..

ولم يعلق طلال بكلمة واحدة.. فقد راوده الشعور نفسه...

***

قُضيت صلاة العصر واجتمع طلبة المستوى السادس تحت الشجرة الكبيرة حسب الاتفاق لمراجعة دروس اختبار الغد، قال أصيل:

- بما أن علاء لم يأت بعد، دعونا نرى ما ذا لدينا من أجل تدبير المال أولا قبل المراجعة..

فبادر معاذ بقوله:

- فكرت في أن نطلب قرضا من أحد التجار الأثرياء ومن ثم نبدأ بالسداد على دفعات..

فقال زيد الذي لم ترق له الفكرة كثيرا:

- ومن هو هذا التاجر الثري الذي سيقرض فتيان مثلنا!! فأنا أفضل أن لا نقحم أهلنا في موضوع كهذا..

قال حسان موافقا:

- بالطبع لن نفكر في إخبار أهلنا بأي موضوع له علاقة بالمال، فيكفي أبي ما عليه من ديون..

فأسرع ياسر متدخلا بقوله:

- لا تتحدثوا بهذه الطريقة فلو سمعكم علاء لظن بأنه عبء علينا وهو بالكاد وافق على مساعدتنا له، فحساسيته شديدة في هذه الأمور!

استدرك حسان شاعرا بالذنب:

- لم نقصد ذلك بالطبع!

وأكد زيد كلامه:

- كل ما قصدته هو أننا بحاجة لحل بعيد عن أهلنا..

فقال طلال أخيرا:

- العمل هو مصدر الرزق.. وما أكل ابن آدم أفضل من عمل يده..

هتف أصيل كمن حل لغزا:

- تقصد تطبيق الدرس الذي تعلمناه في المستوى الخامس!

أومأ طلال برأسه، وتابع حسام موضحا:

- سوف أذهب مع طلال إلى السوق بعد عصر الغد إن شاء الله لرؤية النجار والحداد الذي تدربنا عنده السنة الماضية، وسنحاول الحصول على عرض جيد مقابل العمل معهم لعدة أيام..

عندها قال زيد:

- لقد ذكرتني بمتجر المؤن الذي عملت فيه، لقد قابلت صاحبه أول يوم في رمضان وعرض علي مساعدته في الحسابات وجرد البضائع كما فعلت في السنة الماضية، ستكون فرصة جيدة بلا شك..

فعلق حسان:

- فكرة جيدة بالفعل، إسأله إن كان بحاجة في هذه الأيام لموزع حليب..

فقال له أصيل معاتبا بلهجة لا تخلو من مزاح:

- هل ستتخلى عن مشاركتي في المزرعة التي عملنا فيها معا!! لن اذهب لجني المحصول بمفردي إن لم تأت معي!!

زفر حسان قائلا:

- كفاك تصرفا كالأطفال، ثم إنني لا أظن باننا في موسم حصاد أو جني ثمار!

فرد أصيل بجدة:

- ألم تذكر ما قاله لنا صاحب المزرعة!! قال لنا تعالوا في أي وقت فهو بحاجة لمن يعاونه في العناية بالمزروعات وإزالة الأعشاب الضارة دائما..

قال حسان مستسلما:

- حسنا أمري إلى الله سنذهب للمزرعة!

لكن أصيل ابتسم معلقا:

- على كل حال إن كان ما ستجنيه من توزيع الحليب سيوفر لنا دخلا أفضل فسأشاركك فيه على الرحب والسعة..

عندها قال ياسر:

- سيقام معرض لبيع اللوحات يوم الجمعة القادم إن شاء الله وسأحاول المشاركة فيه فلدي ثلاث لوحات جاهزة وسأحاول رسم المزيد حتى ذلك الوقت..

فقال أصيل مصطنعا الوقار:

- المهم أن لا يؤثر ذلك على دراستك فالأيام الثلاثة المقبلة تعج بالاختبارات القصيرة..

فلم يتمالك حسان نفسه من التعليق:

- انظروا من يتكلم!!

ضحك أصيل قائلا:

- وما الغضاضة في ذلك، ألم يقل المثل خذ الحكمة ولو من أفواه المجانين!!

فردد حسام باسما:

- اللهم إنا نعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسييء الأسقام..

في حين قال طلال معلقا:

- على كل حال يفترض بالدراسة أن تتم أولاً بأول، وما الدراسة في أيام الاختبارات إلا أشبه بالمراجعة الخفيفة، خاصة وأنها مجرد اختبارات قصيرة..

وقبل أن يضيف طلال كلمة أخرى؛ تكلم معاذ بحماسة دون سابق انذار، بعد أن كان صامتا طوال الوقت وهو يحاول عصر أفكاره:

- كيف نسيت هذا!! لقد أخبرني أبي بأن صديقه الصيدلاني الذي عملت لديه من قبل، قد سأله إن كان بإمكاني مساعدته في تشذيب الجذور الطبية حتى تصبح جاهزة لتحضير العقاقير مقابل مكافأة مجزية، لقد جاء العرض في وقته الآن الحمد لله..

قال طلال باسما:

- الحمد لله هذا جيد، لقد تدبرنا أمر العمل إذن ولله الحمد، نأمل من الله أن نتمكن من جمع المال اللازم في غضون ثمانية أيام..

وأضاف حسام ببهجة:

- لقد اتفقنا فدعونا نتفاءل خيرا..

لم يكن علاء قد عاد بعد فانتظر طلال قليلا قبل أن يقول- وهو يتأمل الشمس التي بدأت تميل أكثر باتجاه الغرب:

- لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك، فلدينا ثلاثة علوم علينا مراجعتها قبل الإفطار، هيا افتحوا كراساتكم ولنبدأ بعلم الحساب

لكن حسام استوقفه قائلا:

- انتظر لحظة فسيأتي علاء بلا شك، قال إنه لن يتأخر كثيرا..

فقال أصيل وهو ينهض من مكانه دون انتظار اجابة:

- هل أذهب لأناديه!

استوقفه حسان:

- وهل تعرف أين هو قبل أن نضطر للبحث عنك أيضا؟

عندها حسم طلال الموضوع بقوله:

- اتفاقنا واضح، يجب أن نبدأ بعد صلاة العصر مباشرة وقد استغرقنا بعض الوقت في مناقشة أمر الأعمال ولن نتأخر أكثر من أجل شخص واحد..

فوجئ الجميع من تلك اللهجة الصارمة التي تحدث بها طلال، فجميعهم يعرف أن علاء يمر بظروف صعبة أثرت على تركيزه، حتى وإن بدا أفضل حالا اليوم، فما بال طلال لا يُلقي لذلك بالا الآن رغم أن علاء هو أحوجهم لهذه المراجعة! وكأنه شخص آخر غير الذي تعاهدوا على مساعدته والوقوف إلى جانبه ليتمكن من إرجاع النقود والترشح لاختبار الارتقاء لمرتبة مقدام!! حتى حسام ألجمه الصمت، فقد شعر لأول مرة بأن طلال يحاول جاهدا أن يبدو على طبيعته خشية أن يقع فريسة للقلق الذي بدأ يسيطر عليه، وقبل أن يضيف أي واحد منهم تعليقا آخر، أقبل علاء مسرعا:

- السلام عليكم، أعتذر عن هذا التأخير..

ورغم الارتياح الذي بدا على وجه طلال إلا أنه قال بجدية - قبل أن يفسح المجال لمزيد من الكلام الذي لا طائل من ورائه:

- افتح كراسة علم الحساب، فسنبدأ الآن...

وقبل أن يَنفضّوا من جلستهم مع إيذان الشمس بالمغيب، ختم طلال الجلسة بدعاء سريع:

- اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما

وأمن الجميع على دعائه..

***

تنفس علاء بارتياح وهو يسلم ورقة الاختبار للمعلم برهان؛ فقد مر اختبار علم الحياة بسلام كاختبار علم الطبيعة والفلك وعلم الحساب من قبله، ولم يبق أمامه الآن إلا انتظار انتهاء الدروس لهذا اليوم ليبدأ تنفيذ خطته.. وما إن تذكر ما عزم عليه؛ حتى تسارعت نبضات قلبه، لكنه حاول جاهدا أن يبدو متماسكا حتى لا يثير شكوك رفاقه من حوله، وخاصة طلال وحسام بعدما حاول تجنبهم جاهدا - منذ ليلة أمس- خشية أن يطلعوا على ما يخفيه في صدره، وصبّر نفسه:

- اصبر يا علاء فلم يبق الكثير، فسينشغل طلال وحسام بتدريباتهم بعد الظهر وسيخلو لك الجو حتما، إياك أن تستعجل الآن فتفسد كل شيء!!

كان علاء مشدود الأعصاب، وهو يترقب اللحظة المناسبة للإنطلاق بعد الصلاة؛ عندما فاجأه ياسر- الذي انتحى به جانبا- وقال له:

- أتمنى أنني لم أجعلك تنتظر طويلا، لكن تأكد أنني ما زلت عند وعدي يا علاء، صحيح أنني لم أعرف بعد الطريقة التي يمكنني بها ارسال وديع لمكان لم يزره من قبل؛ لكنني سأبذل جهدي فاطمئن..

وبصعوبة استطاع علاء أن يستوعب ما يعنيه ياسر، فقد غاب عن ذهنه موضوع الرسالة التي كان يريد ارسالها لوالده، فقد كان عقله مشغولا بالبحث عن وكر فاتك، فقال مبتسما:

- جزاك الله خيرا يا ياسر، ولكن لا تقلق فقد نسيت موضوع الرسالة!!

وبدلا من أن تخفف تلك الكلمات عن ياسر- كما ظن علاء- أشعرته بمزيد من اللوم لنفسه، فأسرع يقول بلهجة معتذرة عن تقصيره:

- إن شاء الله سترسل الرسالة لوالدك، فبعد أن ننتهي مما اتفقنا عليه ونجمع المال المطلوب إن شاء الله سأتفرغ تماما لوديع..

فشد علاء على يده بامتنان:

- لا أعرف كيف أشكرك يا ياسر، جزاك الله خيرا..

فاحمرت وجنتا ياسر من شدة الحياء وقال:

- هذا واجب يا علاء!

ثم أسرع يغير الموضوع بقوله:

- ما العمل الذي اخترته يا علاء؟؟

فسأله علاء بتعجب:

- أي عمل؟؟

قال ياسر مستغربا:

- ألم يخبرك طلال أو حسام بموضوع العمل بعد؟؟

فأجابه علاء- وهو يحاول إنهاء الحديث بسرعة:

- لا بأس.. فربما لم يتسنّ لهم ذلك، إذ انني قد نمت باكرا جدا ليلة أمس! واظن انهم سيخبرونني عنه اليوم إن شاء الله فلا تهتم..

ولم يخف على ياسر ملاحظة ذلك فاعتذر بلطف:

- يبدو أنك مشغول الآن، لذا اراك غدا إن شاء الله..

ورغم أن علاء حرص على أن لا يشعره بذلك، إلا أنه قال وهو يصافحه:

- حسنا إلى اللقاء..

وبعد أن تأكد من أن جميع رفاقه في مرتبة همام قد غادروا، بمن فيهم قاسم الذي كان مدعواً لمنزل أحد أبناء بلده، انطلق باتجاه وادي الغليل.. حيث قابل فاتك هناك أول مرة...

***

هرع طلال وحسام نحو اسطبل الخيول الذي يعمل فيه عدنان، فوجداه يغسل يديه بعد أن انتهى من كنس الأرض، وإعادة المعدات إلى أماكنها، كما ملأ صناديق الطعام أمام الخيول التي أنهى تنظيفها. وبعد أن ألقيا عليه السلام قال طلال لاهثا:

- هل رأيت علاء اليوم؟؟

نظر إليهما عدنان بقلق:

- كلا.. هل حدث له شيء؟ خير إن شاء الله!!

فشرح له حسام الامر بسرعة:

- نأمل كل خير، ولكننا نخشى أن يكون قد تهور بالذهاب إلى فاتك ليسترد المال، فقد بحثنا عنه في كل مكان اعتاد التواجد فيه؛ دون أن نعثر له على أثر!

عندها ضرب عدنان على جبهته فزعا وقال:

- كيف لم أفطن لهذا!! لقد جاء ليسلم عليّ البارحة بعد العصر، وقد دار في حديثه كلام عن فاتك، وسألني بشكل غريب عن مكمنه، لكنني لم ألق بالا لذلك فلم يعدُ الأمر بالنسبة لي وقتها اكثر من مجرد حديث عابر..

وقبل أن يتم عدنان كلامه قفز طلال على أقرب حصان وجده أمامه، قائلا:

- اعذرني يا عدنان فلا وقت لمزيد من الشرح والتوضيح الآن، وإن سألك السيد رافع عن الأبرش؛ فاعتذر لي منه و قل له بأنني سأشرح له كل شيء بعد عودتي إن شاء الله، ولا تقلق فلن أتأخر كثيرا إن شاء الله، ولا داعي لأن تنتظرنا..

وانطلق يعدو به كالبرق دون أن يلتفت إلى عدنان الذي استبطأه قائلا:

- أنت لم تسرج الحصان يا طلال انتبه لنفسك!

لكن حسام الذي أسرع بإسراج الحصان (ورد) طمأنه بقوله:

– اطمئن، فطلال هو الوحيد بيننا الذي يمكنه العدو على حصان عار هكذا، إنه بحق أمهر الفرسان في المدرسة، كما قال المدرب ثابت، ما شاء الله..

وخلال لحظات، كان حسام قد امتطى ورد ليلحق سريعا بطلال، وقلبه يخفق بشدة:

– فلنتفاءل بأن الأوان لم يفت بعد..

تنهد عدنان:

– من لطف الله بي أن تدريبات هذه الخيول قد انتهت باكرا هذا اليوم، أرجو أن يتمكنا من إعادته قبل أن يعرض نفسه للخطر..

***

أسرع زيد إلى أمه وهو يحمل كيسا في يده، عند عودته من المدرسة بعد أن مر على أحد المتاجر الصغيرة:

- السلام عليكم لقد عدت، وها قد أحضرت الحاجيات التي طلبتيها مني في الصباح يا أمي..

وبعد أن أتمت السيدة رغدة تلاوة الآية من السورة التي كانت قد بدأتها، نظرت إلى زيد- الذي انحنى ليقبل يدها- وقالت:

- ما شاء الله، لقد عدت مبكرا هذا اليوم يا بني!

فأومأ زيد برأسه:

- لقد صرفنا المدرب علي باكرا على غير توقع..

فعلقت أمه باسمة:

- سبحان الله، كنت بانتظار الدقيق، فقد نفد من البيت ولم أبدأ بخبز العجين بعد..

واضافت:

- وكيف كانت اختباراتك اليوم؟

أجاب زيد مبتسما:

- إنها مجرد اختبارات قصيرة، وقد كانت سهلة جدا بحمد الله، وأتوقع أن أحرز فيها درجة كاملة بإذن الله، لقد كان يوما موفقا بفضل الله..

وتابع وهو يحضنها بحب:

- إنها دعواتك يا أمي جزاك الله خيرا..

ابتسمت رغدة بحنان:

- بارك الله فيك يا زيد ورضي عنك..

قال زيد:

– بالمناسبة سأبدأ مع الأصدقاء ممارسة أعمالنا الخاصة– إن شاء الله– كالعام الماضي، هل تذكرين يا أمي؟

صمتت رغدة قليلا– تحاول التذكر– قبل أن تقول:

– تقصد أنك ستذهب للعمل في متجر المؤن الكبير؟

هز زيد رأسه:

– أجل، فلدينا مشروع نسعى لتمويله من أعمالنا وقد اتفقنا على أن نبدأ ذلك من اليوم..

تساءلت أمه:

– ألن يؤثر ذلك على دراستكم، فغدا وبعد غد لديكم اختبارات، بالاضافة إلى واجباتكم، أليس كذلك؟

فطمأنها زيد بقوله:

– لقد قمنا بدراسة الموضوع و تنظيم وقتنا على أساسه بفضل الله، ولن يأخذ العمل منا أكثر من ساعتين بين العصر والمغرب..

واستطرد قائلا بلهجة لا تخلو من فخر:

– لا تنسي أننا فرسان يا أمي!

ضحكت أمه معلقة:

– ما شاء الله، تقول هذا وما زلت مقداما، فكيف لو أصبحت صنديدا!

ابتسم زيد:

ما دمتِ راضية عني و دعواتك لي، فلن يضيعني الله أبدا..

في تلك اللحظة دخل الشيخ عبد الرحيم عليهما، فعلق باسما وقد سمع جزءا من حديثهما:

- وماذا عني؟

فأسرع زيد يقبل رأسه ويده:

- وبالطبع رضاك عني ودعواتك لي يا أبي..

فقال والده:

- بارك الله فيك يا بني، ووفقك لما يحب ويرضى..

فاستأذن زيد قبل أن يذهب، وقال:

- سأذهب الآن للاتفاق مع صاحب المتجر على العمل إن شاء الله، فهل تريدون شيئا آخر مني؟

قالت أمه بابتسامة راضية:

- انتبه لنفسك فقط، وأسأل الله أن يحفظك من كل سوء يا بني، وحاول أن تعود قبل الإفطار..

وقال والده:

- بلّغه سلامي، واستعن بالله على أمورك، وفقك الله يا بني..

عندها جاءت حفصة مسرعة:

- لا تنس أن تحضر لي حلوى الفراشة يا زيد، فهي لا تباع إلا في متجر المؤن الكبير..

فابتسم زيد:

- حسنا، سأفعل إن شاء الله..

وبعد أن قبل زيد يدي والديه انطلق نحو المتجر وهو يشعر بسعادة كبيرة، لقد كانت بداية موفقة برضا والديه عليه، فردّد:

- يارب أعني كي أكون بارا بهما ما حييت..

***

كان علاء قد وصل إلى مشارف الوادي؛ عندما فوجئ بطلال يعترض طريقه على صهوة الأبرش، فهتف بدهشة عبّرت عن مدى انزعاجه:

- طلال!! ما الذي أتى بك!!

فما كان من طلال إلا أن ترجل عن الحصان قائلا:

- وهل يضايقك وجودي هنا!!

حاول علاء أن يبدو طبيعيا، وهو يتشبث بخيط الأمل الأخير خشية أن يفسد مخططه، فاصطنع ابتسامة وقال:

- الطريق يتسع للجميع، فلماذا تقف في وجهي وتحملق بي هكذا!! هل هناك شيء؟؟

فأجابه طلال بنفاد صبر:

- لا وقت نضيعه في المراوغة يا علاء، فانني أعرف لماذا أنت هنا، فلا تحاول خداعي..

استسلم علاء أخيرا وقد أسقط في يده فقال بوضوح:

- لا مفر من استرداد المال من فاتك فهذا حقي!!

رد عليه طلال بجزم:

- وهل تظن بأنك أهل لهذه المهمة وحدك وفي مثل هذا الوقت!!

شعر علاء ببعض الغيظ من تلك الكلمات لكنه قال بثبات:

- الحق قوي والباطل ضعيف، وأنا على الحق ولن أخشى شيئا، لقد عزمت على ذلك وانتهى الأمر، لذا أرجوك دعني أكمل طريقي..

لكن طلال لم يتزحزح من مكانه ورد عليه قائلا:

- لا خلاف على أن الحق قوي، ولكنه لا يُسترد بتهور كهذا!! لا تكن عنيدا يا علاء، فأنت تخاطر بذهابك لمكان لا تعرف عنه شيئا!! وهذا ليس من الشجاعة في شيء، تعقّل أرجوك، وفكر بحكمة أكثر فقد وجدنا حلاً أفضل لكنك لم تعطنا الفرصة لنعرض الفكرة عليك..

وبدلا من أن يثير كلامه اهتمام علاء قال بإصرار:

- لقد عزمت وانتهى الأمر..

و حاول المشي بسرعة ليتملص من طلال، الذي حال بينه وبين تحقيق مأربه، وهو يعترضه بجسده فاتحا ذراعيه:

- إلى أين؟؟ نحن لم نتفاهم بعد!

وبانفعال شديد قال علاء:

- إلى متى ستفرض وصايتك عليّ هكذا يا طلال!! دعني وشأني أرجوك!

فوجيء طلال من ذلك الرد، لكنه أجاب بثبات:

- أيرضيك أن تقدم نفسك لقمة سائغة لفاتك في حين أن مدينتك بحاجة إليك!! أنسيت أمر الوثيقة بهذه السرعة يا علاء!!

ورغم تأثر علاء بكلام طلال هذه المرة، إلا أن حماسته لمواجهة فاتك- التي باتت هاجسا يسيطر عليه ولا يرى غيره- سرعان ما استحوذت عليه، فقال وهو يحاول الضغط على الكلمات كي لا تخرج قاسية من فمه:

- أنت تجبرني على قول ما لا أريده يا طلال، ولكن اعلم بأنك لن تكون أحرص على مدينتي مني!!

تجاهل طلال الرد على ذلك الكلام الجارح، وهو يأخذ موضع الاستعداد:

- إذا استطعت مواجهتي أولا فلك ما تريد..

فوجئ علاء بموقف طلال الذي بدا أشد عنادا منه وأكثر إصرارا على موقفه، ورغم أن علاء لم يكن يرغب بمواجهة صديقه الآن، لكنه لم يجد بدا من ذلك، فقال:

- أنت ترغمني على ذلك ولن أتراجع..

واندفع بقوة باتجاه طلال مستخدما يديه لتنفيذ حركة تعلمها على يد المدرب عمر في الصراع والمشابكة، غير أن طلال تفاداه بخفة ومهارة فائقة أدهشت علاء، وفي تلك الأثناء أقبل حسام عليهما ليراع بمشهد علاء وهو يعيد الكرة باندفاع أقوى وأشد شراسة نحو طلال لتدور مواجهة عنيفة قاتل فيها علاء ببسالة وكأنه يواجه فاتك الذي استحوذ على تفكيره، في حين اكتفى طلال بأخذ وضع الدفاع متفاديا جميع تلك الضربات المتلاحقة دون أن يسمح لعلاء بمس شعرة من جسده..

وضاع صوت حسام الصارخ بينهما:

- أرجوك توقف يا علاء، فأنت لن تستطيع الصمود في وجه طلال كثيرا!!

غير أن كلماته لم تلق صدى لدى علاء، الذي لم يعد يرى أمامه سوى فاتك، حتى أنهكت قواه تماما، في حين بدا طلال في كامل لياقته الجسدية وكأنه في طور التحمية فقط..

وأخيرا توقف علاء عن اندفاعه المتهور، وهو يحاول التقاط انفاسه المتلاحقة، وقد بدا في غاية الانهاك، فقال له طلال:

- أظن أن هذا يكفي!

غير أن نظرات التصميم لمعت بتحد واضح من عيني علاء الذي أخذ موضع الإستعداد من جديد لمحاولة أخرى وهو يقول من خلال أنفاسه اللاهثة:

- ليس بعد..

عندها قال طلال- وهو يأخذ موضع الهجوم لأول مرة- مستقبلا اندفاع علاء نحوه:

– لم تترك لي خيارا آخر للأسف، فليس لديّ وقت اضيعه..

صرخ حسام الذي كان يتابعهما بقلق بعد أن ترجل عن ورد:

– لا تفعل يا طلال أرجوك..

وقبل أن يتم عبارته، وجّه طلال ضربة سريعة وخاطفة لعلاء أسقطته من فوره أرضا، وهو يصرخ من شدة الألم، فهرع حسام نحوه يطمئن عليه، في حين وقف طلال صامتا لبرهة قبل أن يتجه نحو الأبرش مخاطبا حسام بقوله:

– لا تقلق فقد أصبته اصابة غير مؤذية في ساقه، وسيزول ألمها قبل الغروب على أبعد تقدير إن شاء الله..

وامتطى طلال حصانه وودعهما قائلا:

– اترك الباقي لك يا حسام، فقد انتهت مهمة الأبرش وعلي أن اعيده إلى الإسطبل، ولا تنس أن عليك فعل ذلك مع ورد؛ كما وعدت عدنان فلا تتأخر كثيرا..

ولم يخف على حسام استشعار نبرة الحزن الدفينة في صوت طلال، ورمقه بعينيه وهو يبتعد متسائلا في نفسه:

– طلال.. يا صديقي العزيز .. ماذا حدث؟؟

غير أن سؤاله لم يتجاوز حدود فكره، وهو يلتفت نحو علاء الذي كان يتألم بشدة ممسكا ساقه بيديه..

احتار حسام في اختيار الكلمات المناسبة لهذا الموقف وهو يخشى أن يؤثر ما حدث على العلاقة بين صديقيه، وقال أخيرا:

– لا أعرف ما الذي دار بينكما قبل أن آتي، ولكن أرجو أن لا تغضب منه يا علاء، فطلال نادرا ما يتصرف على هذا النحو ولا شك أن لديه سببا وجيها لذلك..

ولدهشة حسام الشديدة جاءه رد علاء بقهر:

– لا أحد يشعر بي هنا.. لقد مللت منكم ومن نصائحكم.. ولا أريد سماع شيء..

وبتر علاء كلامه إذ خنقته العبرات، فحاول حسام أن يكون أكثر حكمة وهو يخاطبه قائلا:

– سامحك الله يا صديقي، استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تسيء الفهم فنحن إخوة وأصدقاء، وثق بأن طلال لم يفعل ذلك إلا لأنك عزيز عليه..

صمت حسام قليلا قبل أن يقول ما تردد في قوله سابقا:

– قد لا ألومك يا علاء فأنت لم تشعر بقلقه الشديد عليك من قبل؛ لأنه كتوم جدا، ومن النادر أن يبدى مشاعره.. لقد كان قلقا جدا عليك لدرجة أنه لم يبح لك بحقيقة قلقه بخصوص الوثيقة، خشية أن يؤثر ذلك عليك..

لبث علاء صامتا وهو يستمع بانتباه شديد لحسام، وقد بدأ يشعر بشيء من الندم لما كان قد تفوه به في وجه طلال وساءل نفسه:

– ما الذي يدفعه لفعل ذلك من أجلي!! لقد كنت قاسيا بكلامي معه..

أما حسام الذي بدأ يشعر بالارتياح وهو يلاحظ أثر كلماته على وجه علاء، فقد قال:

– لقد اتفقنا مع بقية الأصدقاء على البدء بمزاولة الأعمال الخاصة بكل واحد منا لجمع المال، فما هو العمل الذي تحب ممارسته يا علاء؟

فحملق فيه علاء بعينين متسائلتين؛ قبل أن يتابع حسام كلامه باسما وكأن شيئا لم يكن:

– كنا سنخبرك عن درس العمل الذي فاتك في المستوى الخامس، فعلى كل واحد منا أن يتقن عملا معينا يستطيع من خلاله كسب رزقه، فمثلا أنا اخترت

النجارة اقتداء بنبي الله نوح عليه السلام، إضافة إلى أنني كنت أتمنى أن أتمكن من صناعة أقواس وسهام جيدة، أما طلال فقد اختار الحدادة كنبي الله داوود عليه السلام، خاصة وانه مولع بالخيول كثيرا فرغب بأن يتقن صناعة حدواتها إلى جانب اهتمامه بالسيوف، وهكذا اختار كل واحد منا عملا يتدرب عليه ويتقنه، فحسان وأصيل عملا في الزراعة والفلاحة، وياسر لديه موهبته الخاصة بالرسم، إضافة إلى عنايته بالطيور ورعايتها، ومعاذ اكتسب خبرة كبيرة في تحضير الأدوية وتمييز النباتات الطبية، وزيد أصبح من أفضل المحاسبين والمشرفين على احصاء البضائع في متاجر المؤن والحبوب، وبإذن الله سنتمكن من جمع المبلغ المطلوب في غضون ثمانية أيام بالعمل الدؤوب.. فماذا عنك أنت؟

لم يستطع علاء الرد بشيء إذ شعر بالخجل من موقفه مع صديقيه، على ما يبذلانه من أجله، ولاحظ حسام ذلك فلم يشأ أن يتركه فريسة لأفكاره تلك، فقال مشجعا:

– قد نخطيء أحيانا في حق بعضنا البعض، ولكننا سرعان ما يعذر بعضنا بعضا، ألسنا كالجسد الواحد يا صديقي؟؟

وأخيرا قال علاء بامتنان شديد:

– جزاك الله خيرا يا حسام، لا أعرف كيف أرد لكم هذا الجميل!

و صمت قليلا قبل أن يضيف:

– لقد أخطأت في حق طلال كثيرا، وأظن أنه غاضب مني الآن، فكيف لي أن أواجهه وأعتذر منه؟

ضحك حسام بمرح وهو يضربه على كتفه بلطف:

– لا تشغل بالك بهذه الأمور يا علاء، يبدو أنك لا تعرف طلال جيدا، ثم إنكما تعادلتما بضربته تلك، فلا تقلق..

واستدرك قائلا:

- لقد ذكرتني، فعلينا أن نعيد ورد بسرعة إلى الاسطبل، هيا يا علاء فبعد قليل سيؤذن لصلاة العصر..

وبسرعة ساعد حسام علاء- الذي بدأ ألم ساقه يخف تدريجيا- على النهوض وامتطاء صهوة ورد. وبعد أن أمسك حسام باللجام، انطلقا معا على ظهر ورد باتجاه المدرسة، وقد غمر علاء شعور جديد وهو يتمسك بحسام، فقد كانت المرة الأولى التي يمتطي بها حصانا خلف أحد..

***

وفي منزل الطبيب يحى، أخذ حمزة يبكي وهو يستوقف أخاه الكبير معاذ قائلا:

- لن تذهب الآن قبل أن نكمل القراءة..

أما معاذ- الذي حاول تهدئته بشتى الوسائل- فقد قال:

- لقد تابعت معك قراءة خمس صفحات من القرآن، وقد أصبحت قراءتك جيدة، ما شاء الله، وتستطيع الاعتماد على نفسك منذ اليوم..

لكن حمزة رد بإصرار:

- لا أريد.. ربما اخطئ في لفظ كلمة فيضيع علي أجر القراءة!!

ضرب معاذ جبهته بيده اليمنى:

- ومن قال لك بأن أجر القراءة سيضيع!! قلت لك بأنك ما زلت صغيرا وليس مطلوبا منك هذا كله!

قال حمزة بعناد:

- كلا لقد أصبحتُ كبيرا وأريد أن أختم القرآن في رمضان مثلك ومثل أمي وأبي..

وأخيرا تكلم معاذ- خشية أن يفسد حمزة مخططه في العمل:

- اسمعني يا أخي لدي أعمال علي إنجازها وسأعود قبل المغرب، إن شاء الله، وسأحضر لك معي الحلوى التي تحبها إن انتظرتني بهدوء، وإياك أن تتعب أمي، وإلا فلن أتمكن من إحضار الحلوى لك..

استطاع معاذ التملص من أخيه بصعوبة، فسلم على أمه وقبل يدها طالبا منها الدعاء له بالتوفيق، ولم ينس المرور على والده الذي كان مشغولا في عيادته، فتفقد حافظة الجذور الطبية بهدوء واطمأن إلى كونها ممتلئة، ثم خرج وهو يتنفس الصعداء سائلا الله في سره ان يوفقه في عمله..

***

كانت السيدة عبير منهمكة في تنظيف أرضية الصالة عندما دخل أصيل بحماسه المعهود هاتفا بفرح:

- لقد أنهيت ترتيب الغرفة يا أمي وساتمكن من الخروج الآن..

فصرخت أمه محذرة:

- انتبه ستتزحلق؛ فالأرض ما زالت مبتلة ولم تجف بعد!

وقبل أن تتم عبير كلامها، كان أصيل قد ارتطم بدلو الماء ووقع فوقه، ساكبا ما فيه من ماء على الأرض، وقبل أن تعلق أمه بكلمة نهض أصيل برشاقة معتذرا:

- آسف، إطمئني يا أمي سأعيد تنظيف الأرض بسرعة..

وتناول منها الممسحة، في حين قالت موبخة:

- متى ستعقل وتكف عن حركاتك الطفولية أيها الولد!

فابتسم أصيل مازحا:

- ألست ابنك المدلل وآخر العنقود!! أفلا يحق لي ذلك!!

ولم تزد أمه عن ترديد ما اعتادت عليه دائما:

- هداك الله يا بني وأصلح حالك..

وبعد أن أعاد أصيل تنظيف الأرض بسرعة، قال:

- والآن هل تريدين شيئا مني يا أمي الحبيبة؟

قالت أمه:

- وماذا عن واجباتك المدرسية؟ هل انهيتها؟

فطمأنها أصيل بقوله:

- لا تقلقي بهذا الشأن فكل شيء على ما يرام..

فقالت أمه وهي تتفحصه بنظرات ذات معنى:

- أشك في هذا!

ثم استدركت وهي تتأمل ملابسه:

- هل ستخرج هكذا بملابسك المبللة!

فانتبه أصيل لنفسه وابتسم قائلا:

- لا عليك سأبدلها حالا، فهل بقي هناك شيء آخر!

زمت أمه شفتيها وصمتت قليلا، وهي تقلب بصرها في أرجاء الصالة، في حالة من التفكير العميق، فضحك أصيل وعانقها معلقا على منظرها:

- أرجوك يا أمي لا تضيفي لي أعمالا جديدة، فقد أنجزت كل ما طلبتيه مني اليوم!

ضحكت أمه وهي تشد أذنه:

- حسنا، ولكن عليك أن تعود قبل المغرب فستأتي أختك وأولادها لتناول طعام الإفطار هذا اليوم، ولا تنس أن تمر على والدك وتذكره بأن يحضر صابون الغسيل في طريق عودته..

وبعد أن بدل أصيل ملابسه؛ قبل يد أمه وخرج متجها نحو السور بين حديقة منزلهم ومنزل حسان، مناديا عليه..

لم يكد حسان يخرج مع أصيل بعد أن ارتدى الملابس الخاصة بالعمل في المزرعة؛ حتى نادته أمه مستوقفة إياه بقولها:

- انتظر يا حسان، لقد نسيت أن تأخذ معك القبعات، ستؤذيكم الشمس هكذا، لا قدر الله..

ثم أخذت تنادي على سمية:

- هل عثرت عليها يا ابنتي؟

وبسرعة أحضرت سمية قبعتين مصنوعتين من القش، ناولتها لأمها التي أعطتها لحسان بدورها قائلة:

- احذروا من ضربة الشمس، وانتبهوا لأنفسكم وفقكم الله..

***

استلقى علاء على سريره رافعا قدمه المصابة على وسادة، بعد أن أدى صلاة العصر جماعة مع حسام، فقد وصلا بعد انقضائها في الجامع، ولم يكن يستطع ثني رجله للسجود والجلوس للتشهد وقتها، فصلى جالسا على كرسي. التقط علاء نفسا عميقا وهو يسترجع في ذاكرته ما حدث قبل أن يخرج حسام برفقة طلال إلى السوق، فلم يكن يتخيل أن يمر الموضوع بهدوء هكذا بعد أن كان قلقا بشأن طلال، غير أنه فاجأه باستقباله له- وهو يطمئن على ساقه- قائلا:

- سامحني يا علاء فلم أكن أقصد إيلامك، وبإذن الله سنبذل جهدنا لجمع المال المطلوب خلال الأيام القادمة إن شاء الله فلا تقلق بهذا الشأن..

عندها قال علاء:

- بل أنا من يجب عليه الاعتذار، فأنت تحرجني بتسامحك يا طلال ولا تستحق ما قلته عنك يا صديقي، لقد كنت غاضبا وقتها فسامحني..

فابتسم طلال:

- لا عليك.. فهذه بتلك، و أرجو أن تكون الاصابة قد أعادتك إلى رشدك، على كل حال ما رأيك أن تذهب للطبيب لتطمئن عليها؟

فقال علاء:

- ألم تقل أنها مجرد إصابة خفيفة، وسيزول ألمها قبل الغروب إن شاء الله!

هز طلال رأسه موافقا:

- أجل.. ولكن الاحتياط واجب!

لكن علاء طمأنه بقوله:

- لا عليك، فإنني أفضل احتمال الألم؛ على أن يرى الطبيب ضعفي أمام ضربات صديقي المباغتة!!

كانت تلك الصور تدور بذهن علاء فأخذ يتحسس قدمه المصابة وابتسم لنفسه وهو يحدثها:

- لقد كانت ضربة موفقة، يا له من صديق!!

وأخذ يفكر فيما أخبره به حسام:

- ترى ما هو العمل الذي يناسبني؟؟

***

كان زيد منهمكا في مراجعة الأسعار المدونة على البضائع، واجراء بعض الحسابات في متجر المؤن الكبير؛ عندما طرق سمعه حديثا يدور بين رجلين خلف أحد الرفوف:

– أرأيت!! كما توقعت؛ فإن للشيخ عبد الرحيم دوافعه الخاصة من فتاويه ودروسه التي يظهر فيها كالمنتصر لحقوق النساء..لقد تبين أخيرا أن له علاقاته الخاصة مع الأثرياء، وقد شككت منذ البداية في أقواله، إنه يفصّل الدين على هواهم استجلابا لرضاهم وطمعا في ثرواتهم!! لقد كان يحثنا على احسان معاملة النساء مستشهدا بمواقف غريبة من سيرة الرسول يفسرها بطريقة لم نألفها من قبل، وما هو في الحقيقة إلا متملق يتزلف لاستمالة الاثرياء الى صفه! الم تشاهد فاخر شفيع وهو يزوره في منزله بصحبة ابنته السافرة، لقد صدق الشيخ سامع في تحذيرنا من أمثال هؤلاء الدعاة الذين سيفسدون بناتنا بلا شك..

لم يستطع زيد كبت غضبه وهو يستمع إلى ذلك الافتراء، فترك ما في يده واتجه نحوهما، قاطعا حديثهما بقوله:

– هلاّ تحققت من كلامك قبل أن تنشر مثل هذه الشائعات الكاذبة!!

فوجيء الرجلان برؤيته فقال احدهما:

– ومن أنت يا هذا لتتدخل فيما لا يعنيك؟

فرد زيد:

– لقد كان صوتكما عاليا، ومن حق أي سامع أن يتدخل للدفاع عن أعراض الناس..

عندها قال الرجل الثاني، وقد بدا الارتباك على وجهه مخاطبا رفيقه:

– إنه ابن الشيخ عبد الرحيم، لقد رأيته يدخل منزله!

وفي تلك الأثناء؛ أقبل صاحب المتجر نحو زيد بعد أن سمع صوته الغاضب قائلا:

- ماذا هناك يا زيد؟

لكن زيداً لم يزد على قوله:

- لقد أنهيت احصاء الرف الأول، وسأنتهي من الثاني حالا إن شاء الله..

فابتسم صاحب المتجر- وهو يناوله أجرته:

- لقد أحسنت صنعا يا بني، يكفي ما فعلته هذا اليوم وبلغ تحياتي لوالدك..

ثم التفت نحو الرجلين:

- وأنتما ألا يفترض بكما أن تكونا قد أنهيتما نقل الصناديق! سنغلق المتجر بعد قليل استعدادا للإفطار فماذا تنتظران!!!

***

كان ياسر منهمكا في رسم لوحته التي بدأ بها بعد عودته من المدرسة، عندما سمع صوت أمه تناديه:

- ياسر.. هيا الى مائدة الافطار يا حبيبي، فسيرفع أذان المغرب بعد لحظات..

فأجابها ياسر وهو ينهض من مكانه:

- حسنا يا أمي ها أنا قادم..

وبسرعة نظف الريشة بالماء، ووضعها في مكانها المخصص على المنضدة، إلى جانب علبة الألوان التي أحكم إغلاقها، ثم ألقى نظرة أخيرة على اللوحة قبل أن يخرج من غرفته..

أخذ ياسر مكانه حول المائدة- بعد أن غسل يديه- و سلم على والديه قائلا:

- أحتاج الى دعواتكما بشدة هذه الأيام، فسيقام المعرض بعد يومين، إن شاء الله..

فقالت أمه مطمئنة:

- توكل على الله فستكون لوحاتك أفضل لوحات المعرض بإذن الله، وأسأل الله أن يكتب لك التوفيق بكل خطوة تخطوها..

وأمن والده على كلامها، قبل أن يقول:

- وما هي أخبار وديع؟

فأطرق ياسر بحزن:

- لم أجد حتى الآن الوسيلة المناسبة لإرساله برسالة إلى مكان لم يزره من قبل، حتى في المنظمة لم يفيدوني بشيء- حتى الآن- بهذا الصدد..

شجعته أمه بقولها:

- ستجد الطريقة المناسبة بالتأكيد، فأنت تبذل جهدك يا بني من أجل إدخال السرور على قلب صديقك، ولن يخذلك الله أبدا، فإياك أن تفقد الأمل..

فابتسم ياسر:

- بالطبع يا أمي لن أفقد الأمل أبدا، بإذن الله..

وردد ياسر في نفسه مناجيا ربه:

- يارب يسر لي الوفاء بوعدي لعلاء..

و مع دعوات والديه؛ ارتفع صوت أذان المغرب لتبدأ العائلة إفطارها على تمرات وماء..

***

وفي بيت الشيخ عبد الرحيم لم يخفَ على أحد ملاحظة تعكر مزاج زيد بعد عودته من المتجر ذلك اليوم، رغم ما حصل عليه من أجرة عالية بشّر بها والديه..

كان يتحدث بغيظ شديد، وهو يخبر والده بما سمعه من الرجلين في المتجر، فابتسم والده مهدئا وقال:

- الموضوع لا يستحق كل ذلك الغضب يا بني، انس امرهما..

فقال زيد بحرقة:

- إنهما يكذبان يا ابي! ولا أعلم لماذا يصر الناس على تشويه سمعة الآخرين هكذا!! إنني لا أحتمل ما يقال عنك يا أبي، وكيف لي بذلك؟؟

ربت والده على كتفه:

- يا بني الحبيب، لقد لاقى الرسول- صلى الله عليه وسلم- أكثر من ذلك فصبر، أفلا نصبر نحن على كلام لا يسمن ولا يغني من جوع!!

واستطرد قائلا:

- ما رأيك ان تكتب في تقرير عن الصبر- الذي ستسلمه بعد العيد إن شاء الله- عن الصبر على أذى الناس وكلامهم وتجربتك في ذلك، أليس موضوعا جميلا؟

حملق زيد بوالده قبل أن ينهض مقبلا رأسه وهو يقول بتأثر:

- كم أنا فخور بك يا أبي، سأحاول الصبر على ما أسمعه قدر استطاعتي وسأبذل جهدي في ذلك، إن شاء الله..

فابتسم والده:

- ركز في واجباتك وفروضك يا بني وتجاهل كلام الجاهلين وكأن شيئا لم يكن، فلو ألقى لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالا؛ لما انتشرت دعوته.. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

***

اجتمع علاء وحسام وطلال بحسان واصيل وزيد في باحة جامع الفتح بعد صلاة العشاء والتراويح ، وهم يتحدثون على عجالة عما قابلهم في أول يوم عمل و الأجرة المتوقعة التي سيحصلون عليها خلال الأيام القادمة، وبعد إجراء حسابات تقريبية قال حسان:

- إذا استمر الوضع هكذا فسنكون قادرين على جمع أكثر من نصف المبلغ المطلوب خلال ستة أيام- إن شاء الله- هذا غير ما سيحصل عليه ياسر ومعاذ بإذن الله..

قال حسام بنبرة متفائلة:

- بالنسبة لياسر فسيقام المعرض الذي سيشارك فيه بعد يومين- إن شاء الله- ونرجو من الله أن يسهل له جني ربح كبير منه..

فقال زيد:

- وعلى أغلب ظني فإن معاذ بدأ عمله اليوم أيضا، وسيكون اجره مجزيا..

قال طلال وهو يفض الاجتماع:

- هذا جيد، أما الآن فأظن أن علينا النوم باكرا للتركيز في اختبار الغد، إن شاء الله..

أكد حسان كلامه، وهو يهم بالعودة إلى المنزل- بعد أن رأى أخته سارة تقف بانتظاره إثر فراغ درس جويرية:

- أوافقك الرأي، فلم انته من مراجعة الدرس الأخير في (أشكال الأرض والبلاد)..

وقبل أن يمضي أصيل معه نحو منزليهما، التفت إلى علاء مستدركا:

- هل أنت جاد في هذا العمل الذي اخترته؟

ابتسم علاء قائلا:

- وهل تظنني كنت أمزح!! إنني جاد تماما فهذا العمل الوحيد الذي اكتسبت فيه خبرة من قبل..

وفي طريق العودة إلى المدرسة، قال حسام:

- لقد فاجأتنا باختيارك هذا بالفعل يا علاء، ولكن من أين ستعثر على عمل كهذا؟

في حين قال طلال بعد تفكير:

- حسب ما أعلم، فإن الرعاة يخرجون لرعي الأغنام في الصباح الباكر قبل شروق الشمس، وبما أننا ملتزمون بدوام مدرسي، فلن تتمكن من رعيها في ذلك الوقت.. ولكن لا بأس من المحاولة..

قال علاء:

- سأستعين بعماد، فهو بلا شك له علاقة جيدة بالعديد من الفلاحين والرعاة وأصحاب المزارع والحيوانات الأليفة..

لم يكد علاء يتم عبارته حتى فوجيء الثلاثة بصوت مألوف يأتي من خلفهم يقول:

- اطلب ما تشاء وتمنى، فنحن هنا في الخدمة!

ولدهشة الثلاثة لم يكن ذلك المتكلم سوى عماد! فهتف علاء:

- عماد!!!!!!! ما الذي جاء بك الآن!!!!

ضحك عماد قائلا:

- سمعت إسمي فجئت فورا تلبية لأي مساعدة!

فضحك حسام وابتسم طلال، دون أن تخفى الدهشة عن وجوههم، في حين قال علاء بلهفة:

- كفاك مزاحا الآن!

فقال عماد باسما:

- حسنا ما رأيك لو أخبرتك بأنني أبحث عن راع للأغنام!

فقال علاء بلهجة عتاب:

- أتهزؤ بي يا سيد عماد!!

لكن عماد قال بجدية:

- بل هي الحقيقة، فقد مرض الراعي الذي يعمل لدى جارنا وسألني إن كان بإمكاني القيام بالمهمة نيابة عنه، أو مساعدته في إيجاد شخص مناسب بالأجر الذي يستحقه، ويتفق عليه معه، ونظرا لأنني مشغول هذه الأيام ومدين لجاري هذا بالكثير؛ لوقوفه إلى جانبي وجانب أمي في العديد من المواقف، فقد جئت لرؤية عدنان لعله يساعدني في إيجاد شخص مناسب، فصليت العشاء في جامع الفتح، ومن ثم قلت أُسلم عليكم في الطريق لكنني لاحظت أنكم مشغولون جدا، حتى أنكم لم تنتبهوا لوجودي، فأحببت مفاجأتكم!! هذه هي القصة فما رأيكم؟؟

تبادل الأصدقاء الثلاثة نظرات تعجب وهم يرددون:

- سبحان الله!

فعلق عماد باسما:

- أغرب من الخيال أليس كذلك!! لا أدري من أيهما أعجب أكثر، من تقدير الله الذي سخر لي ما أبحث عنه بسرعة، أو من تقديره الذي ساقني لك يا علاء لأحقق طلبك؟؟

و قال طلال:

- ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

***

مضى يومان استطاع فيها الأصدقاء تنظيم وقتهم بين الدراسة والتدريبات والعمل بنجاح منقطع النظير، حتى أن أحدا من المعلمين والمدربين لم يلحظ أي تقصير منهم، في حين أنهم تمكنوا من جمع مبلغ أكبر من توقعاتهم، وكم كانت فرحتهم كبيرة وهم يقفون إلى جانب ياسر الذي تألق نجمه في معرض بيع اللوحات يوم الجمعة، لا سيما وهم يشاهدون إقبال المشترين على لوحاته و يسمعون ثناء الزائرين عليها، وإعجابهم بها. وبعد أن خصمت مستحقات المعرض من ريع بيع لوحاته، غمرت الفرحة وجوه الأصدقاء وهم يحصون ما يقارب الأربعة آلاف قطعة نقدية، ناولها ياسر لعلاء قائلا:

- بإذن الله نتمكن من إكمال المبلغ خلال الأيام المقبلة فما زال أمامنا أربعة أيام قبل الموعد المحدد ، وسأحاول العثور على عمل في (منظمة الحمام الزاجل)..

بدا علاء عاجزا عن التعبير عن مدى شكره وعرفانه:

- لا أعرف كيف أشكرك يا ياسر، فلا أجد كلمة توفيك حقك، غير دعائي بأن يجزيك الله خيرا..

احمرت وجنتا ياسر:

- ليس إلى هذه الدرجة يا صديقي..

فعلق حسام باسما:

- يبدو أن ياسر سيستأثر بأكبر حصة في جمع المال- ما شاء الله- لكنني لن أستسلم..

في تلك اللحظة كان طلال قد أنهى مع زيد جمع أدوات ياسر وحاجياته التي استخدمها في المعرض، ووضعها في حقيبة، ثم قام بتسليمها الى ياسر قائلا:

- جزاك الله خيرا يا ياسر لقد كان يوما رائعا بحق..

قال ياسر بتواضع:

- وجزاكما الله خيرا انتما أيضا، فقد كنت سأجمعها بنفسي، وشكرا لوقوفكم إلى جانبي يوم العطلة..

فوخزه أصيل مازحا:

- ماذا تظن نفسك يا أخي! فعلاء صديقنا أيضا وليس صديقك وحدك!!

علق علاء باسما:

- أنتم تحرجونني بكلامكم وعملكم هذا يا أصدقاء..

ثم استدرك قائلا:

- اليوم الجمعة!! لقد نسيت قراءة سورة الكهف!

فقال حسام:

- ظننتك قرأتها بعد صلاة الفجر!

فطمأنه طلال:

- لا بأس، ما زال هناك متسع من الوقت..

ثم التفت إلى ياسر وقال:

- هل نساعدك في حمل الأشياء إلى المنزل؟

فأجابه ياسر:

- لا داعي لذلك، فسيأتي والدي لاصطحابي بالعربة إن شاء الله، جزاكم الله خيرا..

فقال أصيل وهو يشد حسان من ذراعه:

- في هذه الحال نستأذنكم نحن بالذهاب..

وقبل أن يتم كلامه أقبل المعلم نبراس محيياً:

- هيا اصعدوا جميعا إلى العربة، فسأقوم بإيصالكم لمنازلكم..

وهكذا وجد أصيل نفسه محشورا وسط أصدقائه في العربة دون أن يسلم من ضحكهم وتعليقاتهم في حين انشغل علاء بقراءة سورة الكهف..

***

أعاد طلال عدّ أجرته اليومية بعد أن استلمها من الحداد الذي يعمل لديه، قبل أن يعيد عددا من القطع النقدية له قائلا:

- أظنك اخطأت في الحساب يا عم! إنها تزيد بخمس وثلاثين قطعة عن القيمة الأصلية!!

لكن الحداد ضم أصابع يد طلال على النقود، قائلا:

- إنك تستحق أكثر من ذلك يا بني، وهذه مكافأة صغيرة مني، فلم أر أحدا يعمل بإتقانك وأمانتك من قبل، بارك الله فيك وفيما أخذت..

فشكره طلال بأدب:

- جزاك الله خيرا يا عم..

وما هي إلا لحظات حتى أقبل عليه حسام من محل النجارة المجاور، ليعودا معا إلى المدرسة والفرح يتراقص في عينيه:

- لقد كافأني النجار بثلاثين قطعة إضافية، والحمد لله..

ابتسم طلال:

- هذا جيد، يبدو اننا متوافقون في المكافآت أيضا، فقد حصلت على زيادة..

تهلل وجه حسام بشرا:

- هذا رائع، أتمنى أن تكون الحال نفسها مع علاء وبقية الأصدقاء، فلم يبق أمامنا سوى ثلاثة أيام..

ثم أخذ يجري بعض العمليات الحسابية في ذهنه قبل أن يقول:

- لو سارت الأمور على هذا النحو، وافترضنا ان ياسر تمكن من الحصول على مكافأة مجزية من المنظمة، لاستطعنا الوصول الى ما يقارب ثمانية الاف قطعة نقدية، ولكن ماذا عن الالفين الباقيين!!

أجابه طلال:

- في هذه الحال، يمكننا طلب أجرتنا سلفا ممن نعمل لديهم، ولا أظنهم سيعارضون ذلك..

لكن حسام توقف فجأة، وأشار إلى إعلان لفت نظره:

- هل رأيت هذا الاعلان من قبل؟

نظر طلال إلى حيث أشار حسام وقرأ:

- " تعلن إدارة دار العرض الرئيسة في (مدينة رياح)، عن المسابقة الكبرى لأفضل عرض مسرحي بأكبر حضور جماهيري، بجائزة مقدارها خمسة آلاف قطعة نقدية للمركز الأول، وذلك ابتداء من اليوم الخامس من شهر رمضان و لمدة عشر أيام....."

توقف طلال عن القراءة ملتفتا إلى حسام الذي بدى مشدودا إلى الإعلان تماما:

- وماذا في ذلك!! هذه دعاية لإشغال الناس في دور العرض والملاهي في هذا الشهر الفضيل!

فقال حسام:

- ألا ترى ان هناك جائزة مقدارها خمسة آلاف قطعة نقدية!

نظر إليه طلال بتعجب:

- ما الذي تعنيه بقولك هذا!!

فأجابه حسام وكأنه في واد آخر:

- يا له من توقيت!! ما زال أمامنا يومان للتدريب ويمكننا المشاركة، فاليوم هو الثالث عشر من رمضان، وإن تمكنا من التسجيل فقد نربح الجائزة..

فصرخ به طلال:

- حسام!! ماذا أصابك!!

انتبه إليه حسام كمن استيقظ من حلم جميل:

- لماذا تصرخ هكذا!

فخفض طلال صوته:

- اسأل نفسك!!

لكن حسام رد عليه بهدوء قائلاً:

- ما رأيك!! أليست فكرة جيدة؟

أجابه طلال بنظرات متعجبة:

- حسام.. هل حقا أنت جاد فيما تفكر فيه؟

وبثقة أجاب حسام:

- جاد تماما بل ربما لم أكن جادا هكذا من قبل، فهذه فرصتنا لتحقيق هدفين في آن واحد؛ نعرض أفكارنا التي نتمنى إيصالها للآخرين خاصة في هذا الشهر الفضيل، وفي الوقت نفسه نكون قد جمعنا المبلغ المطلوب..

وتابع بحماسة:

- منذ مدة وهناك فكرة تلح على بالي وأظن أنه قد آن أوانها، فالحمد لله..

وأمام حماسة حسام للفكرة، وجد طلال نفسه يعيد التفكير بالموضوع بجدية أكبر، قبل أن يقول:

- لا بد أن نسأل الشيخ عبد الرحيم قبل أن نقدم على خطوة كهذه، فقد يكون ضررها أكبر من نفعها لا سيما وأن معظم دور العرض مشهورة بفساد عروضها، فهل من الحكمة الظهور فيها؟؟

فقال حسام:

- بالتأكيد سنسأله وإن كنت أرجح بأنه سيشجعنا على هذه الفكرة، فنحن سنشارك على طريقتنا الخاصة، إن شاء الله..

وبدون مقدمات أمسك حسام يد طلال وسحبه دون أن يترك له فرصة الاعتراض قائلا:

- سنذهب للإستفسار من الإدارة هناك فربما يكونون قد اكتفوا بالفرق المشاركة..

***

في اليوم الثاني قبل صلاة العصر، انتظر الأصدقاء حسام تحت الشجرة الكبيرة، بناء على طلبه في الصباح، وكل واحد منهم مشغول بشيء ما، بينما كان أصيل يذرع المكان جيئة وذهابا:

- ترى ما هو الأمر الطارئ الذي دعانا حسام لأجله!

وقبل أن يجيبه أحدهم بشيء أقبل حسام مهرولا وهو يتأبط حقيبة تحت ذراعه اليمنى ويمسك مجموعة من الأوراق بيده اليسرى:

- أرجو أن لا أكون قد جعلتكم تنتظرون كثيرا!

وما إن عرض عليهم فكرته حتى صاح أصيل بصوت مرتفع:

- ماذا!! غدا عصرا هو موعد عرضنا!! قل بأنك تمزح!!

قال حسام وهو يضع الأوراق أمامهم:

- لقد أنهيت كتابة نص المسرحية بالفعل ولم يبقَ أمامنا إلا التدريب على الأدوار، ولا أظنه أمرا صعبا..

خيم الوجوم على الوجوه باستثناء طلال وعلاء، اللذين كانا قد تلقيا الصدمة الأولى من قبل، فباتا متقبلين للفكرة أكثر من غيرهم، وعلق معاذ:

- تقول لم يبقَ إلا التدريب وكأنه لا شيء يُذكر!! هل تعي ما تقوله يا حسام؟؟

غير أن حسام ابتسم مشجعا:

- فلنعتبرها تجربة من تجارب علم الطبيعة التي كنا ننجزها في غضون ساعة واحدة!

فضحك أصيل:

- كنت أتساءل ما الذي جعل طلال يقتنع بفكرة كهذه، لقدعرفتَ كيف تقنعه يا حسام..

فقال طلال:

- للأمانة والحق يقال، النص مؤثر جدا وقد أشعرني بالمسؤولية تجاه نشر فكرته..

تساءل زيد بتوجس:

- ولكن هل أنت واثق من أننا لن نؤثم بالمشاركة في سباق تديره دار عرض اشتهرت بفسادها؟

فأجابه حسام بثقة:

- لقد وافقني الشيخ عبد الرحيم على هذا الرأي بل وشجعني أيضا، فنحن سنقدم أفكارا هادفة- بإذن الله- وهذا مجال للدعوة لا يستهان به، إنها فرصتنا..

أما ياسر الذي شعر بقلبه يغوص بين قدميه فقد قال:

- هل من الضروري أن نشارك جميعا في هذا العرض!!

أجاب حسام وقد فهم مغزى سؤاله:

- لكل واحد منكم دور في النص الذي كتبته، وسنقدمه بعفوية إذا لزم الأمر دون الحاجة للالتزام الحرفي بالنص، ففكرته من صلب ما تعلمناه في المدرسة وما أخبرنا به المعلم رائد مؤخرا من كون تفكيك الدول يبدأ من الداخل، وأنا واثق من أننا سنقدم عرضا رائعا- إن شاء الله- فاطمئنوا..

ثم تابع كلامه بحماسة، وهو يشرح لهم الفكرة العامة للمسرحية التي كتب منها نسختين، سلم واحدة لحسان وأصيل قائلا:

- سيكون عليكما الدور الأكبر في العرض، دور "الزعيم" لحسان ودور "مكار" لأصيل، فهما متلازمان وبإمكانكما التدرب على معظم المشاهد التي تجمعهما معاً في المنزل بصفتكم جيران..

اعترض أصيل قائلا:

- ماذا!! هذا ليس عدلا، أريد دوراً أكثر جاذبية، كدور الملك مثلا..

ضحك حسام:

- صدقني لن نجد من يقوم بدور مكار أفضل منك، فهو أكثر الأدوار حيوية وإثارة، المهم أن تمسك نفسك عن الضحك..

فابتسم أصيل:

- حسنا، لا بأس.. أرضيتَ طموحي..

فتابع حسام:

- سيقوم طلال بدور " الملك" في حين يؤدي علاء وزيد ومعاذ وياسر أدوار الحراس الأربعة، " رامي" و" كاسح" و" طويل " و"غواص"..

علق أصيل مصطنعا كظم الغيظ:

- سأحاول غض الطرف عن انحيازك لصديقك المقرب طلال، بإعطائه دور الملك..

فضحك حسام مرة أخرى:

- وهل تظنه سعيدا بهذا الدور! لقد اخترته لأن دور الملك رئيس في المشهد الأول و عليه تعتمد بقية المشاهد، وسيتحمل مسؤولية أي إخفاق..

ورغم أن طلال لم يشأ ان يضيع الوقت في كثير من الكلام، الا انه علق قائلا:

- الفكرة فكرتك، وأنت وحدك من يتحمل المسؤولية، يكفي أنني اقتنعت بالمشاركة في هذه المغامرة غير مضمونة العواقب..

فقال حسام:

- أعتذر يا جلالة الملك فلم نقصد القاء اللوم عليك، وبإذن الله لن ترى منا إلا ما يسرك..

لم يستطع أصيل منع نفسه من الضحك:

- هذا جيد.. لقد بدأت اللعبة تعجبني..

ثم سأل حسام بفضول:

- ولكن ماذا عن دورك أنت يا سيد حسام؟

فابتسم حسام قائلا:

- بما أنني مَن كتب النص، فسأكون المشرف العام على المسرحية، والملقن لكم خلف الكواليس..

ثم أخرج أداوت الكتابة من الحقيبة قائلا:

- سأحاول عمل نسخ أخرى لكل واحد منكم، وغدا صباحا سنقوم بعمل عرض مبدئي، قبل موعد العرض الرئيس الخاص بنا بعد العصر- إن شاء الله- وبناء على ذلك نحتاج إلى طلب إذن خاص من المدرسين والمدربين، بأن يمنحونا غدا عطلة طارئة..

ثم قلب بصره بينهم حتى وقع على ياسر:

- يمكنك أن تطلب من والدك أن يساعدنا في هذا الخصوص..

لكن ياسر تردد قبل أن يقول:

- لا أظن أن بإمكاني فعل ذلك!

ثم استدرك قائلا:

- لم لا يقوم طلال بطلب إذن رسمي من المدير نيابة عنا جميعا فهو يحبه ويقدره..

وبسرعة حدقت العيون في طلال الذي احمر وجهه وهو يقول:

- لم تحدقون فيّ هكذا!!

فلمعت عينا حسام بابتسامة رضا:

- الرجل المناسب في المكان المناسب، هذه مهمتك يا طلال لقد اتفقنا وانتهى الأمر..

قال طلال معترضا:

- طلبٌ كهذا يفترض أن يكون من الصباح، فكيف سأطلب إذن عطلة للغد وقد غادر الجميع إلى منازلهم!!

لكن حسام لم يترك له مجالا للرفض:

- لا تعتذر، فإنك تستطيع تدبر الأمر بسهولة، إن شاء الله..

والتفت إلى البقية قائلا:

- ولا تنسوا إخبار أصحاب العمل بأنكم لن تأتوا غدا..

ثم ناول ياسر ورقة رسم عليها تصورا عاما لخلفيات المشاهد في العرض، قائلا:

- أرجو أن لا يأخذ منك هذا جهدا كبيرا، ولكننا سنحتاج إلى إعداد خلفيات مميزة لكل مشهد وسأستأذن النجار بأن يسمح لي اليوم بتفصيل مستندات خشبية لوضع الخلفيات عليها..

تأمل ياسر الورقة قائلا:

- لا بأس فسأتفرغ اليوم تماما لهذه المهمة- إن شاء الله- ما دمنا سنطلب غدا عطلة..

فقال حسان:

- لدينا عباءة سوداء كبيرة قد تناسب دور الزعيم، وسأطلب من أختي أن تساعدنا في عمل أزياء مناسبة لكل واحد بناء على دوره، كما يمكننا استخدام القماش الأزرق ليدل على مجرى النهر..

قال زيد وقد أعجبته الفكرة:

- لقد رأيت في المتجر أدوات قد تفيدنا في العروض لتكون أكثر جاذبية، وسأحاول احضارها اليوم، ان شاء الله..

فقال أصيل وهو يلتفت الى حسان بحماسة:

- نستطيع احضار عروق الاشجار والاعشاب من المزرعة من أجل اضفاء بعض الحيوية على المسرحية لا سيما في مشهد الأشجار المتشابكة..

عندها قال معاذ:

- هذا مثير، وسأحضر بعض الأصباغ الطبية لاضافة بعض الملامح المناسبة لوجهيّ الزعيم ومكار، ما رأيكم!!

قال أصيل مصطنعا الغضب:

- تريد اضافة ملامح مرعبة ومضحكة على حساب غيرك!!

لكن أصيل لم يستطع السيطرة على نبرة صوته المصطنعة، إذ سرعان ما انفجر ضاحكا:

- لا أستطيع تخيل منظر حسان وهو ملطخ بالسواد، سيكون مضحكا جدا ولا أعرف كيف سأحتمل رؤيته!

فقال حسان متهكما:

- وماذا عنك يا عزيزي! هل نسيت مكار؟؟

أجابه أصيل وهو بالكاد يمسك نفسه من الضحك:

- لا تفسد علي ضحكتي الان بتخيل منظر الزعيم، فلن تتاح لي فرصة الضحك عليك هكذا في المسرح، ومن حسن حظي انني لن اضطر لرؤية مكار ايضا..

فضحك حسام حتى نسي ما كان يريد قوله، وضحك البقية، حتى نبههم زيد بقوله:

- وماذا عن الدعوات!! متى سيمكننا الإعلان عن عرضنا، فهذا من ضمن شروط المسابقة!!

فقال حسام:

- أجل لقد فكرت في هذا، وبإمكاننا الاستعانة برفاقنا في المستويات الأخرى، ومعارفنا في السوق والمسجد، وما إلى ذلك، لعمل الاعلانات المناسبة، وستقومون بتبليغ أسركم أيضا ولا بأس من أن تطلبوا من أخوتكم المساعدة بهذا الشأن، وسنبدأ من بعد عصر اليوم- إن شاء الله- بتنفيذ هذه الخطوة، ولا بأس من دعوة أصحاب العمل للحضور أيضا..

ثم التفت إلى طلال باسما:

- وبالطبع ستدعو المدير والمدرسين والمدربين لحضور العرض مع أسرهم ومعارفهم أيضا!

فأومأ طلال برأسه موافقا:

- أمري إلى الله..

قال معاذ وقد ازداد حماسه للفكرة:

- وسأدعو جميع المراجعين في عيادة والدي للحضور ومساعدتنا في نشر الاعلان..

وقال أصيل بجدية غير معهودة فيه:

- سأحاول إقناع أبي بنشر إعلانات لنا في جدر أخبار المدينة صباح الغد، إن شاء الله..

فهتف حسام بحماسة:

- ستكون فكرة رائعة، آمل أن تنجح في ذلك..

عندها قال ياسر، الذي حاول جاهدا تجاوز خجله، كلما تخيل منظره على المسرح أمام أعداد كبيرة من المشاهدين:

- لدي فكرة، ولكنني لا أعرف مدى قدرتي على تنفيذها في هذا الوقت الضيق، فإن استطعت الحصول على قالب مناسب؛ سأرسم عليه تصميما شائقا لعنوان عرضنا، ومن ثم أقوم بطبعه على عدد كبير من الأوراق، ليقوم وديع بتوزيعها في أنحاء المدينة..

لم يملك حسام نفسه وهو يقفز فرحا باتجاه ياسر ويعانقه بشدة:

- يا لها من فكرة عبقرية، قل لي كيف تريد شكل هذا القالب وسأحاول صنعه لك بأسرع وقت ممكن، إن شاء الله..

لكن زيداً وفر عليه الجهد بقوله:

- لقد رأيت مثل هذه القوالب في المتجر، تعال معي واختر ما يناسبك منها ولا تقلق من موضوع الثمن فسأسوي الحساب مع صاحب المتجر فيما بعد، إن شاء الله..

أخيرا قال علاء:

– في هذه الحال استطيع مساعدتك بالطباعة على الأوراق، فأنا أشعر بأنني أقلكم مسؤولية في هذا العمل رغم أنني أحوجكم إليه..

قاطعه حسام بقوله:

– نحن لا نفعل ذلك من أجلك وحدك يا علاء، بل من أجل دعوتنا التي نسعى لنشرها، ومهما تكن النتيجة فيكفينا أننا نبذل جهدنا ابتغاء الأجر من الله قبل كل شيء، أليس كذلك يا رفاق؟

فأيده الجميع وقد تملكتهم روح الحماسة، وقال ياسر الذي سر للفكرة كثيرا:

– سانتظرك اليوم عند صلاة المغرب يا علاء لنفطر معاً، ثم نبدأ العمل في الطباعة، إن شاء الله..

ابتسم علاء وقد استبشر خيرا:

– وسيكون علي أيضا إعداد حلوى الحليب الطازج مكافأة لنا جميعا..

وقبل أن يفض الاجتماع قال حسان- الذي كان يقلب النسخة متمعنا في دور الزعيم- مخاطبا حسام:

– هل لديك مانع إن قمت بعمل بعض التعديلات في أقوال الزعيم، فهي لا تناسب شخصية شريرة على الإطلاق!

وقبل أن يرد حسام بشيء، علق أصيل باسما:

– وماذا تتوقع من صاحب القلب الطيب، كان الأولى به أن يترك الشر لأصحابه!!

رمقه حسان بنظرة حادة، جعلت أصيل يرتجف قائلا:

– آسف يا سيدي الزعيم ساكون عند حسن ظنك في المرة القادمة!

فاستساغ حسان الدور ورد عليه قائلاً:

- إياك أن تعيدها يا مكار فقد سئمت من ألاعيبك السخيفة!

ابتسم حسام معلقا بمرح:

- لقد أثبتم براعتكم ويسرني أن أجيزكم في عمل أي تغيير يلائمكم.. بداية موفقة، إن شاء الله..

مع أذان العصر ختم الاجتماع بكفارة المجلس، والتواصي فيما بينهم ببذل الجهد والدعاء لنجاح المهمة، على أن يتقابلوا عند صلاة العشاء لمناقشة ما تم إنجازه حتى ذلك الوقت..

***

لم يصدق قاسم أذنيه بداية فجمدت يده على مقبض باب غرفته قبل أن يديره، و أعاد على حسام كلامه:

- تريدون تقديم عرض مسرحي في دار العرض الرئيسة بالمدينة!! هل أنتم جادون في ذلك؟؟

ابتسم حسام الذي كان يهم بدخول غرفته أيضا:

- أجل لقد اتفقنا وتم ترتيب كل شيء بفضل الله، ولم يبقَ علينا سوى التدريب ومتابعة نشر الإعلانات، وقد فكرنا بأن من المفيد أن تقوموا بمساعدتنا في نشر الاعلانات بين معارفكم وأقاربكم أيضا، وقد قابل أصيل زياد ونضال قبل المغرب وأعلمهم بذلك، والحمد لله أنني رأيتك الآن فقد ظننتك ستبيت الليلة في الخارج ..

لكن قاسم- الذي ما زال مشدوها بما سمعه- بادره بسؤال خطر له:

- وهل وافق طلال وزيد على ذلك؟

فأومأ حسام برأسه إيجابا:

- أجل.. وقد سألنا الشيخ عبد الرحيم أيضا وشجعنا على هذه الفكرة..

وأخيرا لاحت علامات الاقتناع على وجه قاسم:

- في هذه الحال أتوقع أن تكون فكرة النص قيمة جدا، هل أنت من كتبه يا حسام؟

فدارى حسام خجله قائلا:

- في الحقيقة إنها حصيلة ما تعلمناه في المدرسة حتى الآن، وقد كانت فكرة تلح عليّ منذ فترة، حتى يسر الله لها الجو المناسب للظهور..

تهلل وجه قاسم:

- أتوقع أن تكون عملا مميزا بحق، وانني أتوق لرؤيته، فقد أبهرتنا جميعا

بمواضيعك التي كتبتها، عندما اطّلعنا عليها أول مرة، بعد ثناء المعلم عاصم على أسلوبك المميز في الكتابة، انت موهوب بحق ما شاء الله..

فاحمرت وجنتا حسام:

– هذا من فضل ربي، ولكن المعلم عاصم يحب دائما أن يشجع طلبته بما يقوم به من مديح..

رد قاسم بثقة:

– بل كنا وما زلنا نعده من المعلمين الذين يصعب إرضاءهم عادة!!

ثم استطرد قائلا:

– قدر الله وما شاء فعل، لقد عدت للتو من عند بعض معارفي، وقد كانوا سيرحبون بفكرة كهذه فهم ممن يحبون مشاهدة العروض بصفة عامة! على كل حال سأحاول بذل جهدي وإخبارهم بذلك غدا، فمن لطف الله بنا أنه لا توجد لدينا تدريبات بعد الظهر، وربما أتمكن من إخبار أكبر عدد منهم قبل العصر حتى نتمكن من الحضور، إن شاء الله..

فشكره حسام ممتنا:

– جزاك الله خيرا يا قاسم، بإذن الله سيتمكنون جميعا من الحضور..

ابتسم قاسم معلقا:

– سيفاجؤ معارفي إن قمت بدعوتهم لحضور العرض، ثم ستزول مفاجأتهم عندما يرون أنه عرض لا كباقي العروض، ستكون فرصتي أيضا..

فشاركه حسام ابتسامته:

– نسأل الله أن يوفقنا لنكون عند حسن الظن، ويسهل لنا نشر الأفكار التي ترضيه عنا..

فأمن قاسم على دعائه، قبل أن يقول:

- حسنا أراك على السحور- إن شاء الله- تصبح على خير..

وبعد أن دخل حسام إلى غرفته، فوجئ برؤية طلال مستلقيا على سريره، وقد وضع يديه تحت رأسه دون أن يبدل ملابسه، في حالة من التفكير العميق، فألقى عليه التحية بصوت خفيض حتى لا يوقظ علاء الذي بدا غارقا في نوم هادىء بعد أن أنهكه العمل في رعي الأغنام وما تلا ذلك من طباعة الاعلانات مع ياسر، وبعد أن رد عليه طلال التحية، سأله بصوت هامس:

- هل أنهيت كتابة الأشعار الخاصة بالنص؟

فأومأ حسام باشارة من رأسه:

- أجل، وقد وضعت لها الألحان أيضا، وسنؤديها بأصوات متناغمة، لنستعيض بها عن المقطوعات الغنائية، التي ترافق العروض عادة، على الأغلب ستكون هذه مهمة زيد ومعاذ بشكل رئيس، فأصواتهما جميلة جدا في القراءة والإنشاد، ما شاء الله..

عندها نهض طلال من سريره ، معلقا بهمس:

- لقد أثر بي النص كثيرا يا حسام، ولامس أوتارا حساسة في نفسي، لقد أبدعت بحق يا صديقي سلّم الله يديك..

ابتسم حسام وهو يتناول ثياب نومه، استعدادا لتبديلها خلف الستارة:

- لقد كانت فكرة الموضوع بداية مستوحاة مما قلتَه لي سابقا يا طلال، أتذكر يوم أن قلتَ بأننا أشبه بحراس قلعة تهدمت أبوابها وتصدعت جدرانها ويحاصرها الأعداء من كل جانب!!

فأخفى طلال دمعة نفرت من عينه وهو يفتح درجه مرددا:

- أسأل الله سبحانه وتعالى أن يسهل لنا نقل هذه الأحاسيس للآخرين، وأن يجعل عرضنا خالصا لوجهه الكريم..

***

كان يوم الاثنين حافلا، فبعد أن نجح طلال بالحصول على اذن عطلة؛ اجتمع طلبة المستوى السادس في قاعة الدرس التي أصبحت أشبه بغرفة للتدريبات المسرحية، حتى أنها أثارت فضول الطلبة في المستويات الأخرى، فتمكن نضال من التسلل بسرعة من قاعة درسه بعد أن خرج المعلم برهان ليفاجئهم بطلّته:

– مدهش، ما هذه الأزياء الغريبة!!

التفت إليه أصيل الذي كان على وشك أن يبدأ القيام بدوره:

– لقد أفسدت المشهد!! يفترض أنك في قاعة الدرس!

فقال نضال متذمرا:

– هذا ليس عدلا أنتم تلعبون ونحن نأخذ الدروس!! لقد ساعدناكم في نشر الاعلانات، ومن حقنا أن نرى التدريبات أيضا، فستكون أكثر متعة هنـــ...

وقبل أن يتم نضال جملته فوجئ بالمعلم عاصم يمسكه من ثيابه مازحا:

– ماذا تفعل هنا أيها المزعج! هيا إلى قاعة الدرس أمامي..

ولم يتمالك أصيل وحسام نفسيهما من الضحك، في حين غمز لهم المعلم عاصم قائلا:

– تستطيعون متابعة تدريباتكم بسلام، وفقكم الله..

وبعد انتهائهم من تنفيذ العرض لأول مرة، قال حسان:

– لقد تجاوزنا المدة المحددة للعرض بكثير..

فقال معاذ:

– لا تنس أنها المحاولة الأولى لنا وقد كان فيها الكثير من الأخطاء والإعادات..

عندها قال حسام:

- سأستأذن المعلم برهان أن يعيرنا الساعة الرملية من قاعة التجارب، ترى أين هو الآن؟

فأجابه أصيل:

- أغلب الظن أنه في مكتبه..

خرج حسام قائلا:

- لن أتأخر، حاولوا أن تراجعوا أدواركم بسرعة ريثما أعود..

أخذ زيد يعيد ترديد المقاطع الشعرية بعدة ألحان، قبل أن يقول طلال:

- اختر اللحن الذي ينسجم مع صوتك دون تكلف، حتى يسهل الاداء..

فالتفت زيد نحو معاذ قائلا:

- ما رأيك أنت يا معاذ؟ فسنؤديها معا حسب الاقتراح..

لكن معاذ أجابه:

- أرى أن نؤدي المقطوعة الختامية بنشيد جماعي فستكون أقوى نبرة وأشد تأثيرا، على أن يبدأ علاء بذكر البيت الأول في نهاية دور رامي، ومن ثم يستلم زيد قيادة الفريق بصوته الرخيم ثم أتبعه أنا والبقية تباعا..

قال ياسر وقد أزعجته الفكرة:

- لا داعي للبقية أبدا..

ضحك أصيل وأضاف:

- لا تقلق سنضعك في الواجهة يا عزيزي..

فقال ياسر:

- كفاك سخرية يا أصيل، فيكفيني دوري في التمثيل!

قال معاذ مبديا تفهما لشعوره:

- يمكننا ترتيب صفوفنا في الانشاد بطريقة تجعلك بعيدا عن الاضواء يا ياسر..

فابتسم ياسر:

- حسنا لا بأس..

ثم استدرك فجأة:

- يا الهي عليّ أن أعود بسرعة فور انتهائنا من العرض التدريبي الثاني، إذ لم أنته من رسم خلفية المشهد الأخير!!

سأله علاء:

- ألم تنته من رسم الخلفيات بالأمس، وتريني إياها قبل أن أخرج من عندك؟

أجابه ياسر:

- أجل هذا ما ظننته، ولكنني اكتشفت ان هناك مشهدا ناقصا، فشرعت برسمه بعد الفجر، ولم أشأ التأخر عن التدريب معكم اليوم، على أمل أن ننتهي منه باكراً؛ فاعود لإتمام الرسمة قبل العصر..

طمأنه طلال قائلاً:

- سنحاول أداء العرض الآن للمرة الأخيرة في حدود الساعة حسب الوقت المحدد، ومن ثم تذهب لإكمال الرسم قبل أن نعثر على العربة المناسبة و من ثم نمر عليك لنذهب مباشرة إلى قاعة العرض، إن شاء الله..

فقال زيد مذكرا:

- لا تنسوا أن علينا التواجد هناك قبل العصر- إن شاء الله- لنقوم بتركيب الدعامات الخشبية للخلفيات، ونرتب حاجياتنا..

ما أن أتم كلامه حتى عاد حسام، وهو يحمل الساعة الرملية في يده، قائلا بمرح:

- هيا يا حراس القلعة، حانت ساعة العمل..

***

وأخيرا جاءت اللحظة الحاسمة، وبلغ التوتر أوجه عند الأصدقاء وهم يقومون بالتدريبات الأخيرة على خشبة المسرح، قبل أن تفتح الستارة، بعد أن أدوا صلاة العصر جماعة، وكانوا قد حضروا مبكرين لتركيب المستندات الخشبية الخاصة بالخلفيات، وترتيبها حسب المشاهد ليسهل تركيبها بين مشهد وآخر..

وما إن فتحت الستارة حتى ذهلوا بالأعداد الغفيرة التي ملأت المدرجات، فحمدوا الله في سرهم على نجاح إعلاناتهم التي وفقهم الله فيها لاستخدام أغرب وسيلة إعلانية فريدة من نوعها، عن طريق وديع الذي أثار فضول الجميع وهم يهرعون لالتقاط اوراق الاعلان التي تساقطت عليهم من السماء، في حين قام الكثيرون بالاحتفاظ بنسخ منها لجمال رسومها وتناسق ألوانها..

ورغم الارتباك الذي تسلل إلى أنفسهم بداية؛ إلا أن انبهار المشاهدين الملحوظ بمشهد القلعة المهيب ذات الأبواب الأربعة الكبيرة، خلف الملك بزيه المميز والحراس الأربعة الذين أحاطوا به من كل جانب، وما تلا ذلك من هتافات الإعجاب، قوّى عزيمتهم، خاصة بعد أن أخذ طلال زمام المبادرة في المشهد الأول..

المشهد الأول :

الملك الصالح يقف أمام شعبه قائلاً وهو يشير بيديه إلى جدران القلعة الضخمة ذات المداخل الأربعة، في حين أحاط به أربعة حراس أشداء:

- لقد انتهينا من تحصين مدينتنا ببناء هذه الأسوار العالية التي تحيط بها من كل جانب لعلها تكون سبباً في دفع الأخطار عنها..

والآن على كل واحد منكم أن يستلم مسؤوليته في حراسة المدخل الموكل اليه..

والتفت الملك تجاه الحارس الأول:

- أنت يا رامي ماهر بالرماية دقيق الملاحظة سريع البديهة ستحرس المدخل المطل على الشجيرات المتشابكة..

اقترب رامي من الملك مقدما التحية والولاء:

- اطمئن يا سيدي، فلن يفوتني الانتباه لأدنى خطر قد يتخذ هذه الشجيرات ستاراً لتحركاته وسأكتشف أي محاولة للاختباء بينها..

ثم ذهب ليقف في مكانه..

الملك مخاطبا الحارس الثاني:

- أنت يا كاسح قوي البنية مفتول العضلات ستحرس المدخل المشرف على غابة السباع الضاربة..

تقدم كاسح من الملك مقدما التحية والولاء:

- سأكون عند حسن ظنك يا سيدي، فلن يجرؤ أيّ وحش على الاقتراب من المدخل، خاصة بعدما روعتهم بذبح ذلك السبع المتوحش أمام أعينهم..

وبعد أن ذهب إلى مكانه؛ قال الملك مخاطبا الحارس الثالث:

- وأنت يا غواص خبير في السباحة والغوص، ستشرف على مجرى النهر الذي يزود مدينتا بالمياه..

مثل غواص بين يدي الملك مقدما التحية والولاء:

- سأكون على قدر المسؤولية يا سيدي، فلدي حدس أيضاً بمواعيد الفيضان وسأتمكن من اغلاق المجرى في الوقت المناسب..

قال الملك:

- اذن إياك والغفلة، ففيضان واحد كفيل بتدمير مدينتنا بأكملها..

وأخيراً نظر الملك إلى الحارس الرابع:

- وأنت يا طويل سترابط على المدخل المطل على السهل فأنت حاد النظر، خفيف الحركة..

قال طويل بعد أن قدم واجب التحية والولاء:

- لاتقلق يا سيدي، فإنني أستطيع تحديد موقع أي جيش معتدٍ، وتحذيركم منه لأخذ الاحتياطات اللازمة قبل أن يصلنا بثلاثة أيام على الأقل..

ابتسم الملك وهو ينظر إليهم:

- تذكروا جميعاً بأن سلامة مدينتنا وأهلها رهين بكم، فإياكم والغفلة..

****

المشهد الثاني:

في غرفة سوداء موحشة أخذ الزعيم ذو الملامح القاسية يذرع المكان جيئة وذهابا بعباءته السوداء المهيبة وهو يخاطب مساعده مكار بغضب:

- هذا لايحتمل! خمس سنوات ومدينة الملك الصالح تنعم بالسلام!!

قال مكار موضحا:

- كل هذا بسبب يقظة الحراس الدائمة فهم متيقظون منتبهون دائماً، متحسبون لوقوع أدنى خطر..

يظل الزعيم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو في أشد حالات الغضب ومكار يلاحقه بنظراته..

الزعيم وهو يلوح بذراعه متوعدا:

- لابد من حل وبأي ثمن..أكاد أجن من الغيظ..

فيقول مكار:

- المدينة ستبقى آمنة ياسيدي ما استمر الحراس قائمين بأعمالهم على أكمل وجه، ولن نحقق هدفنا الا إذا...

ويبتر مكار جملته فيسأله الزعيم بغضب:

- الا إذا ماذا؟؟؟

فيقول مكار بهدوء:

- الا إذا قضينا على الحراسة..

يصرخ الزعيم بغضب:

- وما الجديد في هذا!! بالطبع يجب القضاء عليهم ولكن كيف فهم أقوياء وأي خطر يقترب من أحدهم فهناك من يلاحظه ويحذره منه!

يبتسم مكار ابتسامة ماكرة:

– عفواً سيدي أنا لم أقل القضاء على الحرّاس، ولكنني قلت نقضي على الحراسة!

يصرخ الزعيم بغضب أشد من سابقه:

– وما الفرق يا هذا أتهزأ بي!!

فيسرع مكار مجيباً:

– أبداً سيدي..كنت أعني أننا لسنا بحاجة للقضاء على حارس لا يقوم بمهمته.

وبعد لحظة صمت، علت ابتسامة خبيثة على وجه الزعيم وهو يقول:

- يا لك من ماكر يا مكار!

ابتسم مكار معجبا من هذا الاطراء:

- شكراً لك سيدي هذا اطراء منك..

فيقول له الزعيم آمرا ومتوعدا:

- ساوكل إليك القيام بهذه المهمة وإياك والفشل..وإلا سيكون عقابك أليماً جداً..

***

المشهد الثالث:

غواص متيقظ كالمعتاد منتبه يجلس القرفصاء واضعاً يده في النهر ويقوم ببعض القياسات. يقف أحياناً يلتفت يميناً وشمالاً يتابع حركة الرياح.. في تلك الاثناء.. يقترب منه مكار:

- السلام عليكم..

يرفع غواص رأسه قليلاً ويرد السلام ويتابع عمله في قياس منسوب النهر، فيقترب مكار منه أكثر:

- تبدو مشغولاً جداً!

يرد غواص دون أن يرفع رأسه:

- أجل ، فعلي التاكد من أن منسوب المياه لم يتجاوز حده الطبيعي في مثل هذا الوقت من السنة

تمضي فترة صمت، ثم يقول مكار:

- أعتقد أن الرياح الغربية ستهب مبكراً هذه السنة وهذا سيؤثر في موعد الفيضان القادم..

يتطلع غواص بإعجاب إلى مكار قائلاً:

- هذا ما كنت أفكر فيه فعلاً .. يبدو أن لك خبرة ممتازة في هذه الأمور..

يبتسم مكار بتواضع:

- ليس مثلك بالتأكيد ولكنني أمتلك فضولاً للمعرفة، لذا تراني ملماً بامور كثيرة..

فيقول غواص:

- هذا رائع، فقلما يجد المرء من هو مثلك خاصة وأن مشاغل الحياة كثيرة..

فيرد مكار بجدية:

- المشاغل الكثيرة لا تحول بين الانسان وبين البحث والمعرفة، أليس كذلك؟

يجيبه غواص:

- ربما..

ويصمت غواص ليتابع عمله، فيتكلم مكار:

- لا شك أن أبناءك على درجة رفيعة من العلم والمعرفة!

يرد غواص:

- آمل ذلك..

يسأله مكار:

- ترى، هل ورّثت خبرتك لأحدهم؟

فيرد غواص باقتضاب شديد:

- أظن ذلك ..

فيقول مكار- وقد نفد صبره ولكنه يتمالك نفسه:

- عادة الأبناء يكتسبون مهارة الأباء!

ويصمت قليلاً.. قبل أن يتابع- كمن يكلم نفسه:

- ولكنني أتساءل هل هذه القاعدة صحيحة، أعني إذا كان الأب بعيداً عن أبنائه مثلاً..فمن أين لهم أن يكتسبوا خبرته!

يترك غواص عمله لبرهة قصيرة، يفكر خلالها بصمت، ثم يعود لمتابعة عمله فيقول مكار:

- أرجو أن تسامحني يا أخي فربما هذا ليس من شأني، ولكن طالما حدثتني نفسي عن أولئك الأباء الذين يتركون أبناءهم بلا اهتمام أو رعاية لأن جهدهم ووقتهم مخصص لأمور أخرى يظنون أنها أكثر أهمية.. ما رأيك؟

ينظر غواص إلى مكار أخيراً:

- على الأب الاهتمام بأبنائه وأسرته فهو المسؤول الأول عنهم قبل كل شيء!

فيقول مكار:

- هذا ما أقوله دائماً، فرعاية الأبناء والإشراف على تربيتهم ومن ثم الإطمئنان على مستقبلهم مسؤولية عظيمة..كم أنا سعيد أن وجدت من يشاركني الرأي نفسه..

فيعلق غواص:

- ولكن هذا كلام لا يختلف عليه اثنان!!

يرد مكار:

- يبدو أنك لم تفهمني يا أخي..

يصمت مكار متظاهراً بالحزن قبل أن يتابع:

- قد تؤدي غفلة الأب عن أبنائه لحظة واحدة إلى ضياع مستقبلهم إلى الأبد..

يهم مكار الإنصراف وهو يقول:

- خذها نصيحة مني لوجه الله يا أخي..

يفتح غواص عينيه على اتساعهما قبل أن يناديه:

- لحظة من فضلك.. ما الذي تعنيه بالضبط!!

يلتفت مكار إلى الوراء وهو مازال يتكلم بحزن:

- هكذا معظم الناس لا يفهمونني، هذا إن لم يسيؤوا فهمي تماماً.. اسمعني يا أخي.. أنا لا أريد منكم جزاء ولا شكوراً ولكنني لكم ناصح أمين.. إياكم وضياع الأبناء..

ويمضي مكار ويبقى غواص واقفاً مكانه مشدوهاً بما سمع.. يفكر..

***

المشهد الرابع:

الزعيم يستقبل مكار بلهفة في الغرفة السوداء..

- حسناً يا مكار قل ماعندك، هل نجحت!!

بابتسامة خبيثة يقول مكار:

- مهلاً سيدي، فقد رميت الطعم ومازلت ممسكاً بالخيط فعلينا الصبر حتى نتأكد من التقام السمكة له!

يقهقه الزعيم بضحكة مجلجلة:

- تعجبني أمثالك يامكار!

فيبتسم مكار:

- شكراً لك يا سيدي.. وأرجو أن تعذرني الآن فما زال لدي من الطعم الكثير، لنضمن الصيد الوفير..

يقول الزعيم بنبرة فيها شيء من الزهو:

- حسناً يمكنك الانصراف..

***

المشهد الخامس:

أمام منطقة الشجيرات المتشابكة، وقف غواص يحدث رامي، قبل أن يقول

رامي بدهشة:

- ماهذا الذي تقوله ياغواص؟

غواص:

- انها أفكار خطرت ببالي، الا تجدها معقولة؟

رامي:

- انني لا أفهمك! كيف يؤثر قيامك بواجبك في الحراسة على مستقبل أبنائك؟؟

غواص:

- اسمعني جيداً يا رامي، لو اننا قضينا معظم وقتنا قرب أبنائنا لضاعفنا جهودنا في توجيههم لما فيه خيرهم وبذلك نضمن لهم مستقبلاً أفضل..

رامي:

- ولكننا نقضي معهم وقتاً لا بأس به في أوقات استراحتنا، ولو أحسنا استغلاله في توجيههم لكفانا، ثم إن ما نقوم به من حراسة؛ لهو في صالحهم قبل أن يكون من واجبنا..

غواص بتعجب:

- لم أفهمك!

رامي:

- لنفرض أنك أهملت مراقبة مجرى النهر؛ بحجة البقاء قرب أبنائك لتطمئن على مستقبلهم، ثم داهمنا الفيضان فهل يا ترى سيبقى لأبنائك أي مستقبل!!

غواص:

- اقنعتني يارامي.. وأعدك انني لن أتخلى عن واجبي مهما حدث..

***

المشهد السادس:

طويل واقف ينظر الى البعيد نحو السهل الأخضر الفسيح واضعاً يده على عينيه ليحميهما من أشعة الشمس يسير إلى اليمين حيناً وإلى اليسار حيناً آخر..يقترب منه مكار..

مكار:

- السلام عليكم، كيف حال حارسنا الأمين هذا اليوم .لقد مضى زمن طويل يا طويل!!

طويل باستغراب:

- عفواً ولكن من أنت؟

يضحك مكار بمرح:

- كما توقعت لقد نسيت كل شيء حتى العم سالم!

يردد طويل:

- العم سالم.. سالم.. إنه اسم مألوف لدي..

فيقول مكار لائما:

- يبدو أن وضعك أصعب مما توقعت.. هل نسيت صديق والدك الحميم ورفيقه المخلص الأمين سالم سليم!!

فيهتف طويل:

- أجل لقد تذكرته، كان يزورنا كثيراً أيام والدي رحمه الله..

وينظر طويل إلى مكار باستغراب وهو يردد:

- ولكن..

مكار:

- لا تقل أنك لم تعرفني.. لقد زرتكم ذات مرة مع عمي سالم حتى إننا تجولنا معاً في أنحاء المدينة وكنت بصحبة ابن عمي ايضاً..

يقطب طويل بين حاجبيه كمن يحاول التذكر:

- تقصد زهير!! إنني أذكره وأذكر أنه كان يأتي لزيارتنا مع والده، ولكنني لا أذكر أبداً انني رأيتك معه من قبل..

يقترب منه مكار معاتبا:

- ماذا أصابك يا طويل!! إنني زاهر.. الا تذكر يوم أن رأيتك لأول مرة وتحدثنا في مواضيع كثيرة، فوجدنا أن أفكارنا متشابهة جداً فيها..

فيرد طويل بريبة:

- ربما..

فيتابع مكار:

- يومها خرجنا إلى السهول وأجرينا سباقاً فيما بيننا واظنك ربحت ذلك السباق..

يقول طويل:

- أظن أنني بدأت أذكر تلك الأيام فكثيراً ماكنت أجري في السهول، إنها متعتي الكبيرة.

فيبتهج مكار ويقول بفرحة:

- أخيراً بدأت تستعيد ذاكرتك، يبدو أن وقوفك هنا لفترات طويلة أثر على قدراتك العقلية..

يبتسم طويل:

- ليس إلى هذه الدرجة أنت تبالغ!

لكن مكار يقول بجدية:

- إنني أتساءل..

يصمت مكار صمتاً يثير فضول طويل الذي يسأله:

- ماذا عندك؟

فيرد مكار:

- لا شيء.. لاشيء كنت أفكر في.. لا أعرف ربما كنت مخطئاً..

فيشجعه طويل على الكلام:

- لا تقلق قل ماعندك فهذا مجرد كلام لا يضر!

فيتكلم مكار:

- حسناً، ولكن لا تسئ فهمي فكما قلت لك ربما أكون مخطئاً ، فهي مجرد أفكار خطرت ببالي!

فيقول طويل بنفاد صبر:

- قلت لك اطمئن تماماً.. فلا ضرر من عرض أفكارك مهما كانت!

يقول مكار:

- كنت أتساءل ما إذا كان هناك أعداء فنخشى منهم حقاً فقد مضت خمس سنوات لم نسمع فيها عن جيش واحد.. لست متأكداً.. ولكن هذا ما أذكره.. في الحقيقة إنني أعني هل من الحكمة أن يبذل الإنسان جهده، ويرهق جسده من أجل شيء لا وجود له اصلاً!!

يخيم صمت ويبدو على طويل التفكير العميق فيتابع مكار:

- أنا لا أعرف.. فربما كنت مخطئاً ولكنها مجرد أفكار خطرت ببالي كما قلت لك..

ينتبه مكار إلى نفسه فجأة كمن فاته موعد.. ويضرب على وجهه :

- يا الهي يبدو إنني تأخرت فلدي موعد هام..

ويسلم على طويل قائلاً:

- أنا سعيد برؤيتك يا طويل إلى اللقاء..

ويذهب تاركاً طويل غارقاً في أفكاره..

***

المشهد السابع:

يتمشى طويل مبتعداً عن مكانه باتجاه المدخل المطل على غابة السباع الضارية فيراه كاسح ويناديه:

- طويل!! هذا أنت !

يلتفت إليه طويل ويرفع يده يحييه مقتربا منه، فيقول له كاسح باستغراب:

- الا يفترض فيك أن تكون ملتزماً مكانك على مدخل السهل الفسيح؟؟

فيرد طويل:

- أجل، هذا صحيح ولكنني رغبت بالمشي قليلاً فقد شعرت بالملل!

يقول كاسح:

- ولكنك تفرط بمسؤوليتك، لنفرض أن الأعداء في طريقهم إلينا الآن فكيف سنأخذ حذرنا منهم!!

يبتسم طويل:

- لا تبالغ ياكاسح.. إنني أتمشى فحسب لفترة قصيرة، ثم إنني لزمت مكاني خمس سنوات متواصلة ولم يحدث شيء!

يصمت كاسح قليلاً قبل أن يقول:

- إنها نصيحة فقط!

فيرد طويل:

- لا بأس، شكراً لك ..

مكار ينظر من بعيد يبتسم بخبث ثم يذهب مسرعا..

***

المشهد الثامن:

في الغرفة السوداء وقف الزعيم مستقبلا مكار:

- لقد تأخرت هذه المرة يامكار.. كم مرة قلت لك أن لا تتركني من غير أخبار تطمئنني!! أنا أكره التأخير جدا!

مكار:

- آسف يا سيدي، ولكنك تعرفني جيداً عندما أنهمك في عمل لا أحب الخروج منه قبل اتقانه..

يقول الزعيم بعصبية:

- لا أحب الكلام الكثير، هات ماعندك..

فيجيبه مكار موضحا:

- الأمور تجري على مايرام يا سيدي.. وأظن أن سمكة اخرى قد وقعت في شباكي..

يبتسم الزعيم أخير مكشرا عن انيابه:

- أحسنت يا مكار.. إنك تعمل بسرعة.. قد تستحق جائزة على هذا..

يحني مكار رأسه:

- شكرا لك سيدي..

فيقول الزعيم بغطرسة:

- والآن انصرف وتابع عملك..

***

المشهد التاسع:

كاسح مرتكزاً على عصاه أمام المدخل المواجه لغابة السباع الضارية، ينظر يميناً ويسارا بقوة وحزم، يسير بين فترة وأخرى إلى الأمام والخلف واضعاً عصاه على عاتقه، يقترب مكار من كاسح وينظر إليه باستغراب، لكنه يتجاوزه ثم يعود ذهاباً وإياباً وهو يكرر النظر إلى كاسح بتلك النظرات المستغربة، حتى استطاع أن يلفت نظره، وأخيراً يقترب مكار من كاسح ويقول:

- السلام عليكم، أتأذن لي !!

يرد عليه كاسح:

- وعليكم السلام.. تفضل..

مكار:

- أنت حارس، أليس كذلك؟

يجيبه كاسح باقتضاب:

- أجل..

يصمت مكار، وهو يفكر بعمق ويهم بالانصراف فيستوقفه كاسح:

- هل تريد شيئاً؟!

يرد مكار:

- لا، شكراً لك.. ولكن.. حسناً ..

يصمت مرة أخرى فيحثه كاسح على الكلام:

- كأنك تريد ان تقول شيئاً، هل من خدمة أستطيع تقديمها لك..

مكار:

- آه.. شكراً لك.. تبدو طيباً أيها الحارس.. أجل، إنك طيب جداً..

فيقول كاسح:

- هذا مدح كثير، أنا لم أفعل لك شيئاً.. فلا داعي للمبالغة في المدح!

مكار بجدية:

- كلا، لست مبالغاً على الإطلاق.. فقد جذبت اهتمامي بإخلاصك وتفانيك في الحراسة فعلمت أنك طيب جداً وقد صدق حدسي فيك..

كاسح:

- هذا واجبي وعلي القيام به، ثم إنني لست وحدي من يقوم بواجبه فهذه صفة أي حارس..

ينظر إليه مكار باشفاق:

- كم أنت طيب أيها الحارس الأمين، من يراك لأول وهلة لا يصدق أنك تحمل بين أضلعك الضخمة قلباً رقيقاً شفافاً لا يعرف المكر والخداع..

تمضي لحظة صمت ينظر من خلالها كاسح إلى مكار باستغراب شديد.. فيتابع مكار:

- إنك متفان في عملك رغم أنه ..

ويصمت فيحثه كاسح على الكلام:

- رغم ماذا؟؟

فيجيبه مكار:

- لا أعرف إن كان من الحكمة قول ذلك!

فيشجعه كاسح:

- قل مالديك، فلدي عقل أستطيع من خلاله الحكم على ما أسمعه فلا تقلق..

ينظر إليه مكار بامتنان شديد:

- أنا سعيد لتعاملي مع حكيم مثلك، فسأريح ضميري وأنا مطمئن تماماً لحسن فهمك وتصرفك، أقول ما أقوله محتسباً أجري على الله، إن أحسنت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وكل بني آدم خطاء..

ويلتقط مكار نفساً عميقاً قبل أن يتابع:

- أنت أيها الحارس الطيب تقف مكانك متفانياً في عملك وتظن أنك بفعلك هذا ستحمي المدينة من خطر يهددها ولطيبتك الشديدة ظننت أن الجميع يفعلون

مثلك، فأضعت وقتك وبذلت جهدك فيما لايفيد، فأنت تحرس هذا المدخل وتشدد عليه الحراسة في حين أن الخطر يدخل بسهولة من مدخل آخر..

عندها يثور كاسح بغضب:

- وكيف ذلك ؟ فعلى كل مدخل حارس يقوم بواجبه!

فيقول مكار بحزن:

- ألم أقل لك أنك طيب جداً ولولا ثقتي بك لما قلت ماقلته ولكنني رأيت النصيحة لك من واجبي نحوك..

فيقول كاسح:

- إنني مدين لك بالشكر.. شكراً لك..

مكار:

- لا شكر على واجب، وأرجو أن تعذرني الآن فأنا مشغول..

يمضي مكار تاركاً كاسح في حالة عصبية شديدة.. وهويحدث نفسه:

- ما أشد غبائي، يالي من أحمق، لقد رأيت طويل بأم عيني وهو يتمشى تاركاً مكانه في الحراسة، ومع ذلك بقيت واقفاً مكاني! يا لي من أبله فعلاً!!

ثم يلقي عصاه على الأرض بغضب وهو يهمهم:

- تباً.. كم أكره اضاعة الوقت من غير فائدة..

***

المشهد العاشر:

الزعيم ومكار معاً في الغرفة السوداء..

يقول الزعيم بنشوة:

- أحسنت.. أحسنت.. أخيراً ستصبح تلك المدينة الحقيرة في قبضتي..

مكار بابتسامة ماكرة:

- هذا بفضلك يا زعيم..

فيرد الزعيم بغرور:

- أعرف.. أفكاري العظيمة وخططي المدروسة؛ ستجعل كل شيء تحت سيطرتي..

يؤكد مكار كلامه:

- بالتأكيد يا سيدي..

يستدرك الزعيم مستغربا:

- ولكنك لم تخبرني عن الحارس الرابع؟

يقول مكار ببعض الارتباك:

- تقصد رامي؟ إنه أخطرهم جميعا، فهو منتبه سريع البديهة ومن الصعب الاحتيال عليه، لذا رأيت أن نتركه قليلا حتى نرى كيف تسير الأمور..

الزعيم بغضب:

- اسمع يامكار لن أسمح بأي خطأ، وأي هفوة قد تضيّع منا هذه الفرصة..

مكار بتوتر:

- نعم ياسيدي.. نعم.. آسف جداً..

فيأمره الزعيم:

- هيا انصرف الآن وتابع عملك..

يخرج مكار:

- حاضر.. حاضر يا سيدي..

***

المشهد الحادي عشر:

أمام القلعة الضخمة، وقف رامي يتحدث بقلق إلى غواص:

- ما الذي يحدث هنا؟ ماذا أصاب الحراس؟ أشعر بأن هناك ما يحاك في الخفاء..

غواص:

- أما زلت قلقاً بشأن كاسح وطويل، لا تكترث لهما يا رامي ما دمت تقوم بواجبك على أكمل وجه، وهذا يكفيك..

رامي:

- ماالذي تقوله يا غواص! كيف تطلب مني عدم الاكتراث بهم، بدلاً من أن تساعدني في اعادتهم إلى رشدهم!

فيجيبه غواص:

- لا تتعب نفسك معهم، فهم لن يستمعوا إليك ما داموا مصرين على تصرفاتهم مقتنعين بها!

فيرد عليه رامي:

- على الأقل دعنا نحاول، فإن سمعوا منا فهذا ما نريده، وإن لم يستمعوا لنا فلن يزداد الامر سوءاً..

غواص:

- بالنسبة لي، لا يعنيني أبداً ما يفعله الآخرون مادمت أقوم بواجبي..

فيقول رامي:

- ولكن الخطر إن جاء من مدخل واحد سيكون كفيلا بالقضاء علينا جميعاً..

***

المشهد الثاني عشر والأخير:

مشهد حزين للقلعة وقد تهدمت بعض جدرانها، فيدخل رامي مناديا بأعلى صوته:

- يا قومنا.. هذه هي حالنا!

وتحشرجت الحروف في حلقه، وهو يتابع متأثرا وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

إلى متى نترك سفينتنا تغرق أمام أعيننا؟

متى سنهب لنسد ثغراتنا!!

وبدأ بإنشاد البيت الأول من المقطوعة الانشادية بصوت مؤثر جدا:

قومنا يا قومنا......... هبوا لنحمي صرحنا

فيدخل كاسح، وينشد بصوت رخيم قوي:

إن البلاد بلادنا..... والمجد قوميَ مجدنا

ثم دخل طويل ليشاركه الإنشاد، في حين أخذ صوت كاسح الجهوري يهز المكان:

فحصوننا وقلاعنا.... تنهار دون سلاحنا

وسلاحنا حرّاسنا..... أهل الديار جميعنا

يدخل غواص ليشاركهم النشيد:

فرجالنا ونساؤنا...........أطفالنا وشيوخنا

فتياتنا فتياننا......... و شبابنا هم جندنا

عندها دخل "الملك" منشدا معهم:

نحن الجميع بعزمنا.... نسعى لنهضة أرضنا

نرقى ويعلو شأننا...... بوحدةٍ في صفنا

رمضان عهد بيننا.... ذكرى لنحفظ وعدنا

يليه الزعيم ومكار، يرددون معا:

إن لم نبادر يومنا .. فغدا سنرثي نفسنا

وبصوت واحد مجلجل وقف الجميع في صف واحد ممسكين بأيدي بعضهم البعض، وهم يرفعونها مرددين:

هيا فصونوا عهدنا... هيا فصونوا عهدنا

ومع نهاية المشهد الأخير و إسدال الستارة علا صوت الهتاف والتصفيق الحار وانهالت عبارات الثناء والإعجاب من كل مكان، في حين خر الأصدقاء ساجدين شكرا لله على ما انعمه عليهم من إتمام المهمة بسلام، ولم يرعهم سوى صوت مدير دار العرض الذي حيا الجماهير الغفيرة شاكرا لهم حضورهم وهو يعلن بفخر:

- نذكركم بان إعلان النتائج وتتويج الفرق الفائزة سيكون هذه الليلة على شرف المغنية الشهيرة و الراقصة القديرة الممثلة الكبيرة "الدودوليسا"، والتي ستحيي الحفل في سهرة رمضانية مهيبة...

***

شعر علاء بالأرض تدور من تحت قدميه وقد صعق كبقية رفاقه مما سمعوه بعد أن كان الفوز قاب قوسين منهم وهم يرددون" اللهم اجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرا منها"، في حين وقف طلال يرد بثبات - نيابة عن المجموعة- على مدير دار العرض الذي جاء ليحدثهم ويناقش معهم ترتيبات مشاركتهم في حفلة الليلة، حتى قال أخيرا بعد أن فوجيء من موقفهم:

- فرصتكم كبيرة في الفوز فلماذا تضيعونها هكذا؟

فقال طلال:

- هدفنا واضح يا عم من البداية، فنحن ما جئنا إلا ابتغاء مرضاة الله قبل كل شيء بما في ذلك الجائزة رغم حاجتنا إليها، فإذا كان شرط حصولنا عليها يقتضي حضورنا ومشاركتنا في حفلة لا تُرضى الله فلا حاجة لنا بها..

وصمت طلال قليلا قبل أن يستأنف كلامه قائلا:

- ما المانع في أن تعلن نتائج الفرق الفائزة من دون حفل كهذا، خاصة ونحن في شهرٍ فضيل؟

فأجابه المدير في محاولة أخيرة لعله يثنيه عن رأيه:

- حفلات تتويج الفائزين من الأمور المتعارف عليها، حيث يجتمع فيها المحكمون الذين تابعوا العروض من بدايتها، و نحن لم نطلب منكم ارتكاب منكر عظيم، كل ما عليكم فعله هو المشاركة في مسيرة منظمة مع بقية الفرق تسيرون فيها على أنغام "الدودوليسا" ليراكم الجمهور، في خطوة أخيرة للتقييم قبل إعلان النتائج، و قد قدمتم عرضا مميزا ولم يبق أمامكم إلا القليل!

فجاءه رد طلال ثابتا لا يتغير:

- نرجو المعذرة يا عم، فنحن لا نستطيع المشاركة في أمر كهذا، وهذا ليس رأيي وحدي بل رأي زملائي في الفريق أيضا..

فأكد زيد الذي كان يقف بمحاذاته كلامه بنظرة ثاقبة وايماءة لا تراجع فيها، وشاركه فيها معاذ الذي أضاف بقوله:

– نحن بالكاد نجد وقتا لمراجعة القرآن وتلاوته في رمضان، فلدينا الكثير من الواجبات، ونسأل الله دائما أن يبارك في أوقاتنا، فكيف لنا أن نمحقها بحضور حفل كهذا!

بدا الاستهجان واضحا على وجه المدير وكأنه يستمع إلى فتيان من كون آخر، قبل أن يلوي شفته قائلا:

– كما تريدون، هذه فرصتكم وقد أضعتموها بأنفسكم!

شكره طلال بأدب:

– على كل حال نشكر لكم اتاحة الفرصة لنا بالمشاركة بهذا العرض الذي نتمنى أن يكون قد حاز على إعجابكم، و جزاكم الله خيرا..

وبعد ان تركهم المدير ليتابعوا جمع حاجياتهم استعدادا للمغادرة، خيم الوجوم على وجوه الجميع وهم يعملون بصمت قطعه حسام منشدا بمرح:

– إن لم نبادر يومنا ... فغدا سنرثي نفسنا
هيا فصونوا عهدنا... هيا فصونوا عهدنا

فعلق أصيل مبتسما:

– الحمد لله هذه أول فائدة نخرج منها من هذه المسرحية على الأقل، والله يعوّض علينا بأحسن..

قال ياسر الذي أنهى تقريبا لف لوحاته بمساعدة حسان وحسام:

– الحمد لله، لم نخسر شيئا رغم أنني آثرت الاعداد للمسرحية، بدلا من أن أجد عملا في المنظمة! ولكن قدر الله وما شاء فعل، والحمد لله دائما فيكفي انني استطعت الوقوف أمام هذا العدد الكبير، الذي لم أتخيل أن أواجهه في حياتي..

فقال أصيل بفرح:

- كيف لم ننتبه لهذا الانجاز الكبير! تستحق تحية كبيرة ايها الهمام..

ابتسم ياسر، وعلق حسان:

- أضف إلى ذلك أنه بات يستحمل مزاحك الثقيل!

و أخيرا التفت طلال نحو علاء يستطلع وقع الخبر عليه، مطمئنا:

- مازال أمامنا وقت قبل موعد تسليم النقود غدا، وهناك أمل كبير لِتُرَشّح لاختبار الارتقاء بإذن الله يا علاء، فتفاءل خيرا وسنبذل جهدنا من أجل ذلك معا، إن شاء الله..

ابتسم علاء:

- إطمئن يا طلال، فلست حزينا من أجل ما حدث فلم أكن لأقبل مالاً من ذلك الطريق بأي حال، والحمد لله أننا قدمنا عرضا جيدا وهذا الأهم، لكنني صدمت قليلا في البداية..

وتابع بحماسة- تناسى فيها خسارته للمبلغ:

- ما زلت عند وعدي لكم بحلوى الحليب الطازج يا رفاق..

فعلق أصيل ضاحكا:

- أنصحك بتوفير جهدك حتى نتمكن من جمع المبلغ المطلوب يا صديقي..

قال حسام بلهجة متفائلة:

- بإذن الله سنجمعه، أنا واثق من ذلك..

عندها قال طلال:

- إذن هيا فلنسرع، فلعلنا نجد ما نفعله قبل الغروب..

وارتفعت الروح المعنوية للأصدقاء من جديد، وهم يدندنون بفرح:

- إن لم نبادر يومنا ... فغدا سنرثي نفسنا
هيا فصونوا عهدنا... هيا فصونوا عهدنا

***

بدا خروج الناس من قاعة المسرح الكبيرة بعد انتهاء العرض أشبه بهدير أمواج صاخبة متلاطمة لا يكاد السامع يفهم شيئا من دويها، وبدأت المقاعد تخلو من جلسائها فيما يشبه انحسار المد، مخلفا وراءه آثارا متفرقة هنا وهناك، فيما بادر عمال النظافة بمزاولة أعمالهم. وفي أحد الزوايا جلس شاب لم يكمل العشرين من عمره غارقا في مقعده، وكأن شارة انتهاء العرض واغلاق الستارة وخروج الناس؛ لم يعن له شيئا ذا بال يفهم من خلاله أن عليه مغادرة القاعة هو الآخر، وأنه لم يعد هناك معنى لجلوسه أكثر! كان في غاية التأثر بما شاهده وسمعه حتى أنه بالكاد انتبه لصوت رفيقه الذي عاد من أجله:

– ماذا أصابك يا قيس، الجميع بانتظارنا في الخارج، علينا متابعة التدريب قبل الافطار، أم أنك نسيت حلم فريقنا بالحصول على وسام المنطقة في الثلاثية!

حملق قيس في عيني رفيقه، كمن يحاول الاستيقاظ من عالم آخر، قبل أن ينهض من مكانه وآلاف الأفكار تدور برأسه حتى كاد يتهاوى على مقعده من جديد، لولا أن ثبت نفسه في اللحظة الأخيرة، فيما سبقه رفيقه قائلا:

– سننتظرك في الملعب، لا تتأخر..

وقبل أن يهم قيس بفعل أي حركة أو قول أي كلمة، فوجيء بيد تحط على كتفه وصوت لم يكن غريبا يحييه:

– السلام عليكم، أهذا أنت يا قيس!!

ارتبك قيس قليلا، فقد أعاده الصوت إلى ذلك العالم الذي بالكاد حاول الانفصال عنه، والتفت نحو الرجل رادا السلام:

– المدرب سعد صديق والدي! أهلا بك يا عم..

فابتسم المدرب سعد مستبشرا:

– الحمد لله ها أنت تذكرني اذن، كيف حالك يا بني لقد مضى وقت طويل لم ارك فيه ما هي أخبارك؟

ورغم أن السؤال كان عاديا، إلا أنه ترك انطباعات مختلفة في نفس قيس، فبدأت نفسه تصارعه:

- أتراه حقا لا يعرف ما هي أخباري، أشك بأن أبي لم يناقشه بأموري كلها! أم أنها عادة هؤلاء المربين المقيتة في استغفال الآخرين وكأننا ألعوبة في أيديهم لا رأي لنا في اختيار طريقنا إن خالف رأيهم مهما كبرنا، ولا توفيق يحالفنا إن حدنا عن توجيهاتهم!!

ولم يخف على سعد قراءة ما يجول بخاطره وهو يلمح تغير معالم وجهه، فبادره بقوله، وقد لاحظ بأن قاعة المسرح على وشك أن تغلق أبوابها:

- هل تمانع في أن ترافقني لنتحدث قليلا؟

ورغم ارتباط قيس بتدريب الثلاثية التي يعشقها، ونفوره المعتاد من كلام المربين الكبار ونصائحهم- فهم من وجهة نظره لا يفهمون لغة هذا العصر واحتياجاته- إلا أنه في هذه اللحظات بالذات شعر بحاجة ماسة تدفعه للموافقة على مرافقة المدرب سعد والاستماع لحديثه، لعله يجد لديه ما يثير اهتمامه ويعيد إليه سلامه الداخلي بعد سنوات من الصراع الذي لم ينجح بتجاوزه بعد، رغم قراراته التي اتخذها وآرائه الخاصة التي شعر باقتناعه بها!

سار قيس إلى جانب المدرب سعد الذي أخذ يتحدث في مواضيع شتى لعله يكسر الحاجز بينهما، إلى أن قال:

- سمعت أنك التحقت بفريق مدينة رياح الرئيس للثلاثية، فما هو موقعك الذي تلعب فيه؟

كان قيس يشعر في قرارة نفسه أن هذا لا يعدو كونه سؤالا استدراجيا لدفعه للكلام، لكنه تعجب من نفسه التي شعرت بالفرح لخوض المدرب في ذلك الموضوع بالذات فأجابه:

- إنني رامي الفريق حاليا..

بدت المفاجأة على وجه المدرب سعد الذي علق بقوله:

- حقا!! هذا يعني أنك اللاعب الرئيس فيه ومحرز نقاطه الكبرى ما شاء الله!

ابتسم قيس:

- الحمد لله، ولكنك تعلم يا عم ان فوز الفريق يعتمد على تعاون أعضائه وانسجامهم، ولا يمكننا تجاهل دور الآخرين في الفريق أيضا!

رغم ارتياح سعد لما سمعه من قيس؛ إلا أنه لم يُبد ذلك له وهو يحاول التعرف على طريقة تفكيره بعد تلك السنوات، فتابع قائلاً:

- أجل بالتأكيد، ولكن دور الرامي مميز بلا شك..

لم يعلق قيس، فسأله سعد:

- ستبدأ منافسات فرق المدن على وسام المنطقة للثلاثية بعد العيد على ما أظن، أليس كذلك؟

فأومأ قيس برأسه إيجابا:

- أجل..

فتابع سعد:

- أولادي الصغار مهتمون جدا بوسام المنطقة للثلاثية، لا سيما وأن المنافسات ستقام في مدينة رياح هذه المرة. بالمناسبة من هو قائد فريق المدينة الآن، فمنذ فترة طويلة لم أتابع أخبار الثلاثية؟

أجاب قيس بنبرة لا تخلو من تواضع:

- لقد استلمت قيادة الفريق منذ سنة تقريبا!

بدت المفاجأة للمرة الثانية على وجه سعد وهو يقول:

- حقا! لم يخبرني والدك بذلك!

وأخيرا استطاع سعد الضرب على الوتر الحساس عند قيس، إذ تنهد قائلا كمن يخاطب نفسه:

- و منذ متى وأبي يهتم بذلك!

نظر إليه سعد باستغراب:

- ومن قال لك بأنه لا يهتم! لقد كانت الثلاثية لعبتنا المفضلة عندما كنا صغارا، وقد حصل فريقنا على وسام المدارس للثلاثية، ولا تستغرب إن قلت لك بأن والدك كان قائد الفريق أيضا!

بدت الدهشة على وجه قيس:

- هل كان والدي قائد فريق الثلاثية حقا! أكنت تعرف والدي منذ أن كنتم صغارا يا عم؟

هز سعد رأسه قائلا:

- أجل، لقد كنا أصدقاء طفولة، وكنت معه في المدرسة أيضا ولم نفترق إلا بعد أن تجاوزنا العشرين، حيث ذهب كل واحد منا في سبيل عمله؛ فسافر والدك بعد زواجه من أمك إلى مدينة ورد، وسافرتُ أنا برفقة زوجتي إلى مدينة تل في منطقة التلال، ليكتب الله لنا الالتقاء مجددا هنا في مدينة رياح؛ حتى نعمل في مدرسة النصر للفروسية..

كان قيس مأخوذا بما يسمعه للمرة الأولى عن والده، وبدا متلهفا لسماع المزيد، فاستغل سعد هذه النقطة لعله يساهم في ردم الصدع بين صديقه وابنه قائلا:

- ألم تسأل والدك عن طفولته يا قيس؟

هز قيس رأسه بحزن:

- والدي صعب المراس ونادرا ما يحدثنا عن شيء يخصه!

فقال سعد:

– ولكنك لم تجرب سؤاله والحديث معه عن ذلك!

وابتسم واخزاً قيس بمرفقه:

– لقد أصبحت شابا ويفترض أنك صديق والدك وأمين سره الآن..

لم يكد سعد يتم عبارته؛ حتى طافت غمامة سوداء حول قيس كاشفة عن حزن دفين نسي وجوده في أعماق نفسه، والتي أخذت تحدثه ويحدثها وكأنهما بمعزل عما يحيط به:

– أنا صديق والدي!!.. مستحيل.. ان علاقتي به لا تتجاوز سلاما رسميا بدون أدنى مشاعر.. سلاما أخرج به من دائرة القطيعة والعقوق لا أكثر.. هذا إن لم أُعتبر عاقا له على رأي المربين!! منذ متى ونحن على هذه الحال؟ لا أدري.. وربما هذا لا يهم الآن.. فقد قُطعت أواصر القرب بيننا منذ زمن أنساني ما كان قبله!! ألا يعلم المدرب سعد بأنني أقيم عند جدتي الآن بسبب تلك المشكلة.. حتى دموع أمي لم تشفع عندي بالتنازل لرغبة والدي وأوامره الصارمة.. فهل أنا قاس وسيء إلى هذا الحد؟ أم أن ذلك كله بسببك يا أبي!!

ودمعت عينا قيس لتفضح ما يدور بداخله فأسرع يحاول إخفاءها وهو يمسحها بطرف كمه، فيما تكلم سعد بصراحة:

– إنني أفهمك تماما يا قيس، وأقدر موقفك؛ فلطالما مررنا بظروف مشابهة نشعر من خلالها بقسوة آبائنا، حتى إذا ما أصبحنا أباءً أدركنا كم كنا مخطئين! أعرف أنك سمعت هذا الكلام كثيرا من قبل ولكنني شعرت بحاجة ماسة لاعادته..

واستأنف سعد كلامه وهو ينظر للبعيد:

– لقد رسمنا آمالا كثيرة لأولادنا وهدفنا أن يصبحوا الأفضل دائما، أتعرف على ماذا اتفقنا أنا ووالدك قبل أن نفترق يا قيس؟

نظر إليه قيس بعينين متسائلتين، فأجابه سعد:

– لقد اتفقنا على أن نسمي أول ابن لنا باسم قيس، تيمنا باسم صحابيين جليلين أثارا اهتمامنا في أيام المدرسة ووجدنا أن اسم قيس سيربط بين اسمينا ثابت وسعد، أما الصحابي الأول فهو الصحابي الجليل خطيب الأنصار وخطيب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ثابت بن قيس رضي الله عنه، والصحابي الثاني قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه، هذا بالاضافة للصحابي الجليل قيس بن عاصم رضي الله عنهم جميعا..

والتفت سعد نحو قيس باسما:

– وها أنت الان تحمل اسم قيس بن ثابت، المشابه لاسم الصحابي ثابت بن قيس، وقد اسميت ابني الأكبر الذي يصغرك بثلاث سنوات قيس أيضا ليشابه اسم الصحابي قيس بن سعد رضي الله عنه..

واستطرد سعد متنهدا:

– لقد خططنا وفكرنا وتأملنا الكثير، ولكن الحياة لا تسير بتلك الانسيابية التي نتوقعها أحيانا.. قد نكون أخطأنا في بعض الأمور فنحن بشر، ولكن ثق بأن والدك يحبك يا قيس، ولا يريد لك إلا الخير، وأقولها لك جازما بأنه لا يصلي صلاة إلا ويدعو لك فيها، فأمرك أكثر ما يهمه وإن كنت لا تدري..

مع تلك الجملة انفرجت أسارير قيس أخيرا فقال بانفعال:

– لو كان يحبني ويهتم لأمري؛ لما تخلى عني وأنا في أمس الحاجة إليه، لقد كنت ضعيفا جدا ووحيدا وأحتاج وقوفه إلى جانبي، لكنه لم يأبه لذلك كله، تركني أتمزق من ضياع حقي وسخرية الأولاد مني في حين كان يقف كل أب إلى جانب ابنه! حتى إذا ما اخترت طريقي ونجحت في استعادة ثقتي بنفسي، بدأ يملي علي أوامره ليجبرني على التراجع.. لقد فات أوان التراجع عن خطتي التي رسمتها لحياتي.. فأين كان والدي من قبل؟؟

غصت الكلمات في حلق سعد، وشعر بقلبه يتقطع ألما، وهو يحدث نفسه:

- كان الله بعونك يا ثابت، أتراك كنت ستحتمل سماع ما أسمعه من ابنك الآن.. سامحك الله يا صديقي، لطالما عبتَ على الآباء تضييعهم لأبنائهم وكنتَ تظن بأنك ستسلك طريق التربية المثلى من أجل أبنائك، فكانت هذه هي النتيجة.. كأنني أرى بابنك صورة جارنا الذي عبته ذات يوم.. أستغفر الله العظيم لي ولك.. رب اغفر لي ولأخي.. يارب، كن بعون صديقي على محنته، وأصلح ما بينه وبين ابنه، وعوضه خيرا كثيرا..

مضت فترة صمت قبل أن يتكلم سعد:

- لم يتخل عنك والدك أبدا، ولكنه أرادك أن تصبح رجلا يعتمد على نفسه يا قيس، كما صنع معه والده من قبل..

نظر قيس نحو المدرب سعد مستفهما، فتابع سعد موضحا:

- لقد كان والدك ابن مدير المدرسة الذي يعمل له الجميع ألف حساب، ولكنه مع ذلك لم يستفد من كونه ابن المدير في شيء مما يتعارف عليه الناس آنذاك.. بل على العكس تماما، لقد دفع والدك ثمن ذلك غاليا..

***

كان المدرب ثابت يقف شاردا فوق سطح منزله يحملق في الفضاء الشاسع أمامه، متأملا غروب الشمس، وأطياف من الذكريات تموج بخاطره لا يدري لها سببا، عندما لاح له خيال رجل شك في هويته بداية فحدث نفسه:

– أيعقل أن يكون هو!! ما الذي جعله يقرر الظهور فجأة هكذا!! لقد كان من المقرر أن لا يعود قبل ثلاثة أسابيع!!

وبعد أن تأكد من ملامح الرجل بما لا يدع مجالا للشك، أسرع بالنزول وهو ينادى ابنته مروة:

– أخبري أمك بأن لدينا ضيفاً هاماً على وشك الوصول، وساعديها بإعداد مائدة إفطار مناسبة في غرفة الاستقبال..

وما إن أتم كلامه حتى أسرعت ابنته- التي أكملت عامها الرابع عشر منذ أسبوع- بإيصال الرسالة وتنفيذ المهمة بمهارة توحي بمدى اعتيادها على مثل هذه الأمور..

وقبل أن يُطرق الباب فتحه ثابت ليعانق ضيفه بحرارة قبل أن يقوده إلى غرفة الضيوف قائلا له:

– ما هذه المفاجأة يا حازم، هل أنهيت المهمة بهذه السرعة يا أخي؟

ابتسم حازم:

– أرجو أن لا تكون زيارتي الثقيلة في هذا الوقت هي السبب في سؤالك هذا!

بدا الاستياء على وجه ثابت وهو يبرر موقفه:

– ما هذا الذي تقوله يا رجل، أهلا ومرحبا بك دائما أنت تعرف هذا!

فاستدرك حازم بسرعة:

– أما زلت لا تستحمل المزاح يا أخي؟

فرد ثابت بجدية:

- وهل ترى أن هذا وقت مناسب للمزاح!

واستطرد متابعا:

- لم تخبرني بالذي جعلك تظهر فجأة قبل انتهاء المدة المتفق عليها؟

اعتلت الجدية وجه حازم ليقول بحزم:

- إعلان مسرحية!

علت علامات الدهشة والاستنكار وجه ثابت، فتابع حازم موضحا:

- لقد وقع إعلان مسرحية بيدي عرَضا من السماء، ولسبب أجهله شعرت بأن روح كامل تسري في حروفه، فجذبني بقوة لحضور تلك المسرحية لأفاجأ بأن ابن كامل هو أحد المشاركين فيها، عوضا عن كونها من إعداد طلبة مدرسة النصر للفروسية، وبالطبع قابلت معظم المعلمين والمدربين هناك وعلى رأسهم المدير شامل بما لا يدع مجالا لمزيد من التخفي، وبما أنني افتقدتك هناك فقد جئت لأطمئن عليك! ألم نتفق على مراقبة ابن كامل أم أنك بدأت تمل المهمة!!

تنهد ثابت:

- إن كنت قد عجزت عن مراقبة ابني، فهل تراني قادراً على مراقبة أبناء الآخرين؟؟

فقفزت نظرة مؤنبة إلى عيني حازم:

- كامل ليس كالآخرين وأنت تفهم هذا جيدا! هذه هي مهمتنا السرية التي لا يعرفها غيرنا، وستظل كذلك ما دمنا لم نجد الأدلة والبراهين الكافية لتثبت صدق شكوكنا..

والتقط حازم نفساً عميقا قبل أن يقول بوضوح:

– المراقبة بصمت..هذا أكثر ما نستطيع فعله في الوقت الراهن، فالسر خطير وكشفه قد يؤدي إلى ما لا يرغب أحد منا بتخيله..

قال ثابت بتفهم مؤكدا:

– من هذه الناحية ثق تماما بأن هذا السر لم يتجاوزني إلى أي أحد، حتى سعد صديق طفولتي وأكثر المؤتمنين على أموري، لا يخطر بباله أصلا أن يكون لدي سر كهذا!

بدا الارتياح قليلا على وجه حازم، قبل أن يقول مغيرا دفة الحديث:

– لقد كانت المسرحية من تقديم طلبة المستوى السادس في مدرستنا فقد عرفتهم كلهم إلا واحدا، أظنه جديداً لدينا..

فقال ثابت:

– ربما تقصد علاء.. انه ابن القائد نور الدين منصور..

بدا الاهتمام على وجه حازم:

– تقصد أنه ابن قائد المجاهدين في منطقة المروج الخضراء؟؟

فأجابه ثابت:

– أجل ولم يمض على التحاقه بالمدرسة أكثر من ثلاثة أشهر وهو مع ذلك يسعى للالتحاق بمرتبة مقدام بعد أن تم الحاقه بمرتبة همام مباشرة..

ابتسم حازم وقد أدرك في قرارة نفسه تماما ما الذي يعنيه هذا في عرف ثابت ذي الآراء المتشددة والقوانين الصارمة، فعلق بقوله:

– ربما كان أهلا لذلك فعلا..

لم يعلق ثابت بشيء، فوجدها حازم فرصة لقول ما كان يريد قوله منذ زمن:

– التزامك في تطبيق القوانين والمبادئ التي نقتنع بها بصرامة؛ لا يجدي نفعا في بعض الأحيان، وأظنها هي السبب في ما حصل مع ابنك الذي يفترض أن يكون ساعدك الأيمن!

تمعر وجه ثابت بثورة من الغضب كانت على وشك أن تبدأ وهو يرد بحدة:

– هل تظن بأنك أحرص على ابني مني! أو أنني لا أهتم لأمره وهو من لحمي ودمي!!

وسرعان ما تدارك حازم الموقف بقوله:

– هدئ من روعك يا أخي فلم أقصد إثارة غضبك وتحميلك المسؤولية، فأنا أتفهم حرصك على ابنك، ولكن صدقني ما هكذا يا سعد تورد الابل! كان عليك أن تكون أكثر قربا منه ورفقا به فلكل زمان أحكامه، ثم إن انخراطه في درب الثلاثية ليس بذلك السوء مقارنة بأشياء أخرى، فلا تحمّل الأمور أكثر مما تحتمل..

ولوهلة شعر ثابت بانفصال عن واقعه وهو يعود بذاكرته أربعين عاما للوراء، عندما انزوى باكيا في غرفته وهو ابن الثامنة بعد أن وبخه والده أمام الطلبة في مدرسته عندما تباهى أمامهم بكونه ابن مديرها، كان يبكي بحرقة وقد شعر بإهانة شديدة رفض على إثرها العودة إلى المدرسة، في حين أجبره والده مكرها على ذلك بالقوة والتعنيف.. فلم يجد له حيلة بعد ذلك سوى الانزواء عن الآخرين، حتى دخل والده عليه:

– إلى متى تنوي البقاء على هذه الحال؟ الا يكفيك يوم كامل من البكاء كالنساء والأطفال؟

ومع اقتراب والده منه أخذ ثابت ينكمش على نفسه أكثر وهو يتوقع صفعة أو ضربة، غير أن والده أخذ بذقنه ورفع رأسه نحوه قائلا وهو يحدق في عينيه بقوة:

– هيا انهض يا بني فأنا أريدك رجلا قويا يا ثابت..

وأخيرا تكلم ثابت بتردد:

– كيف سأكون رجلا قويا وقد جعلتني سخرية لزملائي يا أبي! ولم أعد أجرؤ على النظر في أعينهم أو مواجهتهم!! لماذا لا يحق لي اخبارهم بأنني ابن المدير؛ وهم يتباهون بأنهم أبناء معلمين وذوي نفوذ؟؟

فأجابه والده بصرامة:

– لقد قلت لك وانته الأمر، انس انك ابن المدير واصنع اسمك بنفسك..

لا يذكر ثابت كم مر عليه من الوقت قبل أن يلتئم جرحه القديم من تلك الحادثة، لكنه يعرف جيدا أنها تركت أثرها العميق في نفسه، فلا يذكر بعدها أنه استعان باسم والده في أي أمر من أمور حياته، بل شق طريقه معتمدا على نفسه، حتى استطاع الحصول على موافقة للقبول في مدرسة (الخيالة الأفذاذ) وهو ابن عشر سنين، يومها جاء والده منكسرا :

– لم استطع الحصول على الفرس التي أريدها لتصاحبني في التدريب رغم أنني الأحق بها يا أبي بعد أن فزت في السباق الأول، لقد منحوها لابن مدير المدرسة!

و بدلا من أن يقف والده إلى جانبه قال له:

– لا تجعل هذه الفرس عقبة في طريقك، ابذل جهدك وستحصل على أفضل منها بلا شك، إن شاء الله..

غير أن ثابت قال:

– كيف سأحصل على أفضل منها؛ وأنا أعاني من الاهمال الشديد من قِبَل المعلمين والمدربين! فاهتمامهم منصب فقط على أبناء المديرين وذوي النفوذ، إنهم منحازون جدا لهم..

تابع ثابت كلامه بتردد:

– لماذا لا تأت وتحدثهم يا أبي، فأنت أعلى شأنا منهم وسيعملون لك حسابا بلا شك، صدقني يا أبي، أنا لا أريد سوى استعادة حقي في الاهتمام والتقدير لا أكثر..

رد والده بحزم:

– لقد قلت لك منذ زمن طويل وانتهى الأمر، انس أنك ابن مدير واصنع اسمك بنفسك..

وكالغريق الذي يتشبث بالقشة استمات ثابت في بيان وجهة نظره:

– ولكن يا أبي هذا ليس عدلا فآباء الطلبة لا يصنعون مثلك!

فأجابه والده بصرامة:

– لا يهمني ما يفعله الآخرون فهذه هي طريقتي، عليك أن تصنع نفسك بنفسك، وقد حصلت على موافقة القبول بتوفيق الله بسبب جهدك، وعليك أن تكمل طريقك فيها وحدك، وإلا لن تحقق حلمك أبدا بأن تكون أفضل فارس خيّال..

و لم يذكر بعدها ثابت أبدا أنه فتح الموضوع مع والده مرة أخرى، فقد أدرك أنه لا خيار أمامه سوى أن يصنع نفسه بنفسه، وهذا ما حدث، وهو مع ذلك لم يسلم من كلام الآخرين الذي لم يعد يلقي له بالا..

***

بدا قيس مهتما جدا بما يسمعه عن والده للمرة الأولى، في حين تابع سعد كلامه:

– لقد كنا نحن المرشَحين الوحيدين من المدرسة اللذين قبلت اسماؤهما في مدرسة (الخيالة الأفذاذ)، والتي تعد أكبر مدرسة للفروسية آنذاك، ورغم أن جدك رفض مساعدة والدك في العديد من المواقف الصعبة التي تعرض لها ليعتمد على نفسه، إلا أنه مع ذلك لم يسلم من كلام الآخرين، الذين عزوا حصوله على المركز الأول في السباق الكبير لكونه ابن المدير الذي يهابه الجميع! أجل لقد دفع والدك ثمن كونه ابن المدير غاليا ولكنه تعلم أن لا يلقي لكلام الناس بالا..

وصمت سعد قليلا قبل أن يعلق قائلا:

– قد يكون جدك قاسيا مع والدك، لكنه كان السبب في تكوين شخصيته القوية الشجاعة، وهذا ما أراده والدك لك.. لقد كان يحبك وهذا أقل ما يمكنني قوله..

لم يجد قيس ما يعلق به على ذلك كله، فقد كان صامتا كصمت الليل البهيم الساكن، حتى معالم وجهه صمتت تماما فلم تنم عن شيء..

***

لم يغمض لعلاء جفن حتى وقت متأخر تلك الليلة رغم ما بذله من جهد ذلك اليوم، فباله مشغول بما قد يحدث رغم اطمئنانه للقرار الذي اتخذه مع أصدقائه باستغنائهم عن الجائزة التي بنى عليها أحلامه..

– يارب عوضني خيرا، وارزقني من حيث لا احتسب رزقا حلالا وفيرا طيبا مباركا فيه..

وأخذت كلمات والديه تبث في نفسه الحماسة والثقة بالله، تسلح بالدعاء يا بني، أدع الله في كل أحوالك، اطلب ما تشاء فالله بيده ملكوت كل شيء، أدع الله وأنت موقن بالإجابة فهكذا علمنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم..

ولهج لسان علاء بالدعاء حتى غفت عيناه، فلم ينتبه إلا على صوت حسام الذي أيقظه، وما هي إلا لحظات حتى كان يشارك رفاقه طعام السحور في قاعة الطعام حيث دار حديث بين الطلبة هناك حول المسرحية خاصة من الطلبة المبتدئين الذين أبدوا إعجابهم الشديد بها وهم يسألون عن كافة التفاصيل فيها، مما جعل السيد كريم ينوه بقوله:

– تستطيعون إكمال حديثكم فيما بعد، وحاولوا انهاء سحوركم بسرعة الآن قبل أن يرفع أذان الفجر..

لكن قاسم الذي تذكر أمرا ما فجأة، قال مخاطبا طلال الجالس عن يمينه:

– هل تصدق أن أحد معارفي زارني بالأمس بعد صلاة العشاء خصيصا ليسألني عن سبب عدم مشاركتكم في الحفلة؟ يقول بأن معظم الحاضرين كانوا يودون مشاهدتكم بعد أن حاز عرضكم على إعجابهم، لقد قدمتم عملا رائعا بحق، ما شاء الله..

علت علامات الرضا وجه طلال فردد:

– الحمد لله.. هذا من فضل ربي، والفضل بعد الله في ذلك يعود لحسام، لقد فاجأنا جميعا في البداية لكن ثقته بفكرته شجعتنا على خوض التجربة..

والتفت نحو حسام- الذي كان منهمكا بتناول الطعام- بعد أن توقف سيل الأسئلة المنهمرة عليه، فابتسم قاسم معلقا:

- يبدو وكأنه على وشك نظم قصيدةٍ في الطعام..

أما علاء الذي كان في شغل عن ذلك كله، فقد أنهى طعامه بسرعة وأسرع نحو سجادته ليشرع في صلاة ركعتين أطال سجودهما..

***

أخذ أصيل يؤكد كلامه بإلحاح أمام أصدقائه المجتمعين في قاعة الدرس في فترة الإستراحة بين الدروس، قائلا:

- لقد قطع الشك باليقين، فقد شاهدته وهو يدلف إلى مكتب المدير صباح هذا اليوم، لم يعد الأمر محض توهم كما تظنون، أنا متأكد من أن السيد حازم قد حضر عرضنا بالأمس لقد كان هو بعينه..

وأخيرا تساءل علاء الذي كان مشغولا بعمل بعض الحسابات في كراسته:

- ومن هو السيد حازم الذي أثار كل هذا الجدل؟

فبادره حسام بالاجابة:

- إنه مساعد المدير ونائبه ويقال بأنه فارس متمرس بارع فهو المشرف على نزالات المدربين السنوية..

بدا الاهتمام على وجه علاء، فأغلق كراسته مرددا بتعجب:

- نزالات المدربين السنوية! ما المقصود بها؟

فوضح حسام قائلا:

- إنها أروع ما يمكنك مشاهدته على الاطلاق، وأكثر ما تتخيله حماسة وإثارة، نزالات مثيرة على مستوى الأبطال والصناديد...

فقاطعه حسان موضحا:

- باختصار؛ هي المنافسات التي تقام بين المدربين ليحافظوا على لياقتهم وقوتهم ويشحذوا مهاراتهم، والتي يتم فيها اختيار أمير المدربين.. وقد حصل المدرب جهادعلى هذا اللقب لثلاث سنوات متتالية..

ضحك أصيل معلقا:

- سامحك الله يا حسان، لقد أفسدت على حسام نظم قصيدته الغزلية!

فابتسم حسام:

- لا بأس فهي لم تكن بذلك المستوى المطلوب، المهم أن الفكرة وصلت لعلاء..

وقبل أن يثار نقاش جديد، فوجيء الجميع بدخول السيد حازم مسلما عليهم:

- كيف حالكم أيها الفرسان؟

انتظم الفتية واقفين في صف واحد:

- الحمد لله بخير، وحمدا لله على سلامتك يا أستاذ..

وبابتسامة عريضة صافحهم حازم واحدا واحدا، ولسبب ما؛ شعر علاء- الذي كان يتفحص هذا القادم الذي يقابله لأول مرة- بأن مصافحته لطلال حملت معنى مختلفا، لكنه لم يلق لذلك بالا، وكم كانت دهشتهم كبيرة في حين علت نظرة الانتصار وجه أصيل، عندما فاجأهم حازم بقوله:

- لقد أحسنتم صنعا بعرضكم بالأمس، ترى من كان صاحب الفكرة وكاتب النص؟

فهتف الجميع بصوت واحد:

- حسام..

ومع توجه الأنظار نحو حسام الذي كاد أن يذوب خجلا، اقترب منه حازم هاشا باشا:

- ما شاء الله لقد أبدعت بحق يا بني!

لكن حسام أسرع يقول كمن يدفع تهمةً عن نفسه:

- لقد كان عملا تعاونيا ولم يكن لينجح بفكرتي وحدها لولا توفيق الله لنا اولا، وتعاوننا في تقديمه ثانيا..

ابتسم حازم برضا قائلا:

- ما زلت متواضعا كما عهدتك يا حسام، ولكن هذا لا يمنعك من أن تأتي معي وتتحدث باسم المجموعة..

علت نظرات تساؤل وجه حسام، ومن دون مزيدٍ من الإيضاح وجد نفسه يسير خلف السيد حازم باتجاه غرفة المدير، في حين علا الهرج والمرج بين الأصدقاء؛ بين متسائلٍ إلى مفسّرٍ لما حدث، غير أن جدالهم لم يدم طويلا إذ سرعان ما عاد إليهم حسام، وقد تغيرت معالم وجهه، فاستقبله رفاقه بلهفة وهم يحيطون به من كل جانب:

- خير إن شاء الله، ماذا حدث؟

فلم يزد حسام على قوله:

- دعوني ألتقط أنفاسي أولا!

ولأول مرة يشعر فيها طلال بالقلق فسأله بتوجس:

- خير يا حسام؟ أثرت أعصابنا!!!

أما علاء فقد تسارعت نبضات قلبه من دون سبب واضح، ولم يعد يقوى على الوقوف فتهاوى على مقعده:

- يارب..

وبعد برهة استنفد فيها الجميع صبره ابتسم حسام قائلا:

- لقد رفضت الموافقة على طلبٍ عُرض علي قبل أن أستشيركم، فالموضوع يخصنا جميعا..

فوخزه أصيل ليحثه على الكلام بسرعة:

- هيا يا أخي أدخل في الموضوع مباشرة فقد حرقت أعصابي!

ضحك حسام:

- حسنا حسنا صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم..

فرددوا:

- اللهم صل على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم..

كاد حسام أن يضيف كلمة أخرى يستفز بها ما تبقى من صبر رفاقه، لولا نظرات طلال التي جعلته يحجم عن فعلته، فقال:

- قابلت رجل مال ينوي فتح دار عرض من طراز خاص في منطقة السهول، وقد أعجبه عرضنا بالأمس كثيرا فجاء إلى المدرسة لشراء (حق النص) بعد أن أخبره مدير دار عرض المدينة بأن عرضنا مسجل باسم مدرسة النصر للفروسية..

والتقط حسام نفسا قبل أن يتابع:

- كم تتخيلون مقدار المبلغ الذي عرضه؟

فقال أصيل باستهتار:

- هل عرض ألف ألف قطعة مثلا!!

فرمقه معاذ بنظرة حادة:

- أهذا وقت الاستخفاف يا أصيل؟؟

فقال زيد:

- لو عرض خمس الاف قطعة لوافقت فهذا المبلغ هو ما نهدف اليه في الوقت الراهن..

ابتسم حسام:

- لقد كنا نسعى للفوز بجائزة مقدارها خمسة آلاف، فإذا بالرجل يعرض علينا ما مقداره خمسون ألفا..

وصمت حسام يستطلع وقع الخبر على رفاقه الذين أذهلهم الرقم، فردد حسان غير مصدق:

- خمسون ألفا!!! هل أنت جاد!!!!!!!!!

فأكد حسام كلامه:

- أجل، بل إنه عندما لاحظ صمتي بداية؛ قال بأنه مستعد للدفع أكثر..

ثم تابع ضاحكا:

- لم يعرف المسكين أنني كنت تحت تأثير الصدمة..

لكن طلال علق بقوله:

- لو اطلعتم على قوانين (حقوق النصوص) وشرائها؛ لأدركتم بأن المبلغ يعتبر ضئيلاً جدا، أو متوسطاً على أقل تقدير، فهذا الرجل تاجر وبالتأكيد هو لم يعرض هذا المبلغ عبثا، لولا أنه حسبه جيدا من قبل..

ضحك أصيل قائلا:

- إذن كنتُ محقا بقول ألف ألف!

فقال معاذ باسما:

- ليس إلى هذه الدرجة فلا تصدق نفسك، كن حكيما بعض الشيء وإلا خسرنا المبلغ كله يا رجل!

وقال زيد:

- إذا كان ما يقوله طلال صحيحا؛ فلا بأس من أن تطلب مبلغا أكبر يا حسام، فهناك الكثير من أعمال البر التي سيمكننا القيام بها، خاصة في هذا الشهر الفضيل..

وأكد ياسر على كلام زيد:

- وهذا رأيي أيضا..

فالتفت حسام إلى علاء الذي كان غارقا تماما في عالمه الخاص، بعد أن تجلت أمامه ثمرات المواعظ والدروس التي سمعها طوال السنوات السابقة بداية من والديه وحتى معلميه، مرددا في سره:

- ما أكرمك يا رب.. آمنت بك وحدك لا شريك لك.. حقا (من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه)، فيارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك..

حتى انتبه على صوت حسام الذي كرر سؤاله مرات عدة وهو يشير بيديه أمام عيني علاء لعله يفيق من أحلام يقظته وينتبه إليه:

- ما رأيك يا علاء لقد بقيت أنت الوحيد الذي لم يتكلم، فماذا تقول؟

نظر إليه علاء بذهول متسائلا:

- ماذا أقول بماذا؟؟

فضحك أصيل بملء فيه كما أفلتت بعض الضحكات من الآخرين، وابتسم طلال معلقا:

- وهل هذا سؤال توجهه لعلاء بالذات، فلا شك أنه سيوافق على أي مبلغ يمكّنه من الترشح لاختبار الارتقاء..

فتابع أصيل بصعوبة وهو يقاوم ضحكاته:

- بل قل أنه مستغرق الآن تماما في بناء أحلامه المترتبة عليه، ترى أين وصلت الآن يا علاء؟

فاحمرت وجنتا علاء، في حين استدرك حسام- وهو يغمزه بعينه باسما:

- لا عليك يا علاء فقد كنا نمزح فقط، فأنت تقدر بلا شك وقع خبر كهذا على أولاد أُعفوا من متابعة أعمالهم الشاقة لتحصيل المبلغ! فتهانينا يا صديقي..

دمعت عينا علاء:

- جزاكم الله خيرا يا رفاقي الأعزاء..

قال طلال موجها خطابه لحسام:

- أرى أن تسرع بالذهاب لتوقع عقد الشراء مع الرجل، قبل أن يمل من الانتظار ويغير رأيه!

وما هي إلا لحظات حتى وقّع حسام على ورقة استلام المبلغ، والبالغ سبعين ألفا بعد التفاوض بحضور المدير شامل، والسيد حازم إلى جانب التاجر ومساعده..

وضع حسام كيس النقود أمام الأصدقاء، فخروا ساجدين شكرا لله على ما وهبهم من فيض عطائه وعظيم نعمائه..

ثم قال حسام بعد أن أخرج عشرة الاف قطعة وهي قيمة المبلغ الذي سرق من علاء ووضعه في كيس منفرد سلمه له:

- والآن ماذا سنفعل بالستين ألفا الباقية؟

لكن علاء استوقفه وقد بدأ يستوعب ما يحدث أمامه لفرط المفاجأة:

- مهلا مهلا، ولكنني لا أحتاج إلا لأربعة آلاف قطعة على الأكثر، فقد تجمع لدي منكم ما يقارب الستة الاف قطعة من قبل!

قال أصيل مازحا:

- ومن يهتم لأمرها الآن، إذا كانت عبئا عليك؛ فأنا مستعد لتحملها نيابة عنك!

فوخزه حسان باسما:

- وبما أنني جارك؛ فسأتحمل هذا العبء معك ياصديقي العزيز!

تدخل طلال بجديته المعهودة:

- أرى أن نقيم بذلك المال السابق صدقة جارية باسمنا جميعا، لا سيما وأنها ثمرة أول أعمال نقوم بها بأيدينا، في حين نقتسم الستين ألفا بيننا بالتساوي، فيكون نصيب كل واحد منا سبعة آلاف ونصف، فما رأيكم؟

بادره زيد بالموافقة:

- فكرة جيدة بل ورائعة، أنا موافق، وأقترح أن تكون الصدقة الجارية بئر ماء نساهم في حفره في إحدى القرى النائية، فقد علمتُ من والدتي أن تكلفة حفر بئر عادي مع تجهيزه، يقارب خمسة آلاف قطعة نقدية..

وافقه معاذ:

- هذا جيد، وبما أن المبلغ الذي تجمع لدى علاء يقارب الأربعة آلاف، فسأساهم من حصتي في إكمال تكاليف انشاء البئر..

فقال ياسر:

- وأنا سأساهم من حصتي أيضا..

وقال زيد:

- وأنا سأساهم أيضا وسأعطي بقية المال لأمي فهي تعرف العديد من العائلات المحتاجة..

عندها قال علاء بعد تفكير عميق:

- أما أنا فسأعطي حصتي لعدنان..

فهتف حسام كمن كان ينتظر اقتراحا ينفذه، وقد أعجبته الفكرة:

- وأنا أيضا..

في حين قال حسان الذي كان يجري بعض الحسابات في مخيلته:

- سبعة آلاف ونصف! إنه مبلغ جيد، أظنه سيكون كافيا لسداد جزء كبير من دين أبي..

قال أصيل بحماسة:

- بصفتي جارك سأساهم معك في سداد الدين..

لكن حسان أفسد عليه حماسته:

- لن يقبل أبي بذلك أبدا..

فرد أصيل مصطنعا خيبة أمل كبيرة:

- في هذه الحال، أجدني مضطرا لشراء ثلاثية جديدة، وعربة حصان فاخرة، بالإضافة لمتجر الحلويات، و...

فقاطعه حسان ضاحكاً:

- أرجوك هذا يكفي، فقد أشعرتني وكأنك ورثت مال قارون! حسنا في هذه الحال سأحاول إقناع أبي بقبول عرضك..

تظاهر أصيل بالذعر وهو يقوم بحركة تمثيلية:

- لا داعي لذلك أرجوك..

ثم انفجر ضاحكا..

وقبل أن يثار أي نقاش جديد حول المال وتوزيعه، دخل المعلم عاصم معلنا انتهاء فترة الاستراحة، فابتسم وهو يتأمل الوجوه الحالمة:

- يقال أن الأموال تغير الأحوال، فهل تراكم بحالة تسمح لكم باستقبال درس جديد؟

فتبادل الأصدقاء النظرات ولسان حالهم يقول:

- لولا الحياء لقلنا لا..

غير أن المعلم عاصم بدأ درسه بأسلوبه الشائق المألوف، والذي سرعان ما أنسى الفتية ما كانوا فيه بقوله المشجع:

- سنناقش اليوم قواعد الإعراب على ضوء نص مسرحية (حراس القلعة)..

وما هي إلا لحظات معدودة حتى انسجموا تماما في روعة لغة العرب وفصيح بيانها..

***

شعر علاء وكأنه في حلم جميل، تمنى أن لا يفيق منه أبدا وهو يسلم المدير شامل كيس النقود الحاوي عشرة آلاف قطعة نقدية عدها أمامه قطعة قطعة من كل فئة حتى اكتملت، ولم يبق أمامه الآن سوى تسليمها للفقراء في حي الغليل ليكمل المهمة، ويستعد لخوض اختبار الارتقاء في الغد..

وما كاد أن يخطو خطوتين خارج سور المدرسة حتى فوجئ برفاقه يعترضون طريقه، وعلى رأسهم طلال الذي استقبله قائلاً:

- هل تظن أننا سنسمح لك بالذهاب وحدك بعد كل هذا!!

فعلق أصيل وهو يلوح بعصا طويلة في الهواء:

- أنت تحلم بلا شك إن ظننت بأننا سنسمح لك بالذهاب وحدك دون حراسة مشددة..

أضاف حسان:

- لا مجال للمغامرة هذه المرة، فغدا هو الاختبار إن شاء الله..

قال زيد وهو يستعرض قوة عضلاته، رافعا ذراعه لتلامس ذراع معاذ المنتصبة والذي ردد معه:

- يد الله مع الجماعة..

وقال ياسر مشيرا إلى وديع الذي حط على كتفه:

- حتى وديع سيشاركنا المهمة ويتأكد من سلامة الطريق..

ابتسم علاء:

- جزاكم الله خيرا، فلندع الله أن تتم المهمة بسلام..

هتف حسام بحماسة مرحة وهو يقفز رافعا قبضته في الهواء:

- إذن هيا بنا يا حراس القلعة، سيروا على بركة الله..

وبعد أن قطعوا مسافة لا بأس بها، دخل موعد أذان العصر فأدوا الصلاة جماعة في الطريق بإمامة معاذ، حتى إذا ما شارفوا على مدخل وادي الغليل؛ ترتبوا في أزواج مثنى مثنى، حيث حمل كل زوج منهم الفين ونصف قطعة على أن يتم توزيعها على خمسة بيوت لكل بيت خمسمائة قطعة نقدية، فيكون مجموع البيوت المستفيدة عشرين بيتا حسب الاتفاق، على أن يلتقوا عند مدخل الوادي بعد الفراغ من المهمة. ورغم بعض القلق الذي ساور علاء في البداية خشية أن تواجههم عوائق مفاجئة إلا أن الأمور سارت بأبسط مما تخيل، فتم لهم ما أرادوا بيسر وسهولة قبل الغروب، في حين انهالت الدعوات لهم من كل جانب، وعندما وصل علاء مع ياسر الذي رافقه نحو المدخل؛ وجد حسام وطلال قد سبقاهما إلى هناك، فهتف حسام بمرح ملوحا بيديه:

- أنتم في المركز الثاني..

غير أن صوت معاذ قاطعه قائلا:

- وما ذا عنا نحن؟

فابتسم حسام:

- لا بأس، سأتنازل لكم عن المركز الأول إن وافق طلال!

فعلق زيد باسما:

- إذا كنا سنجني شيئا من هذا الترتيب؛ فلا مانع لدي من النزول عند رغبتك..

ابتسم حسام:

- ماذا لو قلت لك بأنني سأمنحك الدور الرئيس في بطولة مسرحية جديدة؟

فضحك معاذ:

- أرجوك يكفينا مسرحيات!

لكن حسام أخرج بطاقة دعوة من جيبه وقد استدرك فجأة:

- نسيت إخباركم عن استلامي بطاقة دعوة من دار عرض المدينة، يدعوننا فيها لإعادة عرض المسرحية..

وابتسم متابعا:

- يبدو أننا أصبحنا مشاهير بما يكفي لتنهال علينا العروض هكذا!!

ابتسم علاء معلقا:

- في هذه الحال لن نذهب إلا بمائة ألف، فقد أعجبني العمل..

لكن ياسر قال بتوسل:

- لا أرجوكم ولا حتى بألف ألف!! نريد التفرغ لدروسنا في الوقت الراهن..

ضحك حسام بمرح:

- هل أنت متأكد من أن هذا هو السبب!

ابتسم ياسر:

- لا شك أنه أحد الأسباب، ولا تسأل عن البقية!

ثم التفت إلى علاء- وهو يلتقط غصن شجرة يابساً من الأرض لفت نظره:

- ما رأيك أن نتدرب قليلا استعدادا للغد؟

وقبل أن يرد علاء، قال طلال:

- وهل تنوون البقاء هنا طويلا!! أين حسان وأصيل؟ لقد تأخرا أكثر مما ينبغي!

فتساءل زيد:

- هل نذهب للبحث عنهما؟ أخشى أن تغيب الشمس قبل أن يعودا فيصعب البحث داخل زقاق الوادي!

لكن حسام سرعان ما طمأنهم مشيرا بيده:

- انهما قادمان من هناك، أظن أن أصيل نسي الهدف من مجيئنا إلى هنا واشترك مع الأولاد في لعبهم..

وأطلق ضحكة خفيفة:

- لا أستبعد أن يكون قد انسجم في حديث شائق مع أحدهم، ودعا نفسه على الافطار عنده أيضا لولا تدخل حسان، كان الله في عونه..

لم يكد يتم جملته؛ حتى شاركه رفاقه الضحكات، وهم يتأملون وجه حسان الغاضب وهو يمسك بذراع أصيل بقوة من يده في حين أخذ الأخير يتأوه بحركات تمثيلية مضحكة:

- أنقذوني يا جماعة، فأنا بريء! صدقوني!

وما أن أفلت حسان يده حتى قال أصيل:

- أكلّ هذا لأنني قررت تعليمهم قواعد اللعبة على أصولها!

فقال حسان:

- نعتذر عن التأخير يا جماعة، ولكن الأخ أصيل أحب أن يستعرض معلوماته القيمة على الأولاد..

نظر أصيل نحو طلال يدافع عن نفسه:

- أيرضيك يا سيد طلال أن أراهم يلعبون الثلاثية من دون الالتزام بقوانينها وأبقى ساكتا! لقد اكتشفت أنهم يجهلون معظم قواعدها الاساسية! أفليس من واجبي تعليمهم الأصول الصحيحة في اللعب!

وأمام تلك النبرة الجادة التي تكلم بها أصيل مخاطبا طلال بالذات في موضوع كهذا، لم يستطع حسام والبقية حبس أنفاسهم عن الضحك، حتى حسان الذي بدا غاضبا في البداية، لم يتمالك نفسه، لكنه سرعان ما قال:

- حسابك في البيت يا أصيل، والآن هيا بنا قبل الغروب..

فتساءل طلال مستدركا:

- المهم أن تكونا قد أنهيتما تسليم النقود للبيوت الخمسة مع سلال التمر!

عندها تبادل حسان وأصيل النظرات قبل أن يخاطب حسان أصيل مؤنبا:

- من لطف الله بنا أن أبقيت المال معي وقد سلمته، ولكن ماذا عن سلال التمر التي حملتَها؟ لا أذكر أننا سلمنا البيت الأخير سلته!

عندها شعر أصيل بالذنب وبدا الارتباك في عينيه وهو يحاول التذكر:

- دعني أتذكر، ربما.. ربما..

وبينما هو كذلك إذ طرق سمعهم صوت ولدين صغيرين أقبلا مسرعين وهما يناديان:

- أستاذ أصيل.. يا أستاذ أصيل لقد نسيت سلتك!

فعلق معاذ:

- أصبحتَ أستاذا أيضا!

فتهلل وجه أصيل قائلا بمرح:

- أرأيتم كيف تؤتي الكلمة الطيبة ثمارها..

ثم جرى نحو الأولاد مرحبا:

- أهلا بكم يا أصدقائي الأعزاء ألم نتفق أن اسمي هو أصيل وحسب، لقد سررت كثيرا باللعب معكم، ومكافأة لكم سأهديكم هذه السلة شريطة أن تتقاسموا ما فيها من تمر بين أهليكم، اتفقنا؟

قفز الولدين بفرح:

- شكرا لك يا أستاذ أصيل شكرا لك أنت طيب جدا، تعال والعب معنا دائما..

التفت حسان إلى رفاقه الذين كانوا يتابعون المشهد:

- أرجو أن تعفوني من مشاركة أصيل في أي مهمة كهذه فيما بعد..

وضحك الجميع في حين علق طلال باسما:

- نظرا لهذه النهاية السعيدة- بفضل الله- فقد أعفينا أصيل من لائمة التأخير..

أخذ أصيل يقفز فرحا:

- جزاك الله خيرا يا أستاذ طلال..

ثم ضرب حسان على ذراعه قائلا:

- هذه بتلك يا حسان، فقد أُعلنت براءتي أخيرا..

وهرب تلافيا لردة فعل حسان، الذي أخذ يجري خلفه:

- سأريك..

في حين تعالت ضحكات أصيل وهو يعدو مسرعا:

- هذا إن استطعت امساكي أيها البطل!

وضحك الجميع لمشهدهما وعلامات الرضا والسرور تعلو وجوههم بعد أن وفقهم الله لإتمام المهمة بسلام..

***

دلف حسام إلى غرفته بعد الإفطار ليجد طلال بانتظاره كما أخبره، فبادره بالسؤال:

- ترى ما هو الشيء الذي تريدني به على انفراد؟

قال طلال:

- في الحقيقة كنت أود اخبارك به من الأمس، لكن لم أجد الفرصة المناسبة لذلك، ومن جميل تقدير الله أن علاء منشغل بالتدريب الآن مع ياسر..

فنظر إليه حسام بقلق:

- أتراه أمر يتعلق بالوثيقة؟؟

أطلق طلال تنهيدة قائلا:

- أما زال أمرها يقلقك أنت أيضا!

طأطأ حسام برأسه:

- طبعا.. خاصة بعد الذي أخبرتني به آخر مرة!

ابتسم طلال مطمئنا:

- حسنا اطمئن ودع أمر الوثيقة جانبا الآن، فلا علاقة لها بما أود اخبارك به..

فارتمى حسام على سريره كمن يرمي أثقالا من فوق ظهره قبل أن يقول:

- فماذا إذن؟؟ هيا أخبرني..

فما كان من طلال إلا أن اتجه نحو خزانته ليخرج منها صندوقا أحكم تغليفه بلفافة، أخذ يزيلها بهدوء بعد أن جلس على حافة سريره، أمام ناظري حسام الذي اعتدل في جلسته محدقا فيها بترقب..

وما هي إلا لحظات معدودة حتى فتح الصندوق ليخرج منه قلما لم ير حسام مثله من قبل، قدمه طلال له قائلا:

- هذه هديتي لك يا حسام، تفضل إنه قلم والدي رحمه الله الذي لا أجد من يكتب به أفضل منك..

فوجيء حسام بذلك الموقف، ولم يحرك ساكنا كمن أُخذ على حين غرة، في حين تابع طلال وهو يخرج دواة حبر من الصندوق قائلا:

- وهذه هي الدواة التي كان يستعملها والدي و قد جف بها آخر ما تبقى من حبر لم يكمله..

و بصعوبة نطق حسام مرددا بغير تصديق:

- قلم الكاتب الشهيد كامل عبد الصبور ودواته ايضا!

فهز طلال رأسه مؤكدا وهو يستشعر وقع خبرٍ كهذا على حسام:

- أجل إنه هو يا حسام، وأنت أفضل من يحمله..

وأخيرا استعاد حسام توازنه فقال:

- ولكنه قلم والدك يا طلال، ولا شك أنه يعني لك الكثير..

فترقرقت دمعات في عين طلال، سرعان ما أخفاها باسما:

- ولهذا السبب بالذات يا صديقي أهديه لك، فلن يفيد والدي بقاء قلمه، الذي جاهد به لآخر لحظة في حياته، معي هكذا دون فائدة تذكر، فلستُ موهوبا مثلك في الكتابة يا حسام، وأظنك الأجدر به فاجعله رفيقا لك يا أخي لعل الله أن يجعل ما تكتبه به في ميزان حسنات والدي وصدقة جارية له إلى يوم القيامة..

ولم يستطع طلال أن يكمل كلامه؛ فقد انهمرت الدموع من عينيه، فأسرع ينهض من مكانه مستديرا نحو النافذة، قبل أن يلتفت مجددا نحو حسام، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة:

- لا تقلق فلن أندم على قراري يا حسام أبدا- إن شاء الله- واطمئن فقد استخرت الله عليه أيضا..

أما حسام الذي بلغ به التأثر ذروته، فقد جاهد ليقول:

- إنها أمانة ومسؤولية يا طلال، ولا أظنني أهلٌ لحمل قلم الكاتب العظيم كامل عبد الصبور، أنت تبالغ في وصفي يا صديقي..

لكن طلال ابتسم قائلا وهو يضرب بكفه كتف حسام الذي أخفض رأسه محدقا بالقلم أمامه:

- بل أنت أهل لذلك يا حسام، وأنت تعرف أنني لست من النوع الذي يبالغ أبدا وأعني كل كلمة أقولها..

والتقط نفسا قبل أن يتابع وهو يلتقط القلم، مادا به يده نحو حسام قائلا:

- استعن بالله وخذ القلم بقوة، فنحن جميعا نثق بك يا أخي الحبيب..

أمسك حسام بالقلم قائلا:

- سأبذل جهدي يا طلال لأكون عند حسن ظنك، وأعدك أنني سأحفظ عهد هذا القلم ما حييت- إن شاء الله- فادع الله لي بالتوفيق والثبات..

تصافح الصديقان بقوة، مصافحة تركت أثرها العميق في نفس حسام، الذي شعر ببدء عهد جديد في حياته، لم يعمل له حسابا من قبل..

***

سار ياسر إلى جانب علاء بعد أن أديا صلاة العشاء والتراويح في الجامع القريب من منزله حيث أمضيا طوال الفترة من بعد الإفطار وحتى العشاء يتدربان في ساحة المنزل، وللمرة الثانية كرر ياسر عرضه على علاء:

- لم لا تقض الليلة معي فغرفتي واسعة ولدينا فراش إضافي للنوم، وغدا نذهب معا للمدرسة إن شاء الله!

اعتذر علاء بلباقة قائلاً:

- جزاك الله خيرا يا ياسر، لقد قضيت معك وقتاً ممتعا ولكن صدقني سأكون مسرورا أكثر لو عدت إلى غرفتي في المدرسة..

فنظر إليه ياسر بحزن:

- هل صدر مني ما يزعجك يا صديقي؟

لكن علاء سرعان ما وضح موقفه:

- أرجوك لا تسئ فهمي يا ياسر، فأنت لم تقصر في شيء، وقد سررت كثيرا بصحبتك، ولكنني أفضل العودة لغرفتي.. هذا كل ما في الأمر..

غير أن ياسر قال له:

- أشعر أنك تخفي شيئا عني، فقد كنتَ تبدو شاردا بعض الشيء وأنا أحدثك يا صديقي!

أخذ علاء نفسا عميقا ثم قال:

- في الحقيقة يا ياسر، إنني لا أستطيع منع نفسي من التساؤل كلما رأيت أسرة، متى سيقدر لي رؤية عائلتي ثانية ..

فقال ياسر مواسيا:

- تفاءل يا صديقي وكن على ثقة كبيرة بالله، ولا تجعل لليأس سبيلا إلى قلبك، فإنما ذلك من الشيطان فهو يريد أن يراك حزينا خاصة بعد ما حققته من إنجاز اليوم، فاستعذ بالله من الشيطان واستعد لاختبار الغد..

ابتسم علاء:

- اطمئن يا ياسر من هذه الناحية، فسأبذل جهدي، إن شاء الله..

ثم تابع قائلا- بعد أن لاحظ نظرات ياسر القلقة والتي بدت متشبثة به لأبعد حد:

- أشعر بحاجة للمشي في نسيم هذا الليل العليل، استعدادا للغد- ان شاء الله- وأخشى أن يعود المعلم نبراس من جامع الفتح قبل أن أذهب فيثنيني عن ذلك، لذا اطمئن سأكون بخير، إن شاء الله..

هز ياسر رأسه متفهما:

- حسنا في هذه الحال لك ما تريد، ولكن انتبه لنفسك.. أرجوك..

وفي تلك الأثناء أقبل عليهما رجل من مفترق الطريق، ملتحفا برداء طويل غطت قطعة منه رأسه وجزءا من وجهه و يبدو عليه آثار الإرهاق والسفر، ولم يخف على ياسر ملاحظة حمامة زاجلة استقرت على كتفه رغم أنها اختبأت تحت ثنيات الرداء المتهدل، وبعد أن ألقى التحية، التقط ما تبقى من أنفاسه وهو يسألهم:

- هل مدرسة النصر قريبة من هنا؟

فأجابه علاء:

- أجل يا عم، وتستطيع مرافقتي إن شئت؛ فأنا في طريقي إليها..

تهلل وجه الرجل مستبشرا:

- الحمدلله، هذا يعني أنك من مدرسة النصر، أليس كذلك ؟

أومأ علاء برأسه إيجابا، في حين تسارعت دقات قلب ياسر، وقد شعر ببعض القلق، فتابع الرجل:

– في الحقيقة إنني أود السؤال عن شخص ما هناك، وقد خشيت أن تكون قد أغلقت أبوابها في هذا الوقت، ولم أجد حتى الآن نُزلا قريبا أقضي فيه الليلة، فأنا في عجلة من أمري..

خفق قلب علاء بشدة وكأنه المعني بهذا الأمر، فتساءل بلهفة شديدة:

– ومن هو هذا الذي تبحث عنه يا عم؟

حاول الرجل تذكر الاسم لكنه لم يفلح فأخرج رسالة من جيبه وحاول قراءة ما بها على ضوء الفوانيس التي ملأت الطريق بأنوارها وهو يقول:

– يبدو أن طول السفر قد أرهقني..

وبعد أن نظر في الرسالة، قال:

– نعم تذكرت، إنه علاء..

فاختنقت الكلمات في حلق علاء قبل أن يسأله:

– علاء من؟

فتنهد الرجل:

– للأسف فإن الشخص الذي أرسل معي هذه الرسالة لم يكتب سوى الاسم الأول فهو شيخ كبير طاعن في السن..

عندها انفرجت أسارير علاء وصرخ رغما عنه:

– إنه الجد سعيد بلا شك..

فوجئ الرجل فقال بدهشة:

– إن اسمه سعيد فعلا.. لا بد أنك علاء إذن، أليس كذلك؟

فابتسم علاء:

– هذا صحيح يا عم، أنا علاء نور الدين ..

وما إن سمع الرجل اسم نور الدين حتى ازدادت دهشته، لكنه اكتفى بأن ناول الرسالة لعلاء الذي فتحها بسرعة:

"بسم الله الرحمن الرحيم

ابني العزيز علاء..

أرجو من الله أن تكون قد التحقت بمدرسة النصر وسعدت بها، فلا تيأس أبدا واجعل الله سبحانه ملاذك دائما.. أعذرني على رداءة الخط وضيق الوقت، وفقك الله وسدد خطاك..

لا تنس الدعاء لجدك سعيد..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

إغرورقت عينا علاء بالدموع وهو يتذكر ذلك الشيخ الطيب، الذي أواه في منزله وعطف عليه، فسأل الرجل:

– أخبرني يا عمي، كيف كانت صحته؟ هل هو بخير؟

أجابه الرجل:

– في الحقيقة لم تتح لي فرصة الجلوس معه.. إذ التقيته قبل سفري بفترة قصيرة، وعندما علم بمروري من مدينة رياح، حمّلني هذه الرسالة..

ثم استطرد قائلا:

– يبدو أنه يفتقدك كثيرا، فهل تمت له بصلة قرابة؟

هز علاء رأسه نفيا:

– أبدا.. لكنه آواني في منزله بعد أن كنت ضائعا تائها، وقدم لي يد العون ..

فسأله الرجل باهتمام:

- وكيف وصلت إلى تلك الحال أصلا؟

فأجابه علاء بنبرة بثها ألمه:

- كنت برفقة والدتي وأخي الصغير مع جموع المهاجرين من مدينة شمس، وبعد أن مُنعنا من عبور منطقة الرمال، داهمتنا عاصفة شديدة وجدت نفسي وحيدا على إثرها.. تائها حائرا.. ومن لطف الله بي أن سخر لي الجد سعيد..

فهتف الرجل بعد أن تفرس في وجه علاء:

- يا لهذا الشبه الشديد بالقائد، سبحان الله ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ .. أنت علاء ابن القائد نور الدين منصور بلا شك!!

قفز قلب علاء من بين ضلوعه، وخارت قواه، فلم يكن ليحتمل هذه المفاجأة أيضا، لكنه سأله بصعوبة:

- وهل تعرف أبي يا عماه؟

ابتسم الرجل:

- كيف لا أعرفه وأنا صديقه صالح!

فسأله علاء بلهجة غير مصدقة:

- حقا!! هل أنت قادم من مدينة شمس؟؟

ثم انهال على الرجل بالأسئلة:

- كيف حال أبي، وهل تعرف أخبار أمي وأخي؟ هل حقا كانت هي المرأة التي استطاعت عبور الحدود والعودة إلى شمس؟ وكيف حال المدينة الآن؟؟؟

غير أن صالح قال له وهو يتجه نحو شجرة كبيرة على قارعة الطريق:

- لم لا نجلس قليلا فقد تعبت من الوقوف..

ووجد ياسر نفسه منجذبا للجلوس إلى جانب علاء، حيث انطلق صالح يروي جزءا يسيرا من حكايته، في حين احتفظ بالتفاصيل الباقية في ذاكرته..

بعد أن رحل معظم سكان مدينة شمس، اجتمع ثلة من الرجال بقيادة نور الدين في بيت مغمور في حين تابعت جيوش رامان توغلها للسيطرة على المدينة.. كانت الأفكار متضاربة والاقتراحات متشابكة فالوضع خطير جدا والاستسلام صعب عسير على ذوي النفوس الكبيرة. وأخيراً تكلم نور الدين :

- لا يخفى عليكم يا إخواني الموقف الصعب الذي نواجهه، فإمدادات العدو في تزايد مستمر، في حين أبطأت المناطق الاسلامية عن تقديم المساعدة لنا، رغم أن الخطر يهددنا جميعا، فما مدينتنا إلا نقطة الانطلاق لمخطط أسود حاقد قد ينال من مقدساتنا إن لم نفعل شيئا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. ونحن قد تعاهدنا على مواصلة المسير في سبيل الله، ولن نتراجع في هذه اللحظات الحرجة، المواجهة خطيرة وغير مجدية لكننا لن نعدم الحيلة؛ فنحن أبناء مدينتنا والأدرى بطرقها ومخابئها وحسبنا إن متنا فشهداء بإذن الله..

باشر الرجال مهماتهم بالهجوم على مراكز الأعداء، حتى قذفوا في نفوسهم الرعب، وفرقوا جموعهم بعون الله، فقتلوا الكثيرين منهم، مما أدى إلى تراجع في صفوفهم، وارتباك في تنظيمهم؛ بعد أن ظنوا أن المدينة خالية من أصحابها ورجالها..

وسقط الشهداء تلو الشهداء ولم يبق إلا القليل من الرجال..

وذات ليلة وبينما نور الدين مجتمع برجاله في إحدى الدور المهجورة، طرق سمعهم صوت جعلهم يكمنون على إثره في أماكنهم، وما لبث أن لاح لهم شبح يقترب من الباب، فهب نور الدين واقفا بهدوء مقتربا من الباب بحذر شديد، حتى التصق بالجدار المحاذي له..

خيم الصمت على المكان، وتسارعت النبضات، فمن يمكن أن يكون هذا القادم الغريب، ولا أحد غيرهم بقي في المدينة سوى الأعداء! وما إن هم القادم الغريب المجلل بالسواد الدخول؛ حتى انقض عليه نور الدين بغتة وكبله من ذراعيه فأسقط في يدي الأخير ولم يستطع الدفاع أو المقاومة، حتى جاءه صوت نور الدين الأجش يخاطبه بقوة:

- من أنت يا هذا؟ هيا تكلم!

عندها أنطلق صوت أنثوي يهتف فجأة:

- نور الدين.. الحمد لله الذي جمعني بك.. إنني أسماء.. زوجتك..

ولم تملك أن ارتمت على صدره تجهش بالبكاء..

خيم جو من الرهبة إجلالا لذلك الموقف المؤثر، بعد أن زال الوجوم وهدأت النفوس، وبعد أن هدأ روع أسماء والتقطت أنفاسها قالت:

- سامحني يا نور الدين، فلم أستطع الحفاظ على أطفالنا.. لقد ضاع علاء مني..

وخنقتها العبرات، فلم تستطع الاستمرار في الحديث، ثم جففت دموعها وقالت بصوت يقطر أسى ولوعة:

- مات بهاء في حجري يا نور الدين.. صدقني، لم أستطع فعل شئ له ..

وسالت أنهار الدموع غزيرة على خديها، فابتسم نور الدين يطمئنها بعينين مغرورقتين بالدموع رغم قلبه المفجوع:

- وما دخلك أنت يا عزيزتي! إنا لله وإنا إليه راجعون، قدر الله وما شاء فعل، لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شئ عنده بأجل مسمى، المهم الحمد لله على سلامتك أنت يا عزيزتي..

فقالت وهي تتقطع ألما وحسرة :

- لقد حُرمنا من عبور منطقة الرمال بحجة أننا لا نحمل رقع تجوال جلدية.. لم يعد لدينا مأوى، فتشتت شملنا وتفرق جمعنا وسار كل منا في طريق..

وأجهشت باكية:

- لم يعد لي هم في الحياة سوى أن أراك يا نور الدين بعد أن قررتُ العودة للمدينة، والحمد لله الذي استجاب لدعائي وجمعني بك..

لم يملك نور الدين ورفاقه بعد سماعهم لذلك الخطب الجسيم، إلا أن يقولوا مرددين:

- حسبنا الله ونعم الوكيل ..

نظر نور الدين إلى الرجال يقلب بصره بينهم:

- لقد سمعتم بأنفسكم عما لاقاه أهلوكم، وقد أغلقت المناطق الإسلامية المجاورة أبوابها دوننا، فلا تنتظروا العون من أحد، ولم يعد أمامنا سوى طلب العون من الله وحده وهو نعم المولى ونعم النصير..

وبعد أن استعادت أسماء رباطة جأشها نظرت إلى نور الدين تخاطبه بقوة وعزيمة:

- سأبذل قصارى جهدي لبذل المساعدة، وتستطيع أيها القائد أن تعهد إليّ بما تراه مناسبا، فلن أكون عبئا ثقيلا عليكم، إن شاء الله..

نظر نور الدين إلى زوجته نظرة إعجاب وتقدير، ممزوجة بحنان بالغ، ما لبث أن تلتها نظرة حزم صارمة فقال:

- تستطيعين إصلاح السهام وإعدادها..

رفعت أسماء كفها بحماسة من كان يتلهف لتقديم عمل نافع:

- أمرك أيها القائد..

ولم يمض على ذلك أكثر من عدة أيام، حتى فوجئ صالح - الذي كان يشارك ثائر في المراقبة ليلا- مما سمعه منه، فقال بتوجس:

- ما الذي تعنيه بالضبط يا رجل؟ ونحن في هذا الموقف العصيب؟

تنهد ثائر بألم:

- ألم تسمع ما قالته زوجة نور الدين! إذا كانت المناطق الإسلامية ترفض مجرد استقبالنا، فكيف يخطر ببالنا أن ننتظر منها مساعدة أو مدداً!! أتفهم خطورة موقفنا يا صالح.. إننا وحدنا أمام هذه الجموع!!!

فرد عليه صالح:

- وما الجديد في هذا الموقف!! ألم يخبرنا القائد بذلك من قبل!! لا أعرف ما الذي دهاك الآن يا ثائر.. دعنا نكمل عملنا بهدوء فإنني أخشى أن يفسد هذا الجدل مهمتنا، وتذكر أننا لم نصمد منذ البداية في وجه الأعداء لننتظر مساعدة من أحد، فحسبنا الله ونعم الوكيل..

هم ثائر بأن يقول شيئا، لكنه آثر الصمت وهو يدبر في نفسه أمرا لم ينتبه إليه صالح في ذلك الوقت..

مضت الأيام والمجاهدون الصامدون يلقون الرعب في قلوب أعدائهم فيلاحقونهم بضرباتهم المفزعة المفاجئة ناصبين الكمائن ومبتكرين الخطط لشل حركة العدو الذي كاد أن يصاب بالجنون، خاصة بعد تلك العملية التي كادت أن تفقده صوابه، فأصبح يتخبط على غير هدى عارضا أغلى الأثمان لمن يأتي بنور الدين حيا أو ميتا...

وفي ليلة مُحق قمرها، تم الاجتماع المحدد مسبقا بقيادة نور الدين، فأخذ يقلب بصره بينهم متسائلا عن تغيب ثائر، وعندما لم يجبه أحد تابع قائلا:

- خير إن شاء الله..

ثم استطرد:

– كونوا على أهبة الاستعداد والحذر، فإن قلبي يحدثني بمكيدة..

ولم يكد يتم عبارته، حتى انطلق صوتٌ فجأة هز أركان المكان:

– لا يتحرك أحد، فالمكان محاصر!

التصقت أسماء بزوجها الذي ربت على كتفها بحنان، وقال لها هامساً:

- لا تخافي..

ثم التفت إلى رفاقه وقال:

– لا يزال صوتهم بعيدا ولدينا بعض الوقت لكي نتصرف، ولأن نقتل فردا فردا دفاعا عن أنفسنا خير لنا من أن يظفروا بنا، فاحذروا من الوقوع في الأسر..

وأخذ وقع الأقدام يقترب أكثر، وإذا بصوت لا يخفى على أي منهم يدلهم على القاعة، فهتف إسماعيل بحنق:

– حسبنا الله ونعم الوكيل.. إنه ثائر! ليتني اكتشفت أمر ذلك الخائن من قبل؛ إذاً لقتلته شر قتلة.. حسبنا الله ونعم الوكيل..

ورغم الغضب الذي استبد بالجميع إلا أن نور الدين تدارك الموقف بقوله:

– إن الله لهم بالمرصاد، لا تهتموا بشأنه ولتفكروا بطريقة الخلاص..

فتكلمت أسماء رغم ما أصابها من ذعر:

– إذا تفرقنا واستطاع كل منا أن ينفذ من مخرج لشتتناهم، ولن يتمكنوا من ملاحقتنا جميعا، وإن قبض على البعض لا قدر الله، فسيفلت الآخرون بدلاً من أن نقع جميعنا في مصيدة واحدة..

لم يعترض أحد، إذ لم يكن هناك حل آخر في هذه اللحظات العصيبة، غير أن نور الدين أشار إلى خطة الانسحاب المدروسة مسبقا، وضرورة اللقاء في الخندق الكبير، قائلا:

- أرجو من الله أن لا يكونوا قد علموا بأمره بعد..

وبالفعل تسلل نور الدين وأسماء عبر إحدى النوافذ الخلفية يساعدهم الظلام الدامس في إخفاء تسللهم عبر الطريق، وعندما فُتح الباب ودخل الجنود برفقة ثائر الذي أكد لهم صحة كلامه، فوجئوا بخمسة رجال أشداء يهاجمونهم دفعة واحدة مندفعين إلى الخارج، فاستطاعوا إصابة اثنين منهم في حين هرب الباقون وساد الهرج والمرج المكان مما أثار جنون الجنود خاصة بعد أن قتل خمسة منهم على أيدي رجال نور الدين، ولم يتمالك أحدهم نفسه وهو يشاهد ما حل برفاقه، فطعن ثائر وهو في ذروة غضبه، متناسيا العهد الذي أخذه عليهم، فمات في الحال! أما صالح الذي شاهد ما حل به من مخبئ اختاره لنفسه، فقد شعر بألم عميق لمصير رفيقه كادت أن تنسيه خيانته لهم، غير أنه سرعان ما تذكر هدفه فأسرع يحث الخطا محتميا في الظلام..

قطع نور الدين برفقة أسماء شوطا لا بأس به، وهما يبتعدان عن المكان حسب الخطة، إلا أن أحد الجنود لاحظ الشبحين الهاربين فما كان منه إلا أن سدد سهما لم يخطئ هدفه، وصرخت أسماء من شدة الألم، وقد اخترق السهم ظهرها، فأسرع نور الدين يحملها وهو يجري محتميا بأحد الجدران، لكن الجندي استغل تلك الفرصة التي وجدها مواتية؛ فأسرع خلفه وسدد سهما آخر باتجاه نور الدين كاد أن يصيبه في مقتل، لولا أن سخر الله له صالح في اللحظة المناسبة، إذ شاهد ذلك الجندي فضربه ضربة قوية أردته قتيلاً..

وفي الخندق الكبير، جلس نور الدين إلى جوار أسماء محاولا مساعدتها دون أن يدري ما عليه فعله حقا أمام تلك الدماء النازفة سوى ضمها بقوة إلى صدره عله يوقف النزيف تاليا كل ما استحضره في ذهنه من آيات الشفاء، في حين أخذ صالح يبحث عن شيء ما حتى انتبه الى صوت عامر الذي وصل للتو:

- الحمد لله.. كيف حال القائد، ألم يحضر باقي الرجال بعد؟؟

إلا انه سرعان ما انتبه بإشارة من صالح إلى وضع أسماء الخطير حيث كانت تتنفس بصعوبة متأوهة من شدة الألم، فأسرع يستذكر مهاراته الطبية مستعينا بالله، حتى تمكن من إيقاف النزيف قبل أن تسوء حالها أكثر، وبسرعة عمد إلى تركيبته العشبية الخاصة التي أصبحت تلازمه دائما خاصة مع ازدياد الحاجة اليها في خضم المعارك الدامية، وبمهارة طبية بارعة تمكن من مداواة جرحها وتعقيمه بعد أن أزال آثار السهم، لكن الألم كان قد أخذ بأسماء كل مأخذ فأغشي عليها، فضمها نور الدين إلى صدره وقد انخلع قلبه من شدة الحزن عليها، غير أن عامر طمأنه بقوله:

- ستكون بخير- إن شاء الله- تفاءل خيرا أيها القائد، لقد نامت الآن وستكون بحاجة إلى الغذاء عندما تصحو لذا سأعده لها..

نظر إليه نور الدين بامتنان:

- جزاك الله خيرا يا صديقي..

انتبه صالح الذي أوغل في سيل ذكرياته على نحيب علاء الذي لم يتوقف:

- مات أخي بهاء!! وأصيبت أمي والخطر يتهدد أبي، ماذا بقي؟؟

و أخذ ياسر يشد على يدي علاء محاولا مواساته في حين أنه بدا في حالة يحتاج فيها لمن يواسيه، وهو يشهق بخفوت والدموع تسيل منهمرة من عينيه، فربت صالح على كتفه قائلا:

- أمك بخير يا علاء والحمد لله، ثم ما هكذا يستقبل الرجال الأخبار! لقد أوصاني والداك بأن أبلغك سلامهما، إن ما قابلتك وأطمئنهما عليك، فما عساي أن أقول لهما الآن؟

وبحركة خاطفة أخرج صالح زاجله من تحت ردائه، ووضعه أمام علاء متناولا قلما ولفافة صغيرة قائلا:

- ألا تريد أن تراسل والديك يا علاء؟ فصديقي سهم معتاد على العمل في كافة الظروف، ولا مانع لدي من إطلاقه ليلا..

لم يكن صالح واثقا من نجاح حركته تلك في التخفيف عن علاء، والتي كان مضطرا لها رغم تحفظه، حتى وجده قد انقلب فجأة إلى شخص آخر محاولا الظهور في أفضل حالاته:

- هل حقا أستطيع مراسلة والديّ الآن؟ أخبرهما يا عم أنني بخير وإن لم يكن لديك مانع فإنني أرغب في الكتابة اليهما عن ما حدث معي أيضا، وعن مدرسة النصر..

لم يتأكد صالح من جدوى تلك الطريقة في التخفيف وحسب؛ بل غدا واثقا من كونه لن يجد طريقة أفضل منها، لا سيما وقد تعدى أثرها علاء إلى صديقه ياسر، الذي تساءل بحماسة على غير عادته، بعد أن تركزت عيناه على سهم:

- هل لي أن أطلب منك خدمة يا عم..

وقبل أن ينتظر ياسر الإجابة؛ أطلق صفارته المعهودة، ليحط وديع على كتفه في لحظات، فربت ياسر على جناحه مخاطبا اياه:

- لقد حانت اللحظة التي عملنا من أجلها كثيرا يا وديع، وها قد آن أوان قطف ثمار التدريب الطويل..

فمسح وديع رأسه بوجه ياسر كمن يرد على كلامه متفهما، والتفت ياسر نحو صالح:

- هل تسمح يا عم لوديع بأن يرافق سهم في مهمته هذه؛ ليقوم بمهمة المراسلة بين علاء ووالديه فيما بعد، إن شاء الله؟

وسانده علاء بقوله:

- ياسر صديقي وهو يبذل جهده منذ وقت طويل لأتمكن من مراسلة والدي، حتى أنه التحق بمنظمة الحمام الزاجل لأجل هذا الغرض..

لم يدم ذهول صالح طويلا من ذلك التغير السريع في حال الصديقين، فابتسم مخاطبا ياسر وقد اطمأن بفراسته لسلامة ما هو مقدم عليه:

- بما أنك مشترك في منظمة الحمام الزاجل، فأنت تدرك بلا شك أهمية الحفاظ على الأسرار، ولا يخفى عليك خطورة الدور الذي سيؤديه وديع في مهمة كهذه!

فأومأ ياسر برأسه متفهما:

- أعرف قصدك يا عم فثق بي ولن أخيب ظنك أبدا، إن شاء الله..

مد صالح يده وصافح ياسر- الذي شعر بعظم المسؤولية - وهو يشد على يديه بقوة قائلا:

- اتفقنا..

ثم استطرد:

- هل يستطيع وديع مباشرة المهمة الآن؟

فالتفت ياسر نحو وديع وربت على جناحه باسما، ثم قال:

- أجل بعون الله، لقد تدرب على الطيران من قبل في معظم الظروف المحتملة نهارا وليلا، إضافة إلى كونه حصل على المركز الثاني في سباق المنظمة وقد بلغت سرعته ثلاثمائة ميل في اليوم باستراحات قصيرة..

أبدى صالح إعجابه بما سمعه فعلق مستبشرا:

- ما شاء الله، حسن جدا، هذا يعني أن الرحلة لن تستغرق منه أكثر من ثلاثة أيام حتى يصل إلى هناك بإذن الله..

فابتسم ياسر بفرح:

- إن شاء الله..

وأخرج من جيب سترته لفافة وقلما، ناولهما لعلاء قائلا:

- اكتب لوالديك هنا يا علاء، فقد كنت انتظر هذه اللحظة من وقت طويل لذا تراني متأهبا لها، دون أن أدري أنها ستحين بأسرع مما أتوقع، فالحمد لله..

لم يصدق علاء أن ما كان يظنه من الأمنيات البعيدة قد يتحقق أمامه بهذه السهولة، فأمسك القلم وبدا محتارا فيما يكتبه بداية في لفافة صغيرة كهذه، غير أن صالح نبهه بقوله:

- اختصر قدر الإمكان، فلا مجال للرسائل المطولة في بريد الحمام الزاجل، حاول أن لا تزيد عن عشرين كلمة..

وبعد تفكير كتب علاء:

" أمي أبي أسأل الله أن تكونا بخير، أنا بخير والحمد لله، التحقت بمدرسة النصر للفروسية في مدينة رياح منطقة الجبال، وهذا وديع زاجل صديقي ياسر،اطمئنا علي، علاء."

وأمام نظرات صالح التي حاولت تقييم الرسالة، قال علاء:

- لا مجال للاختصار أكثر..

فهز صالح رأسه:

- حسنا لا بأس..

وقبل أن ينهي ياسر لف رسالة علاء وتثبيتها حول ساق وديع، كان صالح قد أنهى كتابة رسالته التي خبأها وثبتها بإحكام تحت جناح سهم، لينطلق الزاجلان معا، وكأنهما أدركا ما يعنيه عقد الشراكة الذي جمعهما في مهمة واحدة، في حين تبعتهما العيون حتى واراهما الظلام..

ذرفت عينا ياسر:

- استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه يا وديع، الحمد لله الذي أجاب دعائي وحقق رجائي، فيا رب سهّل اتمام هذه المهمة بالخير..

التفت علاء إلى صالح الذي لم يتبين ملامح وجهه بعد:

- ما الذي تنوي فعله الآن يا عمي؟

فأجابه صالح:

- لدي بعض الأمور التي أود إنجازها بسرعة، إن شاء الله..

ومد يده مصافحا علاء بطريقة توحي بعزمه على الذهاب:

- بإذن الله ستكون أخبار والدك عندك في خضم خمسة أيام، تزيد أو تنقص حسب الظروف التي تواجه وديع، لذا اطمئن وثق بالله، استودعك الله يا علاء..

غير أن علاء تشبث به كمن يحاول الامساك بآخر شعرة تربطه بمدينته:

- لم لا تبيت الليلة معنا في المدرسة ياعم!

كما استوقفه ياسر أيضا:

- أظن أن عليك الانتظار لحين عودة سهم يا عم! أليس كذلك؟

ابتسم صالح:

- بالطبع لا، فسهم يستطيع الوصول إليّ أينما كنت، بإذن الله..

فهتف ياسر بدهشة:

- حقا!!

فربت صالح على كتفه مشجعا:

- واصل التدريب مع وديع وسيصل إلى أبعد مما تتخيل- بإذن الله- فالحمام الزاجل من أذكى الحيوانات على الاطلاق، ووديع لا يختلف عن سهمٍ بشيء..

أما علاء الذي كان يستحضر في ذهنه جميع وسائل الإقناع الممكنة، لعله ينجح في إبقاء صالح معهم أكثر فقد قال بتوسل:

- أرجوك يا عم، أود تعريفك إلى المعلمين والمدربين في المدرسة، سيسرون لرؤيتك كثيرا..

وصمت قليلا قبل أن يتابع برجاء:

- أتمنى أن تتمكن من حضور اختبار الارتقاء، الذي سأخوضه غدا- إن شاء الله- أريدك أن تحدث أبي عني فيطمئن! وأعدك أنني لن أؤخرك بعدها عن عملك..

عندها لمعت عينا صالح ببريق غريب، قبل أن يرد بالموافقة وقد أدرك تماما ما يعنيه وجوده لعلاء، وقد أصبح بمثابة أهله الذين يفتقدهم منذ شهور، لا سيما وأنه ليس أول رجل يقابله من مدينته في منطقة الجبال وحسب، بل إنه صديق والده المقرب أيضا.. حتى ان من يرى علاء وهو يحدّث صالح عن أصدقائه وعن المدرسة، وهما في طريقهما إليها، يشك بأنه لم يلتقيه إلا للتو! وقبل أن يصلا المدرسة، توقف علاء قليلا كمن يهم بالسؤال عن أمر يشغل باله كثيرا، ثم قال:

- هل صحيح ما ذُكر عن حصول فرقة نور الدين على وثيقة هامة؟

ورغم وقع تلك الكلمة المباغتة على صالح وما تركته من أثر على معالم وجهه، إلا أنه سأل علاء بهدوء:

- ومن أين سمعت عن هذا؟

فأجابه علاء باقتضاب:

- من أحد أصدقائي!

فسأله صالح بدوره:

- وهل أخبرك صديقك بما تحويه تلك الوثيقة؟

عندها شعر علاء بأن صالح لا يود البوح بما يعرفه عن ذلك الموضوع في الوقت الراهن، لكنه تأكد على الأقل أنه قد يكون للموضوع أساسا من الصحة، فلم يزد على قوله:

- أجل..

أما صالح الذي أدرك ما يدور بخلد علاء، فقد اكتفى بالصمت دون أن ينبس ببنت شفة..

***

فتح علاء عينيه على صوت حسام:

– متى عدت؟ لقد ظنناك ستبيت الليلة عند ياسر، هيا إلى السحور..

فهب علاء من سريره هاتفا:

– أين العم صالح؟ هل كان حلما؟؟

وبسرعة غسل وجهه وخرج من الغرفة، نازلا على الدرج قفزا، غير مكترثٍ لنداءات حسام المتسائلة خلفه، حتى وصل إلى الدور الأول فاتجه إلى الغرفة التي قاد إليها المشرف عاطف صالحا ليبيت فيها ليلته، وبعد أن طرق الباب ثلاث طرقات فتحه بهدوء ليفاجأ بالغرفة خالية، فأشعل مصباح الزيت الكبير بسرعة ليضيء المكان بقوة تضاهي أشعة الشمس، وأخذ يدور في أرجاء الغرفة كالأم المفجوعة التي فقدت ابنها الصغير، فهي تبحث على غير هدى عن أي دليل يوصلها إليه! حتى انتبه على صوت حسام الذي تبعه:

– ماذا أصابك يا علاء، هل حدث شيء؟ خيرٌ إن شاء الله!

فتهاوى علاء على مقعد قربه يلتقط أنفاسه المتهالكة:

– لا أظنه حلما يا حسام، لقد كان حقيقة أنا متأكد من ذلك، لقد جاء معي العم صالح أمس، ولا أدري كيف تبخر هكذا!

عندها التفت الاثنان إلى صوت قادم من باب الغرفة:

– ظننتك أكثر رباطة جأش يا علاء! هذه المرة الثانية.. فماذا عساي أن أقول لوالديك الآن!!

بدا صالح أصغر مما ظنه علاء بالأمس بعشرين سنة على الأقل، بعد أن اغتسل وامتشط، وخلع رداءه الواسع الذي أخفى قوامه الممشوق وعضلاته المفتولة، فظهر بكامل شبابه وفتوته، في حين أشارت لحيته السوداء الخفيفة إلى أنه لا

يزال في مطلع العقد الثالث من عمره، ورغم الخجل الذي ساور علاء من تصرفه المتسرع إلا أن وجهه تهلل فرحا:

- الحمد لله أنه لم يكن حلما..

فضحك صالح في حين التفت حسام إلى علاء متسائلا:

- ألا تشرح لي ما يحدث هنا يا علاء!

فبادره صالح بقوله:

- أظن أنه من الأفضل لكما أن تتناولا كسرة خبز أو شربة ماء على الأقل قبل أذان الفجر..

فانتبه حسام وأسرع يشد علاء من يده خارجا من الغرفة:

- هيا يجب أن تتسحر جيدا، فاليوم اختبارك الذي انتظرته طويلا يا علاء..

فاستوقفهما صالح مشيرا إلى المائدة التي أعدها له المشرف عاطف:

- من الأفضل أن تتسحرا هنا بسرعة بدلا من إضاعة الوقت، فلم يبق إلا لحظات قليلة..

لم يكد علاء ينهي شرب كأس الماء بعد أن تناول ثلاث تمرات فقط، حتى ارتفع صوت أذان الفجر معلنا الامساك عن الطعام..

***

أخذ علاء يلف عمامته الرمادية حول رأسه باهتمام شديد، وهو في غاية الحيوية والنشاط والحماسة، وفي عقله تدور مئات الأفكار، في حين تولى حسام شرح ما حدث لطلال، الذي كان مستاءً في البداية لتأخرهما عن وجبة السحور في يوم هام كهذا خاصة لعلاء..

وكمن اهتزت السنارة في يده فجأة مشيرة إلى صيد ثمين، هتف حسام بحماسة:

- ربما يكون لمقدم صالح من المروج الخضراء علاقة بالوثيقة يا علاء، ألم تسأله عنها؟؟

فتوقفت يدا علاء لبرهة عن لف العمامة ثم تابع إحكام لفها حول رأسه بعد أن أخرج ذؤابتها قائلا بنبرة لا تخلو من خيبة أمل:

- لا أظنه يرغب في الحديث عن ذلك..

واستطرد:

- للأسف يبدو أنه لا يثق بي بما يكفي ليخبرني عن أمرٍ كهذا، فضلا عن المهمة التي جاء من أجلها..

فقال طلال:

- الموضوع ليس موضوع ثقة كما تظن يا علاء، إنه يتعلق بسرية المهمة، وهذا أمر متوقع بل وطبيعي جدا..

ونهض متجها نحو باب الغرفة قائلا:

- من الأفضل أن ندرك صلاة الفجر فسترفع الإقامة للصلاة بعد قليل..

ثم القى نظرة مشجعة لعلاء:

- اليوم هو اختبارك يا علاء وسيحضره صديق والدك بلا شك، فابذل جهدك يا صديقي..

أضاف حسام باسما:

- لا بد أن تنقل صورة مشرفة لوالديك عنك، هذه فرصتك يا أخي..

فقال علاء:

- إن شاء الله..

***

قُضيَت صلاة الفجر وبادر علاء بالقيام بمهمة التعارف بين الشيخ عبد الرحيم وصالح، الذي لم يفته ملاحظة العلاقة المميزة بين الشيخ عبد الرحيم وعلاء وأصدقائه، والتي تعدت علاقة الشيخ العادية بتلاميذه لترتقي إلى علاقة حميمة بين أبٍ عطوف رحيم وأبناء أوفياء يعدونه محل ثقتهم، وكأي مغترب متلهف لسماع أخبار أهله؛ سار علاء إلى جانب صالح، بعد أن خرجا من الجامع، يحاول الاطمئنان على أبويه والسؤال عن أحوال مدينته قدر المستطاع، وسرعان ما اشترك الاثنان في حوار تحرر فيه صالح من تحفظه بقدرٍ محدود، ورغم تلك الألفة التي نشأت بينهما، إلا أنه كان لصالح هيبة حالت بينَ علاء وبين السؤال عمّا يجول بخاطره من أمر الوثيقة، لكنه بوغت بسؤال صالح المفاجيء:

– من هو صديقك الذي حدثك عن الوثيقة؟

فأجابه علاء الذي أُخذ على حين غرة:

– إنه صديقي حذيفة ابن المعلم عامر، الذي حدثتك عنه والذي التقيته في منطقة السهول، لقد أرسل إلي رسالة أخبرني فيها عنها..

فهز صالح رأسه:

– هكذا اذن!

ثم استطرد متسائلا:

– هل يمكنني رؤية الرسالة؟

فأجابه علاء:

– بالتأكيد، إن شئت سأذهب لأحضرها لك الآن بسرعة وقبل بداية الدرس، فما زال هناك متسع من الوقت قبل شروق الشمس..

غير أن صالح استوقفه قائلا:

– لا بأس سأراها فيما بعد– إن شاء الله– فلست مستعجلا على ذلك..

وصمت قليلا قبل أن يتابع قائلا:

– هل هناك من يعرف بأمر الوثيقة سواك هنا؟

فهز علاء رأسه نفيا:

– لست أدري إن كان خبرها قد انتشر أم لا، لكنني لم أسمع عنها إلا من رسالة حذيفة، ولم أخبر أحدا بذلك سوى صديقاي في الغرفة حسام وطلال، بالإضافة إلى الشيخ عبد الرحيم، وهم موضع ثقةٍ وحفظٍ للأسرار..

قال صالح:

– خيرا فعلت، فمن الأفضل أن لا يتجاوز الموضوع أربعتكم في الوقت الراهن..

نظر إليه علاء بعينين متسائلتين، فاكتفى صالح بابتسامة قائلا:

– هل اعددت نفسك جيدا لاختبار اليوم؟ إنني في شوق لرؤية ابن القائد نور الدين، فارسا يفتخر به!

ابتسم علاء:

– كم أنت ماهر في إدارة كفة الحديث للوجهة التي تريدها يا عم صالح..

و علق مازحا- وقد ألف صالح بشكل أكبر من ذي قبل:

– أم أقول يا صالح! فلا أظنك أكبر مني بكثير لتكون عماً!!

فضحك صالح:

– كوالدك تماما، لا يفوته شيء ما شاء الله، إن شئت فأنا عمك وإن شئت فأخوك الكبير، كلاهما سيان عندي يا بني..

وضحك الاثنان وقد بديا كأخوين حقيقين التقيا بعد غياب طويل..

وأخيرا قال صالح:

- على كل حال لقد أشرقت الشمس وسيبدأ درسك الأول بعد قليل..

فشد علاء على يده باسما:

- إذن موعدنا بعد صلاة الظهر في الساحة الخلفية للمدرسة إن شاء الله، ولا تنسني من دعائك يا أخي الكبير..

فابتسم صالح:

- إن شاء الله، وعليك بذل الجهد لأرى كيف تبدو العمامة الخضراء على أخي الصغير..

ومضى علاء وتبعته نظرات صالح الذي قاوم لهفته لقراءة الرسالة ومعرفة ما تحدثت به عن الوثيقة، وقد مثلت أمامه أحداث ذلك اليوم كاملة..

كان نور الدين مجتمعا بمن نجا من الرجال في الخندق الكبير، عندما أخرج الوثيقة ووضعها أمامهم قائلا:

- لقد كلفتنا عملية الحصول على هذه الوثيقة الكثير، ولن تهدأ رامان قبل استعادتها والقضاء علينا جميعا، فإن لم نستفد منها حسب المخطط بسرعة؛ فقد نخسر الجولات القادمة لتضيع شمس كلها، بل المروج الخضراء بأكملها لا قدر الله، فهي الورقة الأخيرة بيدنا الآن، ونحن بأمس الحاجة لتدخل المناطق الاسلامية مجتمعة..

قال عامر:

- لا أرى أفضل من صالح لإنجاز هذه المهمة، فهو ماهر بالتسلل، وأكثرنا شبابا، وزاجله سهم سيوافينا بالأخبار..

وأكد اسماعيل كلامه:

- وأنا أوافقك الرأي..

فالتفت نور الدين نحو صالح الذي جلس صامتا يفكر بعمق:

- ماذا تقول يا صالح؟ إننا نثق بك وبرجاحة عقلك وحسن تصرفك، ولن تعدم الحيلة في إثارة اهتمام المناطق الاسلامية لعلها تفيق من غفلتها وتنتبه الى ما يحدق بها من خطر، فتنجو وننجو جميعا..

تنفس نور الدين نفسا عميقا قبل أن يتابع:

- إن نجحت في المهمة فهذا ما نأمله ونرجوه، وإن لم تسر الأمور كما خططنا فحسبنا الله ونعم الوكيل وموعدنا الجنة، إن شاء الله..

فما كان من صالح إلا أن نهض حابسا دمعة حدثته بأنه قد يكون الخطاب الأخير الذي يتلقاه من قائده، وقال بعزيمة وثبات:

- سأبذل جهدي، إن شاء الله، ولا تنسوني من صالح دعائكم..

و تناول الوثيقة التي خبأها بحذر في طيات ملابسه، كما تختبئ روح الانسان في جوانحه، بل إنها كانت بالنسبة له أغلى من الروح في الجسد، ما دامت مرتهنة بنجاة بلاده وقومه، بل وأمته جمعاء..

ومضى صالح في مهمته بعد أن ألقى نظرة الوداع- التي ارتعش منها خشية أن تكون الأخيرة- على أسماء زوجة قائده التي أنهكتها الجراح، وهي توصيه بدموع عينيها:

- انتبه لنفسك، وإن قدر الله لك الالتقاء بولدي علاء فبلغه سلامي وشد من أزره..

حتى عناقه لرفيقيه عامر واسماعيل، بدا مختلفا عن أي وقت مضى رغم الصعوبات التي واجهتهم، أما عناقه الطويل لقائده، الذي كان يعده بمثابة أخيه الأكبر ومعلمه بل وصديقه الحميم نور الدين منصور، فقد حمل معنى آخر لم يشأ صالح فهمه أبدا..

***

أخذ حسام يعيد على مسامع علاء بعض الارشادات والتوجيهات التي قد تساعده في اجتياز الاختبار، و قبل أن يذهب مع طلال ليجدا مكانا مناسبا لهما للمشاهدة وسط الحاضرين، قال طلال مسديا لعلاء نصيحته الأخيرة:

– تذكر أن الوقت المخصص لكل مهارة محدود، فإن لم تنجز المهارة المطلوبة في وقتها المحدد فلا تقلق وانطلق إلى المهارة التالية بهدوء وتوازن، دون أن تشغل نفسك بما قدمته سابقا..

فابتسم علاء شاكرا:

– إن شاء الله سأبذل ما بوسعي من جهد..

وتابع سيره مصطحبا فرسه أصيلة إلى الساحة الخلفية، والتي جُهزت خصيصا لاختبار الارتقاء لهذا اليوم، حيث ألغيت جميع التدريبات للمستويات الأخرى، مما أتاح فرصة لا تعوض لجميع الطلبة لمتابعة الاختبار مباشرة من خلف الحاجز الذي سوّر الساحة من جهاتها الأربع، حتى المعلمين لم يكونوا ليفوتوا فرصة كهذه، فجلسوا في الصفوف الأمامية من المصاطب العالية التي نُصبت لأجل هذا الغرض، متحلقين حول المدير شامل ومساعده حازم إلى جانب من حضر من الضيوف بمن فيهم صالح، الذي بدت نظراته المتفحصة للمكان في غاية الرضا والارتياح. وما إن وصل المرشحون الأربعة في الموعد المحدد تماما بعد صلاة الظهر حتى علا الهتاف والتكبير وسط حماسة كبيرة بين الطلبة تحديدا، رفع نضال رايتها وهو يهتف لعلاء بحرارة:

– هيا تشجع باسم الدين.. يا ابن القائد نور الدين..

فالتفت إليه قاسم متسائلا:

– هل هذه أهازيج ذات معنى أم ماذا!!!

فعلق زياد:

- يظن بأنه إن كان ماهرا في الرماية كحسام، فهو قادر على نظم الأشعار مثله أيضا!!

فالتفت إليه نضال باسما:

- لقد سمعتك، ولكنني لن أدعك تفسد علي متعتي بالتشجيع..

وأخذ يهتف من جديد، حتى كاد أن يبح صوته..

وفي وسط الساحة الكبيرة حيث نصبت أربعة أعلام مختلفة الألوان في أركانها الأربعة المتباعدة على مسافات متساوية، وقف علاء إلى جانب أصيل وحسان وياسر، وقد اصطحب كل واحد منهم حصانه، أمام المدرب عادل المشرف العام على تنظيم سير الاختبار، والذي ما إن بدأ بالكلام؛ حتى هدأت الأصوات لتستمع إلى خطابه الموجه للجميع بشكل عام، وللمرشحين بشكل خاص:

- اليوم هو السابع عشر من رمضان، والذي يصادف ذكرى غزوة بدر، فاستشعروا هذه المعاني العظيمة وجددوا نيتكم في خوض هذا الاختبار، لعل الله أن يكتب على أيديكم فتحاً مبيناً ونصراً عظيماً يعز فيه الاسلام والمسلمين..

ثم التقط نفسا قبل أن يعيد على مسامعهم طريقة الاختبار موضحا، وهو يشير بيده إلى الأعلام الأربعة، حيث وقف على مقربة من كل واحد منها أحد المدربين:

- كل علم يقابل مهارة معينة، فالعلم الأبيض يقابل مساحة الصراع والمشابكة، والأصفر يقابل مساحة الرماية، والأسود يقابل المبارزة، وأما العلم الأخضر فيقابل المساحة المخصصة للمطاعنة بالرماح، ومدى قدرتكم على التحكم في جيادكم بشكل كبير، وسيكون التكبير هو الاشارة إلى انتهاء كل فترة محددة لاجتياز مساحة المهارة، فإذا سمعتموه فعليكم أن تتجهوا فورا إلى الركن التالي متبعين المسار على يمينكم حتى تجتازوا الأركان الأربعة..

كان علاء يتابع باهتمام شديد كل ما يقوله المدرب عادل حتى لا يفوته شيء، محاولا أن يطبع في ذاكرته سير الاختبار حتى لا يرتبك أثناءه، مرددا بينه وبين نفسه

ما يقوله المدرب عادل ليستذكره وهو يجول ببصره في أنحاء الساحة المترامية الأطراف:

- العلم الابيض يقابل الصراع والمشابكة حيث يقف المدرب عمر، والأصفر عند الرماية حيث المدرب سعد، والأسود يقابل المبارزة مع المدرب جهاد، والعلم الأخضر يقابل المطاعنة بالرماح حيث المدرب علي، ولكن أين المدرب ثابت!!

لكنه سرعان ما انتبه له وقد امتطى صهوة جواده وبدا مستعدا لتقييم ركوب المرشحين الأربعة في آن واحد، وبعد أن انهى المدرب عادل كلامه سألهم:

- هل من استفسار قبل أن نبدأ؟

فاستأذن أصيل وقد بدا متوترا بعض الشيء:

- ولكن ماذا علينا أن نفعل في كل ركن؟

فأجابه المدرب عادل مطمئنا:

- سيخبرك المدرب المسؤول هناك بالمهمة المطلوبة منك عندما تصل إليه، فلا تقلق..

ثم أخرج أربعة أسهم متشابهة أخفيت أطرافها السفلية وأزيلت رؤوسها الحادة، قائلا:

- سنجري اقتراعا بينكم لتحديد نقطة البداية الخاصة بكم، فليختر كل واحد منكم سهما..

فكان السهم ذو الطرف الأصفر من نصيب علاء في حين كان الأبيض من نصيب أصيل، أما الأخضر والأسود فقد كانا من نصيبي ياسر وحسان على التوالي..

وبعد أن تأكد المدرب عادل من توجه كل واحد منهم إلى نقطة الانطلاق الخاصة به عند العلم الذي يحمل لون سهمه، ووقوفه إلى جانب حصانه على بعد

خطوة واحدة كما هو مقرر، هتف بتكبيرة عالية معلنا الإنطلاقة لتتزامن مع قلبه للساعة الرملية الخاصة بالاختبار والتي بدأت حباتها تشير إلى مرور الوقت..

قفز علاء ممتطيا فرسه ومشى خببا نحو ركن الرماية القريب منه، ليستقبله المدرب سعد راميا له قوسا مع جعبةٍ حَوَت عشرة سهام، قائلا وهو يشير إلى خطٍ رُسم على الأرض:

- هيا انزل عن فرسك يا علاء وقف عند هذا الحد، لديك عشرة أسهم وعشرة أهداف، فحاول أن تصيبها من مكانك هذا بالوضعية التي تختارها أنت، فابدأ على بركة الله..

قال جملته الأخيرة وهو يشير إلى عشرة أهداف متفرقة نصبت على مسافات مختلفة في المدى المتوسط..

التقط علاء نفسا طويلا، وهو يستذكر كل ما تعلمه وأخبره به حسام تحديدا عن مهارات الرماية وأوضاعها، سمى بالله وشد وتر قوسه مصوبا نحو أقرب وأكبر هدف رآه، ثم أطلق سهمه فأصابه فحمد الله مستبشرا خيرا، ثم تناول السهم الثاني وركز ناظره نحو الهدف التالي، ذي الحجم الأكبر والمسافة الأبعد فأصابه أيضا، وعندما تناول سهمه الثالث؛ تردد قليلا في اختيار الهدف ثم صوّب نحو هدف متوسط الحجم مثلث الشكل نُصب في مكان يصنع زاوية مع الحد الذي يقف عليه، فأخذ علاء يحاول قدر استطاعته اختيار أفضل وضعية يستطيع من خلالها إصابة الهدف بدقة؛ غير أنه تذكر مرور الوقت فأطلق سهمه ليخطئ الهدف، فارتبك علاء قليلا، لكنه أسرع بتناول سهم جديد وجهه إلى هدف آخر أصغر حجما لكنه في موقع مباشر، فأصابه وانتقل إلى السهم التالي بسرعة، فصوبه نحو هدف بعيد إستطاع إصابة طرفه فقط، فتناول السهم السادس مع سماعه تسبيحات المدرب عادل، التي تنبئ عن اقتراب نهاية الوقت المحدد للمهارة الأولى، فأطلق السهم داعيا الله متوسلا إليه بسره أن يصيب غايته فأصابها، ثم تناول السابع بسرعة وصوبه، وقد بدا أسرع في تثبيته واختيار وضعيته المناسبة، بل وأكثر تفاؤلا فأصاب هدفه بسرعة، ومع تناوله السهم الثامن أطلق المدرب عادل تكبيرته، وأطلق علاء سهمه

نحو هدفٍ لم يتأكد من مدى إصابته له، إذ كان عليه ان يسرع بامتطاء فرسه ليجري مسرعا نحو ركن الصراع والمشابكة المقابل للعلم الأبيض، وعندما حاول القفز عن فرسه ليواجه المدرب عمر؛ علقت قدمه بالسرج لكنه تدارك نفسه ونجح في الحفاظ على توازنه، وهو يقفز إلى الأرض، لينتصب واقفا في مواجهة المدرب عمر الذي استقبله بقوله:

– عليك أن تحاول إصابة جسدي بضربات مباشرة بيديك أو قدميك، وفي الوقت نفسه حاول أن تصد ضرباتي وتتجنبها وإياك والسقوط، اتفقنا!

فهتف علاء بحماسة وهو يأخذ وضعية الاستعداد:

– أنا مستعد..

فقال المدرب عمر وهو يقف بهدوء على بعد ثلاثة أذرع منه:

– إذن هيا إبدأ الهجوم على بركة الله..

فانطلق علاء بكل قوته مندفعا نحو المدرب عمر وهو يوجه له ضربة بسيف يده، وفي اللحظة التي كاد أن يلمس فيها كتفه؛ قفز المدرب عمر للوراء برشاقة، فالتف علاء حول نفسه ووجّه له ضربة سريعة بقدمه تلافاها المدرب عمر.. وتتابعت هجمات علاء السريعة حتى تقطعت أنفاسه دون أن يفلح بأصابة أصبع واحد من جسد المدرب! فوقف قليلا يلتقط أنفاسه اللاهثة، ففاجأه المدرب بضربة كادت أن تسقطه أرضا، غير أنه سرعان ما تدارك نفسه قافزا في الهواء، وبضربة خاطفة من قدمه تمكن من لمس طرف ذراع المدرب قبل أن يرجع للوراء مبتسما:

– هذه واحدة، فأين أخواتها؟

فتشجع علاء وهو يشد عليه بحماسة محاولا أصابته بضربات متلاحقة ومتتالية بالتناوب من يديه وقدميه غير أنه فوجيء بضربة مباغتة من المدرب عمر أفلح بتفاديها بصعوبة، ليتحول على اثرها من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، حتى أعلن المدرب عادل انتهاء الوقت بتكبيرة مجلجلة، فاتجه علاء صوب فرسه ليجري مسرعا

نحو ركن المطاعنة بالرماح وعندما هم بالقفز من فوق حصانه، أتاه صوت المدرب علي آمرا، وهو يقذف نحوه رمحا طويلا استطاع علاء التقاطه بمهارة:

- ابق على صهوة جوادك ووجه رميتك نحو ذاك الهدف حتى تطرحه أرضا..

وأشار إلى ما يشبه التمثال الخشبي، المثبت على قاعدة متأرجحة مقوسة كالقارب، تبعد عشرين ذراعا عن المكان المحدد للوقوف، فأمسك علاء الرمح من وسطه بيده اليمنى، مصوبا إياه نحو الهدف، في حين أمسك اللجام بيده اليسرى محاولا تثبيت نفسه فوق ظهر الفرس التي كادت أن تخل بتوازنه بحركتها المستمرة، إلى أن تمكن من السيطرة عليها، وبعد أن تأكد من استعداده التام واتخاذه أفضل وضع يمكنه من خلاله تحقيق غايته بدقة؛ شد ساعده ورمى مسميا بالله فتمكن من اصابة الهدف والتسبب في أرجحته بقوة غير أنه لم يستطع إيقاعه، فناوله المدرب علي رمحا آخر قائلا:

- عليك أن تحاول إصابته الآن بقوة وأنت تدور بفرسك حوله في هذه الدائرة!

وأشار إلى دائرة رسمت على الأرض حول النصب الخشبي، و لا يزيد نصف قطرها عن عشرين ذراعا..

التقط علاء نفسا عميقا، وضرب برجله بطن الفرس، التي أخذت تجري على المسار حسب توجيه علاء، وبعد أن أكمل دورة كاملة استطاع من خلالها التحكم بالفرس؛ سدد رمحه وهم بالتسديد غير أنه تراجع بعد أن خشي من إخطاء الهدف، لا سيما وأن الدوران حول المركز أشعره بنشوء قوة إضافية قد تؤثر على مسار الرمح، فدار دورة أخرى وهو يوجه بيده الرمح نحو الهدف حتى تأكد من قدرته على التسديد، فأطلقه بقوة مكبرا ليهتز التمثال الخشبي بقوة أمام نظرات علاء المتوسلة، غير أن المدرب علي فاجأه برمح قذفه نحوه قائلا:

- هيا أجهز عليه بهذا يا علاء بسرعة..

فالتقط علاء الرمح الثالث، وصوبه مباشرة نحو التمثال المتأرجح، فسقط من فوره وكبر علاء فرحا، وهو يسمع تكبيرة المدرب عادل الذي أعلن نهاية الفترة المخصصة، فانطلق علاء نحو الركن الأخير، حيث وقف المدرب جهاد شاهرا سيفه بيده اليمنى، واستقبله هاتفا- وهو يناوله السيف الذي كان يحمله بيده اليسرى:

- هيا ترجل أيها الفارس عن فرسك، وأرني مهارتك..

وبحركة بارعة اتخذ علاء موضعه وشهر سيفه، ليواجه المدرب جهاد في مبارزة حامية الوطيس..

كان مشهدا مثيرا أثبت فيه علاء قدرته بجدارة، وهو يوجه ضرباته المتلاحقة بالسيف نحو المدرب جهاد، ومن ثم يصد الضربات الموجهة إليه بمهارة فائقة، حتى أعلن المدرب عادل نهاية الإختبار، فأغمد علاء سيفه وصافح مدربه الذي ابتسم في وجهه مبشّرا:

- أحسنت صنعا أيها المقدام بإذن الله..

فابتسم علاء بسعادة، ثم انتبه إلى كلمات المدرب جهاد، فهتف مستدركا:

- أتعني أنني ارتقيت إلى مرتبة مقدام حقا يا مدربي؟؟

فابتسم جهاد معلقا:

- ستعلن النتائج بعد العصر إن شاء الله، ولكن تفاءلوا بالخير تجدوه..

وبعد أن وجه المدرب عادل كلمته الختامية، والتي أعلن فيها موعد إعلان النتائج، انسحب المدربون من الساحة، متجهين نحو غرفة الاجتماعات الخاصة بهم في المدرسة، ليعقدوا اجتماعهم الخاص بإمرة المدرب جهاد، والذي ستحدد من خلاله نتائج المرشحين قبل إعلانها..

التقط المرشحون الأربعة أنفاسهم، وهم يطمئنون على أحوال بعضهم البعض، في حين هرع حسام وطلال وبقية الأصدقاء نحوهم، وكان نضال أول من قفز جريا نحو علاء مهنئا بحرارة:

- لقد كنت رائعا حقا يا علاء، أنت فعلا ابن القائد العظيم نور الدين، لقد ورثت شجاعته وقوته بجدارة، ما شاء الله..

فابتسم علاء:

- شكرا لك يا نضال ولكن النتائج لم تظهر بعد!

فقال نضال:

- وهل تشك في نجاحك يا علاء! كفاك تواضعا!! لو كنتُ أمير المدربين لرشحتك للمركز الأول وأنا مغمض العينين!!

فلم يزد علاء على الابتسام، في حين قال حسام باسما:

- بغض النظر عن مبالغات نضال المعهودة، لقد كنت رائعا فعلا يا علاء قياسا لكونك لم تمض في مرتبة همام سوى ثلاثة أشهر ما شاء الله!

فتدخل أصيل معلقا:

- مهلا مهلا، ألا تلاحظ أن في كلامك هذا إهانة لبعض الموجودين هنا!!

فاستدرك حسام:

- أنت تفهم قصدي يا أصيل!

فضحك أصيل:

- وأنت تفهم مزحي يا حسام!

قال ياسر- الذي بالكاد استعاد قواه المنهكة تماما:

- أتمنى أن أكون قد أحرزت درجة النجاح على الأقل في المبارزة، لقد كانت ضربات المدرب جهاد قوية جدا!

فابتسم حسان معلقا:

- خذ بعين الاعتبار أنه لم يكن يبارزك بكامل قوته أيضا!

تنهد ياسر:

- أشك بأنني سأصل إلى مرتبة بطل، عوضا عن صنديد!! لا أعرف كيف لي أن أقوّي جسدي أكثر من ذلك!!

فأجابه طلال:

- بالصبر والمثابرة، ثم إنك لا زلت في أول الطريق وقد أبليت بلاء حسنا اليوم- ما شاء الله- فما بالك تتكلم بهذه الطريقة يا صديقي!!

اومأ ياسر برأسه:

- معك الحق، ولكن يبدو أنه قلق طبيعي قبل إعلان النتائج!!

فربت حسام على كتفه بابتسامة مشجعة:

- لقد أعقلتها يا ياسر فتوكل، ولتنس موضوع النتيجة الآن، المهم أنك قدمت أفضل ما لديك والحمد لله..

وهتف متابعا بمرح:

- مبارك عليكم خوض الاختبار يا أصدقائي..

ورغم دائرة الأصدقاء التي أحاطت بعلاء، ما بين مثنٍ عليه ومشجع ومبشر، إلا أنه كان متلهفا جدا لرؤية صالح ومعرفة رأيه به، والذي كان أهم بالنسبة له حتى من النتيجة التي ستحدد انتقاله إلى مرتبة مقدام أم لا!

أما صالح فقد كان عقله يعمل بسرعة في مكان آخر، محدثا نفسه وقد أبهره ما رآه:

- علي اتخاذ القرار الحازم قبل حلول الليل، فلا شك أن نصيحة الشيخ عبد الرحيم في محلها..

وأخذت كلمات الشيخ تتجسد أمامه بوضوح مستعيدا أدق تفصيلاتها..

كان مترددا في البداية، غير أنه سرعان ما حزم أمره وطرق الباب، مستئذنا في جلسة يحدث بها الشيخ عبد الرحيم على انفراد، وبعد أن أخبره بما جاء من أجله، تهلل وجه الشيخ مشجعا:

– جزاك الله عن الأمة خير الجزاء، صدقتَ.. فخبر كهذا إن لم يحسن نشره قد يضر بالمنطقة، ويؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، ولا شك أن لمرورك من هنا حكمة ساقك الله إليها، فلن تجد أفضل من المدير شامل في حسن التصرف في مثل هذه الأمور، فهو ثقة مؤتمن، ولن يضر بمهمتك ان اطلعته على ما أخبرتني به، ومن ثم تمضي نحو هدفك لعل الله أن يجعل في ذلك خيرا كثيرا..

ثم اضاف:

– قد يفيدك معرفة أن والد أحد رفاق علاء في المدرسة؛ مسؤول عن جدر الأخبار في المدينة...

انتبه صالح من تأملاته على صوت علاء، الذي جاء متلهفا لسماع رأيه به، فابتسم صالح:

– من يراك يشك بأنك لم تمض في المدرسة أكثر من ثلاثة أشهر!! لقد أبهرتني يا علاء، ما شاء الله!!

فابتهج علاء قائلا:

– أهذا هو رأيك حقا؟؟

فقال صالح:

– و هل تظنني أمزح؟

فاستدرك علاء:

- لم أقل هذا، ولكن النتيجة لم تظهر بعد، ولا أدري إن كنتُ سأُرشح إلى مرتبة مقدام أم لا!

فابتسم صالح:

- بغض النظر عن النتيجة، لقد كان أداؤك متميزا وهذا هو المهم برأيي..

ثم استطرد قائلا:

- ألم تخبرني بأنك تهدف إلى العودة للمروج الخضراء ومواجهة رامان؟؟

فأومأ علاء برأسه:

- أجل..

فتابع صالح:

- إذن ركز على هدفك وابذل جهدك وأحسن عملك، أما النتائج فهي ثمرة تلقائية يجب أن لا تشغل نفسك بها، والتوفيق فقط من الله سبحانه تعالى..

والتقط نفسا قبل أن يتكلم بنبرة عميقة مؤثرة، حوت خلاصة المعاني التي يرغب في ايصالها لعلاء قبل رحيله:

- حتى إن لم نقطف الثمار التي نريدها في الوقت الذي نريده، فعلينا أن نكون على ثقة بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا..

وركز نظره في عيني علاء يستطلع أثر كلماته عليه، قبل أن يغمزه باسما:

- هذا ما تعلمته من والدك القائد نور الدين منصور، فلا تنس هذا الدرس أبدا يا أخي الصغير..

***

اصطف المرشحون الأربعة في مشهد مهيب وسط الساحة، حيث وقف المدير شامل أمامهم وإلى يساره مساعده حازم، في حين وقف المدرب جهاد عن يمينه وهو يحمل لوائح النتائج الخاصة بالمرشحين، واصطف بقية المدربين على الجانبين..

خيم الصمت على المكان في ترقب للنتائج، وأخذت نبضات قلب علاء تتسارع متوسلة لخالقها أن لا يخزيه في موقف كهذا، فها هم معلموه وأصدقاؤه وحتى صالح، جميعهم يحدقون النظر، ويترقبون مثله إعلان النتيجة..

وتكلم المدرب جهاد بإسم المدربين:

- في هذه الذكرى الطيبة ذكرى غزوة بدر، يوم أعز الله فيه الاسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، حري بنا أن نستحضر التوجيه الرباني ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ..﴾ ، وقد أبليتم أيها الفرسان بلاءً حسنا تشكرون عليه، فبارك الله فيكم وفي إنجازكم، فاحمدوا الله على ما وفقكم إليه، فما التوفيق إلا من عند الله..

ثم تناول اللوح الأول، مناديا:

- حسان نبيل نعمان..

فتقدم حسان وتابع المدرب جهاد:

- حصلت على تسعين جزءا من مئة، ترتقي إلى مرتبة مقدام..

فعلا التكبير وتهلل وجه حسان فرحا وهو يتجه صوب المدير شامل الذي صافحه ثم عممه بالعمامة الخضراء الدالة على مرتبة مقدام..

ثم نادى المدرب جهاد اسم أصيل- في حين صافح حسان بقية المدربين:

- حصلت على سبع وثمانين جزءا من مئة، ترتقي إلى مرتبة مقدام..

وبعد أن تناول أصيل لائحته وهو يكاد أن يطير فرحا، اتجه نحو المدير شامل ليعممه بالعمامة الخضراء وسط التكبيرات، ونادى المدرب جهاد:

- ياسر نبراس عبد الشكور، حصلت على خمس وثمانين جزءا من مئة، ترتقي إلى مرتبة مقدام..

وأخيرا قال المدرب جهاد، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة:

- علاء نور الدين منصور، رغم أنك لم تمض في مرتبة همام أكثر من ثلاثة أشهر إلا أنك استطعت الحصول على سبع وسبعين جزءا من مئة، وسترتقي بإذن الله لمرتبة مقدام..

ورغم أن علاء كان يتمنى نتيجة أفضل إلا أنه لم يملك إلا أن خر ساجدا لله شكرا على نعمه، ثم تناول لائحته مصافحا المدرب جهاد بقوة، والذي همس له مشجعا:

- لقد فعلتَها بفضل الله أيها المقدام..

فابتسم علاء:

- الحمد لله و جزاك الله عني خيرا يا مدربي..

ثم سار نحو المدير شامل الذي صافحه بقوة، وعممه بالعمامة الخضراء، قائلا:

- هنيئا لك هذا النجاح يا بني، وبإذن الله نراك فارسا صنديدا عما قريب..

بعدها صافح علاء المساعد حازم، والمدربين تباعا، علي وعمر وسعد الذين هنؤوه بنجاحه داعين له بالبركة، وعندما صافح المدرب ثابت، انفرجت أسارير علاء وقد لاحظ ابتسامة المدرب ثابت لأول مرة وهو يشد على يده قائلا:

- لقد نجحت هذه المرة بجدارة يا علاء، فبارك الله فيك يا بني..

و كان ذلك بمثابة المكافأة التي انتظرها علاء منذ وقت طويل..

***

امتطى المدرب ثابت جواده السكب، وسار به متجها نحو منزله كعادته، إذ لم يكن ممن اعتاد التنقل في (عربات الإركاب) المختلفة منذ أن رافقه السكب أول مرة..

كان يمشي على مهل، متفكرا فيما آلت إليه الأمور في فترة وجيزة، لقد اختلف العالم عن سابقه، ولم تعد القوانين الصارمة تحكمه كما كان في الماضي، وأطلق تنهيدة طويلة فهمها السكب وأدرك ما وراءها؛ فسلك طريقا جانبياً بعيدا عن طريق العربات والمارة، متأنيا في سيره احتراما وتقديرا لصاحبه الذي اختلطت في مقاييسه الأمور، فبدا راغبا بالاختلاء بنفسه قليلا، غير أن السكب توقف فجأة فانتبه ثابت وقد قُطعت حبال فكره وتأملاته، ورغم أن وقوف السكب بتلك الطريقة لم يشر إلى أمر خطير، إلا أنه كان كفيلا بإثارة شكوك ثابت:

– أيعقل أن يكون هو!! أأنت متأكد من ذلك أيها السكب العزيز؟؟

ولم يدم تساؤله طويلا، إذ سرعان ما ظهر أمامه قيس على صهوة السهب، ذلك المهر الذي أهداه له صغيرا وكبر معه، وما إن التقت عينا الأب وابنه بعد غياب طال كثيرا، حتى خفض قيس عينيه وهو يحاول السيطرة على انفعالاته، وقد بدا كمن ينفذ خطوات تدرب عليها لهذا اللقاء المنتظر:

– السلام عليكم يا أبي..

والتقط نفسا وهو يحاول التأكد من سماعه لرد والده السلام عليه، قبل أن يقول متلعثما بعض الشيء:

– لقد كنت رائعا اليوم يا أبي.. رأيتك من خلف سور المدرسة وأنت تقوم بمراقبة الخيول الأربعة في وقت واحد.. أتمنى أن أصبح مثلك.. فارسا كما كنتَ تريد لي..

ثم التقط نفسا عميقا، وهو يحاول قول شيء يقطع فيه ذلك الصمت المطبق، باذلا جهده ليكسر الحاجز الذي بناه بيديه منذ أن أعلن تمرده، وآلاف الصور تجول بخاطره مؤكدة له استحالة رجوع المياه إلى مجاريها بعد ما حصل، غير أن كلمات

المدرب سعد وجدت طريقها إلى قلبه، لتمنحه الثقة بالله القادر على كل شيء، ولم يستطع الصمود أمام تردده طويلا، فقفز من فوق حصانه والدموع منهمرة من عينيه، حتى اقترب من والده وهو فوق حصانه فأمسك يده وحنى رأسه عليها ليقبلها ويبللها بدموع الأسف:

- أما زلت غاضبا مني يا أبي؟؟ لقد ندمت على ما بدر مني بحقك فسامحني أرجوك، أعدك أن لا أعود لمثلها أبدا إن شاء الله..

ولم يستطع ثابت الحفاظ على صلابته أكثر، والدموع تغمر عينيه، فانحنى على رأس ابنه يقبله:

- سامحنا الله جميعا يا بني، وغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا واسرافنا في أمرنا..

فعلا نشيج قيس كطفل صغير وهو يحيط جذع والده بذراعيه، ويحضنه بشدة دون أن يترك له المجال للنزول عن حصانه:

- أحبك.. يا أبي..

فربت والده على رأسه مهدئا بحنان بالغ، وقد خرج عن طور السيطرة على مشاعره، تاركا العنان لمجرى دموعه التي طالما حبسها خلف سد منيع:

- وأنا أحبك يا بني..

عندها انقشعت ذكريات الماضي الأليمة، كغمام ولى وثلج ذاب في دفء تلك اللحظات، التي بدت وكأنها اختصرت الزمن الماضي كله؛ لتبدأ بعدها صفحة جديدة بيضاء نقية، ملؤها الحب والتفاهم والاحترام..

ولأول مرة يسأل ثابت ابنه:

- متى هو موعد مباراتكم القادمة في الثلاثية يا بني؟ لقد عرفت أنك رامي الفريق وقائده، وأريد رؤية مهارتك في ذلك..

ففاضت عينا قيس بمزيد من الدموع التي لم تجف بعد:

– سيكون ذلك شرف كبير لي يا أبي، وأعدك أن لا تكون الثلاثية أكثر من وسيلة أسعى من خلالها لتحقيق غاية كبرى تُرضي الله، فترضى عني يا أبي، وستجدني إن شاء الله من الصالحين..

قفز قيس على صهوة حصانه السهب باسما:

– لم نتسابق منذ زمن طويل يا أبي، فهلا سابقتني للمنزل فأمي بانتظارنا على الافطار..

فابتسم ثابت هاتفا وهو يشد لجام السكب- الذي صهل فرحا ورضا بما آلت إليه الأمور:

– إذن هيا أرني قوتك يا ولد..

و انطلق الاثنان كفرسي رهان، وقد أدركا تماما في قرارة نفسيهما أنهما يعيشان لحظات تجلت فيها قدرة الله أرحم الراحمين، مغير الأحوال ومقلب القلوب ومجيب الدعوات، وقلبيهما يخفقان بحب القائل سبحانه:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) ﴾

***

كان تحفظ صالح واضحا جدا وهو يعرض الوثيقة أمام المدير شامل ومساعده حازم بعد أن طلب منهما اجتماعا خاصا وسريا للغاية، ولم يخف على حازم ملاحظة تغير وجه المدير شامل قبل أن يستعيد توازنه من جديد بعد أن وقعت عيناه على بنود الوثيقة، في حين تابع صالح كلامه:

– الخونة ما زالوا ينخرون في جسد الأمة، ويبدو أن سلالة (البيش) لم تزل موجودة بين ظهرانينا، رغم أننا لم نستطع تحديد هويتهم بعد، وهذا يعني أن الخطر المحتم سيحيق بنا جميعا إن لم نحسن التصرف بسرعة، فإن لم نستطع تقديم الدعم للمجاهدين لانقاذ المروج الخضراء الآن، فعلى الأقل..

وصمت قليلا قبل أن يتفوه بنبرة ألم لا حد له:

– على الأقل نحن نبرئ ذمتنا أمام الله، قبل أن تصبح المناطق الاسلامية لقمة سائغة في أفواه الممالك المتربصة، ومن ثم لا تقوم لنا قائمة بعد ذلك، لا قدر الله..

قال المدير شامل بتأثر واضح:

- اطمئن.. سنبذل جهدنا ولن نتوانى عن القيام بواجبنا، إن شاء الله..

ختم صالح كلامه بنبرة تنم عن الثقة:

– انني على ثقة بهذا، لذا سأوكل لكم التصرف بما ترونه مناسبا حيال ذلك هنا..

***

نتيجة اختبار الإرتقاء لمرتبة مقدام للمرشح الهمام:

علاء نور الدين منصور

تنويه: الدرجات الدنيا التي يتوجب على المرشح الهمام الحصول عليها حتى يتم له الارتقاء لمرتبة مقدام؛ هي اثنا عشر جزءا من أصل عشرين جزءا في كل مهارة، على أن لا يقل المجموع النهائي عن سبعين جزءا من أصل مئة..

الركوب	الرمي	الصراع والمشابكة	المطاعنة	المبارزة
ستة عشر جزءا	أربعة عشر جزءا	خمسة عشر جزءا	أربعة عشر جزءا	ثمانية عشر جزءا
المجموع : سبع وسبعون جزءا، والنتيجة هي الإرتقاء لمرتبة مقدام				

كانت تلك هي المرة العاشرة تقريبا التي يتأمل فيها علاء لائحة النتيجة الخاصة به على ضوء القمر، قبل أن يخلد إلى النوم قرير العين، ولم يعلم بأن صالح قد عزم على الرحيل قبل انبلاج الفجر، بعد أن أوكل جزءا من مهمته لمن يؤديها في هذه المنطقة، ماضيا نحو هدفه الخطير "منطقة العيون" حيث تكمن مهمته الكبرى، دون أن يخبر أحدا بأمره كعادته منذ أن اتخذ قرارا بأن لا يطيل المكوث في المكان الذي يكشف فيه عن أمره إمعانا في الحيطة والحذر، ما دامت الوثيقة بحوزته، فقد تم اختياره لهذه المهمة التي كلفتهم الكثير، ولن يفرط في آدائها على أكمل وجه مادام في قلبه نبض من الحياة، راجيا من الله أن لا يخيب به ظن قائده ورفاقه الذين علقوا به سبب النجاة الأخير وهم يرددون على مسامعه:

(إن خير من استأجرت القوي الأمين)

***

الفصل السابع

الأمير

استدعى الحاكم نجم الدين وزيره وهو في حالة من الهيجان الشديد، التي تنذر بأمر خطير بلا شك، وما إن مثل الوزير بين يديه حتى قال الحاكم بلهجة شديدة التسخط:

- أما آن الأوان لإخراج جلال الدين من عزلته بعد!! لم يعد هناك بدّ الآن من توليته المهام القادمة بصفته وريث العرش، وهو أبعد ما يكون عن هذا الواقع!! فما العمل الآن وهذه المصائب تنهمر علينا من كل جانب، وعلي تلبية دعوة الحاكم نبهان، إذ لن أسمح بتكرار ما حصل في منطقة السهول هنا مهما كلفني الثمن!! أهذا مفهوم!!!!!!!

حاول الوزير تدارك الموقف ببراعة وهو يدرس في ذهنه أفضل الطرق للخروج من هذا المأزق الذي سيعيق سير مخططاته، حتى قال أخيرا:

- كما أخبرتك من قبل يا مولاي لقد كان خيار العزلة نابعا من رغبة الأمير جلال الدين وهو قراره قبل كل شيء، لذا رأيت بأنها ستكون فترة الاعداد المثلى له فلا تقلق بهذا الشأن يا مولاي..

والتقط نفسا عميقا قبل أن يتابع بتأمل شديد:

- امض لما عزمت عليه يا مولاي، فستكون فرصة جيدة للأمير جلال الدين، وثق بي فما زلت عند وعدي بأن أقف إلى جانبه، وأكون دائما عونا له كما كنت وسأبقى مخلصا لك يا مولاي..

فتنهد الحاكم وهو يحاول التشبث بأدنى أمل يطمئنه من هذه الناحية، ودار بدفة الحديث نحو المنحى الآخر:

- ليتني أعرف ما الذي دار بخلد الحاكم نبهان، حتى أقدم على تلك الخطوة الجريئة، لا بد أنه يخطط ليستحوذ على مجامع الشرف ومن ثم ينصب نفسه خليفة علينا، لكنني لن أدعه يفوز بذلك أبدا..

فقال له الوزير في محاولة لكسب وده:

- كان بامكانك أن ترفض حضور الاجتماع يا مولاي، ولكن شهامتك أبت عليك ذلك!

فرد الحاكم بضيق:

- لم يكن بإمكاني التراجع بعد أن استقبلت مبعوثه وتم فتح الحدود بيننا من جديد، لقد كان ابن البيش على حق؛ عندما قال بأن علينا أن لا نتجاهل خبر وثيقة كهذه، لا سيما وأنها تعرضت لذكر مسار الحجيج وجزء من الاماكن المقدسة..

فتساءل الوزير بتغاب واضح:

- ولكن الوثيقة يا مولاي لم تشر إلى أي شيء من هذا القبيل!!

فحدجه الحاكم بنظرات تتقد شررا:

- حتى الأغبياء في المنطقة يعرفون ما هي الأماكن التي تقع بين مجري شيلاس والعيون الدافئة، أي وزير أحمق أنت!!

فأسرع الوزير يبرر موقفه بخبث:

- بعد نظرك وحكمتك يا مولاي هي ما تريك الأمور بهذا الشكل، أما أبناء منطقتنا فلديهم من هموم الحياة ما يصرف انتباههم عن التفكير في مثل هذه الأمور..

ورغم الطمأنينة التي شعر بها الحاكم إزاء تلك الكلمات إلا أنه تابع بتذمر واضح:

- ولا نستبعد قيام ثرثارين جدداً، من أمثال كامل عبد الصبور وأشباهه، بإثارة القلاقل من جديد، لا بد أن يكون لنا موقف حازم ومشرف يتحدث عنه الجميع!

فتساءل الوزير بتوجس وهو يحاول استشفاف ما يدور بخلد الحاكم:

- ولكن هل تعتقد أن بإمكاننا مواجهة رامان يا مولاي!!

فنظر إليه الحاكم بغيظ:

- أنا لم أقل ذلك أيها الغبي، إنما قصدت مواجهة مشاعر شعبنا وترضيته قبل أن تسول له نفسه الإقدام على أي فعل أخرق لمجرد أن الموضوع قد يسيء إلى مقدساته!

وصرخ بعصبية:

- ليتني أعرف من الذي أخرج تلك الوثيقة السخيفة من مخبئها، وكأن منطقتنا لا ينقصها إلا هذه المشاكل!!

وأخذ يذرع القاعة جيئة وذهابا وهو يردد بغضب:

- لقد انتهز نبهان الفرصة وأمسك بزمام المبادرة، ولكنني لن أقف مكتوف اليدين، وسيعلم الجميع من يكون الحاكم العظيم نجم الدين..

فوافقه الوزير بمحاباة ظاهرة قائلا:

- بالتأكيد يا مولاي، فأنت من يملك أقوى الجيوش على الاطلاق، جيش منطقة الجبال العظيم..

عندها التمعت عينا نجم الدين، فأصدر أمره بزهوة نصر كمن فتحت أمامه أبواب القلاع العصية:

- استدع القائد هواس بسرعة..

***

بدا عدنان متلهفا لرؤية علاء أكثر من أي وقت مضى، وكأنه على وشك أن يزف له أخبارا مبهجة مع الصباح، ولم يخف على طلال الذي وقف إلى جانبه في صلاة الفجر ملاحظة ذلك، فابتسم قائلا:

- لقد تأخر علاء قليلا وأظنه سيصلى في الجماعة الثانية في المسجد، فقد حاولنا ايقاظه بشتى الوسائل غير أنه بدا منهكا أكثر من المعتاد..

ورغم القلق الذي استبد بعدنان الا انه تساءل بهدوء:

- غريب هذا على علاء، فحتى وهو في أكثر الايام تعبا لم تفته صلاة الجماعة الأولى في المسجد على ما أذكر!!

فطمأنه طلال بقوله:

- لقد نام كما لم ينم طوال حياته منذ أن خرج من مدينته!

فابتسم عدنان مستذكرا:

- أتقصد بعد استلامه رسالة والده! كيف غاب هذا عن ذهني، لقد كان سعيدا بشكل لا يوصف، سعادة لم يستطع معها التركيز في شيء، لكنني لم أتوقع أن يصل به الأمر الى هذا الحد!!

وتذكر جملة علاء التي ما فتئ يرددها: إنه خط أبي حقا فأنا أعرفه جيدا!

وأطلق حسام- الذي شاركهما حديثهما- ضحكة خافتة معلقا:

- لقد نام نيابة عن كل الأيام التي قضاها ساهرا بانتظار الرسالة بعد أن قرأها عشرة آلاف مرة على الأقل!! فلا تنس أنه كان قلقا جدا خاصة بعد أن تأخرت الرسالة عن الوقت المتوقع، لا أظنه ذاق طعم النوم وقتها!! وقد آن للجفن الساهر أن يترجل عن موقعه..

وابتسم متابعا:

- لا أدري كيف كان ينوي ابقاء الأمر سرا!! حتى ياسر الذي لم يُعهد عليه انفعال من قبل، كان في قمة حماسته يومها..

ولاحت له صورة ياسر الذي دخل المكتبة باحثا عن علاء بلهفة، حتى إذا ما وجده لم يتمالك الاثنان نفسيهما من اثارة ضجة حقيقية، لم يجدا بعدها بدا من اخبار القيم نوح عن السبب، والذي تخلى عن تأنيبه لهما فورا ليشاركهما الفرحة..

ووخز طلال بمرح مضيفا:

- حتى السيد طلال المحترم؛ كاد أن يخرج عن طوره الهادىء، بل إنه قد تزحزح عن سمته قليلا..

فابتسم طلال:

- لا تبالغ كثيرا..

وأردف كمن يحدث نفسه:

- لا أدري كيف انتشر الخبر بعدها كانتشار النار في الهشيم، فقد كانت لحظات لا تنسى أبدا..

وأطرق مفكرا:

- أظن أننا بحاجة لإدارة انفعالاتنا بشكل أفضل..

فنظر إليه عدنان متسائلا:

- هل قلتَ شيئا؟

فعلق حسام مازحا:

- السيد الحكيم لا يحب أن تمر عليه لحظة واحدة من دون إضافة بعض الدروس المفيدة.. حتى وهو يفكر بعلاء وفرحته برسالة والده!

فابتسم عدنان وهو يهز رأسه متفهما، وما إن التفت خلفه حتى لمح علاء يدخل مسرعا ليلحق بالجماعة الثانية...

فاطمأن قائلا:

- على كل حال هناك خبر أود اخباركم به أنتم الثلاثة..

ولم يمض وقت طويل حتى كان الأربعة يقفون خارج المسجد يتنسمون نسيم الفجر العليل بانتظارالخبر المثير من عدنان الذي قال باسما:

- لا أعرف كيف أشكركم وأتمنى أن تجدوا قدرا من السعادة فيما سأخبركم به..

والتقط نفسا عميقا فيما حثه حسام على الكلام بلهفة:

- هيا يا عدنان لم أعد أطيق الصبر أكثر، فهذه أيام الأخبار السعيدة بفضل الله حتى أنني بت أتوقع خبرا من قبيل عودة الخلافة الاسلامية الراشدة وانتشار الخير في كل مكان..

فلم يتمالك طلال نفسه من التعليق:

- يا لخيالك الشاعري يا حسام..

أما علاء الذي كان يحاول مقاومة نعاسه الشديد فقد اكتفى بالابتسام، ليتابع عدنان كلامه:

- بفضل الله لقد تم نقل أخي سليم ليلة أمس لمشفى خاص وسط المدينة بعد أن قام الطبيب يحيى بعمل الاجراءات اللازمة، وكما قال الأطباء؛ هناك احتمالية كبيرة لأن يصبح قادرا على المشي بإذن الله..

عندها هتف علاء بفرح وقد طار النعاس من عينيه تماما:

- الحمد لله حمدا كثيرا، يا لهذه الأخبار السارة مع الصباح!

وتهلل وجه حسام وطلال استبشارا بما سمعوه، في حين تابع عدنان كلامه:

- لا أعرف كيف أشكركم يا أصدقائي، فقد كنتم السبب...

فقاطعه علاء بقوله:

- لا تقل هذا يا صديقي فبالنسبة لي لم أقم بأكثر من التكفير عن غلطتي عندما سُرقت منا النقود مع فاتك، وكان من المفترض وقتها أن يتم تأمين تكاليف العلاج لأخيك..

فهز عدنان رأسه نفيا:

- أنت لا تعرف أخي سليم، لقد رفض وقتها العلاج بشدة قائلا بأن هناك من هم أولى منه بالمال من المحتاجين، أما وقد وصله المبلغ هدية منكم فلم يكن أمامه سوى الإذعان للمضي في إجراءات علاجه وتكاليفها الباهظة..

عندها قال طلال باسما:

- هذا كله من ذوقكم يا عدنان، و بغض النظر عن التفاصيل، المهم الآن أن أخاك سيتلقى العلاج المناسب والحمد لله..

وأكد حسام كلامه بمرح شاعري:

- وهذا هو الأهم، فجميعنا أخوة، ما يفرحك يفرحنا، وما يحزنك يحزننا، ولا يهم من ساهم بالمال منا..

فضحك عدنان:

- أهذه قصيدة وليدة اللحظة أم ماذا!

فعلق علاء باسما:

- عش مع الشعراء، وتوقع أي شيء!!

وضحك الأربعة بسعادة بالغة..

***

" بني العزيز علاء، كلماتنا هنا محدودة فلا مجال للإطالة ولكننا سررنا كثيرا بما وفقك الله إليه من إنجاز حمدنا الله عليه كثيرا، فهذه من أعظم النعم التي منّ الله بها علينا، فثق بالله وتوكل عليه في أمورك كلها، وبلغ سلامنا لأصدقائك ومعلميك، بارك الله فيكم جميعا. والداك المحبان "

طوى علاء الرسالة بعناية فائقة بعد أن فتحها ليطلع عليها كمن يلقي التحية على والديه قبل أن يقوم بعمل جديد، والتفت نحو حسام الذي بدى غارقا تماما في كتاب يقرؤه وهو جالس على سريره، حتى أثار فضوله لمعرفة مضمونه، وقبل أن يهم بسؤال حسام عنه؛ دخل طلال مسلما وهو يحمل كتبه عائدا من قاعة الدراسة، فرد عليه التحية باسما:

- هل أنهيت كتابة تقريرك عن خلق الصبر؟

فأومأ طلال رأسه بانشراح:

- الحمد لله ولا أظنني سأضيف كلمة واحدة عليه بعد الآن، فلم يبق الكثير لعطلة العيد، وماذا عنك أنت؟

فأجابه علاء بتأن:

- الصبر على الدراسة والجد في التحصيل الناجح، أظن أنه لم يعد ينقصني في تقريري هذا إلا إضافة المكافأة التي منّ الله بها علي باستلامي لرسالة والديّ ..

فقال طلال بلهجة مشجعة:

- فكرة رائعة، بل ستعطي لتقريرك ميزة خاصة وهي تربط النتائج بالمقدمات، سيكون موضوعا متكاملا بمعنى الكلمة إن شاء الله..

ونظر نحو حسام الذي لم يبد عليه انه انتبه إليه بعد، فقال له:

- ألم تقل بأنك لن تقرأ أي رواية في رمضان!!

غير أن طلال وجد نفسه مضطرا لإعادة جملته مرة أخرى قبل أن ينتبه له حسام كمن استيقظ من حلم عميق فجأة:

- نعم!!!

ثم استدرك وهو يمط ذراعيه حاملا الكتاب بيده اليسرى:

- كنت أنوى الاطلاع عليها فقط، فقد أثار فضولي كلام حليمة عنها، خاصة وأنها طلبت مني شكر المعلم عاصم الذي أهداها لها، فقرأت المقدمة وحسب، انها تتحدث عن أمير سجنه والده في قبو القلعة المظلم مدة عشر سنين بعد أن أخفق في إحضار الشمس إليها، و بعد توسلات والدته؛ يعطيه والده فرصة أخرى على أن يعود في نهاية العام إلى القلعة بصحبة الشمس، عندها سيتنازل له عن العرش ويوليه الحكم، وإلا ستكتب عليه معيشة الفقراء والمساكين أبد الدهر، فيبدأ الأمير رحلته بحثا عن الشمس ومن هنا تبدأ الحكاية..

فقال علاء وهو يضع رسالة والديه في درجه بعناية:

- تبدو قصة خيالية أليس كذلك؟

فعقّب طلال:

- أو رمزية بالمعنى الأصح..

فهز حسام رأسه موافقا:

- أجل هذا واضح جدا من المقدمة..

وهمّ بأن يستطرد في حديثه عنها غير أن طلال استوقفه وهو يشير إلى النافذة:

- هل تعلم أن الشمس توشك أن تغيب!

فهب حسام بفزع:

- غير معقول!! لم أتوقع أن يمضي الوقت بهذه السرعة.. أرجو أن لا نكون قد تأخرنا عن زيد، لقد وعدناه بالحضور باكرا للمساعدة..

فابتسم علاء:

- سيعذرك بالتأكيد إن قصصت عليه قصتك المشوقة هذه..

فضحك حسام بمرح وهو ينتعل حذاءه:

- ألم تجد غير زيد ليستمتع بقصصي!!

وما هي إلا لحظات قليلة حتى التحق الثلاثة (علاء وحسام وطلال) بزيد الذي كان منهمكا في إعداد مائدة الإفطار المفروشة في ساحة جامع الفتح، قبل أن ينضم إليهم بقية الرفاق ليتولوا توزيع التمور أمام الصائمين، الذين توافدوا على الجامع متحلقين حول الطعام بانتظار أذان المغرب، وبعد أن أدى الصائمون صلاة المغرب اثر افطارهم على تمر وماء بشكل مبدئي، اشرف الأصدقاء بتوجيه من زيد على سكب الحساء الساخن من الوعاء الذي أحضره من منزله، إلى جانب أصناف الأطعمة المختلفة كعادة الشيخ عبد الرحيم وأسرته في تفطير الصائمين في العشر الأواخر من رمضان، حيث تؤم مائدتهم أعداد كثيرة تضم الفقراء والمساكين..

وبعد أن أنهوا تنظيف المكان، وجمعوا بقايا الطعام الزائد في سلال نظيفة، قال معاذ:

- وأخيرا سأتمكن من الاعتكاف الليلة هنا في جامع الفتح معكم والحمد لله!

فعلق أصيل بنبرة تثير الشفقة:

- سبحان الله! أما أنا فلن أتمكن من الاعتكاف حتى الصباح، فأمامي مهمة لا بد لي من انجازها..

فقال له ياسر متعاطفا:

- ألا يمكنك تأجيلها لوقت آخر!! فنحن في أواخر ليالي رمضان!!

فقال أصيل بتأثر:

- ولهذا السبب بالذات لا يمكنني تأجيلها!! إنها أمانة ومسؤولية، وإن لم أنفذها قبل انتهاء رمضان؛ فلا أدري كيف يمكنني متابعة حياتي بسلام حتى رمضان القادم إن كتبني الله من أهل الحياة..

تبادل الرفاق نظرات تعجب وتساؤل حول طبيعة هذه المهمة المؤرقة، إذ بدا أصيل جاداً تماما في كلامه هذه المرة، حتى إن حسام شعر بقلق شديد عليه وهو يقول له:

- ألا يمكننا المساعدة؟؟

فتهلل وجه أصيل:

- ولم لا.. رغم أن ذلك لن يغير من طبيعة مهمتي شيئا..

والتفت إلى حسان:

- فحتى جاري العزيز لم يستطع افادتي!

عندها انفجر حسان ضاحكا:

- يا لك من ممثل بارع!! أكل هذه المَسْكَنة من أجل (المسحراتي!!)، كان عليّ أن احزر ذلك منذ البداية!

غير أن اصيل أعرب عن اعتراضه على وصف حسان له بقوله:

- إذا لم تكن تلك المهمة كذلك فَلِم ترفض مشاركتي بها..!!

وتابع بمرح مفاجيء – وكأنه غير الذي تكلم قبل قليل بلهجة يائسة:

- سيكون منظرنا مسليا ونحن نصطحب فريق الصغار؛ إذا ما اضفنا عليهم أخويك (سوسن ومحسن).. قمة الحماسة!!

ومرة أخرى تبادل بقية الرفاق نظرات تساؤل، أجاب عليها حسان بقوله:

- كل ما في الأمر أن أولاد أخت أصيل الصغار يودون رؤية المسحراتي بالثلث الأخير من الليل، ولأنه مكلف بالعناية بهم أثناء وجودهم في منزله، فقد ألزم السيد المحترم نفسه بجعلهم يشاركون المسحراتي عمله أيضا، إن كفوا عن إزعاجه وامتثلوا لأوامره، قال ذلك في عثرة من عثرات لسانه المعتادة، وكعادة

الصغار أصبح هذا وعدا بالنسبة لهم بغض النظر عن كونهم قد التزموا بالشرط أم لا!

فرمقه أصيل متوعداً:

- تنسى نفسك كالعادة، لم لا تذكر دورك في هذه الورطة! لو أنك لم تتشاجر مع أختك مؤخرا، لنجحت بإقناعها بالعناية بهم أثناء غياب أمهم ولما اضطررت...

فقاطعه حسان:

- قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان..

فعلق أصيل:

- يا لك من مراوغ.. تعرف كيف تستخدم الأشياء لصالحك!

فنظر حسان إلى رفاقه مستنجدا:

- بالله عليكم من المراوغ هنا؟!! ما دخلي أنا بأولاد أخته المشاغبين كخالهم!!

فانفجر أصيل ضاحكا هو وحسام وشاركهم البقية ضحكهم قبل أن يقول معاذ:

- لو سمع حمزة بمشروع كهذا لما تمكنتُ من المجيء الآن، خاصة وهو يلح علي من أول رمضان أن آخذه بجولة مع المسحّر وكأننا سنذهب في نزهة!

فقال أصيل بمكر:

- إذن سأتولى إخباره بنفسي، لعل فرقة المسحّرين الصغار الليلة تجبر الحاكم على منع المسحرين من تسحير الناس إلى الأبد!

فرد معاذ بتوسل:

- لا أرجوك، أنت تعلم أنه من النادر أن تواتيني فرصة الاعتكاف في جامع الفتح بعيدا عن إزعاجه!

فطأطأ أصيل رأسه متفهما بوقار مصطنع:

- أقدر موقفك يا صديقي، شريطة أن يكتمل عدد أفراد الفريق معي! ولكن هذا لا يمنع من أن تعيد النظر في الموضوع؛ فهذه فرصة لا تتكرر أيضا!!

فقال حسام باسما:

- بتُّ أخشى أن يفوتني مهرجان مثير كهذا، يبدو أنني سأحضر طبلة معي للمشاركة في التسحير أيضا! وستكون فرصة لا تعوض لمراقبة النجوم..

فقال أصيل بلهجة تلتهب حماسة:

- فكرة مدهشة، سيصبح الأمر أكثر تسلية الآن..

فعلق زيد:

- يا لهذه العشر الأواخر التي نوينا الاعتكاف فيها!

أما طلال الذي سمح لنفسه بمشاركة أصدقائه بعض اللحظات المرحة، فقد قال بحكمة:

- وما يدريك يا زيد.. فإن كانوا سيتفقدون الرعية ليلا كما كان يفعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلربما كان لهم أجر مضاعف..

واستطرد باسما:

- ولا تنس أن خروج فرسان مدرسة النصر لحماية الصغار؛ مهمة ضرورية لا يستهان بها..

عندها هتف علاء بحماسة:

- يا لهذا التفكير المذهل يا طلال، في هذه الحالة لن أتوانى على المشاركة أنا أيضا!!

فهز زيد رأسه:

- لقد أصبح للمشروع معنى مختلف الآن!

فلم يملك أصيل نفسه من التباهي أمام حسان:

- هل رأيت كيف أصبح مشروعي عالميا يا أخي!!

فرد عليه ببرود:

- أنصحك بأن لا تغتر بنفسك كثيرا فما زال الوقت باكرا للحكم على أفكارك!

وأخيرا تكلم ياسر بحرج:

- لقد كانت أمي تفكر بإعداد طرود غذائية لتوزعها على بعض العائلات المحتاجة، أظنها ستكون فرصة لتوزيعها في السحر ومفاجأة العائلات بها عند استيقاظهم، ما رأيكم؟

فهتف أصيل بسعادة وهو يعانقه:

- تفاعلك مع الفكرة وحده يكفيني يا صديقي الخجول!!

فعلق معاذ باستسلام:

- يبدو أنني سأضطر لتغيير رأيي بعد هذا كله قبل أن اضطر لأخذ حمزة في جولة منفصلة أخرى!

وما إن رُفع أذان العشاء حتى كانوا قد انتهوا من الترتيب لمهمة الليلة، وقبل أن يفترقوا قال طلال مذكرا أصيل بقوله:

- لا تنس إخبار العم إسحاق المسحراتي..

فضرب أصيل على صدره بقبضة يده باسما بثقة:

- لا تقلق، ثق بصديقك المفكر العبقري

فردد طلال:

- إن شاء الله

***

استيقظ علاء على يد حسام التي هزته برفق:

- هيا يا علاء لقد سبقنا طلال بإعداد الطرود الخاصة بنا وتغليفها، لقد أصبحت جاهزة الآن..

وبسرعة نهض علاء من فراشه وتوضأ قبل أن يبدل ثيابه، ليرافق صديقه نحو المكان المتفق عليه، وهناك فوجيء بعدد لم يتوقعه من الأطفال المتحمسين وهم يحملون فوانيسهم الصغيرة بأيديهم، فبالاضافة لحمزة ومحسن وسوسن كان هناك أولاد أخت أصيل سيف الدين الذي لم يتجاوز السادسة من عمره وأختاه التوأم سماح وسندس اللتان تصغرانه بسنة ونصف، إضافة لأولاد أخيه؛ رائد ذي السبعة أعوام وفرح التي تصغره بأكثر من عامين، والذين تسرب اليهم الخبر من أولاد عمتهم، فأصروا على الحضور بعد إلحاحهم الشديد على أمهم وموافقتها على مضض بعد أن اضطرت لوضع ثقتها بشقيق زوجها الصغير أصيل! ولم يكن حال سناء وعلام وروان أبناء أخته الكبرى مختلفاً عن أبناء خالتهم غير أن كبر سنهم نسبيا- إذ كانت روان اصغر إخوتها في الخامسة والنصف- جعل أصيل يكلفهم بمسؤولية إضافية في رعاية الأصغر سنا منهم..

وبعد أن اكتمل العدد أخذ أصيل يملي تعليماته على أولاد إخوته:

- كما اتفقنا من يخرج عن التعليمات ويسبب الفوضى سأعيده فورا للمنزل وسيحرم من المشاركة في أي نزهة قادمة، هل هذا مفهوم؟

فهمس حسام لحسان:

- هذه اول مرة أرى فيها أصيل بمظهر مسؤول كهذا!

فكتم حسان ضحكة كادت تفلت منه:

- لن يستمر هذا طويلا، فسرعان ما سينسى أصيل أنه خال الأولاد وعمهم المحترم!

وإذ ذاك انتبهوا على صوت رائد وهو يخاطب أولاد عماته:

- بصفتي الأكبر بينكم فسأمسك الطبلة.. أليس كذلك يا عمي؟

فردت عليه سناء بحدة:

- هل نسيت أنني أكبر منك بشهرين! ثم إنك لا تحفظ العبارات جيدا! وقد وعدني خالي بـ...

فقاطعهم اصيل:

- هدوء، لم نتحرك بعد وسأقوم بإلغاء الرحلة كلها إن استمر الوضع هكذا!!

فأخذ سيف وسماح وسندس يتوسلون اليه:

- نحن مؤدبون يا خالي ولم نفعل شيئا، لا ذنب لنا!! فما دخلنا نحن بهم!

فتنهد أصيل :

- حسنا حسنا اهدؤوا الآن فسيأتي المسحراتي بعد قليل وقد وعدته بأنكم لن تتسببوا في إزعاجه بأي شكل..

وإذ ذاك كان حمزة قد التصق بمعاذ وهو يشده ليهمس بإذنه:

- أريد أن أمسك الطبلة وأدق عليها أنا أيضا!

فيما كان محسن يدعوه ليعرفه الى بقية الصغار بصفته وسوسن على معرفة سابقة بهم كونهم جيران أصيل..

لم يمسك علاء وحسام نفسيهما من الضحك لمشهد الاطفال ذاك، خاصة وهما يحاولان التعرف على جميع أصدقاء أصيل، و ما إن سمعا اسم علاء وتعرفوا عليه، حتى اندفعوا نحو أصيل يسألونه:

- أهذا الفارس البطل الذي حدثتنا عنه يا عمي؟

- انه ابن القائد نور الدين الذي جاء من المروج الخضراء يا خالي، إليس كذلك؟؟

- أظنه صديقك الذي وعدتنا بأن تعرفنا إليه من قبل يا خالي، صحيح؟؟

- خالي ، يبدو أنه ألطف منك بكثير! فلم لا تكون لطيفا مثله!!

ولو كان ذلك الخال والعم شخصا غير أصيل؛ لأصابه الحرج والضيق من وقت طويل، أما هو فقد حاول بصعوبة كتم ضحكاته التي كانت تفلت منه بين الفينة والأخرى رغم محاولته الجاهدة في الحفاظ على مظهره أمام الصغار.. حتى خرج عن سيطرة نفسه تماما مع اقتراب صوت المسحراتي بهتافه المعروف، فهتف بانفعال وهو يقفز بمرِح:

- هيا يا رفاق استعدوا..

فعلق عليه علاّم بقوله:

- يبدو أننا من سيعيدك للبيت يا خالي إذا لم تحافظ على هدوئك!

ومع جملته تلك انفجر الجميع بضحكات حاولوا جهدهم إخماد ثورتها في سكون الليل، وانطلقت المسيرة لتكون ليلة الرابع والعشرين من رمضان في ذلك العام من أكثر الليالي التي تركت أثرا عميقا في نفس علاء والبقية، خاصة الصغار، بعد جولتهم المثيرة والممتعة مع المسحراتي والتي وزعوا فيها أكثر من أربعين طردا غذائيا على البيوت المحتاجة..

***

استعد الحاكم نجم الدين لمغادرة مدينة جبل عاصمة منطقة الجبال لحضور اجتماع حكام المناطق الاسلامية الأول في منطقة العيون الخاضعة لحكم الحاكم نبهان، فاحتشد الموكب الضخم يحيط به الحرس والجنود في باحات القصر العظيم..

وقف الحاكم لتوديع أبنائه وزوجته الذين وقفوا لتوديعه في الباحة الكبيرة الخاصة، فشد بقوة على يد جلال الدين:

- أعتمد عليك يا بني، فأنت أكبر أبنائي وخليفتي في الحكم، وهذه ستكون فرصة جيدة لك لتتعود على إمساك زمام المسؤولية فلا تخيب رجائي..

ذرفت عينا جلال الدين، فهو لا يحب سماع هذه الكلمات التي قد تعني له وفاة والده، لكنه استطاع إخفاء دمعاته بسرعة، فشد عوده وظهر بمظهر قوي يبشر بتحمل المسؤولية الكاملة:

- أعتمد عليّ يا أبي، فسأكون عند حسن ظنك إن شاء الله..

ثم التفت الحاكم إلى شهاب الدين:

- وأنت يا بني كن عونا لأخيك..

وأخيرا قبل ابنته الأميرة دلال:

- وأنت يا حبيبتي اعتني بنفسك جيدا، وأخبريني عما تريدينه فكلي آذان صاغية..

فردت دلال برقة وهي تعانق والدها:

- كل ما أريده يا والدي العزيز هو عودتك إلينا سالما..

فغمزها والدها مداعبا:

- وعقد الألماس الذي أخبرتيني عنه سابقا! هل نسيتيه يا حبيبتي ؟

فاعتلت حمرة الخجل وجنتيها وهي تقول :

- كلا لم أنسه يا أبي، ولكنني لم أشأ الإثقال عليك!

فقال والدها بلهجة جادة:

- لا تقولي هذا يا عزيزتي، فأموالي من منطقة الجبال بأسرها رهن إشارتك، فهل ترغبين بشئ آخر غير ذلك العقد؟

فابتسمت بمرح ودلال بالغ:

- كلا يا والدي العزيز فالعقد وحده يكفيني..

وأخيرا أقبل نجم الدين على زوجته يودعها بقوله:

- اطمئني يا عزيزتي، فسأحضر لك أغلى أنواع الفراء الفاخر..

فتبسمت الزوجة بعذوبة:

- لا تتعب نفسك كثيرا أيها الحاكم فثلاثة معاطف تكفيني في الوقت الراهن..

و أطرقت بصمت كمن يحاول إخفاء ما بنفسه، فحثها الحاكم على الكلام:

- لا ترددي يا عزيزتي اطلبي ما بدا لك، فهل هناك شئ آخر ترغبين بالحصول عليه من منطقة العيون، لا سيما وأنها المرة الأولى التي تفتح الحدود بيننا وبينهم..

فأظهرت الزوجة ترددا كبيرا قبل أن تقول:

- في الحقيقة لا أعرف إذا كان طلبي ممكنا أم لا..

فأصر عليها الحاكم بقوله:

- اطلبي ما بدا لك ولا تخشي شيئا، فخزائن الأموال في المنطقة لن تبخل بتلبية رغباتك..

ابتسمت الزوجة بسرور بالغ وقد اطمأن قلبها:

- لقد سمعت أن لدى زوجة الحاكم نبهان ثيابا مرصعة بالألماس، وكل ما أريده هو ثوبا واحدا لاغير على أن يكون مغطى بكامله بقطع الألماس..

فتساءل الحاكم بتشكك:

- ولكن يا عزيزتي هل تظنين بأن ثوبا كهذا موجود أصلا! فمن أين سأحضره؟

فأجابت زوجته بسرعة:

- كلا يا عزيزي لم أقصد أن يكون موجودا، ولكنك تستطيع أن تطلب ممن يصنع ثياب زوجة الحاكم نبهان أن يصنع لي ثوبا كهذا، أريد ثوبا من الألماس الخالص..

فقال الحاكم بتردد:

- ولكنه سيحتاج إلى قطع كثيرة من الألماس، قد يتعذر إحضارها في فترة قصيرة!!

فتنهدت الزوجة بضيق:

- ألم تقل أن منطقة العيون تشتهر بمناجم الألماس؟

فأجاب الحاكم ببعض الارتباك:

- أجل هذا صحيح.. ولكن الحصول على الألماس صعب جدا..

فقالت الزوجة بحدة:

- لا يوجد هناك شئ صعب مادام المال موجودا ويُدفع بسخاء!!

فهز الحاكم رأسه مستسلما:

- هذا صحيح يا عزيزتي، كوني مطمئنة..

ابتسمت الزوجة بسعادة:

شكرا لك يا عزيزي، لن أنسى لك هذا أبدا..

ثم التفت الحاكم إلى وزيره:

- وأنت أيها الوزير المخلص، لن أحتاج إلى توصيتك بجلال الدين فكما تعلم هذه أول مرة يتحمل فيها المسؤولية الكاملة وحده..

وشد على يد ابنه جلال الدين مرة أخرى:

- استعن بالوزير واستمع لنصائحه فقد آثرت إبقاءه هنا على اصطحابه معي؛ ليطمئن قلبي أكثر، فهو مخلص وجدير بالتقدير والاحترام، وقد ساعدنا كثيرا في مواجهة المشكلات..

وما إن انطلق الموكب بالحاكم- خارجا من باحات القصر- حتى أسرع جلال الدين صاعدا إلى غرفته ليراقب الموكب العظيم وهو يبتعد شيئا فشيئا حتى تلاشى عن الانظار، فخاطب نفسه:

- أسأل الله العظيم أن يوفقني لأكون عند حسن ظنك يا أبي..

وما هي إلا لحظات حتى طرق الباب، وجاءه صوت أخته:

- آه يا جلال الدين، كم أحسدك لقد أصبحت حاكما منذ هذه اللحظة تفعل ما تشاء..

علت الدهشة وجه جلال الدين:

- ولم الحسد يا عزيزتي!! هل تظنين أنها لعبة مسلية!! إنها أمر خطير، ومسؤولية كبيرة أكبر مما تتوقعين أو يخطر ببالك..

فأطلقت دلال ضحكة مستهترة:

- لماذا تفكر هكذا يا أخي بدلا من أن تستمتع بوقتك..

فحملق فيها جلال الدين بدهشة وهو يقول بمنتهى الجدية:

- لماذا تتكلمين هكذا يا أختي الحبيبة!! هل هناك شيء لا تستطيعين فعله إلا إذا كنت حاكمة؟

ابتسمت دلال بدهاء:

- أنت لا تفهمني يا أخي، فليس هذا ما أعنيه.. كل مافي الأمر أنك عندما تصبح حاكما ستشعر بمتعة كبيرة.. فالأمر بيدك ولا تحتاج لسؤال أحد لتنفيذ ما تريده..

فرد عليها جلال الدين باستنكار:

- ومن قال لك بأن الأمر بيدي وحدي!! علي أن أحاول جاهدا لعمل الأنسب بمعاونة الوزير والمستشارين من حولي، حيث يوجهونني ويرشدونني لما فيه الخير..

فتساءلت دلال باستغراب:

- الأنسب! والخير! .. لمن؟

فأجاب جلال الدين بثقة:

- لمنطقتنا وأمتنا الإسلامية بالطبع..

وفي تلك اللحظة دخل شهاب الدين وهو يقول باستهزاء واضح:

- يا لك من ساذج يا أخي، ما الذي تنوي فعله إذن! أم أنك ستجهد نفسك لتوفير الراحة لكل فرد وتأمين حياته!!

فقاطعه جلال الدين:

- على الأقل نبذل جهدنا للتقدم بمنطقتنا نحو الأفضل..

فتابع شهاب الدين بسخرية واضحة:

- ومهما بذلت من جهد فلن تستطيع توفير الطعام والدواء على الأقل لمن يموتون جوعا..

فشهق جلال الدين:

- يموتون جوعا!! وهل هناك من يموت من الجوع في منطقتنا؟

لم يتمالك شهاب الدين نفسه من إطلاق ضحكة مجلجلة:

- أتمزح يا أخي! أم أنك تظن الفقر أسطورة لا وجود لها على أرض الواقع!!

فقال جلال الدين مدافعا عن نفسه:

- لم أقصد هذا، ولكن أين خزائن الأموال منهم! أليست هي ملك للمنطقة وأهلها، وهم بلا شك أولى الناس بها في هذه الحالة!

فهز شهاب الدين رأسه معبرا عن أسفه:

- يبدو أن شغفك الشديد بالقراءة، وقضاءك معظم الوقت في المكتبة؛ شغلك عن معرفة ما يدور حولك..

ثم تابع باستهزاء:

- في الحقيقة لا أعرف السبب الذي تم على أساسه اختيارك خليفة لأبي في الحكم، وأنت لا تعرف شيئا في هذه الأمور! سامح الله أبي، كان عليه أن يعدك أولا لهذه المهمة أو أن يوكلها لمن هو أكثر كفاءة منك!!

ثم تنهد بأسف:

- ليتني أعرف من وضع قانون الأكبر سنا!!

ثم تابع بخبث:

- ألا تعتقد معي أن الأكثر كفاءة والأكبر عقلا، هو الأولى دوما بتولي زمام الأمور؟

صعق جلال الدين لتلك الكلمات التي لم يحسب لها حسابا، غير أنه قال موافقا:

- صحيح كلامك يا أخي، فالكفاءة هي المقياس الأول وليس السن، فها هو سيدنا عبد الله بن العباس رضي الله عنه؛ حبر هذه الأمة كما أخبر بذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من أصغر الصحابة سنا!

فقاطعه شهاب الدين:

- عدت للحديث مرة أخرى في هذه المواضيع القديمة، التي عفا عليها الزمان..

لكن جلال الدين قال بثقة:

- لا تقل هذا يا شهاب، فأنت تعلم أن هذا تراثنا الذي نعتز به ونفخر..

غير أن شهاب الدين بدا مصرا على رأيه، وهو يعلق بقوله:

- يبدو أن هذه الكتب والقصص القديمة قد أثرت في عقلك كثيرا، ليتني أعرف متى ستدرك أننا في هذا العصر المختلف تماما!

فانتفض جلال الدين قائلا:

- ما هذا الذي تقوله يا أخي!! ما الذي أصابك! منذ متى كانت سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام والصالحين قصصاً قديمة!! إنها أكثر من قصص هادفة يا أخي.. إنها منهج حياة!

بدا الضيق على وجه شهاب الدين فقال- وهو يهم بالخروج:

- يبدو أننا غير متفاهمين على الإطلاق، فكل منا يفكر بطريقة مختلفة، وما يؤسف له حقا أن وريث العرش لا يدرك الأمور على حقيقتها، وفي هذا خطر علينا جميعا..

ثم انطلق خارجا من الغرفة، فلحق به جلال الدين وأمسكه من كتفه:

- اسمعني يا أخي، لا تدع خلافا صغيرا يفرق بيننا، ألا تقر بأننا أخوين مسلمين من أمة الإسلام؟

فأجابه شهاب الدين لا مباليا:

- بلى، ولكن ليس على طريقتك..

ثم أزاح يد جلال الدين عن كتفه بقوة قائلا:

- لكل زمان أهله، وأنت تريدنا أن نعيش حياة الرسول العظيم فأين نحن منه وأين عصرنا من عصره، لقد تغير كل شيء، وعليك أن تدرك هذا جيدا!

فابتسم جلال الدين بلطف محاولا كسب ود أخيه:

- أنا لم أقصد هذا يا أخي العزيز، فلا شك أن الزمان قد تغير، ولكن أسس الدين ثابتة وهي صالحة لكل زمان ومكان ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ..﴾.

إلا أن شهاب الدين لم يدعه حتى يكمل الآية إذ سرعان ما قاطعه بقوله:

- لن تستطع الاستمرار ما دمت هكذا!!

وانصرف في حين تسمّر جلال الدين مكانه، مأخوذا بما سمع، وكأنما حط الطير على رأسه، فلم يتنبه إلا على صوت دلال التي ما زالت واقفة مكانها تتابع حوارهما:

- إنه على حق يا جلال الدين، ولا شك أن قضاءك أوقاتا كثيرة في المكتبة بعيدا عن مجريات الأحداث التي نتابعها ونهتم بها جعلك مختلفا عنا..

فنظر إليها جلال الدين متسائلا:

- وبماذا تهتمون يا عزيزتي؟؟ إذا كنتم تسهرون على راحة الشعب فلا شك أنكم أفضل مني بكثير..

ثم استدرك قائلا:

- وبالمناسبة، ما هو العقد الذي كنت تحدثين أبي عنه؟

ابتسمت دلال بزهو:

- إنه أثمن عقد في العالم، من الألماس الخالص والأحجار الكريمة، تتوسطه ياقوتة كبيرة يعرض حاليا في مزاد منطقة العيون، ولحسن حظي فإن أبي متجه إلى تلك المنطقة بطبيعة الحال بعد أن فتحت الحدود بيننا..

ثم هتفت بسعادة:

- إنه تحفة رائعة، سأكون أجمل فتاة وأغنى أميرة في العالم إذا ما حصلت عليه..

فسألها جلال الدين:

- وهل تستطيعين تقدير ثمن هذا العقد؟

صمتت دلال مفكرة قبل أن تقول:

- لا أعرف تماما، ولكن لا أعتقد أنه سيقل عن آلاف آلاف القطع النقدية..

فعلق جلال الدين باستنكار:

- ومن أين لنا بهذا المبلغ يا عزيزتي، لا سيما وأنك تعلمين أن هناك فقراء يموتون جوعا في منطقتنا؟

صرخت دلال بغضب:

- كيف تتحدث هكذا!! أتعتقد أنه يوجد من هو أقدر منا على شراء ذلك العقد الأسطوري، ونحن أبناء حاكم ثري يمتلك خزائن أموال هائلة؟

فقال جلال الدين:

- ومن قال لك بأن هذه الأموال من حقنا أو انها ملك لنا، نتصرف بها كيفما نشاء! إنها من خيرات أراضي المنطقة ومناجمها، ومما يتم جبايته من مكوس وما شابهها، مما يصرف لصالح منطقتنا وشعبنا، بمن فيهم من يموت جوعا على حد قول شهاب!!

بدت الدهشة واضحة على وجه دلال، ولم تتمالك نفسها من شدة الغيظ، فانفلتت منها صرخة دوت في وجهه قائلة:

- حقا.. إن الحياة معك صارت جحيما لا تطاق، لقد أخطأ أبي خطأ فادحا عندما تركك مع هذه الكتب القديمة دون أن يعدّك لتحمل المسؤولية!

بدأت بوادر الغضب تعتلي وجه جلال الدين، لكنه حاول أن يكظم غيظه، فقال بلطف :

- أنت ترددين ما يقوله شهاب يا عزيزتي، فمن قال لك بأن أبي لم يعدني للمسؤولية وقد تخرجت في المدرسة الحربية، في مملكة سومار كغيري من الأمراء، ودرست كتب الحوادث والأيام وأحوال الشعوب والبلدان والقوانين والأحكام، حتى أنني اطلعت على معظم كتب العلوم المختلفة، وغيرها الكثير بفضل الله وتوفيقه..

علقت دلال مستدركة:

- أنسيت جميع الشكايات التي أرسلتها المدرسة الحربية لأبي عنك، وأصبحت حديث القصر!

رد عليها جلال الدين بثقة المطمئن:

- كانت مجرد اعتراضات بسيطة؛ فهم لم يقدّروا شعور المسلم الذي يعتز بدينه وعقيدته، ولكنني استطعت بحمد الله تجاوز هذه الأزمات العارضة..

قاطعته دلال بغضب:

- لم تتجاوزها إلا بمكانة والدي، فهو أكثر الحكام قربا منهم وفي هذا شرف كبير لنا..

شعر جلال الدين بغصّة في حلقه، لكنه لم يعلق على قولها، بل اكتفى بمتابعة حديثه السابق لينصرف عن هذا الموضوع، قائلا:

- ثم لا تنسي أنني حصلت على أفضل الدراسات العليا، وتجاوزتها بنجاح باهر وتفوق شهد به الجميع، صحيح أنني لا أتابع قضايا المنطقة والقضايا العامة بشكل ملموس، ولا أنكر أن هذا تقصير واضح مني لمن هم في مثل منصبي، لكنني سأبذل جهدي - بإذن الله- من الآن فصاعدا لتعويض ما فات..

تنهدت دلال بأسى، وقد شعرت بأن الأمر أخطر مما تصورت بكثير، وأدركت أن ما هذه إلا بداية لمشاكل كثيرة قادمة، وأخيرا تكلمت وهي تظن أنها تسدي نصيحة قد تخفف من حدة الموقف:

- اسمعني يا أخي العزيز، أنت تبالغ كثيرا في تعصبك للإسلام، ونحن في عصر زالت فيه الفروق الدينية ولم يعد الدين من مستلزمات حياتنا..

طفح الكيل بجلال الدين؛ إذ لم يستطع تمالك نفسه أكثر فصاح غاضبا:

- عن أي هراء تتحدثين، ما هذا الذي أسمعه منك يا دلال ثم من قال لك أن الفروق زالت، ومن هذا الذي تبرع بإزالتها والله سبحانه يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾؟!

ارتبكت دلال قليلا قبل أن تقول:

- هدئ من روعك يا أخي، فحتى الشيخ وادع لا يتكلم هكذا، وهو الأعلم بالدين منك!

لم يجد جلال الدين أمامها إلا الصمت في حين تابعت كلامها عن الشيخ الذي لا يكن له أدنى قدر من الاحترام، بعد أن أباح لنفسه أن تتعدى على ما حرمه الله بصريح العبارة؛ فجعل منه الحلال المباح إرضاء لنزوات النفس الشائبة! وما هو إلا رجل وضيع متشبث بمقعده بكل الوسائل الممكنة، طمعا في الدنيا، ولو كان على حساب دينه الذي يدّعي تمثيله، ولاحت في ذاكرته صورة والده الذي منعه من حضور دروس الدين التي أصر على حضورها بعد أن قرأ قوله- صلى الله عليه وسلم- (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)، فلم يجد والده بدا من إحضار ذلك الشيخ الذي لم يستفد منه شيئا؛ غير التشكيك في ما يعرفه ويعرفه أبسط مسلم عن أمور دينه الواضحة التي لا خلاف عليها! ثم تنهد بأسى وهو يخاطب نفسه:

- سامحك الله يا أبي، كم أرغب في معرفة تفاصيل كثيرة وفهم أمور أجهلها عن هذا الدين العظيم الذي لا نعرف منه سوى العنوان، كم كنت أرغب بالالتحاق بدور القرآن الكريم والحديث الشريف، التي سمعت عنها..

وزفر زفرة تبعها ألم لا حد له..

- يارب علمني فإنني جاهل، واهدني فإنني ضائع تائه..

عندها تنبه الى صوت دلال وهي تهزه:

- جلال الدين.. أتسمعني!! ما الذي أصابك.. هل كنت أتحدث وحدي طوال الوقت!! تبدو شاردا يا أخي!

نظر إليها بشرود وذهول لا حد له- وكأنه يؤكد قولها- محاولا الابتسام:

- لا تقلقي يا أختي، فأنا بخير و الحمد لله.. !

***

مرت ليلة عصيبة على جلال الدين.. تقلب في فراشه كثيرا دون أن يغمض له جفن، فقد شغف بسير الصحابة والصالحين وتمنى لو استطاع السير على دربهم..

تنهد تنهيدة طويلة:

- أين نحن منك يا أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله عنك وأرضاك..

وشعر بثقل كبير فوق صدره كاد أن يخنقه، فضاق تنفسه وتصبب العرق منه بغزارة، ولاح له حديث المصطفى: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)..

فأخذ يبكي بكاء شديدا، تبعه نحيب ونشيج:

- ما هذا الابتلاء يا ربي!! اللهم لا اعترض على حكمك، ولكن خذ بيدي وكن لي عوناً فالوضع صعب خطير، وأنّى لي بإصلاح ما تأصل فساده! وما من معين يعين على خير.. يارب أعني كي أبذل جهدي فهذا أمر أُرغمت عليه ولم أدخله طوعا، وأنت شاهد على ذلك، وأخاف إن تركته أن أضيّع حقوقاً باستطاعتي إقامتها.. يا ليتني ولدت لرجل فقير همّه قوت يومه.. استغفر الله، سامحني يا الله، فأنت أعلم بحالي..

ولاحت في مخيلته ذكريات قديمة عفت عليها السنون ...

فبعد أن رحلت والدته عن الدنيا وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، أقام في بيت جدته لامه ريثما تهدأ أحزان والده الحاكم.. قضى وقتها في بيت جدته أوقاتاً جميلة ملؤها الدفء والحنان عوضته عن فقدان أمه الراحلة، وها هي كلماتها ترن في أذنيه منذ ذلك اليوم العصيب، عندما طلب الحاكم ولده ليقيم في القصر مع زوجته الجديدة..

اقتربت الجدة من حفيدها وضمته إلى صدرها الحنون:

- اسمعني يا بني، ما زلت صغيرا، ولكنني سأحدثك بما في نفسي من كلمات، قد لا أستطيع البوح بها بعد اليوم، فاحفظها في نفسك جيدا، لعل الله أن ينفعك بها يوما ما..

اقترب الصغير من جدته الحانية وقبلها:

- كلي آذان صاغية يا جدتي، اعتمدي عليّ فلن أبوح بسرك لأحد..

ابتسمت الجدة بحنان بالغ:

- إنه ليس سرا كما تتصور يا صغيري وإنما هي شجون في صدري..

وتنهدت بعمق:

- أعرف أنه من غير اللائق أن أخبرك بهذا، لكنني لا أجد مفرا من ذلك، فقد لا يتيسر لي لقاؤك بعد اليوم..

دمعت عينا الصغير:

- لا تقولي هذا يا جدتي الحبيبة، فسأزورك حتما..

ربتت الجدة العجوز على كتف صغيرها:

- حسنا يا بني.. في الحقيقة...

وبدا عليها تردد كبير جعل الصغير يحثها على الكلام:

- أرجوك يا جدتي لا تخشي شيئا، فسأكون عند حسن ظنك، صدقيني..

قالت الجدة:

- بإذن الله يا بني لن يخيب الله ظني فيك، وقد استخرت الله مرارا قبل أن أبوح لك بما أود قوله..

وحاولت جهدها اختيار الكلمات المناسبة:

- اسمعني يا بني، إن والدك حاكم كبير والحكم مسؤولية صعبة فهو محاسب أمام الله سبحانه وتعالى عن رعيته، بل عن كل صغيرة وكبيرة في نطاق حكمه، إنه ابتلاء واختبار من الله سبحانه لمن يختارهم من عباده، و قلة منهم من ينجح فيه، لذا كان الملك العادل من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ كما حدثنا بذلك رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم..

ثم تنهدت بأسى وتابعت:

- لا تغضب يا بني إذا ما أخبرتك أنني رفضت زواج ابنتي من الحاكم بشدة، فقد خشيت عليها الفتنة، وأنا الحريصة على تربيتها وتنشئتها نشأة إسلامية واعية، لم أرد لها أن تلقى من المعاناة مثل ما لاقيته انا بسبب ابتعاد زوجي الثري المترف عن دينه، ولكن يأبى الله إلا ما يريد.. عانيت كثيرا في تربية أولادي تربية صالحة، وليس هذا بالأمر الهين، وبخاصة مع أب لا تعنيه القيم الدينية من قريب أو بعيد، ثم ابتلاني الله بموت اثنين منهم صغارا فصبرت، ثم جاءني الخبر المفجع بموت ابني الكبير غرقا في تجارة لإحدى رحلات والده البحرية، فعزيت نفسي بأن الله قد اختاره شهيدا؛ إذ مات غرقا بدلا من أن تفتنه الدنيا فيما بعد، وتتابعت عليّ المصائب وأنا مدركة أن هذا ابتلاء من الله سبحانه وتعالى راضية بأمره، ولم يبق لي سوى أمك، فحرصت عليها أشد الحرص، فارتدت الحجاب- رغم اعتراض والدها- حتى إذا ما بلغت سن الزواج تقدم لخطبتها الحاكم الشاب آنذاك، بعد أن رآها بصحبة والدها الذي أصر على اصطحابها معه إلى القصر تلبية للدعوة الموجهة لكبار التجار وأثرياء المنطقة، فأدركتُ أن الله ما قذف حبها في قلب الحاكم إلا زيادة في الابتلاء، فاحتسبت أمري لله وعارضت ذلك الزواج بشدة لكنني غُلبت على أمري، أما وقد قدر الله ذاك الزواج فقد دعوت الله وابتهلت إليه أن لا يضيع جهدي سدى..

وسكتت الجدة وهي تقاوم عبراتها:

- استغفر الله، سامحني يا إلهي، فلم يعكر عليّ سعادتي بقدوم حفيدي الأول إلا خوفي عليه مما ينتظره من بلاء وفتنة في هذه الدنيا..

وطال صمت الجدة وقد انسكبت دموعها غزيرة، فرفع الصغير يده إلى عينيها يحاول تجفيفها وهو يحثها على الكلام..

حاولت الجدة الابتسام وهي تطبع قبلة حانية على جبينه:

- اعذرني يا صغيري، فأنت أغلى ما لدي في هذا الوجود..

ثم تابعت:

- بعد ذلك بعدة أعوام ماتت ابنتي الوحيدة- أثناء ولادة أخيك الذي لم يقدر له العيش في هذه الدنيا- وإنني أرجو من الله أن يتقبلها شهيدة وأن يثبتني بالصبر الجميل..

وانفلتت دمعات رغما عنها، فربتت على كتف الصغير باسمة:

- آسفة يا بني، ولكن لا بد لي من إخبارك بما يشغلني، لعلك تدرك ما أريده منك مستقبلا بإذن الله..

وبعد أن أخذت نفسا عميقا تابعت قائلة:

- أما الآن فإنني أرجو من الله أن يجعل من نسلي قرة عين لي، فاحرص يا بني على إعادة الأمور إلى نصابها، إذا ما آلت إليك المسؤولية، فقد عم الفساد وضاعت الأمانة، اتق الله عسى الله أن يجمعني بك في جنات النعيم، فأفاخر بك الأولين والآخرين..

ثم قبلته ومسحت على رأسه داعية له- وهي تستودعه الله:

- والآن يا بني بعد أن تعود إلى قصر والدك، استعن بالله فإنك لا تعلم أي حياة ستواجهك هناك، فاحرص على ما ينفعك، والله في عونك..

ثم أنزلته عن حجرها برفق، واتجهت نحو مكتبة صغيرة في جانب الغرفة تناولت منها كتابا قدمته له قائلة:

- حافظ على هذا الكتاب جيدا يا بني ففيه من قصص الأنبياء والصحابة والصالحين ما يروح النفس ويجلي الحزن، وكثيرا ما قرأت لأمك منه وهي صغيرة..

ثم قبلته وضمته إلى صدرها وكأنها تبثه كل ما بقي لديها من العطف والحنان. فعانقها الصغير وبادلها قبلات صادقة حارة:

- لا تقلقي علي يا جدتي، فسأواجه الحياة بشجاعة، وبخاصة انني قد تعلمت منك الكثير، ولن أنسى فضلك علي أبدا، وسأحاول قراءة هذا الكتاب إن شاء الله..

أشرقت ابتسامة واضحة على وجه الجدة الوضيء، وقالت:

- بارك الله فيك يا بني، وعليك بكل كتاب نافع مفيد، واجعل كتاب الله نبراسك، وسنة نبيك نورا يضيء طريقك، ولا تنس الدعاء، فهو سلاح فعال، لا يخطئ أبدا بإذن الله..

وأخيرا ودعته بحرارة وسط دموع غزيرة، وكأنها علمت أنه اللقاء الأخير فاستدركت قائلة:

- بقي أمر أخير وهو السر الذي لا يمكنني الإفصاح عنه الآن فلم يأت أوانه بعد..

نظر إليها جلال الدين بلهفة:

- سر خطير!!

فابتسمت الجدة:

- لا تقلق ستعرفه في الوقت المناسب- إن شاء الله- إذا استمعت لوصيتي، وعملت بنصيحتي، فسيكون في ذلك الخلاص....

وبترت جملتها وهي تناوله ما يشبه الكتاب الذي أحكم تغليفه:

- إحذر من أن يطّلع عليه أحد، وإياك أن تفكر في فتحه قبل أن يحين الوقت المناسب ويستقر لك الأمر..

فسألها جلال الدين ببراءة الصغار:

- وكيف أعرف أنه قد حان الوقت المناسب يا جدتي؟!!

ابتسمت الجدة وضمته اليها من جديد:

- ليس قبل أن تجد عشرة، كأصحاب الشجرة..

أفاق جلال الدين من ذكرياته عند ذلك الحد وهو يردد:

- رحمك الله يا جدتي وجمعني بك في مستقر رحمته..

و لمعت في ذهنه فجأة ملاحظة لم ينتبه لها سابقا:

- ليلة السابع والعشرين من رمضان! كيف لم انتبه لهذا، انها الليلة نفسها التي حدثتني بها جدتي ذلك اليوم قبل سبعة عشر سنة..

وأخذ صوتها الحنون يهدهد مخيلته:

- لعلها تكون ليلة القدر يا بني فادع الله وأنت موقن بالاجابة، (اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عنا)..

ولم يعد يطيق البقاء في فراشه أكثر، فنهض واقفاً وتوضأ وصلى ركعتين في جوف الليل، أطال فيهما سجوده ودعاءه، ثم نهض من فوره متجها إلى القاعة الرسمية، وقد نسي كل ما له علاقة بذلك المغلف، إذ لم يحن أوان فتحه بعد كما استقر في دخيلة نفسه، فالواجبات أكثر من الأوقات، محدثا نفسه- كمن يراجع درساً حفظه:

- محرابي الآن في إدارة شؤون المنطقة بصفتي مسؤولا عنها، وليس في إطالة الصلاة، هذا ما قاله أحد الصالحين، سأعتكف في هذه القاعة فهذا واجبي الآن..

وأخذ يناجي ربه:

- أليس كذلك يارب!!!.. يارب علمني ما أجهله فأنت حسبي ونعم الوكيل..

سار بهدوء على أطراف أصابعه، وما إن وصل الباب حتى فوجئ بغياب الحارسين المناوبين المكلفين بحراسة القاعة، فقاعة هامة كهذه يتوجب حراستها من قبل شخصين موثوقين يتحملان كامل المسؤولية، إن حدث أي شئ احتياطا، ولكنه تمتم في سره:

- هذا أفضل لي في هذه الليلة بالذات على أية حال، وأظن أن هذا سيكون أول موضوع أبحثه في تحمل مسؤوليتي الجديدة..

ثم أخرج المفتاح من جيبه ودخل القاعة بعد أن أغلق بابها خلفه بهدوء. وعلى نور مصباح خافت، فتح أحد الأدراج وأخرج رزمة من الأوراق، ثم بدأ يقلب بصره فيها، حتى وقعت عيناه على ورقة صفراء باهتة، خفق لها قلبه بشدة، فأطلق صرخة مكتومة أفلتت من بين شفتيه المرتجفتين:

- يا إلهي.. ما هذا الرقم المخيف!!! أكل هذا دين علينا لمملكة سومار !!

متى ستسدد هذه الديون، ما دامت تتضاعف يوما بعد يوم!! إنني لا ألاحظ على أبي هما بشأنها.. بل إنني لم ألحظ أي آثار تدل على محاولة سدادها!!

وما إن نظر إلى ورقة أخرى حتى كاد أن يلفظ أنفاسه من هول المفاجأة:

- غير معقول!! متى تمت الاستدانة من مملكة رامان أيضا!! هذا مستحيل يبدو أنها وقعت حديثا!

ثم نظر في ورقة أخرى جديدة ظهر فيها رقم مضاعف هو مجموع ما وصلت إليه الديون لمملكة سومار، وقرأ شروطا مملاة على ظهر الورقة تتضمن:

* السماح لمملكة سومار التصرف كما تشاء بمنطقة الحاكم، على أن يتم تخفيف المطالبة بالمال المديون..

* أن تكون مناجم الذهب المتوفرة بكثرة في المنطقة، تحت إشراف مملكة سومار المباشر، مقابل تخفيف نسبة الفائدة بقدر استفادة سومار من هذه المناجم..!

لم يستطع جلال الدين متابعة القراءة فقد استشاط غضباً، وكاد أن يمزق الورقة ويسحقها بين يديه:

- إنه الذل والعار والهوان!! ما نحن إلا عبيد في أيدي هذه الممالك تفعل بنا ما تشاء..

ثم وضع رأسه بين يديه:

- يا إلهي ساعدني فالخطر متفاقم أكثر مما تصورت ، يارب أعني فإنه لا حول ولا قوة لي إلا بك..

وابتهل إلى الله وعيناه تذرفان الدموع الغزيرة:

- اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك..

ودارت الدنيا به، فهذه أخته تطلب عقداً ثمينا، وزوجة أبيه تطلب ما لا يخطر على قلب بشر، والخزانة مثقلة بالديون، والشعب يموت جوعا.. ولم يستطع تمالك نفسه أكثر فأجهش بالبكاء...

وما إن استعاد رباطة جأشه وقرأ ورقة أخرى حتى كاد أن يهوي مغشيا عليه:

تصريح بإقامة أكبر متجر للخمور في أحد الشوارع الرئيسة، بدعم من أموال المنطقة تصرف لصالح هذا المشروع !!!!!

***

أسرع حسام فيما تبعه بقية الاصدقاء- الذين قضوا ليلتهم معتكفين في جامع الفتح- نحو سطح المدرسة، ووقفوا يراقبون بحماسة جهة الشروق، حتى إذا ما بدا قرص الشمس، هتف حسام بلهفة:

- انظروا إن قوس الشمس يبدو ابيض لا شعاع فيه، أظنها كانت ليلة القدر، والله أعلم..

فقال أصيل مناكفا:

- وما أدراك أن الشمس لا تشرق هكذا دائما!

فبادره طلال بالاجابة:

- الفرق واضح بين قرص الشمس اليوم وبين ما كانت عليه في ليالي الحادي والعشرين والثالث والعشرين والخامس والعشرين!

فقال له حسان:

- لا تأخذ كلامه على محمل الجد يا طلال، فهو لا يعدو كونه مناكفة لا أكثر!!

فاعترض أصيل قائلا:

- هذا ما تقوله أنت.. على كل حال لا نستطيع الجزم الآن، فما زالت أمامنا ليلة التاسع والعشرين!

وعلق علاء بقوله:

- لا أظن أن هناك منا من يستطيع الحكم على هذه الأمور أفضل من حسام ما شاء الله..

فأكد صوت من خلفهم كلام علاء:

- وأنا أشهد بذلك..

التفت الجميع للوراء ليفاجؤوا بالمعلم برهان يقولها مبتسما، والى جانبه المعلم أمين الذي أضاف قائلا:

- كما قال حسام والله أعلم كانت تلك ليلة القدر..

وردد فيما أمن الجميع على دعائه:

- ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ..﴾

فما كان من أصيل إلا أن لكز حسام في خاصرته هامسا:

- عش حياتك يا أخي، الجميع يقف معك حتى المعلمين أنفسهم!

وتابع المعلم أمين:

- وأيا كانت تلك الليلة، نسأل الله أن يكتب لنا أجر قيام ليلة القدر ايمانا واحتسابا، ويتقبل منا رمضان ويعيده علينا أعواما عديدة وأزمنة مديدة، ونحن والمسلمون في خير وعافية..

وأضاف المعلم برهان باسما:

- وبهذه المناسبة لدي أخبار سعيدة، خاصة لك يا حسام..

وابتسم متابعا:

- سنبدأ ببناء قبة فلكية لمراقبة الأجرام السماوية هنا ان شاء الله..

لم يكد المعلم برهان يتم عبارته، حتى قفز حسام بفرحة منقطعة النظير:

- حقا.. الحمد لله الحمد لله.. جزاك الله خيرا يا معلمي، طوال عمري وأنا أحلم بقبة فلكية ومناظير متخصصة، كم أنا سعيد لهذا الخبر..

ابتسم المعلم برهان:

- أرجو أن يسهل الله انجازه ويكون ذا نفع كبير لكم..

وقبل أن يهم المعلم أمين بالنزول التفت إليهم باسما:

- أرجو أن لا تتأخروا عن الدرس الأول يا شباب..

وما إن نزل المعلمان حتى أخذ حسام يقفز بفرح هنا وهناك:

- يا لسعادتي، أحلامي على وشك التحقق، أخيرا بفضل الله الحمد لله لقد استجاب الله دعائي..

فضحك أصيل معلقا:

- أهذه هي منتهى أحلام شاعرنا الكبير!! لا تقل لي أنك اعتكفت الليلة كلها تدعو من أجل قبة فلكية!!

فيما قال زيد بكثير من الجدية:

- ستكون فرصة رائعة بالفعل.. ترى هل ستكون مفيدة في مراقبة الأهلة؟!!

قال معاذ:

- لا أظنها ستُبنى من أجل هذا الغرض، فالرؤية المباشرة للهلال تكفي على ما أظن..

كانت الشمس قد ارتفعت بما يكفي لتعلن أن موعد الدرس الأول قد اقترب، فحدق علاء نحوها مرددا كمن يستذكر عبارة قديمة سمعها ذات يوم:

- من هنا تشرق الشمس!

ولم يقطع عليه حبل أفكاره سوى يد ياسر التي ربتت فوق كتفه:

- في ذاك الاتجاه تقع المروج الخضراء يا علاء، أليس كذلك!

فابتسم علاء موافقا:

- أجل، لا بد أن وديع قد وصل الآن، اسأل الله أن يستلم والداي الرسالة بسرعة فكم أنا متلهف لقراءة ردهما.. يارب استجب دعائي..

وابتسم بتفاؤل شديد، وقد طافت بذهنه ذكرى أول رسالة استلمها من والديه قبل أسبوع..

عندها علا صوت طلال الذي سبقهم بالنزول مذكرا رفاقه:

- من الأفضل أن لا تتأخروا كثيرا فسيبدأ الدرس..

وبسرعة نزل الرفاق تباعا ولحقهم أصيل -الذي كان آخرهم نزولا - وهو يتزحلق بمرح على حاجز الدرج، قافزا من دور إلى دور قائلا:

- ليست العبرة بمن نزل أولا يا شباب؛ وانما بمن وصل!

فقال له معاذ:

- ألن تكف عن هذه المشاكسات يا ولد!!

أجابه أصيل وهو يتزحلق مبتعدا عنه مطلقا ضحكة مشاكسة:

- الأصل بالأمور الإباحة يا أخي، هذه هي القاعدة الفقهية واسأل زيد..

فرفع حسان صوته وهو ينظر إليه من أعلى عبر حافة الدرج:

- ركز جيدا وانتبه لنفسك من السقوط بدلا من الثرثرة..

وتنهد معلقا:

- يبدو أن المشرف عاطف لن يسمح لنا بالصعود مرة أخرى بسبب هذه التصرفات الطائشة!

فجاءه صوت أصيل من الأسفل هاتفا:

- لقد وصلت.. من الأفضل لكم أن تسرعوا بالنزول بدلا من الثرثرة أيها السلاحف..

***

طال انتظار جلال الدين للوزير بعد أن أرسل في طلبه، فأخذ يذرع القاعة جيئة وذهابا، وقد نفد صبره وضاق صدره، فهناك أمور كثيرة يود مناقشتها بأسرع وقت ممكن. وبينما هو على تلك الحال؛ إذ أقبل الوزير الذي لم يُخفِ امتعاضه من هذا الطلب المفاجئ في هذه الساعة المبكرة من الصباح:

- خيرا أيها الأمير!! هل من جديد؟

فأجابه الأمير بنفاد صبر:

- لا شيء غير أني أحب مباشرة العمل باكراً، هل هناك ما يريب !!

فرد الوزير بتكاسل:

- لم أقصد هذا، ولكننا لم نعتد البدء في هذه الساعة المبكرة جدا، فساعة الاستيقاظ الرسمية في القصر لم تحن بعد خاصة في رمضان..

فتساءل جلال الدين بدهشة:

- ساعة استيقاظ رسمية!!! أتقصد أنكم تقومون الليل بصلاة التهجد ثم تنامون بعد صلاة الفجر!!

فأطلق الوزير ضحكة خفيفة، اعتذر عنها بقوله:

- عذرا ايها الأمير ولكن ما قلته عن ساعة الاستيقاظ الرسمية لا علاقة له بالصلاة!! لقد قلت إن ساعة الاستيقاظ لم تحن بعد، هذا كل ما في الأمر!!

غير أن الأمير تساءل بلهجة جادة جدا غير مبال بنبرة السخرية في كلام الوزير:

- هل أفهم من هذا أنك لم تصلّ الفجر في وقتها قبل طلوع الشمس!

ارتبك الوزير من هذا السؤال المباغت بتلك النبرة الجادة، فقال بعد برهة صمت:

- عفوا يا سيدي، إن القانون يعدّ هذا من الأمور الشخصية التي لا يحق لأحد السؤال عنها، فكل حر بأفعاله الخاصة التي لا تضر بالآخرين.. ولكن لا بأس، فبصفتي موكل من قبل الحاكم لإطلاعك على ما تجهله من أمور؛ فلن أتوانى في إيضاح القوانين الرسمية لك، وكلي آذان صاغية لما تحب السؤال عنه..

ثم التقط نفسا قبل أن يتابع:

- ورغم أن سؤالك أيها الأمير لا يعدّ سؤالا رسميا في مقام رسمي، فسآخذه على محمل كلام الأصدقاء، بصفتي نديماً للحاكم ومن المقربين اليه..

وتابع كلامه بنبرة غريبة كمن يقصد من ورائها شيئا:

- لذا فسأخبرك بكل صراحة ووضوح بأنني لا أصلي عادة..

لم يستطع جلال الدين تمالك نفسه من مقاطعته بصوت مبحوح:

- لا تصلي!!

فقال الوزير بثقة:

- هذه حرية فردية يا سيدي، ثم أنني بحمد الله لا أقصر في حضور الجمع والأعياد، رغم أن هذا شأني وحدي، ولكن لا مانع لدي من إطلاعك عليه كما أخبرتك من قبل..

علت قسمات وجه جلال الدين بوادر الغضب والذي حاول جاهدا السيطرة عليه:

- أتقول حرية فردية! وشأنك وحدك! وأنت في هذا المقام تجاهر بذلك!! كيف تريدنا أن نأمنك على أسرارنا ولا أمانة لك على عمود دينك وتكاليف ربك!! كيف لنا أن نثق بمن حاله كحالك؟

تمالك الوزير نفسه وهو يقول بجزم وقد بدأ يستمتع بما هو مقدم عليه:

- الحاكم هو من يقرر ذلك!! وأنا المؤتمن لديه لأكثر من عشرين عاما..

ثم تصنع الإخلاص والوفاء بقوله:

- عذرا يا سيدي الأمير، ولكنني مكلف من قبل والدك الحاكم لإعدادك لما أنت مقبل عليه من مسؤولية، فلا تؤاخذني إن أغلظت لك القول، فما هذا إلا من باب النصح الخالص، فوالدك أعز إنسان على قلبي وأنا مستعد لأن افديه بروحي، قبل أن يكون الحاكم الذي أفخر بخدمته..

ضاق صدر جلال الدين وهو يستمع لتلك الكلمات المنمقة الجوفاء، لكنه استطاع التغاضي عنها على مضض، عازما على اتخاذ أسلوب جديد في معاملته لهذا الوزير بعد أن انتبه لكونه قد تسرع في التعبير عن انفعالاته، لعله يأمن شره ويتقي غدره، فتابع كلامه وكأن شيئا لم يكن:

- أريد منك أيها الوزير المخلص حديثا واضحا عن ديون المنطقة..

فأجابه الوزير وهو يحاول تفحص ما يدور بذهن الأمير:

- إنها مجرد ديون بسيطة من مملكة سومار نستطيع القول إنها عرض منهم ساعد منطقتنا على النهوض.. ولا داعي لأن تشغل بالك أيها الأمير، فقد تم الاتفاق مع مبعوث سومار لمناقشة هذا الموضوع..

فخاطب جلال الدين نفسه بأسى:

- لجعلنا لعبة في أيديهم يقلبونها كيفما شاؤوا ..

ولم يخف على الوزير الذكي ملاحظة ما يدور في خلد جلال الدين، وتيقن من أنه بدأ يباشر عمله بجدية قد لا تحمد عقباها؛ بداية من اطلاعه على الأوراق الهامة، لاسيما وهو متأكد تماما من جهله التام بكل هذه الأمور من قبل، ورغب التأكد من صحة ظنونه دون أن يبدي فضولا بذلك محاولا أن يبدو حديثه كلاما عابرا لا أكثر:

- لا أعرف ما إن كان الحراس يؤدون واجبهم على أكمل وجه هنا أم لا!

فهم جلال الدين ما يرنو إليه فلم يزد على قوله:

- لا أعتقد أن هناك أحدا يقوم بواجبه خير قيام في هذا القصر!

وأسقط في يد الوزير الذي كاد يتميز حنقا، أما جلال الدين فلم يرم من جوابه هذا إلا إفحام الوزير الذي يظن بنفسه الذكاء والفطنة، إذ أنه ليس بحاجة لإخفاء حقيقة دخوله القاعة الرسمية ليلة أمس، فقال بلا مبالاة:

- فوجئت البارحة وأنا أقلب نظري في الأوراق بتصريح غريب يتعلق بمتجر للخمور، هل صحيح ما كتب فيه؟

أومأ الوزير رأسه بالإيجاب:

- لقد ارتأينا أن تجارة الخمور قد تزيد من دخل المنطقة بزيارة المتجولين لها مما يساهم في تحسين وضعنا المالي وتطوير المنطقة..

علق جلال الدين:

- ولو كان على حساب معتقداتنا وديننا!

فقال الوزير بخبث:

- عفوا يا سيدي، ولكن مطابخ القصر نفسها تمتلئ بالخمور الفاخرة بأمر من الحاكم، الذي يستضيف كبار المبعوثين من مختلف المناطق والممالك بما فيها غير المسلمة..

ثم تابع وهو يضغط على حروف كلماته:

- وقد يرتشف منها شيئا..

أخذ الوزير يتابع أثر كلماته الصاعقة ليكشف عن باطن هذا الأمير- الذي ظن بأنه سيكون قادرا على تحديد مصيره- حتى تنامى إلى سمعه صوته الواهن وكلماته المتهدجة:

- هل يشرب أبي الخمور حقا !!!

ابتسم الوزير بخبث شديد:

- بالطبع يا سيدي، ولكن بقدر بسيط لا يطيش بعقله ويذهب بحكمته وحكمه..

تنهد الأمير:

- ولكن ما يسكر كثيره فقليله حرام!

وحدّث نفسه بأسى:

- إن انشغالي بالمكتبة لفترات طويلة، أغفلني عن أبسط الأمور التي تدور من حولي..

وتمتم:

- أعنّي يا إلهي..

وأخيرا قال:

- إذن لن أستغرب من وجود (دور العرض)، التي لا تتورع عن عرض نساء عاريات، وفرق الغناء التي تتجول بحرية لنشر الفساد..

فابتسم الوزير:

- لا تكن متشائما هكذا يا سيدي، فنحن نرتقي بمنطقتنا نحو الأفضل بحمد الله..

لم يُبدِ الأمير أدنى تعليق، بل تابع:

- وشيء آخر، فقد طالعت جدول أعمال القصر، وأريد معرفة ماهية الحفلات الخاصة المذكورة، فتكاليفها باهظة بشكل مريع!

فتظاهر الوزير بالأسف الشديد قائلا:

- يؤسفني يا سيدي أنك لم تكن تتابع تلك الحفلات ولا تعرها أدنى اهتمام، ومن شدة حب والدك لك لم يضغط عليك يوما ليخرجك من جو المكتبة الذي عشقته، واسمح لي القول بأنك قد تقوقعت داخله تماما..

ثم تابع غرس سهامه الحادة بقوله:

- إنها حفلات تخصص من أجلها مبالغ باهظة جدا من المال لإعدادها وإحضار أشهر فرق الغناء والرقص إليها حتى ولو تم استقدامها من ممالك بعيدة، ومناسباتها عديدة، قد تقام إكراما لوفد من مملكة ثرية، أو حتى لمجرد الترفيه؛ كالحفلات التي تقيمها زوجة الحاكم أو الأميرة إن شعرت بالملل..

فتنهد الأمير:

- يشعرون بالملل.. وهل هذه الحفلات ممتعة إلى هذه الدرجة؟

فأجابه الوزير بإثارةٍ مفتعلة:

- بالتأكيد يا سيدي، فأنت لم تشاهدها حتى الآن، وكما تعلم، فالنساء خاصة يسعدهن الظهور بأبهى زينتهن، ولفت الأنظار نحوهن، ولن تتصور مدى فرحهن إن استطعن جذب الاهتمام إليهن..

ثم تابع وقد تيقن من ضربته القاصمة:

- ولا تسل عن سعادة الأميرة عند تهافت الشبان لمراقصتها..

لم يتم الوزير جملته إذ أفلتت صرخة مكتومة من حنجرة الأمير:

- أمتأكد أنت مما تقول!

وتهاوى في مقعده، إذ أنه لم يكن يتقبل فكرة تبرج أخته حتى صعق بمراقصتها للشبان أيضا..

ابتسم الوزير بخبث:

- إن لم تصدقني يا سيدي فإنك تستطع التأكد من ذلك بنفسك، ثم لا يذكر أمام..

فقاطعه جلال الدين بحزم:

- لا داعي لأن تكمل، ولكنني أريد أن أعرف..

ثم وهن صوته وهو يتابع:

- أين أبي من هذا كله!! أتراه يوافق على ذلك!

فتابع الوزير بسعادة:

- ولماذا يمانع يا سيدي؟!

ثم استدرك بسرعة وكأنه خشي مقاطعة جلال الدين له:

- كما أن الفتيات يتنافسن رغبة في مراقصة الأمير شهاب الدين..

زفر جلال الدين بحسرة وألم:

- حتى شهاب ! إنا لله وإنا إليه راجعون !!

فقال الوزير موضحا بنبرة أراد لها أن تنم عن حكمة:

- اسمح لي القول يا سيدي إن انزواءك في المكتبة قد جعلك تفكر بطريقة تختلف عن الآخرين، فلا تتقبل ما أصبح مألوفا، بل حتميا في هذه الأيام، ثم إنني متأكد من أنك ستغير أفكارك هذه؛ إن شاركت في هذه الحفلات المبهجة، فأنت ما تزال شابا يافعا تتمتع بقدر كبير من الوسامة، وستسعد بصحبة الفتيات الجميلات بلا شك..

لم يسع جلال الدين إلا القيام من مكانه، قائلا بلهجة آمرة:

- تستطيع الانصراف الآن، وكن على أهبة الاستعداد فلربما أحتاج إليك..

وبامتثال تام قال الوزير:

- أنا رهن إشارتك يا سيدي وفي أي وقت تشاء..

وخرج وهو يؤمل تحقيق نجاح باهر في إصابة ذلك الوتر الحساس، وأطبق فمه على ضحكة مكتومة تجلجل صداها في أعماق نفسه..

***

أخذ أصيل يتحدث بحماسة وانفعال شديدين وهو يقرأ على رفاقه آخر الأخبار من صحيفة أحضرها معه، قبل أن يعلق بقوله:

- أليس هذا أمرا مثيرا بالفعل!

أما علاء الذي بدا مشدوها بما يسمعه لوهلة فقد نهض من مقعده متجها نحو أصيل:

- هل بامكاني قراءة الخبر بنفسي!!

فابتسم أصيل وقد سره اهتمام علاء:

- بالتأكيد يا صديقي، فقد أحضرت النسخة خصيصا لك، لقد عاد الأمل من جديد والحمد لله..

وقرأ علاء بتمعن: "...بناء على توجيهات سامية من الحاكم نجم الدين واقتراحاته المجيدة في اجتماع منطقة العيون، بدأت جيوش سبعة مناطق اسلامية تستعد للزحف باتجاه المروج الخضراء لتقف إلى جانب المجاهدين هناك، وقد أعرب القائد هواس- القائد الأعلى لجيوش منطقة الجبال والمسؤول المباشر عن تنسيق العمل بين الجيوش المتحدة – في تصريحات له تفيد حرص الحاكم نجم الدين وجهوده المبذولة في تحقيق الهدف المنشود....."

في حين التفت حسام نحو طلال الذي كان مطرقا بصمت، وهمس له:

- أتعتقد أن لصالح يداً في ذلك!

فاكتفى طلال بكلمة واحدة أجابه بها بعد تفكير عميق:

- ربما..

فقال حسام:

- خبر كهذا كفيل بجعل علاء يغفر لصالح خروجه المفاجئ تلك الليلة دون السلام عليه..

ولم ينتظر تعليقا من طلال، إذ سرعان ما انضم إلى الحلقة حول علاء والتي ترأسها أصيل بحماسة:

- هيا، ألن تكتب لوالدك رسالة تخبره بها عن هذا الخبر الهام؟

فابتسم علاء قائلا:

- أشعرتني وكأنني على بعد خطوتين من أبي!

فضحك حسام بسعادة:

- وماذا في ذلك! إنه شعور متفائل جدا يا علاء..

قال علاء:

- ولكن وديع لم يسترح بعد من آخر مهمة له!

طمأنه ياسر باسما:

- لا تقلق، فالحمد لله، بعد أن أثبت وديع جدارته بالثقة التي وضعتها فيه، لم يعد هناك مستحيل بفضل الله..

لكن أصيل تابع بلهجة جادة:

- ما يهمني الآن هو أن تكتب لوالدك بأن صديقك العزيز أصيل بلال اسماعيل، هو أول من زف لك هذا الخبر البهيج..

ولم يستطع أحد من الرفاق حبس أنفاسه عن الضحك..

***

استلقى علاء على سريره بسعادة بعد صلاة العصر، وهو يتأمل الرسائل التي وصلته من والديه خلال الأيام الفائتة. من كان يتخيل هذا! الحمد لله الحمد لله .. يارب لك الحمد أن استجبت دعائي.. الحمد لله......

وأعاد قراءة الرسالة التي خطتها أمه بيدها:

"ابني وحبيب قلبي وقرة عيني علاء، لقد وصلتني دعواتك، وقد تحسنت صحتي كثيرا- بفضل الله- فلا تقلق عليّ، فأمك لا تقل شجاعة عنك أيها الفارس المقدام، فانتبه لنفسك جيدا وإياك والتهور والاغترار بنفسك، ولا تنس أذكار الصباح والمساء، والله يحفظك ويرعاك. أمك المحبة"

ضم علاء الرسالة لصدره، ولثمها بشفتيه، وهو مغمض العينين كمن يستشعر وجود أمه على مقربة منه، ثم تذكر أنه لم يُكمل ورده من القرآن، فنهض من سريره لائما نفسه:

- لم يتبق من رمضان سوى يوم أو يومين..

وضع الرسالة في الصندوق الذي اشتراه خصيصا ليحفظ به رسائل والديه، كما تحفظ المجوهرات النفيسة، وفتح الخزانة حيث علق حلة العيد الجديدة، فتأملها للحظات برضا وابتسم بسعادة وهو يتذكر ارساله لصورة لها لوالديه، حتى يشاركهم فرحة العيد؛ بعد أن طلب من ياسر رسمها، فردد مرة أخرى وهو يتناول مصحفه:

- الحمد لله حمدا كثيرا..

وأخذ يرتل ورده بصوت خاشع جميل..

***

ما إن أنهى طلال حزم أمتعته، حتى دخل عليه حسام مسرعا وهو يقول:

- لقد وصلت العربة يا طلال، هيا أسرع فعلاء وعدنان ينتظرانك بالأسفل..

فابتسم طلال وهو يعيد ترتيب سريره باتقان:

- حسنا على مهلك، منذ متى وأنت تستعجل هكذا!

فضحك حسام:

- يوم لك ويوم عليك..

فمازحه طلال:

- أم أنك تريد الخلاص مني بسرعة!

فحملق فيه حسام بدهشة:

- وتمزح أيضا!! سبحان مغير الأحوال..

وضحك الاثنان بمرح، غير أن طلال سرعان ما استدرك قائلاً:

- من الجيد أنك ستبقى في اجازة العيد هذه هنا، فياسر سيذهب مع أهله لزيارة جده في القرية، و زيد سيكون مشغولا مع أهله بالترتيبات لزفاف أخته بعد العيد، وحسان وأصيل سيكونان مشغولين جدا بضيوفهم وأقاربهم في الاجازة، والحال نفسه مع معاذ، أما قاسم الذي لن يعود بطبيعة الحال لبلاده في هذه الاجازة القصيرة، فسيقضي العيد مع ابناء بلده بالتأكيد، وكما فهمت من عدنان؛ فإنه سيذهب مع عائلته إلى وسط المدينة ليكونوا قريبين من المشفى حيث يرقد أخوه سليم..

والتقط نفسا قبل أن يتابع:

- أظنها ستكون فرصة جيدة لتصطحب علاء لمزرعة خيول نجيب ونبيل، فسيسر برؤيتها كثيرا بلا شك..

فقال حسام:

- ان شاء الله..

ثم علق:

- أشعرتني وكأنك ستغيب دهرا!! لقد أسمعتني من النصائح والارشادات ما يكفيني لسنة كاملة!! أجازة العيد لا تتجاوز أربعة أيام يا صديقي، ولا أدري ما الذي سيمكننا فعله خلالها فلدينا الكثير من الأشغال!!

فابتسم طلال:

- هذه مشكلتك دائما.. بالتنظيم والترتيب يمكنك إنجاز كل شيء!

واستدرك قائلا:

- بالطبع لستُ مسؤولا عنك، عدها مجرد نصيحة صغيرة، أعرف أنك متلهف لقراءة رواية (الطريق إلى الشمس) في الإجازة بعد أن حدثتك أختك عنها، ولكنني أتمنى أن تقضي الوقت برفقة علاء فهذا أفضل، خاصة وأنها ستكون أجازة العيد الأولى التي سيقضيها بعيدا عن أهله..

فنظر إليه حسام بتأثر:

- معك الحق..

وتابع مُطَمئنا:

- ولكن لا تقلق، ثق بي يا صديقي ولو لمرة واحدة، بإذن الله سيكون هذا العيد من أجمل الأعياد التي مرت على علاء..

ضحك طلال قائلا:

- لا تسء فهمي، فأنا لم أقصد ذلك..

فقال حسام وهو يحمل حقيبة طلال وينزل بها مسرعا:

- بالطبع أفهم قصدك جيدا..

ولحقه طلال:

- انتظر لحظة..

ضحك حسام بمرح وهو يقفز عن الدرجات:

- لا بأس يا معلمي الفاضل، حمل حقيبتك واجب علينا أدبا واحتراما..

***

توقع علاء أن تكون ليلة العيد هادئة جدا، فلا أحد في الطابق سواه هو وحسام بعد أن غادر الجميع، غير أن حسام قلب الدنيا رأسا على عقب وهو يعدّ أكياس الحلوى الصغيرة ويحاول ربطها بقصص عن الأنبياء والصحابة والتابعين، بطريقة جذابة- طالبا من علاء مساعدته فيها- حتى يقدموها للاطفال في يوم العيد، وأخيرا قال:

- أظنها ستكون هدايا جميلة! ما رأيك بها يا علاء؟ لم يبق إلا القليل..

فقال علاء:

- إنها فكرة رائعة بحق يا حسام، كيف خطرت على بالك؟ فهكذا سيكون العيد مميزاً ومفيداً بلا شك..

فابتسم حسام:

- في الحقيقة استوحيتها من كلام طلال، عندما قال بأننا يجب أن نفكر بطريقة تشجع الأطفال على القراءة، ما رأيك..

أبدى علاء اعجابه بالفكرة:

- رائع..

فتابع حسام:

- بدأنا بتنفيذ هذه الفكرة في عيد الفطر السنة الماضية، قضيت وقتها العيد مع طلال في مدينته برق، وصرفنا وقتها جميع مدخراتنا في تحضير الهدايا، ولن تتخيل كم كانت فرحة الأطفال كبيرة، حتى أن أحدهم أخذ يهتف: لقد أصبح عندنا (بامو)..

واستدرك حسام متسائلا:

- أنت تعرف (البامو)؟

فهز علاء رأسه بالايجاب:

- أجل فقد كان لنا جيران من غير المسلمين، و عندما كانوا يحتفلون بعيد الراكا الخاص بهم، يأتي البامو كما يسمونه، حاملا الهدايا لأطفالهم، لقد سألتني أختي الصغيرة ذات مرة؛ لماذا لا يأتي عندنا البامو نحن أيضا!

ولم يكمل علاء عبارته إذ سرعان ما استرسل في حبل ذكرياته، غير أن حسام سرعان ما أخرجه منها قائلا بمرح:

- ولهذا السبب يا صديقي علينا أن نبتكر كل الوسائل المشجعة لنشعر الأطفال ببهجة العيد، كما كان الرسول- صلى الله عليه وسلم- والصحابة يفعلون مع الأطفال..

فضحك علاء:

- يا لخيالك الخصب يا حسام، ألا تكفيهم (العيدية)!!

وقبل ان يرد حسام بشيء فوجئ الاثنان بطرق على الباب، فنهض حسام بسرعة يرى الطارق، في حين جفل علاء قليلا:

- ترى من يمكن أن يكون! أيعقل أنه المشرف عاطف!!

وما إن فتح الباب حتى أطل قاسم باسما:

- أرجو أن لا أكون قد أفزعتكما في هذا الوقت!

فهتف حسام بحماسة:

- مرحبا قاسم، لم نتوقع أن تكون هنا هذه الليلة!

فأجابه قاسم:

- بعد أن ذهبت مع أصدقائي إلى السوق واشتريت حلة جديدة، رأيت أنه من الأفضل أن أؤدي صلاة العيد في المصلى القريب معكم إن شاء الله، ومن ثم أذهب لزيارة معارفي..

فقال له حسام بنبرة تحمل نوعا من الرجاء:

- ما رأيك أن تأتي معنا لزيارة مزرعة الخيول! قد نلعب لعبة المواجهة!

فكر قاسم قليلا قبل أن يقول:

- تبدو فكرة مسلية، سأرى في الغد إمكانية ذلك ان شاء الله..

وتابع وهو يقلب بصره بين الأشياء المبعثرة على الأرض:

- أهذه هدايا العيد! متى ستنتهون من ترتيبها؟ لقد تأخر الوقت كثيرا!!

فضحك علاء معلقا:

- من الجيد أنك هنا، وإلا وجدنا أنفسنا بلا رقيب أو حسيب، خاصة مع غياب طلال..

نظر اليه حسام معاتبا:

- هكذا إذن، أصبحت أنا مصدر الفوضى هنا!

ضحك قاسم:

- المهم، هل جهزتم حللكم الجديدة حتى لا تتأخروا بإعدادها غدا!

فأجابه علاء باسما:

- لقد أحضرت حلتي مع عدنان قبل ثلاثة ايام والحمد لله، إنها جاهزة تماما، بفضل الله..

ثم التفت نحو حسام مستذكرا:

- لقد أحضرنا الأحذية الجديدة، أليس كذلك؟؟

فضرب حسام جبهته بكفّه:

- يبدو أني نسيت الصندوق في الأسفل، فقد كانت الأكياس التي جلبناها من السوق ثقيلة..

وتابع معلقا بابتسامة عريضة:

- حقا كما قال علاء؛ من الجيد أنك هنا يا قاسم..

وضحك الثلاثة وهم يتمنون عيدا سعيدا لهم وللمسلمين جميعا، وبعد أن ساعدهم قاسم في تجهيز الهدايا بسرعة قال متثائبا:

- هيا إلى النوم، فالمسافة لمصلى العيد بعيدة نوعا ما، وإن لم نخرج باكرين ونصلي الفجر هناك فقد تفوتنا التكبيرات.. تصبحون على خير، وتقبل الله طاعاتكم، وكل عام وأنتم بخير..

وقبل أن يذهب إلى غرفته استدرك قائلا:

- بالمناسبة، أخبرني السيد كريم، بأنه قد وضع أكياس زكاة الفطر قرب الباب الرئيس، حتى لا ننسى أخذها معنا غدا إن شاء الله..

***

قُضيت صلاة فجر العيد، وتوافد الجميع من كافة الاتجاهات زرافات ووحدانا، نحو مصلى العيد الكبير بعد أن اغتسلوا وتطيبوا وارتدوا الملابس الجديدة؛ اتباعا لسنة الحبيب المصطفى- صلى الله عليه وسلم- وقد رددت الأجواء أصداء التكبيرات العذبة، لتنشرها مع عبير الورود وعطر الياسمين في كل مكان..

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله..

الله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد..

الله أكبر كبيرا .. والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا..

لا إله إلا الله.. ولا نعبد إلا إياه.. مخلصين له الدين ولو كره الكافرون..

رددها علاء مع حسام وقاسم وهم يسيرون باتجاه المصلى حاملين أكياس الهدايا التي أعدوها ليلة أمس..

كان المصلى قد بدأ بالامتلاء عندما وصلوا، وعلت نبرة التكبيرات من جوانبه، في حين أخذ الاطفال كعادتهم ينتقلون بسعادة بين صفوف الرجال الأمامية وصفوف النساء الخلفية، وهم يمرحون فرحين بملابسهم الجديدة، كالفراشات الملونة التي تتطاير بين الزهرات..

وقبل أن يأخذ علاء مكانه في الصفوف الأمامية مع رفيقيه؛ شعر بأحدهم يقفز على ظهره هاتفا:

- لقد وصل لقد وصل..

فالتفت ليجد سيف الدين ابن اخت أصيل يشده من كمه:

- هيا تعال وشاركنا التكبيرات في المقدمة، لقد قمنا بتكوين فرقة رائعة للتكبير مع خالي أصيل..

فابتسم علاء وهو يسلم عليه مصافحا:

- حسنا حسنا، ها نحن قادمون..

ضحك حسام معلقا:

- يعرف أصيل كيف يبث روح الحماسة في قلوب الصغار، إنه خال رائع بحق ماشاء الله..هيا بنا..

فاستوقفهما قاسم منبها:

- احذرا من أن تضيع الأكياس منكما، فتَفسدُ مفاجأة الصغار!

فأطلق حسام ضحكة خفيفة معلقا:

- وكأن طلال قد أوكل إليك بمهامه اليومية!

وسرعان ما التحق الثلاثة بالحلقة التي توسطها أصيل وحسان والصغار، ليعلوا صوتهم بالتكبير حتى ارتفعت الشمس قدر ثلاثة رماح، ووقف الشيخ عبد الرحيم- الذي رُشح لإمامة الناس في صلاة العيد هذا العام- فهدأت الأصوات وهو ينادى بصوته الجهوري:

- "صلاة عيد الفطر جامعا.. يا أمة محمد عليه الصلاة والسلام..

وهي سنة مؤكدة، يكبر في الأولى سبعا سوى تكبيرة الاحرام..

وفي الثانية خمسا سوى تكبيرة القيام..

وما بين التكبيرة والتكبيرة:

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

فقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"

فرُصّت الصفوف بسرعة، وشرع الإمام في الصلاة مكبرا، وكبر المصلون من خلفه مرددين التكبيرات السبعة في مشهد مهيب..

قرأ الشيخ عبد الرحيم في الركعة الأولى سورة الأعلى وفي الثانية سورة الغاشية، وبعد أن سلم من الصلاة؛ استهل خطبة العيد بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم، موصيا بصلة الأرحام، ونبذ الخلافات، وتطهير

القلوب من الغل والأحقاد، لتتصافح القلوب قبل الأيادي، وتنشرح الصدور قبل ابتسامات الثغور، فإنما الدين المعاملة وما أُعطي أحد خير من الخلق الحسن، ولا شيء أثقل في الميزان يوم القيامة منه، فتهادوا تحابوا وتراحموا يرحمكم الرحمن...

وفي الخطبة الثانية قرأ قول الله عز وجل: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾، وقد قال فيها:

رغم آلام أمتنا وجراحنا في كل مكان، ورغم حالنا الدامي إثر تفككنا وتكالب الأمم علينا لضعفنا وهواننا أثر ابتعادنا عن تطبيق ديننا، ورغم ما تعانيه الانسانية من ظلم ودمار وحروب يهون فيها الإنسان على أخيه الإنسان، إلا أننا لن نفقد الأمل في انصلاح الأحوال، وسنفرح بالعيد ابتهاجا بفضل الله علينا، وقد شرع لنا هذه المناسبة العظيمة ترويحا لقلوبنا وشحذا لهممنا، فلتفرحوا وتسعدوا بطيبات ما أحل الله لكم، واشكروا الله على نعمه يزدكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾.. تقبل الله طاعاتكم وكل عام وانتم وامتنا الاسلامية والعالم بأسره بخير وعافية وأمن وسلام.. والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

***

تصافح الأصدقاء إثر انقضاء الخطبة بعد أن صافحوا الشيخ عبد الرحيم، وقبل أن يهم علاء بتوزيع القصص على الاطفال استوقفهم حسان باقتراحه:

- ما رأيكم أن نضيف للهدية معنى آخر جميلا هذه السنة!

قال معاذ:

- لقد فكرنا في هذا السنة الماضية، ولكن الأطفال سرعان ما كانوا يذهبون مع أهاليهم، ألا تذكر؟

فأجابه حسان:

- سنجعلها أسئلة خفيفة وسريعة، ولا داعي لأن نقسمهم لفرق متنافسة كالسابق، مجرد أفكار سريعة..

فهز قاسم رأسه موافقا:

- فكرة جيدة، وقد خطر لي سؤال محدد وهام جدا..

صمت الأصدقاء وهم ينظرون إليه بانتظار جوابه، فيما قال هو بهدوء:

- هل ترمون القمامة والنفايات على الأرض أم في أماكنها المخصصة؟

فهتف حسام بانفعال:

- يا لهذه الفكرة العبقرية، ستكون لفتة جميلة جدا، إنني موافق..

وأضاف زيد:

- وأنا أيضا، وقد ننوع بالأسئلة الخفيفة هذه، قبل أن نعطي كل واحد منهم هديته..

فقال أصيل بحماسة:

- سأتولى أنا بنفسي سؤال أبناء اخوتي، ولا أظنهم بعدها سيحصلون على أي هدية..

وأطلق ضحكة سرعان ما بترها- وهو يتأوه- بعد أن آلمته أذنه إثر يد شدتها، ليجد أخاه الكبير أمجد والد رائد واقفا خلفه، وهو يعاتبه بابتسامة ودودة:

- هذه أيام عيد، أيها الأخ الصغير المشاكس، وكل عام وأنت بخير..

فأخذ أصيل يمسح أذنه بيده متأوها:

- أي عيد هذا بعد قرصتك يا أخي!

فضحك أخوه:

- لقد تعلمت منك، أفلا تراه يشبه مزاحك اللطيف!!

ثم صافح أصدقاء أصيل باسما:

- يسرني أن أتعرف على أصدقاء أخي الصغير، وهذه فرصة لأقتص لكم من مقالبه..

فضحك حسام بمرح:

- ليس إلى هذه الدرجة، إنه لطيف ولا يستحق منك إلا كل خير..

فهز أصيل رأسه وقال وهو يكتف ذراعيه:

- ها قد سمعت بنفسك يا رجل، إن أخاك لا يستحق منك إلا كل خير، وأنت تعرف معاني الخير العديدة في القرآن.. وأهمها ما ورد في سورة العاديات!

فابتسم معاذ وقد فهم قصده معلقا:

- يا لدهائك يا أصيل..

وقال علاء كمن حل لغزا:

- لقد فهمتها الان فقط، أنت داهية فعلا..

في حين قلّب أخو أصيل نظره بين الأصدقاء متسائلا:

- ما الذي تقصدونه يا أولاد!!

فأجابه زيد:

- يقصدون تفسير كلمة الخير الواردة في سورة العاديات ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾..

فأطرق أمجد برأسه مرددا:

- تفسير كلمة الخير!!

ثم أطلق ضحكة أشبه ما تكون بضحكات أصيل المعتادة، وهو يخاطب أصيل:

- هكذا إذن..

فهز أصيل رأسه وهو يقاوم ضحكة أخرى ليحافظ على المظهر الذي يود الظهور به:

- على الأقل اعتبرها مساهمة منك في ثمن الهدايا، التي سيحصل أبناؤك على جزء منها..

فرد عليه أخوه وهو يخرج محفظته:

- في هذه الحالة سأسلمها لأصدقائك أيها المخادع..

وناول مائة قطعة نقدية لحسان قائلا:

- ستنوب أنت عنهم، فلا ترفضها يا حسان فهذه هديتي لكم فأنتم مثل أخي..

فابتسم حسان:

- لا تقلق فما زلنا أطفالا نأخذ العيدية ونحب الهدية، أليس كذلك يا رفاق؟

فلوى أصيل شفتيه اعتراضا:

- هذا ليس عدلا!!!

فضربه أخوه على كتفه مازحا:

- حسابك أنت في البيت.. والآن بسرعة ابدءوا تنفيذ مشروعكم قبل أن تخلو الساحة من الأطفال، فمن حسن الحظ أنهم كانوا مجتمعين في الساحة الخلفية عند قسم النساء..

وأشار لزيد بحركة من يده باسما:

- يبدو أن أخواتك يقمن بالواجب هناك..

ابتسم زيد وهو يشعر بشيء من الحرج:

- أخوات حسان أيضا والفتيات الأخريات جميعهن متعاونات في ذلك..

فهز أمجد رأسه موافقا، قبل أن يستدرك متسائلا:

- بالمناسبة.. فقط للتأكد؛ متى موعد زفاف أختك؟

فأجابه زيد:

- بعد ثلاثة أيام إن شاء الله، رابع يوم من شوال..

فتهلل وجه أمجد باسما:

- هذا جيد فستتمكن زوجتي من حضوره إن شاء الله، قبل أن نعود.. أسأل الله أن يوفقكم لكل خير..

فابتسم زيد شاكرا:

- جزاك الله خيرا، سيكون حضوركم شرفاً كبيراً لنا..

وقلب أمجد بصره بين الأصدقاء بابتسامة عريضة:

- إن أصيل محظوظ بكم فعلا فالحمد لله على نعمه العظيمة، واعذروني على مداخلتي هذه، فقد أطلت عليكم بما يكفي..

فقال حسام باسم المجموعة وهو يشد على يديه باسما:

- بل لقد سررنا بوجودك معنا، فقد أشعرتنا بمرح العيد فعلا، كنتما ثنائيا رائعا.. وجزاك الله خيرا على كرمك..

فغمزه أمجد ضاحكا:

- إذن يمكننا تقديم عروض مسرحية للأطفال ..

وضحك الجميع بمن فيهم أصيل الذي لم يقاوم إضافة تعليق أخير مستدركا:

- فقط للتنبيه، لقد نسيت أن تقول يا أخي بأن أصدقائي محظوظون بي أيضا..

فابتسم أخوه وهو يشد أذنه:

- هذه وجهة نظر تُحترم بلا شك.. ولا يمكنني قول غير ذلك الآن؛ وأولادي في عنايتك..

فوضع أصيل يده على خاصرته:

- هكذا إذن!

فغمزه أخوه:

- ألم نتفق من قبل!! حسابك في البيت.. فإلى اللقاء الآن، أراكم على خير..

قال عبارته الأخيرة وهو يلوح للجميع بيده، وما إن ابتعد حتى تحلق حولهم الأطفال، حيث قام زيد ومعاذ بتوزيع الحلوى وهم يتعرفون على الأطفال وأسمائهم، فيما قام قاسم وعلاء بتوزيع القصص الجميلة للأطفال بعد أن يجيبوا على الأسئلة الخفيفة التي يطرحونها عليهم، في حين شرع حسام بكتابة اسم كل طفل على بطاقة ملونة بخطه الجميل، مضيفا إليها عبارة تشجيعية: "جعلك الله ممن ينهض بهذه الأمة أيها البطل" ليلصقها على القصة معه، وقد تولى حسان وأصيل رعاية الصغار والانتباه لهم، خاصة وأن إخوَة حسان وأبناء إخوَة أصيل من أكثر الأطفال إزعاجا ومشاكسة في المكان، لا سيما وأنهم يعرفون بعضهم البعض فغدوا كفريق متكامل من الازعاج!

أمضى علاء وقتاً سعيدا بصحبة الأطفال، أنسته مرارة بعده عن مدينته، وقد بدا مستمتعاً تماما في ما يقوم به، حتى أفرغ هو ورفاقه ما بجعبتهم من هدايا وقصص..

قال أصيل:

– لم يكن ينقص جمعتنا هذه إلا ياسر، لا شك أنه يقضي الان وقتا ممتعا مع الحيوانات الأليفة في القرية.. كان بودي أن أرى تفاعله مع الأطفال!

فقال حسام معاتبا:

– وماذا عن طلال!!

فاستدرك أصيل:

– هل تصدق أنني نسيت غيابه!! لقد شعرت وكأنه معنا..

فضحك حسام مشيرا لقاسم:

– معك الحق في هذا، لقد أقنعتني..

فابتسم قاسم:

– هذا شرف كبير لي..

و قبل أن يضيف أي منهم كلمة أخرى، جاءهم صوت يقول بمرح:

– وماذا عني أنا!! ألم يفتقدني أي واحد منكم؟؟

فالتفتوا نحو مصدر الصوت ليجدوا عماد يقترب منهم مسلما، فهتف علاء بسعادة:

– السيد عماد هنا أيضا!!

فابتسم عماد وهو يصافحهم الواحد تلو الآخر، فيما كان يحمل صندوقا صغيرا من الكعك بيده الأخرى:

- وهل يطيب العيد من دون رؤية الأحبة في مدرسة النصر، تقبل الله طاعاتكم وكل عام وأنتم بخير يا شباب.. تفضلوا، هذا كعك العيد الذي صنعته أمي..

فقال حسان وهو يستأذن بتناول الحبة الثالثة:

- جزاك الله خيرا لهذه اللفتة الطيبة، وسلمت يدا أمك الغالية..

فعلق أصيل:

- يبدو أنني سأضطر للتنازل عن حصتي لأجلك يا أخي!!

فابتسم عماد:

- لا تقلق فقد أحضرت معي كمية كافية، وستسر أمي إن علمت أن كعكها قد أعجبكم.. هنيئا مريئا..

فقال معاذ مستدركا:

- من الغريب أننا لم ننتبه لوجودك هنا من قبل! فقد سلمنا على جميع المعلمين والمدربين الذين أتوا لأداء الصلاة هنا ولم نجدك بينهم!

فأجابه عماد ببشاشة:

- هذا لأنني جئت بعربتي مسرعا خصيصا لرؤيتكم، بعد أن أديت صلاة العيد في المصلى القريب منا..

فهتف حسام بسعادة:

- هذا رائع، لقد كفيتنا مؤونة الذهاب لمزرعة نجيب ونبيل فالحمد لله..

فحدجه أصيل بنظرات استفهام:

- ماذا!! هل تخططون للذهاب إلى هناك من دوني؟؟

فأجابه قاسم:

- ألم تستمع لوصية الشيخ عبد الرحيم في الخطبة؛ عليك بصلة أرحامك أولا..

فابتسم أصيل وقد فهم المغزى:

- في هذه الحالة.. أتمنى لكم وقتا طيبا..

وبعد أن تصافح الجميع، صعد علاء وقاسم وحسام إلى العربة، وقال عماد:

- هل أنتم مستعدون للإنطلاق نحو المزرعة الآن؟

رد حسام:

- سأحضر بعض الأشياء من غرفتي..

فقال عماد بحماسة وهو يهز لجام الحصان ليتحرك بالعربة:

- سنتوقف عند المدرسة أولا، ثم ننطلق باتجاه المزرعة ان شاء الله.. هيا بنا..

***

بدأت المزارع والحقول تلوح للعيان مع تقدم العربة نحوها، فهتف علاء وهو يشير إلى أحدها:

- هذا حقل الربيع أليس كذلك؟ يبدو مختلفا عن السابق!

فأومأ عماد برأسه:

- أجل.. لا تنس أنك زرته في أواخر الشتاء ونحن الان على مشارف الصيف، وقد بدأت سنابل القمح فيه تميل للاصفرار..

وتابع عماد كلامه على أصوات حوافر حصانه، الذي أخذ يحثه على المضي بهم قدما:

- سآخذكم أولا إلى الساحة التي يجتمع المزارعون والفلاحون فيها عادة لتناول إفطار الأعياد بعد عودتهم من صلاة العيد، ستجدون نجيب ونبيل بينهم هناك..

فسأله قاسم بتوجس:

- أمن المناسب أن نطلب منهم الذهاب لزيارة مزرعة الخيول في هذا اليوم! أخشى أننا سنثقل عليهما بطلب كهذا!!

ضحك عماد:

- ومن سيفكر بأمر كهذا، بعد أن قطعنا هذه المسافة!

وتابع مطمئنا:

- لا تقلق.. فلا أظنهما يغيبان عن زيارة المزرعة يوما واحدا، ولا حتى في الأعياد.. إن الخيول جزء لا يتجزأ من حياتهم..

كان تموّج السنابل الذهبية تحت أشعة شمس الضحى، يُضفي عليها جمالا ساحرا يسر الناظرين، خاصة وهي تتراقص على أنغام زقزقة العصافير المحلقة حول الفزاعات المزينة بالشرائط الملونة، وكأنها تشارك الجميع ابتهاجهم بفرحة العيد..

قال عماد مخاطبا حسام دون أن يلتفت إليه:

- سمعت بأنك شاعر.. ألن تتحفنا بوصف شعري لهذا الجمال..؟

غير أن حسام الذي تشبث بكتابٍ يقرؤه؛ كان في شغل عنه، فابتسم علاء ليرد نيابة عنه:

- لا أظنه يسمعك الآن.. فهو مستغرق تماما في الرواية!

فالتفت عماد نحوه ليخطف نظرة سريعة، قبل أن ينظر نحو الطريق أمامه من جديد وهو يقول بتعجب:

- تبدو رواية مشوقة جدا حتى تشغل حسام عن التأمل في هذه المناظر الرائعة على غير عادته!! ترى ما اسمها؟؟

فأجابه علاء:

- "الطريق إلى الشمس"..

هز عماد رأسه باهتمام:

- يبدو اسما مثيرا!! ترى عن ماذا تتحدث؟؟

فأخبره علاء بفكرتها على عجالة، كما سمعها من حسام، دون أن يلاحظ أثر كلماته تلك على قاسم، الذي ارتعدت أطرافه فجأة، وقد خرجت تلك العبارة القديمة من قمقمها في رأسه، لتتمثل أمامه بهيبتها " لا تنس دورك أيها الأمير"..

غير أن قاسم تجاهل ذلك مؤقتا، وخاطب حسام وهو يحاول لفت انتباهه إليه:

- يمكنك تأجيل القراءة إلى وقت لاحق يا حسام، فمتع ناظريك الآن بجمال الطبيعة حولك..

و كمن يفتح عينيه للمرة الأولى، رفع حسام رأسه عن كتابه بانبهار:

- أين نحن الآن!

ضحك عماد مجيبا:

- في الطريق إلى الشمس!

هتف حسام بدهشة- وهو لا يزال تحت تأثير الرواية:

- حقا!!!

فضحك علاء وقاسم، فيما ابتسم حسام وقد انتبه لنفسه، فأغلق الرواية بعد أن وضع علامة عند الصفحة التي توقف عندها، وردد وهو يمتع ناظريه ببديع صنع الله:

- سبحان الله..

غير أن عماد سأله بفضول لم يُشبعه بعد:

- ألهذه الدرجة هي مشوقة؟

فأجابه حسام بحماسة:

- إنها ليست مشوقة وحسب، بل ومليئة بالحكم الرائعة، وهذا ما شدني إليها أكثر، ولهذا- على ما اعتقد- أخبرني المعلم شاهر بأنه سيقررها ضمن دروس أدب سومار، انظر إلى هذا المشهد مثلا؛ عندما يقابل الأمير أثناء رحلته حكيما فيقيم في بيته ثلاثة أيام، فيشهد في اليوم الأول حوارا بين الحكيم وفتى أصيب بالاحباط؛ لأنه أقل تميزا من أخوته ورفاقه، فيقول له الحكيم..

وتوقف حسام عن سرد الحكاية، وهو يبحث عن الصفحة التي ورد فيها قول الحكيم حتى عثر عليه، فتابع وهو يترجم ما يقرؤه:

- "كل انسان على وجه الأرض يمتاز بميزة عن غيره، ولكن الفرق بين من نطلق عليهم لقب المتميزين وغيرهم، أنهم عرفوا نواحي تميزهم فأظهروها، وإلا فكل الناس مميزون في الواقع، فابحث عن ميزاتك يا بني وأحسن توظيفها تكن مميزاً"..

كان عماد قد بطّأ سير العربة وهو يهز رأسه تعبيرا عن إعجابه بما يسمعه، في حين التقط حسام نفسا قبل أن يتابع كلامه:

- المدهش في هذا المشهد لا يقف عند هذا الحد؛ بل يتعداه إلى ما يلي ذلك عندما يُفاجأ الأمير بتصرف الحكيم مع شاب اشتهر بتميزه عن أقرانه، حين جاءه في اليوم التالي ليحدثه عن حالة غريبة مر بها، ويتحدث الناس أنها بسبب تميزه، ويسأله إذا ما مر أحدهم بحالته النادرة المميزة تلك، فيجيبه الحكيم بثقة أنها حالة عادية جدا ولا شيء مميز في أمر كهذا.. وبعد ذهاب الشاب يسأل الأمير الحكيم متعجبا من رده الذي كان عكس ما أجاب به الفتى في اليوم السابق، فيجيبه الحكيم بقوله..

وفتح حسام الرواية ليحاول ترجمة كلمات الحكيم كما وردت بالنص الأصلي قدر الاستطاعة:

- " الحقيقة هي نفسها، لكنها صيغت بطرق مختلفة لتناسب حالة كل منهما؛ فالفتى تنقصه الثقة ويحتاج لمن يعززها في نفسه، والشاب يعاني من الغرور الذي قد يدفعه لتوهم أمور لا صحة لها، والكلام صحيح في الحالتين فإن قلنا إن كل انسان متميز بشيء، فهذا يعني أن بإمكاننا القول بأن التميز أمر عاديّ عند الجميع"..

فهتف علاء:

- تعبير رائع!!

فتابع حسام وقد انسجم تماما في الحديث عنها:

- وبعد ذلك يقول الحكيم للأمير: " حتى تلاحظ تميزك عليك أن تكون سليم القلب بريئا من نظرات الحسد للآخرين، فهي أهم الأسباب التي تحجب معظم الناس عن الانتباه لتميزهم الحقيقي، والذي غالبا ما يموت مدفونا في أعماقهم، قبل أن تحين ساعة دفنهم في التراب، فلا تكن مثل ذلك الرجل الذي يتحسر على كل مفقود، ويغفل عن الموجود، ولا يرى الخير إلا فيما لا يستطيع الحصول عليه!"..

وعند تلك الجملة أوقف عماد العربة، والتفت إلى حسام:

- هل هذا حقا ما ورد في النص الأصلي، أم أنها من كلماتك يا حسام؟!!

فهز حسام رأسه نفيا:

- انني أحاول الترجمة بدقة قدر المستطاع!

فقال عماد:

- هل قلت أن هذا المؤلف غير مسلم!! يبدو صالحا جدا..

فأومأ حسام برأسه إيجابا:

- أجل و اسمه لورابار كولي، آمل لو أتمكن من مراسلته، سأحاول الحصول على عنوانه إن شاء الله، فمن يدري لعل الله أن يجعلني سبب هداية في طريقه.. وقد دعوتُ الله له كثيرا في آخر ليالي رمضان فأسلوبه يبعث على التفاؤل بشكل كبير..

فابتسم قاسم:

- يعجبني فيك تفاؤلك الكبير هذا.. وبغض النظر عن المؤلف، وليكن من يكون، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها..

فقال علاء وقد أعجبته فكرة حسام:

- و لكن مؤلفاً كهذا يستحق منا الدعاء فعلا..

فأردف حسام وهو يتلو الآية:

- ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

صمت قاسم واستغرق في تفكير عميق، كمن يسمع الآية لأول مرة، و ابتسم عماد وهو ينزل من العربة:

- سررت برفقتكم يا أصدقائي، فالجلوس معكم غنيمة ما شاء الله..

وأشار بيده إلى سياج من الأشجار:

- هناك يجتمع الفلاحون والمزارعون الآن.. هيا بنا..

***

لم يظن علاء بأنه سيشعر بمضي وقت طويل منذ أن رأى نجيب و نبيل آخر مرة، ورغم أنه لم يكن قد قابلهما إلا لفترة محدودة، إلا أن نجيب بدا مختلفا تماما، حتى أنه شك بأن يكون هو نفسه، كان متلهفا جدا ليشكره على هديته التي أهداها له، لكن نجيب لم يُبد اهتماما بذلك وهو يكلمه ببرود، وأدرك نبيل- الذي رحب به وبحسام وقاسم بحرارة- ما يدور بخلد علاء، فقال معتذرا بنبرة آسفة:

- أخي نجيب يمر بلحظات عصيبة، فهو يصر على السفر بشكل غريب وأمي تعارض فكرته بشدة، فأصبح مزاجه حادا جدا هذه الأيام، وقد قام أحد المزارعين قبل قليل بفتح هذا الموضوع معه دون قصد ، لذا أرجو ان تعذروه..

هز علاء رأسه متفهما:

- لا بأس وأرجو أن لا يكون وجودنا الآن عبئا عليه!

فبادره نبيل بقوله:

- لا تقل هذا يا علاء، فقد سررت كثيرا برؤيتكم، وسيسعدني أن ترافقوني للمزرعة، فقد كنت ذاهبا إليها في جميع الأحوال..

واستطرد متابعا:

- وحتى إن لم يأت نجيب معنا الآن، فسرعان ما سينعدل مزاجه ويتبعنا إن شاء الله، فهو سريع التقلب بطبعه.. إنه أخي الكبير وأنا أعرفه جيدا.. لذا لا تهتموا بذلك..

فابتسم حسام مطمئنا:

- لا تقلق، فما دمنا قد أتينا لرؤية الخيول، ونجيب يحب الخيول بطبعه، فسرعان ما سنقضي وقتا ممتعا معاً إن شاء الله.. نحن على ثقة من هذا..

ابتسم نبيل ببشاشة:

- لم تتغير كما عهدتك أيها المتفائل السعيد.. هل تذكر؟

ضحك حسام موضحا لعلاء وقاسم:

- هذا اللقب الذي أطلقه عليّ نجيب؛ عندما قابلته أول مرة، وأرجو أن أكون كذلك فعلا بإذن الله..

فالتفت نبيل نحو عماد- الذي أنهى حديثه للتو مع أحد الفلاحين:

- هل ستأتي معنا؟

اعتذر عماد قائلا:

- سأذهب لاصطحاب أمي، فقد تركتها عند قريبتها..

ثم وجه كلامه لقاسم:

- ستذهب لزيارة معارفك قبل المغرب على ما أذكر، لذا سأعود اليكم بعد العصر لإيصالكم إن شاء الله..

فقال قاسم:

- لا تشغل بالك بأمر عودتنا، فيمكننا تدبر أمرنا، فعربات الإركاب متوفرة..

ابتسم عماد بمرح:

- يسرني سماع ذلك..

وفي تلك الأثناء أقبل الفلاح ربيع مع ليلى الصغيرة، وهما يحملان أطباق الكعك الساخن، فهتف عماد بسعادة بالغة- وهو يندفع نحو ربيع معانقا:

- الحمد لله أنني رأيتك يا عم، كل عام وأنت بخير، فقد كنت على وشك الذهاب بعد أن أخبروني أنك عدت لمنزلك، ولم يكن بامكاني الانتظار أكثر، ولكن من حسن حظي على ما يبدو أن أتذوق..

فقاطعه ربيع بقوله:

- ألا تحمل عني هذا الطبق أولاً، بدلا من كل تلك الثرثرة يا ولد!!

ولم يخف على علاء ملاحظة العصبة الملفوفة حول معصم ليلى بإحكام، والذي بدا من تحت كمها الطويل، عندما رفعت يديها لتري نبيل الطبق هاتفة:

- لقد نضج الكعك أخيرا..

ثم جالت ببصرها في المكان، قبل أن تسأله بلهفة:

- أين نجيب؟؟

فأجابها وهو يتناول الطبق منها بيده اليمنى:

- لقد كان هنا قبل قليل، أظنه ذهب مع (سحاب)..

بدا الحزن في عينيها الخضراوين الصافيتين، وهي تقول:

- لقد كان حزينا وأردت أن أفاجئه، فاليوم عيد..

فربت نبيل على كتفها بحنان:

- لا تحزني فسيعود بالتأكيد..

و قدم طبق الكعك لعلاء وحسام وقاسم قائلا بابتسامة تشجيعية لليلى:

- لقد ساعدت ليلى أمها وأمي في صنعه، انه طازج تماما وأرجو أن يعجبكم مذاقه..

غير أن ليلى قالت- وهي تحاول الإصغاء:

- كأنه صوت حوافر (سحاب)، أليس كذلك يا نبيل؟؟

و قبل أن يجيبها نبيل بشيء، أقبل نجيب على ظهر جواده، حتى إذا ما اقترب منهم قفز عنه ببراعة وهو يبتسم قائلا:

- لقد مللت انتظار الكعك فذهبت في جولة..

فهرعت نحوه ليلى بسعادة، وأخرجت من حقيبتها الصغيرة طوقا من الورود الجميلة، وهي تقول بابتسامة عذبة:

- ما رأيك بهذه المفاجأة!! لقد صنعته خصيصا لك حتى تبتهج بالعيد..

فأحنى رأسه؛ ليساعدها على تطويق عنقه به، قائلا:

- شكرا لك يا عزيزتي أنت بارعة حقا، و لكن من قال لك بأنني لم أكن مبتهجا من قبل!

فحدقت به ليلى باستنكار:

- لقد رأيتك بنفسي وأنت تخرج إلى صلاة العيد.. لم تكن سعيدا حتى أنك لم تنتبه لي وأنا أسلم عليك!!

فضحك نجيب:

- أنت غاضبة إذن لأني لم أسلم عليك!! حسنا انني اعتذر..

إلا أن ليلى تابعت بنبرة تحمل نوعا من الحزن، وكأنها ليست الفتاة الصغيرة ذات الأعوام الثمانية:

- أمك تحبك يا نجيب صدقني...

وبترت عبارتها، وقد ترقرقت دمعة بلورية في عينيها الصافيتين، بدا بعدها التأثر واضحا على وجه نجيب، فمسح دمعاتها بيده، وهو ينحني على ركبته قائلا:

- وأنا أحب أمي يا عزيزتي، لذا ذهبت لأعتذر منها على ما بدر مني من حدّة..

فأشرق وجه ليلى بابتسامة مشرقة:

- هل ستتخلى عن فكرة السفر؟

صمت نجيب وهلة، قبل أن ينقر جبهتها بأصبعه غامزا:

- لا تشغلي نفسك بهذا الشأن، ودعينا نبتهج بالعيد.. ألا ترغبين في المجيء معنا للمزرعة؟

وبدلا من أن يسمع إجابتها، قفز من مكانه بغتة؛ متفاديا ببراعة ضربة سُددت نحو كتفه، والتفت على الفور ليواجه عماد الذي اشتبك معه بالأيدي، قائلا:

- لقد تطورت مهاراتك كثيرا يا نجيب، أتذكر أول مرة؟

فابتسم نجيب وهو يعاركه بمهارة:

- لن تحلم بمثلها مرة أخرى.. فقد ولى ذلك الزمن..

فأرخى عماد يديه متراجعا للخلف معلنا وقف العراك، وهو يقول مبتسما:

- هذا يكفي الآن، فلا وقت لدي لأريك شأنك يا ابن الخمسة عشر ربيعا..

فضحك نجيب وهو يلتقط انفاسه:

- أنت تذكر عمري أكثر مني يا رجل!!

فابتسم عماد:

-هذا لأنني لم أتوقع أن تكبر بهذه السرعة- ما شاء الله- لتقلص فارق السنوات السبع بيننا!!

ثم التفت نحو ليلى التي كانت تصفق لنجيب بفخر، قائلا:

- إلى اللقاء أيتها المشاكسة.. يبدو انني لن أجلب لك الحلوى مرة اخرى اذا ما أصررت على الوقوف ضدي..

فردت عليه ليلى بلا مبالاة:

- سيحضر لي نجيب أفضل منها بالتأكيد..

فضحك عماد وهو يشد على يد نجيب:

- أظن أنني سأتنازل عن مواجهتك مستقبلا ما دام الأمر هكذا..

ثم استطرد قائلا:

- لا داعي لأن أوصيك بأصدقائي الصغار، فقد أتوا خصيصا لرؤية خيول المزرعة..

فابتسم نجيب:

- وكأنك تستفزني لكي أفسد عليهم يومهم هناك! ولكن اطمئن فحبي للخيول ينسيني أي شيء آخر..

و بعد أن غادر عماد، نظر نجيب إلى حيث وقف الفلاح ربيع مع نبيل وعلاء ورفيقيه وهم يتحدثون مع الموجودين أثناء تقديم الكعك وتناوله معهم، فنادى أخاه:

- أين (فيض) يا نبيل؟ هيا ألن تذهبوا للمزرعة!!

فأطلق نبيل صافرة طويلة ما لبث بعدها أن سمع صوت صهيل فيض وهو يعدو مسرعا نحوه، حتى إذا ما مثل بين يدي نبيل، ربت على جبهته قائلا:

- ستعاون سحاب في جر العربة التي ستقلنا إلى المزرعة، اتفقنا..

صهل (فيض) وكأنه يجيبه بالموافقة، فيما قام نجيب ونبيل بربط جواديهما بإحدى العربات القديمة الموجودة في الساحة، حتى إذا ما تم احكام ربط العربة، دعوا علاء وحسام وقاسم للصعود، فسلموا على الفلاح ربيع- الذي قبل ابنته ليلى مذكراً:

- اعتني بنفسك جيدا ولا تسببي الازعاج..

أجابته ليلى بمرح:

- اطمئن يا أبي، فقد أصبحتُ كبيرة..

وصعدت إلى جانب نبيل ونجيب، اللذين جلسا في المقدمة للقيادة..

قال نبيل بعد أن سارت بهم العربة:

- سوف نعبر طريق حقول القمح أولا، ومن ثم مزارع الخضار..

فسأله قاسم:

- و هل مزرعة الخيول بعيدة من هنا؟

فأجابه نبيل:

- ليس كثيرا إذا انطلقت على ظهر جواد سريع، لكن المسافة تطول قليلا مع الطرق الملتوية، عبر المزارع والحقول، المخصصة لمسار العربات..

فتساءل قاسم:

- ولكنكم لا تسلكون هذه الطريق في العادة، أليس كذلك؟

ابتسم نبيل:

- بالطبع، فهناك طريق مختصر بين منزلنا والمزرعة..

فتدخلت ليلى بقولها:

- لكن هذا الطريق لا يمكننا السير فيه وحدنا!

فضحك نبيل لكلامها موضحا:

- إنها تقصد إن وعورة الطريق وانحدارها تعيقان السير فيها، فنحن لا نسلكها إلا على متن أحصنتنا..

وأضاف معلقا:

- أنت تعلم، معظم تحركاتنا هنا مرتبطة بالخيول..

قال حسام بإعجاب:

- أجل لقد لاحظت ذلك في المرات السابقة أيضا، فأنت ونجيب من أمهر الخيالة الذين قابلتهم ما شاء الله.. كما أنك تبدو منسجما جدا مع (فيض)، ما شاء الله..

فأضافت ليلى:

- حتى نجيب وسحاب تربطهما علاقة مميزة، فهو قد يغضب من الجميع باستثناء سحاب!

فضحك نجيب الذي كان يقود العربة بصمت منذ بداية الرحلة:

- وأنت ألم تقولي ذلك من قبل!

فاحمرت وجنتاها وهي تقول بابتسامة مشرقة:

- لا يمكنني أن أنسى فضل سحاب عندما أنقذني، انه رائع جدا..

فابتسم نبيل موضحا للأصدقاء:

- كان ذلك عندما حاولت اللحوق بنا للمزرعة وحدها عبر الطريق الوعرة..

فاعترضت ليلى:

- كان الحق عليكم لأنكم لم تأخذوني معكم..

فقال نجيب:

- لا تقولي أنك ما زلت غاضبة منا! فقد قدمنا لك سيلا من الاعتذارات بعدها..

فضحكت ليلى بمرح:

- بالطبع لقد سامحتكم، فأنتم أخوتي قبل أي شيء..

ثم هتفت بسعادة- وهي تشير بيدها إلى تل مرتفع:

- ها هو سور المزرعة هناك.. لقد وصلنا..

ومع كلماتها تلك؛ لاحت لهم بوابة كبيرة على الجانب الشرقي من السور المحيط بالمزرعة، والممتد لمسافات شاسعة، ليبدي من خلفه مساحات المزرعة المترامية الأطراف، فردد علاء بانبهار:

- ما شاء الله.. تبدو مزرعة كبيرة جدا أكبر مما تخيلت!!

فقال نبيل:

- انها تعد واحدة من أكبر مزارع الخيول في المنطقة بفضل الله، فهي تحوي أكثر من ثلاثمائة رأس خيل والحمد لله..

هتف علاء بانفعال:

- ما شاء الله!!! وكيف تستطيع أنت ونجيب رعاية الخيول كلها؟!!!

فأفلتت من نجيب ضحكة وهو يقول:

- لسنا خارقين بالطبع لنقوم بذلك كله وحدنا..

وضّح نبيل كلام أخيه، قائلا:

- بفضل الله، أنا وأخي متعاونان في إدارة شؤون المزرعة، ونبذل جهدنا في ذلك منذ وفاة والدنا، رحمه الله، ولدينا عدد لا بأس به من العمال الذين يشرفون على رعاية الخيول معنا والحمد لله.. إنه عملنا الذي مارسناه منذ نعومة أظافرنا يا علاء..

أضاف نجيب بفخر:

- لقد أخبرك عماد- على ما أعتقد- أن معظم خيول مدرستكم؛ ولدت في هذه المزرعة ونشأت فيها، كما قال لك أخي.. إنه عملنا الذي مارسناه منذ نعومة أظافرنا..

هتفت ليلى بلهجة معترضة:

- وأنا أيضا.. أعرف كيف أعتني بمهر صغير!

ضحك نجيب:

- نحن لم ننكر هذا أيتها الآنسة اللطيفة!!

وابتسم نبيل- وهو يربت على شعرها:

- بالطبع لا ننسى دورك يا عزيزتي.. حتى اصدقاؤنا يعرفون هذا..

والتفت نحوهم غامزا:

- أليس كذلك؟

فابتسم علاء وهو يهز رأسه متفهما، وقد ازداد اعجابه بهذين الأخوين- اللذين استطاعا المحافظة على مزرعة والدهما رغم صغر سنهما- فتمنى لهما التوفيق من أعماق قلبه، وهو يتذكر ما أخبره به عماد عنهما عندما قابلهما أول مرة..

نزل نبيل و فتح البوابة الكبيرة، ليسمح للعربة بالمرور، أخذ علاء يقلب بصره في المكان مبهورا بما يراه، فقد كان هناك عدد من الاشجار والنباتات الخضراء، التي أضفت جمالا على المكان، فيما ظهرت خلفها؛ الممرات الممهدة بين الاسطبلات، والمبنية في تنسيق بديع ومنظم..

وأمام كوخ صغير أوقف نجيب العربة قائلا:

- هذه الاستراحة هنا..

ونزل من العربة ثم أمسك بيد ليلى ليساعدها على النزول، فاعترضت بقولها:

- لم أعد صغيرة، استطيع القفز مثلك ومثل نبيل.. انظر..

وأمسكت فستانها لئلا يعلق بحافة العربة فيما حذرها نجيب بقوله:

- انتبهي جيدا وإلا آذيت نفسك..

وبعد أن اطمأن عليها أسرع نحو (سحاب)، يفك رباطه من العربة معتذرا:

- سامحني يا صديقي فقد جعلتك تنتظر كثيرا..

فابتسم نبيل، وهو يخاطب علاء الذي كان يتابع نجيب بعينيه:

- سحاب حر كصاحبه فكلاهما يكره القيود..

وإذ ذاك صهل (فيض) رافعا حوافره الأمامية معبرا عن اعتراضه، فأسرع نحوه نبيل ليفك رباطه قائلا:

- لم أقصد الإساءة يا صديقي العزيز فأنت حر أيضا..

وربت على جبهته باسما:

- ولكنك صبور كصاحبك..

فصهل (فيض) وهو يمسح رأسه بوجه نبيل علامة الرضا..

فقال له نبيل باسما:

- سأتركك تأخذ استراحة قصيرة الآن..

أما علاء- الذي بهر بالعلاقة الحميمة والتفاهم بين نبيل ونجيب وأحصنتهما- فقد سرح بفكره بعيدا.. هل سيأتي اليوم الذي يمتلك فيه صديقا وفيا ومخلصا كفيض وسحاب!! صحيحٌ أن الفرس (أصيلة) رافقته في تدريبات الركوب، لكنها فرس تدريب عامة وليست ملكه وحده.. واسترسل في افكاره تلك دون أن يشعر بمن حوله، حتى انتبه الى حسام الذي جذبه من يده:

- ما بك شارد هكذا يا صديقي، هيا، ألن تشاركنا الجولة في المزرعة، أم أنك تفضل الوقوف هنا!!

فابتسم علاء:

- بالطبع لم أقطع هذه المسافة كلها لأقف هنا!!

ضحك حسام قائلا:

- اذن هيا بنا.. فقاسم مع نبيل بانتظارنا..

أخذ نجيب بتسوية بعض الأمور مع أحد العاملين في المزرعة، فيما أخذت ليلى تقفز هنا وهناك خلف الفراشات وكأنها واحدة منهن، عندما وقف نبيل يشرح للأصدقاء آخر التطورات فيها:

- لقد قمنا بإعادة ترميم عددا من الاسطبلات الرئيسة، ونحن بصدد انشاء اسطبل جديد فقد تكاثرت خيولنا بفضل الله، ولم تعد الاسطبلات القديمة تكفي..

وأشار بيده نحو الجهة اليمنى وهو يشير اليهم ليتبعوه:

- هنا تقع اسطبلات الخيول الفردية، وقد خصصناها لخيول السباق والصيد..

أخذت الخيول- المطلة برؤوسها من داخل اسطبلاتها، المصفوفة بنظام على الجانبين- تصهل بتتابع، وهم يمرون بقربها، كمن تؤدي التحية الواجبة للضيوف، فيما أخذ نبيل يحيي كل واحد منها باسمه، وهو يقوم بمهمة التعريف به..

ثم سار بهم نحو الاسطبلات الجماعية، موضحا:

- هنا تجتمع خيول الجر والعمل، وفي الاسطبل المجاور توجد خيول الركوب وخيول التدريب..

ثم أدخلهم إلى اسطبل الخيول الصغيرة، حيث كانت بعض المهور ترضع من امهاتها، وهناك جلست ليلى على ركبتها قرب مهر صغير، حيث كانت قد سبقتهم الى هناك، فقال لها نبيل مؤنبا:

- لقد ظننتك مع نجيب، ألم نطلب منك أن لا تسيري وحدك!

فردت عليه بتذمر:

- انه مشغول مع عاملي البناء الآن، ثم انني لا ارغب بالسير معكم؛ فأنا أعرف المزرعة جيدا، وأرغب بالبقاء هنا مع لولو..

وتابعت بانفعال مندفع:

- كما أنني لم أذهب خارج حدود المزرعة ولم أعد صغيرة!

فهدأها نبيل بقوله:

- بالطبع لقد أصبحت كبيرة، ولكن المزرعة كبيرة أيضا، ونحن لا نقول هذا إلا خوفا عليك..

وبتر عبارته اثر سماعه لصهيل (سحاب) خارج الاسطبل، فهتفت ليلى بسعادة:

- لا داعي للخوف، فسحاب يتبعني..

فابتسم نبيل وقد اطمأن قلبه:

- حسنا ولكن لا تبتعدي كثيرا..

وقبل أن يخرجوا؛ استدرك حسام فجأة وهو يفتح حقيبة حملها على كتفه، وقد تذكر شيئا:

- لقد نسيت أن أعطيك هدية العيد يا ليلى..

وقدم لها قصة ملونة مع كيس حلوى، قائلا:

- أرجو أن تعجبك الهدية، فقد احتفظت بها خصيصا لأجلك..

فوقفت ليلى و هي تتناولها منه بفرح:

- شكرا لك، انني احب قراءة القصص كثيرا، كما أن لولو تحب الحلوى مثلى..

والتفتت إلى المهرة الصغيرة قائلة:

- أليس كذلك لولو؟

فضحك الأصدقاء ثم تابعوا جولتهم على اسطبلات الخيول الأخرى، وبعد ذلك أشرفوا على مساحات شاسعة، محاطة بسياج من أخشاب الأشجار المرصوصة بذوق جميل، رأى علاء في داخلها عددا من الأبنية ذات الأعمدة المتينة مفتوحة من الجانبين، فيما رأى عددا من الخيول تجري فيها بحرية في جميع الاتجاهات، فقال نبيل:

- هذا ما نطلق عليه اسم الاسطبلات الطليقة الرعوية، والتي نضع فيها بعض الخيول لتنشأ في بيئة شبيهة ببيئتها الطبيعية، لذا نتركها دون تعريف، وتكون عادة عصية على الاستئناس..

فسأله علاء:

- ما الذي تقصده بالتعريف؟

فأجابه نبيل- وهو يشير إلى أحد المباني الصغيرة في الجهة المقابلة للاسطبل الطليق:

- في ذلك البناء نقوم عادة بوسم الخيول؛ لتعريفها عن طريق كي ارجل الحصان الخلفية بجدائد تحمل ارقاماً وحروفاً مختلفة، كما نقوم فيه بعمليات التحذية أيضا، فهو أشبه ما يكون بالمَحددة هنا..

فقال حسام بحماسة:

- أجل أذكر هذا جيدا، فقد جئت لرؤيته مع طلال، بعد أن قرر احتراف مهنة الحدادة..

فابتسم نبيل:

- كانت أياماً جميلة قضينا فيها وقتا ممتعا معكم، لقد كان طلال رائعا جدا- ما شاء الله- حتى إن مُعلّم الحدادين عندنا ما زال يذكره..

فتهلل وجه حسام بابتسامة وكأنه هو المعني بهذا المديح، قائلا:

- ليس هذا غريبا على طلال، فهو مميز في ادائه دائما، بل و في أي عمل يقدم عليه ما شاء الله..

لكنه استدرك قائلا بابتسامة مرحة:

- أو على حسب ما ورد في " الطريق إلى الشمس"، يعرف نواحي تميزه جيدا ويعرف كيف يستثمرها..

ثم استطرد ليشرح عنها قائلا:

- انها رواية رائعة تحمل الكثير من معاني الحكمة..

فابتسم قاسم- الذي كان يتأمل الخيول بصمت معظم الوقت:

- رغم أنني لم أقرأها بعد، لكنها أثبتت الآن أنها ذات فائدة تطبيقية عظيمة..

فهز نبيل رأسه موافقا:

- تبدو كذلك فعلا.. لقد أعجبني ما نقلته منها عن التميز يا حسام..

فقال له حسام وقد سره كلام نبيل عنها:

- يسعدني أنها أعجبتك، وأعدك أن أقصها عليك ذات يوم، إن سمح وقتك بذلك..

ثم قال بحماسة:

- أما الآن فانني انتظر بلهفة الذهاب الى ساحة السباق والترويض، فمنذ وقت طويل لم نلعب لعبة (المواجهة) فنحن أربعة وهذا هو الحد الأدنى للمشاركين في اللعبة، فما رأيكم يا رفاق؟؟

فأجابه علاء بحماسة مماثلة:

- هذا رائع فأنا متحمس للركوب أيضا..

وهز قاسم رأسه موافقا:

- وأنا أيضا..

فقال نبيل باسما:

- اذن هيا بنا، فقد حانت اللحظة الحاسمة، لنرى مهاراتكم يا فرسان مدرسة النصر ..

وبعد جملته تلك انطلق صوت الأذان، فقال حسام بدهشة:

- أيعقل أن يكون قد دخل وقت الظهر!! لم أتوقع أن يمر الوقت بهذه السرعة!!

وتساءل قاسم:

- من أين أتى صوت الآذان؟؟ فأنا لم أر مئذنة تدل على وجود أي جامع في الجوار!!

فأجابه نبيل:

- انه من غرفة المصلى الصغير، الذي بنيناه في المزرعة، والأذان بصوت الحارس أسعد، فهو من يُقيم الصلاة عادة..

فقال علاء:

- من الجيد أننا لم نبدأ اللعب بعد، فسنصلي أولاً ومن ثم نذهب إلى هناك..

وبعد أن أدوا الصلاة جماعة، استأذن نبيل منهم قائلا :

- أرجو المعذرة، ولكن هل تمانعون في انتظاري هنا، ريثما أذهب لرؤية أمي، فقد أوصلتها هي وأخواتي الصغيرات لزيارة قريباتها من بعد صلاة العيد، ولا أعرف إن كانت تود الذهاب لمكان آخر، فاليوم أول أيام العيد كما تعلمون، وأريد الاطمئنان عليها فقط؛ فربما تكون بحاجة لشيء..

فبادره حسام بقوله:

- بل نحن من سيطلب منك أن لا تبقى معنا، حتى تذهب وتطمئن على أمك، وهذا رأينا جميعا.. أمك ثم أمك ثم أمك.. أليس كذلك؟

فأومأ علاء وقاسم برأسيهما مؤكدين:

- بالطبع لا شك في هذا..

فابتسم نبيل بامتنان شديد:

- شكرا لكم، لن أتأخر..

فقال له حسام مؤكدا:

- بل أرجوك تأخر، وخذ من الوقت ما تريد..

وتابع باسما:

- ستكون هذه فرصة لنا لنمارس الركوب على خيولكم هنا قبل اللعب...

فتهلل وجه نبيل:

- اذن سأذهب وانا مطمئن هكذا، أنت تعرف يا حسام خيول التدريب، إنها في مكانها نفسه، كما كانت في السنة الماضية..

ضرب حسام بقبضته على صدره، قائلا بحركة مسرحية:

- أمرك سيدي، ثق بي وسأكون عند حسن ظنك، أتمنى لك التوفيق في مهمتك..

فضحك نبيل:

- حسنا لا داعي لكل هذا، أرجو أن تستمتعوا بوقتكم..

وما إن أطلق صافرته المميزة؛ حتى كان (فيض) قد مثل أمامه، لينطلق به نحو غايته..

***

لم يكد علاء ينهي ثلاث دورات حول الساحة الكبيرة، قفزا عن الحواجز على ظهر فرس اختارها من اسطبل التدريب، حتى سمع صوت نبيل على ضربات حوافر (فيض)، وهو يهتف:

- السلام عليكم يا رفاق.. لقد عدت.. هيا، حان وقت الغداء..

فهرع نحوه حسام الذي كان للتو قد ربح جولة سباق الخيول بينه وبين قاسم، معاتبا اياه بابتسامة لائمة، بعد أن رد عليه السلام:

- لقد ذهبتَ لإحضار الغداء إذن!!

فرد نبيل مدافعا عن نفسه:

- لم أكذب عليكم، لقد ذهبت لرؤية أمي بالفعل، وعندما عرِفَت بوجودكم، استعجلتني لأعود، وأرسلت معي هذه السلة..

وتابع بابتسامة محببة:

- انها ترسل لكم تهانيها بالعيد، وتدعوكم لتتذوّقوا شطائرها..

فابتسم حسام بمرح، وهو يترجل عن ظهر حصانه:

- ونحن نرحب بهذه الفكرة.. جزاها الله خيرا، فطعم شطائرها اللذيذة لا يزال عالقا في ذاكرتي منذ آخر مرة..

وقال قاسم موجها حديثه لنبيل بابتسامة:

- حقا جزاكم الله خيرا.. فقد بدأت أشعر بالجوع..

تساءل علاء، الذي التحق بهم بعد أن ترجل عن فرسه، ملتقطا أنفاسه:

- ولكن أين نجيب وليلى، ألن يأتوا لتناول الطعام معنا؟؟

فأجابه نبيل مطمئنا:

- لا تقلق.. لقد أعطيتهما حصتهما في طريقي إلى هذه الساحة، فلدى نجيب بعض الاعمال، وليلى لن يستطيع أحد اقناعها بالابتعاد عن لولو!

وأضاف ملتفتا إلى حسام:

- انها مستمتعة بالقصة كثيرا، وهي تشكرك عليها..

فابتسم حسام:

- ولها الشكر أيضا أن أعجبتها هديتي، والحمد لله...

ولم يمض وقت طويل تناولوا خلاله طعامهم، حتى انضم نجيب إليهم في الساحة الممهدة، قبل أن يبدءوا النزال، فقال نبيل بفرح:

- حسنا هذا جيد فقد كان ينقصنا الحكم، بعد أن انقسمنا لفريقين بالقرعة.. الفريق الأول مكون مني وعلاء، والثاني من قاسم وحسام..

عندها قال نجيب- وهو يتأمل أحصنة التدريب التي أعطاها نبيل لكلٍ من حسام وعلاء وقاسم:

- ملاحظتي الأولى هي ان عليك يا نبيل أن تترك (فيض) ليحل مكانه أحد أحصنة التدريب مثل البقية..

فحك نبيل رأسه بابتسامة مُحرَجة:

- معك الحق، فهذا هو العدل رغم انني لم أقصد..

فهز حسام رأسه دلالة على الرضا:

- ماشاء الله، مدهش!! لقد اثبت حكمنا أنه عادل تماما حتى في الأمور التي لم تخطر لنا ببال، لقد ازددت حماسة للفوز في ظل هذا الحكم الرشيد..

فضحك نبيل- الذي أحضر حصانا آخر ليقف قرب علاء- قائلا:

- سوف نرى..

فتساءل نجيب:

- وماذا عن الرايات؟

فأجابه نبيل وهو يريه قطعة قماش بيضاء صغيرة:

- لقد أحضرت قِطعَتَيْ قماش من المستودع، وستكون هذه رايتنا..

وقال حسام وهو يرفع قطعة مماثلة من القماش بلون أخضر:

- وهذه رايتنا..

فأعاد نجيب على مسامعهم قوانين اللعبة مؤكدا:

- على كل فريق أن يقف على بعد ثلاثة أذرع من خط المنتصف، في مواجهة الفريق الآخر، ولا يجوز لأي فرد أن يمتطي حصانه قبل شارة الانطلاق، والفريق الذي يتمكن أحد أفراده من اختراق دفاع الفريق المنافس، والوصول لخط النهاية في جهته، وهو يحمل الراية يكون الفائز..

وصمت كمن يتأكد من كونه لم يغفل شيئا، ثم قال:

- طبعا تعرفون الباقي، فالفريق الذي يسقط أحد أفراده عن ظهر حصانه، أو يُسقط الراية قبل خط النهاية يخسر الجولة..

و أطلق نجيب شارة البداية لتبدأ المواجهة..

كانت الجولة الاولى حامية الوطيس، أبدى الأربعة فيها أفضل مهاراتهم، ورغم أن نبيل يعد خيالا بفطرته؛ إلا أن فرسان مدرسة النصر أثبتوا جدارتهم ليكونوا أكفياء له، فمر الوقت دون أن يستطيع أحد الفريقين التقدم على الآخر، حتى رُفع أذان العصر، فأعلن نجيب التعادل بين الفريقين في أجواء من السعادة والمرح..

لم يذكر علاء أنه استمتع من قبل في لعبةٍ كاستمتاعه بلعبة المواجهة ذلك اليوم، حتى إنها أخذت محور حديثه مع حسام، في طريق العودة، بعد أن افترقا عن قاسم- الذي ذهب لزيارة معارفه..

***

كان علاء ينفض فراشه استعدادا للنوم، عندما دخل حسام إلى الغرفة، وهو ينشف شعره بمنشفة صغيرة، وقد ارتجف جسده قائلا:

- ألم تقل لي بأن هناك كفاية من الماء الساخن! لقد اضطررت للاغتسال بماء بارد في النهاية!

فقال علاء بتعجب:

- ولكنني عندما اغتسلت وجدت الماء ساخنا! يبدو أن هاني أطفأ الموقد تحت خزان المياه بعد أن صعدتُ للغرفة!!

ثم استدرك معاتبا:

- لقد نصحتك بأن تذهب للإغتسال بسرعة قبل أن يتأخر الوقت أكثر، خاصة وأن فترة دوام العاملين في المدرسة في أيام العيد لا تتجاوز ساعات محددة..

فقال حسام باسما:

- لا بأس لا بأس، خيرا حصل وقدر الله وما شاء فعل.. ماذا كان بوسعي أن أفعل قبل أن أعثر على أشيائي الضائعة!!

ثم فتح خزانته ليرتبها، بعد أن عمتها الفوضى أثناء بحثه عن منامته قبل أن يذهب للإغتسال، معتذرا:

- سأحاول ترتيب هذه الفوضى العارمة بسرعة، لذا أرجو أن تعذرني إن أبقيت المصباح مشتعلا لبعض الوقت..

فرد عليه علاء وهو مستلقٍ على سريره باسترخاء:

- لا تقلق، فما زال الليل بأوله..

وخيمت لحظة صمت، سرح فيها علاء قليلا قبل أن يسأل حسام:

- هل تعتقد أن بإمكاننا الحصول على حصان خاص بنا!!

فابتسم حسام وهو ينفض محتويات خزانته:

- أهذا ما كان يشغل بالك إذن؟ لقد توقعت هذا؛ فقد أنتابني الشعور نفسه عندما ذهبنا للمزرعة السنة الماضية.. وحسب ما فهمت؛ بأننا إن اجتزنا اختبار الترشيح لمرتبة باسل فسيكون لكل واحد منا حصانه الخاص..

فهتف علاء بسعادة:

- حقا!!

وحلق بخياله بعيدا.. ترى.. كيف سيكون شكل حصانه؟؟ وهل سيشبهه في شخصيته!! وما هو اسمه!! سيكتب لوالديه عنه بالتأكيد.. فكم يتوق شوقا لذلك اليوم السعيد، الذي سيمتطي به صهوة حصانه، ويعدو على متنه نحو مدينته شمس..

فحدث نفسه بإصرار وحماسة، وقد أعطاه ذلك دافعا إضافيا ليضاعف جهده:

- انتظرني يا أبي، وانتظريني يا أمي، فلن أتأخر كثيرا إن شاء الله..

وغط في نوم عميق..

لم يتأخر حسام في ترتيب خزانته؛ إذ سرعان ما أطفأ المصباح، وذهب لقاعة الدراسة مصطحبا معه " الطريق إلى الشمس". وبعد أن أنهى كتابة رسالة طويلة لعائلته- حدثهم فيها عن يومه كعادته- خط رسالة أخرى لطلال، قبل أن يغرق في روايته من جديد..

***

نزل قاسم من العربة التي أوصلته إلى باب المدرسة -عند منتصف الليل- بعد أن سلم على سائقها الذي استوقفه، وقد تذكر شيئا:

- نسيتُ أن أخبرك أنني قطعتُ شوطا كبيرا في الكتاب، ولم يتبق لي فيه إلا جزء قليل.. لم أتوقع أن أجد كتابا يتحدث عن تاريخنا بهذه الشمولية! ورغم أنني صُدمت ببعض الفقرات المكتوبة فيه، إلا أنه فتح عيني على حقائق لم أكن منتبها إليها من قبل، تماما كما أخبرتني..

فتهلل وجه قاسم وقد سره سماع ذلك منه، ثم قال له:

- لذلك طلبت منك قراءة هذا الكتاب وحدك يا تاج دون أن تطلع عليه الآخرين، فلستُ آمن ردود أفعالهم بعد، وقد يسيؤون تفسير الموضوع برمته..

استطاع قاسم رؤية ملامح التأثر على وجه تاج على ضوء المصباح المعلق في جانب العربة، وهو يقول له:

- شكرا لك على ثقتك بي يا صديقي، فكما ذكرت يبدو أننا نعاني من تعصب ضد العرب لا مبرر له، وإن لم ننجح في معالجة هذه المشكلة؛ فلا ندري في أي واد سنهلك لا قدر الله، فنحن مسلمون قبل أي شيء..

وبعد أن اطمأن تاج لدخول قاسم إلى المدرسة مضى بعربته..

صعد قاسم الدرجات بهدوء نحو غرفته، وتوقف قليلا في الدور الثاني متجها ببصره نحو الجهة التي يقع فيها مكتب المعلم أمين، فأغمض عينيه قليلا وهو يستذكر ما حدث قبل شهرين عندما أعطاه كتاب " الأوروج"، فلم يملك أن ردد من أعماق قلبه.. جزاك الله خيرا يا معلمي، فقد ترك هذا الكتاب أثرا كبيرا في نفسي، بل وقد انعكس على تصرفاتي في فترة وجيزة.. حتى مع أبناء جلدتي؛ لقد أصبحت أكثر تفهما لهم وأفضل تصرفا معهم.. سبحان الله، أيعقل أن يكون ذلك كله من ثمار تلك الكلمات التي قرأتها!! أهكذا تؤثر الكلمات حقا!! ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾، لا عجب أن شبهها الله بالشجرة إذن.. آمنت بالله..

ودمعت عيناه تأثرا، وهو يتابع صعوده نحو في الدور الثالث، وقبل أن يدخل إلى غرفته لفته شعاع الضوء في قاعة الدراسة، فابتسم لنفسه:

- لا شك إنها (الطريق إلى الشمس)..

ومشى باتجاه القاعة متعمدا إحداث صوت يدل عليه حتى لا يفاجئ من فيها على حين غرة، وما إن وصل إلى الباب، حتى كاد رأسه أن يرتطم بالجدار، بعد أن قفز فزعا من صوت حسام الذي هتف فجأة:

- يا الله.. راااااائع جدا...

وبعد أن هدأت نفس قاسم، دخل القاعة مسلما على حسام، ليجده مادا ذراعيه للأعلى مشبكا بين أصابعه، ومسندا ظهره إلى ظهر الكرسي، بعد أن أرجعه للخلف ليرتكز على رجليه الخلفيتين، في حين ارتفعت رجلا الكرسي الأماميتان عن الأرض، وقد أسند قدميه على الجدار أمامه، بعد أن مد رجليه ثانياً ركبتيه؛ ليحافظ بهما على توازنه في تلك الوضعية الحرجة، وقد رفع رأسه وهو مغمض العينين وعلامات النشوة تكتسح وجهه اكتساحا!! بدا مسترخيا تماما وهو سارح في أفكاره الخاصة حتى أن قاسم شك في أنه قد ألقى عليه السلام أم لا! ولم يستطع أن يحدد إلى أي مدى وصل في عالم الخيال الفسيح؛ ليرى إن كان بالإمكان إعادته منه الآن أم أنه ضرب من المستحيل! حتى قرر أن يعيد عليه السلام مرة أخرى، وهو يقترب منه تحسبا لأي مفاجأة قد يُفاجئها حسام فتسبب سقوطه، وبالفعل صدق ظن قاسم فما إن ألقى السلام عليه من جديد حتى انتفض حسام كالسمكة، التي تخرج من محيطها المائي، فاهتز الكرسي من تحته، وكاد أن ينقلب به على الأرض؛ بعد أن فقد توازنه عليه، إلا أنه سرعان ما سيطر على نفسه فقفز من مكانه ليقف على رجليه، فيما اقتصرت مهمة قاسم على اسناد الكرسي فقط!

وبعد أن رد حسام التحية، قال:

- منذ متى وأنت هنا يا قاسم!! لقد فاجأتني!!! فلم أتوقع عودتك الآن، ولا أحد في الطابق معي أما علاء فنائم!!

ابتسم قاسم:

- لو عرفت حجم الجهد الذي بذلته؛ لتجنب هذه اللحظة، لعذرتني..

فحملق حسام فيه بدهشة:

- ألهذه الدرجة!!!

فرد قاسم:

- بل وأكثر.. هداك الله يا حسام، لقد أفزعتني في البداية، بعد أن كنت أخشى أن أكون أنا من يفزعك، ورغم ذلك كله.. لم أنجح في تجنب إفزاعك في النهاية!! إنك حارس مثالي جدا في عيون أي لص يرغب بانجاز مهمته بهدوء!! ما عليه إلا أن يضع في طريقك رواية ليشغلك بها!!

فضحك حسام بصوت مكتوم:

- هون عليك يا رجل! لم أعهدك تبالغ من قبل!!

فقال قاسم:

- بل هي الحقيقة..

عندها تذكر حسام العبارة التي أثارت اعجابه بشدة وختم بها الكتاب، ففتح الصفحة الأخيرة قائلا بانفعال وتأثر واضحين:

- انها رواية رائعة بحق يا قاسم.. ليتك تقرأها، اسمع هذه الجملة التي لخصت الفكرة الرئيسة للرواية:

"الحقيقة كالشمس، فاحذر من أن يحجبك هواك عنها أيها الأمير"..

اقشعر جسد قاسم وكأن العبارة موجهة له تحديدا، فتعرق جبينه رغم نسائم الليل الباردة التي لم تترك مكانا في القاعة لم تزره، وشعر بثقل في قدميه فلم تقويا على حمله، فأسرع يتهاوى على أقرب مقعد إليه، يارب.. أهذه رسالة إلي!! يارب

إنني ابذل جهدي حتى أبحث عن الحقيقة وأقبلها دون زيف الهوى وخداعه.. فهل أنت راض عني!!

و لم يخف على حسام ملاحظة أثر هذه الجملة عليه، والذي أعاد لذاكرته حال قاسم قبل شهرين، فسأله بقلق:

- قاسم.. أرجوك أخبرني ماذا هناك؟ هل أنت بخير!!

فأطرق قاسم مفكراً:

- اعذرني يا حسام.. سأكون بخير إن شاء الله فلا تقلق..

وبعد تردد طفيف، قال له:

- أرجو أن لا تشغل بالك بالأمر، ولكن ثق أنه إن قُدرّ لي واتخذت قراري بإخبار أحدهم، فستكون أنت أول من يخطر ببالي، وربما سيأتي اليوم الذي أخبرك فيه بكل شيء..

هز حسام رأسه متفهما، دون أن يضيف أي سؤال آخر نزولا عند رغبته، وبعد أن أطبق عليهما صمت ثقيل للحظات، نهض قاسم مبتسما:

- يبدو أنني سأستعير منك هذه الرواية لأقرأها..

ابتسم حسام:

- إذا كان هذا هو كل ما في الأمر، فهذا خبر يسعدني أيها الأمير..

ورغم أن حسام قالها دون قصد؛ إلا أن قاسم ارتبك لسماع تلك الكلمة، لكنه سرعان ما أدرك أنه لم يكن يعنيها، فقال دون قصد معين، فقال وهو يهم بالخروج:

- ألا تنوي الذهاب إلى فراشك يا حسام؟؟

فأجابه حسام وهو يرتب الأوراق أمامه:

- لا أظن أنني سأتمكن من النوم قبل أن أكتب رسالة للمؤلف، لدي الكثير مما أود قوله له، وإن لم أفرغ هذه الأفكار من رأسي أخشى أن ينفجر وتتبخر..

فابتسم قاسم معلقا:

- لو رآك طلال الآن، فأظنه سيقول لك؛ ليتك تسهر على دروسك كسهرك على هذه الرواية..

فضحك حسام معقبا:

- ومن قال لك أنه لم يفعل، لقد زودني بكمية من النصائح بهذا الخصوص تكفيني لحين عودته؛ خاصة وأنه لم يتبق على الدراسة أكثر من شهر بعد اجازة العيد؛ لتبدأ اختبارات نهاية العام الدراسي على حد رأيه..! ولكنني أُعدّ ما سأفعله الآن مراجعة للغة سومار إذ سأضطر لكتابة الرسالة بها، أليس كذلك؟

فأومأ قاسم برأسه باسما:

- حقا كما يقول المثل على رأي نضال، عندما تذهب الصقور يلعب العصفور، وإذا اختفت النسانس تظهر الخنافس..

ولم يتمالك حسام نفسه من الضحك:

- نضال صاحب الحكم والأمثال التي لا يعرف مصدرها أحد غيره.. لقد اشتقت إليه فعلا..

ضحك قاسم، وقد تذكر بعض مواقف نضال:

- وأنا اشتقت إليه أيضا، أرجو أن يقضى وقتا سعيدا مع أهله في اجازة العيد..

ثم قال:

- لن أؤخرك أكثر، ما دمت مصرا على كتابة الرسالة، تصبح على خير..

ولم يلبث حسام في مكانه سوى لحظات، خط فيها على ورقة صغيرة بعض النقاط الرئيسة التي خطرت له، نهض بعدها ليذرع الغرفة جيئة وذهابا في محاولة لتجميع أفكاره.. وهو يستعرض أبرز احداث الرواية وجُملها، التي لامست وجدانه وهزت كيانه.. فردد في سرّه:

- يارب أعز لورابار كولي بالاسلام وأعز الاسلام به، واهده لطريق الحق المستقيم..

ثم اتجه نحو القبلة وصلى ركعتين؛ استخار الله فيهما في كتابة الرسالة للمؤلف بما يفكر فيه، واتجه نحو مقعده، وقد هيأ الأوراق والدواة ليشرع بكتابة الرسالة، لكنه توقف فجأة وقد تذكر أمرا هاما:

- ولكن ليس بهذا القلم..!

وبسرعة نهض من مكانه، واتجه نحو غرفته بهدوء؛ ليحضر القلم الثمين الذي أهداه له طلال.. وقلبه يلهج بالدعاء لوالده:

- لقد كان والدك رحمه الله داعية عظيما يا صديقي، وسأكتب بقلمه أول رسالة أتبع فيها نهجه، لتكون له صدقة جارية؛ عرفانا بالجميل، ووفاء بالعهد، ولعل الله أن يجعلها سببا للهداية..

***

لم يصدق علاء عينيه، عندما وجد عدنان واقفا بانتظاره بعد صلاة الفجر، فعانقه مرحبا:

- ما هذه المفاجأة يا صديقي، لقد ظننتك ستبقى مع سليم خلال إجازة العيد..

فضحك عدنان وهو يشد على يديه:

- اليوم هو الرابع من شوال، وقد انتهت اجازة العيد بالفعل بالنسبة للعاملين في المدرسة! ثم لا تنس أن عرس المعلم عاصم وابنة الشيخ عبد الرحيم اليوم.. يبدو أنك أمضيت أوقاتا سعيدة لم تشعرك بمرور هذه الأيام..

ابتسم علاء:

- الحمد لله دائما وأبدا، لقد تذكرت كلماتك عندما أخبرتني بأن قدرة الله لا تحكمها التوقعات البشرية، لقد كان هذا العيد بالفعل من أجمل الأعياد التي مرت علي بفضل الله، حتى أنني لم أشعر ببعدي عن والديّ و كأنهما معي، والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه..

وتابع بفرح ظاهر:

- وبالطبع لا أنسى فضل ياسر عليّ جزاه الله خيرا.. تخيل! لقد وصلتني رسالة جديدة من والديّ بفضل الله ليلة أمس، لقد تطور أداء وديع بشكل ملحوظ جدا ما شاء الله..

ثم أضاف بحماسة:

- سأريك الرسالة لتقرأها بنفسك، فقد بعث والداي سلاما خاصا لك ولعائلتك أيضا داعين لأخيك بالشفاء العاجل..

هتف عدنان على غير عادته- وقد فاجأه الخبر:

- حقا!! هل أخبرت والداك عني يا علاء!!!

ضحك علاء بسعادة:

- بالطبع.. ولم العجب يا صديقي العزيز!!

فترقرقت دمعات في عيني عدنان، وهو يقول بتأثر شديد:

- لا أصدق أنني أصبحت معروفا عند القائد نور الدين!!

لم يتوقع علاء أن يترك هذا الخبر أثرا كبيرا في نفس عدنان، والذي سرعان ما مسح دمعاته باسما- وهو يرى اندهاش علاء من ردة فعله:

- لا عليك يا صديقي، ولكنني ممتن لك جدا.. هيا ألن تريني الرسالة؟؟

علت وجه علاء ابتسامة مماثلة:

- هيا بنا..

***

طال انتظار حسام في موقف العربات القادمة من مدينة برق، حتى هم بالرجوع خشية أن يفوته العرس، ويكون انتظاره هنا بلا جدوى، فالتفت إلى سائق العربة الخاصة الذي كان بانتظاره:

– آسف أن جعلتك تنتظر يا عم، أرجو أن توصلني للمدرسة وسأدفع ثمن التأخير، فيبدو أن صديقي لن يعود اليوم..

قال السائق وهو يهز لجام الحصان ليستعد للانطلاق:

– لقد قلت لك هذا من قبل، هيا اصعد بسرعة فلدي طلبات كثيرة..

كان حسام يدعو– وهو يصعد للعربة بترددٍ، مقدما رجلا ومؤخرا أخرى– أن لا يضيع الله انتظاره سدى، فقد كان يتمنى بشدة وجود طلال معهم في حفل عرس المعلم عاصم، العرس الأول من نوعه في تاريخ مدرسة النصر، فالعريس معلمهم الشاب والعروس أخت صديقهم وابنة شيخهم الغني عن التعريف، لكنه أقنع نفسه بأن وجود طلال في مدينته مع أمه وأخته أفضل له..

وما إن استقر في المقعد الخلفي للعربة، حتى خُيِّل إليه أنه سمع صوت طلال، فالتفت للوراء ليجده يحادث شابا، فاستوقف السائق معتذرا:

– أرجوك.. لحظة واحدة من فضلك، ها هو صديقي..

وقبل أن يسمع ردا من السائق، كان قد قفز من العربة مناديا:

– طلال..

وسرعان ما عانقه بانفعال:

– لقد ظننتك ستؤجل مجيئك للغد؛ لتصل مع بداية الدروس مباشرة..

فأجابه طلال بابتسامة محببة:

– كنت سأفكر بهذا لو لم أكن مشاركا في عرض الخيول، كما أن أمي لم تكن لترضى بتغيبي عن حفل زفاف هام كهذا..

والتفت طلال لمحدثه، معتذرا:

– هذا صديقي حسام، من مدرسة النصر أيضا..

مد حسام يده مصافحا الشاب باسما- حتى قبل ان يتيح الفرصة لطلال ليعرفه به:

- سررتُ بلقائك..

ابتسم الشاب قائلا:

- أهلا بك، إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بطلبة صديقي العزيز، في أول زيارة له بعد سنوات طويلة..

قفزت نظرات تساؤل لعيني حسام، فيما أسرع طلال يعرفه بالشاب قائلا:

- المعلم مازن، صديق المعلم عاصم، وقد جاء لحضور حفل زفافه اليوم..

اعتدل حسام بوقفته بسرعة قائلا بحرج:

- أرجو المعذرة على اندفاعي غير اللائق في البداية، فلم أكن أعلم أنك صديق المعلم عاصم، أجدد اعتذاري يا معلم مازن..

ضحك مازن:

- لا عليك يا حسام.. تصرف على راحتك، فأنا لست معلمك عاصم يا صديقي..

ولم يكن ينقص حسام في تلك اللحظة إلا صوت السائق، الذي فقد صبره فصرخ عليه وهو يناديه بعصبية:

- إلى متى سأظل بانتظارك يا ولد!!!!!

عندها أسرع طلال نحو السائق ليتدارك المأزق الذي وضع حسام نفسه فيه، معتذرا:

- نحن آسفون جدا، سندفع اجرة التـــ....

فقاطعه السائق مكررا بغضب:

- سندفع سندفع.. لقد سمعت هذه الكلمة مرارا وكأن النقود هي كل شيء!!!!

ولم يخف على مازن ملاحظة الحرج، الذي كاد أن يقتل حسام من شدته، وحتى طلال لم يجد نفسه بموقف أفضل من صديقه، فما كان من مازن إلا أن صعد إلى العربة؛ ليجلس قرب السائق، وهو يمد يده اليمنى بالسلام عليه، فيما ناوله أربعة أضعاف الأجرة الأصلية بيده اليسرى، قائلا بابتسامة لطيفة:

- كان الله في عونك يا أخي، حقك علينا.. ولكن اعذرهم فهم ما زالوا فتية في مقتبل العمر، وكل واحد منا قد ينسى نفسه أحيانا.. نسأل الله الهداية..

فابتسم السائق برضا، وهو يضع الأجرة في جيبه، قائلا:

- إنهم أفضل من بعض الكبار.. فهم مهذبون على الأقل، ولكن لعنة الله على الشيطان..

ثم التفت إلى الصديقين في المقعد الخلفي قائلا:

- لا تؤاخذوني يا أبنائي، فضغوط العمل والحياة تُفقد الإنسان صبره أحيانا.. فاعذروني..

فتكلم طلال وحسام في الوقت نفسه:

- بل نحن من يجب عليه الاعتذار يا عم..

قال مازن ممازحا:

- أخشى ان يفوتنا حفل الزفاف، ونحن واقفون نتلقى الاعتذارات بدلا من التهاني!!

فضحك السائق وهو ينطلق بالعربة قائلا:

- هيا يا أولاد.. تمسكوا جيدا لنسابق الريح.. بسم الله توكلنا على الله..

فردد الاثنان:

- سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون..

***

بدت الساحة الأمامية لجامع الفتح، وهي تعج بفرسان مدرسة النصر من الطلبة والمعلمين والمدربين وحتى العاملين فيها، أشبه باستعراض عسكري، لا سيما وقد امتطى فرسان مرتبتي مقدام وهمام خيولهم، مصطفين على جانبي بوابة الجامع الرئيسة، بتوجيه من المدرب ثابت الذي اعتلى صهوة جواده (السكب)، متقدما صف الجانب الأيمن، فيما تقدم ابنه قيس الذي امتطى (السهب) صف الجانب الأيسر، هذا إضافة للمدعوين الذين كادت جموعهم أن تسد الطرق وهم يقفون بتأهب استعدادا لخروج المعلم عاصم من الجامع، والذي ما إن خرج واقفا بين والده وبين الشيخ عبد الرحيم، حتى شد الفرسان ألجمة خيولهم، فرفعت أقدامها الأمامية، فيما هتفوا بصوت واحدا:

- سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله و الله أكبر ولله الحمد..

و أخذت الخيول تحرك أقدامها وتهتز برقصات متناغمة مع إشارات المدرب ثابت للفرسان وهم ينشدون:

نحن فرسانٌ أتينا منكِ مدرسة النصر

مع خيولٍ

عـــــــــــــاديـــــــــــاتٍ

بالمزايا تفتخر

**

قد أتينا كي نبارك حفل أصحاب الكرم

بارك المولى ببيت فيــــــه تجتمع القيم

عاصمٌ خلقٌ ودينٌ، همـــةٌ تعلو القمم

خُلقه خلقٌ كريم

فعله دوما عظيم

صادق القول أمين

طيب القلب رحيم

إنـــــــــــــــه

قدوةٌ بين الأنام و شامةٌ مثل العلم

**

و الصلاة والسلام ... على خير الأنام .. سيد الأمم

*

بارك الله لكما .. وبارك عليكما .. وجمع بينكما بخير

**

وقام المدربون الأربعة سعد وعادل وعلي وعمر برفع عاصم على أكتافهم، والذي أخذ يلوح بيديه لجميع المدعوين والحاضرين، رغم ما اكتسى وجهه من حرج، فيما أخذ المدرب جهاد يقود المسيرة بالتهليل بصوته الجهوري، بينما سار صف الفرسان على جانبيها مسافة كافية؛ حيث تحلق المعلمون حول عاصم- بمن فيهم المدير شامل ومساعده حازم- بتكاتف جميل، ليبدأ قرع الطبول من قبل العاملين في المدرسة، وهم يرددون:

- المعلم عاصم.. يحيا سالم.. يبقى غانم... يا الله يا عالم..

وأمام الساحة الخلفية لمنزل الشيخ عبد الرحيم، حيث رُفعت الأعلام الملونة، وعُلقت الزينات، وفُرشت الأرض بالورود العطرة؛ اجتمعت بعض النسوة حول جويرية، وهن يضربن بالدفوف ويرتجزن بما ورد عن الحبيب صلى الله عليه وسلم:

أتيناكم أتيناكم.... فحيونا نحييكم

ولولا الذهب الأحمر....ماحلت بواديكم

ولولا الحنطة السمراء.... ما سمنت عذاريكم

وقامت سارة وصديقاتها بالغناء على ضرب الدفوف، وهن يمسكن أيادي بعضهن ويدرن برقصات مبهجة حول جويرية- التي كلل وجهها المحمر ابتسامة رقيقة:

جمالٌ وحسنٌ كالبـدر المنير

وقلبٌ ودودٌ بالحـــب كبير

ايمـــان وتقوى والخير كثير

وخُلقٌ كريمٌ بالحسنى شهير

***

توقفت عربة فارهة أمام منزل الشيخ عبد الرحيم، تتبعها عربتا حراسة من النوع الذي يرافق عربات كبار الشخصيات عادة، لتنزل منها فتاة شابة أخفت شعرها تحت منديل حريري أخضر اللون، تناسق مع ثوبها الساتر المموّج بلون الخضرة، والذي غطى جسدها بالكامل، دون أن يفقدها أناقة المظهر، دالا على غنى صاحبته وثرائها الواسع..

بدت واثقة من خطواتها، وهي تتجه نحو حفصة ابنة الشيخ عبد الرحيم، التي وقفت مع عدد من الفتيات الصغيرات وهن يحملن الورود لاستقبال الضيفات، ورغم أن حفصة دعتها للدخول كغيرها دون أن تعرفها بداية، إلا أنها سرعان ما هتفت وهي ترى الخاتم المميز في إصبعها:

- الآنسة انتصار.. أليس كذلك.. تفضلي تفضلي..

وقادتها إلى الداخل -حيث وقفت ميمونة وأمها لتقومان بتحية الزائرات- هاتفة بسعادة:

- لقد جاءت انتصار..

وبسرعة هرعت ميمونة لاستقبالها- بينما كانت والدتها مشغولة بالحديث مع إحدى الضيفات:

- الحمد لله، من الجيد أنك وصلت قبل أن ننطلق بالعربات، فقد نسيت أن أرسل لك موقع الوليمة.. لقد فاجأتني يا عزيزتي فلم أتوقع حضورك..

فابتسمت انتصار:

- لم أكن لأفوّت مناسبة كهذه..

غير أن ميمونة- التي انتبهت لمظهر انتصار كمن تراها للتو- تهلل وجهها بشرا:

- ما شاء الله.. مبارك عليك الحجاب.. لم تكتبي لي أنك تحجبت يا عزيزتي!

ضحكت انتصار برقة:

- أحببتُ مفاجأتكم..

وتابعت:

- بعد أن فسخت خطوبتي كما أخبرتك، بدأت بالتفكير الجاد لأبدأ حياة جديدة، فقد تأثرت بكم كثيرا، والحمد لله الذي سهل لي أمر إقناع والدي في النهاية، فقد كانت موافقته أكبر عقبة في طريقي..

فشدت ميمونة على يديها بتأثر:

- الحمد لله الذي سهل أمرك، وعسى الله أن يعوضك خيرا كثيرا..

ثم استدركت متسائلة:

- هل حللت لغز الخاتم؟

هزت انتصار رأسها نفيا:

- ليس بعد.. فمنذ أن أرسلتُ لك في رسالتي الأخيرة ما خطر لي بشأنه، لم أجد ما يدعم ظنوني بشكل قطعي، لكنني عثرت على شيء قد يساعدنا في فهم سره..

غير أنها أمسكت بيد ميمونة باسمة:

- لا تشغلي نفسك بأمره الآن، ودعينا نستمتع بوقتنا في هذه الحفلة..

بادلتها ميمونة ابتسامتها بمرح:

- معك الحق يا صديقتي العزيزة..

كانت فرحة جويرية برؤية انتصار كبيرة، فنهضت من مقعدها، وهي تشد على يديها بعد أن عانقتها قائلة:

- أسعدني حضورك عزيزتي، وأرجو أن ترافقينا لحضور الوليمة..

فأجابتها انتصار بلطف:

- سأخبر الحرس وأرى إن كان بامكاني الذهاب معكم، فقد أخذت الإذن من أبي للمجيء إلى هنا فقط..

فقالت لها جويرية:

- يمكنك المجيء بعربتك الخاصة، والحرس مدعوون أيضا، فالدعوة عامة..

ابتسمت انتصار:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا مشكلة إن شاء الله..

ثم استدركت قائلة برقة:

- بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما بخير..

وابتسمت متابعة:

- لقد حفظتها من ميمونة..

فلم تملك جويرية أن حضنتها قائلة:

- جزاك الله خيرا يا عزيزتي الغالية، وزادك من فضله..

وفي تلك اللحظة أقبلت السيدة رغدة والدة جويرية وهي تحمل حجاب ابنتها العروس لتستعد للخروج، ولم تكد ترى انتصار أمامها، حتى ضمتها بفرح:

- ما شاء الله، مبارك عليك الحجاب يا ابنتي، حفظك الله يا حبيبتي وبارك فيك، وجزاك الله خيرا لحضورك وبإذن الله نفرح بك قريبا..

فاحمرت وجنتا انتصار حياءً:

- شكرا لك يا خالتي..

ثم أضافت بابتسامة لطيفة:

- أبي يرسل لكم تهانيه أيضا، إذ لم يتمكن من الحضور بسبب انشغاله..

***

كانت المسيرة التي خرجت، لتزف المعلم عاصم من أمام جامع الفتح، قد وصلت إلى عربة العروسين المزدانة بالورود، فصعد عاصم إليها وسط الهتاف والتهليل، ثم صعد المدعوون والحاضرون إلى العربات الكبيرة التي وقفت خلفها، متجهين إلى الساحة الخلفية لبيت الشيخ عبد الرحيم حيث وقفت النساء والفتيات يضربن بالدفوف، وهن يقفن خلف العروس الواقفة بين أمها وبين أم زوجها، انتظارا لوصول عربتها..

وصلت العربة ووقفت على مقربة منهم، فنزل منها عاصم، متجها صوب عروسه، فسلم على أمه وقبل يدها، وصنع الشيء نفسه مع أم زوجته، ثم تناول يد عروسه ليسير معها نحو العربة، فساعدها على الصعود بعد أن فتح لها الباب، ثم صعدت أمه وأمها لتجلسا قبالتهما..

صعدت بقية المدعوات والحاضرات إلى العربات الأخرى، التي تبعت عربة العروسين، والمعدة خصيصا لهن، حتى إذا ما صعد الجميع، انطلقت العربات، تتبعتها الخيول بفرسانها من الطلبة والمدربين، في موكب مهيب باتجاه الحديقة الغناء، التي تقع ضمن أرضٍ يملكها المدير شامل، حيث تشكل الأشجار فيها سياجا طبيعيا، تحيط بروضة لم ير الناس أبهى منها منظرا، ولا أزكى من ورودها عطرا، فالظلال وارفة والثمار يانعة، والجو لطيف، والعصافير اجتمعت فيها كأمهر فرقة تغرد بأعذب الألحان، على صوت خرير جدول ماء صغير صاف، انساب حول الروضة ليصنع مع اشجارها حدودا طبيعية، كأنها ما وُجدت إلا لتحتفل بالعروسين.. حتى إن من يرى المكان لأول وهلة؛ قد يظن نفسه في جنان عدن الدنيا، لو أن فيها جنان عدن..

أقيم في منتصف الروضة حاجز من أخشاب الأشجار، تم رصها بتنسيق جميل أُعد مسبقا ليفصل الروضة إلى قسمين، واحد للرجال والآخر للنساء، فيما توزعت الطاولات والمقاعد الخشبية المصنوعة من أجود جذوع الأشجار، في أرجاء الروضة؛ لتنسجم معها في تناسق بديع، وكأنها جزء لا يتجزأ منها..

كان السيد كريم قد تولى الاشراف على اعداد الوليمة، التي ذُبح من أجلها ثلاثون كبشا أقرن، فما إن وصل موكب العروسين، حتى كانت الأطباق الكبيرة، والتي تضم أصنافا مختلفة من الأطعمة الشهية والفاكهة الطازجة والعصائر المتنوعة، قد وُضعت على المائدتين الرئيستين في كلا الجهتين من الروضة..

انطلقت اهازيجٌ من الدعوات بالبركة والتوفيق، مع أصوات الدفوف التي ضربتها النساء، وهن يسرن خلف العروس ويقُدنها إلى مقعدها في الجهة الخاصة بهن، فيما اتجه عاصم لمقعده في جهة الرجال، وسط تهليل الفرسان وتكبيرهم والصلاة والسلام على حبيبهم المصطفى صلى الله عليه وسلم..

وهناك تحدث الشيخ عبدالرحيم بكلمة حمد فيها الله، شاكرا له على نعمه العظيمة، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وختمها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾..

واستمرت الأفراح في الروضة الغناء، من أهازيج النساء ورقصات الفتيات ومرح الأطفال إلى ضحكات الفتيان وأحاديث الرجال، حتى حان وقت صلاة المغرب، فرُفع الأذان وأُديت صلاة المغرب جماعة..

وفي طريق العودة، مر الموكب بعدد كبير من البيوت الفقيرة التي لم تتمكن من حضور الوليمة، فوُزّعت عليها صحائف الأطعمة المتبقية جميعها بشكل جميل، دون أن يُرمى شيء منها، فكان يوما حافلا لم يزل الناس كبارا وصغارا يذكرونه بأحاديث مجالسهم، ودعوات خلواتهم، بعد أن عم فيه الخير على الجميع..

***

ازداد توتر الحاكم نجم الدين في الآونة الأخيرة؛ بسبب تصرفات ابنه جلال الدين، فأخذ يراجع كلماته مرات عديدة ويخاطب نفسه:

- إنه يدعو إلى تغيير شامل في قوانين المنطقة بالإضافة إلى تغيير نظام مصاريف القصر!! ليتني أعرف ما الذي دهاه؟!!

وبينما هو في حيرته الشديدة تلك، تذكر أمرا هاما فاستدعى الوزير على الفور:

- ما الذي كنت تنوي إخباري به بشأن ولدي جلال الدين؟ لقد قلت أنك تريدني على انفراد في وقت يناسبني.. فهات ما لديك..

انحنى الوزير بأدب جم:

- لم أكن لأتكلم لولا حرصي الشديد على جلالتكم، وصالح وريث عرشكم المبجل...

فأشار له الحاكم أن يدخل في الموضوع:

- تكلم أيها الوزير بسرعة، ولا داعي لهذه المقدمات..

التقط الوزير نفسا عميقا، قبل أن يقول بلهجة تظهر فيها الحكمة:

- في الحقيقة يا سيدي، لقد لاحظت أن الأمير جلال الدين مختلف كثيرا، عن إخوته وأهل بيته المبجلين الذين نفخر بهم..

فتنهد الحاكم بأسى:

- هذا ما لاحظته أيضا بعد عودتي من منطقة العيون، واستلامه لزمام الأمور..

فهز الوزير رأسه مؤكدا:

- أعتقد يا سيدي أن اعتكافه في تلك المكتبة له دور كبير في سلوكه هذا، والذي أدى إلى اعتزاله عن مشاركة الآخرين حفلاتهم واجتماعاتهم المبهجة..

عندها احمر وجه الحاكم وضرب مسند مقعده بقبضته مُغضبا:

- ولكنك أنت من شجعني على ذلك!! هل نسيت أنك أقنعتني أن في هذا ما يقوي شخصيته ويشحذ همته!

ارتبك الوزير كثيرا- بعد أن لاحت أمامه مقاصده الخبيثة من وراء ذلك التشجيع- فاستدرك الأمر قائلا:

- عفوا يا سيدي.. ربما أكون قد أخطأت فعلا في هذه النقطة، ولكنني صدقا لم أتوقع أن يصل به الأمر إلى هذا الحد، فشخصية سمو ابنكم الأمير لا تنطبق عليها الأحكام العامة على ما يبدو.. فأرجو المعذرة يا سيدي..

وتراءت له تلك الآمال التي رسمها بتنحية جلال الدين عن مجريات الأحداث، مما يتيح له فرصة جيدة للسيطرة على أمور المنطقة؛ بعد أن يتسلمها مَن لا يحسن التصرف، وقال في نفسه متحسراً:

- ليتني عرفت تأثير هذه الكتب عليه، إذن لما وضعت نفسي في هذا المأزق الخطيرالذي بدأ يتهدد كياني..

وأتاه صوت الحاكم وقد بدأت ثورة الغضب تبلغ أوجها عنده:

- وما فائدة الاعتذار الآن وقد انتهى كل شئ!! فوريث العرش لم يعد يؤمن جانبه جراء تلك الأفكار الدخيلة.. حتى أنه تجرأ على أن يطلب مني تطبيق نظام قاس يستحيل تصوره، مدعيا بأننا نستطيع من خلاله تسديد الديون وإطعام الفقراء وإيوائهم!! إنه لا يدرك أبعاد ما يطلبه ولا يفهم حقيقة ما يجري حوله، ظانا بأن أحكام القرون الماضية لازالت صالحة للتطبيق، وهو يخاطبني بلهجة عفا عليها الزمن ويحملني المسؤولية أمام الله!!! لقد أرق مضجعي بكلامه وبتُّ لا أستطيع النوم من شدة القلق!!!

حاول الوزير احتواء الموقف بسرعة وهو يقول بتفهم:

- هدئ من روعك يا سيدي، فأنت تحكم بالعدل وتعطي كل ذي حق حقه بلا إفراط ولا تفريط، وديننا ينهى عن التشدّد، ولقد قال عليه أفضل الصلاة والتسليم: (هلك المتنطعون)، وإنني أرجو من الله أن يجعلك ممن يظلهم تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فإنني لا أحسبك إلا إماماً عادلاً، ولا أزكي على الله أحدا..

تبسم الحاكم وقد هدأت سورة غضبه:

- لم أكن أعلم أنك تحفظ الأحاديث أيضا..

فأجابه الوزير بتواضع مصطنع:

- سامح الله مولانا الحاكم، فماذا يساوي المرء بغير دينه وأمانته..

ثم تابع - وقد تأكد من مكانته في نفس الحاكم:

- إن النصيحة الصالحة التي لا نبتغي بها إلا وجه الله؛ من أهم واجباتنا.. ولكننا كسائر البشر نخطيء ونصيب والله هو الموفق..

فهز الحاكم رأسه برضا وقد بدت علامات الارتياح على وجهه:

- بارك الله فيكم، فنعم البطانة الصالحة أنتم..

وتابع بلهجة مختلفة لا تخلو من حيرة:

- والآن مالعمل بالنسبة لجلال الدين، فهو ولدي الذي أحبه وأخشى عليه، قبل أن يكون وريث عرش المنطقة!

أطرق الوزير متظاهرا بالتفكير العميق، ثم قال:

- لا تفقد الأمل معه يا سيدي، فما زالت أمامنا فرص كثيرة للإصلاح بإذن الله، وأرى ان تطرح فكرة الزواج عليه لإكمال نصف دينه، فلعل هذا يخفف من حدته ويخرجه من عزلته..

تهلل وجه الحاكم وقال مستبشرا:

- يا إلهي، كيف لم يخطر هذا ببالي!! فقد أصبح جلال الدين شابا يافعا، ولم يفاتحني في موضوع كهذا من قبل..

وبعد برهة صمت، قال الحاكم:

- ومن تقترح عروسا مناسبة له؟

تبسم الوزير بخبث شديد:

- الفتيات كثيرات وما على الأمير إلا الاختيار.. وهناك الجميلات من بنات الأثرياء وقادة الجيش..

واستطرد بلهجة حميمة مدروسة بدهاء:

- وبناتي تحت تصرف سيادتكم..

أطرق الحاكم مفكرا ثم قال:

- لابد من مناقشة الموضوع مع جلال الدين.. وفي الحال ...

***

دلف جلال الدين إلى القاعة، حيث يجلس والده الحاكم فاتجه نحوه يقبل يده:

- خيرا يا أبي، إنني طوع أمرك..

فابتسم والده وهو يشير إليه ليجلس قربه:

- بارك الله فيك يا بني، فأنت نعم الولد الصالح البار بوالدك..

فرد جلال الدين وهو يمني نفسه بخبر سار:

- هذا واجبي يا أبي حفظك الله..

وبعد أن استقر جلال الدين في مجلسه، قال الحاكم:

- اسمعني جيدا يا بني، لقد أتممت عامك الخامس والعشرين وآن الأوان لكي تثلج قلبي بزواجك..

وقع الخبر كالصاعقة على رأس جلال الدين، فهو يعرف تماما أي صنف من الفتيات يفكر فيهن والده، ولا خيار آخر أمامه في الوقت الراهن، فلم ينبس ببنت شفة مما أثار ريبة والده فبادره بقوله:

- ماذا أصابك يا بني! أنسيت أن الرسول صلى الله عليه وسلم حث الشباب على الزواج وأنت بحمد الله لا ينقصك شيء.. فعلام التردد والإحجام؟

فلم يجد جلال الدين بدا من مصارحة والده بما يعتمل بفكره:

- أنت لا تفهمني يا أبي، فمن هي العروس التي سأختارها؟

فأجابه والده بسرعة:

- الخيار لك.. فالجميلات كثيرات..

فقال جلال الدين بتردد:

- حقا.. ألن تعارضني يا أبي ؟

فطمأنه والده بقوله:

- ولم اعارضك يا بني!! ما عليك إلا أن تخبرني بالفتاة التي تختارها؛ لأقوم بالإعدادات اللازمة لأكبر حفلة يتكلم عنها الجميع وتعم فيها الأفراح..

ثم هتف بمرح لا يناسب مقامه:

- أم أنك تريد إقامة الحفلة أولا، ومن ثم تختار فيها الفتاة التي تراها مناسبة؟

تنهد جلال الدين بحزن وقد اختلطت عليه المشاعر وبات حائرا أمام رغبة والده وسعادته، وما تأباه نفسه المشبعة بالإيمان، فتساءل بتوجس:

- وما الذي سنفعله في هذه الحفلة؟

انفرجت أسارير الحاكم فابتسم قائلا:

- من المؤسف أنك لم تشاهد مثل هذه الحفلات من قبل، ولكنني أعدك بأن حفلتك ستكون أكثرها تميزا وروعة، سأجلب أشهر الفرق من مختلف المناطق والممالك لإحياء حفلة لا مثيل لها يجتمع فيها الأثرياء وكبار المنطقة، وسأبعث بطاقات دعوة خاصة للحكام والملوك لتعم الفرحة..

أوشك قلب جلال الدين على التمزق، وهو يستمع لتلك الكلمات، التي تخالطها فرحة والده وابتهاجه، واحتار في طريقة مواجهته، إلا أن إدراكه لخطورة ما هو مقبل عليه، وكلمات جدته التي ما يزال صداها يتردد في أذنيه؛ اجتمعت لتمده بشجاعة سارع لاستثمارها قبل أن تخمد ثورتها:

- والدي العزيز.. أقدر لك جهودك من أجلي فيما تظنه سيسعدني، رغم أنه لن يزيدني إلا شقاء وتعاسة، ولن أرى فيه إلا المزيد من إضاعة المال وتبذيره في وقت غرقت فيه بلادنا بالديون!

فوجيء الحاكم من ردة فعل ابنه وحاول احتواءه بقوله:

- ما هذا الذي أسمعه يا بني.. فهذا من اللهو المباح، الذي لا يؤاخذ عليه سبحانه اللطيف بعباده الرحيم بهم وهو يحب أن يرى أثر نعمته على عباده..

فأكمل جلال الدين مضيفا:

- فيما يحب ويرضى، لا فيما يكون سبب غضبه علينا!

فعاتبه والده بقوله:

- لا تهول الأمور هكذا يا بني! فمن يسمعك يظن أننا هجرنا ديننا لا قدر الله، وإذا شئت فسأجمعك بالشيخ وادع، فهو عالم بالدين ولا شك أنه سيطمئن قلبك بكلامه..

فقال جلال الدين بحسرة:

- كلا يا أبي، لست بحاجة لسماع هذا الشيخ الذي يتكلم فيما يرضينا ولا يرضي الله بل يغضبه..

فرد عليه والده بنبرة لا تخلو من غضب:

- ما هذا الاجتراء على عباد الله الصالحين! إنه شيخ جليل و عالم فاضل ولا يجوز لك التكلم عنه بهذه الطريقة، فالله يغضب لعباده الصالحين..

لم ينبس جلال الدين ببنت شفة بل آثر الصمت، فتابع والده حديثه وكأن شيئا لم يكن:

- هيا يا بني فكر جيدا، فإما أن تختار الفتاة ثم نقيم الحفلة، أو أن نقيم حفلة تختار فيها الفتاة التي تريدها.. أيهما تفضل؟

فقال جلال الدين بلهجة متوسلة:

- ولكن يا أبي حفلة كهذه لن تُظهر الصفات الحقيقية للفتاة! ثم إن من أبحث عنها وأريدها زوجة لي؛ تترفع عن القدوم لمثل هذه الحفلات!!

فرمقه والده بنظرة استنكار:

- ما الذي تقصده يا بني!! لم أعد أفهمك!!

فأجابه جلال الدين موضحا:

- إنني لا أبحث عن الجمال والمال، فقد حثنا رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- على اختيار ذات الدين، ولرجل في مكاني لهو أولى الناس بهذه الزوجة الصالحة لتعينه على مسؤوليته العظيمة أمام الله.. أريدها زوجة تعينني على أمور ديني ودنياي، تذكرني إن نسيت وتعلمني إن جهلت، أريدها زوجة لي في الدنيا والآخرة.. لا في الدنيا فقط!

فتنهد والده بضيق:

- لقد أتعبتني يا بني، لكنني لن أقف في طريقك إن كانت هذه هي رغبتك، ولا أظن الشيخ وادع سيرفض طلبنا لبناته؛ فلا شك أنهن من النوع الذي تطلبه..

فزفر جلال الدين بخيبة أمل:

- كلا يا أبي أرجوك.. دعنا من الشيخ وادع..

ثم تنهد بأسى:

- ولا أعتقد أن فتاة من النوع الذي أبحث عنه سترضى بي بسهولة..

ولاحت له كلمات جدته، وكأنها خطت أمام عينيه وهي تتحدث عن زواج أمه:

"لقد عارضتُ هذا الزواج بشدة إذ خشيت على ابنتي الفتنة.."

وأكد اعتقاده ذاك؛ القصة التي قرأها عن التابعي الجليل سعيد بن المسيب الذي رفض تزويج ابنته للأمير في حين زوجها لرجل فقير..

وأخيرا تكلم الحاكم وقد نفد صبره:

- ما الذي تريده يا بني؟؟ فقد أرهقتني بما فيه الكفاية ولم أعد أقوى على احتمال المزيد..

فاعتذر جلال الدين على ما بدر منه قبل أن يقول:

- إن سمحت لي يا أبي بجولة أقوم فيها في انحاء المنطقة.. فسأكون لك من الشاكرين..

فتهلل وجه الحاكم كمن عثر على القشة التي سيتشبث بها:

- فكرة رائعة.. كيف لم يخطر هذا ببالي، فأنت الوحيد بين إخوتك، الذي لم يطف في المواكب العظيمة، ففي الأسبوع المنصرم افتتح شهاب الدين نادياً للشباب تحدث به الجميع، حتى أختك الأميرة دلال قامت بأعمال كثيرة تحدث بها الناس، وقد أشرفت بنفسها على جمعيات خيرية واجتمعت بالسيدات في منتديات كثيرة رغم صغر سنها، ولابد أن تقوم أنت أيضا بعمل عظيم يليق بمقامك..

أطرق جلال الدين:

- لم تفهمني مرة أخرى يا أبي، ويؤسفني أن أسبب لك الإزعاج.. فما أريده هو التجول وحدي دون أن يعلم الناس بحقيقتي، لأراهم على حقائقهم فما أبعدنا نحن عن الحقيقة، بل إننا أبعد خلق الله عن الحقيقة التي نحن في أمس الحاجة إليها!! اسمح لي يا أبي أن أقول ما يجيش في صدري، ويؤرق نفسي وكل ذلك خوفا عليك وعلينا، فجميع من يحيط بنا من ذوي النفوس المريضة، والأطماع العريضة، لا يحدثونك إلا بما تهواه نفسك دون أن يقيموا للحق موضعا، فرسموا لك عالما من الأوهام والأحلام..

فقاطعه والده، وهو يضغط على رأسه بيديه صارخا فيه:

- كفى.. لقد آلمت رأسي، ليت أمك ما ولدتك، لقد كنت أفضل ولدي وأحبهم إلى قلبي.. أخرج.. فما أرى نهايتي إلا على يديك..

ذرفت عينا جلال الدين، وهو يهم بالخروج لكنه توقف قليلا ليقول جملته الأخيرة:

- أرجو أن تسمح لي بالاعتزال في غرفتي؛ فإنني أرغب بالحصول على إجازة مفتوحة ريثما تهدأ نفسي، واسترد عافيتي، ولا أريد دخول أحد علي فسأتدبر أمري وحدي..

ثم غادر القاعة وهو يغالب دموعا سقطت رغما عنه، مسترجعا كلامه مع والده، ولقاؤه مع الوزير من قبله، فحدث نفسه بحسرة:

- إنني أفتقر إلى الحكمة في التعامل بلا شك.. ليتني أستطيع احتواء الآخرين بلين الخطاب والموعظة الحسنة، يارب.. أعني كي أتحلى بسماحة الإسلام، وأتمكن من حسن التصرف..

حتى انتبه الى صوت أنثوي ناعم يناديه:

- جلال الدين.. ماذا أصابك!! هل حدث مكروه؟

ولم تكن سوى الأميرة دنيا تلك الفتاة الفاتنة الجميلة، التي كانت تبذل جهدها لتجد سبيلا إلى قلبه، فحملق فيها لوهلة، مندهشا بما تزينت به من ملابس وحلي وجواهر، فتدارك نفسه وغض بصره، قائلا- وهو يهم بمتابعة سيره:

- هل ناديتني؟

ورغم غضبها من تصرفه إلا أنها سارعت باعتراض طريقه:

- ألا تسلم على ابنة عمتك يا جلال الدين، وتطمئن على أخبارها؟؟ أم أنك نسيت رفيقة طفولتك؟

ورغم أن جلال الدين لم يذكر أنه قضى معها وقتا بما فيه الكفاية في طفولته؛ لتكون رفيقته، لكنه لم يشأ إحراجها، فسألها باقتضاب:

- هل هناك شيء؟؟

فردت عليه بضيق صدر:

- مالذي دهاك يا ابن خالي!! فإنني لا أطيق رؤيتك على هذه الحال البائسة!!

لم يجد جلال الدين ما يرد به عليها سوى:

- إنني بخير والحمد لله..

لكنها أصرت على لفت انتباهه، وقد أغاظها تجاهله وهو يتنحى عنها، ليتابع سيره:

- ولكنني قلقة جدا عليك فقد سمعت الوزير يتحدث عنك..

فأجابها جلال الدين دون ان يلتفت نحوها:

- قلت لك أنني بخير، فلا تتعبي نفسك معي..

فقالت دنيا بلهجة متوسلة:

- لماذا لا تعيرني قليلا من الاهتمام!! هل أهون عليك إلى هذه الدرجة؟

ومع صمت جلال الدين، تابعت سيرها خلفه قائلة بإلحاح:

- أرجوك استمع إلي ولو للحظة!

فتوقف جلال الدين، لتقول له دنيا:

- كنت أود أخذ رأيك في موضوع يهمني، وربما يهمك أيضا ..

وأمام صمته، تابعت بإصرار:

- لقد تقدم ابن القائد شاهر لخطبتي، لكنني احترت في أمري وجئت لأسألك..

فزفر جلال الدين بضيق:

- ومادخلي أنا في هذا الموضوع الذي لا يخصني من قريب أو بعيد!! ألم تجدي غيري لتستشيريه في موضوع كهذا! والأحرى بك أن تسألي والدي فهو خالك والأقرب إلى شاهر مني!

كان جوابه هذا صدمة حقيقية لها، لكنها تابعت دون أن تفقد الأمل:

- قلت في نفسي انك ربما تعرفه، فتحدثني عنه أكثر..

فأجابها جلال الدين بنفاد صبر:

- أنا لا أعرف أحدا في هذا القصر ولا حتى نفسي، لذا أرجوك أن تدعيني وشأني..

وبدلا من أن يكون ذلك سببا لابتعاد دنيا عنه، وجدتها فرصة للحديث معه، فقالت برقة شديدة:

- انني أعذرك يا ابن خالي، فأنت تبدو متضايقا جدا.. ولكن هلا أخبرتني عما يزعجك؛ فلربما أستطيع تقديم يد المساعدة لك؟ أعطني الفرصة ولن تخسر صدقني، سأكون نعم العون لك..

وأمام إلحاحها الشديد المتواصل اضطر جلال الدين للتفوه بما لم يرضه عن نفسه، فقال وقد خرج عن طوره:

- اسمعيني يا دنيا، لا تفكري بي أبدا، فأنا بحاجة إلى زوجة صالحة تعينني على الخير أكثر من حاجتي إلى زوجة جميلة تلهيني عن مسؤولياتي أمام الله..

أُسقط في يد دنيا بعد أن خدش كبرياءها، ففاضت عيناها بالدموع وصرخت به قائلة:

- ومن تظن نفسك أيها اللئيم!! إنني أكرهك ولا أطيق رؤيتك..

ثم ركضت مبتعدة، وهي تجهش بالبكاء، مما زاد آلام جلال الدين لما سببه لها من إيذاء.. وهم باللحاق بها معتذرا، بعد أن أخطأ بحقها وقد بدأت نفسه تلومه:

- أهذا ما تعلمته يا جلال الدين من الكتب؟؟؟ ألا توجد وسيلة أخرى لتجنب ملاحقاتها اللحوحة!! وإن ذهبتُ الآن فربما أسأت لها أكثر!! يارب لم أعد أحتمل ولم أعد أحسن التصرف، انني مرهق تعب حائر تائه..

ولم تعد قدماه تقويان على حمله، وقد شعر بهموم كالجبال على ظهره، فجثا على ركبتيه باكيا.. يارب سامحني..

وبصعوبة نهض من مكانه واتجه صوب غرفته ليتناول ورقة ودواة خط فيها اعتذاراً صريحاً لدنيا:

"إلى ابنة عمتي سمو الأميرة دنيا..

اعتذر منك بشدة على ما بدر مني من فظاظة في أسلوب يتنافى مع تعاليم ديننا الحنيف، وأرجو منك أن تسامحيني؛ فقد كنت مشوش التفكير، لنبقى أوفياء لبعضنا فصلة القرابة التي تربطنا لا يستهان بها، وأسأل الله سبحانه أن يسهل أمرك ويرزقك زوجا يفهمك ويحبك، وتقبلي اعتذاري..

ابن خالك جلال الدين"

وبعد أن ناول الرسالة لإحدى الوصيفات، أغلق على نفسه باب الغرفة بإحكام، مؤكدا على خادمه الخاص، بأنه لا يرغب في رؤية أحد..

وعزم في نفسه أمرا استخار الله عليه ولن يتراجع عنه أبدا..

***

أعلنت نتائج المستويات الدراسية في مدرسة النصر بعد أسبوع الاختبارات الحافل، ورغم سعادة علاء لتخطيه المستوى السادس بنجاح وإن تمنى الحصول على نتائج أفضل، إلا أن شغله الشاغل في النهاية كان منصبا على فكرة واحدة لا غير، حاول اخفاءها عن الجميع متجنبا الحديث فيها مع أي أحد، فآثر الانعزال تهربا من مواجهة حقيقة لن يطول اخفاؤها..

***

توقف حسام عن إزالة غطاء سريره وطيه؛ استعدادا لإجازة نهاية العام الدراسي، ونظر ناحية طلال المنهمك في ترتيب أشيائه في الغرفة، قائلا:

- لا أعرف ما الذي نستطيع فعله من أجل علاء، فها نحن نحزم أمتعتنا استعدادا للسفر وهو..

وصمت قبل أن يتابع:

- لا أعرف ما الذي أقوله.. إنني قلق بشأنه، وأتمنى لو باستطاعتي تقديم يد المساعدة له دون جرح مشاعره..

فتوقف طلال للحظة، قبل أن يلتفت لحسام قائلا:

- لقد عرضتُ عليه السفر معي؛ إلا أنه لم يبد اهتماما بالرد علي، والحديث معه في هذا الموضوع محرج جدا..

قال حسام بقلق:

- وما الذي سنفعله الآن؟

تنهد طلال بألم:

- حقيقة لا أدري..

أما علاء.. فقد وقف وحيدا تحت شجرة كبيرة يفكر بحاله، متنهدا بأسى وقد دمعت عيناه:

- اللهم لا حول ولا قوة لي إلا بك.. يارب لا أريد أن أكون عبئا على أحد.. ليتني أعود لشمس.. حتى قاسم؛ رغم بعد المسافة لبلاده الأوروجال، عاد إليها .. فمتى أعود يارب!!

واستدرك في نفسه مستغفرا:

- سامحني يارب.. لا اعتراض على حكمك ولا راد لقضائك..

ولاحت أمامه قصة سيدنا موسى في مدين، والتي مازال حديث الشيخ عبد الرحيم عنها؛ يطن في أذنيه، فأخذ يردد:

- ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾..

فانتبه الى صوت مدربه الحنون جهاد:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

ثم اقترب منه ووضع يده على كتفه قائلا:

- هيا يا علاء جهز نفسك واستعد..

ظهرت الدهشة على وجه علاء وهو يتساءل بتعجب:

- استعد؟!! لاي شيء أستعد يا مدربي؟

فابتسم المدرب جهاد:

- للذهاب إلى منزلك الثاني يا بني؛ فستغلق المدرسة خلال العطلة كما تعلم..

بدت الحيرة واضحة في عيني علاء، فتابع المدرب جهاد باسما:

- ستأتي معي يا بني، فجهّز أمتعتك ولا تتأخر..

حاول علاء قول شئ، لكن جهاد كان قد حسم الموضوع بقوله:

- هيا يا بني فقد حُسم الامر، أم أنك تفضل الذهاب إلى شخص آخر أفضل مني؟

ترقرقت دمعة في عيني علاء تأثرا:

- لم أقصد هذا يا مدربي الفاضل..

فابتسم جهاد وهو يضربه على كتفه ليحثه على الاستعجال:

- إذن هيا بسرعة اذهب لغرفتك واحزم أمتعتك، فلن أكرر كلامي مرة أخرى..

لم يملك علاء نفسه من معانقة مدربه وهو يردد:

- جزاك الله خيرا يا مدربي الغالي..

***

دخل علاء غرفته ليجد حسام وطلال في حالة يرثى لها من القلق والضيق، فألقى التحية باسما- وقد أدرك ما يدور بخلدهما من الاهتمام بحاله:

- خير إن شاء الله، ماذا بكما ألم تسافرا بعد ؟

تنهد حسام ولم يقل شيئا، في حين لم يتمالك طلال نفسه، فانطلقت من فمه كلمات جادة:

- علاء.. إنني أرجوك أن تأتي معي فأمي ستسعد كثيرا برؤيتك..

فابتسم علاء بمرح:

- إنني آسف لما سببته لكما، لكن لا تقلقا بشأني، فقد أصر المدرب جهاد على ذهابي معه..

لم يكد علاء يتم عبارته، حتى هتف حسام بنشوة:

- الحمد لله أنه استطاع إقناعك..

***

وقف علاء أمام باب المدرسة يودع صديقيه، قبل أن يصعدا إلى العربة التي جاءت لاصطحابهما نحو مجمع العربات الرئيس، فشد طلال على يده:

- اعتن بنفسك جيدا يا صديقي، ولا تدع الأفكار السوداء تغزو رأسك، فالطريق ما تزال طويلة، وهي بحاجة إلى ذهن صاف، فاستعن بالله ولا تتهور..

وصافحه حسام بحرارة:

- ستمر الأيام سريعة؛ فلا تستعجل عليها، واستمتع بوقتك.. طبعا بما يرضي الله سبحانه وتعالى..

ابتسم علاء:

- اطمئن من هذه الناحية فالله خير حافظا، ثم إنني سأكون تحت مراقبة المدرب جهاد ولا مجال للمراوغة..

ضحك حسام قائلا:

- أعرف هذا، ولكن الاحتياط واجب، والذكرى تنفع المؤمنين..

فقال طلال:

- كما قال حسام لا تستعجل، فالوقت يتسارع بطبيعته ليأخذ من أعمارنا.. فاحرص على ما ينفعك، ولا تنسَنا من صالح الدعاء..

ابتسم حسام بمرح:

- وهل تظن يا طلال؛ أن علاء سيذكرنا وهو برفقة المدرب جهاد؟

وافقه طلال مبتسما:

- الحمد لله أن العطلة ليست طويلة؛ فلربما أدركناه قبل أن ينسى أسماءنا..

فرد علاء معاتبا:

- سامحكم الله يا أصدقائي، ليس لهذه الدرجة!

فقال حسام وهو يشد على يده مرة أخرى:

- كنا نمزح فقط كما تعرف.. والآن نستودعك الله دينك وأماناتك وخواتيم أعمالك..

وقبل أن تنطلق العربة، سمعوا أصواتا تناديهم، فطلب طلال من السائق الانتظار قليلا موضحا له بأدب:

- أرجو أن تعذرنا يا عم، ولكـ..

فقاطعه السائق مبتسما:

- لا داعي للاعذار فأنا رهن إشارتكم..

وغمزه قائلا:

- أتذكرُ السائق الذي أوصلكم لحفل زفافٍ قبل شهر تقريبا؟ إنه أخي وقد أوصاني بكم خيرا، بعد أن علم بوجهتي إليكم.. انكم تماما كما وصفكم من الذوق والأدب، ما شاء الله..

فتبادل حسام وطلال نظرات ذات معنى، وهم يذكرون كلام المعلم مازن في ذلك الوقت، وهو يردد على مسامعهم، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ..﴾، و﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾..

فلم يملك حسام- الذي شعر بامتنان لذلك الموقف، الذي سبب له الاحراج سابقا- إلا أن يقول وهو ينزل من العربة:

- جزاكم الله خيرا لحسن ظنكم بنا، وان شاء الله لن نتأخر..

كان أصيل الأسرع وصولا بين الجميع، فاندفع نحو طلال يعانقه حتى كاد أن يوقعه أرضا وهو يقول بمرح:

- كيف تجرؤون على الذهاب دون أن أسلم عليكم!!!

ثم عانق حسام بحرارة:

- أهذا جزائي منك!!

فقال طلال- وهو يستعيد توازنه:

- ولكننا سلمنا عليكم بعد صلاة الظهر وأخبرناكم....

فقاطعه حسّان:

- هل تعتقد أن سلاما عابرا كهذا يكفي لعطلة كاملة!!

فابتسم حسام ممازحا وهو يتحسس رقبته:

- لم نتوقع أن تكون مكانتنا عندكم بهذا الحجم.. كدتَ تخنقني..

فشده أصيل من أذنه:

- وتجرؤ على قولها!!

فأمسك حسام إذنه متأوها:

- وما ذنبي أن تعاملني كما يعاملك أخوك الكبير، وأنا في مثل عمرك!!

فضحك الأصدقاء، وانطلقت العربة بطلال وحسام بعد أن تصافح الجميع وهم يتمنون لبعضهم أجمل الأوقات، حتى إذا ما ابتعدت بهما العربة، التفت ياسر نحو علاء، الذي كان لا يزال يحدق بالعربة وهي تتوارى عن الانظار، قائلا:

- كان بودي أن نقضي العطلة معا وتأتي معنا إلى القرية يا علاء، لولا أن المدرب جهاد أخبر أبي بأنه سيصطحبك معه..

وتابع بلهجة لا تخلو من حسرة:

- قدر الله وما شاء فعل، كنت سأعرفك على جدي وجدتي هناك، كما أن أجواء قريتنا هادئة وجميلة، وستعجبك بالتأكيد، ولكن لا بأس؛ فوديع سيكون رسولاً بيننا إن شاء الله، وتحت تصرفك بطبيعة الحال..

فقال علاء:

- جزاك الله خيرا يا ياسر..

وقال زيد:

- والشيء نفسه حدث مع أبي، فقد أقنعه المدرب جهاد بأنه يريدك أن تكون معه..

فأضاف معاذ:

- ولن أكون مبالغا إن قلت لك يا علاء، بأن والدي أيضا كان يود استضافتك في منزلنا، أقول هذا فقط لتعرف كم أنت عزيز علينا، فكل بيوتنا هي بيتك..

فقال أصيل:

- بالطبع عندما عرفت ذلك، لم يكن من حقي الاعتراض؛ لأنني كنت سأصر على أن تأتي معي أنا..

فعلق حسان باسما:

- هذه رحمة من الله بك يا علاء، وإلا لوجدت نفسك متورطا بالعناية بالصغار..

لم يجد علاء العبارات المناسبة التي يرد بها على كرم أصدقائه، وقد ترقرقت عيناه بالدموع تأثرا:

- لا أعرف كيف أشكركم يا أصدقائي، فجزاكم الله عني خير الجزاء..

***

لم ينس علاء الذهاب لرؤية صديقه عدنان الذي قال له:

- هكذا إذن.. ستذهب مع المدرب جهاد، ربما هذا أفضل لك، رغم أنني وددت أن تأتي عندنا، فقد رحب والداي بالفكرة كثيرا وهما في شوق لرؤيتك..

فابتسم علاء شاكرا:

- جزاكم الله خيرا، وبالمناسبة هل تقول أن والدك عاد من البحر؟

فأومأ عدنان برأسه:

- أجل، لكنه سيعود إليه مرة أخرى في القريب العاجل إن شاء الله..

فقال له علاء مستدركا بسرعة خشية أن ينسى:

- لقد تذكرت شيئا هاما، ما رأيك يا عدنان أن تأخذ كتبي في العطلة لتقرأ فيها، فلن يكون هناك عمل كثير يشغلك، ما رأيك؟

فأجابه عدنان:

- فكرة جيدة سأرى إن كان بإمكاني تنظيم وقتي، فعملي في رعاية الخيول لن يتوقف في العطلة كما تتصور، وإن كانت ساعات العمل أقل..

ففتح علاء عينيه بدهشة:

- حقا!!

فقال له عدنان مطمئنا:

- ولكن هذا أفضل لي بالطبع، فقد كنت سأبحث عن عمل آخر للحصول على المال من أجل عائلتي..

ثم ابتسم مستطردا:

- لا تشغل نفسك بنا يا صديقي؛ فلكل منا همومه ومشاكله، أليس كذلك؟

فابتسم علاء وقد اقتنع بكلامه:

- كلامك صحيح، وكان الله في عوننا جميعا..

فأضاف عدنان مؤكدا:

- ولكنني سأحاول بذل جهدي، فالعلم سلاح لا يستهان به.. وجزاك الله خيرا على هذه الفكرة الرائعة..

***

لم يكد المدرب جهاد يعلن عن وصوله إلى منزله، حتى فوجئ علاء بطفلين صغيرين يندفعان نحوه من الباب، وهما يهتفان باسمه، ويتقافزان حوله بمرح وهتاف لا ينقطع، ففتح لهما ذراعيه، وراح يحدق في معلمه بدهشة، إذ أنها المرة الأولى التي يراهم فيها، فمن أين يعرفانه!! فابتسم المدرب جهاد:

- إنهما ينتظرانك بفارغ الصبر يا علاء، أرأيت كم كنت ستخيب آمالهما لو رفضت المجيئ معي!!

أما الصغيران فلم يتركا له الفرصة للرد أو التفكير، إذ بادره أكبرهما بقوله:

- أنا همام وهذا أخي مهند..

لكن مهند جذب علاء من كمه قائلا:

- أنا سأعرفك بنفسي وحدي، اسمي مهند وأنا أكبر من آمنة التي ما تزال تحبو..

ثم استدرك بسرعة، وكأنه خشي أن يفوته شيء:

- سنلعب ونذهب في نزهات كثيرة، أليس كذلك يا علاء؟

فأكد همام:

- وسنقوم بمغامرات كثيرة أيضا، فأبي لا يسمح لنا بذلك، أما إن أصبح لدينا أخ كبير مثلك يا علاء، فلا شك أنه سيوافق..

فتبسم علاء ضاحكا:

- إن شاء الله، سنستمتع بأوقاتنا فلا تستعجلوا..

ثم جاءت آمنة، وهي تحبو نحوهم فقال مهند:

- إنها هي الأخرى تحب القيام بالمغامرات، لكننا لن نأخذها معنا فمغامراتنا خطرة جدا، ولن تناسبها..

فأكد همام أقواله:

- لقد آن الأوان كي نثبت لأبي أننا أصبحنا رجالا أشداء نتحمل المسؤولية..

أما السيدة حنان، فقد رحبت بعلاء أيما ترحيب وقادته إلى إحدى الغرف:

- أرجو أن تعجبك غرفتك المتواضعة يا بني، إذ لم يتسن لي الوقت لإعدادها بشكل أفضل..

فقال علاء وهو يبدي إعجابه الشديد بها:

- إنها رائعة يا خالتي جزاك الله خيرا، ولا داعي لأن تتعبي نفسك معي أكثر..

فابتسمت حنان بحنانها البالغ:

- إذن هيا يا بني رتب أغراضك فيها، وسأساعدك في ذلك، فهذا عمل سهل بالنسبة لي، ولن يتعبني إطلاقا..

فابتسم علاء شاكرا:

- جزاك الله خيرا يا خالتي، أستطيع ترتيب أشيائي بنفسي فلا تشغلي نفسك بي، ويكفيك ما تعانينه من مسؤولية أولادك الصغار..

لم يكد علاء يتم عبارته، حتى فوجئ بصوت همام العاتب:

- أنا لست صغيرا!! أما إذا كنت تعني مهند وآمنة فهذا شئ آخر..

لكن مهند أسرع يقول:

- ومن قال لك أنني صغير! إنه يعني آمنة وحدها بالطبع..

فرد عليه همام بقوله:

- ولكنه قال أولادك! وهذا جمع يقصد به أكثر من واحد!

فناكفه مهند معترضا:

- إذا كان هذا جمع؛ فهل نسيت ما قاله لنا أبي عن الجمع عندما كنا نلعب بالعصي كما علمنا إياها مازن ابن خالتي عند البحيرة، ثم جاءت بطتان فقلت لأبي

لقد جاءت جماعة البط، فقال لك أبي إن أقل الجماعة ثلاثة، وهذا يعني أنك صغير معنا في الجمع...

لم تتمالك السيدة حنان نفسها أكثر فخرجت ضاحكة وهي تخاطب علاء:

- حسنا يا علاء، سأترك لك الغرفة بمن فيها.. فافعلوا ما تريدون ولن أتدخل بينكم بعد اليوم..

ثم غمزت له بعينها:

- كان الله في عونك..

فابتسم علاء مطمئنا:

- لا تقلقي يا خالتي فإنني سعيد بهما، وبإذن الله سنكون عند حسن ظنك..

أخذ مهند وهمام يلحّان على علاء بشدة؛ ليقبل مساعدتهما في ترتيب أشيائه، لكنه ابتسم بقوله:

- تستطيعان مراقبتي، والحديث عما تريدانه، فسأستمع لكما برحابة صدر..

فقال همام باهتمام واضح، بينما كان علاء يخفي صندوق رسائل والديه في الرف العلوي من الخزانة:

- لقد حدثنا أبي كثيرا عن مدرسة النصر، إنها رائعة جدا وأتمنى أن أذهب إليها بسرعة..

فأضاف علاء:

- إن شاء الله، عندما تكبر ستلتحق بها بالتأكيد..

أما مهند، فقد أخذ يتأمل السيف الصغير الذي وضعه علاء على طاولة صغيرة قربه:

- يا له من سيف جميل ما شاء الله، من أين حصلت عليه يا علاء؟

أجابه علاء، وهو منهمك في ترتيب أغراضه:

- إنه من صديق يكبركم بقليل اسمه يمان قابلته أثناء رحلتي الطويلة إلى مدرسة النصر..

فهتف همام بحماسة :

- متى ستحدثنا عن رحلتك يا علاء، لقد أخبرنا أبي عن شجاعتك وقوتك في تحدي الصعاب، وإنني أتمنى أن أصبح مثلك عندما أكبر، عندها سيفرح أبي كثيرا ويفتخر بي مثلك..

ورغم تلك الكلمات البريئة التي اندفعت من فم طفل صغير، إلا ان أثرها كان بالغا في نفس علاء، الذي ردد في نفسه:

- كم أتمنى أن أكون عند حسن ظنك يا مدربي الغالي..

ولم ينتبه علاء إلا على مهند يهمس في أذنه:

- أتسمح لي بالنوم معك في الغرفة يا علاء..

فأجابه علاء بابتسامة ودودة:

- بالطبع، أهلا وسهلا بك أنت وهمام..

فتدخل همام الذي كان مشغولا بالسيف الصغير، قائلا :

- عن ماذا تتحدثان؟ لقد سمعت اسمي!!

فأسرع مهند يقول:

- لا تخبره يا علاء، فهذا سر بيننا..

ومع إلحاح همام الشديد، ضحك علاء قائلا:

- ليس هناك سر، أليس كذلك يا مهند؟ إنه يمزح فقط وكل ما في الأمر أنني لن أمانع في نومكما عندي إن رغبتما في ذلك..

فهتف همام بسعادة:

- إذن سنسهر لوقت متأخر في الليل، نقضيه بالحديث الشائق..

فأجابه علاء بابتسامة محبة:

- كلا يا همام يجب أن ننام مبكرين؛ حتى نستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر إن شاء الله..

وبسرعة أخلد الأخوان إلى النوم، ووقف علاء أمام نافذة الغرفة يتأمل مرحلة جديدة قطعها من دربه الطويل، مستذكرا أيامه الخوالي منذ أن خرج من مدينته وحتى لحظته الآنية، فمرت بخاطره مثل سيل جار من الذكريات، لم يستطع ايقافه..

الجد سعيد الذي فتح له آفاقا في الحكمة وهو يرعى معه الغنم، صاحب الفضل عليه بعد الله في نجاته بعد أن عثر عليه ورعاه في منزله في قرية زهر الرمال، والذي كان السبب الأول في التحاقه بمدرسة النصر للفروسية..

المعلم عامر وأولاده الذين قضى برفقتهم أوقاتا لا تنسى، وقد تعاهدوا على إصلاح ما فسد من حال الأمة..

ريحانة.. تلك الفتاة التي رأى من خلالها اسلوب فكر غريب لم يألفه من قبل، بل لم يكن يعرف عنه شيئا..

المشرف عاطف، أول من استقبله في المدرسة وأحاطه بعطفه..

المدير شامل ذو الشخصية المهيبة الشامخة..

عدنان أول صديق تعرف اليه في المدرسة، ومن أكثر المقربين إلى قلبه، والذي عرّفه إلى عالم الخيول..

الخيول.. تلك الحيوانات الرائعة التي لم يخطر بباله يوما أنه سيحتك بها ليتعرف إلى عالمها المثير القريب من عالم البشر، وهو يقضي أيامه الأولى في المدرسة معها.. كم يبدو ذلك بعيدا جدا الآن..

الاختبار الذي اجتازه بتوفيق من الله، والذي عرفه بعماد.. ذلك الشاب المرح الذي كان له أثر في نفسه..

نجيب ذو الشخصية المندفعة والمتقلبة الذي يدعو له أن تحل مشاكله مع أمه، وأخوه نبيل.. الطيب النبيل الذي تأثر من بره بأمه.. هل كان يتخيل عندما رآهما أول مرة، أنه سيلتقيهما مجددا في العيد و يقضي معهم أسعد أوقاته في مزرعة الخيول الكبيرة وهم يلعبون لعبة (المواجهة)!!

وتلك الطفلة الظريفة ليلى ذات العصبة الغريبة!! أتراها تحمل سرا ما، أم أنها مجرد أوهام تتخيلها العقول الباحثة عن الإثارة والغموض دون أن ينطوي تحتها شيء ذو قيمة!!

أيام جميلة قضاها بصحبة رفاقه، ومعلميه ومدربيه لا يمكنه أن ينساها، وقد ترك كل واحد منهم أثرا في نفسه، ولاحت أمامه صورهم يستعرضها واحدا تلو الآخر..

طلال.. أمهر راكب خيل في المدرسة ذو الشخصية الهادئة القوية المتميزة والمعرفة الواسعة، صاحب المركز الأول، وأكثرهم حرصا على استثمار وقته بكل مفيد، والذي لن ينسَ مساعدته له في الدروس عندما كاد أن يفقد الأمل..

حسام.. الصديق المقرب لقلوب الجميع، و الذي يشعر معه بالراحة التامة، صاحب القلب الكبير والبساطة العفوية وخفة الظل، هاوي مراقبة النجوم وأمهر رامي قوس بالمدرسة، الكاتب الشاعر الذي كان لأفكاره دور كبير في نجاحه للترشح لمرتبة مقدام، بعد تجربتهم المثيرة في عالم المسرح..

ياسر.. الرسام الماهر، صاحب الإحساس المرهف، والخجول الوديع الهاديء، صديق الحيوانات الذي لن ينسَ معروفه أبدا وقد كان زاجله وديع سببا في مراسلته والديه، بعد غياب طويل..

معاذ.. أقرؤهم للقرآن وإمامهم في الصلاة إن أدوها في غير المسجد، صاحب طعنة الرمح المميزة، والخبرة الطبية الوافية التي اكتسبها من والده الطبيب..

زيد.. الابن البار الحريص على رضا والديه بشكل واضح،، ذو الشخصية الحازمة والبنية القوية، أسرعهم غضبا وأكثرهم ورعا.. والذي صاحب معاذ في حادثة ابنة التاجر فاخر شفيع..

أصيل.. الفتى المرح اللعوب المشاكس، أكثرهم حركة وأسرعهم جريا، أينما كان.. كان المرح معه، كم كانت سعادته كبيرة وهو يخوض معه ومع أبناء أخوته أول تجربة تسحير في حياته لم تخطر له ببال!

حسان.. أمهرهم وأسرعهم سباحة وأسرعهم جوعا.. والذي أثار جدلا في درس المعلم أمين، ففتح لهم آفاقا في طريقة التعامل مع الاناث.. حتى تبلورت أفكاره حول هذا الموضوع من جديد.. فحسن التعامل مع الأمهات والفتيات؛ لا يقل أهمية عن اتقانه مهارات الفروسية المختلفة، بل إنه قد لا يكون فارسا مسلما حقيقيا، إن لم يحسن الرفق بالقوارير!!

قاسم رجب.. ذلك الفتى الغامض القادم من بلاد الأوروجال الأعجمية، الذي لا يزال يشعر بأنه يخفي سرا بالغ الأهمية وإن لم يدر ما هو..

نضال وزياد الثنائي المتناقض! من طلبة المستوى الخامس الذين رافقهم في تدريباته الأولى، في مرتبة همام.. كم قضى معهم أوقاتا جميلة..

والتقط علاء نفسا عميقا مستشعرا عظيم نعم الله عليه، ان وهبه أصدقاء مثلهم.. وهم الذين وقفوا إلى جانبه في تدريباته ودروسه الأولى.. و أجرى معهم التجارب العلمية المثيرة.. لقد كانوا متعاونين جدا كالأخوة تماما أو أكثر، وهيهات أن ينسَ تلك الأيام التي قضوها بين الدراسة والعمل لكي يعينوه على تعويض المال المسروق من قِبَل عصابة فاتك..

أما الشيخ عبد الرحيم إمام وخطيب جامع الفتح الذي كان له ولأصدقائه بمثابة الأب الحاني والموجه المخلص، فقد ساهمت دروسه ومواعظه في صقل شخصيته بشكل كبير..

ولم يكن لينسى فضل معلميه عليه، والذين كان لهم فضل كبير في اجتيازه المستوى السادس بنجاح..

المعلم أمين.. أمير المعلمين ومعلم دروس الدين، صاحب الدعابة الحاضرة، والحكمة الوافرة، والذي ينتظرون دروسه بفارغ الصبر، حيث يكونون معه على سجاياهم دون أي تكلف، بعد أن أزال الحواجز بينهم..

المعلم رائد.. التي لا تزال دروس الحوادث والايام معه تعرض بأشكال غير مألوفة، ولا يزال يذكر الدرس الأول له عندما أبهرته التحليلات المثيرة للجدل حول مملكة شيلاس الغابرة..

المعلم برهان.. الذي يغوص معهم في أعماق العلوم، متيحا لهم الفرصة ليخوضو التجارب العلمية بما يوسع مداركهم ويكسبهم القدرة على البحث والاستكشاف والملاحظة ليتوصلوا بأنفسهم للنتائج المبهرة..

المعلم نبراس.. الحازم الذي سر بمديحه الذي لا يزال يذكره عندما قدم أول واجب له في علم الحساب –أحب العلوم إليه– والذي لن ينسى استضافته له في منزله مع ابنه وصديقه ياسر..

المعلم شاهر.. الذي أعاد توجيه قراءتهم في آداب لغتي رامان وسومار ليعطيهم القدرة على التمييز بين النافع والضار، مرسخا في عقولهم مبدأ (الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذ بها)..

المعلم عاصم.. الذي كان سببا في تفجير قريحته ليكتب عن جراح أمته، والذي كان للغة العرب معه متعة خاصة، وكم سعد بمشاركته مع رفاقه ضمن فرسان الخيول في حفل زفافه الذي لا يذكر أنه رأى حفل زفاف بهيج مثله قط..

وأخذ علاء يتأمل التطور الكبير الذي طرأ على مهاراته في ركوب الخيل، بل وتقديم العروض، بما يدل على مهارة كبيرة في التحكم بالحصان، فحمد الله على توفيقه له، داعيا لمدربيه الذين كانوا السبب فيما وصل إليه من مهارةٍ جعلت منه مقداما..

المدرب ثابت.. مدرب الركوب الصارم الذي أساء فهم قسوته عليه بداية، ليكتشف فيما بعد كم كان مخطئا في حقه..

المدرب سعد.. مدرب الرماية الذي كان لكلماته التشجيعية في أولى محاولاته أثرا في استرداد ثقته بنفسه..

المدرب عمر.. مدرب الصراع والمشابكة الذي لم يزل معجبا بقوته..

المدرب علي.. مدرب المطاعنة بالرماح الحكيم، والذي يمثل مع المدرب عمر ثنائيا قتاليا، يرى فيهما مستقبل رفيقيه معاذ وزيد.

المدرب عادل.. حكم الثلاثية الجاد، مدربهم في دروس تقويم الأبدان بما فيها السباحة، والتي لن ينسَ أول محاولة له فيها بعد أن يلفظ أنفاسه على إثرها؛ بسبب تهوره..

المدرب جهاد.. مدرب المبارزة الذي عزز ثقته بقدراته، وفجر طاقاته، و احتواه خلال جميع مراحل تدريبه، حتى لم يعد يعرف أكان ذلك بسبب موهبته وتميزه في استخدام السيف والمبارزة، أم أن تميزه جاء نتيجة لاهتمام مدربه به!! محال أن ينسى أول مبارزة له معه، مهما خاض بعدها من مبارزات..

أيام مضت تعلم فيها الكثير، وهاهو الان يقف في منزل مدربه العزيز جهاد أمير المدربين، الذي طالما اتخذه قدوة له..

إنها مسيرة حياة تعد طويلة في قياس ما مر من عمره القصير، لخصها في تقريره عن الصبر الذي حاز على إعجاب المعلم أمين، أجل.. لكم كان الصبر هاما لتحقيق النجاح.. ودوى بيت الشعر الذي درسه في أذنه: "فإن أخفقت لا تيأس.. وصبرا كي تشاهدها"، أما الصلاة وصية والده التي لم يزل يضعها نصب عينيه، فقد كانت عونه في الشدائد والصعاب، فلطالما ردد والده على مسامعه مرارا " وجعلت قرة عيني في الصلاة"، ولم تفتأ أمه توصيه بصنع المعروف والدعاء، الذي كان سلاحه الفعال..

وقفزت إلى ذهنه تلك العبارة التي سمعها في زهر الرمال ذات يوم:

"حقا.. بصلاح الآباء يحفظ الأبناء، فمن يعرف والدي هذا الفتى لا يعجب من حفظ الله له"..

عندها رددت كل ذرة في جسده: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ .. ﴾

ودمعت عيناه تأثرا، وهو يذكر ظهور صالح الذي اختفى دون أن يقول له شيئا، بعد أن شم فيه رائحة والديه! و لم يزل من وقتها يقنع نفسه؛ أنه كان في مهمة عاجلة قد يكون لها علاقة بالوثيقة، ولا شك أنه السبب وراء ما سمعه من أخبار حول اجتماع حكام المناطق وبدء تحرك الجيوش.. ترى هل سيتحقق الحلم الكبير على أيدي هذه الجيوش!! قد تطول المعركة أو تقصر، لكن هذا لن يعيقه عن تحقيق هدفه والعمل من أجله، فقد التحق بهذه المدرسة ولا بد أن يكمل مسيرته فيها بإذن الله..

وتذكر رحلة الأمير في رواية الطريق إلى الشمس، التي حدثه حسام عنها، فالتقط نفسا عميقا ليملأ رئتيه من نسيم الليل متفكرا..

ما أشبه رحلتي برحلته، غير أنه خرج بحثا عن الشمس؛ أما أنا.. فقد خرجت من شمس على أمل العودة لها فارسا صنديدا وقائدا فاتحا.. فيارب أعني على تحقيق حلمي، واجعلني قرة عين لوالديّ، ووفقني لما تحب وترضى..

***

نهاية الجزء الأول من مدرسة الفروسية

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾

والحمد لله رب العالمين

وصلّ اللهم على سيدنا محمد و على آله وصحبه أجمعين

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

مسابقة مدرسة الفروسية للرسم

أولا: شروط المسابقة:

١- من الممكن أن تكون المشاركة فردية أو ضمن فريق عمل متكامل.

٢- أن تتم قراءة الرواية جيدا قبل الشروع في الرسم؛ للإلمام بفكرة جيدة عن الشخصية او المشهد المراد رسمه.

٣- يمكنك الحصول على هذه الاستمارة من المكتبات أو تحميلها من الانترنت، ولا يشترط شراء الرواية للمشاركة في المسابقة إذ يمكنك استعارتها من رفاقك.

٤- تحديد الفرع الذي يود المتسابق المشاركة فيه (بالنسبة للمستوى الثاني)، ويحق لكل متسابق المشاركة بجميع الفروع على حسب رغبته (تفصيل الفروع موجود في البند التالي)، وعند المشاركة ضمن فريق يفضل أن ترسل أعمال الفريق كله في ملف واحد، مع التفصيل في طبيعة مشاركة كل فرد ضمن هذا الفريق.

٥- يشترط أن تكون الرسومات جميعها مبتكرة وغير منقولة، وأن يرسل المتسابق صورا مرفقة توضح خطوات عمله في الرسمات المشاركة.

٦- ترسل المشاركات معنونة بـ" مسابقة مدرسة الفروسية للرسم" إلى البريد الالكتروني:

madrasset_alfurussiah@yahoo.com

للتواصل والاستفسار يمكنكم مراسلتنا أيضا على:

فيس بوك/ تويتر: مدرسة الفروسية

٧- سيتم اختيار الفريق الفائز/ الافراد الفائزين، للانضمام رسميا لفريق عمل (مدرسة الفروسية)، إن شاء الله..

ثانيا: مستويات المشاركة

ا- المستوى الأول: (يفضل أن تكون المشاركة في هذا المستوى لفريق متكامل)

تقديم مجموعة متكاملة من الرسوم للقصة تشمل مشاهدها وشخصياتها وما يتطلب ذلك من وضع تصاميم للأزياء فيها وشعار المدرسة، الخ (يرجى قراءة التفاصيل في البند أدناه)

ب- المستوى الثاني:

اختيار فرع واحد أو أكثر من فروع الرسم الآتية:

١- شخصيات (رئيسية – فرعية):

يشترط أن تكون رسمات الشخصيات مبتكرة ومتماشية في ملامحها العامة مع طابع الرواية وتظهر فيها روح الشخصية وصفاتها كما هو مذكور ، و في هذه الحالة يرجى ذكر اسم الشخصية المراد رسمها، ورسم عشر رسمات لهذه الشخصية على الأقل في مواضع مختلفة، بحيث تشمل رسمات بعمامة ومن دون عمامة للذكور، وبحجاب ومن دونه للإناث.

(من الممكن استخدام رسم الشخصية لغرض آخر إذا ما قدم أكثر من مشارك رسومات للشخصية نفسها)

استمارة مسابقة مدرسة الفروسية للرسم

الاسم:

العمر (تاريخ الميلاد):

السنة الدراسية و التخصص / أو الوظيفة:

طبيعة المشاركة (فردية – ضمن فريق):

اسم الفريق (لمن يشارك ضمن فريق) :

الهدف من المشاركة:

نوعية المشاركة: (بعد قراءة بند مستويات المشاركة، ضع علامة (   ) عند الخيار المناسب)

ا- المستوى الأول فردي

ب- المستوى الأول ضمن فريق

جـ- المستوى الثاني/ شخصيات: اسم الشخصية:.................

د- المستوى الثاني/ تصميم أزياء

هـ- المستوى الثاني/ مشاهد

و- المستوى الثاني/ خيول: اسم الحصان:.................